مكتبة نيافة الأنبا غريغوريوس على الانترنت

الكتاب المقدس (تفسير إنجيل يوحنا)

للمتنيح الأنبا غريغوريوس

أسقف عام

للدراسات العليا اللاهوتية والثقافة القبطية

والبحث العلمي

جمعية
الأنبــا غريغوريــوس
أسقف البحث العلمي

موسوعة الأنبا غريغوريوس

١٦

الكتاب المقدس «الجزء الخامس»

تفسير إنجيل القديس يوحنا

للمتنيح الأنبا غريغوريوس
أسقف عام
للدراسات العليا اللاهوتية والثقافة القبطية
والبحث العلمي

الكتاب : ١٦ ـ فى الكتاب المقدس ـ الجزء الخامس ـ تفسير إنجيل القديس يوحنا .
المؤلف : المتنيح الأنبا غريغوريوس .
إعـداد : الإكليريكى منير عطية .
الناشـــر: جمعية الأنبا غريغوريوس أسقف البحث العلمى .
٢١٦ ش رمسيس بالعباسية ت: ٦٧٤٩٢٥٠ ـ ٤٨٣٣٣٦٣ .
الموقع على الأنترنت : www.Anba-Gregorios.com.
الجمع والغلاف: شركة فاين للطباعة والتوريدات ت : ٤٨٢٠٩٠٣
رقم الإيداع بدار الكتب: ٢٠٠٦/١٥٢٤٤ .
حقوق الطبع محفوظة لجمعية الأنبا غريغوريوس أسقف البحث العلمى المشهرة برقم ٥٩٤٦ لسنة ٢٠٠٥م القاهرة .

مقدمة

هذا هو الجزء السادس عشر من موسوعة الأنبا غريغوريوس، وقد سبقه خمسة عشر جزءاً، كان الجزء الأول في اللاهوت المقارن، والثاني في اللاهوت الأدبي، والثالث في الرهبنة، والرابع فى الدراسات الفلسفية، والخامس فى اللاهوت الطقسي، والسادس في لاهوت السيد المسيح، والسابع فى سرّي التجسد والفداء، والثامن فى الجزء الأول من أسرار الكنيسة السبعة ويشمل المعمودية والميرون والقربان والتوبة وسر مسحة المرضى، والتاسع فى سرّي الزيجة والكهنوت، والعاشر في الكنيسة الأرثوذكسية وعقائدها، والحادى عشر فى الحياة بعد الموت والمجئ الثاني والثاني عشر في الكتاب المقدس وطرق دراسته، والثالث عشر مقالات وإجابات على أسئلة، والرابع عشر فى تفسير إنجيلى متى ومرقس، والخامس عشر في تفسير إنجيل القديس لوقا.

أما هذا الجزء فهو الجزء السادس عشر فى تفسير إنجيل القديس يوحنا.

هذه هى الثمرة السادسة عشر وهي من نتاج العالِم والمُعلم الحبر الجليل المتنيح الأنبا غريغوريوس، الذي قال عنه قداسة البابا شنوده الثالث.

«حياة أنبا غريغوريوس تتلخص في كلمتين «التكريس والعلم»... وكان العلم يشغل كل وقته.. بهذا التكريس للخدمة، وبهذا العلم كان باستمرار معتكفاً في مسكنه، يقابله الناس وهو مشغول بين الكُتب والكتابة..

«كان الأنبا غريغوريوس يتميز بالشمولية في العلم.. كان فى أساتذة الإكليريكية من هو متخصص بالكتاب المقدس، ومن هو مختص بالعقيدة، ومن هو مختص بالقانون. أو فى الطقس إلى آخره..، ولكنه كان يشمل كل هذه العلوم معاً.. وفى الواقع كان معلماً قديراً.. له معلومات كثيرة.. هو موسوعة من المعلومات.. كان مثلاً من الأمثلة التى لا تتكرر كثيراً فى العالم الكبير..».

وستفرد أجزاء من هذه الموسوعة لتشمل كل ما كتبه في سير شخصيات من الكتاب المقدس ومن القديسين، وستكون هناك أجزاء أخرى للموضوعات الكنسية والروحية والموضوعات العامة، بعد تبويبها، بحيث تشمل أجزاء هذه الموسوعة كل كتابات المتنيح الأنبا غريغوريوس التى لم تنشر أو نفذت بعد نشرها.

والرب وحده قادر أن يكمل مشروعنا هذا ويكلله بالنجاح، بصلوات صاحب الغبطة والقداسة البابا المعظم الأنبا شنوده الثالث، أدام لنا الرب حياة قداسته، ومتعنا الرب برئاسته للكنيسة ولنا أباً وراعياً، وحفظ الله قداسته بكل سلامة متمتعاً بكامل الصحة والعافية، ونفعنا الرب ببركة صلوات غبطته.

الإكليريكي

منير عطية

الإهداء

إلى القديس والفيلسوف والعالِم
الأب بنتينوس الأسكندرى
أستاذ ورئيس مدرسة الأسكندرية اللاهوتية

بين يدّى الله مخلّصنا ومخلّص الناس جميعاً، وإحياء لذكراك أيها القديس والعالِم والفيلسوف، نضع، بكل اتضاع واحترام هذه السلسلة من المحاضرات والمواعظ تعبداً لله، وخدمة لإسمه القدوس، فى جيلنا وللأجيال الآتية.

أنت الرجل الأمين، والمعلّم الفذ، الذى أخلص لرسالته، وعاش للإكليريكية والعلم وفسرّ الكتاب المقدس كله، من أوله إلى آخره تفسيراً شاملاً، روحياً وعقائدياً وتعليمياً، حتى عُرفت بين آباء الكنيسة جميعاً فى العصور الأولى المسيحية أنك «مفسّر كلمة الله». ولقد وصفك تلميذك العظيم أكليمنضس بأنك «موعب من روح الكتاب المقدس».

ومع بالغ الأسف لم يبق من كتاباتك الثمينة شىء، إلا شذرات قليلة وردت فى كتابات بعض الآباء من بعدك ممن أشاروا إليك، واقتبسوا منك. ولابد أنه قد احترقت جميع كتبك فى الحريق الهائل الذى دمر مكتبة الأسكندرية العريقة، وأتلف تراثها الأدبى والروحى.

لكن تلميذك النابغة الفيلسوف القديس أكليمنضس الأسكندرى كان معجباً بك كل الإعجاب ووصفك بأنك «من أعظم الأساتذة وأكملهم» فكشف لنا عن شخصيتك، وأبان أنك لم تكن معلّماً كأى معلّم، بل كان تعليمك مصاحباً كمال سيرتك، ونابعاً من فضيلتك. ولقد وصف صدق تعليمك وأمانته ودقته، بأن قال بأن قولك دائماً كان «لسان الفعل فى أقواله وكتاباته»، وهو تعبير يدل على مبلغ احترامه لتعليمك، وأنه فى كل ما قال وعلّم كان تابعاً لك، وأنه كان يجد فى أقوالك الختم الدامغ، والقول الفصل في كل ما علّم به وكتب. بل زاد قائلاً بأن مقابلته الأولى لك كانت آخر مقابلة لعدد كبير من المعلّمين فى زمانه لكنها كانت الأولى من حيث قوتها وعمق أثرها فى نفسه، وأنه كان يجد فيك دائماً راحة لأفكاره وجواباً شافياً لكل أسئلته.

ولئن برهن أكليمنضس بقوله هذا على وفائه لمعلّمه وإخلاصه التام للرجل الذى درس عليه، ووجد فيه إشباعاً لعقله وروحه.. بل لقد ألغى نفسه ونسب الفضل كله لمعلّمه.. إلا أنه فيما قال،

جعلتنا نقف على استقامة سيرتك وجمال فضيلتك وسعة علمك، وخصوبة فكرك، ورجاحة عقلك، وأصالة روحك، بل وعلى سلامة تعليمك وتفسيرك للكتب المقدسة.

يا معلِّم الإكليريكية الأولى، إننا نحييك ونحمد سيرتك ونُقرُّ بأننا - والكنيسة كلها - مدينون لك بالكثير..

إننا نترحَّم عليك. ونسألك أن تُعين الإكليريكيين وخُدَّام الكلمة، بصلواتك ونفحاتك، ليفسروا كلمة الحقّ بالاستقامة. فكلمة الله نور، ولكنَّ حامل النور يجب أن يقف ويمشي بحيث لا يحجب النور عن السالكين في طريق النور وبحيث لا يكون لشخصه شيء من الظل يعوق سبيل النور، أو ينقص من جماله وبهائه..

«ولا يوقَدُ سراج ثم يُوضع تحتَ مكيال، وإنَّما على منارة فيضيءُ لكل مَنْ في البيت» (متى ٥: ١٥).

غريغوريوس

إنجيل

ربنا يسوع المسيح

للقديس يوحنا

أ - القديس يوحنا الرسول الإنجيلى

اشتهر القديس يوحنا بين رسل المسيح وتلاميذه الإثنى عشر بأنه كان «التلميذ الذى كان يسوع يحبه» (١) «وهو ذلك الذى كان قد اتكأ على صدره فى أثناء العشاء»، والذى قال له: «يارب من هو الذى سيسلمك؟» (٢). وهو الذى عهد إليه المسيح له المجد - وهو على الصليب - برعاية أمه العذراء مريم. قال الإنجيل: «فلما رأى يسوع أمه، والتلميذ الذى كان يحبه واقفاً، قال لأمه «أيتها السيدة، هوذا ابنك»، ثم قال للتلميذ: «هى ذى أمك»، ومنذ تلك الساعة أخذها التلميذ إلى بيته» (٣). وقد أقامت العذراء مريم فى بيت يوحنا حوالى أربع عشرة سنة، ولم يغادر فلسطين من أجلها إلى يوم وفاتها وصعود جسدها إلى السماء.

يوحنا الحبيب

لهذا كله عُرف القديس يوحنا الرسول باسم «يوحنا الحبيب». ولابد أنه كانت فى يوحنا صفات وفضائل أحبه المسيح من أجلها:

١ - ولعل أول هذه الصفات وأبرزها أنه كان يحب المسيح له المجد محبة فائقة تميزت وبرزت على محبة سائر التلاميذ. وهو أمر عرفه عنه المسيح وهو فاحص القلوب والكلى (٤)، كما يتضح من إنجيله الذى اهتم فيه إهتماماً خاصاً بحديث رب المجد عن المحبة ووصيته فيها (٥).

وكذلك كتب عن المحبة فى رسائله الثلاث المعروفة بين الرسائل الجامعة، ووصف الله فيها بأن «الله محبة» (٦).

وقد شدد الرسول القديس يوحنا على المحبة بين الناس، وعدّها المحَك لمحبتنا لله، لكن هذه المحبة ليست كلاماً، أو عاطفة جوفاء. إن المحبة الحقيقية عمل صالح نحو الناس، جميع الناس.

---

(١) (يوحنا ١٣ : ٢٣) و (١٩ : ٢٦) و (٢٠ : ٢) و (٢١ : ٧، ٢٠).
(٢) (يوحنا ٢١ : ٢٠) و (١٣ : ٢٥).
(٣) (يوحنا ١٩ : ٢٦ و ٢٧).
(٤) (الرؤيا ٢ : ٢٣).
(٥) راجع خصوصاً (يوحنا ١٤ : ٢١ و ٢٣ و ٢٤ و ٢٨ و ٣١) و (يوحنا ١٥ : ١٠ و ١٢ و ١٣ و ١٤ و ١٥ و ١٧).
(٦) (١ . يوحنا ٤ : ٨).

«أيها الأحباء، فلنحب بعضنا بعضا، فإن المحبة هي من الله. وكل من يحب فهو مولود من الله، وعارف بالله. ومن لا يحب لم يعرف الله. لأن الله محبة... تلك هي المحبة... إننا لم نكن نحن الذين أحببنا الله، بل هو الذي أحبنا، وأرسل ابنه كفارة عن خطايانا. أيها الأحباء. إذا كان الله قد أحبنا هذا الحب، فعلينا نحن أيضاً أن يحب بعضنا بعضا. إن الله لم ينظر إليه أحد قط. ولكن إذا أحب بعضنا بعضاً أقام الله فينا وتمت محبته فينا. بهذا نعرف أننا نثبت فيه، وأنه يقيم فينا وأنه قد أعطانا من روحه... الله محبة... من ثبت في المحبة ثبت في الله، وأقام الله فيه... نحن نحبه لأنه هو أحبنا أولا. إن قال أحد: إني أحب الله وهو مبغض لأخيه كان كاذباً، لأن الذي لا يحب أخاه وهو يراه كيف يستطيع أن يحب الله وهو لا يراه. وإليكم الوصية التي أخذناها عنه: من أحب الله أحب أخاه أيضاً (١)».

«نحن نعلم أننا انتقلنا من الموت إلى الحياة لأننا نحب الإخوة. من لا يحب أخاه بقي في الموت. كل من أبغض أخاه فهو قاتل نفس. وأنتم تعلمون أن كل قاتل نفس ليس له حياة أبدية ثابتة فيه. بهذا قد عرفنا المحبة: أن ذاك قد بذل نفسه لأجلنا، فعلينا نحن أيضاً أن نبذل نفوسنا لأجل بعضنا بعضا. من كانت له المعيشة العالمية ورأى أخاه في فاقة فأغلق أحشاءه دونه فكيف تثبت محبة الله فيه. يا أولادي، لتكن محبتنا لا بالكلام أو باللسان، بل بالعمل والحق» (٢).

وجاء عن القديس يوحنا الحبيب في تاريخ الكنيسة أنه ظل يكرز بالمحبة دائماً. ولما بلغ سن الشيخوخة، وأمسى عاجزاً عن الوعظ الطويل، صار يقتصر في مواعظه على هذه العبارة: «يا أولادي: فلتحبوا بعضكم بعضاً». فلما ضجر المؤمنون من هذه الكلمات المتكررة قال لهم: «إن المحبة هي وصية الرب. فإذا أتممناها فقد برهنا على أننا تلاميذ الرب». قال السيد المسيح «بهذا يعرف الجميع أنكم تلاميذي إذا أحببتم بعضكم بعضاً» (٣).

ومما يذكر عن محبة القديس يوحنا لخلاص الخطاة ما رواه القديس إكليمنضس الإسكندري في كتابه «من هو الغني الذي يخلص» عن الرسول يوحنا أنه ترك شاباً حديث الإيمان في رعاية أحد أساقفة آسيا الصغرى، فتعهّده الأسقف بالوعظ والتعليم ثم عمده. وحدث بعد ذلك أن عاشر الشاب بعض أصدقاء السوء. فأمالوه عن طريق الفضيلة، وأخذ ينحدر في مهاوي الرذيلة إلى أن أمسى من قطاع الطرق، بل زعيماً لعصابة من اللصوص.. فلما عاد الرسول يوحنا سأل الأسقف

---

(١) (١ يوحنا ٤: ٧ - ٢١).

(٢) (١ يوحنا ٣: ١٤ - ١٨).

(٣) (يوحنا ١٣: ٣٥).

عن الشاب، فبكي الأسقف للحال التي صار إليها الشاب وتردى فيها. عندئذ طلب القديس يوحنا فرساً وأخذ معه دليلا مرشداً، حتى وصل إلى حيث يقيم الشاب علي أحد الجبال. وهناك رأى اللصوص القديس يوحنا فقبضوا عليه وجاءوا به إلى زعيمهم، وكان هو هذا الشاب الذى ضل سواء السبيل. فلما تنبه الشاب أنه أمام الرسول القديس يوحنا وجهاً لوجه لم يقو على الوقوف أمامه، فولى الأدبار هارباً من حضرته. أما الرسول القديس فقد استرد شبابه وشرع يجرى وراء الشاب وهو يقول: «ابني يا ابني، ما بالك تجرى هارباً من وجه أبيك وهو شيخ وأعزل ولا سلاح بيده ؟! ارحم نفسك، ووقّر شيخوختي.. ولا تخش ضرا. فما زال الرجاء متوفراً لخلاصك.. وأنا كفيلك عند المسيح.. وإني أبذل حياتي من أجل خلاصك، كما بذل يسوع المسيح حياته من أجلنا... قف في مكانك، وأيقن أن المسيح هو الذى أرسلني إليك... فلما سمع الشاب هذه الكلمات العاطفية المثيرة انهار أمام الرسول القديس، وانخرط في بكاء متواصل نادماً على ما وقع فيه من شر وضلال... فعانقه الرسول بحنان وطمأنه، وأعلن له قبول توبته، ورده إلى الكنيسة بعد أن منحه الحل من خطاياه (١).

ومع هذه المحبة العظيمة التي امتلأ بها قلب الرسول القديس يوحنا، نحو الله والناس، أصدقاء كانوا أو أعداء، فإنه كان شديداً على الهراطقة وأصحاب البدع والتعاليم الغريبة عن الكنيسة. وكان يعدهم أعداء للإيمان ومقاومين للمسيح. وكان يحذر المؤمنين منهم ومن تعاليمهم الهرطقية الضارة، وكان يدعو بحرارة إلى مقاطعتهم وإلى قطع الشركة المسيحية معهم، من هؤلاء الكيرنثيون والأبيونيون والنيقولاويون والغنوسيون وغيرهم.

قال في إحدى رسائله التي يتكلم فيها عن أعماق المحبة: «أيها الأولاد، ها هي ذي الساعة الأخيرة. وكما أنكم سمعتم أن المسيح الدجال سيأتي، يوجد الآن أضداد للمسيح كثيرون... منا خرجوا، ولكنهم لم يكونوا منا، لأنهم لو كانوا منا لظلوا معنا، ولكن ليتبين أنهم ليسوا كلهم منا» (٢). وهو يعني هنا الهراطقة الذين انفصلوا عن الكنيسة «منا خرجوا» لكنهم صاروا لا يعدّون منا لأنهم لو كانوا من رأينا وروحنا وتعليمنا لظلوا واستمروا معنا. وفي رسالته الثانية يقول «إذا جاءكم أحد لا يحمل هذا التعليم فلا تقبلوه في البيت، ولا تقولوا له: سلام! فإن من قال له: سلام، شاركه في أعماله الشريرة» (٣).

---

(١) انظر كتاب «من هو الغني الذى يخلص» للقديس أكليمنضوس الإسكندرى (٤٢: ١ ـ ١٥) ثم كتاب «تاريخ الكنيسة» ليوسابيوس القيصري ـ كتاب ٣ فصل ٢٣.

(٢) (١ ـ يوحنا ٢: ١٨ و ١٩). (٣) (٢ ـ يوحنا: ١٠ و ١١).

وجاء عن القديس يوحنا الحبيب فى كتاب «الرد على الهرطقات» للقديس إيريناوس؛ أنه رأى مرة فى حمام عام بعض المؤمنين ومعهم فيه كيرنثوس CERINTHUS الهرطوقى، وهو من قادة الأبيونيين، وكان يزعم أن السيد المسيح مولود بالطبيعة من يوسف ومريم. فصاح فيهم القديس يوحنا الرسول أن يخرجوا من المكان وأن يقطعوا شركتهم بكيرنثوس هذا «عدو الحق» وإلا حل عليهم غضب الرب. فأطاعوه فى الحال. وخرجوا من الحمام وقطعوا شركتهم بكيرنثوس (١).

٢ ـ ولابد أن القديس يوحنا الرسول كان يتصف بصفات أخرى جميلة أحبه المسيح من أجلها، ومنها رقة الشعور، ودقة الإحساس، واللطف، والوداعة، والطاعة، وبساطة القلب، وطهارة الضمير، ونقاء السريرة، والبتولية والعفة...

٣ ـ ولعل من صفات الرسول يوحنا التى أحبه المسيح إلهنا من أجلها أنه أطاع الدعوة المقدسة وتبع المسيح له المجد وهو فى شبابه المبكر، فقد كان القديس يوحنا أصغر جميع الرسل التلاميذ سناً. يقول الكتاب المقدس «خير للرجل أن يحمل النير فى صباه» (٢)، ويقول أيضاً «فاذكر خالقك فى أيام شبابك قبل أن تأتى أيام السوء، وترد السنون التى فيها تقول ليس لى فيها لذة» (٣).

يوحنا البتول

وكما عُرف القديس يوحنا بـ «يوحنا الحبيب» اشتهر أيضاً بـ «يوحنا البتول» ذلك لأنه عاش بتولاً كل أيام حياته، فلم يرتبط بزواج، ذلك لأنه بعد أن عرف المخلص رغب فى أن يحيا «مقدساً فى الجسد والروح» (٤). وقد وصف فى رؤياه مجد الأبكار البتوليين وكرامتهم «وهم يسبّحون تسبيحة جديدة أمام العرش... هؤلاء هم الذين لم يتنجسوا ملابسهم مع النساء، لأنهم أبكار. هؤلاء هم الذين يصحبون الحمل حيثما يذهب» (٥).

---

(١) كتاب «الرد على الهرطقات» للقديس إيريناوس ـ كتاب ٣ فصل ٣ : ٤ . وكتاب «تاريخ الكنيسة» ليوسابيوس القيصرى ـ كتاب ٣ فصل ٢٨ : ٦، وكتاب ٤ فصل ١٤ : ٦ و ٧).

(٢) (مراثى إرميا ٣ : ٢٧).

(٣) (الجامعة ١٢ : ١).

(٤) (١ . كورنثوس ٧ : ٣٤).

(٥) (الرؤيا ١٤ : ٣ و ٤).

يوحنا اللاهوتي

وسمي القديس يوحنا الرسول أيضاً بـ «يوحنا اللاهوتي» ذلك لأن الإنجيل حسبما كتبه القديس يوحنا أبرز لاهوت السيد المسيح ضداً لتعليم الهراطقة الذين ظهروا في زمان القديس يوحنا. وقد بدأ إنجيله بقوله: «في البدء كان الكلمة،.. وكان الكلمة هو الله. كان منذ الأزل لدى الله. كل شيء به كان. وبغيره لم يكن شيء مما كان». (١) وقد اهتم الرسول يوحنا بذكر المعجزات ذات الدلالة اللاهوتية والتي تبرهن على لاهوت المسيح، كما اهتم بإيراد أقوال السيد المسيح وأمثاله التي تثبت لاهوته.

يوحنا الرائي

وقد عُرف القديس يوحنا الرسول أيضاً بـ «يوحنا الرائي» رأى في جزيرة بطمس (٢). PATHMOS، وهي من جزر الأرخبيل جنوبي بحر إيجه (سبوراد) وكان قد نفي إليها بأمر الأمبراطور الروماني دومتيانوس DOMITIANUS (٥١ ـ ٩٦م) رؤياه العظيمة التي سجلها في سفر الرؤيا، وأنبأ فيها عن مجد الحياة الأبدية، وتناول الأحداث التي ستمر على الكنيسة إلى مجيء المسيح الثاني للدينونة والحساب. وقد رأى ما رآه وهو في حالة من العمق الروحاني، والإشراق الباطني، والوجد الصوفي، وكأنه لم يكن في الجسد (٣)، وهي هذه الحالة التي وصفها بقوله «كنت في الروح» (٤) وهو ما يعرف بالاختطاف (٥) الروحي أو الانجذاب العقلي، حيث ينجذب الرائي إلى عالم الروح، ويغيب (٦) عن عالم الحس والشهادة، ويصير إلى حالة من الاستغراق الروحي الكامل. وقد كتب القديس يوحنا هذه الرؤيا بناء على أمر صريح وُجِّه إليه من الله (٧)، وهي آخر أسفار الكتاب المقدس.

ولعله إلى هذه الرؤيا الروحانية الجميلة كان يشير المسيح له المجد في كلامه إلى سمعان بطرس عن تلميذه يوحنا الحبيب «لو أنني شئت أن أبقيه إلى أن أجيء فماذا يعنيك؟» (٨).

---

(١) (يوحنا ١ : ١ ـ ٣).
(٢) (الرؤيا ١ : ٩).
(٣) (٢. كورنثوس ١٢ : ٢ و ٣).
(٤) (الرؤيا ١ : ١٠).
(٥) (٢. كورنثوس ١٢ : ٢ و ٤).
(٦) (الأعمال ١٠ : ١٠) و (١١ : ٥) و (٢٢ : ١٧).
(٧) (الرؤيا ١ : ١٩).
(٨) (يوحنا ٢١ : ٢٢ و ٢٣).

نسبته ودعوته الرسولية :

والقديس يوحنا الرسول هو وأخوه يعقوب الكبير من أب يسمى زبدى (١) (= وهب الله ـ هبة الله) وأم تسمى سيلومى أو سالومه (= سلام صهيون) . وكان يوحنا يشتغل بصيد السمك، وهى أيضاً مهنة شقيقه الأكبر منه (يعقوب) وأبيهما من قبلهما.

وأما أمه سيلومى أو سالومة فهى قد ذكرت بهذا الاسم (٢) سيلومى بين النساء اللاتى تبعن المسيح إلى الصليب، «وكن ينظرن من بعيد. وهن اللاتى كن يتبعنه ويخدمنه حين كان فى الجليل، وقد صعدن معه إلى أورشليم، وذكرت أيضاً بهذا الاسم سيلومى (٣) بين النسوة اللاتى اشترين طيباً ليأتين ويحنطن جسد المخلص يسوع المسيح، ثم عند فجر أول الأسبوع جئن إلى القبر مع طلوع الشمس، ورأين أنه قد قام، وكن من بين شهود القيامة المجيدة.

وذكرت أيضاً باسم (أم ابنى زبدى) فى مواضع أخرى من الإنجيل. (٤)

وهى سالومى التى تقدمت نيابة عن ولديها يعقوب ويوحنا إلى السيد المسيح برجاء أن يقبل شفاعتها فى ولديها، فيسمح أن يجلس أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره عندما يأتى فى مجد ملكه . قال الإنجيل «تقدمت إليه أم ابنى زبدى مع ابنيها ساجدة له تلتمس منه أمراً. فقال لها: ماذا تريدين؟ قالت له: اسمح بأن يجلس ابناى هذان أحدهما عن يمينك والآخر عن يسارك فى مملكتك. أما يسوع فأجاب وقال: إنكما لا تدريان ما هو الذى تطلبان. أفتستطيعان أن تشربا الكأس التى سأشربها أنا، وأن تصطبغا بالصبغة التى سأصطبغ أنا بها؟ قالا له: نستطيع. فقال لهما: أما كأسى فتشربانها، وبالصبغة التى أصطبغ بها تصطبغان. وأما أن تجلسا عن يمينى وعن يسارى فليس لى أن أعطيه إلا للذين أُعدّ لهم من أبى الذى فى السماوات. فلما سمع التلاميذ العشرة الآخرون ذلك حنقوا على الأخوين. أما يسوع فدعاهم وقال لهم: أنتم تعلمون أن رؤساء الوثنيين يعدّون أنفسهم سادة لهم، وأن عظماءهم يتسلطون عليهم. أما أنتم فلا ينبغى أن يكون هكذا فيما بينكم. وإنما من أراد أن يكون سيداً فيكم فليكن للجميع عبداً، ومن أراد أن يكون

---

(١) (متى ٤ : ٢١) و (١٠ : ٢) و (٢٠ : ٢٠) و (٢٦ : ٣٧) و (٢٧ : ٥٦) و (مرقس ١ : ١٩ : ٢٠) و (٣ : ١٧) و (لوقا ٥ : ١٠) و (يوحنا ٢١ : ٢) و (الأعمال ١٢ : ٢).

(٢) (مرقس ١٥ : ٤٠).

(٣) مرقس ١٦ : ١).

(٤) (متى ٢٠ : ٢٠) و (٢٧ : ٥٦).

عظيماً بينكم فليكن لكم خادماً. فإن ابن الإنسان نفسه لم يأت لِيُخدَم بل لِيَخْدُم وليبذل نفسه فدية عن كثيرين» (١).

ولقد ذكر الإنجيل أن القديس يوحنا ـ وقد كان من قبل تلميذاً ليوحنا المعمدان ـ رغب مشتاقاً فى أن يتبع السيد المسيح له المجد، وذلك بتحريض من معلمه يوحنا المعمدان. قال الإنجيل: «ثم فى اليوم التالى كان يوحنا (٢) واقفاً مع اثنين من تلاميذه. وإذ أبصر يسوع ماشياً قال: هذا هو حمل الله. فلما سمع التلميذان قوله تبعا يسوع. فالتفت يسوع ورآهما يتبعانه، فقال لهما: ماذا تطلبان؟ فقالا له: رابى ـ الذى ترجمته يا معلم ـ أين تقيم؟ فقال لهما: تعاليا وانظرا. فأتيا ونظرا أين يقيم، ومكثا عنده ذلك اليوم، وكانت الساعة نحو العاشرة. وكان أندراوس أخو سمعان بطرس أحد الاثنين اللذين سمعا يوحنا(٣) وتبعا يسوع». والواضح من هذا النص القدسي أن يوحنا الحبيب كان هو أحد الاثنين اللذين كانا تلميذين ليوحنا المعمدان، وقد أرشدهما يوحنا المعمدان إلى سيده، فأطاعا توجيه معلمهما المعمدان وتبعا المعلم الأعظم يسوع المسيح. ولقد أبرز يوحنا الحبيب اسم رفيقه أندراوس، ولكنه أخفى اسمه هو، تواضعاً منه وإنكاراً لذاته، تماماً كما فعل القديس لوقا الإنجيلى حينما ذكر واقعة تلميذى عمّاوس (٤) ولقاءهما مع المسيح له المجد بعد قيامته المجيدة، وذكر اسم رفيقه كليوباس، ولكنه أخفى اسمه. والدلالة واضحة لأن هذه الواقعة لم يذكرها من الإنجيليين الآخرين إلا القديس لوقا الإنجيلى وحده لأنه كان أحد الاثنين. كذلك ما ذكره القديس يوحنا فى إنجيله عن لقائه الأول بالسيد المسيح، وتحديد الساعة العاشرة من ذلك اليوم ساعة لهذا اللقاء، وأنه ورفيقه مكثا مع المخلص ذلك اليوم حيث يقيم. هذه الواقعة بكل تفاصيلها الدقيقة، وإرشاد يوحنا المعمدان وتوجيهه لهما إلى المسيح وأنه حمل الله ليتبعاه، لم يوردها من الإنجيليين الآخرين إلا القديس يوحنا الحبيب مما يدل على أنه كان فعلاً أحد الاثنين اللذين تبعا المسيح له المجد بعد أن كانا تلميذين ليوحنا المعمدان.

ويتضح من الإنجيل أيضاً أن المخلّص وجه إلى يوحنا الحبيب دعوة صريحة بعد ذلك فيما كان هو وأخوه الأكبر يعقوب مع أبيهما زبدى يصلحان شباكهما للصيد. قال الإنجيل: «ثم مضى من هناك، فرأى أخوين آخرين، هما يعقوب بن زبدى ويوحنا أخوه، وكانا فى السفينة مع زبدى

---

(١) (متى ٢٠: ٢٠ ـ ٢٨) و (مرقس ١٠: ٣٥ ـ ٤٥).

(٢) هو يوحنا المعمدان.

(٣) (يوحنا ١: ٣٥ ـ ٤٠).

(٤) (لوقا ٢٤: ١٣ ـ ١٨).

أبيهما يصلحان شباكهما، فدعاهما. فتركا فى الحال السفينة وأباهما وتبعاه (١)، صار يوحنا بعد ذلك معدوداً بين تلاميذ المسيح الاثنى عشر، وهو يحتل على الغالب المكان الرابع (٢) فى قائمة أسماء التلاميذ الرسل، الأول سمعان بطرس والثانى أندراوس أخوه، والثالث يعقوب بن زبدى، والرابع هو يوحنا. فسمعان بطرس وأندراوس أخوه سبقا يعقوب ويوحنا فى دعوة التلمذة الكاملة للمعلم الأعظم (٣).

أهم ما ذكر عنه فى أثناء تلمذته وبعد القيامة:

كان يوحنا الحبيب أحد التلاميذ الثلاثة الذين كانوا يتمتعون بمكانة خاصة عند المخلّص مما يدل على ثقته البارزة فيهم، وهم بطرس، ويعقوب ويوحنا.

١ ـ فَهُم الثلاثة الذين سمح لهم أن يدخلوا معه إلى بيت يايرس رئيس المجمع، ليشهدوا مع يايرس وزوجته إقامة ابنتهما الصبية من الموت. قال الإنجيل: «ولما جاء إلى البيت لم يسمح لأحد بالدخول معه إلا لبطرس ويعقوب ويوحنا وأبى الصبية وأمها (٤)».

٢ ـ ويوحنا هو أيضاً أحد التلاميذ الثلاثة الذين اختارهم المسيح له المجد ليصعدوا معه إلى جبل تابور، وتجلى أمامهم، وعاينوا مجده، ورأوا عظمته وجلاله (٥). قال الإنجيل: «وبعد ستة أيام أخذ يسوع بطرس ويعقوب ويوحنا، وصعد بهم على انفراد إلى جبل مرتفع ثم تغيرت هيئته متجلياً أمامهم» (٦).

٣ ـ ويوحنا أيضاً هو أحد الثلاثة الذين أخذهم إلى جواره ليكونوا بالقرب منه عندما صلى فى بستان جثسيماني ليلة آلامه. قال الإنجيل: ثم جاءوا إلى ضيعة تدعى جثسيماني، فقال لتلاميذه: اجلسوا أنتم هنا ريثما أصلى. ثم أخذ معه بطرس ويعقوب ويوحنا وبدأ يرتاع ويكتئب... (٧)».

(١) (متى ٤: ٢١ و٢٢) و (مرقس ١: ١٩ و٢٠) و (لوقا ٥: ١٠).
(٢) (متى ١٠: ٢) و (مرقس ٣: ١٧) و (لوقا ٦: ١٤) و (الأعمال ١: ١٣).
(٣) وهذا يتضح من (متى ٤: ١٨ ـ ٢٢) و (مرقس ١: ١٦ ـ ٢٠).
(٤) (لوقا ٨: ٥١) و (مرقس ٥: ٣٧).
(٥) (٢ . بطرس ١: ١٦).
(٦) (مرقس ٩: ١) و (متى ١٧: ١ و٢) و (لوقا ٩: ٢٨ و٢٩).
(٧) (مرقس ١٤: ٣٢ و٣٣) و (متى ٢٦: ٣٦، ٣٧).

٤ ـ ولذلك حسب الرسول يوحنا بين الرسل المعتبرين أنهم أعمدة وأساطين الكنيسة: «يعقوب وكيفا ويوحنا المعتبرون أنهم أعمدة» (١)، (٢).

٥ ـ والقديس يوحنا كان أحد الرسل الذين صحبوا السيد المسيح إلى بيت سمعان عندما كانت حماته ترقد محمومة بحمّى شديدة، فتوسلوا إليه من أجلها، فاقترب منها وزجر الحمّى ففارقتها وقامت على الفور تخدمهم. قال الإنجيل: «وبعد أن خرجوا من المجمع دخلوا بيت سمعان وأندراوس ومعهم يعقوب ويوحنا، وكانت حماة سمعان ترقد محمومة» (٣).

٦ ـ وكان يوحنا أحد الرسولين اللذين أرسلهما الرب يسوع ليعدا له الفصح، وكان زميله في هذه المهمة هو القديس سمعان بطرس. قال الإنجيل:«فأرسل يسوع بطرس ويوحنا قائلاً: اذهبا وأعدّا لنا الفصح لنأكله .. فانطلقا ووجدا كما ذكر لهما فأعدا الفصح (٤)».

٧ ـ وكان يوحنا أيضاً أحد الرسل الأربعة الذين سألوا المخلّص عن المجيء الثاني للمسيح وعلاماته: «وبينما كان جالساً على جبل الزيتون تجاه الهيكل سأله بطرس ويعقوب ويوحنا وأندراوس على انفراد قائلين: قل لنا متى سيكون هذا؟ وما العلامة على كل هذا حين يوشك أن يكون؟» (٥).

٨ ـ ولما أمسك الجنود والقائد وخدام اليهود المخلّص ثم ساقوه إلى حنان رئيس الكهنة هرب جميع التلاميذ إلا يوحنا وسمعان بطرس، فقد تبعا وحدهما معلمهما. وكان يوحنا «معروفاً لدى رئيس الكهنة، فدخل مع يسوع إلى دار رئيس الكهنة. أما بطرس فظل واقفاً في الخارج عند الباب. فخرج التلميذ الآخر (يوحنا) الذي كان معروفاً لدى رئيس الكهنة وكلم حارسة الباب، وأدخل بطرس (٦)»... «وأما بطرس فقد تبعه من بعيد... ثم دخل وجلس مع الخدم ليرى النهاية (٧)».

٩ ـ ويوحنا هو الوحيد بين التلاميذ الذي رافق معلّمه حتى الجلجلة، وظل واقفاً تحت الصليب مع العذراء القديسة مريم أم المخلص، فعهد إليه الفادي بأمه العذراء أن يكون لها بمثابة ابنها:

(١) أو عَمَد أو عُمُد (مع فتح العين أو ضمها، وفتح الميم أو ضمها).
(٢) (غلاطية ٢ : ٩).
(٣) (مرقس ١ : ٢٩ و ٣٠).
(٤) (لوقا ٢٢ : ٨ ـ ١٣).
(٥) (مرقس ١٣ : ٣ و ٤).
(٦) (يوحنا ١٨ : ١٢ ـ ١٦).
(٧) (متى ٢٦ : ٥٨) و (مرقس ١٤ : ٥٤) و (لوقا ٢٢ : ٥٤).

«فلما رأى يسوع أمه والتلميذ الذى كان يحبه واقفاً، قال لأمه: أيتها السيدة، هوذا ابنك. ثم قال للتلميذ: «هي ذي أمك. ومنذ تلك الساعة أخذها التلميذ إلى بيته» (١)، وظلت العذراء في بيت يوحنا حوالى أربع عشرة سنة بعد قيامة المسيح وصعوده إلى السماء. ولذلك لم يفارق يوحنا أورشليم إلى غيرها ليبشر بالإنجيل هذه المدة حتى توفيت العذراء مريم، وأصعد جسدها إلى السماء على أجنحة الملائكة.

١٠ ـ والقديس يوحنا هو أحد الشهود الأوائل لقيامة الرب يسوع المسيح، وهو أول من رأى فآمن. وقد وصف القيامة في الإنجيل وصفاً تفصيلياً في غاية الدقة. قال: «وفي يوم الأحد أول الأسبوع جاءت مريم المجدلية إلى القبر باكراً، وكان الظلام لايزال مخيما، فرأت أن الحجر قد رفع عن باب القبر. فركضت وجاءت إلى سمعان بطرس، وإلى التلميذ الآخر الذى كان يسوع يحبه. وقالت لهما: قد أخذوا سيدنا من القبر، ولا أعلم أين وضعوه. فخرج بطرس والتلميذ الآخر، ومضيا إلى القبر. وكانا يركضان معاً، ولكن التلميذ الآخر سبق بطرس فوصل قبله إلى القبر. وتطلع إلى الداخل فرأى الأكفان موضوعة، ولكنه لم يدخل. ثم جاء سمعان بطرس يتبعه ودخل القبر. فرأى الأكفان موضوعة. وأما المنديل الذى كان على رأس يسوع فلم يكن موضوعاً مع الأكفان، وإنما كان مطوياً في مكان على حدة. ثم دخل أيضاً التلميذ الآخر الذى جاء أولا إلى القبر ورأى فآمن. لأنهم لم يكونوا بعد يدركون معنى قول الكتاب إنه ينبغي أن يقوم من بين الأموات. وبعد ذلك مضى التلميذان عائدين إلى حيث كانا (٢)».

١١ ـ والقديس يوحنا هو أحد الرسل السبعة الذين ظهر لهم المسيح له المجد بعد قيامته، على بحر الجليل، وهو بحيرة طبرية، حيث ذهبوا معاً للصيد. قال الإنجيل: «وبعد ذلك أظهر يسوع نفسه مرة أخرى لتلاميذه على بحر طبرية، وكان ظهوره هكذا: كان سمعان بطرس وتوما المدعو ديديموس ونثنائيل الذي من قانا الجليل، وابنا زبدى، واثنان آخران من تلاميذه مجتمعين معه. فقال لهم سمعان بطرس: إنني ذاهب لأصطاد سمكاً. فقالوا له: ونحن أيضاً نذهب معك، ثم خرجوا وركبوا السفينة (٣)».

وكان يوحنا هو أسبق جميع زملائه إلى معرفة شخص المسيح عندما أمرهم بأن يلقوا الشبكة إلى جانب السفينة الأيمن. فإذا بالشبكة تصيد سمكاً كثيراً. قال الإنجيل: «حتى إذا طلع الصباح وقف يسوع على الشاطئ، ولكن التلاميذ لم يعلموا أنه هو يسوع... فقال لهم: ألقوا الشبكة من

(١) (يوحنا ١٩: ٢٦ و ٢٧).
(٢) (يوحنا ٢٠: ١ ـ ١٠).
(٣) (يوحنا ٢١: ١ ـ ٣).

الجانب الأيمن للسفينة فتجدوا. فألقوها. وعندئذ لم يستطيعوا أن يجذبوها إلى فوق من كثرة السمك. فقال التلميذ الذى كان يسوع يحبه لبطرس: إنه الرب (١)».

١٢ ـ وكان القديس يوحنا يتميز بالغيرة الشديدة والحماسة. ولذلك أطلق الرب يسوع المسيح عليه وعلى شقيقه الأكبر يعقوب لقب بوانرجس، أي ابنى الرعد. قال الإنجيل: «ويعقوب بن زبدى، ويوحنا أخو يعقوب اللذان لقبهما بوانرجس، أي ابني الرعد» (٢).

ومن آيات غيرته على معلمه وتعصبه له ما يرويه الإنجيل عنه: «فأجابه يوحنا قائلاً: يا معلم، قد رأينا واحداً يخرج الشياطين باسمك فمنعناه لأنه من غير أتباعنا. فقال يسوع: لا تمنعوه، لأنه ما من أحد يصنع معجزة باسمى يكون فى وسعه أن يبادر فيتكلم بالسوء عنى، إذ أن من ليس علينا فهو معنا» (٣)، «ومن ليس ضدكم فهو معكم» (٤).

ومن ذلك أيضاً أن قرية من قرى السامريين رفض أهلها أن يدخل المسيح إليهم، «فلما رأى ذلك تلميذاه يعقوب ويوحنا قالا له: يارب، أتريد أن نطلب أن تنزل نار من السماء فتحرقهم كما فعل إيليا؟ فالتفت وانتهرهما قائلاً: لستما تعلمان من أى روح أنتما. لأن ابن الإنسان لم يأت ليهلك نفوس الناس، بل ليحييها. فمضوا إلى قرية أخرى(٥)».

١٣ ـ والرسول القديس يوحنا هو أحد الرسل الذين شهدوا على جبل الزيتون جلال (٦) صعود المسيح له المجد إلى السماء، «فسجدوا له ورجعوا إلى أورشليم بفرح عظيم، وكانوا كل حين فى الهيكل يسبحون الله ويباركونه» (٧)، وحين دخلوا صعدوا إلى القاعة العليا التى كان يقيم فيها بطرس ويعقوب ويوحنا... وقد ظل هؤلاء جميعاً يواظبون بروح واحدة على الصلاة، ومعهم النسوة ومريم أم يسوع (٨) إلى أن تلبسوا وتوشحوا بقوة من الأعالى (٩) وفقاً لوعد المسيح لهم بحلول الروح القدس عليهم. ولما حل يوم الخمسين كان من بين الرسل والتلاميذ الذين حل

---

(١) (يوحنا ٢١: ٤ ـ ٧).

(٢) (مرقس ٣: ١٧). Benireges

(٣) (مرقس ٩: ٣٧ ـ ٣٩).

(٤) (لوقا ٩: ٤٩، ٥٠).

(٥) (لوقا ٩: ٥٤ ـ ٥٦).

(٦) (مرقس ١٦: ١٤ ـ ١٩) و (لوقا ٢٤: ٥١) و (الأعمال ١: ٩ و ٢٢).

(٧) (لوقا ٢٤: ٥٢).

(٨) (الأعمال ١: ١٣ و ١٤).

(٩) (لوقا ٢٤: ٤٩) و (الأعمال ١: ٨).

الروح القدس عليهم، فامتلأ من روح القدس، وطفق يتكلم بلغات أخرى غير لغته هو التى ولد فيها (١).

١٤ ـ وكان القديس يوحنا زميلا للقديس بطرس الرسول فى معجزة شفاء أعرج باب الهيكل الجميل: «وصعد بطرس ويوحنا معاً إلى الهيكل فى ساعة الصلاة التاسعة. وكان رجل أعرج من بطن أمه يحمل، كانوا يضعونه كل يوم عند باب الهيكل الذى يقال له الجميل... فهذا لما رأى بطرس ويوحنا مزمعين أن يدخلا الهيكل سأل ليأخذ صدقة. فتفرس فيه بطرس مع يوحنا..» (٢)

كرازته وتبشيره وخدمته باسم المسيح:

١٥ ـ وقد جاهر القديس يوحنا باسم المسيح فى أورشليم أمام رؤساء الكهنة، واحتمل السجن والعذاب من أجل إيمانه بسيده ودفاعه عن الحق: «فلما رأوا مجاهرة بطرس ويوحنا، ووجدوا أنهما إنسانان عديما العلم وعاميّان تعجبوا، فعرفوهما أنهما كانا مع يسوع... فأمروهما أن يخرجا إلى خارج المجمع، وتآمروا فيما بينهم قائلين: ماذا نفعل بهذين الرجلين... فدعوهما وأوصوهما ألا ينطقا البتة ولا يعلما باسم يسوع. فأجابهم بطرس ويوحنا وقالا: إن كان حقاً أمام الله أن نسمع لكم أكثر من الله فاحكموا، لأننا نحن لا يمكننا ألا نتكلم بما رأينا وسمعنا (٣)».

١٦ ـ وقد بشّر الرسول يوحنا مع زميله بطرس فى تلك الأنحاء. وهو الذى زامل القديس بطرس فى منح أهل السامرة مسحة الروح القدس بوضع أيديهما عليهم بعد تعميدهم، فامتلأوا من عطية الروح القدس. «ولما سمع الرسل الذين فى أورشليم أن السامرة قد قبلت كلمة الله، أرسلوا إليهم بطرس ويوحنا، اللذين لما نزلا صليا لأجلهم لكى يقبلوا الروح القدس.. حينئذ وضعا الأيادى عليهم، فقبلوا الروح القدس... ثم إنهما بعد ما شهدا وتكلما بكلمة الرب رجعا إلى أورشليم وبشرا قرى كثيرة للسامريين» (٤).

نفى الرسول يوحنا واستشهاده:

ظل القديس يوحنا يكرز فى أورشليم ببشارة الملكوت، ولم يغادرها إلا بعد وفاة العذراء مريم وصعود جسدها إلى السماء، وذلك احتراماً وعملاً بوصية السيد المسيح وهو معلق على

(١) (الأعمال ٢ : ١ ـ ٦).
(٢) (الأعمال ٣ : ١ ـ ٢٦).
(٣) (الأعمال ٤ : ١و ١٣ ـ ٢٠).
(٤) (الأعمال ٨ : ١٤ ـ ٢٥).

الصليب... بعد ذلك خرج للتبشير والخدمة خارج فلسطين، وخصوصاً في آسيا الصغرى. وفي سنة ٩٥ لميلاد المسيح اعتقل الرسول يوحنا بأمر الأمبراطور الروماني دوميتيانوس DOMITIANUS (٥١ - ٩٦)م، وأرسل مقيداً إلى روما حيث طرحوه في خلقين،أي إناء ممتلىء من الزيت المغلي، فوقف فيه ساعات، وكان غريباً أنه لم يصبه أذى، حتى ذهل الحكام والناس جميعاً. ثم أخرجوه ونفوه إلى جزيرة بطمس من جزر الأرخبيل التي رأى فيها رؤياه العظيمة. يقول: «أنا يوحنا أخاكم وشريككم في الضيق وفي الملكوت والصبر في المسيح يسوع، كنت في الجزيرة التي تدعى بطمس لأجل كلمة الله ومن أجل شهادة يسوع المسيح، وصرت في الروح في يوم الرب» (١)، وكان ذلك في أواخر حكم دوميتيانوس (٢). وظل القديس يوحنا الرائي في المنفى مدة سنة ونصف، ثم أطلق سراحه في عهد الإمبراطور نيرفا NERVA (٩٦ - ٩٨)م، فعاد القديس يكرز بالإنجيل في آسيا الصغرى (٣). واتخذ من مدينة أفسس قاعدة كرسيه (٤)، وذلك بعد استشهاد القديس تيموثيئوس الرسول.

ومن المعروف عن القديس يوحنا أنه كتب إنجيله، ورسائله الثلاث في أثناء إقامته بأفسس، وفي أواخر سني حياته. وعاش القديس يوحنا في أفسس واعظاً ومبشراً بالإنجيل إلى أن بلغ سن المائة، وتوفي في أفسس في شيخوخة صالحة في عهد تراجان TRAJAN (٩٧ - ١١٧)م، وبذلك يكون القديس يوحنا هو آخر رسول من الاثني عشر تلميذاً بقي حياً كارزاً بالمسيح، وقد سبقه جميع الرسل الآخرين إلى الأخدار السمائية. ولعل هذا يفسر مقولة المسيح له المجد عنه في حديثه إلى سمعان بطرس: «لو أنني شئت أن أبقيه إلى أن أجيء فماذا يعنيك؟ فذاع بين الإخوة القول بأن ذلك التلميذ لا يموت. غير أن يسوع لم يقل إنه لا يموت، وإنما قال: لو أنني شئت أن أبقيه إلى أن أجيء فماذا يعنيك؟ ذلك هو التلميذ الذي شهد بهذا والذي كتب هذا (٥)».

ولما كان القديس يوحنا قد عانى آلام الاستشهاد في عهد الإمبراطور دوميتيانوس، لكنه لم يمت آنذاك، وإنما مات بعد ذلك موتاً طبيعياً فإنه يعدُّ أول «المعترفين». والمعترفون هم من عانوا آلام الشهداء، ولكنهم لم يموتوا في أثناء التعذيب.

---

(١) (الرؤيا ١ : ٩ و ١٠).

(٢) «تاريخ الهرطقات» للقديس إيريناوس - الجزء ٥ فصل ٣٠ : ٣.

(٣) «تاريخ الكنيسة» ليوسابيوس القيصري - الجزء الثالث ١ و ١٨.

(٤) «تاريخ الكنيسة» ليوسابيوس القيصري - الجزء الثالث - فصل ٢٠ : ٨، ٩.

(٥) (يوحنا ٢١ : ٢٢ - ٢٤).

وقد كتب عنه تلميذه القديس بوليكاربوس Polycarpos أسقف أزمير (استشهد في سنة ١٥٦م) يقول: «بين الكواكب التى أتطفأ نورها فى آسيا يجب ألا ننسى يوحنا الذى أتكأ على صدر يسوع، والذى كان حبراً، ويحمل على جبهته صفيحة الكهنوت، قطعة من الذهب الخالص علامة حبريته «قدس للرب» (١) . فهو الشهيد والمعلّم وقبره فى أفسس» (٢) .

القديس يوحنا يدعو إلى الرياضة الجسدية:

ومما له مغزى فى حياة القديس يوحنا ما ذكره المؤرخون عنه أنه فى شيخوخته كان يمارس الرياضة البدنية أحياناً . وقد رآه مرة أحد الصيادين يداعب طائراً (قيل إنه صقر صغير) فدهش من تصرف رجل شيخ كيوحنا الرسول، فتنبّه القديس إلى قصد الصياد، فسأله: ما هذا الذى بيدك؟ فقال الصياد: إنها قوس . قال القديس يوحنا: ما الذى يحدث لو أنك أبقيتها موتورة على الدوام؟ قال الصياد: يتقطع وترها . فقال القديس: كذلك عقل الإنسان، يجب أن نريحه من وقت إلى آخر بأنواع من الرياضة المباحة والتسلية البريئة . فكان تصرفه هذا مطابقاً لما قاله القديس بولس الرسول فى إحدى رسائله . «الرياضة البدنية فيها بعض الخير» (٣) .

وتحتفل الكنيسة القبطية الأرثوذكسية بانتقال القديس يوحنا الرسول إلى الأخدار السمائية فى اليوم الرابع من شهر طوبة القبطى (ويقابل عادة الثانى عشر من شهر يناير ـ كانون ثان) . وأما الكنائس الأرثوذكسية التى تسير على الطقس البيزنطى، فتحتفل بذكراه فى السابع والعشرين من شهرسبتمبر (أيلول) . وأما الكنائس الغربية فتحتفل به فى السابع والعشرين من شهر ديسمبر (كانون أول) .

ب ـ الإنجيل للقديس يوحنا

فى السنوات الأخيرة من حياة القديس يوحنا كانت العقيدة المسيحية قد انتشرت فى كل أنحاء العالم المعروف حينذاك . وكان قد مضى على قيامة السيد المسيح وصعوده إلى السماء ما يزيد على خمسين عاماً . وكانت بشارات الإنجيل للقديسين متى ومرقس ولوقا قد أصبحت متداولة فى أيدى المؤمنين . وقد عرفوا كل ما ورد فيها من أقوال السيد المسيح وأعماله التى برهنت على أن شخصية السيد المسيح شخصية فذّة، لم تظهر فى كل عصور التاريخ شخصية تضاهيها أو تشابهها فى طبيعتها بأى وجه من الوجوه، وعلى أى صورة من الصور، لأنها كما يتضح من

---

(١) (الخروج ٢٨ : ٣٦) .

(٢) «تاريخ الكنيسة» ليوسابيوس القيصرى الجزء الثالث (فصل ٣ : ٣) و (٣٩ : ٦) كتاب ٥ فصل ٢٤ : ٣ .

(٣) (١ ـ تيموثيئوس ٤ : ٨) .

تعاليم السيد المسيح ذاته شخصية الإله الكامل والإنسان الكامل في الوقت نفسه. وتلك حقيقة تعلو على مدارك البشر ذوي العقول المحدودة والمدارك القاصرة. ولا يمكن أن يدركها إلا أولئك الذين بموهبة الروح القدس أنار الله قلوبهم، وفتح على الحقائق الإلهية أبصارهم وبصائرهم. ومن ثم فإن بعض ذوى الإيمان الضعيف الجذور المزعزع البنيان، والقلوب الغليظة المظلمة التى طمستها المادة، فلم يعد فيها بصيص من نور الروحانية السمائية السامية. ممن ينطبق عليهم القول إنهم مبصرون لا يبصرون، وسامعون لا يسمعون، قد أعماهم الغرور فراحوا بعقولهم الضئيلة الحجم الهزيلة الكيان يبحثون فى طبيعة السيد المسيح بعيداً عن تعاليم السيد المسيح نفسه. فكانت النتيجة أنهم ضلوا وأضلّوا معهم بعض البسطاء الذين وقعوا فى براثنهم، ومن ثم بلبلوا الأفكار بأفكارهم. وأشعلوا نار الفتنة فى الكنيسة بما ابتدعوا واخترعوا من نظريات وهرطقات.

وكان من أشهر وأخطر الذين ظهروا فى ذلك الحين قوم يطلقون على أنفسهم اسم «الغنوسيين» وهو اسم مشتق من كلمة غنوسيس اليونانية، ومعناها «المعرفة»، لأنهم ادّعوا أنهم استطاعوا أن يعرفوا الله بالعقل وحده. ومن ثمّ اشتهروا بأنهم «العارفون بالله». وقد زعموا أن ثمة عنصرين أساسيين فى الكون هما الخير والشر. وأن الروح من عنصر الخير، وأما الجسد المادى فمن عنصر الشر، وهو سجن للروح تظل معتقلة فيه إلى حين. كما زعموا أنه ليس ثمة إله واحد للكون، وإنما آلهة كثيرون ذوو درجات متفاوتة، فلا يمكن أن يتصل بالعالم المادى منهم إلا أصحاب الدرجة الرابعة. وقد زعموا أن السيد المسيح ليس إلا واحداً من أولئك الآلهة الذين هم فى الدرجة الرابعة، ومن ثم استطاع أن ينزل إلى العالم ويتصل بالمقيمين فيه من بنى البشر، وقد حل ذلك الإله فى جسد يسوع الناصرى، عند العماد، ثم فارقه قبل الصلب. فكان الذى علقه اليهود على الصليب هو جسد يسوع الإنسان. وأما المسيح الإله فقد انطلق إلى عالم الآلهة الذين هم من درجته. وقد كان هذا المذهب الغريب من الخطورة على الكنيسة حتى لقد تبعه أحد كبار الشمامسة المسمّى نيقولاوس (الأعمال ٦ : ٥) وقد انضم إلى هذا كثيرون من الضعيفى الإيمان، الذين أُطلق عليهم الكتاب المقدس اسم «النيقولاويين»، وذكر القديس يوحنا فى رؤياه اللاهوتية أن السيد المسيح يبغض أعمالهم (الرؤيا ٢ : ٦) ويبغض تعاليمهم (الرؤيا ٢ : ١٥).

كما كان من زعماء الغنوسيين رجل آخر يدعى كيرنثوس، كان يختلف مع النيقولاويين فى تحديد الدرجة التى منها المسيح الإله، ولكن كان يتفق معهم فى أن ذلك الإله حل على يسوع الناصرى عند العماد وغادره قبل الصلب. وكيرنثوس هذا هو الذى سبق أن ذكرنا أن القديس

يوحنا حذر المؤمنين من البقاء معه فى أحد الحمامات العامة حين علم أن هذا الرجل بداخله، وذلك من فرط سخطه على تعاليمه الهرطقية.

وكان أيضاً من زعماء الغنوسيين الذين يعتنقون مثل هذه الأفكار أشخاص آخرون ذاعت شهرتهم، ومنهم فالنتينوس ومرقيانوس.

وكــان مـن أصحاب الهرطقات أيضاً فى زمن القديس يوحنا قوم يسمون الدوسيتيين DOCETISTS وقد عجزت عقول أولئك القوم عن أن تستوعب عقيدة الفداء الإلهى للبشر، ومن ثمّ استكثرت على المسيح الإله أن يخضع للموت على الصليب، لعدم فهمها للطبيعة الحقيقية للسيد المسيح الإله الكامل والإنسان الكامل فى الوقت نفسه، فزعمت أن جسد السيد المسيح لم يكن جسداً حقيقياً كأجساد سائر البشر وإنما كان جسداً غازياً أو أثيرياً. ومن ثمّ كانت آلامه على الصليب آلاماً ظاهرية فحسب. كما كان موته موتاً ظاهرياً أيضاً، وليس موتاً حقيقياً كما يموت الإنسان الطبيعي.

كما كان من أصحاب الهرطقات قوم من أصل يهودى يسمون الأبيونيين. نسبة إلى كلمة إبيون EBYON العبرانية، ومعناها «مسكين». وإذ لم يفهم أولئك الأبيونيون الطبيعة الإلهية للسيد المسيح عدّوه نبياً عادياً يشبه موسى وغيره من أنبياء اليهود. فلم يكن له وجود قبل التجسّد فى أحشاء السيدة العذراء مريم. وبذلك أنكروا لاهوته وأزليته. وكان يشابههم فى هذا الاعتقاد قوم من تلاميذ يوحنا المعمدان ظلوا على ولائهم لهذا النبى، فاعتبروا أن السيد المسيح ليس إلا تلميذاً ليوحنا، ومن ثمّ أنكروا لاهوته، وبذلك أنكروا العقيدة المسيحية من أساسها.

وقد نتج عن هذه المذاهب التى ابتدعها قوم من المسيحيين، فى حين أنها بعيدة كل البعد عن العقيدة المسيحية، أن شاع فى أجواء الكنيسة كثير من التساؤلات التى بلبلت أفكار المؤمنين عن الفداء والألوهية والتجسد والأقنومية والطبيعة الحقيقية للسيد المسيح، مما هدّد الكنيسة بأخطار لا تقل عمّا تعرضت له من تنكيل واضطهاد ومطاردة واستشهاد. فكان هذا هو الباعث للقديس يوحنا على كتابة بشارته التى انصبت في جوهرها على الإجابة عن تلك التساؤلات من واقع أقوال السيد المسيح نفسه وأعماله.

وإننا لنجد فى مقدمة تلك البشارة ملخصاً وافياً للعقيدة المسيحية فى عبارات موجزة، ولكنها فى إيجازها أدق وأصدق وأعمق وأبدع وأروع عبارات وردت فى تاريخ البشرية كلها عن تصوير عقيدة من العقائد أو شرح ديانة من الديانات، حتى إنها فى كلمات قليلة أغنت عن آلاف

الكتب والمجلدات في الردّ عل كل ما كان وكل ما يمكن أن يكون من هرطقات وخزعبلات ومزاعم يزعمها الزاعمون، أو يدّعيها المدّعون لتشويه العقيدة المسيحية وتجريح ما فيها من حقائق إلهية وعقائد سامية سماوية، مهما تخبطت العقول البشرية القاصرة القصيرة المدى في فهمها أو إدراك ما فيها من أسرار عميقة المعاني بعيدة الأغوار.

فهو يقرر في هذه العبارات التي بدأ بها بشارته أن السيد المسيح هو كلمة الله، وهذا تعبير آخر يساوي تمام المساواة القول بأنه هو ابن الله، لأنه هو الذي كلّم الله به البشر، وهو في الوقت نفسه الله ذاته: فهو الأزلي، لأنه «في البدء كان الكلمة .. وكان الكلمة هو الله» (يوحنا ١ : ١) - وهو الخالق، لأنه «كل شيء به كان، وبغيره لم يكن شيء مما كان» (يوحنا ١ : ٣) وهو الحياة وبه كانت الحياة، لأنه «فيه كانت الحياة، والحياة كانت نور الناس» (يوحنا ١ : ٤) . وذلك على الرغم من أن عقول الناس في ظلامها لم تستطع أن تدرك طبيعته الإلهية النورانية المستترة وراء جسده الإنساني فإن «النور يضيء في الظلمة، والظلمة لم تدركه» (يوحنا ١ : ٥) . وقد تجسد أي أنه «اتخذ جسداً» (يوحنا ١ : ١٤) . وكان بعد تجسّده إنساناً يبدو لسائر الناس كواحد منهم. فهو قد «حل بيننا» نحن البشر. ولكننا كما رأيناه في ناسوته رأيناه أيضاً في لاهوته، حين تجلّى في ألوهيته لتلاميذه على جبل التجلي، ومن ثمّ «أبصرنا مجده، مجد الابن الوحيد لأبيه» (يوحنا ١ : ١٤) أي أنه ابن الله بنوّة لا تشبه بنوّة الأبناء لآبائهم من البشر، وإنما بنوّة إلهية مقصورة عليه منحصرة فيه وحده. فهو ابن الله الوحيد الجنس، الذي - لأنه في كيان واحد مع الآب - أخبرنا عن الآب، ولم يكن أحد غيره يستطيع أن يخبرنا عن الآب، لأن «الله لم يره أحد قط. الابن الوحيد الذي في حضن الآب هو الذي أخبر عنه» (يوحنا ١ : ١٨) . وهو الذي دبرت الرحمة الإلهية أن يموت فداءً عن البشر لغفران خطاياهم. فهو «حمَل الله الذي يحمل خطيئة العالم» (يوحنا ١ : ٢٩) وبتلك الكلمات القليلة التي بدأ بها القديس يوحنا بشارته تبلورت العقيدة المسيحية في جوهرها. ثم كانت البشارة كلها بعد ذلك شرحاً وتوضيحاً لتلك العقيدة في كل تفصيلاتها وجزئياتها. فلم يعد ثمة مجال بعد ذلك لأي لبس أو إبهام يستغله أعداء المسيح من الهراطقة والمبتدعين وأصحاب القلوب الظالمة المظلمة في تشويه تلك العقيدة، أو تضليل المؤمنين بها.

فقد أسهب الإنجيل للقديس يوحنا في تسجيل الخطب المستفيضة التي ألقاها السيد المسيح في المناسبات المختلفة والمناقشات المنافية التي شرح فيها للسامعين طبيعته هو ذاته، وطبيعة الرسالة التي جاء من أجلها إلى العالم، ولا سيما الخطب التي ألقاها في هيكل أورشليم في

الأعياد، وخطبته التى ودع بها تلاميذه عشية القبض عليه، وحديثه مع نيقوديموس عضو مجلس السنهدريم، الذى زاره تحت جنح الظلام، وحديثه مع المرأة السامرية التى وجدها عند بئر يعقوب فى السامرة، وحديثه مع الأعمى منذ ولادته بعد أن جعله يبصر. ومع الرجل الذى شفاه من مرض الفالج عند بركة بيت حسدا بعد أن ظل مقعداً ثمانية وثلاثين عاماً. وفى خلال هذه الخطب والمناقشات والأحاديث، رفع الستار عن كثير من الأسرار المتعلقة بطبيعة شخصيته وجوهر رسالته. كما أن أعماله ومعجزاته التى ذكرها القديس يوحنا تؤكد ما قاله له المجد عن طبيعته، وعن تلك الرسالة التى نزل من السماء لينجزها. فقد أعلن للعالم أنه هو ابن الله، وأنه هو الله ذاته، وأنه قد اتخذ جسداً بشرياً كى ينجز عمل الفداء الذى دبرته الرحمة الإلهية لخلاص البشر من الهلاك المحكوم به عليهم من العدل الإلهى بسبب خطاياهم.

١ - فمما يدل على أنه هو المسيح ابن الله الذى تنبأ عنه الأنبياء من قبل، ما شهد به يوحنا المعمدان عنه إذ قال: «أنا قد أبصرت وشهدت بأن هذا هو ابن الله» (يوحنا ١ : ٣٤). كما قال إن «الآب يحب الابن وقد جعل فى يده كل شىء. فمن يؤمن بالابن له الحياة الأبدية، ومن لا يؤمن بالابن فلن يرى الحياة، بل يحل عليه غضب الله» (يوحنا ٣ : ٣٥، ٣٦) وكذلك قال القديس يوحنا اللاهوتى «أبصرنا مجده، مجد الابن الوحيد لأبيه» (يوحنا ١ : ١٤). وقال «الله لم يره أحد قط. الابن الوحيد الذى هو فى حضن الآب هو الذى أخبر عنه» (يوحنا ١ : ١٨). وقد خاطبه نثنائيل قائلاً «يا معلم أنت ابن الله» (يوحنا ١ : ٤٩). وقال له تلميذه بطرس متحدثاً باسم تلاميذه جميعاً: «نحن قد آمنا وعرفنا بيقين أنك أنت هو قدوس الله المسيح ابن الله الحى» (يوحنا ٦ : ٦٩). وقالت له مرثا أخت لعازر الذى أقامه من بين الأموات: «نعم يارب، إننى أؤمن بأنك أنت المسيح ابن الله الآتى إلى العالم» (يوحنا ١١ : ٢٧) وقد قرر السيد المسيح نفسه هذه الحقيقة، إذ أنه بعد أن جعل الأعمى منذ ولادته يبصر قال له: «أتؤمن بابن الله؟» فأجاب ذاك وقال: «من هو يا سيدى فأومن به؟» فقال له «إنك تراه وهو هو الذى يكلمك» (يوحنا ٩ : ٣٥ - ٣٧). وحين كان يتكلم مع المرأة السامرية عند بئر يعقوب «قالت له المرأة: نحن نعلم أن مسيا الذى يدعى المسيح آت، فمتى أتى فسيخبرنا بكل شىء، فقال لها يسوع: أنا الذى أكلمك هو» (يوحنا ٤ : ٢٥ و ٢٦) وقال لنيقوديموس عضو مجلس السنهدريم اليهودى: «إلى هذا المدى أحب الله العالم حتى إنه بذل ابنه الوحيد لكى لا يهلك كل من يؤمن به، وإنما ينال الحياة الأبدية، لأن الله لم يرسل ابنه إلى العالم ليدين العالم، بل ليخلص به العالم. فالذى يؤمن به لا يدان والذى لا يؤمن به قد أدين، لأنه لم يؤمن باسم ابن الله الوحيد، وهذه هى الدينونة:

أن النور جاء إلى العالم وأحب الناس الظلمة أكثر من النور، لأن أعمالهم كانت شريرة» (يوحنا ٣: ١٦ ـ ١٩). وقد كان السيد المسيح يتكلم عن نفسه دائماً باعتباره ابن الله. وباعتبار أن الله أبوه. فكان يقول لليهود: «أعمالاً كثيرة حسنة أريتكم من لدن أبي» (يوحنا ١٠: ٣٢) وقد طرد الباعة من هيكل أورشليم قائلا لهم: «لا تجعلوا بيت أبي بيت تجارة» (يوحنا ٢: ١٦). وكان السيد المسيح حين يخاطب الله يقول: «يا أبتاه أشكرك لأنك قد سمعت لي» (يوحنا ١١: ٤١). ويقول «يا أبتاه قد أتت الساعة. مجد ابنك ليمجدك ابنك. كما أنك قد أعطيته سلطاناً على كل جسد كي يعطي الحياة الأبدية لكل الذين أعطيته إياهم. وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحق الواحد وحده مع يسوع المسيح الذي أرسلته.. مجّدني يا أبتاه عند ذاتك بالمجد الذي كان لي عندك من قبل كون العالم» (يوحنا ١٧: ١ ـ ٥). ويقول: «قد أظهرت اسمك للذين أعطيتنيهم من العالم.. يا أبتاه القدوس احفظهم في اسمك هؤلاء الذين أعطيتنيهم.. يا أبتاه أريد أن هؤلاء الذين أعطيتنيهم يكونون معي حيث أكون أنا.. يا أبتاه الحق إن العالم لم يعرفك، وأما أنا فعرفتك، وهؤلاء أيضاً عرفوا أنك أنت الذي أرسلتني» (يوحنا ١٧: ٦و ١١و ٢٤و٢٥).

والسيد المسيح بصفته ابن الله وكلمته يتصف بكل الصفات التي يتصف بها الله الآب: ويملك كل قدراته وسلطانه. لأنه في كيان واحد معه. فهو أزلي إذ يقول القديس يوحنا إنه «في البدء كان الكلمة.. وكان الكلمة هو الله» (يوحنا ١: ١) والسيد المسيح نفسه يقول «قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن» (يوحنا ٨: ٥٨). وهو الخالق لكل شيء، إذ يقول القديس يوحنا إن «كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان» (يوحنا ١: ٣). وقد أيّد له المجد هذا القول بأن خلق عينين للرجل المولود بغير عينين في مقلتيه (يوحنا ٩: ٦ـ ٣١) وهو المحيي والذي يعيد الموتى إلى الحياة، كما أقام لعازر بعد أن ظل ميتاً في القبر أربعة أيام حتى تحللت جثته وأوشكت أن تصير تراباً (يوحنا ١١: ١ ـ ٤٤). وهو الديّان في اليوم الأخير إذ قال إن «الآب لا يدين أحداً وإنما سلم القضاء كله للابن» (يوحنا ٥: ٢٢). وقد صرح السيد المسيح بأن له السلطان الذي للآب. إذ أراد اليهود أن يقتلوه لأنه شفى الرجل المقعد عند بركة بيت حسدا في يوم سبت، فقال لهم: «إن أبي حتى الآن يعمل وأنا أيضاً أعمل. فاشتدت رغبة اليهود في قتله، لأنه لم ينقض السبت فحسب، وإنما قال أيضاً: الله أبي، مساوياً نفسه بالله، ومِن ثَمّ أجاب يسوع وقال لهم: الحقّ الحقّ أقول لكم إن الابن لا يسعه أن يعمل من نفسه شيئاً إلا ما يرى الآب يعمله. لأن كل ما يعمله الآب، يعمله الابن أيضاً.. لأنه كما أن الآب يقيم الموتى ويحييهم، هكذا الابن يحيي من يشاء. فإن الآب لا يدين أحداً. وإنما سلّم القضاء كله للابن» (يوحنا ٥: ١٧ ـ ٢٢) وقال لليهود: «أتقولون أنتم للذي قدّسه الآب وأرسله إلى العالم إنك تجدّف لأني قلت إنني أنا ابن الله؟ إن لم أكن أعمل أعمال

أبى فلا تؤمنوا بى، ولكن إن كنت أعملها فإن لم تؤمنوا بى فآمنوا بالأعمال، لتعلموا وتعرفوا أنى أنا فى أبى، وأن أبى فىّ» (يوحنا ١٠ : ٣٦ - ٣٨).

٢ - لقد صارح السيد المسيح الناس بحقيقة أخرى تنطوى على سر إلهى يعلو على مدارك البشر، لأنه يتعلق بطبيعة الله التى لا يمكن أن يدركها بشر. إذ بينما قال عن نفسه إنه ابن الله، قال إنه هو والله الآب كيان واحد وذات واحدة. فقد قال لتلاميذه: «أنا هو الطريق والحق والحياة. لا يأتى أحد إلى الآب إلا بى. لو كنتم عرفتمونى لعرفتم أبى أيضاً. ومنذ الآن تعرفونه وقد رأيتموه. فقال له فيلبس: يارب أرنا الآب وكفانا. قال له يسوع: أنا معكم كل هذا الزمان ولم تعرفنى بعد يا فيلبس؟ من رآنى فقد رأى الآب، فكيف تقول أنت أرنا الآب؟ ألا تؤمن بأنى أنا فى أبى وأن أبى فىّ؟ إن الكلام الذى أكلمكم به لا أتكلم به من نفسى أنا وحدى، وإنما الآب الكائن فىّ هو الذى يعمل أعماله. صدقونى أنى فى أبى وأن أبى فىّ، وإلا فصدقونى من أجل الأعمال نفسها» (يوحنا ١٤ : ٦ - ١١). وقال: «الذى يرانى فقد رأى الذى أرسلنى» (يوحنا ١٢ : ٤٥). وقال مخاطباً أباه السماوى: «يا أبتاه قد أتت الساعة. مجد ابنك ليمجدك ابنك. كما أنك قد أعطيته سلطاناً على كل جسد كى يعطى الحياة الأبدية لكل الذين أعطيتهم لى. وهذه هى الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحق الواحد وحده مع يسوع المسيح الذى أرسلته. أنا قد مجدتك على الأرض، والعمل الذى أعطيتنى لأعمل قد أكملته. فالآن مجدنى يا أبتاه عند ذاتك بالمجد الذى كان لى عندك من قبل كون العالم.. وجميع ما هو لى فهو لك، وجميع ما هو لك فهو لى.. أنا لست فى العالم بعد. وأما هؤلاء (أى تلاميذه) فهم فى العالم. وأنا آتى إليك. يا أبتاه القدوس، احفظهم فى اسمك، هؤلاء الذين أعطيتنيهم، ليكونوا فى وحدة كما نحن» (يوحنا ١٧ : ١ - ٥، ١٠، ١١). وقال: «لست أطلب من أجل هؤلاء فقط، وإنما أيضاً من أجل أولئك الذين يؤمنون بى بكلامهم، ليكونوا جميعهم فى وحدة، كما أنك أنت أيها الآب فىّ، وأنا أيضاً فيك، ليكونوا هم أيضاً فى وحدة فينا.. قد أعطيتهم المجد الذى أعطيتنى، ليكونوا فى وحدة كما أننا نحن أيضاً فى وحدة. أنا فيهم وأنت فىّ، ليكونوا هم أيضاً فى وحدة كاملة» (يوحنا ١٧ : ٢٠ - ٢٣).

٣ - أما رسالة الفداء التى تنازل من أجلها المسيح ابن الله الآب - الذى هو فى كيان واحد مع الله الآب - فجاء إلى العالم متخذاً جسداً بشرياً لينجزها، فبيانها كما أوضح الكتاب المقدس أن الله خلق الإنسان الأول على صورته. إذ جاء فى سفر التكوين أن الله قال: «نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا.. فخلق الله الإنسان على صورته» (التكوين ١ : ٢٦ و٢٧). ولما كان الله روحاً لا جسد له ولا مادة فيه، لا يمكن أن ينصرف معنى هذا القول إلى أن مشابهة الإنسان لله كانت

في الجسد المادي، وإنما في الروح التي أودعها في هذا الجسد. وفيما تتصف به هذه الروح من الكمال الإلهي، المنزه عن الشر والنجاسة والدنس، وقد زود الله الإنسان بوصاياه التي تكفل له الاحتفاظ بهذا الكمال، معتبراً إياه ابنه، ومانحاً إياه النعيم في ملكوته. بيد أن هذا الإنسان الأول الذي خلقه الله وتبناه ومنحه الإرادة الكاملة، لم يلبث أن خالف وصايا خالقه وأبيه، وانغمس في الشر والنجاسة والدنس، ففقد بذلك كماله. وأمسى غير خليق ببنوته له. بل صار غير خليق بأن تصله أي صلة بالله الذي هو خير محض وقداسة كاملة وطهارة مطلقة. ومن ثم نبذه الله وطرده من ملكوته. وإذ كان ما فعله الإنسان يتضمن تمرداً على الله وخطيئة في حقه، غضب الله عليه، واستوجب أمام عدله الإلهي الهلاك والموت. لأن جزاء الخطيئة في العدل الإلهي هو الموت (رومية ٦: ٢٣) غير أن الله - وإن كان يتصف بالعدل - يتصف في الوقت ذاته، وعلى مقتضى كماله المطلق، بالرحمة أيضاً. فإذا انتفت إحدى هاتين الصفتين فيه كان ذلك يتضمن نقصاً، والله منزّه عن النقص. ومن ثمّ فإنه إن كان قد حكم على الإنسان ذلك الحكم الذي يستحقه بموجب عدله، شاءت إرادته ومحبته أن يفتح له - وهو خلقته - باب الخلاص بموجب رحمته، وذلك بأن يتيح له التكفير عن خطيئته ليستحق عفو الله وغفرانه. لأنه لا عفو ولا مغفرة بدون تكفير. ولما كان التكفير في هذه الحالة يقتضي الموت. لأنه لا كفارة في شريعة الله بغير سفك دم (العبرانيين ٩: ٢٢). ثم لما كانت النفس التي أخطأت هي التي ينبغي أن تموت ويسفك دمها وكان الإنسان بعد أن أخطأ قد أمسى غير جدير بأن يكفر عن الإنسان، لأنه قبل خطيئته كان ذا طبيعة طاهرة، ثم أصبح بعد خطيئته ذا طبيعة جسدية دنسة، هيأ الله - بحكمته وقدرته ورحمته - وسيلة عجيبة يرفع بها الإنسان إلى طبيعته الأولى، لكي ينال فيها القصاص الذي يستوجبه العدل الإلهي. وذلك بأن يحل هو ذاته في جسد إنسان، لينال في هذا الجسد ذلك القصاص، كي ينقذ الإنسان من حكم الموت الذي كان مقضياً به عليه.

وإذا تحدث الله عن ابن الله لا يمكن أن ينصرف معنى ذلك إلى البنوّة بالمعنى البشري المادي، وإنما هو مجرد تعبير يستخدمه الله ليتيح للإنسان ذي اللغة القاصرة والعقل المحدود المدى فهمَ علاقة الله الآب بالله الابن في الطبيعة الإلهية التي هي روح خالصة ذات وحدة مطلقة، والتي هي فوق مدارك البشر. وهكذا وعد الله على لسان أنبيائه بأنه - في الوقت الذي حددته حكمته الإلهية - سيرسل ابنه لتتحد طبيعته الإلهية بطبيعة الإنسان البشرية، فيعيد إليه الكمال الذي سبق له أن فقده بخطيئته. ومن ثمّ يكون ذلك الإنسان الكامل الذي هو في ذات الوقت الإله الكامل خليقاً بالتكفير عن خطيئة الإنسان الأول، بأن يموت فداء عنه، تنفيذاً للعدل الإلهي، وبذلك تتحقق كفالة العدل والرحمة معاً. ويتم خلاص الإنسان على يد ذلك الفادي الذي

تحدت فيه الطبيعة الإلهية بالطبيعة البشرية. وهذا هو المعنى الذى أشار إليه يوحنا المعمدان حين أشار إلى السيد المسيح قائلاً: «هوذا حمل الله الذى يحمل خطيئة العالم» (يوحنا ١ : ٢٩). كما أن هذا هو المعنى الذى توضحه أقوال السيد المسيح الكثيرة التى أوردها القديس يوحنا فى بشارته، إذ يقول له المجد: «وكما رفع موسى الحية فى البرية، هكذا ينبغى أن يرفع ابن الإنسان، لكى لا يهلك كل من يؤمن به، وإنما ينال الحياة الأبدية، لأنه إلى هذا المدى أحب الله العالم حتى إنه بذل ابنه الوحيد، لكى لا يهلك كل من يؤمن به، وإنما ينال الحياة الأبدية، لأن الله لم يرسل ابنه إلى العالم ليدين العالم، وإنما ليخلص به العالم» (يوحنا ٣ : ١٤ - ١٧). وقد أوضح السيد المسيح أنه يفعل ذلك لا جبراً ولا اضطراراً ولا على كره منه، وإنما بمحض إرادته واختياره ورضاه، بدافع من صلاحه وحبه للبشر، إذ قال: «أنا هو الراعى الصالح، والراعى الصالح يبذل نفسه عن الخراف... وسأبذل نفسي عن خرافي... لذلك يحبني أبي، إذ أبذل نفسي كي استردها. ما من أحد ينتزعها مني، وإنما أبذلها أنا وحدي من ذاتي. فلي سلطان أن أبذلها ولي سلطان أن أستردها» (يوحنا ١٠ : ١١ - ١٨) وقال: «ما من حب أعظم من أن يبذل أحد نفسه عن أحبائه» (يوحنا ١٥ : ١٣).

وقد كان السيد المسيح له المجد يعلم أن عمل الفداء هو الرسالة الأساسية التى جاء من أجلها إلى العالم. وقد قرر ذلك فى أشد الساعات هولاً حين كان يتوقع أن يأتى رؤساء اليهود بعد لحظات ليقبضوا عليه ويعذبوه ويهينوه ثم يقتلوه بأبشع وسيلة وأشنعها، وهى أن يعلقوه مسمر اليدين والقدمين على خشبة الصليب، إذ قال مناجياً أباه السماوي: «يا أبتاه نجنى من هذه الساعة. ولكننى من أجل هذا أتيت إلى هذه الساعة» (يوحنا ١٢ : ٢٧).

٤ - وقد اتخذ السيد المسيح ابن الله وكلمته جسد إنسان كى يتمم فيه عمل الفداء الذى جاء من أجله إلى العالم، فكان إنساناً كاملاً يشابه الناس فى كلّ شىء ما عدا الخطيئة، إذ أنه لم يرتكب خطيئة أبداً. وقد قال ذلك عن نفسه، إذ خاطب اليهود حين هجموا عليه ليقتلوه قائلاً «الآن تبتغون قتلى، وأنا إنسان قد كلمكم بالحق.. من منكم يستطيع أن يُثبت عليّ خطيئة؟» (يوحنا ٨ : ٤٠ و ٤٦).

أما فيما عدا ذلك فقد كانت للسيد المسيح فضلاً عن ألوهيته الكاملة، إنسانيته الكاملة فى الوقت نفسه. فيقول القديس يوحنا فى مقدمة بشارته إن «الكلمة اتخذ جسداً وحل بيننا» (يوحنا ١ : ١٤) فقد كان الجسد الذى اتخذه له المجد جسد إنسان. وكان ميلاده من السيدة العذراء مريم ميلاد إنسان يشابه فى الشكل والطبيعة الإنسانية سائر بنى الإنسان. كما أن

النبوات عنه كانت تشير إلى هذه الحقيقة بكلمات صريحة، إذ يقول دانيال النبي: «كنت أرى في رؤى الليل وإذا مع سحاب السماء مثل ابن إنسان أتى وجاء إلى القديم الأيام فقربوه قدامه، فأعطي سلطاناً ومجداً وملكوتاً لتتعبد له كل الشعوب والأمم والألسنة. سلطانه سلطان أبدي ما لن يزول وملكوته ما لا ينقرض» (دانيال ٧: ١٣ و ١٤). ولذلك فإن السيد المسيح مع أنه كان يقول عن نفسه إنه ابن الله الآب، ويقول إنه هو والله الآب كيان واحد، كان في الوقت نفسه يقول عن نفسه إنه ابن الإنسان، ليوضح أنه إنسان كامل وأن ناسوته ناسوت حقيقي وليس خيالياً أو مظهرياً فحسب. فهو يقول: «ما من أحد صعد إلى السماء إلا ذلك الذي نزل من السماء، ابن الإنسان الذي هو في السماء» (يوحنا ٣: ١٣) ويقول: «وكما رفع موسى الحية في البرية، هكذا ينبغي أن يرفع ابن الإنسان، لكي لا يهلك كل من يؤمن به، وإنما ينال الحياة الأبدية» (يوحنا ٣: ١٤) ويقول: «كما أن الآب له الحياة في ذاته، هكذا أعطى الابن أن تكون له الحياة في ذاته، وقد أعطاه السلطان لأن يدين، لأنه ابن الإنسان» (يوحنا ٥: ٢٦ و ٢٧). وقد كان جسد السيد المسيح يشبه جسد كل إنسان فهو جسد مادي من دم ولحم وعظام. وقد احتمل بهذا الجسد المادي آلام الجلد والصلب، وبه مات، وبه قام من بين الأموات. وظلت ظاهرة فيه آثار المسامير التي دقوها في يديه وقدميه، وأثر الحربة التي طعنوه بها في جنبه. فلما ظهرلتلاميذه قال الإنجيل المقدس: إنه «أراهم يديه وجنبه» ليتأكدوا من تلك الآثار التي تركتها المسامير وتركتها الحربة في جسده.. «أما توما.. فلم يكن معهم.. فقال لهم: إن لم أبصر في يديه أثر المسامير وأضع في موضع المسامير إصبعي وأضع يدي في جنبه لا أؤمن. ثم بعد ثمانية أيام كان التلاميذ مجتمعين في الداخل أيضاً، وكان توما معهم، فدخل يسوع والأبواب مغلقة ووقف في وسطهم.. ثم قال لتوما: هات إصبعك إلى هنا وأبصر يديّ، وهات يدك وضعها في جنبي، ولا تكن غير مؤمن بل مؤمناً. فأجاب توما وقال له: ربي وإلهي» (يوحنا ٢٠: ١٩ ـ ٢٨).

ولعلّ مما يبرهن على أن السيد المسيح كان إنساناً بكل ما في هذه الكلمة من معنى، أن الإنجيل المقدس وصف بعض الجوانب في حياته والتي تدل على أنه كان يعيش كسائر الناس الطبيعيين، فهو يأكل ويشرب، ويجوع ويعطش، وينام ويستيقظ، ويتعب ويستريح، ويفرح ويحزن، ويبتهج ويبكي، ويرضى ويغضب، وغير ذلك من أحوال الناس اليومية وما يستشعرونه من عواطف وأحاسيس وفقاً لما يحيط بهم من ظروف وملابسات: فقد تعب من السير واستراح عند بئر يعقوب، وحين جاءت المرأة السامرية كان قد عطش فقال لها: «أعطيني لأشرب» (يوحنا ٤: ٧). كما أنه حين كان معلقاً على الصليب «قال أنا عطشان» (يوحنا ١٩: ٢٨). وهو يفرح، إذ قال لتلاميذه بعد أن أنبأهم بموت لعازر: «وأنا أفرح من أجلكم، إذ لم أكن هناك

لتؤمنوا» (يوحنا ١١: ١٥) وقال لهم في موضع آخر: «كلمتكم بهذا ليكون فرحي فيكم، وليكتمل فرحكم» (يوحنا ١٥: ١١) وهو يتألم ويضطرب بل إنه يبكي. فإنه حين أتت إليه مريم أخت لعازر بعد موت أخيها «خرت عند رجليه قائلة له: يارب لو كنت هنا ما كان أخي قد مات. فلما رآها يسوع تبكي ورأى اليهود الذين جاءوا معها أيضاً يبكون تألم بالروح واضطرب، وقال لهم: أين وضعتموه ؟. قالوا له: يارب تعال وانظر. بكى يسوع. فقال اليهود: انظروا كم كان يحبه؟ وقال بعض منهم: أما كان هذا الذى فتح عيني الأعمى منذ ولادته قادراً على ألا يترك هذا أيضاً يموت؟ فتحنن يسوع في نفسه وجاء إلى القبر» (يوحنا ١١: ٣٢ ـ ٣٨).

وحين اقترب موعد آلامه وصلبه قال: «نفسي الآن قد اضطربت، فماذا أقول؟ يا أبتاه نجني من هذه الساعة، ولكنني من أجل هذا أتيت إلى هذه الساعة» (يوحنا ١٢: ٢٧).

وحين أنبأ تلاميذه في حفلة الوداع بأن واحداً منهم سيخونه ويسلمه إلى أعدائه، يقرر الإنجيل المقدس أنه «لما قال يسوع هذا اضطرب بالروح وصرّح قائلاً: الحقّ الحقّ أقول لكم إن واحداً منكم سيسلمني» (يوحنا ١٣: ٢١) وقد كابد السيد المسيح آلامه حين جلّده اليهود وأهانوه وصلبوه وطعنوه مكابدة حقيقية كأى إنسان يتعرض لمثل هذه المحنة القاسية، ويقاسى مثل ما تعرّض له هو من آلام وأهوال. كما أنه مات على الصليب كما يموت أى إنسان: إذ أنه «أمال رأسه وأسلم الروح» (يوحنا ١٩: ٣٠). بيد أن الإنجيل للقديس يوحنا قد أوضح أن السيد المسيح ابن الله، وإن كان قد اتخذ جسد إنسان، وأصبح ذا طبيعة إنسانية كاملة، كان في الوقت ذاته ذا طبيعة إلهية كاملة. لأن لاهوته لم يفارق ناسوته لحظة واحدة أو طرفة عين، أو في أى ظرف من الظروف أو ملابسة من الملابسات، ويتضح ذلك من قول الإنجيل للقديس يوحنا إن «الكلمة اتخذ جسداً وحل بيننا» (يوحنا ١: ١٤). مما يدل على اتحاد الكلمة ابن الله بالناسوت الذى اتخذه اتحاداً تاماً وكاملاً. كما يتضح ذلك من قول السيد المسيح نفسه: «ما من أحد صعد إلى السماء إلا ذلك الذى نزل من السماء، ابن الإنسان الذى هو في السماء» (يوحنا ٣: ١٣). فقد قال عن نفسه إنه ابن الإنسان، مشيراً بذلك إلى أنه ابن مريم بحسب الجسد الذى اتخذه منها، ومع ذلك قرر أنه كائن في الوقت نفسه في السماء. مشيراً بذلك إلى لاهوته المتحد بناسوته على الأرض، وظل مع ذلك في السماء. كما أنه قال في هذا المعنى كذلك: «الحق الحق أقول لكم إنكم سترون السماء مفتوحة وملائكة الله يصعدون وينزلون على ابن الإنسان» (يوحنا ١: ٥١). فإن المسيح الإنسان هو في الوقت نفسه المسيح الإله، ومن ثمّ تمجده الملائكة التى لا تفتأ تمجد الله في كل حين. ومن ذلك يتضح أن المسيح ابن الله متحد في كينونة واحدة مع الله الآب. كما يتضح أن المسيح ابن الله هو في نفس الوقت المسيح ابن الإنسان، أى أن لاهوته متحد بناسوته اتحاداً كاملاً بغير

اختلاط أو امتزاج أو تغيير، فهما كيان واحد، وجوهر واحد، وطبيعة واحدة، ومشيئة واحدة. وهذا سر من أسرار العقيدة المسيحية لا يستوعبه الإنسان إلا بموهبة من الله، يفتح بها بصيرته الروحية، فيتسامى عن طبيعته الجسدية المادية الدنيوية، ويحلق بأجنحة من النور في السمائيات والإلهيات.

٥ ـ وقد أسهب الإنجيل للقديس يوحنا أكثر من غيره من البشائر في تسجيل عبارات السيد المسيح عن الروح القدس لأن الحديث عنه يتصل اتصالاً وثيقاً بالنواحي اللاهوتية التي اهتم بها الإنجيل للقديس يوحنا. ففي الحديث الذي أورده بين السيد المسيح ونيقوديموس قال له: «الحقَّ الحقَّ أقول لك إن الإنسان ما لم يولد من الماء والروح لا يمكنه أن يدخل ملكوت الله. فالمولود من الجسد هو جسد، والمولود من الروح هو روح» (يوحنا ٣: ٥و ٦). وفي حديثه الوداعي مع تلاميذه قال لهم: «إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي، وسأطلب إلى الآب فيعطيكم معزياً آخر ليقيم معكم إلى الأبد: روح الحق الذي لا يستطيع العالم أن يقبله لأنه لا يراه ولا يعرفه. وأما أنتم فتعرفونه، لأنه يقيم معكم ويكون فيكم» (يوحنا ١٤: ١٥ ـ ١٧) وقال لهم «حتى إذا جاء المعزِّي وهو الروح القدس الذي سيرسله الآب باسمي سيعلِّمكم كلَّ شيء ويذكركم بكل ما قلته لكم» (يوحنا ١٤: ٢٦). وقال لهم: «ومتى جاء المعزِّي الذي سأرسله أنا إليكم من عند أبي، روح الحق المنبثق من الآب: فهو يشهد لي» (يوحنا ١٥: ٢٦). وقال لهم: «أقول لكم الحق إنه خير لكم أن أنطلق. لأنني إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزِّي. أما إذا مضيت فإني أرسله إليكم. ومتى جاء هذا فسيوبخ العالم على الخطيئة وعلى البر وعلى الدينونة. أما على الخطيئة فلأنهم لا يؤمنون بي. وأما على البر فلأنني منطلق إلى أبي فلا ترونني بعد. وأما على الدينونة فلأن رئيس هذا العالم قد أدين. لا يزال عندي كلام كثير لأقوله لكم. ولكنكم لا تطيقون احتماله الآن. فمتى جاء ذاك الذي هو روح الحق فهو يرشدكم إلى الحق كله لأنه لا يتكلم من عنده، وإنما يتكلم بما يسمعه، وسيخبركم بأمور آتية. إنه يمجدني لأنه يأخذ مما لي ويخبركم. جميع ما للآب هو لي. لذلك قلت لكم إنه يأخذ مما لي ويخبركم» (يوحنا ١٦: ٧ ـ ١٥). ثم بعد قيامة السيد المسيح في يوم الأحد وظهوره لتلاميذه في مساء ذلك اليوم، قال لهم: «كما أرسلني الآب كذلك أرسلكم أنا. قال هذا ثم نفخ في وجوههم وقال لهم: اقبلوا روح القدس. من غفرتم لهم خطاياهم غُفرت لهم. ومن أمسكتموها عليهم أُمسكت عليهم» (يوحنا ٢٠: ٢١ ـ ٢٣). ويتضح من هذه الأقوال كلها التي أفضى بها السيد المسيح إلى تلاميذه أن الروح القدس له ما للآب وما للابن من صفات وقدرات وكمالات. وهو مع ذلك ليس كائناً بذاته منفصلاً عن الآب والابن. وإنما هو في كيان واحد وجوهر واحد معهما. وذات إلهية واحدة.

٦ـ ونرى مما سلف أن الإنجيل للقديس يوحنا تكلّم عن الآب وعن الابن وعن الروح القدس، لا بمعنى أنهم أشخاص يقوم كل منهم بذاته منفصلاً كل منهم عن الآخر، وإنما بمعنى أنهم خاصيات تتميز بها طبيعة الله الواحد: فالله فى ذاته هو الآب، والله فى صلته بالبشر هو الكلمة أو الابن الذى كلّم به البشر. والله فى قوته وقدرته ومواهبه هو الروح القدس، الذى تظهر فاعليته فى تدبير الأشياء التى فى الكون، والأشخاص الذين يعيشون فى هذا الكون. ولكن الله الذى تتّصف طبيعته بهذه الخاصيات هو الله الواحد الذى لا إله غيره والمنزه عن التعدّد بأى صورة من الصور أو بأى معنى من المعانى. وهذا هو ما قرره السيّد المسيح صراحة، إذ قال لليهود وهو يجادلهم: «كيف يمكنكم أن تؤمنوا وأنتم تقبلون المجد بعضكم من بعض. وأما المجد الذى من الله الواحد وحده فلا تبتغونه» (يوحنا ٥: ٤٤). وقال فى مناجاته لأبيه السماوى وهو يلقى خطابه الوداعى لتلاميذه: «هذه هى الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحق الواحد وحده» (يوحنا ١٧: ٣).

وهكذا كان الموضوع الأساسى لبشارة القديس يوحنا هو بيان الطبيعة اللاهوتية الكاملة للسيد المسيح متحدة اتحاداً تاماً وجوهرياً بطبيعته الناسوتية الكاملة. وذلك رداً على الأفكار الخاطئة الخبيثة التى أشاعها بعض الهراطقة الضالين من ضعيفى العقل أو ضعيفى الإيمان عن طبيعة السيد المسيح، فضللوا بها المؤمنين وبلبلوا أفكارهم، وعملوا على بث الفرقة بين صفوفهم، مما دعا القديس يوحنا إلى التصدى لهم بكتابة هذه البشارة التى أنقذ بها الكنيسة من مكرهم وشرهم وضلالهم وخطورة أقوالهم وأعمالهم.

بيد أن ثمة مسحة أخرى تسود هذه البشارة فضلاً عن مسحتها اللاهوتية، وهى الإسهاب فى الحديث عن المحبة باعتبارها عنصراً جوهرياً فى العقيدة المسيحية، وباعتبارها الوصية الأولى والعظمى للسيد المسيح التى تشتمل فى مضمونها ومفهومها على كل وصية أخرى. وقد أورد الإنجيل للقديس يوحنا كثيراً من أقوال السيد المسيح التى يقرر فيها أن الله الآب يحب الابن، وأن الابن يحب الآب، وأن الآب والابن معاً يحبّان المؤمنين بدرجة تفوق كل حد يمكن أن يتصوره بشر، إذ قال إن «الآب يحب الابن. وهو يريه كل ما يعمل» (يوحنا ٥: ٢٠) وقال: «لكى يعرف العالم أنى أحب أبى، وأنى أعمل ما أوصانى به أبى» (يوحنا ١٤: ٣١). وقال لتلاميذه: «كما أحبنى أبى هكذا أحببتكم أنا. فاثبتوا فى محبتى. إن حفظتم وصاياى تثبتم فى محبتى، كما أنى أنا حفظت وصايا أبى وثبت فى محبته» (يوحنا ١٥: ٩ و ١٠). وقال لهم «إن كنتم تحبوننى فاحفظوا وصاياى.. إن الذى لديه وصاياى ويحفظها هو الذى يحبنى، والذى يحبنى يحبه أبى

وأنا أيضاً أحبه وأظهر له ذاتي.. من يحبني يحفظ كلامي ويحبه أبي وإليه نأتي وعنده نقيم. ومن لا يحبني لا يحفظ كلامي» (يوحنا ١٤: ١٥ و ٢١ و ٢٣ و ٢٤). وقال لهم: «لأنه إلى هذا المدى أحب الله العالم حتى إنه بذل ابنه الوحيد، لكي لا يهلك كل من يؤمن به، وإنما ينال الحياة الأبدية» (يوحنا ٣: ١٦) وقال لهم: «هذه هي وصيتي، أن تحبوا بعضكم بعضاً كما أحببتكم أنا. ما من حب أعظم من أن يبذل أحد نفسه عن أحبائه. وأنتم تكونون أحبائي إن عملتم بما أوصيكم به. لا أدعوكم عبيداً بعد، لأن العبد لا يعلم بما يعمل سيده. وأما أنتم فقد دعوتكم أحباء لأنني عرّفتكم بكل ما سمعته من أبي.. بهذا أوصيكم: أن تحبوا بعضكم بعضاً» (يوحنا ١٥: ١٢ - ١٧) وقال لهم: «وصيةً جديدة أنا أعطيكم: أن تحبوا بعضكم بعضاً. كما أحببتكم أنا، فلتحبوا أنتم أيضاً بعضكم بعضاً. بهذا يعرف الجميع أنكم تلاميذي إذا أحببتم بعضكم بعضاً» (يوحنا ١٣: ٣٤ و ٣٥) وقال لهم: «قد كلمتكم عن هذا بأمثال. ولكن تأتي ساعة حين لا أكلمكم بعد بأمثال، وإنما أكلمكم عن الآب صراحة. وفي ذلك اليوم ستطلبون باسمي. ولا أقول لكم إنني سأطلب إلى الآب من أجلكم. فإن الآب نفسه يحبكم لأنكم أحببتموني وآمنتم بأنني من الله الآب خرجت. خرجت من الآب وجئت إلى العالم، ثم أترك العالم وأنطلق إلى الآب» (يوحنا ١٦: ٢٥ - ٢٨). وقال السيد المسيح في مناجاته لأبيه السماوي: «ولست أطلب من أجل هؤلاء فقط (أي تلاميذه)، وإنما أيضاً من أجل أولئك الذين يؤمنون بي بكلامهم، ليكونوا جميعهم في وحدة، كما أنك أنت أيها الآب فيَّ وأنا أيضاً فيك، ليكونوا هم أيضاً في وحدة فينا، كي يؤمن العالم بأنك أنت الذي أرسلتني.. وأنني أحببتهم كما أحببتني.. لأنك أحببتني قبل إنشاء العالم. يا أبتاه الحق إن العالم لم يعرفك. وأما أنا فعرفتك. وهؤلاء أيضاً عرفوا أنك أنت الذي أرسلتني، وقد أخبرتهم باسمك وسأظل أخبرهم، لتكون فيهم المحبة التي بها أحببتني، وأكون أنا أيضاً فيهم» (يوحنا ١٧: ٢٠ - ٢٦) وقد أكد الإنجيل للقديس يوحنا محبة السيد المسيح لتلاميذه إذ قال: «وقبل عيد الفصح رأى يسوع أن ساعته قد جاءت لينتقل من العالم ويمضي إلى الآب. وقد أحب خاصته الذين في العالم. أحبهم إلى نهاية المدى» (يوحنا ١٣: ١) كما أن الإنجيل للقديس يوحنا أشار بوجه خاص إلى بعض الذين أحبهم السيد المسيح، ومنهم لعازر الذي حين علم أنه مات قال لتلاميذه: «إنَّ لعازر حبيبنا قد نام، ولكني سأذهب لأوقظه» (يوحنا ١١: ١١). وحين رأى لوعة مريم ومرثا أختي لعازر على أخيهما، تأثر تأثراً عظيماً حتى لقد بكى.. «فقال اليهود: أنظروا كم كان يحبه» (يوحنا ١١: ٣٦) كما أشار الإنجيل للقديس يوحنا إلى شخص آخر كان السيد المسيح يحبه بصفة خاصة. وكان هذا الشخص هو القديس يوحنا نفسه، إذ يقول إنه في ليلة العشاء الرباني «وكان متكئاً في حضن يسوع واحد من تلاميذه

وهو الذى كان يسوع يحبه» (يوحنا ١٣ : ٢٣) . وفى فجر يوم قيامة السيد المسيح يقول الإنجيل للقديس يوحنا إن مريم المجدلية ذهبت إلى القبر فلم تجد جسد يسوع.. «فركضت وجاءت إلى سمعان بطرس وإلى التلميذ الآخر الذى كان يسوع يحبه، وقالت لهما: قد أخذوا سيدنا من القبر ولا أعلم أين وضعوه» (يوحنا ٢٠ : ٢) وقد سبق أن رأينا أن القديس يوحنا كان فى أواخر أيامه قد أنهكته الشيخوخة، فكان يردد على مسامع المؤمنين وهو يعظهم عبارة واحدة لا يفتأ يكررها وهى قوله: «يا أبنائى أحبوا بعضكم بعضاً». ثم يقول لهم: «هذه هى الوصية الأولى للرب. فإن عملتم بها تكونون قد أطعتم كل وصية أخرى».

وإذ كان القديس يوحنا قد كتب بشارته بعد سنوات عدة من ظهور بشائر القديسين متى ومرقس ولوقا، لم يشأ أن يكرر ما سبق أن ذكره أولئك القديسون فى بشائرهم من وقائع حياة السيد المسيح، لأن هذه الوقائع أصبحت معروفة لدى جميع المؤمنين ولا سيما تلك المتعلقة بالبشارة والميلاد والختان والهرب إلى مصر والعماد والتجربة والتجلى والعشاء الربانى والصعود، وأغلب المعجزات التى وردت فى البشائر الثلاث السابقة على بشارته، لأن إهتمامه كله كان متجهاً إلى تثبيت إيمان المؤمنين بالسيد المسيح وتصحيح الأفكار الخاطئة التى أشاعها بعض الهراطقة عن شخصيته وطبيعته، مؤكداً أنه هو المسيح ابن الله. وفى سبيل هذه الغاية اقتصر الإنجيل للقديس يوحنا على ذكر المعجزات التى تدل دلالة عظيمة على ألوهية السيد المسيح، والتى يتضح منها بما لا مجال معه لأى شك أو ريبة فى أنه يملك السلطان الإلهى على الكائنات كلها من إنسان وحيوان وجماد: فهو باعتباره صاحب السلطان على روح الإنسان وجسده أعاد الروح إلى لعازر بعد أن فارقته بأربعة أيام، وأعاد الحياة إلى جسده بعد أن تحلل فى القبر (يوحنا ١١ : ١ ـ ٤) . كما أنه خلق للمولود أعمى عينين أبصر بهما بعد أن عاش طوال حياته بغير عينين فى مقلتيه (يوحنا ٩ : ١ ـ ٣٨) . وشفى ابن أحد رجال الحاشية الملكية الذى كان مريضاً فى كفر ناحوم بمجرد كلمة قالها لأبيه على مسافة بعيدة من ذلك الابن المريض (يوحنا ٤ : ٤٩ و٥٠) وشفى الرجل الذى كان مقعداً مدة ثمانية وثلاثين عاماً عند بركة بيت حسدا بمجرد كلمة منه، إذ قال له: قم احمل فراشك وامش. ففى الحال برئ الرجل وحمل فراشه ومشى (يوحنا ٥ : ١ ـ ٩) .

وهو باعتباره صاحب السلطان على الحيوان جعل السمك يتكاثر فى شباك تلاميذه حتى لم يعودوا قادرين على أن يجذبوها إلى الشاطئ، وذلك بعد أن ظلوا الليل كله طارحين شباكهم دون أن يصطادوا شيئاً (يوحنا ٢١ : ١ ـ ١٠) .

وهو باعتباره صاحب السلطان على الجماد جعل الماء يتحوّل إلى خمر حقيقية حين نفدت الخمر فى عرس قانا الجليل، وذلك دون أن ينطق حتى بكلمة واحدة، وإنما بمجرد إرادته وكلمة الأمر وحدها (يوحنا ٢ : ١ - ١٠) . كما أنه ذهب إلى تلاميذه الذين كانوا فى السفينة فى عرض البحر ماشياً على سطح الماء، حتى لقد خافوا إذ ظنوه شبحاً (يوحنا ٦ : ١٦ - ٢١) . وقد جعل الطعام يتكاثر حتى إنه بخمسة أرغفة وسمكتين أشبع خمسة آلاف نفس، ثم تبقت اثنتا عشرة قفة من الكسر (يوحنا ٦ : ١ - ١٣) .

وقد اختار الإنجيل للقديس يوحنا هذه المعجزات من بين عدد كبير منها صنعه السيد المسيح، إذ يقول: «وثمة أشياء كثيرة أخرى صنعها يسوع، لو أنها كتبت واحدة فواحدة فلا أظن أن العالم نفسه يسع الكتب التى تكتب» (يوحنا ٢١ : ٢٥) . وقد ذكر هذا العدد القليل من المعجزات لأن أغلبها لم يرد فى البشائر الأخرى، ولأنها عظيمة الدلالة على لاهوت السيد المسيح، إذ يقول «وقد صنع يسوع أمام تلاميذه آيات أخرى كثيرة لم تكتب فى هذا الكتاب. وأما هذه فقد كتبت لتؤمنوا بأن يسوع هو المسيح ابن الله، ولتكون لكم إن آمنتم الحياة الأبدية باسمه» (يوحنا ٢٠ : ٣٠ و ٣١) . وقد كان السيد المسيح نفسه يصنع هذه المعجزات ليبرهن بها على قدرته الإلهية وحقيقة شخصيته باعتباره ابن الله، إذ قال لليهود: «أما أنا فلى شهادة أعظم من شهادة يوحنا، لأن الأعمال التى أعطانى أبى لأنجزها، تلك الأعمال التى أنا أعملها هى نفسها التى تشهد لى بأن الآب قد أرسلنى. والآب نفسه الذى أرسلنى قد شهد لى» (يوحنا ٥ : ٣٦ و ٣٧) كما قال لتلاميذه: «صدقونى أنى فى أبى وأن أبى فيّ. وإلا فصدقونى من أجل الأعمال نفسها» (يوحنا ١٤ : ١١) .

ولئن أوجز الإنجيل للقديس يوحنا فى ذكر المعجزات التى صنعها السيد المسيح، متوخياً غاية واحدة هى إثبات لاهوت السيد المسيح، إن هذه الغاية ذاتها دفعت به لأن يسهب أكثر من أصحاب البشائر الأخرى في سرد أحاديث السيد المسيح ومناقشاته وعظاته ووصاياه وصلواته التى تنطوى كلها على براهين ساطعة على حقيقة شخصيته الإلهية باعتباره المسيح الله ابن الله الحى، وباعتباره فى كيان واحد وجوهر واحد مع الله الآب. ويتضح ذلك بكل جلاء فى أحاديثه مع نيقوديموس، ومع المرأة السامرية، ومع اليهود بعد أن شفى المقعد عند بركة بيت حسدا، ومع المولود أعمى، ومناقشاته مع اليهود والفريسيين فى أورشليم وفى كفر ناحوم، وعظاته ووصاياه لتلاميذه، ولا سيما فى خطابه الذى ودّعهم به قبيل القبض عليه، وصلاته عند قبر لعازر، ومناجاته لأبيه السماوى فى أثناء خطابه الوداعى لتلاميذه، وبذلك احتفظ لنا الإنجيل

للقديس يوحنا بثروة لا تُقدر بثمن من الكلمات الإلهية التى نطق بها السيد المسيح فى هذه المناسبات كلها، والتى لم ينطق بمثلها ولن ينطق بمثلها إنسان من بدء الخليقة إلى آخِر الزمان. وقد كانت هى الركيزة العظمى للعقيدة المسيحية، وهى التى أماطت اللثام عن ذلك السرِّ الأعظم الذى يكمن فى تلك العقيدة التى تدعو بنى البَشر لأن يؤمنوا بالمسيح على أنه ابن الله وابن الإنسان معاً وفادي البشرية، ومانح الحياة الأبدية لكل من يؤمن به فى كل زمان ومكان.

الفصل الأول

١ : ١ ـ ٥

الكلمة هو الله:

ينفرد الإنجيل على يد القديس يوحنا بأنه لا يكلِّم الناس عن ميلاد السيد المسيح من العذراء مريم كما فعل الإنجيل على يد القديس متى والإنجيل على يد القديس لوقا، ولا يتناول الأحداث التي سبقت الميلاد ولا تلك التي صاحبته أو التي لحقته، كخطبة السيدة العذراء مريم ليوسف البار، وحَبَلها بميلاد السيد المسيح ومرسوم الإمبراطور أوغسطس قيصر بإجراء تسجيل لسكان العالم كله، وأحداث ليلة الميلاد، وظهور الملائكة للرعاة، وظهور النجم للمجوس، وهرب العائلة المقدسة إلى مصر. وعودتها إلى أرض فلسطين، ولا ذكر شيئاً عن طفولة السيد المسيح وعمله كنجار، وتردده وهو صبِيّ على الهيكل...

كل ذلك وغيره مما ذكره الإنجيليون الآخرون لم يذكره الإنجيل على يد القديس يوحنا، لا لأنه سبقه إليه غيره من كتبة الأناجيل، ولكن لأن الإنجيل على يد القديس يوحنا قصد به أن ينبه إلى أن السيد المسيح قبل أن يظهر كإنسان في صورة ابن الإنسان «يسوع» كان له وجود قبل الزمان، وجود أزلي مع الآب في السماء قبل أن ينزل على الأرض متجسداً، «آخذاً صورة عبد صائراً في شبه الناس» (فيلبي٢ : ٧) . إن المسيح قبل أن يولد من مريم كان هو الكائن منذ الأزل، إله مريم، وخالق مريم وكل الخليقة. فليس ميلاده من مريم في الحقيقة إلا أنه تجسد منها، أي أن ميلاده ليس كميلاد أي طفل آخر. فميلاد أي طفل يعيِّن وجوده، لأنه بميلاده يصير له وجود. أما السيد المسيح فقبل أن يولد من مريم العذراء كان كائناً منذ الأزل مع الآب، وهو الذي أراد فخلق كل الوجود. فميلاد السيد المسيح هو في الحقيقة تجسّده. ولذلك فإن المسيحيين إذ يحتفلون بعيد الميلاد هم في الواقع يحتفلون بعيد التجسد الإلهي من مريم العذراء.

لذلك يبدأ الإنجيل للقديس يوحنا ببيان الطبيعة الإلهية للسيد المسيح، على قدر ما يمكن للغة البشرية أن تعبِّر عن تلك الطبيعة التي هي فوق إدراك البشر، وأسمى من أن تعبِّر عنها لغتهم القاصرة. لأن الله روح. والروح لا يمكن أن تدركها إلا روح من ذات طبيعتها. وأما العقل البشري فقاصر عن إدراك ما فوق المادة. والمادة لا يمكن أن تدرك إلا ما هو مادي مثلها، وفي نطاق حدودها.

وقد وصف القديسون متى ومرقس ولوقا السيد المسيح في بشاراتهم بأنه «ابن الله». وأما الإنجيل للقديس يوحنا فهو يصفه في بدء كلامه عنه من زاوية أخرى، وهو أنه «كلمة الله». ولما

كانت الكلمة هي التعبير عن الفكر أو العقل الإلهي. ولما كان فكر أي ذات من الذوات هو تلك الذات نفسها. لأنه من جوهرها، ففكر الله أو العقل الإلهي إذن هو الله ذاته. والكلمة التي تعبر عن هذا الفكر أو العقل هي الله ذاته كذلك. ولذلك يصف القديس يوحنا «الكلمة» بأنه أزلي، وهي صفة لا يمكن أن يوصف بها إلا الله وحده، فيقول «في البدء كان الكلمة. والكلمة كان لدى الله، وكان الكلمة هو الله. كان منذ الأزل لدى الله».

فالبدء هنا هو الأزل. هو البدء الذي قبل الزمان، وقبل الوجود. هو البدء الذي لا علم للناس به حين بدأ، أو هو البدء الذي لا بدء قبله، هو البدء الذي بدأ مع الله الذي ليس له بدء. فهو الأزل الذي لا بداءة له. فما أبعد الفرق بين «البدء» هنا في مطلع الإنجيل للقديس يوحنا، وبين «البدء» الذي حدثنا عنه مطلع سفر التكوين، إذ قال «في البدء خلق الله السماوات والأرض» (التكوين ١ : ١) . فبدء سفر التكوين بدء في الزمان. أما بدء إنجيل يوحنا فبدء قبل الزمان. بدء سفر التكوين هو بداءة الوجود للموجود. أما البدء في إنجيل يوحنا فهو إشارة إلى الأول قبل الوجود. واجب الوجود، الله السرمدي الذي لا بداءة له، والأول الذي لم يسبقه أول، والبدء الذي ليس له ابتداء (انظر ١ . يوحنا ١ : ١) . وفي قول الإنجيل للقديس يوحنا «كان الكلمة» نجد أن الفعل «كان» سواء في اللغة العربية أو اللغات الأصلية والقديمة التي ترجم عنها وإليها الإنجيل، وإن كان في الماضي لكنه أيضاً يفيد الامتداد في الحاضر إلى أبد الآبدين. إن الفعل «كان» هنا في الماضي لتوكيد الأزلية. ولكنه بمعناه يمتد إلى الأبدية، لأن الله الكلمة كان وكائن ويدوم إلى الأبد.. «هو الألف والياء. البداءة والنهاية. الرب الإله الكائن والذي كان والذي يأتي، القادر على كل شيء» (سفر الرؤيا ١ : ٨) ؛ (١١ : ١٧) ؛ (١٦ : ٥)، أي الكائن في الماضي لأنه أزلي، والكائن في الحاضر وإلى الأبد لأنه أبدي، فهو الكائن دائماً أو هو الدائم «يهوه»، الأزلي الأبدي، السرمد، والسرمدي، الدائم.

يقول الإنجيل للقديس يوحنا «في البدء كان الكلمة». و«الكلمة» ترجمة عربية يقابلها باليونانية اللوغوس (LOGOS) . واللوغوس هو العقل الإلهي ظاهراً في الوجود. فليس المقصود بـ «الكلمة» اللفظ، لأنه قبل اللفظ هناك العقل أو الفكر الذي يلد الكلمة. والقبلية هنا قبلية منطقية وليست قبلية زمنية. لأنه حيث كان العقل أو الفكر هناك «الكلمة». وليس هناك وقت كان فيه العقل ولم يكن الكلمة معه، وإلا كان العقل عاطلاً لا حياة فيه، وبالتالي لا وجود له. فالكلمة في الإنجيل ليس اللفظ وإنما هو «شخص». فالكلمة مشخص. ولذلك جاء الحرف الأول في بعض اللغات الأصلية والترجمات حرفاً كبيراً، تمييزاً له عن لفظ الكلمة المقروءة والمسموعة.

وجاء الفعل في اللغة العربية مذكراً، أي «كان» وليس «كانت». توكيداً لأن المقصود هو «الكلمة مشخصاً» أي «الله الكلمة» أو «العقل الإلهي ظاهراً في الوجود» (لوقا ١ : ٢)؛ (١ . يوحنا ١ : ١).

فالعقل غير منظور، ولكنه يصير منظوراً في «الكلمة» لذلك فإن الفعل «كان» في لغة العرب، ليس إستخدامه هنا في مطلع إنجيل يوحنا باعتباره فعلاً ماضياً ناقصاً، ولكنه فعل ماض تام. فالفعل «كان» هنا من الكينونة بمعنى الوجود. فليس هو على نظير قولنا «كانت الشمس طالعة» أي أنها كانت طالعة، ولكنها ليست الآن طالعة. بل «كان» الكلمة بمعنى أن كيان الكلمة ووجوده هو كائن منذ الأزل.

وأما قول الإنجيل للقديس يوحنا إن «**الكلمة كان لدى الله**» فمعناه أن الكلمة أزلي لأنه منذ البدء، إذ يقول قبل ذلك «**في البدء كان الكلمة**»، والله أزلي. ولكن ليس ثمة إلهان أزليان، فليس الكلمة مستقلاً بوجوده وكيانه عن الله. وليس منفصلاً عنه قائماً بذاته، إنما «**الكلمة لدى الله**»، أي كائن فيه ومعه، وكيانه به. ليس الله كياناً والكلمة كياناً آخر. إن **الله وكلمته كيان واحد، ذات واحدة، جوهر واحد** (١. يوحنا ٥ : ٧). **فالكلمة هو العقل الإلهي ظاهراً، والعقل الإلهي هو الكلمة، لأنه بالكلمة يُعرف العقل، والعقل يظهر بالكلمة وفي الكلمة**. وفي ذلك يقول القديس يوحنا البشير «فإن الحياة أظهرت. وقد رأينا ونشهد ونخبركم **بالحياة الأبدية التي كانت عند الآب وأظهرت لنا**» (١ . يوحنا ١ : ٢). وإذن فلولا التجسد لما لُقب السيد المسيح بالكلمة، ولما دُعي اسمه «كلمة الله» (الرؤيا ١٩ : ١٣)؛ (١ : ٢). وإذن **فالكلمة هو العقل الإلهي متجسداً**. والعقل الإلهي إذ تجسد سمي بـ «الكلمة» إذ يقول الإنجيل المقدس «الله لم يره أحد قط. الابن الوحيد الذي في حضن الآب **هو الذي أخبر عنه**» (يوحنا ١ : ١٨) وسمي السيد المسيح بالكلمة لأنه هو الخالق.. «به عمل العالمين» (العبرانيين ١ : ٢). فالكلمة ليس لفظاً، لكنه القدرة الفاعلة الخالقة.. «كلمة قدرته» (العبرانيين ١ : ٣). وفي ذلك يقول الوحي الإلهي «بالإيمان نفهم أن العالمين **أتقنت بكلمة الله**، حتى لم يتكون ما يرى مما هو ظاهر» (العبرانيين ١١ : ٣). فكلمة الله فاعلة وخالقة. ولذلك فإن الترجمة الفرنسية لكلمة «اللوغوس» اليونانية جاءت معبرة عن «الفعل» و«الخلق»، وهو Le Verbe أي «الفعل» أو «الكلمة الفاعلة» إذ تقول Au Commencement était Le Verbe. وقد سُمي السيد المسيح بـ «الكلمة» لأن فيه وبه تكلّم الله الغير المنظور. لقد تكلّم الله قبل التجسُّد على أفواه الأنبياء أو عن طريق الملائكة الذين أرسلهم لتبليغ رسالة منه، ولكنه شاء أن يتكلم أخيراً مع الناس بشخصه، فنزل من السماء، وتكلم معهم فماً لفم. وكلمته هو يسوع

المسيح. إذ يقول الكتاب المقدس إن «الله بعد أن كلّم الآباء بالأنبياء قديماً، بأنواع وطرق كثيرة، كلّمنا في هذه الأيام الأخيرة في ابنه، الذي جعله وارثاً لكلّ شيء، الذي به أيضاً عمِل العالمين. الذي هو ضياء مجده وصورة جوهره وحامل جميع الأشياء بكلمة قدرته» (العبرانيين ١: ١ ـ ٣)؛ (الأمثال ٨: ٢٢ ـ ٣٠).

ويقول الإنجيل للقديس يوحنا إن «الكلمة كان لدى الله»، وذلك لأنه قبل أن يتجسد كان في السماء لدى الله، ومن قبل أن يظهر كياناً متجسداً على الأرض كان لدى الله في السماء، معه وفيه منذ الأزل (يوحنا ١٧: ٥) ومع ذلك لم ينفصل عنه بنزوله إلى الأرض، وبتجسده، لأنه على حد قول مخلصنا له المجد «ما من أحد صعد إلى السماء إلا ذلك الذي نزل من السماء، ابن الإنسان الذي هو في السماء» (يوحنا ٣: ١٣) كما جاء في رسالة القديس بطرس الأولى: «المسيح معروفاً سابقاً قبل تأسيس العالم، ولكنه قد أظهر في الأزمنة الأخيرة من أجلكم» (١. بطرس ١: ١٩و ٢٠). ويقول القديس أثناسيوس الرسولي إن «الكلمة كائن دائماً في الآب، والآب كائن في الكلمة، كما هو الحال في البهاء أو الضياء بالنسبة إلى النور». في رسالة القديس أثناسيوس للدفاع عن قانون مجمع نيقية ـ فقرة ٢٠).

ثم يقول الإنجيل للقديس يوحنا بعد ذلك «وكان الكلمة هو الله» وذلك لأن «الكلمة» هو الله متجسداً. فالله بطبيعته غير منظور، وإذ صار منظوراً في المسيح لم يتغير في طبيعته، لأنه ليس جسداً، وإنما استتر في جسد، احتجب في جسد، واتخذ جسداً (يوحنا ١: ١٤). ومع ذلك فإنه لم يزل هو الله بذاته. ويقول القديس أثناسيوس الرسولي في ذلك إن «المسيح كان ولم يزل إلهاً»، وذلك لأن تجسده لم يغير طبيعته الإلهية، ومن ثمّ ظلّ وهو متجسّد محتفظاً بألوهيته. ويقول الكتاب المقدس في ذلك إن «المسيح.. الكائن على الكل إلهاً مباركاً إلى الأبد» (رومية ٩: ٥)؛ (١: ٢٥)؛ (٢. كورنثوس ١١: ٣١). وقد جاء في صلاة الصلح بالقداس الغريغوري «أنت بغير تحوّل تجسدتَ وتأنستَ».

فالسيد المسيح هو الكلمة الذي ظهر متجسداً، ومن ثَمّ فهو كما يقرر الوحي الإلهي «صورة الله الغير المنظور» (كولوسي ١: ١٥). ولئن كان التجسد حدثاً تمّ في الزمان، إن الكلمة بوجوده ليس حادثاً، وإنما هو أزلي، لأنه كائن في الآب وقائم معه منذ الأزل بلا فارق في الزمان. لأنه حيث كان الله فالعقل الإلهي فيه، إذ لا يمكن أن نتصور ـ على حد قول القديس أثناسيوس الرسولي ـ زمناً كان فيه الله الآب كائناً ولم يكن العقل كائناً معه وفيه. وإلا كان معنى هذا أن الله كان في وقت ما غير عاقل، ثم صار له عقل فيما بعدَ، إنما العقل في الله الآب كائن معه منذ أن كان هو

الله الآب، أي منذ الأزل. فالكلمة قبل التجسد هو العقل الإلهي. والعقل الإلهي أزلي، فالكلمة إذن أزلي. وإن كان التجسد قد تم في الزمان، إذ أن التجسُّد معناه أن الله الأزلي الغير المنظور قد احتجب في جسد.

بعد أن وصف الإنجيل للقديس يوحنا - بهذه العبارة الروحية الرائعة التركيب، العميقة المعنى - سيدنا يسوع المسيح بالأزلية التي هي صفة الله وحده، ذكر صفة أخرى تدل على ألوهيته كذلك، هي أنه الخالق الوحيد لكل شيء في الوجود. ولما كان الخالق الوحيد لكل شيء في الوجود هو الله وحده، فإن السيد المسيح كما أنه هو ابن الله وهو كلمة الله، فهو الله ذاته في الوقت نفسه، إذ يقول الإنجيل للقديس يوحنا إن «كل شيء به كان، وبغيره لم يكن شيء مما كان». وإذا كان العقل البشري عاجزاً عن التسامي إلى فهم هذه الحقيقة فذلك لأنها حقيقة تتعلق بطبيعة الله اللانهائي غير المحدود، في حين أن العقل البشري إنما ينتهي عند حد معين لا يمكنه أن يتعداه، وهو عاجز عن أن يدرك ما وراء هذا الحد، إلا إذا تلقى وحياً من الله، بواسطة أحد مختاريه، يكشف له عن ذلك السر الإلهي.

فالقول بأن «كل شيء به كان» معناه أن «الكلمة» الذي هو «صورة الله الغير المنظور» المولود أولاً قبل كل الخليقة» هو الخالق لكل الوجود (المزمور ٣٣: ٦). وقد «كان العالم به» (يوحنا ١: ١٠) فإنه «فيه خلق الجميع، ما في السماوات، وما على الأرض، ما يرى وما لا يرى، سواء أكان عروشاً أم سيادات أم رئاسات أم سلاطين. الجميع به وله قد خلق. الذي هو قبل كل شيء وفيه يقوم الكل.. الذي هو البداءة.. لأنه فيه سُرّ أن يحل كل الملء» (كولوسي ١: ١٥ - ١٩). (وكل خليقة مما في السماء وعلى الأرض وتحت الأرض وما على البحر وفيه» (الرؤيا ٥: ١٣)؛ (الأعمال ١٤: ١٥)؛ (١٧: ٢٤)؛ (الرؤيا ٤: ١١)؛ (١٠: ٦).

وأما قول الإنجيل للقديس يوحنا بأن «بغيره لم يكن شيء مما كان»، فمعناه أن سيدنا يسوع المسيح هو وحده الخالق، وليس غيره الخالق. وهذا برهان آخر على لاهوته، إذ ينسب الإنجيل إليه صفة الخلق التي لا يتصف بها إلا الله وحده. وفي ذلك يقول الكتاب المقدس إن «الله خالق الجميع بيسوع المسيح» (أفسس ٣: ٩). ولذلك جاء في سفر الرؤيا إن السيد المسيح هو «رئيس خليقة الله» (الرؤيا ٣: ١٤). فهو الأول في الوجود أو قبل الوجود، لأن به كان الوجود، وهو لذلك رأس الخليقة، وسيِّد الخليقة، ورب الخليقة.

وفضلاً عن أن السيد المسيح يتصف بالأزلية التي هي من صفات الله، وهو الخالق لكل شيء في الكون، وذلك لا يمكن نسبته إلا إلى الله الواحد وحده، فإنه الإله الحي، وهو أصل للحياة

ومصدرها. ومن ثمّ يصفه الإنجيل للقديس يوحنا بأن «فيه كانت الحياة» وبالتالى فإن كل ذى حياة استمد حياته منه، ولا سيما الناس الذين وهبهم الله مع الحياة العقل. فكانت الحياة العاقلة نوراً لهم يرون على هداه نور الله. ولذلك يقول الإنجيل للقديس يوحنا «والحياة كانت نور الناس». وعلى الرغم من أن الناس قد سقطوا فى ظلمة الخطيئة، إذ خالفوا وصايا الله، فإن السيد المسيح الذى هو خالقهم وهو الحياة. وهو النور، قد جاء بتجسده بينهم ليبدد ما يكتنفهم من تلك الظلمة. ولكنهم - بسبب كثافة تلك الظلمة التى أصبحت تكتنفهم - لم يدركوا حقيقته. وهذا هو معنى قول القديس يوحنا إن «النور يضيئ فى الظلمة. والظلمة لم تدركه».

ومن ثمّ فإن السيد المسيح هو الكلمة الأزلى لأنه «صورة الله الغير المنظور» وهو الكلمة لأن فيه وبه تكلم الله مع الناس. وهو الخالق الذى «كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان». ولهذا ففيه كانت الحياة، ومن دونه لم تكن حياة. فليس هو حياً فى ذاته وبذاته فقط (يوحنا ٥ : ٢٦) ؛ (١٤ : ١٩). بل إن «فيه كانت الحياة» لكل أحد ولكل شيء. وإذن فهو منشئ الحياة، وباعث الحياة، ومبدئ الحياة. وبهذا المعنى هو «رئيس الحياة» (الأعمال ٣ : ١٥). أى أنه رأس الحياة، وأصل الحياة. بل هو «الحياة» (يوحنا ١١ : ٢٥)؛ (١٤ : ٦).

وهو «الحياة الأبدية» (١. يوحنا ٥ : ٢٠) و «به نحيا» (١. يوحنا ٤ : ٩)؛ (الأعمال ١٧ : ٢٨)، إذ أنه «يهب الحياة للعالم» (يوحنا ٦ : ٣٣) بل يهب «الحياة الأبدية» (١. يوحنا ٥ : ١١).

والسيد المسيح من حيث هو «الكلمة»، ومن حيث هو «الحياة» هو أيضاً «نور الناس». فهو يبعث فيهم الحياة، وينير لهم الطريق. فهو «نور وليس فيه ظلمة البتة» (١. يوحنا ١ : ٥) و «ساكناً فى نور لايدنى منه» (١. تيموثيئوس ٦ : ١٦).. وإذ منح الناس الحياة، منحهم مع الحياة النور، إذ يقول هو نفسه «أنا هو نور العالم. من يتبعنى لا يسير فى الظلام، وإنما يكون له نور الحياة» (يوحنا ٨ : ١٢). ويقول «أنا قد جئت للعالم نوراً حتى إن كل من يؤمن بى لا يمكث فى الظلمة» (يوحنا ١٢ : ٤٦). كما يقول: «ما دمت فى العالم فأنا نور العالم» (يوحنا ٩ : ٥). ويقول «إن النور باق فى وسطكم زماناً يسيراً. فسيروا فى النور ما دام النور لكم» (يوحنا ١٢ : ٣٥).

فالنور إذن هو المسيح. هو الله الكلمة. وقد جاء إلى العالم نوراً يضيء فى الظلمة. والظلمة هنا هى ظلمة الشر والخطيئة والدنس التى كان العالم متردياً فيها. ومع ذلك لم يستطع الناس لكثافة الظلام الذى كانوا يعيشون فيه أن يدركوا قيمة النور الذى أشرق عليهم بتجسد الله الكلمة وإقامته بينهم. لقد قال إشعياء النبى قديماً بروح النبوءة عن المسيح له المجد، باعتباره النور الذى أضاء العالم بمجيئه. وإن «الشعب السالك فى الظلمة أبصر نوراً عظيماً. الجالسون

فى أرض ظلال الموت أشرق عليهم نور» (إشعياء ٩ : ٢) ؛ (متى ٤ : ١٦) ؛ (لوقا ١ : ٧٩) . وقال الوحى الإلهى عن السيد المسيح كلمة الله، على فم إشعياء النبى أيضاً «وأجعلك عهداً للشعب ونوراً للأمم، لتفتح أعين العمي، لتخرج من الحبس المأسورين من بيت السجن، الجالسين فى الظلمة» (إشعياء ٤٢ : ٦ و ٧) ؛ (٤٩ : ٧) ؛ (الأعمال ٢٦ : ١٨) .

وقد قال السيد المسيح له المجد مؤكداً على نفس المعنى «وهذه هى الدينونة أن **النور جاء إلى العالم**، وأحب الناس الظلمة أكثر من النور، لأن أعمالهم كانت شريرة. فإن كل من يفعل الشر يبغض النور، ولا يقبل إلى النور، لئلا تفتضح أعماله الشريرة وتتوبخ. وأما من يفعل الحق فإنه يقبل إلى النور، لكي يظهر أن أعماله إنما أتاها فى الله» (يوحنا ٣ : ١٩ - ٢١) .

١ : ٦ - ١٣

مجيء يوحنا المعمدان:

وقد أثبت السيد المسيح بعد أن بدأ يؤدي رسالته، بأقواله الإلهية، وأعماله التى لا يمكن أن تصدر إلا من الله وحده، أنه هو ابن الله، وأنه هو كلمة الله، وأنه هو النور الإلهي. ولكنه قبل أن يبدأ في أداء هذه الرسالة، وهو في الثلاثين من عمره، شاء تدبير الله وشاءت حكمته أن يبعث برسول ليعلن مجيئه للعالم، ويمهد الطريق له بأن يشهد بأنه هو المسيح الذى كان العالم ينتظر مجيئه، على مقتضى نبوءة ملاخي النبي التى يقول فيها على لسان السيد المسيح: «هأنذا أرسل ملاكى فيهيئ الطريق أمامي» (ملاخي ٣ : ١) . وكان هذا الملاك أو الرسول هو يوحنا المعمدان (انظر أيضاً إشعياء ٤٠ : ٣ - ٥) ؛ (متى ٣ : ٣) ؛ (مرقس ١ : ٢ و ٣) ؛ (لوقا ١ : ٧٦) ؛ (٣ : ٤ - ٦) . ومن ثم يقول الإنجيل للقديس يوحنا عنه:

«كان رجل قد أرسل من الله اسمه يوحنا، جاء هذا للشهادة كي يشهد للنور، ليؤمن الكل على يده» .

ويوحنا المقصود هنا هو يوحنا المعمدان ابن زكريا الكاهن وأليصابات (لوقا ١ : ١ - ٢٥) ؛ (١ : ٥٧ - ٨٠) الذى شهد عنه السيد المسيح بأنه أكثر من نبي، وأنه لم يقم بين المولودين من النساء أعظم منه. غير أن الأصغر منه فى ملكوت الله أعظم منه (متى ١١ : ٩ و ١١) ؛ (لوقا ٧ : ٢٦ و ٢٨) . وقال عنه ملاخي النبي كما رأينا بلسان السيد المسيح: «ها أنذا أرسل ملاكي فيهيئ الطريق أمامي» (ملاخي ٣ : ١) . كما جاء عنه فى سفر إشعياء النبي «صوت صارخ فى البرية: أعدوا طريق الرب، قوموا فى القفر سبيلاً لإلهنا» (إشعياء ٤٠ : ٣) ؛ (متى ٣ : ٣) ؛ (مرقس ١ : ٢ و ٣) ؛ (لوقا ١ : ٧٦) ؛ (٣ : ٤ - ٦) .

وإذ كان كثيرون من اليهود يظنون أن يوحنا المعمدان هو المسيح الذى ينتظرونه، أراد الإنجيل للقديس يوحنا أن يصحح هذا الظن، ويوضح الرسالة الحقيقية ليوحنا المعمدان. فقال إنه: «لم يكن هو النور، وإنما أُرسل ليشهد للنور» وقد شهد يوحنا المعمدان بأنه «مرسل» أمام سيده المسيح، فقال لليهود: «لست أنا المسيح، وإنما أنا مُرسَل أمامه» (يوحنا ٣ : ٢٨) وقال كذلك «وأنا لم أكن أعرفه. ولكن الذى أرسلنى لأعمد بالماء هو الذى قال لى..» (يوحنا ١ : ٣٣)؛ (لوقا ٣ : ٢).

وهكذا حدَّد الإنجيل الهدف من إرسالية يوحنا المعمدان، وهو أنه مُرسَل من الله ليشهد للمسيح أنه ابن الله الأزلى، وأنه حمَل الله الذى يحمل خطيئة العالم، وأنه أتى من السماء، وأنه فوق الجميع، إذ يقول الإنجيل «وقد شهد يوحنا له ونادى قائلاً: هذا هو الذى قلت عنه إن الذى يأتى بعدى قد تقدَّمنى لأنه كان قبلى» (يوحنا ١ : ١٥).. «وهذه هى شهادة يوحنا.. فاعترف ولم ينكر وأقر قائلاً: لست أنا المسيح.. أنا صوت الصارخ فى البرية، أعدُّوا طريق الرب.. أنا أعمدكم بالماء. ولكن بينكم قائم ذلك الذى لستم تعرفونه، الذى وإن أتى بعدى كان قبلى، وأنا لست بمستحق لأن أحل أربطة حذائه.. وفى الغد رأى يوحنا يسوع مقبلاً إليه، فقال: هوذا حمَل الله الذى يحمل خطيئة العالم. هذا الذى قلت عنه يأتى بعدى رجل يتقدمنى لأنه كان قبلى. وأنا لم أكن أعرفه، ولكن من أجل أن يُظهر لإسرائيل جئت أنا أُعمِّد بالماء. وشهد يوحنا قائلاً: إنى قد أبصرت الروح نازلاً عليه من السماء فى هيئة حمامة، واستقر على رأسه. وأنا لم أكن أعرفه، ولكن الذى أرسلنى لأعمد بالماء هو الذى قال لى: إن الذى تبصر الروح ينزل ويستقر على رأسه هو الذى يعمد بروح القدس. وأنا قد أبصرت وشهدت بأن هذا هو ابن الله. ثم فى اليوم التالى كان يوحنا واقفاً مع اثنين من تلاميذه. وإذ أبصر يسوع ماشياً قال: هذا هو حمل الله» (يوحنا ١ : ٥١ - ٣٦) - انظر أيضاً (يوحنا ٣ : ٢٥ - ٣٦)؛ (يوحنا ٥ : ٣٣ - ٣٦).

وجاء فى سفر الأعمال «فقال بولس إن يوحنا عمَّد بمعمودية التوبة قائلاً للشعب أن يؤمنوا بالذى يأتى بعده، أى بالمسيح يسوع. فلما سمعوا اعتمدوا باسم الرب يسوع» (الأعمال ١٩ : ١ - ٥).

ومع أن الإنجيل نسب بوضوح إلى المسيح وهو الله الكلمة أنه هو النور الذى يضىء فى ظلمة هذا العالم الشرير، وأن الظلمة لم تدرك حقيقته، عاد يكرر من جديد أنَّ يوحنا المعمدان على الرغم من أنه كان كما وصفه رب المجد «هو السراج الموقَد المنير» (يوحنا ٥ : ٣٥)، لكنه

«لم يكن هو النور» في ذاته المقصود في قوله «والنور يضيء في الظلمة». ولذلك أضاف يؤكد هذه الحقيقة معلناً الفرق بين يوحنا المعمدان وبين سيده المسيح، قائلاً إن ذاك «لم يكن هو النور، وإنما أرسل ليشهد للنور».

إنّ يوحنا المعمدان «أكثر من نبي» كما شهد عنه رب المجد، ومع ذلك فإنه ليس بشئ بالقياس إلى سيده الذي كان يوحنا المعمدان خادماً له، وهو الذي جاء يتقدمه بمثابة العبد الجاري السابق أمام الملك ليعد الطريق أمامه، يصرخ وينادي معلناً عن قدوم ملكه وسيّده. وقد أقر يوحنا بذلك قائلاً «وأنا لست بمستحق لأن أنحني وأحل أربطة حذائه» (يوحنا ١ : ٢٧)، (مرقس ١ : ٧)؛ (لوقا ٣ : ١٦) أو «أحمل حذاءه» (متى ٣ : ١١).

أما أن يوحنا المعمدان إنما أرسل ليشهد للنور، فهذا يتضح من قول الإنجيل: «كان رجل قد أرسل من الله اسمه يوحنا» (١ : ٦). كما يتضح أيضاً من (ملاخي ٣ : ١)؛ (يوحنا ٣ : ٢٨)؛ (يوحنا ١ : ٣٣).

وبعد أن قرر الإنجيل للقديس يوحنا المعمدان «لم يكن هو النور، وإنما أرسل ليشهد للنور»، قرر أن «النور الحقيقي» هو السيد المسيح الذي كان عندئذ قد أتى إلى العالم والذي جاء يوحنا المعمدان ليشهد أنه هو الذي كان مقرراً في التدبير الإلهي أن يأتي إلى العالم، إذ يقول: «كان النور الحقيقي الذي ينير كل إنسان آتياً إلى العالم»، ومن يكون «النور الحقيقي» غير السيد المسيح له المجد. وهو الله الكلمة الذي لبس جسداً. وقد أشرق على الجالسين في الظلمة وظلال الموت موثقين بالذل والحديد (المزمور ١٠٧ : ١٠ و ١٤)؟.

لقد وصفه الإنجيل قبل ذلك بأنه «النور» (يوحنا ١ : ٤و٥و٧و٨). لكنه يضيف هنا إلى النور أنه «الحقيقي»، وذلك تمييزاً له عن أي إنسان آخر يعتبر نوراً. لقد قال السيد المسيح لتلاميذه «أنتم نور العالم» (متى ٥ : ١٤) وقال لهم أيضاً «فليضئ نوركم هكذا أمام الناس» (متى ٥ : ١٦). وقال له المجد عن يوحنا المعمدان: «ذاك كان هو السراج الموقد المنير. وقد كنتم تريدون أن تتهللوا بنوره ساعة» (يوحنا ٥ : ٣٥). فالرسل والقديسون لهم نور، لكن نورهم ليس منهم. إنه نور مستعار أو منعكس عليهم من «النور الحقيقي».. مثلهم في ذلك مثل القمر: فالقمر جسم معتم لكنه يبدو منيراً. على أن النور الذي يظهر به ليس منه.. إنه من نور الشمس، وقد انعكس عليه، فصار يبدو منيراً. فالمسيح وحده هو «النور الحقيقي». وقد تكرر هذا الوصف عن السيد المسيح له المجد. (١. يوحنا ٢ : ٨).

هذا النور الحقيقى ينير كل إنسان. ينيره فى الروح والنفس والفكر والقلب، فيبصر ببهاء هذا النور ما لم يكن يبصره من قبل. وهو ينير كل إنسان، أي يغمر بنوره قلب الإنسان الذي كان - بسبب خطيئته - قد غمرته الظلمة، فلم يعد يهتدي بنور الله الذي بدونه يضلّ الطريق، ويتخبّط ويتعثر في كل خطوة يخطوها، ويسقط في كلّ هوّة تعترضه. حتى ينتهي به الأمر إلى السقوط الأبدي. وهو يغمر بنوره لا قلوب اليهود وحدهم الذين أتى بينهم، والذين كانوا يعدّون أنفسهم شعب الله المختار، دون سائر شعوب الأرض، وإنما قلوب جميع الناس في كل مكان وكلّ زمان، لأنه كما يقرر الإنجيل للقديس يوحنا «ينير كلّ إنسان». ولقد قال السيد المسيح له المجد «أتيت أنا دينونة للعالم، حتى يبصر الذين لا يبصرون» (يوحنا ٩ : ٣٩). يبصر ماضيه فيندم عنه ويتوب، ويبصر حاضره فيدرك أين هو، ويتبين نسبته إلى الله وإلى الكون... ويبصر مستقبله فيرعوى ويتعظ. ويجاهد ليكون له نصيب مع الذين ينالون الخلاص، فيحظى بفردوس النعيم وملكوت السماوات.

إنه «**ينير كل إنسان**»، يهوديا كان أو من غير اليهود. فالسيد المسيح وإن كان قد جاء لليهود أولاً، لكن دعوته كانت دعوة **إنسانية غير عنصرية**. كانت دعوة لجميع الناس للخلاص إلى أقصى الأرض (إشعياء ٤٩ : ٦). لأن كلّ إنسان قد خلق «على صورة الله ومثاله» (التكوين ١ : ٢٦ و ٢٧) ... «وليس يهودي ولا يوناني. ليس عبد ولا حر. ليس ذكر وأنثى، لأنكم جميعاً واحد في المسيح يسوع» (غلاطية ٣ : ٢٨).

ومع أن السيد المسيح كان «آتياً إلى العالم» فإنه كما يقول الإنجيل «**كان في العالم، وكان العالم به، والعالم لم يعرفه**».

لقد كان له المجد في العالم منذ إنشاء العالم، بل إنه كائن قبل كون العالم (يوحنا ١٧ : ٥). لأنه هو خالق العالم، إذ «كان العالم به» ولكنه بتجسده ظهر للعالم إلهاً متأنساً، ورآه الناس إنساناً بينهم، محدوداً بناسوته، وإن كان غير محدود بلاهوته، وعلى الرغم من أنه ما تجسّد إلا لخلاص العالم، بسبب محبته للعالم الذي هو خالقه، فإن «العالم لم يعرفه» (يوحنا ١ : ٢٦ و ٢٧)؛ (٨ : ١٩)؛ (١٤ : ٧). لأن المادية كانت قد طغت على أهل العالم، والظلمة قد اكتنفتهم، وأعمت أبصارهم وبصائرهم، ومن ثم كانوا عاجزين عن أن يروا ذلك النور الذي سطع بينهم أو يعرفوا حقيقته.

لقد كان هو النور الحقيقي الذي أتى إلى العالم متجسّداً، «صائراً في شبه الناس» (فيلبي ٢ : ٧). «وظهر في الهيئة كإنسان» (فيلبي ٢ : ٨) «ولمّا جاء ملء الزمان»

(غلاطية ٤ : ٤). ولكنه قبل التجسُّد من السيدة العذراء مريم «كان في العالم» أيضاً. وقد كان في العالم منذ إنشاء العالم، يدبره ويرعاه بصفته خالق العالم، «وكان العالم به» فهو الكلمة «الكائن منذ الأزل. كل شيء به كان، وبغيره لم يكن شيء مما كان» (يوحنا ١ : ٢ و ٣). والكائن «قبل كون العالم» (يوحنا ١٧ : ٥). «الذى هو قبل كلّ شيء وفيه يقوم كل شيء» (كولوسي ١ : ١٧). «وحامل كل الأشياء بكلمة قدرته» (العبرانيين ١ : ٢)؛ (١١ : ٣). وقد «كان في العالم. والعالم لم يعرفه». وكان في العالم بوجوده غير المنظور، ومع ذلك كان يظهر أحياناً في شكل منظور، بنوع من التجسُّد قبل التجسُّد: فقد ظهر لآدم وحواء بعد سقوطهما وسمعا صوته «ماشياً في الجنّة» (التكوين ٣ : ٨) فاختبأ من وجهه.. وظهر لإبراهيم الخليل عند بلوطات ممرا ومعه ملاكان (التكوين ١٨ : ١)، ووعده بميلاد إسحق، وتشفع لديه إبراهيم في سدوم وعمورة.. وظهر لإبراهيم أيضاً في هيئة ملكي صادق، وباركه وقبل منه العشور (التكوين ١٤ : ١٨ - ٢٠).. ثم ظهر ليعقوب أبي أسباط اليهود الاثني عشر وصارعه ثم باركه «فدعا يعقوب اسم المكان فنيئيل، قائلاً: لأني نظرت الله وجهاً لوجه» (التكوين ٣٢ : ٢٤ - ٣١).. وظهر ليشوع بن نون في هيئة رئيس جند، وأمره بأن يخلع نعله من رجليه «لأن المكان الذى أنت واقف عليه هو مقدس» (يشوع ٥ : ١٣ - ١٥). ولو لم يكن هو الرّب لما أمَرَه بما أمر به موسى النبي عندما ظهر له بأن يخلع حذاءه «لأن الموضع الذى أنت واقف عليه أرض مقدسة» (الخروج ٣ : ٤ و ٥)... وظهر لإشعياء النبي «جالساً على كرسي عالٍ ومرتفع وأذياله تملأ الهيكل» (٦ : ١) وظهر لحزقيال النبي جالساً على العرش في شبه منظر إنسان (١ : ٢٦).. وظهر لدانيال النبي في شبه ابن إنسان (٧ : ١٣).. في كل ذلك الظهور قبل التجسد من السيدة العذراء مريم «لم يعرفه العالم». وحتى في ظهوره متجسداً من العذراء مريم «لم يعرفه العالم». وقد قال عنه يوحنا المعمدان: «أنا أعمِّدكم بالماء. ولكن بينكم قائم ذلك الذى لستم تعرفونه، الذى وإن أتى بعدي كان قبلي» (يوحنا ١ : ٢٦ و ٢٧). وقال السيد المسيح له المجد لليهود: «إنكم لا تعرفونني أنا ولا تعرفون أبي. لو كنتم تعرفونني لكنتم تعرفون أبي أيضاً» (يوحنا ٨ : ١٩). بل قال لبعض تلاميذه «لو كنتم قد عرفتموني لعرفتم أبي أيضاً» (يوحنا ١٤ : ٧). والمعنى من كل ذلك أن العالم لم يعرفه على حقيقته. ذلك لأنه جاء محتجباً في الناسوت، مستتراً فيه، مخفياً لاهوته عن الشيطان ليتم عمل الفداء وخلاص الإنسان: «لأنهم لو عرفوا لَما صلبوا رب المجد» (١ كورنثوس ٢ : ٨).

«إلى خاصته جاء». وقد كانت خاصته هم اليهود الذين أعلن الله لهم ذاته دون غيرهم من الأمم. وأعطاهم شريعته ليحافظوا عليها ويعملوا بمقتضاها ويبشِّروا بها العالَمَ كلَّه، وينشروا

نورها في كل أرجاء الأرض. ولكن «خاصته لم تقبله»، لأن أولئك اليهود الذين كانوا هم خاصته كانت ظلمة الخطيئة قد غلّفت قلوبهم، وأعمت أبصارهم وبصائرهم كما فعلت بسائر البشَر، بل أكثر مما فعلت بسائر البشَر، فرفضوا النور الذي أتى إليهم لينير قلوبهم. لأن السيد المسيح الذي هو «النور الحقيقي» لم يأتِ إليهم كما كانوا يتوقعون، بناء على فهمهم الخاطئ لنبوءات أنبيائهم، أنه سيأتي إليهم في مجد دنيوي عظيم، كملك جبار، وقائد مغوار، يتربع على عرشهم، ويقود جيوشهم، ليسيطروا على العالم كله ويسودوا شعوبه، على مقتضى غرورهم وأطماعهم ولؤم طباعهم. وإنما أتى إليهم في صورة إنسان فقير وديع بسيط المظهر متواضع القلب، لا يرضي جشعهم الدنيويّ، ولا يقيم لهم مملكة أرضية، وإنما يوصيهم بالتخلي عن مطامع الدنيا. وبالتطلّع إلى ملكوت السماء. لذلك لم يقبلوه لأنهم لم يعرفوه على حقيقته باعتباره المسيح الذي ينتظرونه، في حين آمن كثيرون من سائر الشعوب الوثنية الأخرى بأنه هو المسيح ابن الله وكلمته. ومن ثم لم يقبله إلا الذين آمنوا به. و«**أما الذين قبلوه، فأعطاهم السلطان لأن يكونوا أبناء الله، أولئك هم المؤمنون باسمه**». أي أنه له المجد قَبِل الذين قبلوه من اليهود أو من غير اليهود. وقد فتح لهم هذا القبول الباب لأن ينالوا أعظم وأكرم مكانة يمكن أن ينالها إنسان في كل مكان وكل زمان، ولا يمكن أن تضاهيها مكانة أو سلطان. وهي أن يكونوا أبناء الله، الذين يحتضنهم الله احتضان الأبِ أبناءه، ويحبهم ويحدب عليهم، فينعمون بقربهم منه، ويتمتعون في ملكوته بسلطان يستمدونه من سلطانه، لأنهم بإيمانهم بابن الله وكلمته واعتمادهم باسمه قد ولدوا ولادة ثانية.. «ولدوا لا من دمٍ، ولا من مشيئة إنسان، وإنما من الله وُلدوا»، أي أن تلك الولادة الثانية ليست ولادة جسدية من أبٍ بشري كالولادة الأولى، ولم تنشأ كالولادة الأولى عن مشيئة إنسان حين تتجه مشيئته لأن ينجب ابناً. وإنما الولادة الثانية هي ولادة روحية تنشأ عن مشيئة الله، ويصير بها الإنسان ابناً لله بالمعمودية.

وتفصيل ذلك أن خاصة السيد المسيح هم اليهود. فالمسيح جاء أولاً من أجل اليهود. ولذلك وُلد من أم يهودية هي السيدة مريم التي من سبط يهوذا (العبرانيين ٧: ١٤)؛ (٨: ٨)؛ (الرؤيا ٥: ٥). وولد في بيت لحم بإقليم اليهودية بأرض يهوذا (متي ٢: ١ و٥ و٦ و٨)؛ (ميخا ٥: ٢)؛ (يوحنا ٧: ٤٢). وقيل عنه إنه يهودي (يوحنا ٤: ٩) ودعي «ملك اليهود» (متي ٢: ٢)؛ (٢١: ٥)؛ (٢٧: ١١ و٢٩ و٣٧)؛ (مرقس ١٥: ٢ و٩ و١٢ و١٨ و٢٦)؛ (لوقا ٢٣: ٣ و٣٧ و٣٨)؛ (يوحنا ١٨: ٣٣ و٣٩)؛ (١٩: ٣ و١٩ و٢١). وسُمي «ملك إسرائيل» (يوحنا ١: ٤٩)؛ (متي ٧: ٤٢)؛ (مرقس ١٥: ٣٢)؛ (يوحنا ١٢: ١٣). وقال السيد المسيح له المجد: «لأن الخلاص إنما هو من اليهود» (يوحنا ٤: ٢٢).

ولقد عدّ اليهود، أو بنى إسرائيل، خاصته إذ قال لموسى النبى «هكذا تقول لبيت يعقوب وتخبر بنى إسرائيل.. فالآن إن سمعتم لصوتى وحفظتم عهدى ـ تكونون لى خاصة من بين جميع الشعوب» (الخروج ١٩ : ٣ ـ ٥) وجاء فى سفر المزامير: «لأن الربّ قد اختار يعقوب لذاته وإسرائيل لخاصته» (المزمور ١٣٤ : ٤). وجاء فى سفر نبوءة ملاخى النبى «ويكونون لى، قال رب الجنود، فى اليوم الذى أنا صانع، خاصّة، وأشفق عليهم كما يشفق الإنسان على ابنه الذى يخدمه» (ملاخى ٣ : ١٧).

ولكن على الرغم من أن المسيح الرب جاء إلى اليهود، وهم الذين يعدّون خاصته، لأنه جاء من أم يهودية، فإن اليهود مع ذلك رفضوه وتمردوا عليه ولم يقبلوه لقسوة قلوبهم وتصلب رقابهم.. واليهود الذين رفضوه هم رؤساء اليهود وقادتهم وزعماؤهم من الكهنة ورؤساء الكهنة والكتبة والفريسيين والصدُّوقيين ومن إنقاد إليهم وخضع لهم من عامة اليهود، فكم من مرّة ذكر الإنجيل المقدس أنهم كانوا يتذمّرون عليه ويبتغون قتله (يوحنا ٧ : ١ و ١٩ و ٢٠ و ٢٥ و ٣٠ و ٣٢ و ٤٤ و ٤٥)؛ (١٠ : ٣٩)؛ (١١ : ١٦ و ٥٠ و ٥١ و ٥٣ و ٥٧). وكثيراً ما شتموه وقالوا له «ألم نكن على صواب إذ قلنا إنك سامرى وبك شيطان؟» (يوحنا ٨ : ٤٨ و ٤٩ و ٥٢)؛ (٧ : ٢٠)؛ (١٠ : ٢٠). وقالوا عنه إنه قد اختل عقله (مرقس ٣ : ٢١)؛ (يوحنا ١٠ : ٢٠)؛ ورفعوا حجارة ليرجموه (يوحنا ٨ : ٥٩)؛ (١٠ : ٣١)؛ (١١ : ٨). بل لقد «أصدروا قراراً بأنه إذا اعترف أحد بأنه هو المسيح يقطع من المجمع» (يوحنا ٩ : ٢٢)؛ (١٢ : ٤٢). وأخيراً تآمروا عليه وصلبوه وقتلوه، كما أشار هو نفسه إلى ذلك فى مثل الكرم إذ قال «لكن الكرامين حين رأوا الابن تآمروا فيما بينهم قائلين بعضهم لبعض: هوذا الوارث هلمّوا نقتله فيصير الميراث لنا ثم أمسكوه ومن ثمّ طرحوه خارج الكرم وقتلوه» (متى ٢١ : ٣٨ و ٣٩)؛ (مرقس ١٢ : ٧ و ٨)؛ (لوقا ٢٠ : ١٤ و ١٥). وردد نفس المعنى حين قال «ولكن أهل بلده إذ كانوا يكرهونه أرسلوا فى إثره سفراء عنهم يقولون: لا نريد أن يملك هذا علينا» (لوقا ١٩ : ١٤)؛ (الأعمال ٣ : ٢٦).

وقد اتخذ السيد المسيح له المجد من رفض اليهود له تبريراً لأن يفتح باب الخلاص للأمم من غير اليهود، أى الوثنيين. إذ قال «ولى خراف أخرى ليست من هذه الحظيرة، ينبغى أن أجيء بها هى أيضاً فتسمع صوتى، ويكون ثمة رعية واحدة وراع واحد» (يوحنا ١٠ : ١٦)؛ (الأعمال ١٣ : ٤٦). وقد عبّر عن ذلك قائلاً:

«أما كل الذين قبلوه فأعطاهم السلطان لأن يكونوا أبناء الله. أولئك هم المؤمنون باسمه».

وذلك أن الله لا يفرض عطاياه على الناس، لئلاً يكون بهذا قد قهرهم على أن يقبلوا نعمته على الرغم منهم. مما يتعارض مع الحرية الممنوحة لهم إبتداءً، إذ أنهم خلقوا على صورة الله أحراراً (يشوع ٢٤ : ١٥ و ٢٢). لذلك فإذ جاء أولا إلى خاصته فرفضوه ولم يقبلوه، قد فتح الطريق أمام كل الذين قَبلوه وارتضوه وآمنوا به، سواء أكانوا من اليهود أو من غير اليهود. فليس جميع اليهود قد رفضوه. وإنما رفضه قادة اليهود وزعماؤهم من الكهنة ورؤساء الكهنة والكتبة والفريسيين والصدوقيين ومن إنقاد إليهم ولكنّ تلاميذه وهم من اليهود قبلوا دعوته. وكثيرون آخرون من اليهود ومن رؤسائهم آمنوا به (يوحنا ١٢ : ٤٢). ولعلّ من أبرزهم نيقوديموس الذى جاء إلى السيد المسيح ليلاً (يوحنا ٣ : ١)، ويوسف الرامى (يوحنا ١٩ : ٣٨). فمنح كل الذين قبلوه السلطان والحقّ لأن يكونوا أبناء الله، أى المنضوين تحت لوائه، ممن قبلهم وقبلوه وصاروا من أتباعه وضمن نطاق مملكته. على أن هذه البنوة لله بنوة بالوضع لا بالطبع. فهى بنوه بالتفضيل والإنعام ولكنها ليست بالطبيعة. وهى إذن بالتبنى. وبذلك تفترق إفتراقاً جوهرياً وأساسياً عن بنوة السيد المسيح لله. فالمسيح ابن الله الحى (متى ١٦ : ١٦) بالطبع، لأنه من طبيعة الله ومن جوهره، فهو واحد معه فى الجوهر (يوحنا ١٠ : ٣٠). وهو «صورة الله الغير المنظور» (كولوسى ١ : ١٥). وهو «الله الذى ظهر فى الجسد» (١ . تيموثيئوس ٣ : ١٦). وقد جاء فى رسائل الرسل: «لأن كل الذين ينقادون بروح الله. فأولئك هم أبناء الله. إذ لم تأخذوا روح العبودية أيضاً للخوف، بل أخذتم روح التبنى الذى به نصرخ يا أبا الآب. الروح نفسه أيضاً يشهد لأرواحنا أننا أولاد الله. فإن كنا أولاداً فإننا ورثة أيضاً، ورثة الله ووارثون مع المسيح» (رومية ٨ : ١٤ - ١٧). وأيضاً «انظروا أية محبة أعطانا الآب حتى ندعى أولاد الله» (١ . يوحنا ٣ : ١). انظر أيضاً (متى ٥ : ٩)؛ (لوقا ٢٠ : ٣٦)؛ (يوحنا ١١ : ٥٢)؛ (رومية ٨ : ١٩)؛ (غلاطية ٣ : ٢٦).

أولئك الذين آمنوا بابن الله وكلمته قد وُلدوا ولادة ثانية .. «ولدوا لا من دم، ولا من مشيئة جسد، ولا من مشيئة إنسان، وإنما من الله» فهم بالإيمان بالسيد المسيح صاروا أصحاب حق وسلطان أن يكونوا أولاد الله. وليس هذا بفعل الإيحاء الذاتى عند الذين آمنوا، ولكن إذ آمنوا أعطوا لله مجالاً لفعاليات العمل الإلهى فيهم للولادة الجديدة من الله، فالمؤمنون يقبلون بعد إيمانهم بالمسيح سر العماد المقدس، وبالمعمودية يولدون «الميلاد الثانى من الماء والروح» (يوحنا ٣ : ٣ و ٥). «فيغتسلون» من خطاياهم السابقة» (الأعمال ٢٢ : ١٦)؛ (أفسس ٥ : ٢٦). وهذا كله يتم بحلول روح القدس على مياه المعمودية فتتحول إلى مياه ملتهبة بنار، فيصير العماد بروح القدس وبالنار (متى ٣ : ١١)، (لوقا ٣ : ١٦). وجاء فى الكتاب المقدس: «حين ظهر لطف

مخلصنا الله وإحسانه، لا بأعمال في بر عملناها نحن. بل بمقتضى رحمته خلّصنا بغَسل الميلاد الثاني وتجديد الروح القدس» (تيطس ٣: ٤ و ٥). فهذه الولادة الجديدة هي ولادة من فوق (يوحنا ٣: ٣) لا من الأرض. فهي ولادة ثانية غير الولادة الأولى التي تتم من الأب والأم. و «الدم» المتكون منهما معاً، والذي يسري في الجنس البشري كله متّصلاً بالإنسان الأول آدم، إذ «صنع من دم واحد كل أمة من الناس يسكنون على وجه الأرض كلها» (الأعمال ١٧: ٢٦)، وتسري فيه الخطيئة الأصلية إلى كل الجنس البشري (رومية ٥: ١٢).

الذين وُلدوا من الله الولادة الثانية ولدوا لا من دم الأب والأم، ولا من مشيئة جسد بشهوة الزواج التي قال عنها داود النبي «بالآثام حبل بي، وبالخطيئة اشتهتني أمي» (المزمور ٥٠: ٥) ولا من مشيئة إنسان، «وأنتم إذ كنتم أمواتاً بالذنوب والخطايا التي سلكتم فيها قبلاً.. نحن أيضاً جميعاً تصرّفنا قبلاً.. في شهوات جسدنا عاملين مشيئات الجسد والأفكار. وكنا بالطبيعة أبناء الغضب كالباقين أيضاً. الله الذي هو غني في الرحمة من أجل محبته التي أحبنا بها، ونحن أموات بالخطايا أحيانا مع المسيح. بالنعمة أنتم مُخلّصون. وأقامنا معه... لأنكم بالنعمة مخلّصون بالإيمان. وذلك ليس منكم، هو عطية الله. ليس من أعمال كيلا يفتخر أحد، لأننا نحن عمله، مخلوقين في المسيح يسوع» (أفسس ٢: ١ ـ ١٠).

هذا هو الفارق العظيم بين الولادة الثانية من الله، من الماء والروح القدس، والتي ننالها في المعمودية، والولادة الأولى التي ننالها من الأب والأم، من خلال دم الأبوين، ومشيئة الجسد بالشهوة، ومشيئة الإنسان في الزواج وبه.

إن الولادة الثانية هي من الله للمؤمنين بالمسيح، وهي ولادة حقيقية من فوق، بنعمة المسيح التي تهبط من السماء باستدعاء الروح القدس، فيغير طبع الماء، فتصير لمياه المعمودية القدرة على أن تطهر المؤمنين من الإنسان العتيق، وتغسل الخطيئة الأصلية فيه، وتخلق منه إنساناً جديداً بالمسيح. وهذه هي الخليقة الجديدة... «إن كان أحد في المسيح فهو خليقة جديدة. الأشياء العتيقة قد مضت. هوذا الكل قد صار جديداً» (٢ كورنثوس ٥: ١٧)، لأنه في المسيح يسوع ليس الختان ينفع شيئاً ولا الغرلة، بل الخليقة الجديدة» (غلاطية ٦: ١٥).

ومرة أخرى ليس يتم هذا الخلق الجديد بمجرّد إيمان المؤمن. إنما الإيمان يهيئ للمؤمن أن يقبل عمل الروح القدس الآتي من فوق، من عند الله، «لأنكم جميعاً أبناء الله بالإيمان بالمسيح يسوع. لأن كلكم الذين اعتمدتم بالمسيح قد لبستم المسيح» (غلاطية ٣: ٢٦ و ٢٧).

طبيعة السيد المسيح :

والكلمة اتخذ جسداً. وحلَّ بيننا، وهذا هو السِّر الأعظم الذى تنطوى عليه العقيدة المسيحية، والذى يقف أمامه العقل البشريُّ ذاهلاً مبهوراً. ولولا أننا تلقيناه بوحى من الله إلى أنبيائه القديسين، وبتصريح واضح صريح من السيد المسيح الذى آمنَّا به أصدق الإيمان وأعمق الإيمان، لما استطعنا أن نرتفع بكياننا المادى الأرضى إلى مستوى دلالته الروحية السمائية. فإن كلمة الله الذى هو الله ذاته المالئ السماء والأرض، الأزلى الأبدى، العزيز الجبار، الخالق لكل شىء، والقادر على كل شىء الذى لا يحده زمان ولا مكان، قد شاءت حكمته ورحمته وقدرته أن يتنازل فيتخذ جسداً بشرياً ترابياً كأجساد البشر المخلوقة من التراب، ويحل بينهم كواحد منهم، ليفديهم - كما قرر هو نفسه - ويكفِّر فى هذا الجسد الذى يشبه أجسادهم عن خطيئتهم التى ارتكبوها واستحقوا عنها لدى العدل الإلهى الهلاكَ والموت. ولمَّا كانت ذبيحة التكفير عن الخطيئة ينبغى أن تكون طاهرة، ولم يعُد أحد من البَشَر صالحاً لأن يكفِّر عن سائر البشر، بعد أن نجستهم الخطيئة جميعاً، ومن ثم ارتضى - له المجد - أن يقدِّم نفسه، وهو الطاهر طهارة كاملة، ذبيحة عنهم، لا لأنه محتاج إليهم، ولكن لأنه أحبهم وهم خليقته حب الأب لأبنائه، والراعى لرعيته. وقد أراد أن يرحمهم من عاقبة الحكم الذى أصدرته عدالته عليهم، لأنه كما أنه إله عادل عدالة مطلقة، فهو كذلك إله رحيم رحمة مطلقة، على مقتضى كماله الإلهى الذى لا تجور فيه صفة من صفات الكمال على صفة أخرى. وإنما تجتمع له تلك الصفات كلها متعادلة متكاملة.

وعلى هذه الصورة المذهلة المبهرة، ولهذه الحكمة الإلهية السمائية السامية اتخذ كلمة الله جسداً بشرياً وحلَّ بين البَشَر ليروا فيه الله الغير المنظور بأعينهم، ويسمعوا كلمته بآذانهم، وليخلِّصهم بموته فى الجسد من لعنة الموت الذى استحقوه جزاء خطيئتهم. وعلى الرغم من أن سائر اليهود قد عميت أبصارهم وبصائرهم عن أن يدركوا حين رأوه - وقد اتخذ جسد إنسان فقير بسيط متواضع - أنه هو ابن الله وأنه هو كلمة الله. وأنه هو الله. فإن تلاميذه الذين إلتصقوا به ولازموه وخالطوه وسمعوا وصاياه ورأوا معجزاته، عرفوا حقيقته الإلهية. ولذلك يشهد القديس يوحنا وهو أحد هؤلاء التلاميذ قائلاً: **«وقد أبصرنا مجده. مجد الابن الوحيد لأبيه، الممتلئ من النعمة والحق»**. أى أنهم قد تكشف لهم مجد لاهوته وهو فى جسد ناسوته، وأدركوا أن هذا هو ابن الله الوحيد، الذى تسمو بنوته عن أن تكون كبنوة سائر البشر لله، على

مقتضى القول بأن البشر جميعاً هم أبناء الله. لأن بنوته لله - كما سبق أن رأينا - إنما هي بنوة فريدة في طبيعتها، لا يتمتع بها إلا هو وحده، لأنه من جوهر الله ذاته - فهو ابن الله. وهو الله في الوقت ذاته. ولذلك يصفه القديس يوحنا بأنه «الممتلئ من النعمة والحق» وهذه صفة لا تنطبق على أحد من البشر، وإنما تنطبق على الله وحده، الذي هو النعمة الخالصة، والحق المطلق، لأن ابن الله وكلمته حين اتخذ جسداً بشرياً، شابه البشر في كل شيء. إلا في صفة واحدة هي أنه ظلّ طاهراً طهارة كاملة، صادقاً صدقاً مطلقاً، ينطوي على النعمة في شخصه ويسبغها على المؤمنين به. ويتمثل الحق في شخصه ويقيم عليه كل تعاليمه.

إن الكلمة الأزلي الذي كان منذ الأزل لدى الله، وهو الله ذاته، العقل الأعظم، والحياة ذاتها، وباعث الحياة في الوجود وفي كل الخلق، لأن «فيه كانت الحياة» و «كان العالم به»، بل «كل شيء به كان، وبغيره لم يكن شيء مما كان». وهو «النور الحقيقي» الذي أضاء على الجالسين في الظلمة.. هذا الكلمة الأزلي «اتخذ له جسداً» من طبيعة جسدنا. استتر فيه، وصار له حجاباً، حتى لا تحترق الأرض ومن عليها وما عليها بنزوله إليها وسكناه فيها وعليها، «لأن إلهنا نار آكلة» (العبرانيين ١٢: ٢٩)؛ (الخروج ٢٤: ١٧)؛ (التثنية ٤: ٢٤)؛ (٩: ٣)؛ (إشعياء ٢٩: ٦)؛ (٣٠: ٣٠).

فلو ظهر المسيح، الله الكلمة، بكمال لاهوته، ولو لم يحتجب في جسد، فمَن من الناس كان يمكنه أن يعيش؟ لقد قال الله لموسى «لأن الإنسان لا يراني ويعيش» (الخروج ٣٣: ٢٠). وقال إشعياء النبي «من منا يسكن في نار آكلة؟. من منا يسكن في وقائد أبدية؟» (إشعياء ٣٣: ١٤).

لقد «اتخذ الله جسداً» من قبل، فظهر لآدم وحواء في الجنة «وسمعا صوت الرب الإله ماشياً في الجنة عند هبوب ريح النهار، فاختبأ آدم وامرأته من وجه الرب الإله في وسط الجنة. فنادى الرب الإله آدم وقال له: أين أنت؟. فقال: إني سمعت صوتك في الجنة فخشيت، لأني عريان، فاختبأت» (التكوين ٣: ٨ - ١٠).

و «اتخذ جسداً» فظهر ملكاً وكاهناً في صورة ملكي صادق ملك شاليم (أي ملك السلام). وبارك إبراهيم الخليل وقدم له إبراهيم العشور من كل شيء» (التكوين ١٤: ١٨ - ٢٠)؛ (العبرانيين ٧: ١ - ٢٥).

و «اتخذ جسداً» وظهر ومعه ملاكان لإبراهيم أبي الآباء عند بلوطات ممرا وهو جالس في باب خيمته وقت حرّ النهار، وبارك إبراهيم، ووعده بإسحق ابناً واستشفع لديه إبراهيم في خلاص سدوم وعموره (التكوين ١٨: ١ - ٢٣).

و «اتخذ جسداً» وظهر ليشوع بن نون عند أريحا في هيئة رئيس جند. ولما سأله يشوع عن شخصيته قال له «اخلع نعليك من رجليك، فإن الموضع الذي أنت قائم فيه مقدس. فصنع يشوع كذلك. وسقط يشوع على وجهه على الأرض وسجد» (يشوع ٥ : ١٣ - ١٥)، وهي نفس العبارة التي قالها الرب لموسى النبي عندما ظهر له في العليقة وقال له «اخلع نعليك من رجليك فإن الموضع الذي أنت قائم فيه أرض مقدسة» (الخروج ٣ : ٥).

و «اتخذ جسداً» وظهر لإشعياء النبي «جالساً على عرش عال مرتفع، وأذياله تملأ الهيكل. من فوقه السرافيم قائمون.. فقلت ويل لي. إني قد هلكت لأني رجل دنس الشفتين.. وقد رأت عيناي الملك رب الجنود» (إشعياء ٦ : ١ - ٧).

واتخذ جسداً وظهر للنبي حزقيال جالساً على العرش في السماء «شبه عرش كمنظر العقيق الأزرق، وعلى شبه العرش شبه كمنظر إنسان عليه من فوق» (حزقيال ١ : ٢٦).

و «اتخذ جسداً» وظهر لدانيال النبي على سحب السماء مثل ابن إنسان. «له سلطان ومجد وملكوت، فجميع الشعوب والأمم والألسنة يعبدونه، وسلطانه سلطان أبدي لن يزول. وملكه لا ينقرض» (دانيال ٧ : ١٣ و ١٤).

لكن الكلمة عندما اتخذ جسداً في القديم قبل ميلاده من العذراء مريم، لم يكن جسده من طبيعة جسدنا، يحبل به في البطن لمدة تسعة أشهر (لوقا ٢ : ٦، ٧)، ثم يولد (رومية ١ : ٣)؛ (غلاطية ٤ : ٤). وينمو قليلاً قليلاً إلى قامة الإنسان الكامل (لوقا ٢ : ٥٢). إنما كان صورة يتراءى بها لعين الإنسان ثم يختفي. قال الوحي الإلهي: «لما جاء ملء الزمان أرسل الله ابنه مولوداً من امرأة، مولوداً تحت الشريعة ليفتدي الذين تحت الشريعة، لننال التبني» (غلاطية ٤ : ٤ و ٥).

والعبارة اليونانية المقابلة لقول الإنجيل «والكلمة اتخذ جسداً» هي σὰρξ ἐγένετο تفيد حرفياً «صار له جسد»، وأما العبارة في اللغة العبرانية فهي «لبس جسداً»... לָבַשׁ בָּשָׂר

وفي اللغة القبطية ⲁϥⲉⲣ ⲟⲩⲥⲁⲣⲍ أي أخذ أو اتخذ جسداً.

والمعنى أن «الكلمة» اتخذ له جسداً... «عظيم هو سر التقوى. الله ظهر في الجسد» (١ - تيموثيئوس ٣ : ١٦). ولكنه مازال هو الكلمة، فهو لم يتغير ولم يتحول ولم يفقد بالتجسد طبيعته الإلهية.. «أنت الذي بغير تحول تجسدت وتأنست وشابهتنا في كل شيء ماخلا الخطيئة وحدها» (القداس الغريغوري - صلاة الصلح).

وكما يقول القديس أثناسيوس الرسولي: «كان ولم يزل إلهاً»، وهذا يوافق قول الوحي الإلهي «المسيح بحسب الجسد الكائن على الكل الإله المبارك إلى الأبد» (روما (رومية) ٩: ٥).

«اتخذ جسداً» أي «جاء في الجسد» (١. يوحنا ٤: ٢). ولم يكن هذا الجسد مجرد صورة أو إطار، لكنه جسد حقيقي له عظام ولحم (لوقا ٢٤: ٣٩). ولقد تكوّن من دم العذراء مريم. ولما لم يكن هناك زرع رجل (متى ١: ١٨)؛ (لوقا ١: ٣٤)، فقد حلّ الروح القدس على العذراء مريم (متى ١: ٢٠)؛ (لوقا ١: ٣٥). وصنع من دمها جسداً... «هيأت لي جسداً» (العبرانيين ١٠: ٥). وبعد تهيئته نزل الكلمة الإلهي واتحد به اتحاداً لا يعبر عنه ولا يوصف ولا يدرك. لكنه على قول الآباء والمجامع المقدّسة، مسكونية ومحلية، إتحاداً كامل تام لا يقبل الانقسام أو الانفصال أو التقسيم أو التجزئة أو المفارقة. ثم إنه اتحاد بغير اختلاط، وبغير امتزاج أو تغيير. وعلى ذلك فليس له في عالم الطبيعة المادية نظير. وإذا كان له شبيه مع الفارق الكبير فهو - على قول البابا كيرلس الإسكندري رئيس مجمع أفسس الأول عام ٤٣١ للميلاد - شبيه باتحاد النار بالحديد: إذا ما وضع قضيب من حديد في النار لمدة طويلة فإنه يتوهج بالنار ويحرق، ولكن دون أن يفقد الحديد أو النار بالاتحاد خصائصهما. فالحديد باق بصفاته من حيث هو كتلة صلبة لها شكلها وحجمها ووزنها. وكذلك النار باقية بخصائصها وهي التوهج والإحراق. وعلى قول البابا ديوسقوروس الإسكندري، إنه شبيه باتحاد النار بالفحم، فصار بفضل هذا الاتحاد جمراً له خصائص الفحم من حيث الكتلة والوزن والحجم والصلابة، وله خصائص النار من حيث التوهج والإحراق.

هذا الاتحاد بين الكلمة وبين الجسد، أي بين اللاهوت والناسوت، اتحاد حقيقي لا يمكن فصمه، كمثل الحديد إذا اتحد بالنار لا يمكن الفصل بينهما، وكمثل الفحم إذا اتحد بالنار لا يمكن الفصل بينهما. ولذلك فهو اتحاد حقيقي وليس من قبيل الجمع أو الضم وإنما صار الاثنان (اللاهوت والناسوت) كُلاً واحداً، أقنوماً واحداً، وطبيعة واحدة جمعت بين خصائص اللاهوت وخصائص الناسوت معاً. وهذا هو بالضبط معنى عبارة القديس كيرلس عمود الإيمان التي تبنتها من بعده الكنيسة المسيحية شرقاً وغرباً: «طبيعة واحدة لله الكلمة المتجسد»

«حل بيننا»، وفي اللغة العبرانية «سكَن بيننا» שָׁכַן أي أن الحلول هنا ليس بالمعنى العادي لكلمة الحلول في مفهومها العربي. فإن الحلول بمعناه الحرفي في اللغة العربية يفيد «النزول في المكان». وحلول الكلمة بيننا لا بمعنى النزول في المكان كأنه لم يكن فيه من قبل إذ أن الله بطبيعته حال في كلّ مكان. ولا يخلو منه مكان. ولكن الحلول هنا هو بمعنى أنه صار

الكلمة كيان منظور في المكان على الارض، مع انه كان له فيه من قبل كيان غير منظور. وحيث إن الله يوصف دائماً بالنسبة للإنسان أنه في السماء وعرشه في السماء، وذلك على الرغم من أنه معروف أنه كائن في السماء وعلى الأرض وفي كل مكان. فإذا صار له على الأرض كيان منظور، فقد نزل بالنسبة إلى الإنسان أو حلَّ في المكان.

وفي الترجمة القبطية نقرأ «وحلَّ فينا»

أي أنه سكنَ ليس فقط في أرضنا وإنما سكَنَ في طبيعتنا، أي سكَن في الجسَد المطابع لجسدنا. وبذلك شاركنا في كل شيء.. «فإذ قد تشارك الأولاد في اللحم والدم اشترك هو أيضاً كذلك فيهما كي يُبيد بالموت ذاك الذي له سلطان الموت، أي إبليس، ويعتق أولئك الذين خوفاً من الموت كانوا جميعاً كل حياتهم تحت العبودية.. من ثَمّ كان ينبغي أن يشبه إخوته في كل شيء.. حتى يكفّر خطايا الشعب» (العبرانيين ٢ : ١٤ و ١٥ و ١٧) . وبهذا يكشف لنا الكتاب المقدس عن سبب آخر للتجسُّد الإلهي. فليس الهدف من تجسُّد الكلمة هو فقط التواجد مع البَشَر محبةً فيهم ورحمة بهم ومشاركة لهم في حياتهم، وهو أقصى الحب واللطف الإلهي. وإنما الهدف الآخر هو الفداء، وخلاص الإنسان. وذلك بأن يتخذ الإله له جسداً يحتمل فيه الحكم بالموت بدلاً من الإنسان. وبذلك يفدى الإنسان من العذاب الأبدي المحكوم به عليه لمخالفته للوصية. وفي هذا يتجلى عدل الله كما تتجلّى فيه محبته. ففي الصليب تلتقي محبة الله وعدله.. «الرحمة والحق إلتقيا. البر والسلام تلاثما» (المزمور ٨٤ : ١٠) .

يقول القديس أثناسيوس الرسولي: «إذا كان (الكلمة) مخلوقاً، فما كان يمكن أن يتخذ الجسد المخلوق ليحييه إذ ما هو النفع الذي تحصل عليه الخلائق من مخلوق هو نفسه بحاجة إلى الخلاص؟.. ولكن لما كان (الكلمة) هو الخالق الذي خلق المخلوقات، لذلك ففي آخر الدهور لَبِسَ (الكلمة) المخلوق، حتى بوصفه الخالق يقدِّس المخلوق ويشفيه. إذ أن المخلوق لا يمكن أن يُخلِّص المخلوق. كما أنه لا يمكن لمخلوق أن يخلق مخلوقات ما لم يكن (الكلمة) هو الخالق» (الرسالة رقم ٦٠ للقديس أثناسيوس الرسولي إلى الأسقف أبيلفيوس فقرة ٧) .

وفي حلول «الكلمة» في طبيعتنا صرنا نحن فيه «شركاء الطبيعة الإلهية» (٢ . بطرس ١ : ٤) .

«وقد أبصرنا مجده، مجد الابن الوحيد لأبيه، الممتلىء من النعمة والحق» .

ولعلَّ القديس يوحنا كاتب هذه البشارة يشير إلى كثير من الأحداث التي ظهر بها مجد المسيح، ومنها المعجزات التي أجراها السيد المسيح له المجد بسلطان لاهوته (يوحنا ٢ : ١١) . فقد كان يشفي المرضى، ويطهر البرص، ويقيم الموتى (يوحنا ١١ : ٤٠) . ويخرج الشياطين بلمسة

منه أو بكلمة.. «لأن قوة كانت تخرج منه فتبرئهم جميعاً» (لوقا ٦: ١٩)؛ (٨: ٤٦)؛ (٥: ١٧)؛ (مرقس ٥: ٣٠) - انظر (إشعياء ٤٠: ٥).

ولعلّ القديس يوحنا يشير إلى شهادة الآب السماوي عنه في نهر الأردن. إذ «انفتحت السماء له. ونزل عليه الروح القدس في صورة جسم يشبه الحمامة، وجاء صوت من السماء يقول: أنت هو ابني حبيبي الذي به سررت» (لوقا ٣: ٢٢)؛ (متى ٣: ١٦ و١٧)؛ (مرقس ١: ١٠ و١١).

ولعلّه يشير بالأحرى إلى مجده الذي تجلى على جبل تابور حين تَغيَّرت هيئته متجلياً أمام ثلاثة من تلاميذه، وكان من بينهم يوحنا نفسه ومعه بطرس ويعقوب. فأضاء وجهه كالشمس، وصارت ثيابه بيضاء كالنور، متألقة كالبرق، ناصعة كالثلج حتى ليعجز أي قصّار على الأرض عن أن يجعلها في مثل بياضها. وإذا رجلان وهما موسى وإيليا، قد ظهرا له يخاطبانه.. «وفيما هو يتكلّم إذا سحابة من نور غمرتهم، وإذا صوت من السحابة يقول: هذا هو ابني حبيبي الذي به سررت فله اسمعوا» (متى ١٧: ١ - ٥)؛ (مرقس ٩: ١ - ٦)؛ (لوقا ٩: ٢٨ - ٣٥).

ويبدو أن هذه الرؤيا كانت لا تزال في ذهنه عندما شرع القديس يوحنا يقول في مطلع رسالته الأولى عن سيده المسيح مخلّصنا: «ذاك الذي كان من البدء. ذاك الذي سمعناه. ذاك الذي رأيناه بعيوننا، ذاك الذي شاهدناه ولمسته أيدينا، من جهة كلمة الحياة. فإنّ الحياة أظهرت. وقد رأينا ونشهد ونخبركم بالحياة الأبدية التي كانت عند الآب وأظهرت لنا» (١ - يوحنا ١: ١ - ٣).

بل لقد كان في ذهنه ما هو أقوى مما رآه على جبل التجلّي وهو ما رآه في رؤياه العظيمة حين رأى مجد المسيح كما وصفه وبهر به، إذ رآه في بهاء أعظم مما رآه على جبل التجلي. رأى وجهه يضيء كالشمس وهي تضيء في اشتدادها. وسيف ماض ذو حدّين يخرج من فمه. ثم يقول: «فلما رأيته سقطت عند رجليه كميت. فوضع يده اليمنى على رأسي قائلاً: لا تخف. أنا هو الأول والآخر، والحيّ وقد مت وهأنذا حيّ إلى أبد الآبدين آمين. ولي مفاتيح الهاوية والموت» (الرؤيا ١: ١٠ - ١٨).

أما بطرس الرسول، فهو أيضاً لم ينسَ بهاء المسيح له المجد وعظمته التي تجلّت على جبل تابور فأنشد يقول في رسالته: «لأننا لم نتبع خرافات مصنّعة، إذ عرّفناكم بقوة ربنا يسوع المسيح ومجيئه، بل قد كنا معاينين عظمته، لأنه أخذ من الله الآب كرامة ومجداً، إذ أقبل عليه صوت كهذا من المجد الأسنى: هذا هو ابني حبيبي الذي به سررت. ونحن سمعنا هذا الصوت مقبلاً من السماء، إذ كنا معه في الجبل المقدّس» (٢ - بطرس ١: ١٦ - ١٨).

«مجد الابن الوحيد لأبيه»

إن مجد المسيح ليس مجدَ نبي، ولا مجد واحد ممنْ يصدق عليهم أنهم أبناء الله بالتبنّي (يوحنا ١ : ١٢ و ١٣).

لكنه مجد **«الابن الوحيد»** الذي لا يشاركه أحد من البشر أو الملائكة في هذا النوع من البنوة، فهو الابن الوحيد الذي ليس له نظير:

وقد وردَ وصف السيد المسيح أو «الكلمة» بوصفه «الابن الوحيد للآب» أو «ابن الله الوحيد» في أكثر من موضع من الإنجيل. فإلي هذا الموضع يرد قوله مرة أخرى «الله لم يره أحد قط، الابن الوحيد الذي في حضن الآب هو الذي أخبر عنه» (يوحنا ١ : ١٨). وهنا يصفه بأنه «الذي في حضن الآب» أي في عمق الآب، وفي ذات جوهره، حيث أن الآب ليس له حضن كما للإنسان حضن. فحضن الآب هو ذاته، وأعماقه، وجوهره.. فليس مولوداً منه على نحو الولادة في عالم الإنسان، لكنه قائم فيه وكائن معه في ذات الجوهر.

وجاء بعد ذلك قوله: «لأنه إلي هذا المدى أحبَّ الله العالم، حتى إنه بذل ابنه الوحيد، لكي لا يهلك كل من يؤمن به، وإنما ينال الحياة الأبدية. لأن الله لم يرسل ابنه إلي العالم ليدين العالم، وإنما ليخلّص به العالم. فالذي يؤمن به لا يدان. وأما الذي لا يؤمن فقد أدين لأنه لم يؤمن باسم **ابن الله الوحيد**» (يوحنا ٣ : ١٦ ـ ١٨).

وجاء في رسالة القديس يوحنا الأولي قوله: «بهذا أظهرت محبة الله فينا أن الله قد أرسل ابنه **الوحيد** إلي العالم لكي نحيا به» (١. يوحنا ٤ : ٩).

ويلاحظ أن الكلمة اليونانية المترجمة **«الابن الوحيد»** υἱὸν μονογενῆ وهي تفيد حرفياً **«الابن الوحيد الجنس»** أي الفريد في نوعه وجنسه، المتفرد وليس له نظير. ولعله لهذا السبب تميز السيد المسيح بشهادة الآب السماوي أنه «ابني الحبيب» أو كما جاء في الترجمة القبطية «ابني حبيبي» (متى ٣ : ١٧)؛ (١٧ : ٥)؛ (مرقس ١ : ١١)؛ (٩ : ٧)؛ (لوقا ٣ : ٢٢)؛ (٩ : ٣٥)؛ (٢٠ : ١٣).

يقول القديس أثناسيوس الرسولي إن (الابن)؛ وهو في طبيعته الإله الحق، وهو (الكلمة)، وهو حكمة (الآب)، قد صار بمسرّة (الآب) إنساناً في الجسد من أجل خلاصنا جميعاً، ويعتق أولئك الذين خوفاً من الموت كانوا جميعاً كل حياتهم تحت العبودية» (العبرانيين ٢ : ١٥) فإنه ليس مجرد إنسان من بذل حياته من أجلنا، إذ أن كل إنسان هو تحت حكم الموت وفقاً لما قيل للجميع

فى آدم: «إنك تراب وإلى التراب تعود» (التكوين ٣: ١٩). وليس مخلوقاً، فإن كل مخلوق قابل للتغير. لكن (الكلمة) بذل جسده عنا حتى لا تكون ثقتنا ورجاؤنا فى إنسان، وإنما لتكون ثقتنا فى الله (الكلمة) ذاته، حتى إنه صار إنساناً «أبصرنا مجده، مجد الابن الوحيد لأبيه. الممتلىء من النعمة والحق»، لأنّ ما قَبِله (الكلمة) فى جسده قد مجّده من حيث هو الله. إنه جاع فى الجسد، لكنه كإله أشبع الجياع.. إنه كإنسان سأل عن لعازر أين وضعوه. لكنه كإله أقامه من بين الأموات. فلا يسخر أحد إذا دُعي (الكلمة) طفلاً، وتَكر عن سنّه ونموّه وأكله وشربه وآلامه، لئلا إذا أنكر ما يخص الجسد أنكر أيضاً تماماً أنه أقام فيما بيننا. وكما أنه لم يصر بطبيعته إنساناً كذلك كان مقبولاً أنه إذ اتخذ جسداً كان يلزم أن يظهر ما يخص الجسد، حتى لا يظن أحد ما ظنه «مانى» أنه اتخذ جسداً خيالياً. كذلك كان من المناسب، وقد اتخذ جسداً، أن لا يخفى ما يخص لاهوته حتى لا يجد بولس الساموساطى ما يبرر ادعاءه عن الكلمة أنه إنسان متميز فى شخصه عن الله الكلمة» (رسائل القديس أثناسيوس - الرسالة ٦١ إلى مكسيموس فقرة ٣).

وأمّا أنه «الممتلىء من النعمة والحق» فلأنه المُدّخر فيه جميع كنوز النعمة، إذ «فيه يحل كل ملء اللاهوت» (كولوسى ٢: ٢ و ٣ و ٩ و ١٠) وهو واهب كلّ نعمة. ومنه تصدر كل نعمة «لأن فيه سُرّ أن يحلّ كل الملء» (كولوسى ١: ١٩). ولذلك قال الإنجيل عن الرب يسوع «فكان الجميع يشهدون له، ويتعجبون من كلمات النعمة التى كانت تخرج من فمه» (لوقا ٤: ٢٢).

وقد تمّ الخلاص من فيض نعمته.. «متبررين مجّاناً بنعمته بالفداء الذى بيسوع المسيح» (رومية ٣: ٢٤)؛ (تيطس ٣: ٧)؛ (رومية ٥: ٢ و ١٥ و ٢٠ و ٢١)؛ (١: ٥)؛ (٦: ١٤)؛ (١١: ٥ و ٦)؛ (غلاطية ٥: ٤)؛ (أفسس ٢: ٨)؛ (٤: ٧)؛ (٢. كورنثوس ٨: ٩)؛ (أفسس ١: ٦)؛ (٢: ٧)؛ (٢. تيموثيئوس ١: ٩)؛ (٢: ١)؛ (١. بطرس ١: ١٠)؛ (٥: ١٠).

وقد صارت نعمة الخلاص التي تُفاضُ منه على المؤمنين دعاء وبَركة يسألونها ويلتمسونها منه:

فَفى رسائل الآباء الرُسُل، نجدهم يستحدرون النعمة على كنيسة الله وعلى المؤمنين فى مقدمة الرسالة وفى ختامها.

ففى مقدمة الرسالة يقول الرسول «نعمة لكم وسلام من الله أبينا وربنا يسوع المسيح» (رومية ١: ٧)؛ (١. كورنثوس ١: ٣)؛ (٢. كورنثوس ١: ٢)؛

(غلاطية ١ : ٣)؛ (أفسس ١ : ٢)؛ (فيلبي ١ : ٢)؛ (كولوسي ١ : ٢)؛ (١ . تسالونيكي ١ : ١)؛ (٢ . تسالونيكي ١ : ٢)؛ (١ . تيموثيئوس ١ : ٢)؛ (٢ . تيموثيئوس ١ : ٢)؛ (تيطس ١ : ٤)؛ (فليمون : ٣)؛ (٢ . يوحنا : ٣).

وفي ختام الرسالة: «نعمة ربنا يسوع المسيح معكم، آمين» (رومية ١٦ : ٢٠ و ٢٤).

وقد صيغت في البركة الرسولية على النحو الآتي: «**نعمة ربنا يسوع المسيح**، ومحبة الله الآب، وشركة الروح القدس مع جميعكم» (٢ . كورنثوس ١٣ : ٤). وصار العرش الإلهي ذاته يعرف بـ «عرش النعمة» (العبرانيين ٤ : ١٦).

وأما أن السيد المسيح الكلمة هو الممتلىء من الحق، فلأنه **هو الحق ذاته**. قال المسيح «**أنا هو الطريق والحق والحياة**» (يوحنا ١٤ : ٦). وجاء في سفر الرؤيا «واكتب إلى ملاك الكنيسة التي في فيلادلفيا، هذا يقوله القدوس الحق الذي له مفتاح داود، الذي يفتح ولا أحد يغلق، ويغلق ولا أحد يفتح» (الرؤيا ٣ : ٧)؛ (٦ : ١٠).

ومن ثم فمن يتبعه «**يحيا في الحق**» و «**يعرف الحق**». جاء في رسالة القديس يوحنا الأولى: «ونعلم أن ابن الله قد جاء وأعطانا بصيرة، **لنعرف الحق، ونحن في الحق** في ابنه يسوع المسيح. **هذا هو الإله الحق** والحياة الأبدية» (١ . يوحنا ٥ : ٢٠). قال المسيح له المجد «إن ظللتم متمسكين بكلامي فبالحقيقة تكونون تلاميذي **وتعرفون الحق**، والحق يحرركم» (يوحنا ٨ : ٣١ و ٣٢).

ولأنه هو الحق، فهو «**يعلن الحق**» (متى ١٢ : ١٨). «**ويعلّم بالحق**» (متى ٢٢ : ١٦)؛ (مرقس ١٢ : ١٤)؛ (لوقا ٢٠ : ٢١). «**ويدين بالحق**» (يوحنا ٨ : ١٦).

١ : ١٥

شهادة يوحنا المعمدان عن المسيح:

وبعد أن تحدث القديس يوحنا عن طبيعة السيد المسيح باعتباره ابن الله وكلمته، وأدلى بشهادة تلاميذه عنه بعد أن أبصروا مجده، سجّل الشهادة عنه التي أدلى بها يوحنا المعمدان الذي سبق تلاميذه في التبشير به قائلاً:

«وقد شهد يوحنا له ونادى قائلاً: هذا هو الذي قلت عنه إن الذي يأتي بعدي قد تقدمني، لأنه كان قبلي».

وكان يوحنا المعمدان يقول قبل أن يبدأ مخلصنا أداء رسالته ويظهر نفسه للناس، إن المسيح الذى كان اليهود ينتظرون مجيئه قد جاء فعلاً إلى العالم، وإن وقت ظهوره قد اقترب، وإنه إن كان يظهر بعده من حيث الزمن فإنه يتقدمه من حيث المكانة، لأنه هو مجرد رسول يقتصر دوره على أن يتقدَّم أمام المسيح ليمهد له الطريق بين الناس، كما يمهِّد الخادم الطريق أمام الملك. وأما المسيح فهو سيِّد ذلك الرسول وهو إلهه. وهو إن كان قد جاء بعد يوحنا، فإنه كان كائنا قبله، لأن يوحنا إنسان بدأ وجوده بالولادة، وأما السيد المسيح فهو الإله الأزلى الأبدى الذى لا بداءة لوجوده ولا نهاية. ولأن مجد يوحنا كرسول ومجد جميع الصالحين من الناس إنما يستمدونه من مجد السيد المسيح الذى له المجد الكامل. حتى إذا أظهر السيد المسيح نفسه للناس ورآه يوحنا المعمدان نادى قائلاً: «هذا هو الذى شهدت له من قبل»، وكان يعنيه بما سبق أن قاله لليهود.

لقد أعلن يوحنا المعمدان منادياً لتلاميذه ولليهود عن سيِّده المسيح أن الذى أتى بعده فى الزمن، وهو المسيح، من حيث أن يوحنا قد وُلد سابقا على زمن ولادة المسيح يسوع بستة أشهر (لوقا ١ : ٢١)، يتقدمه فى المكانة والمنزلة والأهمية. وذلك لأنه هو الأزلى. أما يوحنا فهو زمنى. فالمسيح لم يكن ميلاده غير تجسده فى صورة إنسان. ولكنه قبل أن يتجسد من العذراء مريم كان كائناً قبل يوحنا المعمدان، بل قبل إبراهيم الخليل، فلقد قال «الحق الحق أقول لكم قبل أن يكون إبراهيم، أنا كائن» (يوحنا ٨ : ٥٨). بل إنه «قبل كل شيء» (كولوسى ١ : ١٧). «متقدماً في كل شيء» (كولوسى ١ : ١٨)؛ (يوحنا ١ : ٢٧و ٣٢)؛ (٣ : ٢٨ - ٣٦)؛ (٥ : ٣٣)؛ (متى ٣ : ١١)؛ (مرقس ١ : ٧)؛ (لوقا ٣ : ١٦).

١ : ١٦ و ١٧

المسيح مصدر النعمة ومنبع الحق:

وإذ سبق للقديس يوحنا البشير أن قال عن السيد المسيح إنه ممتلىء من النعمة والحق، عاد فقال إننا «من ملئه جميعنا أخذنا، ونعمة أخذنا بدلاً من نعمة»، أى أنه إن كان التلاميذ وسائر المؤمنين يتمتعون ببعض النعمة، أو يتصفون بجانب من الحق. فإن مصدر تلك النعمة ومنبع ذلك الحق هو السيد المسيح الممتلىء من كليهما، ومن ملئه أخذ كل الذين تمتعوا ببعض النعمة أو اتصفوا بجانب من الحق. إذ يقول بولس الرسول في رسالته إلى أهل أفسس إن السيد المسيح قد امتلأ لكى «يملأ الكل فى الكل» (أفسس ١ : ٢٣). ويحدد القديس يوحنا معنى هذه النعمة التى أخذناها من فادينا، فيقول «نعمة أخذنا بدلاً من نعمة. لأن الشريعة بموسى أعطيت، وأما النعمة

وتحق فيسوع المسيح كاناه . أى أنها نعمة العهد الجديد التى أعطانا إياها له المجد بدلاً من نعمة العهد القديم . إذ أن العهد الجديد ينطوى على النعمة الحقيقية التى تتمثل فى سيدنا يسوع المسيح وحده ، والتى لم تكن نعمة العهد القديم التى جاء بها موسى النبى إلا رمزاً لها ، ومجرد وعدٍ بها وتطلّع إليها . ففى السيد المسيح وهو الإله المتجسد تجسدت النعمة كما تجسد الحق الذى لا يمكن إدراكه إلا بفعل النعمة . والمقصود بالحق هنا هو الله نفسه ، لأنه هو الحق فى جوهره ، وهو مصدر الحق فى جميع صوره ، وبمختلف دلالاته . فإن كان موسى قد تنبأ بمجيء الله فى صورة الإنسان كى يسبغ نعمته على بنى الإنسان . فلم تكن نبوءته تلك تنطوى إلا على أمل سيتحقق فى المستقبل البعيد ، ومن ثم يقتصر الأثر الذى يتركه فى النفس على ما يثيره الأمل من سعادة مجددة غامضة تخامر النفس فلا تغدو تلك السعادة كاملة وسافرة وغامرة إلاّ بأن يتحقق ذلك الأمل ويغدو حقيقة ملموسة وحقاً منظوراً . ومن ثمّ يغدو نعمة حقيقية تفيض على النفس فتملؤها بالبهجة وتغمرها بالاطمئنان والأمان والإيمان ، وهذا هو الذى حدث حين تجسد ابن الله ، وخاطب الناس بأقوال الله ، وكشف لهم النقاب عن طبيعته ، فتحقق بذلك الأمل الذى تنطوى عليه نبوءة موسى ، والذى ترمز إليه كل طقوس شريعته .. وإذ لم يكن فى مقدور الناس أن يروا الله أو يدركوا شيئاً عن حقيقته ، كان من نعمة الله عليهم أن يرسل إليهم ابنه وكلمته ليخبرهم بما كانوا عاجزين عن أن يروه أو يدركوه . وما كان فى استطاعة أحد أن يفعل ذلك غيره . لأنه كائن منذ الأزل فى حضنه ، وطبيعته هى من ذات طبيعته . فهو فى وحدة كاملة معه ، وهو القادر وحده على أن يعرف كنهه ويدرك حقيقته ويخبر البشر بهذا الذى يعرفه كل المعرفه ويدركه كل الإدراك عن أبيه السماوى الذى هو واحد معه . ومن ثم يقول القديس يوحنا فى بشارته إن «الله لم يره أحد قط . الابن الوحيد الذى فى حضن الآب هو الذى أخبر عنه» .

إن السيد المسيح هو الكل فى الكل .. «هو الألف والياء ، البداءة والنهاية ، الأول والآخر» (الرؤيا ٢٢ : ١٣) . «الذى هو قبل كل شىء ، وفيه يقوم الكل .. هو البداءة .. لأنه فيه سرّ أن يحلّ كل الملء» (كولوسى ١ : ١٧ - ١٩) ، «فإنه فيه يحل كل ملء اللاهوت جسدياً» (كولوسى ٢ : ٩) . فهو مصدر النعم والبركات ولذلك فإن كلّ بشر لديه نعمة أو بركة ، ليست هى من عنده ، وإنما هى من عند الله الكلمة ، فمنه أخذ جميع الأنبياء والرسل وكلُّ الخلق (يوحنا ١٠ : ٨) . فالأنبياء والرسل من بحر نعمته اغترفوا وأعطوا . لا من عندهم أعطوا . وكما قال يوحنا المعمدان «إن الذى يأتى من فوق هو فوق الجميع» (يوحنا ٣ : ٣١) .

لقد كان هو مانح العهد القديم بكل شرائعه وطقوسه ورموزه وبكل إمتيازاته . فلمّا تجسّد الله الكلمة جاء لنا بخيرات أعظم ، وبركات أوفر ، بحيث لم تكن كل إمتيازات العهد القديم غير ظل لتلك الإمتيازات والبركات التى أتانا بها المسيح فى العهد الجديد (العبرانيين ٩ : ١١) ؛ (١٠ : ١) .

هو سيد العهدين، لكنه أعطانا نعمة العهد الجديد بدلاً من نعمة العهد القديم «لمدح مجد نعمته التي أنعم بها علينا في المحبوب، الذي فيه لنا الفداء بدمه غفران الخطايا حسب غنى نعمته التي أجزلها لنا بكل حكمة وفطنة، إذ عرفنا بسر مشيئته حسب مسرته التي قصدها في نفسه لتدبير ملء الأزمنة ليجمع كل شيء في المسيح، ما في السماوات وما على الأرض» (أفسس ١ : ٦ - ١٠).

«لأن الشريعة بموسى أعطيت. وأما النعمة والحق، فبيسوع المسيح كانا».

فشريعة العهد القديم التي أنعم الله بها على البشرية نزلت على يد موسى النبي الكليم. وقد سُميت «شريعة موسى» لأن موسى هو الذي تلقاها من الله، وأبلغها إلى بني إسرائيل (١ - الملوك ٢ : ٣)؛ (نحميا ٨ : ١)؛ (دانيال ٩ : ١١)؛ (ملاخي ٤ : ٤)؛ (لوقا ٢ : ٢٢)؛ (يوحنا ٧ : ١٩ و ٢٣)؛ (٨ : ٥)؛ (الأعمال ١٣ : ٣٩)؛ (١٥ : ٥)؛ (العبرانيين ١٠ : ٢٨).

قال الكتاب المقدس «وهذه هي الشريعة التي وضعها موسى أمام بني إسرائيل. هذه هي الشهادات والفرائض والأحكام التي كلّم بها موسى بني إسرائيل..» (التثنية ٤ : ٤٤ و ٤٥).. «ودعا موسى جميع إسرائيل وقال لهم: اسمع يا إسرائيل الفرائض والأحكام التي أتكلم بها في مسامعكم اليوم، وتعلموها واحترزوا لتعملوها» (التثنية ٥ : ١)؛ انظر أيضاً التثنية (٣٣ : ٤).

وأما قول القديس يوحنا «وأما النعمة والحق فبيسوع المسيح كانا» فليس معناه أن لا شريعة في المسيحية، إذ الواقع أن شريعة موسى مازال لها احترامها في العهد الجديد، لأن الشريعة هي شريعة الله، والله لا يتناقض ولا يتعارض مع ذاته. وقد طالب السيد المسيح كثيراً بالعمل حسب شريعة موسى ولم ينقضها ولم يهدمها.

قال السيد المسيح له المجد: «لا تظنوا أني جئت لأنقض الشريعة أو الأنبياء. ما جئت لأنقض بل لأتمم. فالحق أقول لكم إنه إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الشريعة حتى يتم كل شيء..» (متى ٥ : ١٧ و ١٨). وقال للرجل الأبرص بعد أن شفاه «اذهب إلى الكاهن أره نفسك، وقدم عن تطهيرك القربان الذي أمر به موسى» (مرقس ١ : ٤٤)؛ (لوقا ٥ : ١٤)؛ (متى ٨ : ٤) - انظر أيضاً (متى ٧ : ١٢)؛ (٢٢ : ٣٥ - ٤٠)؛ (٢٣ : ٢٣)؛ (لوقا ١٠ : ٢٦ - ٢٨)؛ (١٦ : ١٧).

وقال القديس بولس الرسول: «هكذا أعبد إله آبائي مؤمناً بكل ما هو مكتوب في الشريعة والأنبياء» (الأعمال ٢٤ : ١٤).

بيد أن المفهوم من قول الإنجيل للقديس يوحنا «أما النعمة والحق فبيسوع المسيح كانا»، هو لفت النظر إلى فضل السيد المسيح فى نزوله من السماء، ليشترك مع البشرية فى آلامها ومعاناتها. ثم لكى يقدم ذاته فدية عن الإنسان لخلاص الإنسان. وهذا هو كمال الحب، وقمة عمل النعمة. فإذا كان موسى قد أتى البشرية بشريعة إلهية عظيمة، فإن السيد المسيح أتى بنفسه ليتمم الشريعة التى عجز الإنسان عن طاعتها وتنفيذ متطلباتها. وقبل على نفسه أن ينوب عن الإنسان ليفتدى الإنسان. فأخذ وهو الإله، صورة الإنسان. فكان هو آدم الثانى، الذى قبل فى إنسانيته الحكم المقضى به على آدم الأول وذريته.

قال الكتاب المقدس فى العهد الجديد: «وأما الآن فقد ظهر بر الله بدون الشريعة، مشهوداً له من الشريعة والأنبياء، بر الله بالإيمان بيسوع المسيح إلى كل وعلى كل الذين يؤمنون، لأنه لا فرق، إذ الجميع أخطأوا وأعوزهم مجد الله، متبررين مجاناً بنعمته بالفداء الذى بيسوع المسيح الذى قدمه الله كفارة بالإيمان بدمه لإظهار بره من أجل الصفح عن الخطايا السالفة بإمهال الله». (رومية ٣: ٢١ - ٢٥). «لأنه إن كان بخطيئة الواحد قد ملك الموت بالواحد، فبالأولى كثيراً الذين ينالون فيض النعمة وعطية البر سيملكون فى الحياة بالواحد، يسوع المسيح. فإذن كما بخطيئة واحدة صار الحكم إلى جميع الناس للدينونة، هكذا ببر واحد صارت الهبة إلى جميع الناس لتبرير الحياة، لأنه كما بمعصية الإنسان الواحد جعل الكثيرون خطاة، هكذا أيضاً بإطاعة الواحد سيجعل الكثيرون أبراراً. وأما الشريعة فدخلت لكى تكثر الخطيئة. ولكن حيث كثرت الخطيئة ازدادت النعمة جداً. حتى كما ملكت الخطيئة فى الموت هكذا تملك النعمة بالبر للحياة الأبدية بيسوع المسيح ربنا». (رومية ٥: ١٧ - ٢١) «فإن الخطيئة لن تسودكم لأنكم لستم تحت الشريعة بل تحت النعمة» (رومية ٦: ١٤).

إنَّ عمل النعمة فى العهد الجديد هو أولاً فى تجسد الكلمة الإلهى، وثانياً فى قيامه بعمل الفداء والخلاص بدلاً من الإنسان من أجل الإنسان.

وأما أن الحق كان بالمسيح، فلأن المسيح هو الحق الذى أعلن ذاته. لقد قال سقراط: لا سبيل إلى معرفة الحق إلا إذا أظهر رب الحق وأعلن ذاته للبشر. والمسيح أعلن أنه الحق بقوله «أنا هو الحق» (يوحنا ١٤: ٦). و «القدوس الحق» (الرؤيا ٣: ٧)؛ (٦: ١٠). لقد عرف الحكماء والفلاسفة بعض الحق، أما فى المسيح وبالمسيح فقد عرفنا الحق الكامل، إذ هو الحق المطلق. وهو الحق لأنه صادق «يقول الحق» (يوحنا ٨: ٤٥ و ٤٦) ولا يبالى بأحد ولا يحابى وجه إنسان

(متى ٢٢: ١٦). و «يعلن الحق» (متى ١٢: ١٨) و «يعلّم بالحق» (مرقس ١٢: ١٤). و «يشهد للحق» (يوحنا ١٨: ٣٧).

وبالمسيح كان الحق، إذ هو الفادى الذى بدمه كان الوفاء للحق الإلهي كاملاً.. «ونحن نعلم أن دينونة الله هي حسب الحق» (رومية ٢: ٢و ٢٠). وقد إلتقت فى الصليب النعمة مع الحق. فلولا محبة الله لخلاص الإنسان ما كان نزوله إلى الأرض وقبوله الآلام بدلاً من الإنسان. ولولا الحق لما كان الصليب ضرورة لفداء الإنسان. ففى صليب المسيح إذن إلتقت محبة الله التى لا حدود لها بعدله الذى لا حدود له.. «الرحمة والحق إلتقيا» (المزمور ٨٤: ١٠). ولولا الصليب لما تحرّر الإنسان أو انعتق من الحكم عليه.. «الحق يحرّركم» (يوحنا ٨: ٣٢). يقول الكتاب المقدس «وإذ كنتم أمواتاً فى الخطايا وغلَف جسدكم، أحياكم معه مسامحاً لكم بجميع الخطايا، إذ محا الصك الذى علينا فى الفرائض. الذى كان ضدا لنا، وقد رفعه من الوسط مسمراً إياه بالصليب» (كولوسى ٢: ١٣و ١٤).

١: ١٨

المسيح هو ذات الله:

«الله لم يره أحد قط. الابن الوحيد الذى فى حضن الآب هو الذى أخبر عنه».

الله لم يره أحد قط. إن الله من حيث طبيعته فى ذاته غير منظور للناس. وهو لا يقع تحت الحواس. وهو غير ملموس. ولقد قال الله لموسى عندما رغب موسى فى أن يراه قائلاً: أرنى مجدك.. قال: «**لا تقدر أن ترى وجهى، لأن الإنسان لا يرانى ويعيش**» (الخروج ٣٣: ١٨ - ٢٠و ٢٣). وقال عنه موسى النبى لبنى إسرائيل: «لم تروا صورة بل صوتاً.. لم تروا صورة ما يوم كلمكم الرب فى حوريب من وسط النار» (التثنية ٤: ١٢و ١٥).

وقال المسيح له المجد «**لا أحد قد رأى الآب إلا الذى هو من الله**، فهذا هو الذى قد رأى الآب» (يوحنا ٦: ٤٦). والمعنى واضح أن بشَرا ما، لم يستطع أن يرى الله، ولا يقدر أن يراه. إنما الوحيد الذى رأى الله هو المسيح. ذلك لأنه من حيث لاهوته هو من طبيعة الله الآب ومن جوهره. فهو الذى رأى الآب لأنه كائن معه وفيه. وهو فى الآب والآب فيه (يوحنا ١٤: ١٠و ١١و ٢٠)؛ (١٧: ٢١و ٢٣). على أن رؤية الابن للآب ليست من قبيل تلك الرؤية الحسية لأنه كائن معه وفيه. وهو فى الآب والآب فيه (يوحنا ١٤: ١٠و ١١و ٢٠)؛

(١٧ : ٢١ و ٢٣) . على أن رؤية الابن للآب ليست من قبيل تلك الرؤية الحسية المادية، وإنما هى الرؤية الروحية الباطنية التى لا يعبر عنها ولا توصف. إنها رؤية عيانية من غير واسطة، مباشرة لأنها فى الجوهر الإلهى والطبيعة الإلهية (يوحنا ٣ : ١١ و ٣٢)؛ (٨ : ٣٨).

وقال الرسول القديس بولس: «وملك الدهور الذى لا يفنى ولا يُرى، الإله الحكيم وحده» (١. تيموثيئوس ١ : ١٧) . «الذى وحده له عدم الموت، ساكناً فى نور لا يُدنى منه، الذى لم يره أحد من الناس. ولا يقدر أن يراه» (١. تيموثيئوس ٦ : ١٦). وقال الرسول القديس يوحنا «الله لم ينظره أحد قط» (١. يوحنا ٤ : ١٢ و ٢٠) . وانظر (أيوب ٩ : ١١) و (٢٢ : ١٤)؛ (٢٣ : ٩)؛ (٣٤ : ٢٩)؛ (٣٥ : ١٤)؛ (العبرانيين ١١ : ٢٧)؛ (١. بطرس ١ : ٨).

«الإبن الوحيد الذى فى حضن الآب هو الذى أخبر عنه».

ومع أن الله لم يره أحد قط ولا يقدر أن يراه، لكنه شاء لكى يجعل ذاته منظوراً أن يحتجب فى جسد (يوحنا ١ : ١٤) . وهذا هو «الله الذى ظهر فى الجسد» (١. تيموثيئوس ٣ : ١٦) . هو **الابن الوحيد** (يوحنا ١ : ١٤)؛ (٣ : ١٦ - ١٨)؛ (١. يوحنا ٤ : ٩) . لأنه ليس له نظير فى هذه البنُوة. وليست هذه البنوة من نوع الولادة كما هى فى عالم الإنسان. لكنها للدلالة على أن المسيح من حيث لاهوته هو من طبيعة الله ومن جوهره، ولأنه ظهر فى الجسد.

وهو فى **حضن الآب**، بمعنى أنه فى **ذات الآب، وفى عين جوهره**، لأن الله ليس له حضن كما للإنسان حضن، وإنما **حضنه هو ذاته، وأعماقه وصميم جوهره**، فقد قال «**صدقونى أنى فى أبى وأن أبى فىَّ**» (يوحنا ١٤ : ١٠ و ١١ و ٢٠)؛ (١٧ : ٢١ و ٢٣) . وقد أخبر عنه بمعنى أنَّ المسيح هو الذى **أخبرنا عن الآب، ومن غيره لا نعرف شيئاً عن الآب**. فهو وحده الذى يعرف الآب المعرفة الحقيقية الكاملة المباشرة من غير واسطة، ذلك لأنه منه وكائن فيه. وقد قال المسيح له المجد «**ولا أحد يعرف من هو الابن إلا الآب، ولا أحد يعرف من هو الآب إلا الابن**» (لوقا ١٠ : ٢٢)؛ (متى ١١ : ٢٧) . وقال أيضاً لليهود عن الآب «وأنتم لا تعرفونه. **أما أنا فأعرفه لأنى منه**» (يوحنا ٧ : ٢٩) . وقال كذلك لليهود «أبى هو الذى يمجدنى. ذلك الذى تقولون أنتم إنه إلهنا، وأنتم لا تعرفونه. أما أنا فأعرفه. وإن قلت إننى لا أعرفه أكون مثلكم كاذباً، **ولكننى أعرفه**» (يوحنا ٨ : ٥٤ و ٥٥) . وقال ملحاً على نفس المعنى: «**إن أبى يعرفنى، وأنا أعرف الآب**» (يوحنا ١٠ : ١٥) . وعندما سأله تلميذه فيلبس أحد الاثنى عشر قائلاً: «يارب أرنا الآب وكفانا. قال له يسوع: «أنا معكم كل هذا الزمان ولم تعرفنى يا فيلبس؟ **من رآنى فقد رأى الآب**. فكيف تقول أنت أرنا الآب؟ ألا تؤمن بأنى

أنا في أبي وأن أبي فيّ.. صدقوني أني في أبي، وأن أبي فيّ» (يوحنا ١٤ : ٨ ـ ١١). والمعنى والمغزى من هذا الحوار أن المسيح له المجد يؤكد على هذه الحقيقة: أن الله الآب لم يره أحد قط. ولكن لما شاء الله أن يجعل ذاته منظوراً لبس صورة إنسان، وفيه عرّفنا الله الآب الذي ما كنا لنعرفه على حقيقته لو لم يتجسد. فالمسيح هو الذي أعلن لنا عن الله الآب الغير المنظور. وهو الذي أخبرنا عنه، فهو صورة الله الغير المنظور» (كولوسي ١ : ١٥).

١ : ١٩ ـ ٢٨

رسل اليهود يتحققوا من شخصية يوحنا المعمدان:

وقد سبق للقديس يوحنا البشير أن تكلم في بداية هذا الفصل عن يوحنا المعمدان، قائلاً إنه رجل مرسل من الله ليشهد للنور الذي هو السيد المسيح. ثم أورد ملخص شهادته عنه حين رآه، إذ أشار إليه وهتف قائلاً إن هذا هو المسيح ابن الله الذي ينتظره اليهود، والذي تنبأ هو من قبل بأنه قد اقترب موعد ظهوره. وأنه إن كان يظهر بعده فإنه سيتقدمه، لأنه كان موجوداً قبله، مشيراً بذلك إلى أزليته، ومن ثم ألوهيته، حيث أن الأزلي هو الله وحده. ثم لم يلبث القديس يوحنا بعد أن أشار في إيجاز إلى هذه الشهادة التي أدلى بها يوحنا المعمدان أن عاد ليتكلم عنها بشيء من التفصيل. (انظر يوحنا ٣ : ٢٥ ـ ٣٦)؛ (٥ : ٣٣). إذ كان اليهود بسبب لهفتهم إلى ظهور المسيح الذي تنبأ بمجيئه كل أنبيائهم ليخلصهم مما كانوا فيه من مذلة وهوان، قد اعتقدوا أنه هو يوحنا المعمدان الذي رأوا في سيرته النقية وطهارته وتقواه وسمو تعاليمه سمات وصفات من أنبيائهم الأقدمين الذين كان قد انقطع ظهورهم منذ مئات السنين. ومن ثم أرسلوا إليه من أورشليم عاصمة بلادهم وأقدس مدنهم قوماً من علمائهم الدينيين العارفين بأسرار الشريعة ونبوءات الأنبياء، وهم الكهنة واللاويون (يشوع ٣ : ٣) أصحاب السلطة في الهيكل وأقدر الناس على المناقشة في أصول الدين، والوصول إلى الحقيقة في أمر ذلك الذي قام يعلّم الناس ويعمدهم ويجمع حوله عدداً عظيماً من التلاميذ والمريدين.

ومن ثم جاء هؤلاء المتكبرون المغرورون إلى يوحنا تقودهم الغيرة منه والرغبة في هدم إيمان الشعب اليهودي به، فسألوه قائلين: «من أنت؟». وإذ كان يعلم أنهم يريدون أن يعرفوا منه إن كان هو حقاً المسيح الآتي إلى العالم كما كان سائر اليهود يظنون (لوقا ٣ : ١٥)، اعترف على الفور في تواضع ولم ينكر الحقيقة، وإنما أقر قائلاً «لست أنا المسيح» (انظر يوحنا ٣ : ٢٨)؛ (الأعمال ١٣ : ٢٥).

وقد كانوا يعرفون من نبوءات أنبيائهم أن ثمة نبياً سيبعث به المسيح قبل أن يظهر نفسه للناس كي يهيىء الطريق له بينهم، بأن يعلن لهم مجيئه ويدعوهم إلى الإيمان به، إذ قال إشعياء النبي عن هذا النبي إنه «صوت صارخ في البرية، أعدوا طريق الربّ، قوّموا في القفر سبيلاً لإلهنا. كل وطاء يرتفع، وكل جبل وأكمة ينخفض، ويصير المعوجّ مستقيماً، والعراقيب سهلاً، فيعلن مجد الرب ويراه كل بشر» (إشعياء ٤٠: ٣ ـ ٥)؛ (متى ٣: ٣)؛ (مرقس ١: ٢ و٣)؛ (لوقا ٣: ٤ ـ ٦). كما كان علماء اليهود يعرفون من نبوءات أنبيائهم كذلك أن إيليا النبي الذي صعد بالجسد إلى السماء في مركبة نارية (٢. الملوك ٢: ١١ و١٢)، سيعود ثانية إلى العالم ليكون هو ذلك النبي الذي يجيء قبل المسيح ليهيىء الطريق له، إذ تنبأ ملاخي النبي قائلاً بلسان المسيح: «هأنذا أرسل ملاكي فيهيئ الطريق أمامي» (ملاخي ٣: ١) كما تنبأ قائلاً: «هأنذا أرسل إليكم إيليا النبي قبل مجيء يوم الربّ، اليوم العظيم المخوف، فيرد قلب الآباء إلى الأبناء، وقلب الأبناء إلى آبائهم» (ملاخي ٤: ٥ و٦). وإذ كانوا قد لمسوا أوجه الشبه العظيم بين صفات إيليا وأسلوب حياته (٢. الملوك ١: ٨)، وصفات يوحنا وأسلوب حياته (متى ٣: ٤)؛ (مرقس ١: ٦)؛ (لوقا ١: ١٧)، ظنوا أنه هو نفسه إيليا قد نزل من السماء، ومن ثم سألوه قائلين: «ماذا إذن؟ آنت إيليا؟»... وقد كان يوحنا المعمدان يعرف أنه هو صوت الصارخ في البرية ليعلن مجيء الرب على مقتضى نبوءة إشعياء النبي. كما كان يعرف أنه هو الملاك الذي تنبأ ملاخي النبي بأن المسيح سيرسله ليهيئ الطريق أمامه، وأنه هو الذي رمز إليه ملاخي في نبوءته بإيليا النبي الذي سيجيء قبل مجيء يوم الربّ. ولكن يوحنا المعمدان كان يدرك في نفس الوقت أن الذي سيجيء ليمهد الطريق أمام المسيح ليس إيليا نفسه كما كان اليهود يعتقدون، وإنما نبي آخر يجيء مشابهاً له في سيرته ورسالته، وفي روحه وقوته. وذلك هو الإدراك السليم الذي أيده الملاك الذي بشّر زكريا الكاهن بأن زوجته أليصابات ستحبل في شيخوختها وتلد ابناً هو يوحنا المعمدان، إذ قال له «لا تخف يا زكريا فإن دعاءك قد استجيب، وزوجتك أليصابات ستحبل وتلد ابناً فتسميه يوحنا وتفرح وتبتهج، كما يفرح كثيرون بميلاده، لأنه سيكون عظيماً أمام الربّ، وخمراً أو مسكراً لا يشرب، ومنذ يكون في بطن أمه سيكون ممتلئاً من روح القدس، وسيرد كثيرين من بني إسرائيل إلى الرب إلههم، ويتقدم أمام الربّ بروح إيليا وقوته، ليردّ قلوب الآباء إلى أبنائهم، والعصاة إلى فكر الأبرار، كي يهيئ للرب شعباً صالحاً» (لوقا ١: ١٣ ـ ١٧). بل إن السيد المسيح نفسه قد أيد ذلك الإدراك السليم لمعنى نبوءة ملاخي النبي، إذ أن القديس متى بعد أن تحدث في بشارته عن معجزة تجلّي السيد المسيح على الجبل، قال إن تلاميذه بطرس ويعقوب ويوحنا حين رأوا تجليه في هيئته الإلهية تأكدوا أنه هو المسيح ابن الله، ومن ثم

سألوه قائلين: «لماذا يقول الكتبة إذن إنَّ إيليا ينبغي أن يجيء أولاً؟ فأجاب يسوع وقال لهم: حقاً إن إيليا ينبغي أن يجيء أولا ويعيد كلَّ شيء إلى نصابه، ولكنى أقول لكم إنَّ إيليا قد جاء فعلاً فلم يعرفوه، وإنما فعلوا به كل ما أرادوا. هكذا ابن الإنسان أيضاً سوف يتألم منهم. وعندئذ فهم التلاميذ أنه كان يكلمهم عن يوحنا المعمدان» (متى ١٧: ١٠ ـ ١٣)؛ (مرقس ٩: ١١ـ ١٣). كما أن السيد المسيح في موضع آخر من بشارة القديس متى تحدَّث عن يوحنا المعمدان قائلاً: «هذا هو الذى كتب عنه: هأنذا أبعث أمام وجهك رسولي الذى يهيئ طريقك أمامك.. فهذا إن شئتم أن تقبلوا هو إيليّا المزمع أن يجيء» (متى ١١: ١٠ و ١٤). وعلى الرغم من أنَّ السيد المسيح وهو يتحدث عن يوحنا المعمدان أشاد بعظمته إذ وصفه قائلاً: «إنه لم يقم بين المولودين من النساء أعظم من يوحنا المعمدان» (متى ١١: ١١). فإن يوحنّا ـ في تواضع القديسين الأبرار ـ حين سأله كهنة اليهود وعلماؤهم قائلين «أأنت إيليا؟» قال: «لست هو، لأنه ـ وإن كان قد جاء بروح إيليّا وقوّته كقول ملاك الله (لوقا ١: ١٧) ـ لم يكن هو إيليّا نفسه الذى أكرمه الله فأصعده بالجسد إلى السماء في مركبة نارية (٢ ـ الملوك ٢: ١١ و ١٢). ومن ثمّ كانت له لدى اليهود منزلة عظيمة لم يشأ يوحنّا ـ على الرغم من عظمته هو ـ أن ينسبها إلى نفسه. وإنما اقتصر على أن يبيّن لليهود المهمة التى جاء من أجلها كمجرّد خادم للمسيح يتقدمه فى الطريق كما يتقدم الخادم الملك العظيم.

فلما سمع الكهنة والعلماء من يوحنا أنه ليس المسيح وليس إيليّا، بقى فى أذهانهم احتمال ثالث وهو أن يكون هذا الإنسان البار الذى ظهر بين اليهود فجأة فتبعوه والتفوا حوله، هو النبى الذى تنبأ موسى بمجيئه، إذ قال لليهود فى سفر التثنية «يقيم لك الرب إلهك نبياً من وسطك، من إخوتك مثلى... وأجعل كلامى فى فمه. ويكون أن الإنسان الذى لا يسمع لكلامى الذى يتكلّم به باسمى أنا أطالبه» (التثنية ١٨: ١٥ و ١٨) ـ انظر (أعمال الرسل ٧: ٣٧). ومن ثم سألوا يوحنا قائلين: «أأنت النبى؟». بيد أنهم بسؤالهم هذا برهنوا على جهلهم حتى بشريعتهم ونبوءات أنبيائهم التى كانوا يزعمون أنهم فقهاؤها المتضلعون فى فهمها. لأن ذلك النبى الذى تحدّث عنه موسى وقال إنه سيجيء من بين اليهود هو نفسه المسيح ابن الله الذى كانوا ينتظرونه، كما يبدو ذلك جليًا فى سياق النبوءة نفسها. ولعلَّ مما يؤكّد جهل اليهود بهذه الحقيقة أن يوحنا، مع أنه يدرك كل الإدراك أنه هو نفسه نبى، وإذ أدرك أن أولئك الفقهاء حين سألوه لم يكونوا يقصدون أيَّ نبى دون تحديد. وإنما كانوا يقصدون ذلك النبى بذاته الذى تنبأ موسى عن مجيئه، أجابهم بالنفى قائلاً «كلا»، أى أنه ليس ذلك النبى الذى كان يعلم أن المقصود به فى النبوءة هو المسيح نفسه.

والمعروف أن النبوءة هي من وظائف المسيح بوصفه إنساناً، وهي إحدى ثلاث وظائف رئيسية تقلدها المسيح بصفته آدم الثاني والنائب عن البشرية والذي قام بعمل الفداء بالنيابة عن الإنسان، وهي: النبوءة والملك والكهنوت.

ولقد رأى قادة اليهود وعلماؤهم أن في ما قاله النبي موسى عن ذلك النبي الذي سيقوم في وسط بني إسرائيل، إشارة وتلويحاً إلى المسيح باعتبار أن النبوءة هي من بين وظائفه.

ولذلك يقول الإنجيل عن اليهود إنهم لما رأوا ما صنع المسيح له المجد من معجزات باهرة «قالوا: هذا هو بالحقيقة النبي الآتي إلى العالم» (يوحنا ٦: ١٤). ولابد أنهم قصدوا بذلك أنه النبي الذي تكلّم عنه موسى في التوراة (التثنية ١٨: ١٥و ١٨). ويروي الإنجيل من ثمّ الحوار بين المسيح وبين اليهود، وقوله له المجد «من آمن بي فكما قال الكتاب ستجري من باطنه أنهار ماء حيّ»، ثم يعقّب على ذلك بقوله «فحين سمع ذلك الكلام قوم من الجمع قالوا: هذا بالحقيقة هو النبي. وقال آخرون: هذا هو المسيح» (يوحنا ٧: ٤٠و ٤١). ولكن زعماء اليهود عندما سمعوا رواية المرسلين منهم ليقبضوا عليه ويأتوهم به قالوا «ابحث وانظر فإنه لا يقوم نبي من الجليل» (يوحنا ٧: ٥٢).

كذلك عندما استقبل اليهود المسيح في أحد الشعانين بأغصان الزيتون وسعف النخل، ودخل أورشليم «اهتزت المدينة قائلة: من هذا؟ فقالت الجموع: هذا هو يسوع النبي الذي من ناصرة الجليل» (متى ٢١: ١٠و ١١).

وعندما صدر الحكم على المسيح الفادي بالموت.. «راح بعضهم يبصقون عليه، وقد غطوا عينيه، وأخذوا يلطمونه على وجهه ثم يسألونه قائلين له: تنبأ لنا أيها المسيح من الذي لطمك الآن؟ (مرقس ١٤: ٦٥)؛ (متى ٢٦: ٦٧و ٦٨)، (لوقا ٢٢: ٦٤و ٦٥). وهذا معناه أنهم حتى وهم يهزأون به يعلمون أنه لو كان هو المسيح لكانت النبوءة من بين صفاته ووظائفه. وعندما آمنت المرأة السامرية بالمسيح قالت له في مبدأ الأمر «يا سيدي أرى أنك نبي». ثم انطلقت إلى المدينة وقالت للناس هلموا انظروا ذلك الرجل الذي قال لي كل شيء فعلته.. أيكون هذا هو المسيح؟ (يوحنا٤: ١٩و ٢٥و ٢٩). وهذا يدل على أنها تعلم أن النبوءة هي بعض وظائف المسيح. ويقول الإنجيل بعد ذلك: «وقد آمن به كثيرون من السامريين في تلك المدينة بسبب كلام المرأة التي شهدت قائلة: إنه قال لي كل ما كنت قد فعلت. ومن ثمّ جاء السامريون إليه ورجوه أن يمكث عندهم.. وقد آمن به كثيرون آخرون من أجل كلامه، وجعلوا يقولون للمرأة:

إننا الآن نؤمن، لا بسبب كلامك، وإنما لأننا سمعناه بأنفسنا، وقد علمنا أن هذا هو حقاً المسيح مخلّص العالم» (يوحنا ٤ : ٣٩ ـ ٤٢).

انظر أيضاً في بيان ذلك ما قاله اليهود بعد أن أقام المسيح من الموت الشابّ ابن أرملة نايين إذ «مجّدوا الله قائلين قد قام فينا نبي عظيم، وقد تفقّد الله شعبه» (لوقا ٧ : ١٦)، وما قاله عنه تلميذا عمّاوس: «يسوع الناصري الذي كان نبياً مقتدراً في الفعل والقول لدى الله وكل الشعب» (لوقا ٢٤ : ١٩).

وقال عنه ذلك أيضاً المولود أعمى حين شفاه (يوحنا ٩ : ١٧) ـ انظر أيضاً (مرقس ٦ : ١٥)؛ (يوحنا ٣ : ٢).

ومن ثمّ تضايق أولئك الكهنة واللاويون إذ أخفقوا في أن يحصلوا من يوحنا المعمدان على أية إجابة تدلّ على حقيقة شخصيته ليعودوا بها إلى رؤسائهم الذين أرسلوهم إليه، والذين كانوا يخافونهم، وقد أرادوا أن يخيفوا يوحنا بهم. لأنهم رؤساء الكهنة وأعضاء مجلس السنهدريم وغيرهم من أصحاب المناصب العليا والنفوذ العظيم، وكانوا قد أقلقهم تزايد عدد الذين آمنوا بيوحنا المعمدان من الشعب اليهودي. واعتبارهم إياه نبياً عظيماً، وبالتالي ارتفاع مكانته بينهم، مما يهدّد مكانة أولئك الرؤساء ويجرح كبرياءهم ويملأ بالحقد صدورهم. وقد أراد أولئك الكهنة واللاويون أن يحرجوا يوحنا ليدفعوه إلى إجابة ينكر فيها أيّ صفة فيه تجعله مستحقاً لإيمان الشعب به وإكبارهم إياه والتفافهم حوله، كي يخففوا بذلك حنق رؤسائهم وينالوا رضاءهم عنه، فسألوه قائلين: «فمن أنت لنعطي إجابة للذين أرسلونا؟ ماذا تقول عن نفسك؟» وعندئذ كشف لهم عن حقيقة شخصيته، فصارحهم بأنه هو الذي تنبأ عنه إشعياء النبي قائلاً: «صوت صارخ في البرية، أعدّوا طريق الرب، قوّموا في القفر سبيلاً لإلهنا.. فيعلن مجد الربّ ويراه كل بشر» (إشعياء ٤٠ : ٣ ـ ٥)، إذ قال يوحنا لهم «أنا صوت صارخ في البرية: أعدّوا طريق الربّ. كما قال إشعياء النبي» وقد كان أولئك الكهنة واللاويون الذين أرسلهم رؤساء اليهود إلى يوحنا من طائفة الفريسيين المتعصبين المتحذلقين المنافقين الذين على الرغم من جهلهم بروح الشريعة وجوهرها؛ كانوا لا يفتأون يتشدقون بقشورها وبظاهر نصوصها وطقوسها، وبفهمهم السطحي الملتوي لها، ومن ثمّ تجاهلوا ما تعنيه إجابة يوحنا من أنه هو الرسول الذي تنبأ إشعياء النبي بأنه سيجيء ليمهد الطريق للمسيح، وأنه بالتالي هو الملاك الذي قال عنه المسيح على لسان ملاخي النبي: «هأنذا أرسل ملاكي فيهيئ الطريق أمامي» (ملاخي ٣ : ١). وما تنطوي عليه تلك الإجابة من كرامة يستحق يوحنا التكريم والتعظيم من أجلها، وأرادوا على العكس أن يحقروه

ويزدروه ويغضوا من شأنه، بل أن يلصقوا به مخالفة دينية، باجترائه على أن يمارس طقساً لا يحقُّ له في إعتقادهم أن يمارسه، وهو طقس العماد، إذ قالوا له: «لماذا تعمد إذن ما دمت لست المسيح ولا إيليا ولا النبي؟» وعلى الرغم مما في سؤالهم من تحرش واستفزاز، فقد أجابهم يوحنا بكل هدوء وكل تواضع قائلاً «أنا أعمّدكم بالماء. ولكن بينكم قائم ذلك الذي لستم تعرفونه، الذي - وإن أتى بعدي - كان قبلي، وأنا لست بمستحق لأن أحلّ أربطة حذائه»، أي أن كل ما يستطيعه هو - في حدود السلطان الممنوح له - لكي يطهرهم من شرورهم أن يعمّدهم بالماء الذي هو مجرّد رمز للوسيلة الحقيقية للتطهير وهي الروح القدس الذي لا يملك التطهير به إلا واحد هو المسيح، وفقاً لما جاء في بشارة القديس متى، إذ قال يوحنا المعمدان لليهود «أنا أعمدكم بالماء من أجل التوبة. أما الذي سيأتي بعدي فهو أقوى مني.. إنه سيعمدكم بالروح القدس وبالنار» (متى ٣ : ١١) . وقد أعلن لهم يوحنا أن المسيح قائم بالفعل في ذلك الوقت بينهم وإن كانوا لا يعرفونه. لأنه لم يبدأ رسالته بعد. وهو إن كان سيظهر نفسه للعالم بعد أن أظهر يوحنا نفسه، فإنه كائناً قبله، لأنه هو الإله الكائن منذ الأزل. وقد تحدّث عنه يوحنا بكل الخشوع والإجلال اللذين يتحدث بهما الخادم عن سيده الذي تفوق عظمته كل عظمةٍ في الوجود، حتّى إن يوحنا - وإن كان السيد المسيح نفسه قد وصفه بأنه لم يقم بين المولودين من النساء أعظم منه (متى ١١ : ١١) ؛ (لوقا ٧ : ٢٨) - قد عدّ نفسه من قلة الشأن بالنسبة إليه حتى إنه غير مستحق لأن يحلّ أربطة حذائه (مرقس ١ : ٧)؛ (لوقا ٣ : ١٦) . وهكذا أفصح يوحنا المعمدان لليهود عن حقيقة شخصيته وحدود مهمته وبشّرهم بمجيء المسيح مخلّص العالم الذي كانوا ينتظرونه منذ مئات السنين، مبيناً لهم مقدار مجده وعظمته.

١ : ٢٩ - ٣٤

شهادة المعمدان أن المسيح هو ابن الله:

ثم واصل القديس يوحنا البشير بعد ذلك تسجيل شهادة يوحنا المعمدان عن السيد المسيح، فقال إنه في اليوم التالي لحديثه مع الكهنة واللاويين الذين أرسلهم رؤساء اليهود ليعرفوا حقيقة شخصيته، رأى مخلصنا مقبلاً إليه، فقال لتلاميذه ولسائر المؤمنين به الذين جاءوا ليعتمدوا منه: «هوذا حمل الله الذي يحمل خطيئة العالم» (انظر أيضاً يوحنا ١ : ٣٦) ؛ (العبرانيين ٩ : ٢٨) ؛ (١ . بطرس ٢ : ٢٤) ؛ (١ . يوحنا ٣ : ٥) .. هذا هو الذبيحة الحقيقية التي لم يكن الحمل الذي يذبحه اليهود في عيد الفصح إلا رمزاً لها (الخروج ١٢ : ٣ و ٤ - ١٣) . والذي شاءت رحمة الله ومحبته للبشر أن يقدمه - وهو ابنه الوحيد - ذبيحة وضحية ليكفر بها عن خطيئة آدم وذريته في

العالم كله (إشعياء ٥٣ : ٦ و ٧) ؛ (الأعمال ٨ : ٣٢ و٣٣) . فيستحقوا بذلك صفحه عنهم ومغفرته لهم، ويستعيدوا رضاه عنهم ومصالحته إياهم. ومن ثمّ يرحمهم بذلك من الهلاك الذى استحقوه بموجب العدل الإلهى.. «عالمين أنكم افتديتم لا بأشياء تفنى، بفضة أو ذهب.. بل بدم كريم كما مِن حمَل بلا عيب ولا دنَس، دم المسيح» (١ . بطرس ١ : ١٨ و ١٩) . عقاباً لهم على خطيئة آدم جدهم الأول التى ورثوها عنه، فضلاً عن خطاياهم التى ارتكبوها هم أنفسهم، لأن ابن الله إذ ارتضى أن يكون هو الذبيحة والضحية للتكفير عن خطايا العالم (العبرانيين ١ : ٣) ؛ (٢ : ١٧) ؛ (١ . بطرس ٣ : ١٨) ؛ (الرؤيا ٥ : ٦ ـ ١٢) ارتضى فى الوقت نفسه أن يحمل على عاتقه كل هذه الخطايا (يوحنا ١ : ٣٦) كأنه هو نفسه الذى ارتكبها (٢ . كورنثوس ٥ : ٢١) . وكان عليه مِن ثمّ أن يكفر عنها نيابة عن البشر الذين هم المرتكبون الحقيقيون لها (١ . كورنثوس ١٥ : ٣) ؛ (غلاطية ١ : ٤) ؛ (١ . يوحنا ٤ : ١٠) . وهذا هو المعنى الذى ردَده القديس يوحنا البشير فى رسالته الأولى، إذ يقول إن السيد المسيح «هو كفَّارة لخطايانا. ليس لخطايانا نحن فقط، بل لخطايا كل العالم أيضاً» (١ . يوحنا ٢ : ٢) ؛ (الرؤيا ١ : ٥) كما أن هذا هو المعنى الذى ردَده إشعياء النبى فى نبوءاته عن السيد المسيح، إذ يقول عنه: «لكنّ أحزاننا حملها وأوجاعنا تحمّلها.. وهو مجروح لأجل معاصينا، مسحوق لأجل آثامنا... وبحبره شفينا.. كلنا كغنم ضللنا، ملنا كل واحد إلى طريقه. والرب وضع عليه إثم جميعنا... جعل نفسه ذبيحة إثم.. وهو حمَل خطيئة كثيرين وشفع فى المذنبين» (إشعياء ٥٣ : ٤ ـ ١٢) .

ثم قال يوحنا المعمدان وهو يواصل شهادته عن مخلصنا: «هذا هو الذى قلت عنه يأتى بعدى رجل يتقدمنى لأنه كان قبلى. وأنا لم أكن أعرفه، ولكن من أجل أن يظهر لإسرائيل جئت أنا أعمّد بالماء» وهو يردد بهذه العبارة ما سبق أن قاله لليهود الذين أتوا ليعتمدوا منه (يوحنا ١ : ١٥ و ٢٧) . ثم ما قاله للكهنة واللاويين الذين أرسلهم رؤساء اليهود ليتحققوا من شخصيته. فهو لا يفتأ يكرر هذه العبارة لتستقرّ فى الأذهان، وليعلم الجميع مكانة السيد المسيح ومكانته هو بالنسبة للسيد المسيح. فهو يصفه بأنه رجل لأنه إنسان كامل الناسوت. ولكنه يصفه بأنه كان قبله مع أنه جاء بعده فى الزمان، إذ ولد متأخراً عنه بستة أشهر (لوقا ١ : ٢٦ و ٥٧)، ليبين أنه كان كائناً منذ الأزل. ولما كان ليس أزلياً إلا الله، فهو الله الكامل اللاهوت. ومع أن يوحنا المعمدان سبق له وهو فى بطن أمه أليصابات أن سجد للسيد المسيح وهو فى بطن أمه السيدة العذراء مريم حين جاءت لزيارتها (لوقا ١ : ٤١) ، فإنه لم يكن يعرفه قبل أن يجيء ليعتمد منه، لأن كلاً منهما كان بعد ولادته يعيش بعيداً عن الآخر. فكان مخلصنا يعيش فى مدينة

الناصرة (لوقا ٢: ٣٩ و ٤٠)؛ (متى ٢: ٢٣). أما يوحنا المعمدان فقد كان «يقيم فى البرارى إلى يوم ظهوره لإسرائيل» (لوقا ١: ٨٠)؛ (متى ٣: ١١)؛ (١١: ٧). وذلك منذ طفولته المبكرة. فقد كان هيرودس ملك اليهود قد أمر بقتل كل الأطفال المناهزين لعمر الطفل الإلهى يسوع المسيح «من ابن سنتين فما أقل وفقاً للزمان الذى تحققه من المجوس» (متى ٢: ١٦). وكانوا قد جاءوا يسألون عن ذلك الطفل قائلين: «أين هو المولود ملك اليهود؟» (متى ٢: ٢). وقد كان يوحنا المعمدان واحداً من بين الأطفال الذين ينطبق عليهم أمر القتل الذى أصدره هيرودس. ويروى لنا تقليد قديم أن الجند حين جاءوا ليقتلوه فى بيت أبيه زكريا، إحتضنه أبوه بين يديه، وقال للجند: «سأسلمه إليكم من المكان الذى أخذته منه»، ثم جرى مسرعاً نحو الهيكل يحمل ابنه بين ذراعيه، والجند يجرون وراءه، فلما بلغ الهيكل أمسك بقرون المذبح وأخذ يصرخ إلى الرب إلهه قائلاً: «أليس هذا هو الابن الذى أعطيتنى إياه فى سن الشيخوخة بعد طول جهاد؟ إنهم يريدون قتله»، وعند ذاك خطفه ملاك الرب من بين ذراعى أبيه ومضى به إلى البّرية، فلما لم يجده الجند، قتلوا أباه زكريا بالسيف، وأما يوحنا فقد ظلّ فى البّرية حتى كبر وصار يافعاً «وكان طعامه جراداً وعسلاً برياً» (متى ٣: ٤). وهكذا أعدّ يوحنا نفسه للرسالة الجليلة التى تنتظره، والتى كّرسه الله لها منذ الحبل به فى بطن أمه، وهى إعداد الطريق للمسيح المنتظر حين يظهر نفسه للناس، وتعريفهم به وبحقيقة شخصيته، وبجوهر تعاليمه. حتى إذا أزف موعد ظهوره بدأ هو يقوم بالدور المرسوم له، فأخذ يعمّد بنى إسرائيل بالماء (متى ٣: ٦ و ٧)؛ (مرقس ١: ٥ و ٨)؛ (لوقا ٣: ٣ و ٤ و ١٦). ليطّهر أجسادهم ونفوسهم كى يكونوا مهيئين للتوبة، ولاستقبال ذلك الذى جاء ليفديهم ويكفّر عنهم لمغفرة خطاياهم (لوقا ١: ١٧ و ٧٦ و ٧٧).

وقد شرح يوحنا المعمدان بعد ذلك الوسيلة التى عَرَف بها شخصيّة السيد المسيح الذى لم يكن قد رآه من قبل، إذ شهد قائلاً: «إنى قد أبصرت الروح نازلاً عليه من السماء فى هيئة حمامة، واستقر على رأسه، وأنا لم أكن أعرفه. ولكن الذى أرسلنى لأُعمد بالماء هو الذى قال لى: إن الذى تبصر الروح ينزل ويستقر عليه، هو الذى يعمّد بروح القدس. وأنا قد أبصرت وشهدت بأن هذا هو ابن الله» (يوحنا ١: ٣٢ - ٣٤)؛ (متى ٣: ١٦)؛ (مرقس ١: ١٠)؛ (لوقا ٣: ٢٢)؛ (يوحنا ٥: ٣٢ و ٣٣).

وفى هذه الشهادة الرائعة نلمس تدبير الله فى حكمته، كما نلمس حكمته فى تدبيره. فلم يكن عدم معرفة يوحنا لمخلصنا قبل أن يجيء ليعتمد منه، أو قيام أى صداقة بينهما محض مصادفة، وإنما كان أمراً قَصَدت إليه العناية الإلهية لئلاّ تكون شهادة يوحنا المعمدان للسيد

المسيح منظورية أمام الناس على أية شبهة للمجاملة التي قد تشوب شهادة صديق عن صديقه، أو منطوية على أية شبهة للتأثير الذي قد يفتعله صديق في أفكار صديقه. بحيث يرى أو يروى ما قد يعدّه الناس وهما أو أضغاث أحلام. وإنما شاء الله ألا يتعرّف يوحنا على شخصية سيّده الذي جاء ليمهد الطريق أمامه إلاّ بعلامة ماديّة منظورة ومسموعة ومحسوسة وملموسة، بحيث لا تدع في نفسه أية ريبة أو أدنى شك في أن هذا هو السيد الذي ما جاء هو إلى العالم إلا ليشهد له، والذي ظل حياته كلّها ينتظره ليشهد له. وبحيث لا يدع هذا كله في نفس من يسمع شهادته أية ريبة أو أدنى شك في أن ما يقوله عنه حق وصدق. وذلك أن الله الآب الذي أرسله لهذه الغاية وحدها جعل له علامة يتعرّف بها إلى ذلك السيّد الإلهي الذي لم يره من قبل وإن كان قد سجد له وهو لا يزال في بطن أمه. فقد أمره بأن يعمّد بالماء فقط تمهيداً لذلك السيد الذي سيعمّد بالروح القدس. أي ذلك الذي لن يكتفي بالتعميد بالماء الذي لا يصلح إلا لتطهير الجسد المادي الفاني، وإنما سيطهّر الروح نفسها، وهي العنصر الجوهري الخالد في الإنسان بما يصلح لها ويتفق مع طبيعتها، وهو روح الله الذي هو الروح القدس. ومن ثمّ قال له الله الآب: «إنّ الذي تبصر الروح ينزل ويستقر عليه، هو الذي يعمّد بروح القدس». وهنا يبدو الفارق واضحاً بين معمودية يوحنا ومعمودية المسيح له المجد. فمعمودية يوحنا هي للإعداد والتوبة، لكن الماء فيها يبقى على بسيط الحال، ولا يتغير عن طبعه. أما معمودية المسيح فشيء آخر. إنها ينحدر فيها الروح القدس على الماء (يوحنا ٣: ٣و٥). فيتغير الماء عن طبعه، ويصير ماء نزل فيه الروح القدس، فصار ماء من نار (متى ٣: ١١)؛ (الأعمال ١: ٥)؛ (٢: ٤)، له القدرة على أن يغسل الخطيئة (الأعمال ٢٢: ١٦)، ويطهر من الدنس، بل يخلق الإنسان خلقاً جديداً (غلاطية ٦: ١٥). وهو أيضاً ختان جديد، لا بقطع جزء من الجسد، بل بقطع جسم خطايا البشرية، ختان المسيح (كولوسي ٢: ١١و١٢).

وقد حدث ذلك بالفعل أمام عيني يوحنا حين جاء مخلصنا ليعتمد منه. إذ يقول «إني قد أبصرت الروح نازلاً عليه من السماء في هيئة حمامة واستقر على رأسه». وما كان ليوحنا المعمدان، أو كان في استطاعته، أو كان من طبيعة كيانه البشري أن يرى روح الله الذي لا يستطيع أن يراه إنسان، ولا يحتمل أن يراه إنسان، وقد سبق لليهود حين كانوا في صحراء سيناء أن تجلى الله لهم، فخافوا خوفاً شديداً، وتملكتهم رهبة قاتلة. إذ جاء في سفر الخروج أنه حين أراد الله أن يخاطب اليهود.. «صارت رعود وبروق وسحاب ثقيل على الجبل وصوت بوق شديد جداً، فارتعد كل الشعب الذي في المحلة، وأخرج موسى الشعب من المحلة لملاقاة الله، فوقفوا في

أسفل الجبل. وكان جبل سيناء كله يدخن من أجل أن الرب نزل عليه بالنار، وصعد دخانه كدخان الأتون، وارتجف كل الجبل جداً. فكان صوت البوق يزداد اشتداداً جداً، وموسى يتكلم والله يجيبه بصوت.. وكان جميع الشعب يرون الرعود والبروق وصوت البوق والجبل يدخن. ولما رأى الشعب ارتعدوا ووقفوا من بعيد، وقالوا لموسى: تكلم أنت معنا فنسمع، ولا يتكلم معنا الله لئلا نموت» (الخروج ١٩: ١٦ - ١٩)؛ (٢٠: ١٨ و ١٩). ولذلك فإن الله بعد أن استبدل بعهد النقمة على البشر بسبب خطاياهم، عهد النعمة بعد أن أرسل ابنه الحبيب ليكفر بموته عن تلك الخطايا، ويعيدهم إلى أحضان حنان أبيهم السماوي، قد شاءت حكمته ورحمته أن يبعث بروحه القدوس إلى بني الإنسان، لا في رعود وبروق وصوت بوق ونار ودخان، وإنما في هيئة حمامة بيضاء نقية وديعة رقيقة هي أبدع وأروع رمز للمحبة والسلام في العهد الجديد، عهد المحبة والسلام. وفي هذه الهيئة رأى يوحنا المعمدان روح الله القدوس نازلاً على فادينا الحبيب، ومستقراً على رأسه، كإشارة بليغة وبالغة الدلالة وعميقة المعنى، ليفهم منها يوحنا المعمدان أن هذه هي العلامة التي حددها الله له ليدرك منها أن هذا هو المسيح ابن الله الذي جاء ليشهد له ويمهد الطريق أمامه لدى بني إسرائيل ولدى العالم أجمع. ومن ثم ختم يوحنا شهادته بقوله في يقين ليس بعده يقين، وفي إيمان ليس أعمق منه إيمان: «أنا قد أبصرت وشهدت بأن هذا هو ابن الله».

١ : ٣٥ - ٤٢

إيمان أندراوس وأخيه بطرس بالسيد المسيح:

ثم في اليوم التالي كان يوحنا المعمدان واقفاً مع اثنين من تلاميذه الذين بهرتهم تعاليمه الجديدة فآمنوا به والتفوا حوله. وقد ازداد تعلقهم به حين سمعوه يبشرهم بأن المسيح ابن الله الذي ينتظرونه مع سائر اليهود قد جاء فعلاً، وأنه قائم بينهم وإن كانوا لم يعرفوه بعد، وأنه قد أوشك أن يظهر لهم ذاته ويبدأ بينهم رسالته التي جاء من أجلها إلى العالم. ولم يلبث يوحنا وهو واقف مع تلميذيه أن أبصر مخلصنا ماشياً قبالتهم. وكان قد بدأ بالفعل يجول في بلاد اليهود، مظهراً لهم ذاته. فما أبصره يوحنا حتى أخذ يكرر على مسمع من تلميذيه شهادته التي كان قد جاهر بها مراراً من قبل على مسمع من اليهود الذين كانوا يجيئون إليه ومنهم هذان التلميذان، إذ قال لهما: «هذا هو حمل الله». وإذ كانا قد فهما معنى هذه العبارة من يوحنا الذي كانا يعدانه معلمهما ويثقان فيه ثقة التلاميذ بمعلمهم، أدركا أن هذا هو المسيح فادي البشر ومخلصهم الذي ينتظرونه، فتبعاه. وقد ذكر القديس يوحنا البشير اسم أحد هذين التلميذين وهو أندراوس أخو

سمعان بطرس (متى ٤ : ١٨). وأما التلميذ الآخر الذى كان معه، فلابدّ أن يكون هو القديس يوحنا ذاته. ولذلك لم يذكر اسمه تواضعاً منه وتحرُّجاً من أن يتكلم عن نفسه، شأن الأبرار القديسين. وفيما كان هذان التلميذان يتبعان مُخلِّصنا إلتفت مُخلصنا ورآهما وهما يتبعانه. وإذ كان يعلم أنهما يريدان أن يتحدثا إليه، ولكنهما يمنعهما عن ذلك الرّهبة والخجل والأدبُ. كما كان يعلم أنهما سيكونان من بين تلاميذه (متى ١ : ٢)؛ (مرقس ٣ : ١٧ و ١٨)؛ (لوقا ٦ : ١٤)، أراد - بوداعته وتواضعه - أن يفتح لهما باب الحديث بنفسه. فقال لهما: «ماذا تطلبان؟»، أى «ماذا تريدان أن تقولا لى؟». فقالا له: «رابّى - الذى ترجمته يا معلم - أين تقيم؟». ولم يكن سؤالهما هذا لمجرّد أن يعلما أين يقيم، وإنما أرادا أن يُعبرّا بذلك عن تعظيمهما له، إذ لقباه بالمعلّم. وكان اليهود لا يطلقون هذا اللقب إلا على أعظم علمائهم ومعلّميهم. كما أرادا أن يعبرا عن رغبتهم فى أن يتبعاه ليلتصقا به فى الموضع الذى يقيم فيه، لأنهما أدركا أنه يقيم فى مكان بعيد عن المكان الذى رأياه فيه. ولأنهما قررا منذ تلك اللحظة أن يكونا من أقرب تلاميذه إليه، فيقيما حيث يقيم، ويذهبا إلى حيث يذهب، ويستمعا إلى كل ما يقول، ويريا كلَّ ما يفعل. فقال لهما: «تعاليا وانظرا»، تعبيراً عن ترحيبه بهما وقبوله رغبتهما فى أن يتعرفا به فيعرفاه على حقيقته.

ومن ثم أرادهما أن ينظرا إلى المكان المتواضع الذى يقيم فيه لئلاّ يتوهما أنه وهو ابن الله قد اختار لنفسه حين جاء إلى العالم قصراً من قصور الملوك أو قلعة من قلاع الأباطرة، فيبنيان على ذلك أفكار دنيوية وآمالاً أرضية فى الجاه الدنيوى والسلطان الأرضى. وإنما اختار أن يكون إنساناً فقيراً متواضعاً، كالغالبية العظمى من بنى الإنسان، لأن مملكته التى سيدعو إليها ليست على الأرض، وإنما هى فى السماء (يوحنا ١٨ : ٣٦). فإن كان هذان التلميذان يريدان حقاً أن يتبعاه، فليعرفا هذه الحقيقة منذ اللحظة الأولى، فلا يكونا ضحية وهم خادع أو أملٍ كاذب. وفعلاً أتيا ونظرا أين يقيم ومكثا عنده ذلك اليوم حتى بلغت الساعة نحو العاشرة بالتوقيت اليهودى، أى نحو الساعة الرابعة بعد الظهر بالتوقيت الحديث، أى مكثا عنده اليوم كله، مما يدلُّ على أنهما - على الرغم من تواضع المكان الذى وجداه يقيم فيه، وعلى الرغم من تواضعه هو نفسه - بهرتهما عظمة شخصيته النبيلة الجليلة، وأذهلتهما روعة تعاليمه السماوية السامية. مما جعلهما يتعلقان به من أول وهلة، فلم يتركاه إلا فى آخر النهار، وما تركاه إلا لينطلقا فرحين إلى إخوتهما ومعارفهما ليبشراهم بذلك النبأ العظيم الذى تنبأ به كل أنبياء العهد القديم، نبأ مجىء المسيح ابن الله مخلّص العالم.

وكان أول من لقيه أندراوس أخاه سمعان بطرس، فبادره قائلاً «قد وجدنا المشيح»، وهذا هو النطق الآرامي لكلمة المسيح، أو باليونانية «مسيّاس». وإذ كان أندراوس في لهفة شديدة لأن يذيع أمر ذلك الاكتشاف الرائع بأسرع ما يمكن، وعلى أوسع نطاق، أخذ أخاه بطرس على الفور وجاء به إلى مخلصنا. والراجح أن بطرس كان هو أيضاً من تلاميذ يوحنا المعمدان، فلما رآه مخلّصنا قال له «أنت سمعان بن يوحنّان، وليكن اسمك كيفا». وهكذا برهن السيد المسيح منذ أول لحظة بدأ فيها أداء رسالته على علمه الإلهي بكل شيء وبكل شخص (يوحنا ٢ : ٢٥)، إذ عرف بمجرد أن رأى بطرس لأول مرة أن اسمه العبراني سمعان، وأن اسم أبيه يوحنّان، ولكنه شاءت حكمته أن يختار له اسماً آخر هو «كيفا»، وهي كلمة آرامية معناها «حجر»، وباليونانية بطرس Πέτρος ومعناها أيضاً «حجر»، فأصبح هو الاسم الغالب له (متى ١٦ : ١٨)؛ (مرقس ٣ : ١٦)؛ (لوقا ٦ : ١٤)؛ (يوحنا ١٣ : ٨). وإن كان الكتاب المقدس كثيراً ما يجمع بين الاسمين فيقول عنه «سمعان بطرس» (متى ١٦ : ١٦)؛ (لوقا ٥ : ٨)؛ (يوحنا ١ : ٤٠).

١ : ٤٣ - ٥١

إيمان فيلبس ونثنائيل بالسيد المسيح:

وفي اليوم التالي، إذ كان فادينا يقصد إلى منطقة الجليل في تجواله الذي أصبح دائماً ومتصلاً كي ينجز رسالته، وجد رجلاً آخر أدرك بعلمه الإلهي صلاحيته لأن يكون من تلاميذه الأقربين. وكان اسمه «فيلبس»، فقال له «اتبعني»، فتبعه على الفور وأصبح من تلاميذه الاثنى عشر (متى ١٠ : ٣)؛ (مرقس ٣ : ١٨)؛ (لوقا ٦ : ١٤)، مما يدل على أن اختيار مخلصنا له كان قائماً على حكمته الإلهية، وعلمه العميق والدقيق بمعادن الرجال ودخائل نفوسهم، ومدى استعدادهم واستحقاقهم للرسالة الجليلة التي هيأهم للقيام بها. وقد كان فيلبس هذا من مدينة «بيت صيدا» على شاطىء بحر الجليل (يوحنا ١٢ : ٢١). وهي نفس المدينة التي كان منها أندراوس وبطرس. ومعنى اسمها «بيت الصيد»، لأن أغلب سكانها كانوا من صيّادي السمك. فما استمع فيلبس إلى تعليم الرب يسوع المسيح الذي دعاه ليتبعه حتى أدرك على الفور حقيقة شخصيته، فانطلق في فرح عظيم ليذيع النبأ كما فعل أندراوس من قبل. وكان أول من وجده من معارفه نثنائيل الذي من بلدة «قانا» بالقرب من «الناصرة» (يوحنا ٢١ : ٢). فأفضى إليه على الفور بذلك السّر الرائع قائلاً له: «قد وجدنا الذي كتب عنه موسى في الشريعة، وكذلك الأنبياء، وهو يسوع بن يوسف الذي من الناصرة»، ويدل قوله هذا على أنه كان دارساً للعهد القديم من الكتاب المقدس دراسة دقيقة وعميقة، ومدركاً كل الإدراك لمعنى نبوءات كل الأنبياء الذين

تكلموا عن مجيء المسيح ابن الله، منذ موسى النبى (التكوين ٣: ١٥)؛ (١٧: ٧)؛ (٢٢: ١٨)؛ (٤٩: ١٠)؛ (التثنية ١٨: ١٨) وكل الذين جاءوا بعده من الأنبياء على مدى أكثر من ألف عام (إشعياء ٤: ٢)؛ (٧: ١٤)؛ (٩: ٦)؛ (٥٣: ٢)؛ (ميخا ٥: ٢)؛ (زكريا ٦: ١٢)؛ (٩: ٩). بيد أنَّ فيلبس إن كان قد تأكد من أنَّ ذلك الذى وجده والذى دعاه لأن يتبعه هو المسيح الذى تنبأ بمجيئه الأنبياء، فإنه حين ذكر اسمه لنثنائيل قال إنه «يسوع بن يوسف». ولعل السبب في ذلك أن مخلصنا كان معروفاً لدى أهل مدينة الناصرة التى قضى فيها معظم حياته على الأرض (متى ٢: ٢٣)؛ (لوقا ٢: ٤)؛ (٤: ١٦) بأنه ابن يوسف النجار، على مقتضى التدبير الإلهى الذى شاء أن يتم بين يوسف ومريم عقد زواج رسمى عقده كهنة الهيكل بينهما قبل أن تنتقل مريم من بيت النذيرين فى الهيكل إلى بيت يوسف، وبالتالى قبل أن يبشرها الملاك جبرائيل بالحبل الإلهى. فالمعروف من تاريخ مريم أن أبويها نذراها للهيكل فى الثالثة من عمرها، فلما بلغت الثامنة من عمرها كانت قد تيتمت من أبويها، وظلت فى الهيكل حتى سن الثانية عشرة من عمرها. وعندئذ كان لابد - فى سن البلوغ - أن تخرج من الهيكل. ومن ثم لزم أن يعقد لها على رجل يحميها، إذ ما كان لهم أن يسلموها إلى رجل إلا عقدوا لها عليه عقداً رسمياً، يبرئها من كل إتهام يخدش سمعتها لو حملت بجنين - على أن هذا الزواج بالنسبة لمريم كان من نوع ذلك الزواج البتولي الذى لا يجرى فيه اختلاط جسدى بين الرجل وزوجته. ومما يدلُّ على ذلك أن مريم اعترضت على قول الملاك لها: «ها أنت ذى ستحبلين وتلدين ابناً تسمينه يسوع» (لوقا ١: ٣١) قائلة: «كيف يكون لى هذا، وأنا لا أعرف رجلاً» (لوقا ١: ٣٤) على الرغم من أن بشارة الملاك لها كانت بعد أن عقد الكهنة عليها وعلى يوسف، وبعد أن انتقلت بالفعل إلى بيت يوسف، وهذا يثبت أنها كانت معتزمة على بقائها بتولاً على الرغم من عقد الزواج الرسمي بينها وبين يوسف، حتى إن الملاك ظهر ليوسف فى الحلم، وقال له «يا يوسف بن داود، لا تخف أن تستبقى مريم امرأتك، لأن الذى سيولد منها إنما هو من روح القدس... فلما نهض يوسف من النوم فعل كما أمره ملاك الرب، واستبقى مريم امرأته» (متى ١: ٢٠ - ٢٤).

ولو لم تكن مريم قد انتقلت بالفعل إلى بيت يوسف بعد إتمام عقد الزواج الرسمى، ثم قبلت بشرى الملاك لها هناك، لما قال الإنجيل عن يوسف، «وإذ كان يوسف رجلها باراً، ولم يشأ أن يشهر أمرها، أراد أن يخلى سبيلها سراً» (متى ١: ١٩)، فهو إذن رجلها. ثم بعد أن رأى علامات الحمل عليها وهى فى بيته، وهو يعلم أن هذا الحمل ليس منه، أراد أن يخلى سبيلها سراً لأنه لم

يشأ أن يشهر أمرها، وذلك بأن يخرجها من بيته خفية من دون أن يعلم أحد بموضوعها حتى لا ترجم بموجب الشريعة. ثم يذكر الإنجيل بعد ذلك «ولكنه فيما كان يفكر في ذلك إذا ملاك الرب قد ظهر له في حلم قائلاً: يا يوسف بن داود، لا تخف أن تستبقي مريم امرأتك لأن الذي سيولد منها إنما هو من روح القدس» (متى ١: ٢٠).

وإذن فمريم زوجة رسمية ليوسف بموجب العقد الرسمي الذي بينهما، وبناء عليه انتقلت بالفعل إلى بيت يوسف: وبعد ذلك ظهر لها الملاك جبرائيل وبشرها بالحمل الإلهي. وقد ذكر الإنجيل ذلك صراحة، أن يوسف رَجُل مريم، وأن مريم امرأة يوسف، إذ يقول «ويعقوب أنجب يوسف رجل مريم التي ولد منها يسوع الذي يدعى المسيح» (متى ١: ١٦). وأيضاً «وإذ كان يوسف رجلها باراً» (متى ١: ١٩). ثم «يا يوسف بن داود، لا تخف أن تستبقي مريم امرأتك» (متى ١: ٢٠). وكذلك «فلما نهض يوسف من النوم، فعل كما أمره ملاك الرب، واستبقى مريم امرأته» (متى ١: ٢٤).

أما اعتراض مريم على بشرى الملاك لها وقولها له: «كيف يكون لي هذا وأنا لا أعرف رَجلاً» (لوقا ١: ٣٤). فيدل ليس فقط على أنها كانت بتولاً قبل الحبل بيسوع المسيح (متى ١: ١٨)، وإنما يدل أيضاً على أنها كانت قد نذرت البتولية لتظل بتولاً كل أيام حياتها مقدسة جسداً وروحاً. إذ كيف لفتاة عقد عليها عقد زواج رسمي، وانتقلت إلى بيت رجلها بالفعل، وقد ذكره الإنجيل صراحة أنه رجلها وهي امرأته، كيف لفتاة هذا وضعها أن تعترض على بشرى الملاك مع أنه يكلمها بلغة المستقبل قائلاً «وها أنت ذي ستحبلين وتلدين ابناً» (لوقا ١: ٣١)، وتقول بلغة الحسم «كيف يكون لي هذا وأنا لا أعرف رجلاً» لو لم تكن قد نذرت نفسها للبتولية الدائمة والعفة الكاملة كل أيام حياتها؟

ثم إن الملاك جبرائيل لم يوبخها على هذا الاعتراض ولم يلمها، ولكنه في احترام وفي أدب جم أدرك مغزى إعتراضها مبيناً لها أن هذا العمل سوف لا يتعارض مع إحتفاظها ببتوليتها، لأنه سوف يكون بالروح القدس، لا بزرع رجل.. «إن روح القدس سيحل عليك وقوة العلي ستظللك» (لوقا ١: ٣٥). فلما اقتنعت بأنها ستكون أماً وأنها ستظل عذراء دائماً، عذراء دائمة البتولية، خضعت لمشيئة الله وإرادته وقالت على الفور «ها أنا ذا أمة الرب، فليكن لي بحسب قولك» (لوقا ١: ٣٨).

ولذلك ردد فيلبس ذلك القول الشائع من أنه ابن يوسف، لأنه لم يكن قد أدرك بعد، ذلك السر الذي يفوق عقول البشر ويتجاوز مداركهم عن طبيعة السيد المسيح من أنه ابن الله. وأنه في الوقت نفسه ابن الإنسان، لأنه جاء من نسل المرأة، متخذاً جسد إنسان. (غلاطية ٤ : ٤).

غير أن نثنائيل حين سمع مع فيلبس أن المسيح من الناصرة، لم يصدق ما قاله له، لأن اليهود كانوا ينظرون إلى هذه المدينة نظرة احتقار وازدراء، إذ أن ساكنيها من اليهود كانوا يختلطون بالوثنيين ويتبادلون معهم التجارة والمصالح، مما يجعلهم في نظر اليهود المتزمتين أنجاساً وأشراراً وكفاراً يستوجبون غضب الله عليهم وقضاءه بهلاكهم (يوحنا ٧ : ٤١و٤٢و ٥٢). ومن ثم قال نثنائيل على الفور: «أيمكن أن يخرج من الناصرة شيء صالح؟» فلم يجد فيلبس حجة يرد بها على هذا الاعتراض إلا أن يدعو نثنائيل لأن يأتي معه ليرى بنفسه ذلك الذي أبدى الشك في صلاحه لمجرد أنه نشأ في مدينة يعدها غير صالحة. ومن ثم قال له: «تعال وانظر». وقد كان هذا أبلغ برهان يمكن أن يفحمه به. لأنه بالفعل أدى إلى النتيجة الرائعة التي هدف إليها وتوقعها، لأن مخلصنا ما إن رأى نثنائيل مقبلاً نحوه حتى أشار إليه كأنه يعرفه من زمان بعيد، وقال عنه للمجتمعين حوله: «هوذا حقاً إسرائيلي لا غش فيه»، لأنه علم عنه أكثر مما يعلمه هو عن نفسه، ممتدحاً إياه بأنه رجل مستقيم لا يلتوي، وصادق لا يكذب، وصريح لا يعرف الغش ولا الرياء، وهي الصفات التي ينبغي أن تتوفر للرجل الإسرائيلي حقاً وفقاً لوصايا الله التي أوصى بها بني إسرائيل (المزمور ٣١ : ٢)؛ (٧٢ : ١)؛ (يوحنا ٨ : ٣٩)؛ (رومية ٢ : ٢٨و ٢٩)؛ (٩ : ٦) وقد دهش نثنائيل دهشة عظيمة من قول مخلصنا الذي لم يكن قد رآه قبل ذلك، وسأله قائلاً «من أين تعرفني؟». ولم يكن هذا سؤالاً بقدر ما كان تعبيراً عما أصاب نثنائيل من ذهول وعجب من ذلك الإنسان الذي - مع أنه لم يره إلا في هذه اللحظة - أظهر معرفة كاملة بأعمق أعماق نفسه. وعندئذ ضاعف مخلصنا من دهشته وذهوله وعجبه، إذ أجاب قائلاً: «قبل أن يدعوك فيلبس حين كنت تحت شجرة التين، رأيتك». وقد كشف له بذلك أنه لا يعرف دخيلة نفسه فحسب، وإنما يعرف عنه أمراً خاصاً لا يعلم به أحد غير نثنائيل نفسه، وأم نثنائيل، كما يدلنا على ذلك ما نقله إلينا تقليد قديم، وهو أنه عندما كان طفلاً رضيعاً، كان من بين الأطفال الذين انطبق عليهم قرار هيرودس الملك الذي «حين رأى أن المجوس قد سخروا به استشاط غضباً وأرسل فقتل كل الأطفال الذين كانوا في بيت لحم وفي كل نواحيها، من ابن سنتين فأقل، وفقاً للزمان الذي تحققه من المجوس» (متى ٢ : ١٦). وإذ تنبهت أم نثنائيل وضعت طفلها في سفط، وحملته إلى أعلى شجرة التين وخبأته بين أغصانها. فدخل الجند بيتها ولم يجدوا في البيت طفلاً فخرجوا، وهكذا نجا الطفل نثنائيل من موت محقق.. هذه

القصة التي لم يعرفها إلا نثنائيل وأمه التي أخبرته بها هي التي نقلت إيمان نثنائيل فجأة من شخص كان متردداً أن يجيء إلى يسوع المسيح بعد أن علم أنه من الناصرة، بل قال لفيلبس الذي دعاه «أيمكن أن يخرج من الناصرة شيء صالح؟» إلى شخص يقول ليسوع الناصري بانبهار «يا معلم أنت ابن الله. أنت ملك إسرائيل» (يوحنا ١ : ٥٠). ذلك لأنه سمع من الرب يسوع قوله له «حين كنت تحت شجرة التين رأيتك»، أي حين لم يبصرك أحد وأنت تغطيك الأغصان قابعاً في سفط في تعريشة التينة، أنا رأيتك... عندئذ أدرك نثنائيل ـ وهو عالم بالكتب المقدسة وأسفار الأنبياء ـ أن يسوع الناصري ليس إنساناً، وإن ظهر في صورة إنسان، إنه صورة الله الغير المنظور، إنه ابن الله (متى ١٤ : ٣٣) على الحقيقة، من ذاته ومن طبيعته، وأنه بالتالي «ملك إسرائيل» المسيح الموعود به في نبوءات الأنبياء. إذ كانت النبوءات عن المسيح ابن الله تقول إنه حين يجيء سيكون ملك اليهود ويجلس على عرش إسرائيل (يوحنا ١٨ : ٣٧). وإذ رأى مخلصنا أنه آمن بكل هذه السرعة وكل هذا الصدق وكل هذا العمق، لمجرد أنه وجده عالماً بأمورخاصة به لا يعرفها عنه أحد غيره، أراد له المجد أن يوطد إيمانه ويؤكد صدق الشهادة التي هتف بها. فقال له: «لأني قلت لك إني رأيتك تحت شجرة التين آمنت؟ لسوف ترى أعظم من هذا». أي أنه سوف يرى براهين أقوى وأروع من هذا البرهان على أنه هو المسيح ابن الله، وذلك حين يرى المعجزات الغريبة العجيبة الإلهية التي سيصنعها، إذ يقيم الموتى ويشفي المرضى ويخرج الشياطين وغير ذلك من الآيات الرائعة بكلمة منه. ثم قال مخلصنا لنثنائيل ولسائر الموجودين: «الحق الحق أقول لكم إنكم سترون السماء مفتوحة، وملائكة الله يصعدون وينزلون على ابن الإنسان». أي أنه بتعاليمه السماوية ومعجزاته الإلهية سيزيل الحاجز بين الأرض والسماء فيرى الناس السماء مفتوحة أمامهم (إشعياء ٦٤ : ١)؛ (حزقيال ١ : ١)؛ (ملاخي ٣ : ١٠)؛ (متى ٣ : ١٦)؛ (مرقس ١ : ١٠)؛ (لوقا ٣ : ٢١) في عهد النعمة الذي جاء به مخلصنا، بتكفيره عن خطايا البشر، بعد أن كانت السماء مغلقة في عهد النقمة، حين كانوا لا يزالون رازحين تحت نير خطاياهم. ولما كان الملائكة هم خدام ابن الله قبل أن يجيء من السماء إلى العالم، فإنهم سيظلون يخدمونه بعد مجيئه إلى العالم. وهم لا يفتأون لهذه الغاية يصعدون وينزلون عليه (متى ٤ : ١١)؛ (مرقس ١ : ١٣)؛ (لوقا ٢ : ٩ و ١٣)؛ (٢٢ : ٤٣)؛ (٢٤ : ٤)؛ (الأعمال ١ : ١٠). وقد لقب نفسه بابن الإنسان تواضعاً منه وهو ابن الله، وإظهاراً لناسوته الذي اتحد بلاهوته، إذ كان حريصاً على أن يكشف للناس هذه الحقيقة، لئلا تتبلبل أفكارهم بشأنه، وليعلموا علم اليقين أنه وإن كان إنساناً كامل الناسوت فيما عدا الخطيئة، كما يدل على ذلك مظهره الإنساني، فإنه في الوقت نفسه هو ابن الله، وهو الله ذاته الكامل اللاهوت، كما تدل على ذلك أقواله وأعماله الإلهية.

الفصل الثانى

٢ : ١ – ١١

معجزة تحويل الماء إلى خمر:

ثم روى القديس يوحنا قصة أول معجزة صنعها مخلصنا بعد ذهابه إلى الجليل بثلاثة أيام. وقد بدأ له المجد يصنع المعجزات ليؤمن الناس بحقيقة شخصه الإلهى. إذ أعلن يوحنا المعمدان فى شهادته عنه أن هذا هو ابن الله. وقد كان هذا الإعلان عن إنسان مثلهم أمراً فوق مدارك البشر، يصعب على العقل البشرى أن يستوعبه، ولا يسعه لأول وهلة إلا أن يكذبه، بل أن يسخر منه ويستهزئ به، لأنه كيف يمكن للعقل البشرى أن يصدق أن الله العظيم الجبار. الأزلى الأبدى، المالئ السماوات والأرض، الذى لا بداءة له ولا نهاية، ولا يحده زمان ولا مكان، ولا يمكن أن يصل إلى كنهه أو مدى قوته أو قدرته أو قدسيته خيال إنسان. يتنازل هكذا فيأخذ صورة رجلٍ متواضع، فقير النشأة، بسيط الرداء. قليل الغذاء. لا مضطجع له ولا مال ولا منصب ولا جاه، ولا موضع له بين السادة والأقوياء والأغنياء والوجهاء من أهل هذا العالم؟. حقًا لقد كان اليهود ينتظرون مجيء ابن الله فى صورة البشر على مقتضى نبوءات أنبيائهم. ولكنهم تصوروه ـ كما صوره لهم كهنتهم وفقهاؤهم وعلماؤهم ـ سيجيء بصخب عظيم فى هيئة ملك طاغية، يملأ الأرض بجيوشه، ويغطى البحر بأساطيله، ليخلصهم من ربقة الرومان، ويعيد إليهم مجد مملكة داود وسليمان، ويفتح العالم كله ليجعلهم سادة جميع الأمم. وذلك لأن غباوة اليهود وغلظة قلوبهم وعمى بصائرهم وشدة كبريائهم وغطرستهم، وبشاعة حيوانيتهم وبهيميتهم، حالت بينهم وبين أن يكشف لهم هذا السرُّ الإلهى العجيب الذى أعلنه الله لهم فى نبوءات أنبيائهم، والذى طالما أكَّد لهم فى تلميح غامض تارة وفى تصريح واضح تارة أخرى أنه ـ إذ شاءت حكمته ورحمته خلاص البشر من الهلاك المحكوم به عليهم من العدل الإلهى ـ قرَّر أن يرسل إبنه الذى هو كلمته فى صورة البشر ليقدم بدمه الكفَّارة اللازمة لذلك الخلاص. وإذ هو قادر على كل شيء، فهو قادر على تحقيق هذا الذى قرره، على الرغم من قصور العقل البشرى عن إدراك الكيفية التى يمكن أن يتم بها ذلك، لقصور ذلك العقل عن معرفة كنة الله، وحقيقة طبيعته، لأنه لا يمكن للجزء أن يحيط بالكل، ولا يمكن للمخلوق ـ وهو لا يعرف حقيقة نفسه ـ أن يعرف بالأحرى حقيقة خالقه. وقد كان السيد المسيح يدرك ويعرف ـ وقد جاء فى غير الصورة التى كان اليهود يتصورونها ـ أنهم لن يصدقوا أنه المسيح ابن الله الذى كان ينتظرونه، إلا إذا صنع أمامهم ـ على الرغم من هيئته البشرية المتواضعة ـ أعمالاً لا يستطيع أن

يصنعها إلا الله وحده، بسلطان لا يمكن أن يكون إلا سلطان الله وحده، لأنه ليس في استطاعة إنسان ولا في سلطانه أن يصنعها.. ولذلك سميت بالمعجزات، إذ تعجز كلُّ قوة بشرية عن أن تأتي مثلها.

وقد تبدو المعجزات التي صنعها السيد المسيح ليؤمن به اليهود خارقة لقوى الطبيعة، بحيث يرتاب في صدقها كثيرون ممن لم يروها بأعينهم، بيد أن ذلك لا يصدر من هؤلاء المرتابين إلا عن سطحية في التفكير، وجهل بمدى قدرة الله. لأن الإنسان بقدراته الضئيلة واستعداداته المحددة لا يمكن أن يميز في ذلك الكون العظيم المحيط به بين ماهو ممكن وبين ماهو غير ممكن. وبين مايبدو منها خارقا لقوى الطبيعة وما هو غير خارق لها، وبين ماهو موافق لقوانين الطبيعة وما يظهر منها مخالفاً لتلك القوانين. ولأن الله - وهو الخالق الكون، والمانح الطبيعة قواها، والواضع لها قوانينها - قادر على أن يدبر هذه الطبيعة كيف يشاء، وأن يدبر أمورها على مقتضى إرادته التي لا يحدها حد ولا يعوقها عائق، ولا يحول دون تنفيذها حائل ولا مانع من قوة أو قانون. وإلا كان في قوى الطبيعة وقوانينها ما يحد من قدرته وإرادته، في حين أنه هو مبدعها وواضعها. وهذا غير معقول ولا مقبول. كما أن قوى الطبيعة وقوانينها إذا كانت تحد من قدرة الله وإرادته كان ذلك مدعاة إلى القول بعجزه، وهو تعالى منزه عن العجز، لأنه كامل كمالاً مطلقاً. فما نسميه إذن بالمعجزات - وإن كان معجزاً للناس لأنه فوق قدرتهم - لا يمكن أن يكون معجزاً لله. لأنه قادر على كل شيء (أيوب ٤٢ : ١) (التكوين ١٨ : ١٤) (لوقا ١ : ٣٧).

فبعد أن ذهب مخلِّصنا إلى الجليل بثلاثة أيام، يروي الإنجيل للقديس يوحنا أنه كان ثمة عرس في قانا الجليل. وكانت السيدة العذراء القديسة مريم أم مخلِّصنا حاضرة في ذلك العرس. كما كان مدعواً إليه الرب يسوع هو (متى ١١ : ١٨، ١٩) وتلاميذه الأوائل الذين كانوا لا يزالون قلائل في ذلك الحين. وقد كان تقديم الخمر من مستلزمات الضيافة عند اليهود ولا سيما في الأعراس، لأن الخمر لم تكن محرمة لديهم (التكوين ٢٧ : ٢٥، ٢٨، ٣٧)، وإنما كانوا يعدونها من بركات الله ودلائل نعمته (التكوين ١٤ : ١٨)، (إشعياء ٣٦ : ١٧)، (٦٢ : ٨، ٩)، (٦٥ : ٨)، (المزمور ١٠٣ : ١٥)، (يوئيل ٢ : ٢٤). لأنها كانت من عصير العنب الذي تجود به الأرض الطيبة إذا رعاها الله بعنايته (إرميا ٦ : ٩)، (٢٥ : ٣٠)، (٤٨ : ١١، ١٢، ٣٣)، (إشعياء ٥ : ٢)، (١٦ : ١٠)، (٦٣ : ١ - ٣)، (نحميا ١٣ : ١٥)، (أيوب ٢٤ : ١١)، (٣٢ : ١٩)، (متى ٢٦ : ٢٩). بل لقد كانت الخمر من عصير العنب تقدم للرب كسكيب مع المحرقة اليومية (الخروج ٢٩ : ٤٠). ومع الباكورات (اللاويين ٢٣ : ١٣) ومع كل أنواع الذبائح (العدد ١٥ : ٥). وكانت البكور

والعشور منها تقدّم للرب والكهنة (التثنية ١٨ : ٤) وكانت الخمر تشرب في أثناء أكل خروف الفصح.

بيد أن الخمر لم تلبث أن نفدت فجأة فى ذلك العرس، فارتبك العريس، وإنتابه حرج شديد إزاء المدعوين، ومنْ ثمّ عطفت السيدة العذراء عليه وأرادت أن تنقذه من ورطته. وكانت تعلم أن ابنها قادر على ذلك، فقالت له: «ليس لديهم خمر»، وبهذه العبارة البليغة القصيرة ناشدته أن يتدخل بقدرته الإلهية المعجزية التى تعرفها عنه دون سائر الناس كى يرفع الحرج عن العريس ويدفع عنه الخجل الذى إنتابه من ذلك التقصير فى إكرام ضيوفه. ولا سيّما أن السيدة العذراء قد لاحظت أن ابنها الإلهى قد بدأ فعلاً فى إنجاز رسالته، فلم يعد ثمة مانع من أن يبدأ فى إثبات حقيقة ذاته، بأن يصنع أمام تلاميذه ماكان ولا ريب يصدمه أمامها هى من معجزاته الإلهية، لأنها كانت تعرف أنه ابن الله. ولكن مخلصنا فيما يبدو كان يرى أنه ينبغى أولا أن يقضى وقتاً كافياً فى التعليم قبل أن يبدأ فى صنع المعجزات، لأن كل قول وكل عمل كان له وقت محدد لديه، فلا يقول أو يعمل شيئاً فى غير وقته المحدد له، ومنْ ثمّ قال لها: «ماشأني ياسيدة وشأنك فى هذا؟ إن ساعتى لم تأت بعد». أى أنّ الساعة التى حددها لصنع المعجزات لم تأتِ بعد (يوحنا ٧ : ٦). ومع ذلك فقد كانت مخاطبته لها - وهو يطلب إليها ذلك تنطوى على كل الاحترام الذى يليق بالابن نحو أمه، لأنه قوله «ياسيدة» أو «يا إمرأة» (يوحنا ١٩ : ٢٥) كان فى تقاليد تلك الأيام يدل على أعظم الإجلال والإكرام، ولكنها كانت تعلم أنه - وإن كان قد اعترض على الطلب الذى تقدّمت به إليه - سيطيعها كما تعودت منه ذلك (لوقا ٢ : ٥١) طاعة الابن البار لأمه. ولا يرفض لها طلباً. كما كانت تعلم كم هو رحيم وحنون ومحب ورؤوف ومستعد لعمل الخير لكل إنسان وفى كل حين. فقالت فى ثقة للقائمين بالخدمة فى وليمة العرس «ما يأمركم به افعلوه»، أى نفّذوا كل أوامره بكل دقة، ودون أى مناقشة. وذلك ثقة منها بأنه قد استجاب لطلبها، ولابد أنها فهمت من لهجة حديثه معها ومن قسمات وجهه أنه قبل رجاءها، وأنه على الرغم من أن ساعته لصنع المعجزات لم تأتِ بعد كما قال لها، سيصنع المعجزة إكراماً لها.

وقد كان ثمة ستة قدور من الحجر موضوعة هناك للتطهير بالماء وفقاً لسنن اليهود وتقاليدهم، إذ كانوا بناء على أوامر الشريعة اليهودية وبناء على تعاليم الفقهاء وتعليماتهم لا يفتأون يغتسلون قبل الخروج وبعد العودة، وقبل الأكل وبعده، وفى غير ذلك من مختلف المناسبات التى تتجاوز المئات.. «لأن الفريسيين وسائر اليهود لا يأكلون مالم يغسلوا أيديهم مراراً، متمسكين فى ذلك بما تسلموه من الشيوخ. وإذا عادوا من السوق لا يأكلون مالم يغتسلوا،

وغير ذلك الكثير من الأمور التي تسلموها وتمسكوا باتباعها، كغسل الكؤوس والأباريق والأواني النحاسية والأسرّة» (مرقس ٧: ٣، ٤). فهم يحتفظون على الدوام في كل بيت من بيوتهم بعدد كبير من الأواني المملوءة بالماء لهذا الغرض. وكانت تلك القدور الستة الموضوعة في بيت العريس من الضخامة بحيث يسع كل منها بقين أو ثلاثة. والبث مكيال يهودي يسمى كذلك «إيفة» (١ . الملوك ٧: ٢٦)، (٢ . أخبار الأيام ٢: ١٠)، (إشعياء ٥: ١٠)، (حزقيال ٤٥: ١٤)، (الخروج ١٦: ٣٦) و«الإيفة» لفظ فرعوني الأصل وكان يعادل ٢٢,٩٩١ لتراً أو ٢٢,٧٥ أقة. ومن ثمّ كانت سعة القدر الواحد من القدور الستة نحو ستة وأربعين لتراً، أو تسعة وستين لتراً، مما يدل على إتساعه الكبير، فقال مخلصنا للخدم «إملأوا القدور ماء» فأطاعوه كوصية أمه السيدة العذراء، وملأوا تلك القدور إلى حافة كل منها بالماء، وهم لا يدرون ماهو مزمع أن يفعل، لأن المشكلة كانت الحاجة إلى مزيد من الخمر وليس الماء. بيد أنهم لدهشتهم البالغة وذهولهم العظيم وجدوا أن الماء بمجرد أن وضعوه في القدور تحوّل على الفور إلى خمر، ولابد أنهم ذاقوها وتأكدوا أنها خمر فعلاً. وقد أمرهم مخلصنا قائلاً «اغترفوا الآن وقدموا إلى رئيس الوليمة». وكان من عادة اليهود أن يختاروا لكل وليمة رئيساً من رؤساء الكهنة أو أصحاب المراكز العليا ليتصدر المائدة، كنوع من التشريف له أو التشرف به. وقد كان الأمر الطبيعي أن يكون مخلصنا هو رئيس هذه الوليمة بالذات. ولكن يبدو أنه لم يكن قد ذاعت شهرته بالقدر الكافي بعد، لأنه لم يكن قد بدأ يظهر شخصيته للناس إلا منذ أيام قليلة. ولذلك تصدّر المائدة شخصا آخر كان أكثر منه شهرة في ذلك الحين. وكان هو رئيس الوليمة التي ينبغي أن يقدّم إليه الخدم الطعام والشراب قبل غيره. وقد قدّموا إليه من الخمر الجديدة التي تحولت من الماء. (يوحنا ٤: ٤٦). فلما ذاق رئيس الوليمة تلك الخمر، ولم يكن يعلم من أين جاء الخدم بها، وإن كان أولئك الخدم يعرفون، دعا العريس إليه وقال له: «كل إنسان يقدم للمدعوين الخمر الجيدة أولاً، حتى إذا سكروا قدّم لهم ماهو دونها جودة. أما أنت فأبقيت الخمر الجيدة إلى الآن»، مما يدل على أن مخلّصنا حين إتجهت إرادته - استجابة لشفاعة أمه - لأن يصنع خمراً بمعجزة، صنع من الماء أجود أنواع الخمر التي لا تفوقها خمر أخرى من صنع الإنسان.

وليس معنى ذلك أن مخلصنا أباح للناس شرب الخمر، لأنه قد صنعها في تلك الحادثة لينقذ العريس من ورطة وقع فيها أدت إلى إحراجه أمام ضيوفه من اليهود الذين كانت قد جرت العادة لديهم على تقديم الخمر للضيوف كمظهر من مظاهر تكريمهم. ولم يكونوا يعدونها محرمة أو نجسة، وإنما كانوا على العكس يعدونها نعمة من نعم الله عليهم. ومن أفضل خيراته التي يقدمها

إليهم إذا كان راضياً عنهم. كما أنه ليس في شريعة مخلصنا ثمة طعام نجس أو شراب نجس. فإن من تعاليمه أنه «لا شيء مما هو خارج الإنسان إذا دخله يمكن أن ينجسه. وإنما ما يخرج من فم الإنسان هو الذي ينجس الإنسان»، لأن «كل ما هو في الخارج إذا دخل الإنسان لا يمكن أن ينجسه، لأنه لا يدخل في قلبه وإنما في جوفه ثم يندفع إلى الخارج... لأنه من الداخل. من قلوب الناس تخرج الأفكار الشريرة. يخرج الزنى والفجور والقتل والسرقة والطمع والخبث والمكر والعهارة والعين الشريرة والتجديف والكبرياء والجهل. فهذه الشرور كلها تخرج من الداخل وهي التي تنجس الإنسان» (مرقس ٧: ١٥- ٢٣)، (متى ١٥: ١٠، ١٧- ٢٠).

ولكن مخلصنا مع ذلك ينهى الإنسان عن أن يفرط في شُرب الخمر حتى يسكر، مما يؤدي به إلى أن يفقد عقله فيفعل الشر ويعرض نفسه للهلاك. إذ يقول مخلصنا لتلاميذه ولسائر المؤمنين به وهو يتحدث عن يوم الدينونة الذي سيجيء فجأة: «فانتبهوا لأنفسكم لئلا تصير قلوبكم مثقلة بالتخمة والسكر والانغماس في المشاغل الدنيوية، فيفاجئكم ذلك اليوم بغتة» (لوقا ٢١: ٣٤).

وقد تلقى تلاميذ مخلصنا عنه ذلك التعليم ونادوا به. ومن ذلك ما قاله الرسل في رسائلهم، فقد قال بولس الرسول: «قد تناهى الليل وتقارب النهار فلنخلع أعمال الظلمة ونلبس أسلحة النور. لنسلك بلياقة كما في النهار، لا بالبطر والسُكر...» (رومية ١٣: ١٢، ١٣) فالسكر إذن من أعمال الظلمة والشر. ويقول أيضاً: «إن كان أحد مدعو أخا زانياً أو طماعاً أو عابد وثن أو شتاماً أو سكيراً... فلا تخالطوا ولا تؤاكلوا مثل هذا» (١. كورنثوس ٥: ١١) فالسُكر يحصى بين الخطايا الكبار مثله مثل الزنى وعبادة الأوثان. وقد منع المسيحيون من مخالطة السكّيرين. وقد صار مقرراً أن السكيرين يجب أن يفرزوا من الكنيسة ويمنعوا من شركة المؤمنين. ويقول بولس الرسول أيضاً: «لا تضلوا. لا زناة ولا عبدة أوثان ولا فاسقون ولا مأبونون ولا مضاجعو ذكور ولا سارقون ولا طمّاعون ولا سكّيرون... يرثون ملكوت الله» (١. كورنثوس ٦: ١٠). فالسكّيرون محرومون من ملكوت الله. ويقول كذلك: «وأعمال الجسد ظاهرة، التي هي: زنى، عهارة، نجاسة، دعارة، عبادة الأوثان، سحر، عداوة.. حسد. قتل. سكْر.. وأمثال هذه التي أسبق فأقول لكم عنها كما سبقت فقلت أيضاً إن الذين يفعلون مثل هذه لا يرثون ملكوت الله» (غلاطية ٥: ١٩- ٢١). ثم يقول «لا تكونوا أغبياء بل فاهمين ما هي مشيئة الرب. ولا تسكروا بالخمر الذي فيه الخلاعة» (أفسس ٥: ١٧، ١٨). أنظر أيضاً (إشعياء ٥: ١١، ١٢، ٢٢)؛ (٢٨: ١- ٧)؛ (هوشع ٤: ١١)، (إشعياء ٥٦: ١٢). وقال بولس الرسول أيضاً بين واجبات وصفات الأسقف والقسيس أن يكون «غير مدمن الخمر» (١. تيموثيئوس ٣: ٣). وكذلك الشمامسة «يجب أن يكون

الشمامسة ذوى وقار... غير مولعين بالخمر الكثير» (١ . تيموثيئوس ٣: ٨). وقال لتلميذه الأسقف تيموثيئوس، وقد كان مريضا بالاستسقاء «لاتكن فى ما بعد شرّاب ماء. بل استعمل خمرا قليلاً من أجل معدتك وأسقامك الكثيرة» (١ . تيموثيئوس ٥: ٢٣). وهذا معناه أن الخمر أبيحت فى المسيحية لأسباب علاجية دوائية على أن يكون القدر المسموح به قليلاً، لأن الكثير منها يؤدى إلى السُكر وهو شر وخطيئة (١ . تسالونيكى ٥: ٦، ٥).

ويقول القديس بطرس الرسول «لأن زمان الحياة الذى مضى يكفينا لنكون قد عملنا إرادة الأمم سالكين فى الدعارة والشهوات وإدمان الخمر... وعبادة الأوثان المحرّمة، الأمر الذى فيه يستغربون أنكم لستم تركضون معهم إلى فيض هذه الخلاعة عينها مجدفين» (١ . بطرس ٤: ٣، ٤). فالخمر فى هذه الحالة فضلاً عن أنها تؤدى إلى هلاك الجسم، تؤدى إلى هلاك الروح. ففيها مضيعة للإنسان فى دنياه وفى آخرته على السواء.

لذلك، نعتقد أن الخمر التى صنعها الرب يسوع لم تكن خمرا مسكرة، إذ من غير الممكن أن يتناقض صاحب الشريعة مع نفسه، ويبيح ماسبق فنهى عنه، وحذّر منه فى الأسفار المقدسة.

جاء فى سفر الأمثال «الخمر مستهزئة، المسكر عجاج ومن يترنح بهما فليس بحكيم» (٢٠: ١) وفيه «لاتكن بين شريبى الخمر بين المتلفين أجسادهم لأن السكير والمسرف يفتقران والنوم يكسو الخرق» (٢٣: ٢٠، ٢١)، وأيضاً قوله «لمن الويل لمن الشقاوة لمن المخاصمات لمن الكرب لمن الجروح بلا سبب، لمن ازمهرار العينين. للذين يدمنون الخمر الذين يدخلون فى طلب الشراب الممزوج. لا تنظر إلى الخمر إذا احمرّت حين تظهر حبابها فى الكأس وساغت مرقرقة. فى الآخر تلسع كالحية وتلدغ كالأفعوان. عيناك تنظران الأجنبيات وقلبك ينطق بأمور ملتوية. وتكون كمضطجع فى قلب البحر أو كمضطجع على رأس سارية. يقول ضربونى ولم أتوجع. لقد لكأونى ولم أعرف. متى استيقظ. أعود اطلبها بعد» (٢٣: ٢٩ - ٣٥) ثم يقول «ليس للملوك... ليس للملوك أن يشربوا خمراء، ولا للعظماء المسكر، لئلا يشربوا وينسوا المفروض ويغيروا حجة بنى المذلة. أعطوا مسكرا لهالك وخمرا لمرّى النفس يشرب وينسى» (٣١: ٤ - ٧). أنظر (أمثال ٢١: ١٧)، (١ . صموئيل ١: ١٤ - ١٦).

وقد نهى الرب الكهنة عن شرب الخمر وكذلك النذير..

جاء فى سفر اللاويين: «وكلّم الرب هرون قائلاً: خمراً ومسكرا لا تشرب أنت وبنوك معك عند دخولك إلى خيمة الاجتماع، لكى لا تموتوا. فرضاً دهريا فى أجيالكم» (اللاويين ١٠: ٨، ٩).

وجاء في سفر العدد «وكلَّم الرب موسى قائلاً... إذا انفرز رجل أو امرأة لينذر نذر النذير لينتذر للرب. فعن الخمر والمسكر يفترز ولا يشرب خل الخمر ولاخل المسكر... كل أيام نذره لايأكل من كل ما يعمل من جفنة الخمر...» (العدد ٦ : ١ - ٤).

وقد كانت هذه المعجزة التي صنعها مخلِّصنا إذ حوَّل الماء إلى خمر في عرس قانا الجليل هي أول معجزة يصنعها أمام تلاميذه، ونلاحظ أنه في هذه المعجزة حوَّل الماء إلى خمر بمجرد إرادته الداخلية وحدها دون أن ينطق بكلمة واحدة، كما نلاحظ ما انطوت عليه هذه المعجزة وماصاحبها من معان جليلة ودلالات سامية: إذ نرى كيف أن مخلصنا مع أنه صرح بأن موعد صنعه للمعجزات علانية لم يكن قد حان بعد، فإنه تقديراً لمكانة السيدة العذراء مريم وكرامتها عنده استجاب لرجائها وصنع المعجزة التي طلبتها، ونرى كيف أن مخلصنا مع أنه عاش بتولاً بغير زواج طيلة حياته على الأرض، بارك الزواج وقدَّسه بحضوره هذا العُرس. كما نرى كيف أنه مع أنه إلتزم حياة التقشف والزُهد في متاع الدنيا ومشتهياتها، شارك الناس أفراحهم ومباهجهم البريئة، في سماحة رفيعة، ومودة سامية، حتى أنهم حين أعوجتهم الخمر وفَّرها لهم كي لا ينقص من فرحهم وبهجتهم، فعلى الرغم من أنه كان يدعو في ديانته إلى الكمال، لم يكن يظهر كما يفعل الداعون إلى الأديان والعقائد - بمظهر التزمُّت الشكلي والمغالاة الجوفاء. لأن ديانته لم تكن ديانة الشكليات والمظاهر الزائفة، وإنما كانت هي ديانة النية النقية، والطوية البريئة، والقلب الصادق. ومِنْ ثَمَّ كانت هي ديانة المحبة والمودَّة والسماحة والصفاء.

وقد أدت هذه المعجزة على الرغم من الظروف التي أحاطت بها، إلى النتيجة التي كان يقصد إليها مخلِّصنا بصفة أساسية من صنع معجزاته، وهي أن يظهر مجده باعتباره المسيح ابن الله، ليؤمن الناس بهذه الحقيقة. فقد قرَّر القديس يوحنا أن تلاميذه الذين كانوا حاضرين معه في العرس، حين رأوا هذه المعجزة الأولى التي صنعها أمامهم آمنوا به، أو بالأحرى توطَّد وتأكد إيمانهم به، إذ كانت بذرة هذا الإيمان قد استقرت قبل ذلك بالفعل في قلوبهم بمجرَّد أن سمعوا تعاليمه السماوية التي لا يمكن أن تصدر عن إنسان عاديّ، وإنما عن الله وحده.

٢ : ١٢ - ٢٢

المسيح يطهر الهيكل من باعة الماشية والصيارفة:

وبعد هذا نزل فادينا إلى كفر ناحوم - التي معناها بالعبرية قرية ناحوم - وهي تقع في منطقة الجليل، على الشاطئ الشمالي الغربي لبحيرة طبرية. وكانت تبعد سفر يوم عن قانا الجليل. وقد انتقل إليها بعد ذلك من الناصرة التي كان قد قضى فيها شطراً كبيراً من حياته. ولم يلبث أن

جعل من كفر ناحوم هذه مقرّاً له ومركزا لدعوته، ومن ثم قيل عنها أنها مدينته (متى ٩ : ١) . وقد صنع فيها كثيرا من معجزاته. والراجح أنها كانت قائمة في الموضع الذي يسمى اليوم «تل حوم» وهو يبعد نحو ميلين إلى الجنوب من مدينة «كورازين» التي كانت تقع بالقرب من بحيرة طبرية، المسماة كذلك بحر الجليل.

ويقول الإنجيل للقديس يوحنا إن ربنا يسوع له المجد أخذ معه إلى كفر ناحوم أمه وإخوته وتلاميذه، وذلك لأنهم كانوا يلازمونه في كل مكان يذهب إليه، إذ كانوا هم أسرته. فكان يرعاهم ويعلمهم، وكانوا هم يخدمون ويتعلّمون منه ويتتلمذون كلهم عليه، إذ كانوا هم الصف الأول من المؤمنين به. وقد يثور التساؤل عمّن يكون أولئك الذين يدعوهم الإنجيل للقديس يوحنا إخوته. مع أن السيدة العذراء القديسة مريم لم تكن قد تزوّجت قبل أن تلده من روح القدس، أو بعد أن ولدته، وإنما ظلت عذراء طاهرة طوال حياتها. والواقع أن أولئك الذين يقال عنهم إخوته هم في الحقيقة أقاربه، إذ كان من عادة اليهود أن يقولوا عن الأقارب إنهم إخوة. ومثال ذلك أنه قيل في سفر التكوين عن لوط أنه أخو إبراهيم، مع أنه كان ابن أخيه (التكوين ١٤ : ١٤) وقيل عن يعقوب إنه أخو لابان، مع أنه كان ابن أخته (التكوين ٢٩ : ١٢) . كما قيل عن إخوة لابان إنهم إخوة يعقوب، مع أنهم كانوا أخواله (التكوين ٣١ : ٣٢ و٣٧ و٤٦) . وقد قيل في سِفر اللاويين عن أبناء العم إنهم إخوة. بل إن اليهود كانوا يقولون عن كل بني جنسهم إنهم إخوة. و من ذلك ماورد في سفْر التثنية، إذ تنبأ موسى لليهود قائلاً «يقيم لك الرب إلهك من وسطك، من وسط إخوتك، نبيا مثلي ... قال لي الرب ... أقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم مثلك» (التثنية ١٨ : ١٥ و١٧ و ١٨) . ولذلك فإنه على الرغم من أن يوسف لم يتزوج السيدة العذراء قبل ميلاد السيد المسيح أو بعده، وبالتالي لم يكن للسيد المسيح إخوة بالمعنى المعروف لهذه الكلمة فكان يقال عن أقرباء أمه وأقرباء يوسف أنهم إخوته. ومثال ذلك أنه جاء في بشارة القديس متى أن السيد المسيح «فيما كان يكلّم الجموع، إذ أمه وإخوته قد وقفوا في الخارج يريدون مخاطبته، فقال له أحد تلاميذه: ها هم أولاء أمك وإخوتك واقفون في الخارج يريدون مخاطبتك» (متى ١٢ : ٤٦، ٤٧) ، (مرقس ٣ : ٣١- ٣٥) ، (لوقا ٨ : ١٩- ٢١) . كما جاء في بشارة القديس متى أن السيد المسيح «حين جاء إلى وطنه كان يعلّمهم في مجامعهم حتى بهتوا وقالوا: من أين له هذه الحكمة وهذه القدرات؟ أليس هذا هو ابن النجار؟ أليست أمه تدعى مريم وإخوته يعقوب ويوسي وسمعان ويهوذا؟ أو ليست أخواته جميعهن عندنا؟» (متى ١٣ : ٥٣- ٥٦) ؛ (مرقس ٦ : ٣) . وقد كان يعقوب ويوسي وسمعان ويهوذا الذين قيل عنهم هنا إنهم إخوته هم - كما يتضح من النصوص الأخرى - أبناء خالته، أخت السيدة العذراء مريم، التي كان اسمها مريم كذلك، وكانت زوجة رجل يسمى «كلوبا» إذ يقول القديس يوحنا في بشارته «وكانت واقفات عند صليب يسوع أمه

وأخت أمه مريم زوجة كلوبا، (يوحنا ١٩ : ٢٥). وجاء في بشارة القديس متّى أنه عندما كان السيد المسيح على الصليب، كانت هناك نساء كثيرات ينظرن من بعيد.. وكانت بينهن مريم المجدلية ومريم أم يعقوب ويوسي، (متى ٢٧ : ٥٥ و٥٦). ومن ثم فإن مريم زوجة كلوبا وأخت السيدة العذراء التي ذكرها القديس يوحنا في بشارته، هي نفسها مريم التي ذكرها القديس متى وقال إنها أم يعقوب ويوسي، وهما من الذين قيل عنهم إنهم إخوة السيد المسيح، في حين أنهما كما يتضح هنا أبناء خالته. هذا إلى أن كلوبا أو حلفى كان أيضاً أخا ليوسف النجار، كما يروى يوسابيوس القيصري. ومن ثم يكون يعقوب ويوسي وسمعان ويهوذا أولاد خئولة السيد المسيح وأولاد عمومته في الوقت نفسه.

بيد أن سيدنا له المجد - وإن كان قد جعل فيما بعد من كفرناحوم مقراً له ومركزاً لدعوته - لم يمكث فيها في هذه المرة التي ذهب فيها مع أسرته وتلاميذه حين جاء من قانا الجليل، أياما كثيرة، إذ كان لا يفتأ يجول في أنحاء بلاد اليهود كلها ليعلمهم ويصنع المعجزات لهم وأمامهم، إظهاراً لمجده باعتباره المسيح ابن الله الذي كانوا ينتظرونه.

وبعد ذلك بنحو ستة أشهر كان فصح اليهود قد اقترب، وهو ذكرى خروج اليهود من مصر (الخروج ١٢ : ١٤)؛ (التثنية ١٦ : ١٠ و١٦)؛ (يوحنا ٢ : ٢٣)؛ (٥ : ١)؛ (٦ : ٤)؛ (١١ : ٥٥). ومن ثم كان أكبر أعيادهم. وكان يحتشد اليهود في أثناء الاحتفال به من جميع أنحاء العالم في أورشليم، حتى ليقال إن عدد الذين كانوا يجيئون إليها في ذلك العيد كان يبلغ الملايين. وكانوا يجتمعون في إحتفالات صاخبة زاخرة بالرقص والموسيقى. وإذ كان ينبغي أن تقام تلك الإحتفالات بذلك العيد في أورشليم وينبغي أن تتم كل الصلوات والطقوس الخاصة به في هيكلها، صعد مخلصنا إلى أورشليم ودخل الهيكل لأول مرة بعد أن بدأ في إنجاز رسالته. وكان هيكل أورشليم هو مركز العبادة اليهودية ورمز تاريخ اليهود وموضع فخارهم وزهوهم. وقد شيده الملك سليمان قبل ميلاد المسيح بألف سنة، وأنفق بإسراف عظيم على بنائه وزخرفته، حتى لقد احتاج في ذلك إلى عشرة آلاف عامل وألف عربة وألف كاهن في ثيابهم المزركشة ليضعوا أحجاره في أماكنها بعد أن قام النحاتون بتسويتها وصقلها. وقد أتى لسليمان بالذهب من ترشيش، وبالخشب من لبنان، وبالأحجار الكريمة من اليمن، ثم بعد سبع سنوات من العمل المتواصل تكامل بناء الهيكل. فكان آية من آيات الدنيا في ذلك الزمان، ولكن يد الخراب لم تلبث أن امتدت إلى الهيكل مرات عديدة. إذ كان هدفاً دائماً للغزاة والطامعين ينهبون ما به من كنوز، ثم يشيعون فيه الدمار. حتى قام هيرودس الكبير بتجديد بنائه، فأنفق في هذا السبيل أموالاً طائلة، إذ كان يريد أن يضفي على نفسه مجد سليمان، وكان يطمع في الوقت نفسه في أن يرضي اليهود الذين كانوا يبغضونه ويرفضونه كملك عليهم. وقد استغرق بناء الهيكل في هذه المرة ستة

وأربعين سنة (يوحنا ٢ : ٢٠)، أصبح بعدها صرحاً ضخماً تحيط به ثلاثة أسوار هائلة. لم يبق منها إلا جدار واحد هو حائط المبكى. ولكن اليهود اعتدوا على قدسيّة هذا الهيكل وأهانوا رونقه وفخامته، إذ لم يلبثوا أن أحالوه إلى سوق للبيع والشراء. فتزاحم في ساحته بائعو الثيران والكباش والحمام، حتى امتلأ بهم الرواق وأصبح لقذارته أقرب إلى مربط البهائم. كما كانت تكتنف الهيكل مكاتب الصيارفة التي لا يفتأ يتعالى منها رنين النقود مختلطاً بصوت مساومات الناس وهم يستبدلون ما بيدهم من دراهم. فقد كان الكهنة في الأعياد يجمعون الفريضة المقدّسة القديمة، أي نصف الشاقل سنويا من كل إسرائيلي - سواء أكان غنياً أم فقيراً - فدية عن نفسه. وكانت هذه الضريبة تخصص لخدمة الهيكل، ولم يكن قانونياً أن يؤتى بهذه الفدية من عملة أجنبية ولا سيما إذا كانت من النحاس الأحمر أو الأصفر، المنقوشة بصور وثنية أو كتابات كفرية. ولذلك كان اليهود يضطرون لأن يبدّلوا نقودهم إلى العملة المرغوبة، أي الشاقل الفضي، ومن ثم احتل الصيارفة مداخل الهيكل وشاركوا تجار الماشية في تحويل ذلك المكان المقدس إلى سوق للبيع والشراء، تختلط فيه البهائم بالناس. وتطغى فيه أصوات خوار البقر وثغاء الأغنام على صوت الكهنة وتراتيل اللاويين. وكان الكهنة يشتركون في هذه التجارة ويأخذون ضرائب من التجار ويشاركوهم في أرباحهم، ومن ثم تألم السيد المسيح مما رأى من هوانٍ لبيت الله واستهانة بقدسية هيكله، إذ وجد في ذلك الهيكل باعة البقر والغنم والحمام، والصيارفة جالسين إلى مناضدهم، فصنع سوطا من الحبال التي كان تجار الماشية يربطونها ويسوقونها بها، وطردهم جميعاً من الهيكل مع البقر والغنم، وكبّ نقود الصيارفة وقلب مناضدهم، وقال لباعة الحمام «ارفعوا هذه من هنا. ولا تجعلوا بيت أبي بيت تجارة»، وقد كان مخلّصنا وديعاً ولطيفاً بل رقيقاً رقّة السماء الصافية، حنونا حنان الأب نحو أبنائه. عطوفا عطف الراعي على حملانه، غير عنيف ولا قاسٍ ولا متجهم ولا متهجم. ولا غضوب ولا مشاكس، وإنما يتصرف ويتكلم في هدوء ورفق وسلام ومسالمة ورحمة وحكمة وصبر وطول أناة. بيد أن هذه الصفات كلها فيه لم تكن تعني أنه لم يكن يغضب، أو لم يكن صارماً وعنيفاً حين تكون الصرامة لازمة والعنف ضرورياً - لأن وداعته لم تكن ضعفاً فيه. وإنما كانت فضيلة من فضائله وسجيّة من سجاياه. فإذا تطلب الموقف تصرفاً قوياً أو كلمة عنيفة، كان يتصرف ذلك التصرف القوي، وينطق بتلك الكلمة العنيفة - كوسيلة من وسائل التعبير عن الغضب المقدس، أو كوسيلة من وسائل الردع والقمع والتقويم والتعليم. ولذلك غضب غضباً شديداً حين رأى اليهود قد حوّلوا ذلك المكان الطاهر المقدس المخصّص لعبادة الله إلى مكان أبعد مايكون عن الطهارة، أو القدسية، أو عبادة الله إذ جعلوه سوقاً لتجارة الماشية والطيور واستبدال النقود، مما يتضمن أعمال الاستغلال والسرقة. ولما كان الهيكل بالنسبة لمخلّصنا هو بيت أبيه السماوي. قال: «لا تجعلوا بيت أبي بيت

تجارة». وهو يشير بذلك إلي نبوءة إرميا النبي عن الهيكل، إذ يقول لليهود على لسان الله الآب «هل صار هذا البيت الذي دعي باسمي عليه مغارة لصوص في أعينكم؟» (إرميا ٧ : ١١). فلما قال مخلصنا ذلك تذكر تلاميذه أنه مكتوب في سفر المزامير «إن الغيرة على بيتك أكلتني» (المزمور ٦٨ : ٩). ويبدو من ذلك أن التلاميذ قد أذهلهم ذلك الغضب المقدس الذي أبداه معلمهم، وذلك العمل العنيف الذي قام به، مع ماعرفوه عنه من وداعة ومسالمة وطول أناة. ولذلك فسروا غضبه وعنفه غير المألوفين أو المعروفين عنه، بغيرته على قدسية هيكل الله، الذي ـ وهو المسيح ابن الله ـ يعده بيت أبيه.

وقد حنق اليهود حنقا شديداً على مخلصنا لأنه فعل هذا بهيكلهم، مع أنه لم يفعل إلا أن طهره مما دنسوه هم به. ولم يروا في ذلك عملاً من أعمال الخير نحو الله وتكريما له. وإنما رأوا فيه عملاً من أعمال الشر نحوهم والتعدي عليهم. وإذا كان هذا من أعمال الخير فقد أنكروا على مخلصنا أن يكون هو الذي يقوم به، لأنه ليس له ـ في إعتقادهم ـ أي صفة في الهيكل تعطيه السلطان لأن يطهره. فلم يكن من رؤساء الكهنة ولا من أعضاء مجمع السنهدريم الذين هم عظماء الشعب. ولم يكونوا يعرفون بحقيقة شخصيته، لا باعتباره من خدام الهيكل فحسب، وإنما باعتباره ابن الله (لوقا ٢ : ٤٩)، فهو ابن صاحب الهيكل، وباعتباره الله نفسه صاحب الهيكل. ولو كانوا قد فهموا نبوءات أنبيائهم لعرفوا هذه الحقيقة من نبوءة ملاخي النبي التي تنبأ فيها بأن المسيح ابن الله الذي ينتظرونه سيأتي إلى هيكله في وقت لا يعلمونه، ويطهره، ويطهر خدامه من اللاويين المختصين بشئون الهيكل، إذ يقول: «يأتي بغتة إلى هيكله السيد الذي تطلبونه.. فيجلس ممحصا ومنقيا للفضة، فينقي بني لاوي ويصفيهم كالذهب والفضة، ليكونوا مقربين للرب تقدمة بالبر، فتكون تقدمة يهوذا وأورشليم مرضية للرب كما في أيام القدم، وكما في السنين القديمة» (ملاخي ٣ : ١ – ٤). وإذ كان اليهود يعتقدون أنه لا سلطان لأحد في تطهير الهيكل إلا إذا كان نبياً من الأنبياء الذين يعدونهم أعظم سلطانا من الكهنة ورؤساء الكهنة. ولما كان البرهان الذي يقدمه النبي على توافر هذا الوصف له، هو أن يصنع الآيات والمعجزات (التثنية ١٣ : ١ – ٣)؛ (١٨ : ٢١ و٢٢)؛ (متى ١٢ : ٣٨)؛ (يوحنا ٦ : ٣٠) قالوا لمخلصنا «أية آية ترينا حتي تفعل هذا؟» فأجابهم قائلاً «انقضوا هذا الهيكل وأنا في ثلاثة أيام أقيمه». بيد أنهم فهموا هذا القول الرمزي فهما حرفيا، غير مدركين حقيقة مايعنيه، حتى إنهم استندوا إلى هذا المفهوم الخاطئ حين حاكموه فيما بعد، حاسبين ماقاله جريمة يستحق عليها الموت (متى ٢٦ : ٦١)؛ (٢٧ : ٤)؛ (مرقس ١٤ : ٥٨)؛ (١٥ : ٢٩). ولذلك قالوا له «في ست وأربعين سنة بني هذا الهيكل، أفتقيمه أنت في ثلاث أيام؟» وقد كان بالفعل قادراً ـ حتى بهذا المفهوم الحرفي الظاهري ـ على أن يصنع هذه المعجزة، لأنه بصفته الإلهية قادر على كل شيء. ولكنه لم يكن يعني فيما

قال هيكل أورشليم، وإنما كان يتكلم - كما قرر الإنجيل للقديس يوحنا - عن هيكل جسده، إذ كان يعلم أن اليهود سيقتلونه، ناقضين بذلك هيكل هذا الجسد، ولكنه سيقيمه بعد ثلاثة أيام (انظر ١ . كورنثوس ٣ : ١٦)؛ (٦ : ١٩)؛ (٢ . كورنثوس ٦ : ١٦)؛ (العبرانيين ٨ : ٢). فكانت هذه أعظم آية من شأنها أن تقنعهم بأنّ له سلطاناً لا أن يعيد بناء هيكل أورشليم فحسب، وإنما أن يعيد نفسه هو بإرادته إلى الحياة بعد الموت. فلما صلبوه بعد ذلك بنحو ثلاث سنوات، ومات على الصليب، ثم قام من بين الأموات بسلطانه وإرادته وحدها، تذكر تلاميذه أنه قال لهم هذا (لوقا ٢٤ : ٨). فآمنوا - أو بالأحرى توطد إيمانهم - بأن هذا هو حقاً المسيح ابن الله، على مقتضى النبوءات التي وردت في العهد القديم عنه، وتحققوا من أن الكلمة التي قالها مخلصنا عندئذ لليهود كانت حقاً وصدقاً، إذ رأوا بأعينهم أنها تمت بالفعل كما قالها.

٢ : ٢٣ - ٢٥

إيمان كثيرين من اليهود حين رأوا المعجزات:

وإذ كان فادينا في أثناء رحلته تلك إلى أورشليم في عيد الفصح قد قام بالتعليم كمعلم إلهي، وصنع بعضاً من معجزاته التي لا يمكن أن يصنعها إلا الله وحده، بهر بتعاليمه ومعجزاته الجموع الضخمة التي كانت مجتمعة في تلك المدينة وفي هيكلها في أثناء ذلك العيد، ومن ثم آمن به كثيرون منهم، باعتباره المسيح الذي ينتظرونه، أو على الأقل باعتباره نبياً عظيماً من الأنبياء. بيد أن فادينا كان يعلم طبيعة اليهود المتقلبة. وما يتصفون به من تسرع فيما يقولون ويعملون، ومن جهل يجعل عقولهم وقلوبهم غير مستقرة كالسحابات في مهب الريح، ومن جبن يدفع بهم إلى التراجع أمام رؤسائهم عن كل إعتقاد يعتقدونه ولو كانوا مقتنعين به، ومن نفاق يبدونه أمام أولئك الرؤساء، تملقاً لهم وكسباً لرضائهم عنهم، ومن شر ومكر وغدر وخديعة وخيانة حتى لمن أسدوا إليهم الخير وأخلصوا في خدمتهم وفي بذل النصيحة الصالحة لهم. ومن ثم فإن فادينا لم يكن يأمنهم على الرغم مما أبدوه من إيمان به، وقد سبق لهم أن قتلوا أو اضطهدوا كل الأنبياء (متى ٢٣ : ٢٩ - ٣٦)؛ (الأعمال ٧ : ٥١ و٥٢). الذين جاءوا لتعليمهم وتقويمهم وإرشادهم إلى طريق الله، بعد أن كفروا به وعبدوا الأوثان من دونه. ولذلك لم يكن فادينا له المجد يثق فيهم أو يأمن جانبهم، لأنه كان عارفاً بدخيلة نفس كل واحد منهم.. (١ . صموئيل ١٦ : ٧)، كما يعرف بعلمه الإلهي دخيلة نفوس الناس جميعاً (١ . أخبار الأيام ٢٨ : ٩)؛ (متى ٩ : ٤)؛ (مرقس ٢ : ٨). فلم يكن - وهو فاحص القلوب (الأعمال ١ : ٢٤)؛ (الرؤيا ٢ : ٢٣) والمطلع على السرائر والأسرار - بحاجة لأن يخبره أحد عما يبدي أي إنسان أو يبطن من طبيعته أو من طبعه، إذ أنه يعلم أدق العلم وأعمقه وأصدقه مافي الإنسان من خير أو شر (يوحنا ٦ : ٦٤)؛ (١٦ : ٣٠)، ومن فساد أو بر، ومن صدق أو نفاق، ومن كل صفة من الصفات، أو مبدأ من مبادىء الأخلاق.

الفصل الثالث

٣ : ١ – ٢١

حديث نيقوديموس مع السيد المسيح:

وكان ممن آمنوا بفادينا الحبيب حين كان يبشر فى أورشليم ويصنع المعجزات فى عيد الفصح رجل اسمه نيقوديموس، كان رئيساً من رؤساء اليهود وعظيماً من عظمائهم (يوحنا ٧: ٥٠)؛ (١٢: ٤٢)؛ (١٩: ٣٩)، إذ كان عضواً بالمجلس الأعلى لهم، وهو مجلس السنهدريم. كما أنه كان فقيهاً من فقهائهم وعالماً من علمائهم، إذ كان من الفريسيين الذين اشتهروا بدراسة الكتب المقدسة لديهم، والإفتاء فى شئونهم الدينية، وإن كان أغلبهم من المرائين المنافقين الذين يقولون ما لا يعملون، ويتظاهرون بالورع والتقوى، فى حين كانوا فى داخلهم أشرارا فاسدين، يتاجرون بالدين، ويتحايلون لمخالفة أحكامه فى تصرفاتهم وكلّ شئون حياتهم، متّخذينه وسيلة لإمتاع أنفسهم وإشباع أهوائهم وشهواتهم. فحين سمع نيقوديموس هذا تعاليم سيدنا له المجد ورأى معجزاته الإلهية أدرك أنه ليس إنساناً عادياً، وإنما نبيّاً من الأنبياء ظهر بينهم بعد انقطاع ظهور الأنبياء بمئات السنين، فعقد العزم على أن يلتقى به على انفراد ليتأكد من حقيقة شخصيته. ولكنه إذ كان حريصاً على منصبه الكبير ومنزلته الرفيعة بين اليهود، خشى أن يذهب إليه علانية لئلا يعرِّض للخطر ذلك المنصب وتلك المنزلة، بعد أن رأى مخلصنا يتحدى رؤساء الكهنة وغيرهم من كبار الرؤساء، إذ نَسَبَ إلى نفسه السلطان فى أن يطهر هيكل أورشليم ويطرد منه كل التجار والصيارفة الذين كانوا يقتسمون أرباحهم مع أولئك الرؤساء المسئولين عن ذلك الهيكل. كما أنه خشى بوصفه فريسياً أن يتعرض لسخط الفريسيين الذين كانوا يحتكرون النفوذ والاحترام بين سائر اليهود ويكرهون أن ينافسهم أحد فى ذلك النفوذ وذلك الاحترام. ومن ثم جاء ليلتقى بمخلصنا ليلاً تحت جنح الظلام حتى لا يراه أحد من أولئك أو هؤلاء، وإن كان قد برهن - بعد ذلك بنحو ثلاث سنوات - على أنه قد اكتمل إيمانه به وتوطد يقينه بحقيقة شخصيته حين حاكمه رؤساء اليهود ليقضوا عليه، فجاهر بذلك الإيمان وأعلن ذلك اليقين صراحة وفى غير خفاء، إذ اعترض على حكم أعضاء السنهدريم عليه بالموت (يوحنا ١٢: ٤٢)، كما اشترك مع يوسف الرامى علانية فى تكفينه ودفنه (يوحنا ١٩: ٣٩).

وقد بدأ نيقوديموس حديثه مع ربنا له المجد حين أتى إليه فى تلك المرة الأولى قائلاً له: «يا معلم، نحن نعلم أنك جئت من الله معلما، لأنه ما من أحد يقدر أن يصنع هذه الآيات التى أنت تصنع مالم يكن الله معه». ومع أنه كان من عظماء اليهود، وكان من الفريسيين

المتعاظمين، فقد خاطب سيدنا بكل احترام، ملقبا إياه بالمعلم، وهو لقب لم يكن اليهود يخاطبون به إلا عظماءهم وعلماءهم (متى ٢٢ : ١٦) مما يدل على اقتناعه بأنه أمام شخصية سماوية سامية، وقد أيد ذلك الاقتناع بقوله له إنه مع كل الذين آمنوا به حينذاك يعلمون - بعد أن سمعوا تعاليمه - أنه جاء، لا بتعليم أرضيٍّ تلقنه من الناس، وإنما بتعليم سماوى تلقاه من الله نفسه (يوحنا ٣ : ٢٧ و٣١ – ٣٤)، وأن الله أرسله ليكون معلماً، فلم يكن ذلك اللقب الذى يخاطبه به فى بدء حديثه معه منحه من الناس إكباراً له، لأن الناس كثيراً بل غالبا ما يلقبون به ذوى النفوذ بينهم، خوفاً منهم، أو تملقاً لهم، أو نفاقاً لا يعبِّرون به عن مشاعرهم الحقيقية نحوهم، وإنما استحق مخلصنا هذا اللقب من لدن الله الذى أرسله. وقد أدرك نيقوديموس هذه الحقيقة - وهو الرجل المثقف والفقيه المتمكِّن - من بديهية استند إليها، وهى أنه مامن أحد يقدر أن يصنع هذه الآيات والمعجزات التى يصنعها مخلصنا مالم يكن الله معه (يوحنا ٩ : ١٦ و٣٠ – ٣٣)؛ (الأعمال ٢ : ٢٢)؛ (١٠ : ٣٨)، لأنها آيات ومعجزات لا يقدر أن يصنعها إلا الله وحده. وإذ كانت هذه الحقيقة التى توصَّل إليها نيقوديموس مجرد استنباط عقلي، أراد مخلِّصنا أن يرتفع به فوق مستوى العقل البشرى الدنيوى إلى الآفاق العليا الروحية السماوية، ليدرك الحقائق إدراكاً روحياً لا عقليا. فأجابه قائلاً له: «الحق الحق أقول لك إن الإنسان مالم يولد ثانية من فوق، لا يمكنه أن يرى ملكوت الله». أى أن الإنسان ينبغي أن تتطهَّر روحه طهارة كلية وكاملة، حتى تصبح روحاً لا تنتسب إلى الأرض التى تتدنس الأرواح فيها وتتنجس وإنما تنتسب إلى السماء التى لا تسكنها إلا الأرواح الطاهرة طهارة كلية وكاملة، بحيث تغدو روحه قد وُلدت ولادة ثانية وجديدة وسماوية، غير الولادة الجسدية الأولى التى بدأت بها حياته على الأرض. لأنه بغير ذلك لا يمكن للروح الأرضية أن تدرك غير الأرضيَّات، فلا يمكنها إلا بتلك الولادة الثانية الجديدة السماوية أن تغدو روحاً سماوية تدرك ملكوت الله الذى هو حياة السماء، ومن ثم لا يمكنها إلا بذلك أن تدخل ذلك الملكوت (يوحنا ١ : ١٣)؛ (يعقوب ١ : ١٨)؛ (١ . بطرس ١ : ٢٣)؛ (١ . يوحنا ٣ : ٩).

ولكن نيقوديموس - على الرغم من أنه عالم وفقيه - فهم حديث فادينا عن الولادة الثانية فهماً حرفياً سطحياً ينطوى على السذاجة والجهل، إذ أجاب قائلاً: «كيف يمكن أن يولد إنسان وهو شيخ؟ ألعله يقدر أن يدخل مرة أخرى فى بطن أمه ثم يولد؟». وبذلك برهن نيقوديموس على أنه لم يكن يختلف كثيراً عن سائر الفريسيين الذين - على الرغم من تظاهرهم بالعلم وتصديهم للتعليم وقسرهم الناس على أن يلقبوا كلاً منهم بالمعلم - كانوا فى الواقع جهلاء يفسرون نصوص الكتب المقدسة تفسيراً حرفياً سطحياً ساذجاً، يخرج بها عن معناها الحقيقي، ويعلِّمون البسطاء من

الناس على هذا النحو. فكان ينطبق عليهم القول إنهم «عميان قادة عميان» (متى ١٥ : ١٤)؛ (٢٣ : ١٦ و٢٤)، ومن ثم أراد مخلصنا أن يفتح بصر نيقوديموس وينير بصيرته، ليكتسب مزيداً من الفهم، شأن المعلم الذي يجد أن تلميذه لم يفهم تعليمه، فيسهب في الشرح والتوضيح له. فقال له «الحق الحق أقول لك إنّ الإنسان مالم يولد من الماء والروح. لا يمكن أن يدخل ملكوت الله. فالمولود من الجسد هو جسد والمولود من الروح هو روح. لا تعجب إذ قلت لك إنكم ينبغي أن تولدوا ثانية من فوق. فإن الريح تهبُ إلى حيث تشاء، وأنت تسمع صوتها، ولكنك لا تعلم من أين تأتي ولا إلى أين تذهب. هكذا كل مولود من الروح».

وقد أنشأ مخلِّصنا بهذا القول سرّ العماد لا بالماء وحده كما كان يفعل يوحنا المعمدان لتطهير الجسد، كمقدمة لتطهير الروح (متى ٣ : ١١)؛ (مرقس ١ : ٨)؛ (لوقا ٣ : ١٦)؛ (يوحنا ١ : ٢٦) وإنما بالماء والروح القدس معاً (أفسس ٥ : ٢٦)؛ (تيطس ٣ : ٥) كوسيلة فعلية ومباشرة لتطهير الروح تطهيراً فعلياً ومباشراً، ولغفران الخطايا السالفة ونَيْل الخلاص (مرقس ١٦ : ١٦)؛ (الأعمال ٢ : ٣٨). وقد كانت هذه من أهم وصاياه لتلاميذه قبل صعوده إلى السماء، إذ قال لهم: «إذهبوا إذن وتلمذوا جميع الأمم وعمّدوهم باسم الآب والابن والروح القدس» (متى ٢٨ : ١٩). وذلك لأن الإنسان مالم يتم عماده بالماء والروح لا يمكن أن يغير طبيعته الجسدية المادية الأرضية التي تنجست بالخطيئة التي ورثها البشر عن جدهم الأول آدم، فأصبحوا جسديين أرضيين يتجهون بكل كيانهم إلى إرضاء شهواتهم الجسدية الأرضية النجسة، فضعفت فيهم الطبيعة الروحية السماوية الطاهرة التي كانت متحدة بأجسادهم حين خلقهم الله في بدء الخليقة. ومن ثم فما لم يغيّر الإنسان هذه الطبيعة الجسدية الأرضية النجسة إلى طبيعة روحية سماوية طاهرة، حتى يولد ولادة ثانية وجديدة، لا يمكنه أن يحيا حياة السماء التي هي ملكوت الله، وبالتالي لا يمكنه أن يدخل ملكوت الله، ولا ينبغي لنيقوديموس أو لغيره من الناس أن يتساءل في دهشة وعجب عن ماهية هذه الولادة الثانية من الروح، لأن هذه الولادة الروحية تتم في الخفاء بروح الله. ومع ذلك تفعل فعلها وتترك أثرها، لأنها ليست ولادة جسدٍ من جسد، أي ولادة جسدية مادية يدركها الإنسان بحواسه البشرية المادية، وإنما هي ولادة روح من روح. فمثلها في ذلك مثل الريح التي لا يعلم الإنسان من أين تأتي ولا إلى أين تذهب، ومع ذلك يحسُ بهبوبها ويسمع صوتها. فالروح تشبه الرِّيح (١ ـ كورنثوس ٢ : ١١). ولعلها أُخذت اسمها منها. وقد أدرك تلاميذ مخلِّصنا هذا التشابه بينهما فقال القديس لوقا كاتب سفر أعمال الرسل إن التلاميذ حين كانوا مجتمعين في يوم الخمسين بعد صعود ربنا له المجد: «صار بغتة من السماء صوت كما من هبوب ريح عاصفة وملأ كل البيت حيث كانوا جالسين، وظهرت لهم ألسنة منقسمة كأنها من نار واستقرت على كل واحد منهم، وامتلأ الجميع من روح القدس» (الأعمال ٢ : ٢ ، ٣).

بيد أن نيقوديموس ظل مع ذلك غير مدرك بعقله الجسدى ذلك الشرح الروحى، لأن طبيعته الجسدية كانت لاتزال غالبة على الطبيعة الروحية التى أماتتها فيه حياة الجسد، فتساءل قائلاً فى دهشة: «كيف يمكن أن يكون هذا؟». وإذ رأى مخلِّصنا مقدار جهل هذا الذى يعده بنو إسرائيل معلماً لهم وعالماً بكل ماجاء فى كتبهم، وبّخه قائلاً «أأنت معلِّم إسرائيل ولا تعلم هذا؟» فلو أنه كان عالماً حقًّا بنبوءات العهد القديم حتى يتخذ لنفسه لقب المعلِّم، لأدرك معنى الولادة الثانية الجديدة التى تحدّث عنها مُخلِّصنا، لأنها قد ورد ذكرها كثيراً فى تلك النبوءات، ومن ذلك قول حزقيال النبى لبنى إسرائيل: «اطرحوا عنكم كل معاصيكم التى عصيتم بها واعملوا لأنفسكم قلباً جديداً وروحاً جديدة» (حزقيال ١٨ : ٣١). وقوله: «هكذا قال السيد الربّ... أرشُّ عليكم ماء طاهراً، فتطهرون من كل نجاستكم.. وأعطيكم قلباً جديداً وأجعل روحاً جديدة فى داخلكم، وأنزع قلب الحجر من لحمكم وأعطيكم قلبَ لحمٍ، وأجعل روحى فى داخلكم وأجعلكم تسلكون فى فرائضى وتحفظون أحكامى وتعملون بها.. وأخلصكم من كل نجاساتكم» (حزقيال ٣٦ : ٢٥ - ٢٩).

ثم قال معلِّمنا الإلهى لنيقوديموس: «الحقَّ الحقَّ أقول لك إننا نتكلَّم بما نعلم ونشهد بما رأيناه ولكنكم لا تقبلون شهادتنا. إن كنت قد كلمتكم عن الأرضيات ولم تؤمنوا، فكيف تؤمنون إن كلمتكم عن السمائيات؟.. مامن أحد صعد إلى السماء إلا ذلك الذى نزل من السماء: ابن الإنسان الذى هو فى السماء». وهكذا فإن فادينا على الرغم من أنه وبّخ نيقوديموس على جهله، أراد أن يوطد إيمانه به، ذلك الإيمان الذى دفع به لأن يجىء تحت جنح الظلام إليه، مخاطراً بمركزه الرفيع فى المجتمع اليهودى، فأكّد له أنه إن كان قد تكلم معه عن الولادة الثانية من فوق، فهو إنما يتكلم بما يعلم ويشهد بما رأى (يوحنا ١ : ١٨)؛ (٧ : ١٦)؛ (٨ : ٢٨)؛ (١٢ : ٤٩)؛ (١٤ : ٢٤). لأنه من الله جاء (يوحنا ١٦ : ٢٨). وإذا كان قد تكلم عن بعض أسرار السماء التى هى ملكوت الله، فهو صادق لأنه يعلم بما فى السماء التى جاء منها والتى رأى بنفسه مافيها، لا كما يعلم ويشهد سائر الأنبياء، لأن هؤلاء إنما اكتسبوا علمهم واستمدوا شهادتهم من وحى الله إليهم بأمور لم يروها بأنفسهم (٢. بطرس ١ : ٢١). وأما هو فإنه يعلَم بصفته ابن الله وبصفته الله نفسه (متى ١١ : ٢٧) ويشهد بما رأى فى ملكوت أبيه وملكوته هو نفسه. ومع ذلك فإن اليهود لا يقبلون شهادته (يوحنا ٣ : ٣٢)، لأنهم يجهلون نبوءات أنبيائهم عنه، ومن ثمّ يجهلون حقيقة شخصيته. وقد كلّمهم عن الأسرار الإلهية بنفس اللغة التى يتكلمون بها عن الأرضيات، كي ييسّر لعقولهم المحدودة القاصرة أن تفهم تلك الأسرار العالية جداً والسامية جداً والتى ترتفع كثيراً عن أن تدركها تلك العقول، مستخدماً التشبيهات والأمثال وغيرها من شئون الحياة الأرضية

التى يعرفونها ويألفونها، ليساعدهم على فهم الحياة السمائية، ومع ذلك لم يؤمنوا، لظلام عقولهم وغلظة قلوبهم، فكيف يؤمنون إن كلّمهم عن السمائيات كما هى بغير تبسيط أو تشبيه أو مثال أو بأى اسلوب من أساليب الإيضاح والشرح والتفسير؟. وإذ كان ذلك عسيراً على اليهود بالفعل، فإن فادينا أراد أن يأخذ بيد نيقوديموس ليؤمن به الإيمان الكامل، فاستمر يميط له اللثام عن حقيقة شخصيته ليتأكد من أن مايقوله صدق وحق، وصارحه بطبيعته الإلهية التى لا يشاركه فيها أي نبيّ من الأنبياء أو معلّم من معلّمى الأرض، وهى أنه - وهو ابن الله وهو الله نفسه الذى فى السماء - قد نزل من السماء (يوحنا ٦: ٣٣ و٣٨ و٥١)؛ (١. كورنثوس ١٥: ٤٧)؛ (يوحنا ١: ١٨). واتخذ جسد ابن الإنسان كي يتمم عمل الفداء الذى رسمته الرحمة الإلهية لخلاص البشر. وإذ اتحد لاهوته بناسوته اتحاداً كاملاً فهو ابن الإنسان المقيم فى الأرض، وهو فى الوقت نفسه ابن الله المقيم فى السماء. وبعد أن يتمم رسالته الجليلة النبيلة التى جاء من أجلها سيصعد إلى السماء (يوحنا ٦: ٦٢) كما نزل من السماء (يوحنا ١٦: ٢٨)؛ (الأعمال ٢: ٣٤)؛ (أفسس ٤: ٩ و١٠) «مامن أحد صعد إلى السماء إلا الذى نزل من السماء» وقد جاء فى سفر الأمثال «مَنْ صعد إلى السماوات ونزل. من جمع الريح فى حفنتيه. من صرّ المياه فى ثوب. من ثبت جميع أطراف الأرض. ما اسمه وما اسم ابنه إن عرفت؟» (الأمثال ٣٠: ٤).

ثم استرسل فادينا له المجد يشرح لنيقوديموس هذا السرّ العجيب الذى أفضى به إليه قائلاً إنه «كما رفع موسى الحية فى البرية، هكذا ينبغى أن يرفع ابن الإنسان، لكى لا يهلك كل من يؤمن به، وإنما ينال الحياة الأبدية، لأنه إلى هذا المدى أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد، لكى لا يهلك كل من يؤمن به، وإنما ينال الحياة الأبدية. لأن الله لم يرسل ابنه إلى العالم ليدين العالم، وإنما ليخلص به العالم. فالذى يؤمن به لايدان، وأما الذى لا يؤمن به فقد أدين، لأنه لم يؤمن باسم ابن الله الوحيد. وهذه هى الدينونة: أن النور جاء إلى العالم، وأحبّ الناس الظلمة أكثر من النور، لأن أعمالهم كانت شريرة. فإن كل من يفعل الشر يبغض النور. ولا يقبل إلى النور لئلا تفتضح أعماله الشريرة وتوبخ. وأما مَنْ يفعل الحق فإنه يقبل إلى النور، لكى يظهر أن أعماله إنما أتاها فى الله».

وفى هذه العبارة يميط مخلصنا اللثام عن سر تجسده وسبب مجيئه إلى العالم، إذ ضرب لنيقوديموس - كى يفهم هذا السر - مثلاً من التوراة التى هو من علمائها والمتفقهين فيها، وهو أن بنى إسرائيل حين كانوا فى صحراء سيناء تذمروا على الله وعلى موسى النبى «قائلين لماذا أصعدتمانا من مصر لنموت فى البرية لأنه لا خبز ولا ماء، وقد كرهت أنفسنا الطعام السخيف،

فأرسل الرب على الشعب الحيّات المحرقة فلدغت الشعب فمات قوم كثيرون من إسرائيل... فصلّى موسى لأجل الشعب. فقال الرب لموسى: اصنع لك حية محرقة وضعها على سارية، فكل من لُدغ ونظر إليها يحيا. فصنع موسى حيةً من نحاس ووضعها على السارية. فكان متى لدغت حية إنساناً ونظر إلى حية النحاس يحيا» (العدد ٢١: ٤ - ٩). وقد كانت هذه القصة رمزاً للغرض الذى جاء من أجله مخلصنا إلى العالم. فكما كانت خطيئة بنى إسرائيل نحو الله وحكمه بالموت عليهم، هكذا كانت خطيئة آدم نحو الله ومن بعده جميع البشر سبباً فى غضب الله وحكمه بالموت عليهم. وكما رفع موسى الحية على سارية فى البرية لكى لا يهلك كل من نظر إليها. هكذا رتبت رحمة الله أن يرسل ابنه إلى العالم ليتخذ جسد إنسان ويكفر عن خطايا البشر ويفديهم، بأن يموت مرفوعاً على خشبة الصليب (يوحنا ٨: ٢٨)؛ (١٢: ٣٢)؛ (كولوسى ٢: ١٤)، لكى لا يهلك كل من يؤمن به، وإنما ينال الحياة الأبدية (يوحنا ٣: ٣٦). وذلك أن الله أحب البشر الذين فى العالم لأنهم خليقته، وقد بلغ من قوة هذا الحب وعمقه أن الله الآب ارتضى - كى ينقذ البشر من الهلاك والموت الأبدى - أن يفديهم بابنه الوحيد الذى هو وحده المتحد به ومعه اتحاداً كاملاً، لأنه من ذات جوهره، فهو ليس ابناً له بذات المعنى الذى تتضمنه بنوة البشر لله. وإنما هو ابنه بمعنى آخر لا يشاركه فيه أحد أبداً، ولذلك قيل عنه إنه الوحيد، لأن كيانه هو ذات كيانه، وطبيعته هى ذات طبيعته، فهو وإن كان يدعى ابنه للتعبير عن مدى قوة صلته به، فإنه واحد معه (يوحنا ١٠: ٣٠). فهو ابن الله، وهو فى ذات الوقت الله نفسه متجسداً. وهذا سر من أسرار الطبيعة الإلهية كشفه لنا مخلصنا، وإن كانت عقولنا البشرية المحدودة لا يمكن أن تستوعبه أو تصل إلى مدى ارتفاعه وعلوه وسموه، فإن الله إذ أحب البشرالذين فى العالم إلى هذا المدى، حتى إنه بذل ابنه الوحيد ليفديهم، ويكفر عن خطاياهم كى يعفو عنهم، فإن «الله بين محبته لنا لأنه ونحن بعد خطاة مات المسيح لأجلنا» (رومية ٥: ٨). فإن أحداً من البشر لا يستحق هذا الحب ولا هذا البذل ولا هذا الفداء ولا هذا العفو، إلا إذا آمن بأن الله فعل ذلك من أجله، وبالتالى إذا آمن بأن يسوع هو المسيح ابن الله فادى البشر ومخلصهم، فكل من يؤمن به على هذا الوجه وبهذا المعنى لا يهلك تنفيذاً للحكم الذى أصدرته العدالة الإلهية على آدم وذريته بسبب خطاياهم. وإنما يتبرر ويتطهر ومن ثم يغدو مستحقاً لأن ينال الحياة الأبدية، التى لا ينالها إلا الأبرار والأطهار فى ملكوت الله (يوحنا ٦: ٤٠ و٤٧)؛ (٢٠: ٣١). لأن الله لم يرسل ابنه إلى العالم فى هذه المرة ليدين البشر الذين فى العالم (يوحنا ٥: ٤٥)؛ (٨: ١١ و١٥)؛ (١٢: ٤٧)، كما سيحدث عند مجيئه الثانى فى يوم الديونة، وإنما أرسله فى هذه المرة ليخلص به البشر الذين فى العالم (لوقا ٩: ٥٦)؛ (١ . يوحنا ٤: ١٤). فالذى يؤمن به حين جاء ليخلص

البشر لا يُدان حين يجئ ثانية فى يوم الديونة ليحاسب البشر» (يوحنا ٥: ٢٤)، لأنه بإيمانه أثبت أنه اعترف بخطاياه وتاب عنها وتطهر منها وشكر الله الذى هيأ له سبيل النجاة من الهلاك الذى كان معرضاً له بسببها. لأنه «بهذا أظهرت محبة الله فينا أن الله قد أرسل ابنه الوحيد إلى العالم لكى نحيا به» (١. يوحنا ٤: ٩). وأما الذى لا يؤمن بذلك الفادى باعتباره ابن الله الوحيد، فقد صدر عليه الحكم بالإدانة بمجرد رفضه الإيمان به (مرقس ١٦: ١٦). لأنه بعدم إيمانه أثبت أنه متشبث بخطاياه، لا يريد أن يتوب عنها أو يتطهر منها أو يشكر الله الذى فتح له باب الخلاص ودعاه إليه، فنكص عن دخول ذلك الباب، ورفض تلك الدعوة الكريمة الرحيمة الموجهة إليه، ومن ثم أثبت أنه غير مستحق للخلاص، وأنه مخلوق فاسد شرير لا يصلح لأن يشارك الأبرار والأطهار فى حياتهم الأبدية فى السماء، وإنما يظل سارياً عليه حكم الهلاك الذى سبق أن أصدره العدل الإلهى عليه. فهو ابن الهلاك، ومصيره حتماً إلى هلاك، إذ لم يعد له أو لأى فاسدٍ شرير من أمثاله عذر، بعد أن كان الناس يهيمون فى ظلام الخطيئة والشر، حتى عميت أبصارهم وبصائرهم عن أن يروا الفضيلة والبر ليسلكوا سبيلها، ثم جاء ابن الله إلى العالم فبدد الظلام بنوره السماوى، لأنه هو النور (يوحنا ١: ٤ و٨ و٩)؛ (٨: ١٢). وقد قال هو نفسه: «أنا جئت للعالم نوراً، حتى إن كل من يؤمن بى لا يمكث فى الظلام» (يوحنا ١٢: ٤٦). وقال للناس: «إن النور باق فى وسطكم زماناً يسيراً، فسيروا فى النور مادام النور لكم، لئلا يدركم الظلام لأن الذى يمشى فى الظلام لا يدرى إلى أين يذهب. مادام لكم النور، فآمنوا بالنور لتصيروا أبناء النور» (يوحنا ١٢: ٣٥ و٤٦).

ولكن الناس لم يؤمنوا بالنور، وإنما أحبوا الظلمة أكثر من النور، لأن أعمالهم كانت شريرة، فإن كل من يفعل الشر يبغض النور (الأعمال ٢٤: ١٣)؛ (أفسس ٥: ١٣)، ولا يقترب إليه وإنما يفر مبتعداً عنه، لئلا تفتضح فى النور أعماله الشريرة، فيناله بسببها التوبيخ والتحقير والزجر والعقاب. وأما من يفعل الحق والخير والبر والصلاح، فإنه لا يهرب من النور وإنما يهرع إليه، سعيداً به مطمئناً إليه، لأنه سيكشف عن معدنه النقى وعن قلبه التقى، وعن أعماله النبيلة التى أتاها فى خوف الله، وطاعته وتقواه. ومن ثم يتمجد من الناس، وينال رضى الله.

وهكذا كشف مخلصنا لنيقوديموس عن حقيقة شخصيته الإلهية وأوضح له سر العقيدة المسيحية السماوية السامية فى عبارات قليلة ولكنها سامية سمو السماوات، عميقة عمق الحقيقة الخالدة، دقيقة دقة الخالق المبدع فى كل ما خلق وأبدع. فلا عجب ولا غرابة بعد ذلك فى أن نيقوديموس اكتمل إيمانه به، إذ علم منه ما كان لا يعلمه، وفهم ما كان لا يفهمه، وسطع نور

الفادى عليه فأضاء قلبه وفتح على مجده السماوى بصره وبصيرته، فتبعه كتلميذ له، وإن يكن فى الخفاء، حتى إذا حانت اللحظة الحاسمة التى كان عليه فيها أن ينكره ويتنكر له أو يناصره ويجاهر على رؤوس الأشهاد بإيمانه به، لم يتراجع ولم يتزعزع، وإنما تصدى لرؤساء اليهود فى مجلس السنهدريم حين حكموا على مخلصنا بالموت، فعارضهم فيما حكموا به (يوحنا ٧: ٥٠). حتى إذا نفذوا ذلك الحكم وقتلوه، تقدم أمام الجميع فأخذ جثمانه واشترك مع يوسف الرامى فى تكفينه ودفنه (يوحنا ١٩: ٣٩- ٤٢)؛ مخاطراً بكل شيء ومضحياً بكل شيء، حتى لقد سبق فى ذلك الموقف الشهم النبيل تلاميذ مخلصنا الاثنى عشر أنفسهم. فكان إيمانه أصدق إيمان وأعمق إيمان على مر الزمان.

٣: ٢٢- ٣٦

المعمدان يشهد للمسيح مرة أخرى:

وبعد أن أقام مخلصنا ومعه تلاميذه بعض الوقت في أرض الجليل، جاء وهم معه إلى أرض اليهودية، ومكث هناك يعمد. وكان يوحنا المعمدان أيضاً لا يزال يعمد فى عين نون، بالقرب من ساليم، وهما مكانان يقعان في وادى الأردن على مسافة نحو ستة أميال شرق أورشليم، وكانت المياه وفيرة هناك، ووفرة المياه ضرورية للمعمودية، لأن المعمودية كانت تباشر بالتغطيس الكامل. فكان كثيرون من اليهود يأتون هناك إلى مخلصنا وتلاميذه ويعتمدون. وذلك أن مخلصنا كان يعلم أن هيرودس أنتيباس ملك الجليل سيقبض على يوحنا المعمدان ويلقى به فى السجن ثم يقتله، لأنه كان يندد به جهاراً موبخاً إياه لأنه اغتصب من أخيه فيلبس وهو لا يزال على قيد الحياة زوجته هيروديا واتخذها زوجة لنفسه، قائلاً له إنه لايحل له ذلك.. (متى ١٤: ١- ١٢)؛ (مرقس ٦: ١٤- ٢٩)؛ (لوقا٩: ٧- ٩). وإذ كان يوحنا يعمد كجزء من الرسالة التى عهد الله بها إليه وأمره بها (يوحنا ١: ٣٣)، ليمهد قلوب اليهود لاستقبال الرب يسوع المسيح والإيمان به، أراد مخلصنا أن تستمر عملية التعميد بعد احتجاب يوحنا فى السجن. فأخذ تلاميذه وعهد إليهم بالتعميد بدلاً من يوحنا، ومن ثم اختلط الأمر على تلاميذ يوحنا وغيرهم من اليهود الذين كانوا يؤمنون بأنه هو المسيح الذى ينتظرونه. وقد جرت بين تلاميذ يوحنا وبعض اليهود مجادلة بشأن عملية العماد والتطهير التى كان يقوم بها وإذ عجز أولئك التلاميذ عن تفسير هذا الذى حدث، ولعلهم أخذتهم الغيرة على معلمهم يوحنا المعمدان، وظنوا أن يسوع المسيح أخذ اختصاصاته وتنكر له، جاءوا إلى يوحنا وقالوا له «يامعلم إنّ الذى كان معك فى عبر الأردن، ذلك الذى شهدت له، هوذا يعمد والجميع يقبلون إليه»، مما يدل على أن تلاميذ يوحنا على الرغم من أنهم سمعوا معلمهم يشهد لمخلصنا فى عبارات صريحة واضحة بأنه هو المسيح الفادى - أشفقوا على معلمهم يوحنا من المصير الذى آل إليه. فقد أخذ يسوع المسيح يقوم بعمل

التعميد الذى كان يقوم به يوحنا. وذهب الناس وراء يسوع المسيح يتبعونه. وأما يوحنا معلمهم فقد انفض الناس عنه، فأفل نجمه. فأجابهم يوحنا إجابة يحدد بها رسالته هو، ومكانته بالقياس إلى رسالة مخلصنا ومكانته، قائلا لهم «لا يستطيع الإنسان أن ينال شيئاً مالم يعطه من السماء، أنتم أنفسكم تشهدون بأنى قلت إننى لست أنا المسيح، وإنما أنا مرسل أمامه. إن الذى له العروس هو العريس، وأما صديق العريس الذى يقف ويسمعه ففرحاً يفرح لصوت العريس. ومن ثم فإن فرحى قد اكتمل. إنه ينبغى أن يزداد هو. أما أنا فأنقص. إن الذى يأتى من فوق، هو فوق الجميع، والذى من الأرض هو أرضى، ومن الأرض يتكلم، أما الذى يأتى من السماء فهو فوق الجميع. ومارآه وما سمعه هو الذى به يشهد. ولكن أحداً لا يقبل شهادته. وكل من قبل شهادته فقد أقر بأن الله حق. لأن ذلك الذى أرسله الله إنما بكلام الله يتكلم. فإن الله يعطيه الروح بغير مقدار. إن الآب يحب الابن، وقد جعل فى يده كلّ شيء. فمن يؤمن بالابن له الحياة الأبدية. ومن لا يؤمن بالابن فلن يرى الحياة، وإنما يحل عليه غضب الله».

وهكذا أوضح يوحنا لتلاميذه أن له رسالة معينة كلفته بها السماء، فكان عليه أن يؤدى هذه الرسالة فى حدودها المعينة له. ولا يستطيع أن يتجاوز هذه الحدود التى عينتها له السماء. وقد سبق أن شهد واعترف أمام تلاميذه أولئك الذين جاءوا يسألونه الآن بأنه ليس هو المسيح (يوحنا ١ : ١٩ و٢٠ و٢٧)، وإنما تنحصر رسالته فى أنه رسول جاء ليمهد الطريق للمسيح الفادى (يوحنا ١ : ٢٣)؛ (ملاخى ٣ : ١)؛ (مرقس ١ : ٢) (لوقا ١ : ١٧). فكما أن الشخصية الرئيسية فى كل عرس هى العريس الذى تزف العروس له، وليس صديق العريس الذى يصاحبه ويتولى خدمته، هكذا هو بالنسبة للمسيح. لأنه إذ كانت كنيسة المسيح هى عروسه (٢. كورنثوس ١١ : ٢)؛ (الرؤيا ٢١ : ٩)، فهو العريس (متى ٩ : ١٥)؛ (مرقس ٢ : ١٩)؛ (لوقا ٥ : ٣٤). وليس أحداً سواه. وأما يوحنا فهو صديق ذلك العريس (نشيد الأنشاد ٥ : ١)، الذى تنحصر كل مهمته فى أن يصاحبه ويخدمه. ولأنه يحبه بحكم صداقته له، يفرح فرحاً عظيماً بأن يسمع صوته، ومن ثم فقد اكتمل فرح يوحنا بأنه كان هو صاحب ابن الله وخادمه، وبأنه أدى واجبه نحوه على أكمل وجه. وتمم رسالته الموكول بها إليه فى أنبل صورة. ومادام ابن الله قد جاء (يوحنا ١ : ١١)؛ (١٠ : ١٠). وأظهر ذاته للناس، فينبغى أن تزداد فى نفوس الناس مكانته بقدر ما يزداد إيمانهم به. وأما يوحنا وقد أكمل الرسالة المعهود بها إليه، فإن المجد الذى له لدى الناس لابد أن يتناقص ويتوارى كما يتناقص نور النجم الصغير ويتوارى حين يسطع نور الشمس العظيمة ويحجب كل أنوارالنجوم الأخرى، لأن المسيح ابن الله الآتى من فوق (يوحنا ٣ : ١٣)؛ (٨ : ٢٣)، هو فوق

الجميع (فيلبي ٢ : ٩) من أبناء الأرض. ومع أن يوحنا نبي عظيم، فإنه ليس إلا إنساناً من الأرض، ومع أنه موحى إليه من السماء بما يتكلم، فإنه من الأرض يتكلم (١ . كورنثوس ١٥ : ٤٧) . وأما المسيح ابن الله الآتي من السماء فهو فوق الجميع (رومية ٩ : ٥) ، (أفسس ١ : ٢١) وهو الوحيد الذي يستطيع أن يشهد شهادة صادقة بما رآه وسمعه في السماء (يوحنا ١٥ : ١٥) لأنه هو إله السماء الذي نزل من السماء (يوحنا ٣ : ١٣) ؛ (٦ : ٣٣ و٣٨ و٥١ و٦٢) ؛ (١٦ : ٢٨) ؛ (١٧ : ٨) . ولكن أحداً من اليهود مع ذلك لا يقبل شهاداته، لظلام عقولهم وغلظة قلوبهم. وأما كل من قبل شهاداته من اليهود أو غير اليهود في الأرض كلها، فقد أقر بأن الله حق (١ . يوحنا ٥ : ١٠) . لأن الله سبق فأعلن على لسان أنبيائه مجيء السيد المسيح ابن الله وكلمته (إشعياء ٩ : ٦) ؛ (ميخا ٥ : ٢) . وقد تحقق هذا مما يدل على أن الله حق (رومية ٣ : ٤) . لأن كل ما أوحى به إلى أنبيائه اتضح أنه حق (٢ . بطرس ١ : ٢١) . وقد أرسل يوحنا المعمدان ليمهد لمجيء ابن الله . فلما جاء اتضح أن ماقاله رسول الله بوحي من الله حق. ثم حين جاء ابن الله بالفعل، وخاطب الناس بكلمات لا يمكن أن تصدر إلا من الله (متى ٧ : ٢٩) ؛ (يوحنا ١٤ : ٦) ؛ (مرقس ٢ : ٧ و١٠) وبمعجزات لا يمكن أن يقدر عليها إلا الله وحده (مرقس ٤ : ٤١) ؛ (١ : ٢٧) ؛ (لوقا ٤ : ٣٦) ، تأكد من ذلك أن الله حق، لأن ذلك الذي أرسله الله إنما يتكلم بكلام الله (يوحنا ٣ : ١١) ؛ (٨ : ٢٦) ؛ (٧ : ١٦) . فهو كلمة الله بحق، إذ أن الله لم يضع فيه روحه ليلهمه كما ألهم كل أنبيائه بمقدار معين محدود، وإنما أعطاه الروح القدس بغير مقدار. لأن الله وروحه القدوس هما من جوهر واحد. فالروح القدس هو كائن مع الابن ومع الآب، في جوهر واحد، وذات إلهية واحدة . ذلك أن الآب والابن والروح القدس لاهوت واحد، وطبيعة واحدة، بغير إنقسام وبغير إنفصال وبغير تجزئة . فالمسيح ممتلىء بالروح القدس إمتلاء الذات بذاتها. فقد حل فيه كل ملء اللاهوت جسديا (كولوسي ٢ : ٩) . والله الآب يحب الله الابن (يوحنا ٥ : ٢٠) ، (متى ٣ : ١٧) ؛ (١٧ : ٥) ؛ (٢ . بطرس ١ : ١٧) . ذلك أنهما معاً كيان واحد وذات واحدة . وقد جعل الله الآب في يد الله الابن كل شيء وكل شخص وكل سلطان (متى ١١ : ٢٧) ؛ (٢٨ : ١٨) ؛ (لوقا ١٠ : ٢٢) ؛ (يوحنا ١٣ : ٣) ؛ (١٧ : ٢) ؛ (١ . كورنثوس ١٥ : ٢٧) ؛ (العبرانيين ٢ : ٨) . فمن يؤمن بالله الابن ينال - باعتبار أنه يؤمن بالله الآب في نفس الوقت - الحياة الأبدية . لأن إيمانه هذا دليل على تسليمه بسلطان الله عليه، وخضوعه لهذا السلطان، والتزامه بوصاياه، وإنتهاجه - بسبب هذا الإيمان - سبيل الفضيلة والطهارة والتقوى وكل الصفات التي تجعله أهلا لأن يقترب من ملكوت الله، وأن يصبح أحد رعايا هذا الملكوت، بل يصبح ابنا لله، مستحقاً للحياة الأبدية في حضن أبيه السماوي، لأن الله هو الآب السماوي لكل من يستحق أن يطيعه

طاعة الابن البار لأبيه (حبقوق ٢ : ٤)؛ (رومية ١ : ١٧). وأما من لا يؤمن بابن الله، بل يكفر به وينكر حقيقة شخصيته، فإنه يكون ابناً عاقاً لا يستحق تلك البنوة لله، ومن ثم لا يستحق - بسبب عقوقه - الاقتراب منه. وبالتالي لا يستحق أن يحيا معه تلك الحياة الأبدية التي سينعم بها الأبرار والأطهار، وإنما يحل عليه غضب الله. لأنه تشبث بشروره وأصر على المضي في الطريق الشرير الذي اختاره لنفسه بمحض إرادته. فلم يعد أهلاً لأن يكون إبناً له ولا أن يكون أحد رعاياه في ملكوته. ولا يصلح إلا لأن يكون مصيره لا الحياة الأبدية، وإنما الهلاك الأبدي، على مقتضى العدل الإلهي الذي يحكم بالهلاك على كل شرير.

قال مخلصنا له المجد: «الحق الحق أقول لكم إنّ من يؤمن بي فله الحياة الأبدية» (يوحنا ٦ : ٤٧). وقال أيضاً «لأنه إلى هذا المدى أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به، وإنما ينال الحياة الأبدية» (يوحنا ٣ : ١٦). وجاء في رسالة القديس يوحنا الأولى قوله «إن الله أعطانا حياة أبدية. وهذه الحياة هي في ابنه. من له الابن فله الحياة. ومن ليس له ابن الله فليست له الحياة» (١. يوحنا ٥ : ١١ و١٢)، وقوله «بهذا أظهرت محبة الله فينا أن الله قد أرسل ابنه الوحيد إلى العالم لكي نحيا به» (١. يوحنا ٤ : ٩) . وأنظر (يوحنا ١ : ٤).

وقد كانت هذه الأقوال التي نطق بها يوحنا المعمدان مطابقة كل المطابقة لكل ماقاله مخلصنا لنيقوديموس وهو يشرح له سر العقيدة المسيحية، مما يدل على أن يوحنا المعمدان لم يكن ينطق فيما يقول إلا بما أوحى الله به إليه، وبالتالي يدل على أنه الرسول الصادق الأمين الذي كان أول من بشر من البشر بالسر الإلهي الذي تنطوي عليه عقيدة العهد الجديد التي جاء بها مخلصنا، تلك العقيدة التي تأسست على صخرتها كنيسة سيدنا يسوع المسيح له المجد، وستظل راسخة في قلوب المسيحيين إلى الأبد.

إن ماقاله يوحنا المعمدان عن سيده يسوع المسيح، شهادة عظيمة، ماأعظمها شهادة! وقد أشاد بها رب المجد كما أشاد بعبده يوحنا. فقال : «أنتم أرسلتم إلى يوحنا فشهد بالحق. وأنا لا أقبل شهادة من إنسان، ولكنني أقول هذا لتخلصوا أنتم. ذاك هو السراج الموقد المنير. وقد كنتم تريدون أن تتهللوا بنوره ساعة، أما أنا فلي شهادة أعظم من شهادة يوحنا، لأن الأعمال التي أعطاني أبي لأنجزها، تلك الأعمال التي أنا أعملها هي نفسها التي تشهد لي» (يوحنا ٥ : ٣٣-٣٦).

على أن يوحنا كان عظيماً أيضاً في ردّه على الذين قصدوا أن يثيروه بأن جميع الناس تركوه وذهبوا إلى يسوع المسيح. وقد برهن بردّه الرُوحاني على أنه أعظم من الإثارة، وأنه حقًا

نبي عظيم وخادم أمين فهِم رسالته كل الفهم ولم يخرج عنها. وكان أميناً لسيده، إذ عرف أن مهمته تنحصر في أن يهيىء العروس للعريس، فلم ينحرف فى فهم تلك الرسالة، ولم يطمع فى أن يخطف العروس لنفسه، فكان نِعْم الصديق للعريس، ذلك الصديق الذى يفرح من كل قلبه بأن تذهب العروس لعريسها. وبأن تكون له كصديق للعريس شرف تهيئة العروس لعريسها وهنا تنتهي مهمته. وقد أتمها يوحنا بنجاح عظيم، غير أن نجاحه الأعظم كان فى أنه عرف حدود مهمته ولم ينحرف عنها. فطوبى له من نبى كريم وقدّيس عظيم.

الفصل الرابع

٤ : ١- ٤٢

حديث السيد المسيح مع المرأة السامرية:

ولما علم الرب يسوع أن الفريسيين الذين كانوا فى أرض اليهودية سمعوا أنه اتخذ تلاميذ كثيرين ممن آمنوا به حين رأوا شخصيته الإلهية وسمعوا تعاليمه السماوية، وأنه يعمّد أكثر من يوحنا، مع أن ربنا نفسه لم يكن يعمّد، وإنما كان تلاميذه هم الذين يعمّدون بتكليف منه وبإرشاده، امتلأ هؤلاء الفريسيون غيرة منه وحقداً عليه، بسبب إزدياد عدد المؤمنين به، وارتفاع مكانته لدى الشعب مما أصبح يهدّد مكانتهم التى كانت تضفى عليهم الاحترام والتعظيم. ومن ثم كانوا يجنون من ورائها كثيراً من المكاسب والمنافع، وكانوا فى سبيل الاحتفاظ بها واحتكارها لأنفسهم، لا يتورعون عن قتل كل منافس لهم فيها. ولذلك فإن مخلصنا له المجد ترك أرض اليهودية بعد أن مكث بها نحو ستة أشهر. ومضى ثانية إلى أرض الجليل. وقد كان يتحتم كى يصل إليها أن يمر فى طريقه بمنطقة السامرة التى تقع فى وسط فلسطين بين اليهودية فى الجنوب، والجليل فى الشمال. وكان سكان هذه المقاطعات الثلاث جميعاً من شعب بنى إسرائيل وكانت لهم مملكة واحدة عاصمتها أورشليم. وقد ظلت كذلك إلى عهد الملك سليمان بن داود. فلما مات سليمان وخلفه ابنه رحبعام انقسمت المملكة فى عهده بسبب حماقته إلى مملكتين، إذ تمردت عليه عشرة من أسباط بنى إسرائيل الاثنى عشر وقاموا لأنفسهم مملكة مستقلة فى السامرة أسموها مملكة «إسرائيل» وجعلوا عاصمتها «شكيم» التى تسمى اليوم «نابلس»، واختاروا يربعام بن نباط ملكاً عليهم. فلم يبق مع رحبعام إلا سبط واحد هو سبط يهوذا وظلت عاصمة مملكته هى أورشليم (١ . الملوك ١٢) . ولكى يضمن يربعام ولاء العشرة أسباط التى تتألف منها مملكة إسرائيل واستمرار إنفصالها عن مملكة «يهوذا» عمل على أن يمنع ذهاب شعبه إلى أورشليم للحج أو للسجود هناك فى الهيكل «عمل عجلين من الذهب وقال لهم لا حاجة لكم بعد بالصعود إلى أورشليم. هذه آلهتكم يا إسرائيل التى أخرجتكم من مصر، وجعل أحدهما فى بيت إيل والآخر وضعه فى دان... وبنى بيت المرتفعات وأقام كهنة من لفيف الشعب لم يكونوا من بنى لاوى، وأقام يربعام عيداً فى الشهر الثامن فى اليوم الخامس عشر من الشهر كالعيد الذى فى يهوذا، وأصعد على المذبح، وكذلك عمل فى بيت إيل وذبح للعجلين اللذين عملهما» (١ . الملوك ١٢ : ٢٥- ٣٢) ؛ (٢ . الملوك ١٠ : ٢٩) ؛ (١٧ : ١٦) ؛ (هوشع ٨ : ٤- ٧) . ثم بعد ذلك قام عمرى أبى آخاب ملك إسرائيل ببناء السامرة أو تجديدها فى المدة بين عامى ٨٧٦ و٨٤٢ قبل

الميلاد. فصارت هذه المدينة هى عاصمة مملكة إسرائيل. حتى إذا جلس آخاب بن عمرى ملكاً على إسرائيل أقام فى السامرة مذبحاً للبعل الذى هو من آلهة الوثنيين (١. الملوك ١٦: ٣٢). ومن ثم كانت السامرة منذ بنائها مدينة وثنية واستمرت كذلك (هوشع ٨: ٤- ٦)؛ (عاموس ٨: ١٤) حتى هاجم شلمناصر ملك أشور هذه المدينة سنة ٧٢٤ قبل الميلاد وحاصرها ثلاث سنوات. ثم فى سنة ٧٢٢ قبل الميلاد غزا سرجون خليفة شلمناصر هذه المدينة أيضاً (إشعياء ٢٠: ١) وسبى من أهلها ٢٧٢٨٠ شخصاً وأخذهم إلى آشور وأسكنهم فى بعض مدنها (٢. الملوك ١٧: ٥، ٦) فلم يترك في السامرة إلا الضعفاء المعدمين من سكانها. ثم لكى يضمن خضوع تلك البقية الباقية من السامريين فى السامرة، نقل إليها خليطاً من الشعوب الوثنية.. «وأتى ملك آشور بقوم من بابل وكوث وعوّا وحماه وسفروايم وأسكنهم فى مدن السامرة مكان بنى إسرائيل، فامتلكوا السامرة واستوطنوا مدنها. وكان أنهم فى مبدأ إقامتهم هناك لم يتقوا الرب.. فأخذت كل أمة تعمل آلهتها وتضعها فى بيوت المرتفعات التى عملها السامريون، كل أمة فى مدنها التى سكنتها. فعمل أهل بابل سكوت بنوث، وأهل كوث عملوا نرجال... والسفروايميون كانوا يحرقون بنيهم بالنار لأدرملك وعنملك إلهى سفروايم.. فكانوا يتقون الرب ويقيمون لأنفسهم من لفيفهم كهنة مرتفعات، ويعبدون آلهتهم كعادة الأمم الذين جلوهم من بينهم... فكان هؤلاء الأمم يتقون الرب ويعبدون تماثيلهم، وكذلك بنوهم وبنو بنيهم» (٢. الملوك ١٧: ٢٤- ٤١). وقد ظل أهل السامرة يمارسون هذه العبادة المزدوجة أيضاً فى عهد آسر حدّون ملك أشور حتى سقوط أورشليم فى عام ٥٨٦ قبل الميلاد (عزرا ٤: ٢)؛ (٢. الملوك ١٩: ٣٧). كما أن الإسكندر المقدونى عندما استولى على السامرة فى عام ٣٣٢ قبل الميلاد، نقل سكانها إلى شكيم، وأتى بدلاً منهم بمقدونيين وسوريين وثنيين وأسكنهم فيها. وهكذا تأثر السامريون بمعتقدات الوثنيين من الأجناس المختلفة الذين وفدوا إليهم، واختلطت ديانتهم اليهودية بكثير من تلك المعتقدات. ولذلك أصبح سائر اليهود فى بقية أنحاء فلسطين يحتقرون السامريين ويتجنبون مخالطتهم، بل يتجنبون حتى مخاطبتهم، أو التعامل بأى صورة من الصور معهم، معتبرين إياهم نجسين ودنسين وملعونين من الله، ومن ثم اشتدت العداوة بين أولئك وهؤلاء، حتى إن السامريين امتنعوا عن الصلاة فى هيكل أورشليم، وأقاموا لأنفسهم هيكلاً خاصاً بهم على جبل جرزيم الذى يقع فى أرضهم.

وقد مر مخلصنا وهو فى طريقه من اليهودية إلى الجليل بمدينة من مدن السامرة تسمى «سوخار»، بالقرب من الضيعة التي كان يعقوب يملكها فى شكيم، وقد وهبها قبيل موته لابنه يوسف. وكانت هناك بئر يعقوب وهى عين ماء كانت تقع فى تلك الضيعة التى كانت مملوكة

له. وكان مخلصنا أتعبه السفر، بعد تلك الرحلة الطويلة الشاقة التي بدأت عند الفجر سيراً على الأقدام من اليهودية إلى السامرة التي بلغها في نحو الساعة السادسة بالتوقيت الشرقي القديم، أي الساعة الثانية عشر ظهراً بالتوقيت الحديث، ومن ثم جلس عند بئر يعقوب ليستريح بعض الوقت. ولم تلبث أن جاءت امرأة سامرية لتستقي ماء من البئر. فقال لها مخلصنا «أعطيني لأشرب». ولابد أن يكون قد عطش فعلاً كإنسان. بيد أن الأمر الغريب أنه عطش ولم يشرب.. أفلا يكون هذا معناه أن هذا العطش إنما كان عطشاً «تدبيرياً»، أي أن مخلصنا له المجد كان يمكنه أن يبطل فعل هذا العطش بسلطان لاهوته المتحد بناسوته، ولكنه سمح لنفسه بأن يعطش. ولم يتدخل بلاهوته ليبطل فعل هذا العطش، ليجعل من هذا العطش تبريراً صادقاً لأن يدخل في حوار مع السامرية كي يقودها به إلى خلاص نفسها وخلاص أهل السامرة جميعاً؟. ومن ثم كان مخلصنا *يريد بطلبه من تلك المرأة أن تعطيه ليشرب أن يفتح معها باب الحديث ليقودها إلى* الإيمان، إذ كان هذا من وسائط أداء رسالته. وكان تلاميذه في هذه الأثناء قد مضوا إلى مدينة قريبة من ذلك الموضع ليبتاعوا طعاماً لهم ولمعلمهم. بيد أن المرأة السامرية دهشت لهذا الطلب منه، إذ كان يهودياً. وكان اليهود كما رأينا يتجنبون السامريين ويرفضون التعامل معهم أو مجرد مخاطبتهم، وقد اشتدت القطيعة بين اليهود من سبط يهوذا وبين السامريين حتى إنه عندما عاد المسبيون من اليهود إلى أورشليم في عهد زربابل، طلب السامريون أن يشتركوا معه في بناء الهيكل في أورشليم بزعم أنهم مثلهم يعبدون الرب إله إسرائيل، لكن زربابل رفض طلبهم، فلم يسمح لهم بالاشتراك معه في البناء، فحنق السامريون على اليهود، وجعلوا يحاربونهم ويقاومونهم وانضموا إلى أعداء اليهود في تعطيل بناء الهيكل ثم في تعطيل بناء سور أورشليم. وقد جاء عن ذلك في سفر نحميا «ولما سمع سنبلط أننا آخذون في بناء السور غضب وحنق حنقاً شديداً وسخر من اليهود. وتكلم أمام إخوته أهل السامرة وقال: ماذا يفعل أولئك اليهود الضعفاء.. ولما سمع سنبلط والعرب والعمونيون والأشدوديون بأن أسوار أورشليم قد رممت، وأنه قد أخذ في سد الثلم غضبوا جداً، وتحالفوا كلهم يداً واحدة على أن يأتوا ويحاربوا أورشليم وينزلوا بها شراً...» (نحميا ٤: ١ – ٢١). وقد استفحل العداء أكثر عندما طرد نحميا من الكهنوت منسى الكاهن لأنه تزوج من ابنة سنبلط الحوروني، على ما يروي يوسيفوس المؤرخ اليهودي. فلما لجأ منسى إلى سنبلط حميه وعده هذا ببناء هيكل على جبل جرزيم، إذا احتفظ بابنته زوجة له ولم يطلقها كطلب شيوخ إسرائيل (انظر كتاب «تاريخ اليهود» ليوسيفوس اليهودي. الجزء ١١. الفقرة ٢ ـ ثم الجزء ١٢ ـ *فصل ٤ فقرة ١*). وقد بر سنبلط بوعده فبنى *هيكلاً على جبل جرزيم، لينافس* به هيكل أورشليم في نحو عام ٤٣٢ قبل الميلاد، وأصبح يسمى بالهيكل السامري. وقد صار جبل

جرزيم هذا مقدساً عند السامريين نظراً لبناء هيكلهم فوقه، وظلّ مقدساً حتى بعد أن هدم يوحنا هركانوس ذلك الهيكل سنة ١٢٨ قبل الميلاد (انظر كتاب «تاريخ اليهود» ليوسيفوس اليهودي - الجزء ١٣ فصل ٩ فقرة ١). ومع ذلك استمر السامريون يقدمون قرابينهم على جبل جرزيم حيث كان ذلك الهيكل، وعندما نجسّ أنطيوخوس أبيفانيوس اليوناني هيكل أورشليم بأن قدم خنزيرة على مذبحه، أعلن السامريون أنهم لا ينتمون إلى اليهود أصلاً، وزادوا على ذلك بأن ألقى بعض السامريين في هيكل أورشليم عظاماً نجسة، وذلك في السنة السادسة قبل الميلاد فاشتدت لذلك كراهية اليهود للسامريين حتى أصبح اليهودي يعتبر طعام السامري نجساً بمثابة لحم الخنزير، بل لقد غالى اليهود في احتقارهم للسامريين حتى صار اسم السامري ذاته نجساً عند اليهودي، وكان يستنكف أن ينطق به لئلا تتنجس بذكر اسمه شفتاه. وبالتالي صار العداء مستحكماً بين اليهود والسامريين. وانقطعت بين الفريقين كل صلة، ولم تعد بينهما أيّة علاقات دينية أو اجتماعية. وقد كان هذا ما عبرت عنه المرأة السامرية في دهشة وذهول حين طلب منها مخلصنا أن تعطيه ليشرب، إذ قالت له على الفور «كيف تطلب مني لتشرب وأنت يهودي وأنا سامرية، واليهود لا يخالطون السامريين؟» (يوحنا ٤ : ٩) - وانظر أيضاً (متى ١٠ : ٥)؛ (لوقا ٩ : ٥٢ و٥٣)؛ (يوحنا ٨ : ٤٨)؛ (الأعمال ١٠ : ٢٨). وقد كان هذا القول من تلك المرأة هو الذي قصد إليه مخلصنا حين أراد أن يفتح معها باب الحديث ليستدرجها إلى معرفة حقيقة شخصيته، وينير بصيرتها لتؤمن به، ومن ثم قال لها: «لو كنت تعرفين عطية الله ومن هو الذي يقول لك اعطيني لأشرب، لطلبت أنت منه، فأعطاك ماءً حياً». وقد كان يقصد بالماء الحي النعمة الروحية السماوية الخالدة التي لا تزول ولا يزول أثرها كما يزول أثر الماء المادي الأرضي، وتلك هي نعمة الروح القدس.

بيد أن المرأة لبساطتها وسذاجتها لم تفهم ما يقصده مخلصنا بالماء الحي، وإنما ظنت أنه يحدثها عن الماء الذي في البئر، فقالت له «يا سيد، ليس معك دلو، والبئر عميقة فمن أين لك الماء الحي؟» ثم أنها على الرغم من أنها خاطبته في بدء حديثها معه باحترام، عادت فأبدت تعجبها منه إن كان يقصد أنه قادر على أن يعطيها ماءً أفضل من ذلك الماء الذي في البئر، قائلة له «ألعلك أعظم من أبينا يعقوب الذي أعطانا هذه البئر، وقد شرب منه هو وبنوه وماشيته». وهكذا اتجهت إجاباتها في نفس الاتجاه الذي أراده مخلصنا ليكشف لها عن حقيقة شخصيته التي هي أعظم من شخصية إبراهيم بما لا يقاس، وليكشف لها عن حقيقة الماء الحي الذي يستطيع هو أن يعطيه إياها، والذي هو أثمن من الماء الذي في تلك البئر. والذي في كل آبار الأرض وبحيراتها وبحارها ومحيطاتها بما لا مجال معه لمقارنة أو قياس. ومن ثم قال لها «كل

من يشرب من هذا الماء لا يلبث أن يعطش، أما من يشرب من الماء الذي أعطيه إياه أنا، فلن يعطش إلى الأبد، بل الماء الذي أعطيه إياه يكون فيه ينبوع ماء ينهمر إلى الحياة الأبدية». أي أن الماء الذي في بئر يعقوب أو أي ماء آخر على الأرض، قد يرتوي منه الإنسان لحظة، ولكنه لا يلبث أن يعطش، ومهما شرب منه فإنه سيعود فيعطش، لأنه ماء مادي، فهو من إحتياجات الجسد المادي الذي هو من طبيعته، والذي مهما شرب منه فإنه سيموت في النهاية ويفنى، وأما الماء الذي يعطيه مخلصنا فهو ماء روحي ترتوي به روح الإنسان فلا تشعر بأنه ينقصها أبداً، لأنها تمتلئ به إمتلاءً كاملاً، فتظل مرتوية به إلى الأبد، كينبوع منهمر من النعمة الروحية لا ينقطع ولا ينضب ولا يفتأ يفعل فعله في الإنسان حتى يؤدي به إلى الحياة الأبدية.

ولم تفهم المرأة السامرية بطبيعة الحال ما يقصد إليه معلمنا بهذا القول السامي السماوي الذي لم يكن ليفهمه في ذلك الحين حتى أكبر علماء اليهود وفقهائهم، في حين أنها كانت امرأة قروية ساذجة. ومن ثم ظنت أنه يحدثها عن نوع آخر من الماء يوجد في ينبوع آخر من ينابيع الأرض غير بئر يعقوب، من شأنه أن يرويها بصفة دائمة فلا تعطش، وبذلك توفر على نفسها ذلك المجهود الذي تبذله كل يوم في المجيء إلى البئر حاملة جرّتها، ثم تعود حاملة إياها وهي ممتلئة، فقالت له في بساطة وبراءة «يا سيد أعطني من هذا الماء لكي لا أعطش ولا أجيء إلى هنا لأستقي». بيد أن فادينا له المجد أراد أن يجعلها تفهم قوله على وجهه الصحيح، بأن تعرف شخصيته السماوية على حقيقتها، وبذلك تدرك أن الماء الذي يتحدث عنه ماء يصدر عن السماء لا عن الأرض. ولم يكن ذلك ممكناً بالنسبة لهذه المرأة إلا أن يظهر لها بعض قدرته الإلهية في العلم بالغيب، تلك القدرة التي لا يملكها إلا الله وحده، فقال له «اذهبي واستدعي زوجك وتعالي إلى هنا». أجابت المرأة وقالت له «ليس لي زوج»، فقال لها «أحسنت إذ قلت ليس لي زوج، لأنه كان لك خمسة أزواج، والذي معك الآن ليس زوجك. في قولك هذا صدقت». ومن هذه العبارة يتبين أن تلك المرأة كانت امرأة ساقطة، لأنها تنتقل من رجل إلى آخر تحت ستار الزواج تارة، أو بغير زواج تارة أخرى، كما حدث بالنسبة لذلك الرجل الأخير دون أن تتزوجه، ومع ذلك تجاوز مخلصنا عن توبيخها أو تعييرها بتلك الحياة الشائنة التي تحياها، لأنه كان يبتغي منذ البداية ماهو أهم من ذلك، وهو خلاصها خلاصاً كاملاً، وتوجيهها إلى الإيمان لتحيا حياة التوبة والطهارة، ومن ثم فإنه بدلا من التوبيخ والتعيير امتدح صدقها. إذ اعترفت بأن الرجل الذي تعيش معه حينذاك لم يكن زوجها. وقد كان لهذا الأسلوب الحكيم الذي اتبعه معها أثره السريع والمباشر، إذ أدركت المرأة أن ذلك الذي يتحدث معها ليس إنساناً عادياً. فقالت له «يا سيد. أرى أنك نبي». وهكذا تقدمت درجة في إدراكها بطبيعة مخلصنا. بيد أنها إذ فهمت من حديثه معها أنه نبيّ، وإذ رأت أنه وهو يهودي يعاملها وهي سامرية في رقة وسماحة، على

العكس مما يفعله سائر اليهود مع السامريين، أرادت أن تفهم منه وجه الحق فى قضية من قضايا الخلاف بين اليهود والسامريين، وهى أن اليهود كانوا يعدّون أن المكان المقدس الوحيد الذى تنبغى فيه عبادة الله والسجود له هو هيكل أورشليم دون أى موضع آخر على الأرض، فى حين يعتقد السامريون أن تلك العبادة وذلك السجود ينبغى أن يكون فى هيكل السامريين القائم على جبل جرزيم. والمعروف أن يعقوب الذى هو إسرائيل بنى فيه مذبحاً لله وهناك عبده وسجد له (التكوين ٣٣: ١٨- ٢٠). ومن ثم قالت المرأة لمخلصنا «لقد كان آباؤنا يسجدون فى هذا الجبل، وأنتم تقولون إن فى أورشليم الموضع الذى ينبغى فيه السجود». ولا شك أن المرأة السامرية عندما قالت «لقد كان آباؤنا يسجدون في هذا الجبل» كانت تشير إلى آبائها من أهل السامرة الذين كانوا ومازالوا على قولها يسجدون فى جبل جرزيم الذى تعنيه بقولها «هذا الجبل»، أى الجبل القريب منها، وهو الذى يسمى الآن «جبل الطور» الذى يكون الحد الجنوبي للوادى العميق الضيق الذي كانت تقع فيه «شكيم» المسماة اليوم «نابلس»، ويقف فى مواجهته جبل «عيبال» فى الجانب الشمالى من الوادى. وفى سفح جبل جرزيم هذا بئر يعقوب التى جلس عنده مخلصنا والتقى هناك بالمرأة السامرية التى كانت قد جاءت لتستقى ماء من تلك البئر. والمعروف أنه على جبل جرزيم كان يقف نصف أسباط بنى إسرائيل يهتفون بالبركات لمن يحفظ وصايا الرب، فى حين كان يقف النصف الآخر من الأسباط على جبال عيبال ينطقون باللعنات على من يعصى أوامر الرب (انظر سفر التثنية ١١: ٢٩)؛ (٢٧: ١٢)؛ (يشوع ٨: ٣٣- ٣٥)؛ (القضاة ٩: ٧- ٢١).

وقد أجاب مخلصنا المرأة قائلاً: «أيتها المرأة صدقيني أنه تأتي ساعة فيها لا فى هذا الجبل ولا فى أورشليم تسجدون للآب. أنتم تسجدون لمن لا تعرفون. وأما نحن فنسجد لمن نعرف، لأن الخلاص إنما هو من اليهود. ولكن تأتى ساعة، وقد أتت الآن، حين الساجدون الحقيقيون يسجدون للآب بالروح والحق. فإن الله روح، والذين يسجدون له فبالروح والحق ينبغي أن يسجدوا».

وقد كان فى هذا القول الذى أفضى به معلمنا للمرأة إعلان عن العهد الجديد الذى جاء هو به، إذ كان السجود في العهد القديم يتم كعلامة لعبادة الله وتعظيمه والخشوع أمامه. بيد أن اليهود كانوا يمارسونه كعمل جسدى بحت، وشكلى محض، لا دخل فيه للروح التى ينبغى أن تكون هى التى تعبد الله وهى التى تعظمه، وهى التى تخشع أمامه، وهذا هو السجود الروحى الذى أصبح فى العهد الجديد هو الغاية العظمى وهو الهدف الأسمى، سواء أكان هذا فى جبل جرزيم أم فى أورشليم أم فى أى مكان في الوجود، لأنه ينطوى على العبادة الحقيقية لله الآب. بيد أن معلمنا مع ذلك أوضح للمرأة السامرية، أن الترتيب الإلهى قد قصد أن يأتى المسيح

مخلص العالم من نسل داود، وقد حدد الله فى أسفار العهد القديم هيكل أورشليم ليكون رمزا لعبادته والسجود له. فإذا خالف السامريون هذا الأمر الإلهي وجعلوا مركز عبادتهم وسجودهم هيكلاً آخر أقاموه على جبل جرزيم، فقد كانوا فى ذلك مخطئين. وقد نشأ خطأهم عن أنهم لم يكونوا يهوداً خالصين وإنما اختلطوا بالشعوب الوثنية التى كانت تسجد لآلهة لا تعرفها، فى حين كان اليهود الأصليون يسجدون لله الذى أعلن لهم ذاته فعرفوه، وإن كانوا على الرغم من معرفتهم له قد خالف أغلبهم وصاياه. فقد كانت عبادتهم له شكلية محضة، ومظهرية غير صادقة. لكن ثمة ساعة تأتي، وقدأتت في ذلك الوقت بالفعل بمجيء المسيح ابن الله مخلص العالم، يسجد فيها المؤمنون لله الآب سجوداً حقيقياً وفعلياً وليس شكلياً أو مظهرياً، لأنه سجود لا بالجسد كعلامة لعبادة الله، قد تكون كاذبة، وإنما هو سجود بالروح ينبع عن إيمان حقيقي وصادق، وعن ورع وإخلاص، لا نفاق فيه ولا إفتراء ولا رياء، لأن الله الآب لا يقبل سجود الساجدين له إلا بهذا المفهوم وعلى هذا الأساس الروحي العميق. فإن الله روح، والذين يسجدون له فبالروح والحق ينبغى أن يسجدوا. فإن فعلوا ذلك نالوا رضاه عنهم ومسرته ونعمة ملكوته يغدقها عليهم.

ومن هذه الإجابة القدسية من فم السيد المسيح له المجد عن سؤال المرأة السامرية تتضح الحقائق الآتية:

أولاً: أن العبادة الحقيقية فى العهد المسيحى لا ترتبط بالمكان، بل بالأحرى إنها تقوم بالروحانية والصدق. فليس المهم فى تعليم المسيح أين يكون السجود أو أين تكون العبادة، وإنما المهم فى العبادة أن تمارس «بالروح والحق». وبعبارة أخرى ليس المهم «أين» يسجد العابد، بل «كيف» يسجد وكيف يعبد. ليكن المكان أى مكان. هذا لا يهم. وإنما الذى يهم في الحقيقة هو «روح العبادة»، وأن تكون عبادة صادقة وحقيقية. عبادة من أعماق القلب والروح والنفس، وليس مجرد عبادة شكلية مظهرية رسمية.. والدليل على أن هذا هو المقصود هو قوله له المجد: «الساجدون الحقيقيون يسجدون للآب بالروح والحق، لأن الآب يبتغى مثل هؤلاء الساجدين له. فإن الله روح والذين يسجدون له فبالروح والحق ينبغى أن يسجدوا» (انظر أيضاً غلاطية ٥: ٢٥)؛ (فيلبى ٣: ٣)؛ (١ - تيموثيئوس ٢: ٨)؛ (يعقوب ٤: ٨)؛ (١ - بطرس ١: ٢٢).

ثانياً: إن العبادة «والسجود لله» فى تعليم السيد المسيح له المجد لم تعد مرتبطة بمكان معين، وإنما صارت العبادة لله الآب عبادة محررة من الارتباط بالمكان المحدود. وهذا يتمشى مع منطق تعليم المسيح فى العهد الجديد الذى نقل الكنيسة إلى كل إمتداد. فلم تعد كما كانت في

المفهوم اليهودى القديم كنيسة عنصرية تتألف من شعب بذاته، وهو الشعب اليهودى الذى كان يسمى الشعب المختار، وإنما صارت فى العهد الجديد كنيسة جامعة مسكونية عالمية تضم المؤمنين بالمسيح من كل شعب وأمة ولسان فى كل مكان.. «ليس يهودى أو يونانى، عبد أو حر، ذكر أو أنثى. لأنكم جميعاً واحد فى المسيح يسوع» (غلاطية ٣ : ٢٨) . وعن هذا المفهوم للعبادة المسيحية جاء في نبوءة ملاخي النبي: «لأنه من مشرق الشمس إلى مغربها اسمى عظيم فى الأمم، وفى كل مكان يقرب لاسمى بخور وتقدمة طاهرة. لأن اسمى عظيم فى الأمم. قال رب الجنود» (ملاخى ١ : ١١) . وهذا هو النص القدسى الذى يردده الكاهن فى القداس للدلالة على إمتداد العبادة المسيحية الروحانية إلى كل مكان وفى كل مكان.

ثالثاً: إن هذا المفهوم الجديد للكنيسة بإمتدادها الجامعى المسكونى العالمي هو المفهوم الذى قدمه السيد المسيح له المجد بنفسه. وقد بدأ فعلاً بمجيء المسيح وصار مرتبطاً أساساً بالدعوة المسيحية والرسالة المسيحية. ويتضح هذا من تصريحه له المجد بقوله: «تأتى ساعة، وقد أتت الآن» (يوحنا ٤ : ٢٣) وإذن فقد بدأت ممارسة هذا المفهوم بمجرد النطق الإلهى «وقد أتت الآن». أى أن السيد المسيح لا يحيلنا على المستقبل البعيد، وإنما يحسم القضية بأن هذا المفهوم الجديد قد صار «الآن».

وقد أبدت المرأة السامرية ارتياحها لأقوال مخلصنا. ولكنها مع ذلك لم تفهمها، لأنها تسمو كثيراً عن مدارك تلك المرأة الريفية الساذجة، ولما كان السامريون كسائر اليهود ينتظرون مجيء المسيح، فقد أعربت عن أملها فى أنه حين يجيء ستفهم عنه مالم تفهمه من مخلصنا، أو لعلها أدركت أن هذا الذى يحدثها هو المسيح نفسه، بعد أن رأته يعرف كل دخائل حياتها، إذ قالت «نحن نعلم أن مسيا الذى يدعى المسيح آت، فمتى أتى فسيخبرنا بكل شيء»، فقال لها على الفور «أنا الذى أكلمك هو».

وعند ذلك جاء تلاميذ مخلصنا، فتعجبوا إذ رأوه يتكلم مع امرأة سامرية، مع أن اليهود لم يكونوا يكلمون السامريين. ولكنهم تهيبوا أن يسألوه عما تطلب هذه المرأة، أو عن سبب كلامه معها، لأنهم كانوا يعلمون أن له حكمة فى كل ما يقول وما يعمل، وأنه لو أراد أن يوضح لهم جلية ذلك الأمر الذى حيرهم لفعل. أما وقد سكت فقد منعهم احترامهم إياه أن يسألوه.

وأما المرأة السامرية فتركت جرتها عند البئر وانطلقت إلى المدينة التى جاءت منها وقالت للناس: «هلموا انظروا ذلك الرجل الذى قال لى كل شيء فعلته. أيكون هذا هو المسيح؟». فخرجوا من المدينة وأقبلوا عليه، لأن السامريين كانوا كسائر اليهود فى ذلك الحين يتوقعون فى لهفة

مجيء المسيح ليخلصهم من ربقة الرومان، ويعيد إليهم مجد مملكة داود ويجعلهم سادة العالم، ولا سيما أنهم كانوا يعلمون من نبوءات دانيال النبى موعد مجيء المسيح بالضبط. وكان هذا الموعد قد حل بالفعل.

وقد انتهز تلاميذ مخلصنا فرصة انصراف المرأة السامرية، فطلبوا إلى معلمهم أن يتناول غذاءه من الطعام الذى كانوا قد ذهبوا ليبتاعوه من المدينة، فطلبوا إليه قائلين: «يامعلم قم تناول الطعام» فقال لهم «إن لى طعاماً آكله لا تعرفونه أنتم». وإذ لم يكونوا قد تدربوا بعد على فهم أقواله البعيدة المرمى التى يعنى بها أموراً روحية ومعنوية، فهموا قوله هذا على ظاهره الحرفى، فقالوا فيما بينهم «ألعل أحد جاءه بما يأكل». ويبدو أنهم قد طالت غيبتهم فى المدينة حين ذهبوا ليبتاعوا طعاماً. فظنوا أن أحداً جاء لمعلمهم في هذه الأثناء ببعض الطعام فأكله، ومن ثم صحح لهم مخلصنا فهمهم الخاطىء لكلامه كما كان يفعل دائما معهم حين يخطئون الفهم، فقال لهم: «إن طعامى هو أن أعمل بمشيئة الذى أرسلنى وأُنجز عمله»، أى أنه لا يهمه الطعام الجسدي بقدر ما يهمه أن يؤدي الرسالة التي جاء من عند أبيه السماوى لينجزها، وهى تتضمن هداية البشر إلى طريق الحق وإنقاذهم من الشر المتسلط عليهم، كما فعل مع المرأة السامرية، إذ يعتبر خلاصها وخلاص شعبها هو طعامه الروحي الذى يتجه كل إهتمامه إليه، لأنه ينطوى على العمل بمشيئة الله الآب التى هى فى ذات الوقت مشيئته هو، وينطوى على إنجاز عمل الله الآب الذي هو فى ذات الوقت عمله هو، لأن الله الآب والله الابن كيان واحد وطبيعة واحدة وذات إلهية واحدة. وقد أراد مخلصنا أن يشرح لتلاميذه رسالته التى جاء من أجلها بقدر أكبر من الوضوح، كما أراد أن يشرح لهم رسالتهم هم أنفسهم. فقال لهم: «أما تقولون: بعد أربعة أشهر يحين الحصاد؟ وهاأنذا أقول لكم: ارفعوا أعينكم وانظروا إلى الحقول. إنها قد ابيضت فصلا للحصاد. والحاصد يأخذ الأجرة، ويجمع ثماراً للحياة الأبدية، لكى يفرح الزارع والحاصد كلاهما معاً، إذ فى هذا يصدق القول: إن واحداً يزرع وآخر يحصد. وقد أرسلتكم لتحصدوا مالم تتعبوا فيه. فإن آخرين قد تعبوا. وأنتم تجنون ثمرة تعبهم».

وقد كان فادينا الحبيب يستخدم الأمثال من واقع حياة الناس المادية الأرضية لييسر لهم فهم أقواله الروحية السمائية، ومن ثم ضرب هنا مثلاً لتلاميذه يفهمون معناه حق الفهم، كى يفهموا ما يطابقه من معانى عباراته السامية، وهو أنهم كانوا حين يزرعون أى نوع من محاصيلهم كانوا يعلمون بالتحديد بعد كم من الزمن سينضج ويحين حصاده، فحدثهم عن محصول من تلك المحاصيل كان مزروعاً وهم يدركون أنه يحتاج إلى أربعة أشهر كى ينضج ويبيض لونه

فيحصدونه، ثم أرادهم أن يفهموا أن الناس تشبه زراعة تلك المحاصيل، وأن الحصول على ثمرة غرس الإيمان في نفوس الناس بعد الزمن اللازم لذلك، يشبه حصاد تلك المحاصيل، فليفهم التلاميذ إذن أن أنبياء العهد القديم قد زرعوا بنبوءاتهم في نفوس اليهود الإيمان بمجيء المسيح حتى تغلغل فيهم ذلك الإيمان، وراحوا يتوقعون ذلك المجيء بين لحظة وأخرى. ولا أدل على ذلك من أن تلك المرأة السامرية التي وجد التلاميذ عند عودتهم من المدينة أن معلمهم يتكلم معها كان لديها ذلك الإيمان، وقد أفضت به صراحة لمخلصنا على الرغم من أنها سامرية ينكر اليهود أنها تنتسب إليهم هي وكل السامريين من عشيرتها. ثم بعد أن حان الوقت المحدد لتحقيق صحة ذلك الإيمان ولينتج ثمرته، ظهر يوحنا المعمدان كي يؤكد ويوطد ذلك الإيمان في نفوس اليهود، ويهيىء قلوبهم لاستقبال المسيح الذي ينتظرونه «لأن جميع الأنبياء وكتبة الشريعة حتى يوحنا قد تنبأوا» (متى ١١: ١٣). معلنا لهم إنه قد جاء بالفعل (يوحنا ١: ٢٦ و٢٩– ٣٦). ومن ثم أصبحت تلك القلوب مهيأة لقبول الإيمان الكامل ولا تحتاج إلا لمن يدفعها إليه، كما يحتاج محصول الزرع حين ينضج ويبيضّ إلى الحاصد ليحصده، وإلا يسقط على الأرض ويتلف. وكما شبَّه مخلصنا الأنبياء السابقين بأنهم الزارعون، شبه تلاميذه بأنهم الحاصدون، لأن مهمتهم كانت هي أن يجمعوا المؤمنين كما يجمع الحاصد المحصول بعد نضجه. ولم تكن مهمة التلاميذ هذه بغير أجر. لأن الحاصد من حقه أن يأخذ الأجرة عن عمله (متى ١٠: ١٠)؛ (١. كورنثوس ٩: ٧)؛ (١. تيموثيئوس ٥: ١٨)؛ (التثنية ٢٥: ٤)، لأنه يجمع الثمار التي هي نفوس المؤمنين للحياة الأبدية، كما يجمع حاصد الزرع الثمار ليضعها في الأمكنة التي أعدت لها، فيفرح بذلك الزارعون الذين هم الأنبياء السابقون الذين زرعوا الإيمان بنبوءاتهم، فجاء ذلك الإيمان أخيراً بثماره، كما يفرح بذلك الحاصدون الذين هم التلاميذ الذين جمعوا نفوس المؤمنين بعد أن اكتمل إيمانهم. بيد أن في هذا يصدق القول: «إن واحداً يزرع وآخر يحصد». أي أن البعض يزرعون ولكنهم لا يرون ثمار مازرعوا، لأن تلك الثمار تجيء بعد موتهم، في حين أن البعض الآخر يحصدون مالم يتعبوا في زراعته ورعايته. وهذا ما ينطبق على التلاميذ، لأن معلمهم أرسلهم ليحصدوا مالم يتعبوا في زراعته، إذ أن الذين تعبوا في ذلك هم الأنبياء الذين جاءوا قبلهم. ثم جاء التلاميذ ليجنوا ثمرة ما تعب في زراعته أولئك الأنبياء.

ولعل من المفارقات التي تدل على الحكمة الإلهية أن المرأة السامرية التي لم تكن من تلاميذ مخلصنا، وإنما كانت تنتسب إلى شعب يعدّه اليهود كافراً وملعوناً من الله مصيره إلى الجحيم ثم إلى جهنم، أصبحت من أوائل الحاصدين الذين كلفهم مخلصنا بأن يجمعوا نفوس المؤمنين (متى ٩: ٣٧ و٣٨)؛ (لوقا ١٠: ٢)، إذ استطاعت أن تدفع للإيمان بالمسيح عدداً كبيراً من السامريين

المقيمين في المدينة التي ذهبت لتبشر به فيها، إذ طفقت تقول لهم عنه في حماس عظيم: «إنه قال لي كل ماكنت قد فعلته»، أي أنه يعلم الغيب. فهو إذن المسيح ابن الله الذي ظلوا طويلاً ينتظرونه، ومن ثم جاء السامريون إليه (قارن لوقا ٩: ٥٢- ٥٦)؛ (الأعمال ٨: ٢٥). ورجوه أن يمكث عندهم ليتحققوا من صحة ماقالته تلك المرأة لهم عنه. وعلى الرغم من أن اليهود كانوا لا يخالطون أولئك السامريين وإنما يبتعدون كل الابتعاد عنهم، بحسبانهم أشراراً نجسين ملعونين، فقد قبل مخلصنا بكل سماحة دعوتهم، بل لقد مكث يومين كاملين معهم وفي بيوتهم، لأنه جاء لخلاص البشر جميعاً وليس اليهود وحدهم، ولأنه جاء ـ كما قال هو نفسه ـ ليدعو إلى التوبة، لا الأبرار، وإنما الخطاة، إذ «لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب، بل المرضى،... «لأني ما جئت لأدعو أبراراً بل خطاة إلى التوبة» (متى ٩: ١٢ و١٣)؛ (مرقس ٢: ١٧)؛ (لوقا ٥: ٣١ و٣٢). وفعلاً كان من نتيجة إقامته تلك بين السامريين أن كثيرين آخرين منهم إذ سمعوا كلماته السامية وتعاليمه السماوية آمنوا به، وجعلوا يقولون للمرأة التي بشرتهم به: «إننا الآن نؤمن، لا بسبب كلامك. وإنما لأننا سمعناه بأنفسنا. وقد علمنا أن هذا هو حقًا المسيح مخلص العالم». وهكذا آمن به واعترف بحقيقة شخصيته أولئك المغضوب عليهم والمحتقرون من سائر اليهود (يوحنا ٨: ٤٨)، حتى قبل أن يكتمل إيمان تلاميذه أنفسهم به، أو يدركوا كل الإدراك حقيقة شخصيته، مع أن أولئك السامريين لم يكونوا قد سمعوا شهادة يوحنا المعمدان عنه، كما سمعها بعض تلاميذه، بأنه هو المسيح ابن الله مخلص العالم.

٤: ٤٢- ٤٥

كثيرون من السامريين يؤمنون بالسيد المسيح:

وبعد أن أمضى مخلصنا يومين في المدينة السامرية وآمن به كثيرون من أهلها خرج من هناك ومضى إلى منطقة الجليل (متى ٢: ٢٢)؛ (٣: ١٣)؛ (٤: ١٢ و١٥ و٢٥) التي أمضى سنوات كثيرة من حياته السابقة على الأرض في «الناصرة» إحدى مدنها (متى ٢: ٢٣)؛ (٤: ١٣). وكان هو نفسه قد شهد بأنه لا كرامة لنبي في وطنه (متى ١٣: ٥٧)؛ (مرقس ٦: ٤)؛ (لوقا ٤: ٢٤)؛ (يوحنا ٤: ٤٤). وذلك لأن أهل أي بلد تتملكهم الغيرة من أي شخص ينشأ بينهم كواحد منهم، ثم ينال بين الناس إكراماً ومجداً بسبب ما يبدي من أسباب العظمة والسمو، فيحقدون عليهم ويحاولون الغض من شأنه والتنكر له وإنكار ما استحقه في البلاد الأخرى من كرامة وتكريم. ومع ذلك فإن مخلصنا حين مضى إلى الجليل وجعل يطوف بين مدنها فيما عدا الناصرة، مواصلاً التعليم وصنع المعجزات استقبله الجليليون استقبالا حافلاً بمظاهر الحفاوة

والتعظيم، وآمنوا به (يوحنا ٢ : ٢٣)؛ (٣ : ٢). لأنهم كانوا قد رأوا كل ماصنعه في أورشليم في عيد الفصح، إذ أنهم هم أيضاً كانوا قد ذهبوا إلى هناك للاحتفال بذلك العيد الذي كان واجباً على اليهود جميعاً في كل أنحاء بلادهم أن يحتفلوا به في هيكل أورشليم دون سواه، حيث يقدمون ذبائحهم وقرابينهم وعطاياهم التي نصت عليها الشريعة اليهودية. (التثنية ١٦ : ١٦)؛ (الخروج ٢٣ : ١٤، ١٧)؛ (٣٤ : ٢٣).

٤ : ٤٦ - ٥٤

معجزة شفاء ابن أحد رجال الحاشية الملكية:

وكان من أوائل المدن التي جاء إليها فادينا في تجواله في أنحاء منطقة الجليل، مدينة «قانا الجليل» (يوحنا ٢١ : ٢)، حيث كان قد صنع معجزة تحويل الماء إلى خمر (يوحنا ٢ : ١- ١١). وإذ كانت هذه المعجزة قد ذاع أمرها في تلك المدينة، كما ذاعت فيها بعض المعجزات الأخرى التي صنعها مخلصنا في غيرها من الأماكن، ولا سيما في أورشليم. وقد سمع بهذه المعجزات أحد رجال حاشية الملك هيرودس أنتيباس ملك الجليل، وكان له ابن مريض في كفر ناحوم (متى ٤ : ١٣)؛ (٨ : ٥)؛ (١١ : ٢٣)؛ (١٧ : ٢٤)؛ فما إن سمع أن مخلصنا جاء من إقليم اليهودية إلى قانا الجليل حتى انطلق إليه على الرغم من أن كفر ناحوم كانت تبعد عن هذه المدينة نحو خمسة عشر ميلاً (مرقس ١ : ٢١)؛ (٢ : ١)؛ (٩ : ٣٣). وقد قطع هذه المسافة الطويلة من فرط ثقته بأن مخلصنا قادر على شفاء ابنه المريض، فلما وصل إلى حيث كان مخلصنا توسل إليه في تواضع ومذلة على الرغم من أنه كان ذا مركز رفيع في البلاط الملكي، متناسياً أمام ذلك الشخص الإلهي كل عجرفته وعنجهيته المعروفتين عن حاشية الملوك، ضارعاً إليه أن يجيء ويشفي ابنه، إذ كان مشرفاً على الموت، فقال له فادينا «مالم تروا آيات وعجائب لا تؤمنون» (١ . كورنثوس ١ : ٢٢)، وهي عبارة تنطوي على التوبيخ لذلك الجيل كله من اليهود الذين كانوا ينتظرون مجيء المسيح ابن الله منذ مئات السنين، ويعلمون من نبوءات أنبيائهم موعد مجيئه بالتحديد، لم يكن يكفيهم مع ذلك ليؤمنوا به أن يسمعوا تعاليمه السامية السماوية التي تدل على حقيقة شخصيته والتي لا يمكن أن تصدر إلا عن الحكمة الإلهية وحدها، وإنما كانوا يطلبون كي يؤمنوا أن يروا معجزات وغرائب تفوق إدراك العقل البشري، ليكتشفوا بواسطتها أنه ليس إنساناً عادياً من أهل الأرض، وإنما هو المسيح الذي ينتظرونه، وأنه ذات إلهية نزلت من السماء. بيد أن ذلك الذي كان صاحب وظيفة عظيمة لدى الملك الجبّار هيرودس احتمل هذا التوبيخ في إنكسار أمام هيبة فادينا. ورفعه إيمانه الراسخ بقدرته على شفاء إبنه الذي

اشتدت عليه العلة حتى يكاد يلفظ أنفاسه الأخيرة، والذى لابد أنه عرَضه قبل ذلك على أطباء كثيرين فأخفقوا فى إنقاذه من مرضه الخطير، فعاد يتضرع إلى فادينا قائلاً له فى لهفة: «هيا ياسيدى قبل أن يموت ابنى». ولم يكن يخطر ببال هذا الرجل أن فى مقدور مخلصنا أن يشفى ابنه المريض إلا إذا ذهب إليه حيث يرقد ويفحصه كأى طبيب بشرى كى يشفيه (يوحنا ١١: ٢١ و٣٢). بيد أن مخلصنا فاجأ ذلك الرجل بمعجزة أكبر وأعجب لم يكن يتوقعها أو يتصورها، إذ شفى ابنه بكلمة منه وهو فى مكانه على بعد نحو خمسة عشر ميلاً من الموضع الذى يرقد فيه ابنه، إذ قال له «اذهب. إن ابنك حى». فوثق الرجل على الفور بالكلمة التى قالها له مخلصنا من فرط إيمانه بقدرته الإلهية. وذهب إلى حيث ابنه كان فى كفر ناحوم (لوقا ٤: ٢٣ و٣١)؛ (٧: ١)؛ (١٠: ١٥). وفيما هو ذاهب قابله خدمه فى الطريق وبشروه قائلين «إن ابنك حى» فاستفسر منهم عن الساعة التى بدأ فيها يسترد صحته. فقالوا له «بالأمس فى الساعة السابعة زالت عنه الحمى»، فأدرك أبوه أنها هى تلك الساعة ذاتها التى قال له مخلصنا فيها «إن ابنك حى». وآمن هو وكل أهل بيته بفادينا الحبيب. ويعتقد البعض أن ذلك الرجل هو «خوزى» وكيل الملك هيرودس الذى ذكره القديس لوقا فى بشارته (لوقا ٨: ٣). فى حين يعتقد آخرون أنه هو «مناين» الذى جاء فى سفر أعمال الرسل أنه تربى مع ذلك الملك (الأعمال ١٣: ١). وقد كانت هذه هى المعجزة الثانية التى صنعها مخلصنا فى «قانا الجليل» بعد عودته من اليهودية، إذ كانت معجزته الأولى التى صنعها فى تلك المدينة هى معجزة تحويل الماء إلى خمر.

الفصل الخامس

٥ : ١ – ١٦

شفاء مريض بركة بيت حسدا فى يوم سبت:

وبعد هذا كان عيد اليهود، وهو عيد الفصح (اللاويين ٢٣ : ٥)؛ (التثنية ١٦ : ١)؛ (يوحنا ٢ : ١٣)، فصعد مخلصنا إلى أورشليم للاحتفال بذلك العيد كعادته كل عام (لوقا ٢ : ٤١ و٤٢). لأنه كان يلتزم بعادات اليهود كواحد منهم (الخروج ٢٣ : ٢٥)، وقد كان من عادة اليهود أن يحتفلوا بعيد الفصح فى أورشليم، حيث يقيمون الطقوس الخاصة به فى هيكلها، ويقدموه فيه ذبائحهم وكل ما فرضته الشريعة اليهودية عليهم أن يقدمون بهذه المناسبة (التثنية ١٦ : ١). كما أن تجمُّع اليهود فى أورشليم فى ذلك العيد كان فرصة طيبة لفادينا كى يجاهر بتعاليمه السماوية، ويصنع معجزاته الإلهية بينهم، فيؤمنوا بأنه هو المسيح الذى ينتظرونه.

وكان عند أحد أبواب أورشليم المسمى «باب الضأن» (نحميا ٣ : ١ و٣٢)؛ (١٢ : ٣٩)، حظيرة بالقرب منه يباع فيها الضأن وهو الخراف التى كان اليهود يقدمونها ذبيحة فى عيد الفصح. وكان هذا الباب هو أقرب الأبواب إلى هيكل أورشليم الذى يقدمون فيه ذبائحهم. وكانت عنده بركة يسمونها بالعبرانية «بيت حسدا»، وهى بركة قديمة من المرجح أنها هى المذكورة فى نبوءات إشعياء النبى باسم «البركة العتيقة» (إشعياء ٢٢ : ١١).

وكان اليهود يستخدمونها للاغتسال من الأدناس الطقسية التى وردت فى أسفارهم، ولذلك بنوا حولها خمسة أروقة. أى دهاليز مسقوفة، لخلع الملابس قبل الاغتسال، ثم إرتدائها بعد ذلك. ثم حدثت فيها ظاهرة رتبها الله لشفاء المرضى، مما جعل اليهود يضطجعون فى تلك الأروقة طلباً للشفاء من أمراضهم. فكان منطرحاً فيها حشد كبير من المرضى، من العمى والعرج والمصابين بالكساح، منتظرين وقوع تلك الظاهرة الإلهية وهى تحريك الماء، لأن ملاكاً كان ينزل من وقت لآخر إلى البركة ويحرك ماءها. فكان أول من ينزل عند تحريك الماء يبرأ من كل مرض يعتريه. وقد كانت هذه الظاهرة علامة على إقتراب موعد ظهور المسيح ابن الله الذى كان اليهود ينتظرونه، والذى كان هو القادر وحده على شفاء كل مرض مهما كان خطره أو كانت خطورته، أو كان استعصاؤه على الشفاء. وكان اقتصار الشفاء فى حالة تحريك الملاك للماء على منْ يلقى بنفسه فيه أولاً من المرضى علامة على أن الذى يبادر إلى الإيمان بالمسيح عندما يجىء هو الذى يفوز بالخلاص. كما أن عدم شفاء المرضى الآخرين الذين يلقون بأنفسهم فى البركة بعده، علامة على إمتحان الله لمدى تلهف الناس على مجىء المسيح لخلاصهم ومقدار صبرهم فى إنتظار هذا الخلاص.

وكان هناك بين المنطرحين حول هذه البركة عندما مرَّ بها مخلصنا رجل عليل منذ ثمان وثلاثين سنة. ويبدو أنه كان مصاباً بالفالج أو الكساح. فلما رآه مخلصنا مضطجعاً، وإذ كان يعلم على مقتضى علمه الإلهي أن له زماناً طويلاً هكذا، قال له «أتريد أن تبرأ» . وقد كان مخلصنا يعلم بالطبع أنه يريد أن يبرأ ولكنه أراد أن يبدى إهتمامه به وعطفه عليه، كما أراد أن يثير انتباهه إلى المعجزة التى سيصنعها له. ومع أنه يبدو حسب الظاهر أن سؤال فادينا له المجد لا محل له، بالنسبة لإنسان مريض منذ ثمانية وثلاثين عاماً، وقد أتى بالفعل وانطرح مضطجعا بالقرب من البركة، مما يظهر معه أنه راغب فى الشفاء. لكن مما لا شك فيه أن مخلصنا لم يسأل هذا السؤال عبثاً: «هل تريد أن تبرأ؟» بيد أن السؤال كان لابد منه إحتراما لإرادة الرجل. فعطايا الله ومواهبه لا تمنح من غير إرادة الإنسانِ ورغبته، وهذا برهان على حرية الإرادة فى الأفعال الأدبية من خير وشر، وأن الإنسان مناطُ أمره بيده، وأنه لا يقسر على شيء بالرغم منه. حتى أمر الشفاء من المرض وبالتالى الشفاء من الخطيئة. ثم إن سؤال مخلصنا له المجد ربما كان مقصوداً على أنه موجه إلى عمق أعماق الرجل: إذا كان حقا يريد أن يشفى، وبالتالى إذا كان مستعداً أن يمنع نفسه عن الخطيئة التى سببت له هذا المرض، وهو الثمن الذى لابد أن يدفعه فى مقابل شفائه، بدليل قول مخلصنا بعد أن شفاه: «ها أنت ذا قد برئت. فلا تعد إلى الخطيئة لئلا يصيبك ماهو أسوأ» . وإلا فإنه قد يكون هذا العليل يريد الشفاء لجسده حتى يصير قادراً على أن يعود إلى الخطيئة التى أصبح عاجزا عنها بعجز جسده، فيعود إليها من جديد. وعلى كل حال فإن هناك من المرضى من لايريد حقاً الشفاء لنفسه لأنه يعلم أن الشفاء يكلفه التوبة التى لا يريدها. وقد كان هذا الرجل فيما يبدو من هذا الطراز، لأنه على مايخبرنا البابا كيرلس عمود الإيمان نقلاً عن يوحنا الرسول، أن هذا الرجل قد عاد إلى الخطيئة فعلاً.

وعلى أى حال فإن العليل أجاب عن سؤال مخلصنا قائلاً: «يا سيد ليس لى من يلقى بى فى البركة متى تحرك الماء. ففيما أنا أهمُّ بالنزول يسبقنى آخر» . ويبدو من هذه العبارة المريرة مدى أنانية الناس، فإن كلاً منهم لا يفكر إلا فى نفسه، ولايريد إلا أن يبرأ هو وحده من علته وإن كان يعلم أن كثيرين غيره يعانون أكثر مما يعانى، وأن زمان مرض كثيرين غيره قد امتد أكثر كثيراً مما امتد زمان مرضه هو. بل إن الأصحاء الذين لا يكابدون أى مرض يحجمون عن مساعدة المريض ليعينوه على الشفاء من مرضه، إذ يقول ذلك الرجل المسكين لمعلمنا: «ليس من يلقى بى فى البركة متى تحرك الماء» أى أنه قد هجره الجميع فلم يعد له صديق ولا معين. وقد يدل هذا من ناحية أخرى على أن هذا الرجل كان مكروها لشره وفظاظته، فإنه من غير المألوف أن يفقد الإنسان محبة كل الناس بحيث لا يبقى له صديق أو قريب، مالم يكن إنسانا

يستحق كراهية الناس له وإبتعادهم عنه. وهنا نلمس الفارق الضخم بين هذا العليل وبين المفلوج الذى حمله أحباؤه وجاءوا به إلى مخلصنا فلما وجدوا الزحام حوله يحول دون الوصول إليه صعدوا بالمفلوج إلى السقف ونقبوه ثم أنزلوه بفراشه الذى كان راقداً عليه إلى حيث كان مخلصنا (مرقس ٢: ١ – ١٢)؛ (لوقا ٥: ١٧ – ٢٦). ولا ريب أن عدم إهتمام الناس بذلك العليل الراقد بجوار البركة كان عاملاً من العوامل التى جعلت مخلصنا يؤثره بإهتمامه دون غيره من المرضى الآخرين المضطجعين حول البركة، ومن ثم قال له: «قم احمل فراشك وامشِ». ففى الحال برىء الرجل وحمل فراشه ومشى. فكانت هذه الكلمة من فادينا الحبيب تنطوى على أمر للمريض المزمن بأن ينصرف على الفور، بحيث يستعيد الرجل كل قوته، ويبلغ من قدرته لا أن يقوم من رقدته الطويلة ويمشى فحسب، وإنما كذلك أن يقوى على حمل فراشه كأى إنسان صحيح الجسم لا يعانى أى مرض أو ضعف، مع أنه كان ولا شك قد تقدمت به السن بعد مرضه كل تلك السنين الطوال المليئة بالأوجاع والأهوال. وهنا نلاحظ أن مخلصنا له المجد لم يتضرع كما يتضرع الأنبياء. فهو لم يطلب قوة من خارج ذاته. وإنما شفى المريض بأن أصدر إليه الأمر بالشفاء من دون صلاة، مما يدل على سلطان لاهوته. وقد صنع مخلصنا ذلك مراراً فى كل المعجزات التى أجراها (متى ٩: ٥ و٦). (مرقس ٢: ٩ و١١)؛ (لوقا ٥: ٢٣ و٢٤).

ولعل تفاهة عقلية اليهود وسفاهة فهمهم لشريعتهم، وخبث طبعهم ومكر طبيعتهم. وكل ما اجتمع لهم من صفات شريرة وحقيرة، لا يبدو كما بدا فى حديثهم عن هذه المعجزة التى صنعها مخلصنا الصالح. إذ أنهم حين رأوا ذلك الرجل المنطرح مشلولاً مايقارب أربعين عاماً، لم يسألوه عمن صنع له تلك المعجزة التى تعلو على مدارك البشر فأبرأه، وإنما إذ كان اليوم سبتاً، وإذ رأوه يحمل فراشه، قالوا له «إن اليوم سبت، فلا يحل لك أن تحمل فراشك»، وهذا تمشياً مع الفهم الحرفى لما أمرت به الشريعة (الخروج ٢٠: ١٠)؛ (نحميا ١٣: ١٩)؛ (إرميا ١٧ – ٢٧). ولابد أن الرجل قد أذهله تفكيرهم اللئيم، ومنطقهم السقيم، بعد أن رأوا معجزة شفائه، فلم يبالوا بها، على الرغم من غرابتها التى تفوق كل حد، وإنما إتجه كل همهم إلى لومه على أمر شكلى تافه يدل على سوء فهمهم لمقاصد شريعتهم، لأنه كما قال مخلصنا «إنما جعل السبت لأجل الإنسان لا الإنسان لأجل السبت» (مرقس ٢: ٢٧). فأجابهم الرجل بتفكير سليم ومنطق قويم أفحمهم به وألجمهم، إذ قال لهم: «إن الذى أبرأنى هو الذى قال لى: احمل فراشك وامشِ»، أى أن الذى صنع له هذه المعجزة الباهرة المبهرة لابد أنه يملك من القوة القادرة القاهرة أكثر بكثير مما لشريعة حفظ السبت. وكأنما كان يعرف ماقرره مخلصنا فى مثل هذه المناسبة إذ قال إن «ابن الإنسان هو رب السبت» (مرقس ٢: ٢٨)؛ (متى ١٢: ٨)؛ (لوقا ٦: ٥).

وإذ تخاذل اليهود أمام هذه الإجابة السديدة سألوه في غيظ: «من هو الرجل الذي قال لك احمل فراشك وامش؟». ولكن الذي برىء لم يكن يعلم من هو لأن السيد المسيح له المجد بعد أن شفاه لم يكشف له عن شخصيته، وإنما تركه واختفى، حيث كان ذلك المكان مزدحماً بالناس، لأنه لم يكن يريد لحكمة ارتآها أن يعلن عن شخصيته في هذا الزحام فيختلف الناس في أمره، ويحدث بينهم شقاق وشغب لم يكن يريده أن يحدث، تاركاً المعجزة التي صنعها للرجل الكسيح تتحدث عن نفسها.

بيد أن مخلصنا بعد ذلك وجد الرجل في الهيكل - ولابد أنه بمجرد شفائه ذهب ليقدم الشكر هناك لله - فقال له: «ها أنت ذا قد برئت. فلا تعد إلى الخطيئة لئلا يصيبك ماهو أسوأ». ويدل ذلك على أن المرض الطويل الذي عاناه ذلك الرجل إنما كان قصاصاً له من الله على خطيئة ارتكبها. ومن ثم حذره من أنه إذا عاد إلى ارتكاب الخطيئة فسيصيبه من الشر أسوأ مما سبق أن أصابه. فلم يعد له عذر إذا أخطأ مرة أخرى. ويكون من العدل الإلهي عندئذ عقابه بمرض أشد وأقسى في هذه الحياة الدنيا أو بهلاكه في يوم الدينونة. وفعلاً لقد عاد هذا الرجل إلى الخطيئة من جديد. وكان هو الرجل الذي قاد مظاهرة لمنع دفن العذراء مريم بعد وفاتها، وأمسك بالتابوت، فضربه رئيس الملائكة ميخائيل بسيفه، فانفصلت يداه من جسمه، على ما روى البابا كيرلس الأول عمود الإيمان نقلاً عن القديس يوحنا الرسول. وإذ علم هذا الرجل أن مخلصنا بعد هذا الذي قاله له هو الذي شفاه، مضى وقال لليهود إن يسوع هو الذي أبرأه. غير أن اليهود أوغلوا في تفاهتهم وسفاهتهم وخبثهم ومكرهم وشرهم، فلم يمجدوا ذلك الشخص الإلهي الذي صنع تلك المعجزة التي لا يقدر أن يصنعها إلا الله وحده، بل على العكس أخذوا يطاردونه ويسعون إلى قتله، لا لسبب إلا لأنه صنع تلك المعجزة في السبت. بيد أن هذا لم يكن السبب الحقيقي لما أرادوا أن يفعلوه به، وإنما كان السبب غيرتهم العمياء وحقدهم الأسود عليه، بعد أن رأوا ما ناله من مجد وكرامة وتكريم لدى الذين آمنوا.

٥ : ١٧ - ٣٠

تبرير المسيح نفسه بشهادة الآب له:

وهنا ثارت مناقشة محتدمة بين مخلصنا وبين اليهود، إذ كان له المجد هدفاً دائماً لمناوأة طوائف كثيرة منهم، ولا سيما رؤساء الكهنة والكتبة والفريسيين والصدوقيين المتفقهين في الشريعة اليهودية، الذين كانوا لا يفتأون متربصين له، ليتصيدوا منه كلمة يثبتون بها أنه ليس المسيح المنتظر، ليحولوا دون إيمان الناس به، أو ليدفعوه إلى قول يتهمونه فيه بارتكاب مخالفة

للشريعة تستوجب الحكم عليه بالموت، أو يتهمونه فيه بالتمرد على الرومان الذين يحكمونهم، فيكون ذلك ذريعة للحكم عليه بالموت كذلك. إذ كان هدفهم الدائم وغايتهم الوحيدة أن يقضوا عليه ويتخلصوا منه، لأنه كان يندد بشرورهم ويهدد مكانتهم فى المجتمع اليهودى، إذ يفضح رياءهم وتماديهم فى كبريائهم وغرورهم، واتخاذهم الدين ستاراً للاستمتاع بالدنيا واستعباد الناس واستغلالهم وابتزاز أموالهم وإخضاعهم لجورهم وفجورهم. فكانوا لا ينقطعون عن مراقبته والتجسس عليه وتوجيه أسئلة إليه يتضمن كل سؤال منها فخا يريدون أن يقتنصوه به. وقد أعدوه له بكل مافى طبيعتهم من خبث ومكر ودهاء. وبكل مافى طاقتهم من علم بالشريعة وأسرارها وخفاياها. ومن قدرة على المحاورة والمناورة والخديعة والالتواء. وقد كانوا يفاجئونه بتلك الأسئلة ليأخذوه على غرّة، وليدفعوه لأن يجيبهم دون تفكير أو تحضير أو حيطة أو حذر، عسى أن يخطىء الخطأ القاتل الذى يريدونه له. ولكن السيد المسيح كان ينطق فى الإجابة عن أسئلتهم على الفور. فسرعان ما يفحمهم بالحجة القوية ويلجمهم بالمنطق الدقيق العميق، متخذاً من السلاح الذى يوجهونه إليه سلاحاً ضدهم. وإذ كانوا يتشدقون بمعرفتهم بالشريعة ويحاولون أن يوقعوه فى أحابيلها، فسرعان ماكان يأتيهم بالحجة التى تبطل كيدهم من شريعتهم ذاتها، فهى حاضرة دائماً بين شفتيه، لا يحتاج فى الاستشهاد بها إلى وقت ليتذكرها، أو إلى بحث ليعثر عليها. فكانوا يقفون أمامه مدحورين مقهورين مبهورين. ثم لا يلبثون أن ينصرفوا عنه خجلين متخاذلين. ونجد مثالاً من كل ذلك فى هذا الفصل وفى الفصول التالية من بشارة القديس يوحنا، إذ كان أغلب تلك الفصول حواراً محتدماً مضطرماً بينه وبين اليهود، لا يلبث أن يهدر فيه حجتهم ويقهر حقدهم وسوء نيتهم وسواد قلوبهم.

ومن ذلك ما حدث بعد أن صنع فادينا له المجد معجزة شفاء الكسيح عند بركة بيت حسدا، إذ رأينا أن اليهود حين علموا بأنه هو الذى صنع هذه المعجزة أخذوا يطاردونه ويسعون إلى قتله، زاعمين أنهم يريدون أن يفعلوا به ذلك لأنه صنع معجزته تلك فى السبت. ويبدو أنهم قدموه من أجل هذه التهمة إلى مجلسهم الأعلى وهو السنهدريم ليحاكمه ويحكم عليه بالموت وفقاً للشريعة اليهودية التى تقضى بقتل من يكسر السبت بأن يقوم فيه بأى عمل.

ولم تكن هذه هى المرة الوحيدة التى اعترض فيها اليهود على مخلصنا لأنه شفى مريضاً فى يوم سبت، وعدّوه لذلك ناقضاً لشريعة السبت، فقد اعترضوا عليه أيضاً لأنه أبرأ رجلاً ذات يد يابسة فى يوم سبت. «فخرج الفريسيون على الفور وتآمروا ضده مع الهيرودسيين كى يهلكوه» (مرقس ٣ : ١ – ٦)؛ (متى ١٢ : ٩ – ١٤). بل يقول الإنجيل للقديس لوقا «ومن ثم جن جنونهم، وراحوا يتشاورون فيما بينهم ماذا يفعلون بيسوع» (لوقا ٦ : ٦ – ١١).

واعترضوا عليه لأنه شفى في يوم سبت امرأة كان قد استولى عليها روح أصابها بمرض منذ ثمانية عشر عاماً، فكانت منحنية ولم تكن لتستطيع أن تنتصب البتة، فوضع يديه عليها، ففى الحال انتصبت...» (لوقا ١٣: ١٠ – ١٧).

واعترضوا عليه لأنه شفى في يوم سبت رجلاً مصاباً بداء الاستقساء (لوقا ١٤: ١ – ٦).

واعترضوا عليه لأنه شفى في يوم سبت المولود أعمى.. «فقال قوم من الفريسيين: إن هذا الإنسان ليس من الله لأنه لا يحفظ السبت» (يوحنا ٩: ١٤ – ١٦).

وكان مخلصنا دائماً يرد على إعتراضاتهم مصححاً لهم سوء فهمهم لمقاصد الشريعة، بأنه «يحل فعل الخير في السبت» (متى ١٢: ١٢)؛ (مرقس ٣: ٤). وبالتالى «يحل الإبراء فى السبوت» (متى ١٢: ١٠)؛ (لوقا ١٤: ٣). وقال يوبخهم على غلظة قلوبهم. «إن كان لأى منكم شاة واحدة وسقطت فى حفرة فى السبت، أفلا يمسك بها ويخرجها. فكم هو الإنسان أفضل من الشاة؟». (متى ١٢: ١١ و١٢). كما قال: «أيها المراؤون ألا يحل كل منكم فى يوم السبت ثوره أو حماره من المزود ويمضى به فيسقيه؟» (لوقا ٦: ١٥). وقال «من منكم يسقط حماره أو ثوره فى بئر فلا يسارع إلى إنتشاله في يوم السبت؟» (لوقا ١٤: ٥).

وقال أيضاً يوبخهم على ما يقعون فيه هم أنفسهم من تناقض «وأنتم تختنون الإنسان فى السبت. فإن كان الإنسان يختن فى السبت لئلا تُنقَض شريعة موسى، أفتسخطون عليّ لأننى شفيت إنساناً بأكمله فى السبت؟. لا تحكموا حسب الظاهر، وإنما احكموا بالحق» (يوحنا ٧: ٢٣ و٢٤).

وإذ وجه أعضاء السنهدريم هذه التهم إلى مخلصنا أجابهم قائلاً: «إن أبى حتى الآن يعمل، وأنا أيضاً أعمل». أي أن الله أباه السماوى له السلطان أن يقضى بما ينبغى عمله وما لا ينبغى عمله فى السبت، لأنه هو رب السبت. ولما كان مخلصنا هو ابن الله، فإنه له نفس السلطان، ومن ثم هو أيضاً رب السبت. وقد سبق له أن قرر ذلك صراحة، إذ قال «إن ابن الإنسان هو رب السبت» (متى ١٢: ٨)؛ (مرقس ٢: ٢٨). وبهذه العبارة التى قالها له المجد أمام رؤساء اليهود أكد أنه هو ابن الله الآب، وأنه يعمل مع الآب لأنه فى وحدة كاملة معه. فإذا كان الله الآب هو الذى قرر فى شريعة العهد القديم أن يكون السبت يوم راحة، لا يصح فيه القيام بأى عمل (الخروج ٢٠: ٨)؛ (٣١: ١٣) فإن له السلطان أيضاً أن يقرر الأعمال التى يصح القيام بها فى ذلك اليوم إن كانت هذه الأعمال تستوجبها الضرورة أو الرحمة أو الخير (متى ١٢: ١٢)؛ (مرقس ٣: ٤)؛ (لوقا ٦: ٩)، أو أى إعتبار آخر ينطوى على تمجيد الله والعمل بمشيئته، على مقتضى إرادته وحكمته. ولما كان مخلصنا هو ابن الله وله نفس سلطانه فمن حقه أن يفعل نفس

الشيء، لأنه كما أن الله خلق كل الأشياء بالمسيح (يوحنا ١ : ٣)؛ (أفسس ٣ : ٩)؛ (كولوسي ١ : ١٦)؛ (العبرانيين ١ : ٢)؛ (الرؤيا ٤ : ١١)، فهو أيضاً يعمل كل الأشياء ويديرها به (العبرانيين ١ : ٣). ثم إن في قوله له المجد «إن أبي حتى الآن يعمل وأنا أيضاً أعمل» بياناً بأن الله تعالى لا يتوقف عن العمل. حقاً لقد قال الكتاب المقدس «وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل» (التكوين ٢ : ٢)؛ (الخروج ٢٠ : ١١)؛ (٣١ : ١٧)؛ (العبرانيين ٤ : ٤). بيد أن الفراغ من العمل ليس معناه التوقف عن العمل. إنه تعالى فرغ من عمل الخليقة الأولى، لكنه لا يتوقف عن العمل إطلاقاً. فالله الذي خلق الكون، لايزال يخلق بالقوانين التي سنّها للخليقة ولكل مخلوق منها، سواء المخلوقات الحيّة أو الجامدة. وهو تعالى حافظ الكون وليس خالقه فقط. فعنايته وتدبيره ورعايته مستمرة وإلى الأبد بغير توقف. ثم إنه تعالى هو الذي يحفظ لقوانين الطبيعة بقاءها واستمرارها وفعاليتها بغير توقف. هذا فضلاً عن تدبيره للكائنات العاقلة وتدخله المباشر وغير المباشر في حياة كل مخلوق، ورعايته له. وهو أيضاً ساهر لا ينام ليضمن للوجود بقاءه واستمراره، ويكفل لكل شيء في خليقته أن يسير في مساره المرسوم له بحسب طبيعته دون تصادم مع غيره، فهو تعالى الضابط للكون، وسيده، ولا يغفل عن سياسته وتدبيره، كلياً وجزئياً (انظر يوحنا ٩ : ٤)؛ (١٤ : ١٠).

وفي قول مخلصنا له المجد «إن أبي حتى الآن يعمل وأنا أيضاً أعمل» تمجيد للعمل، وتكريم له. فإذا كان الله يعمل، فمن شرف الإنسان المخلوق على صورة الله ومثاله أن يعمل، ولا يتوقف عن العمل. وعندما خلق الله الإنسان «وضعه في جنة عدن ليفلحها ويحفظها» (التكوين ٢ : ١٥). فالعمل كرامة الإنسان، ليكون على غرار خالقه، خالقاً صغيراً بما وهبه الله من إمكانات وإمكانيات يصقلها ويستثمرها. وقد أمر الله الإنسان منذ الابتداء قائلاً «املأوا الأرض وأخضعوها وتسلطوا على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى كل حيوان يدب على الأرض» (التكوين ١ : ٢٨). فهذا السلطان العظيم الذي أعطاه الله للإنسان كي يُخضع الأرض ويسود به على الطبيعة وعلى الخليقة معناه أن الله يتطلب من الإنسان أن يستثمر ما وهبه الله إياه من قدرات روحية وعقلية ومادية لكي يخضع الأرض وقوانينها لخيره وخير الوجود، حسب إرادة خالقه. وفي تمجيد العمل يقول القديس بولس الرسول «أنتم تعرفون كيف يجب أن يُتمثل بنا، لأننا لم نسلك بلا ترتيب بينكم، ولا أكلنا خبزاً مجاناً من أحد، بل كنا نشتغل بتعب وكد ليلاً ونهاراً لكي لا نثقل على أحد منكم.. لكي نعطيكم أنفسنا قدوة حتى تتمثلوا بنا. فإننا أيضاً حين كنا عندكم أوصيناكم بهذا، إنه إن كان أحد لايريد أن يعمل فلا ينبغي أن يأكل أيضاً» (٢. تسالونيكي ٣ : ٧ – ١٠). وقال أيضاً «أطلب إليكم أيها الإخوة.. أن تحرصوا على أن تكونوا

هادئين وتمارسوا أموركم الخاصة وتشتغلوا بأيديكم أنتم كما أوصيناكم» (١. تسالونيكي ٤: ١٠). ويقول أيضاً «لا يسرق السارق فيما بعد، بل بالحري يتعب عاملاً الصالح بيديه ليكون له أن يعطي من له إحتياج» (أفسس ٤: ٢٨).

وإذ قال مخلصنا «إن أبي حتى الآن يعمل وأنا أيضاً أعمل»، اشتدت رغبة اليهود في قتله، لأنه لم ينقض السبت فحسب، وإنما قال أيضاً إن «الله أبي» مساوياً نفسه بالله. وهذا يدل على أن اليهود فهموا من بنوة المسيح لله أنها ليست مجرد بنوة نسبية، إنما فهموا هذه البنوة على معناها الحقيقي الكامل، أي بمعنى أن المسيح هو «صورة الله الغير المنظور» (كولوسي ١: ١٥)؛ (٢. كورنثوس ٤: ٤)؛ (العبرانيين ١: ٣). وبعبارة أخرى أنه هو الله الغير المنظور وقد صار منظوراً وأنه هو الله الظاهر في الجسد. لذلك أرادوا قتله، لأنه بهذه الدعوى جعل نفسه مساوياً لله (يوحنا ١٠: ٣٣). ولقد أكد السيد المسيح له المجد مساواته لله الآب إذ قال «أنا وأبي نحن معاً واحد» (يوحنا ١٠: ٣٠) وجاء في رسالة بولس الرسول إلى فيلبي «المسيح يسوع الذي إذ هو في صورة الله لم يكن يعتد مساواته لله اختلاساً» (فيلبي ٢: ٦) ومن ثم أضاف مخلصنا بذلك إلى تهمته الأولى التي تستوجب الموت، وهي أنه نقض السبت، تهمة أخرى عدها اليهود أشنع وأبشع، وتستوجب الموت أكثر من الأولى، وهي أنه قال عن نفسه إنه ابن الله وإنه مساوٍ له ويملك نفس سلطانه وقوته ومجده. ولم تكن هذه هي المرة الوحيدة التي كان اليهود يبتغون فيها قتله، فقد سعوا كثيراً لأن يقتلوه (انظر متى ١٢: ١٤)؛ (٢٧: ١)؛ (مرقس ٣: ٦)؛ (لوقا ٦: ١١)؛ (يوحنا ٧: ١٩)؛ (١٠: ٣١ و٣٩)؛ (١١: ٥٣)؛ (الأعمال ٣: ١٣ و١٥).

فلما رأى مخلصنا غلظة قلوبهم وعمى أبصارهم وبصائرهم، وإصرارهم على قتله، بدلاً من أن يؤمنوا بما يقول، ولاسيما بعد ماسمعوا من تعاليمه السامية ومعجزاته الإلهية، استرسل في توضيح تلك الحقيقة التي قررها لهم عن علاقته بالله الآب، عسى أن يفتح بذلك مغاليق عقولهم، وقلوبهم، قائلاً لهم: «الحق الحق أقول لكم إن الابن لا يسعه أن يعمل من نفسه شيئاً، إلا مايرى الآب يعمله، لأن كل مايعمله الآب يعمله الابن أيضاً. فإن الآب يحب الابن، وهو يريه كل ما يعمل، وسيريه أعمالاً أعظم من هذه لتتعجبوا أنتم، لأنه كما أن الآب يقيم الموتى ويحييهم، هكذا الابن يحيي من يشاء، فإن الآب لا يدين أحداً وإنما سلم القضاء كله للابن، ليمجد الجميع الابن كما يمجدون الآب. ومن لا يمجد الابن، لا يمجد الآب الذي أرسله. الحق الحق أقول لكم إن من يسمع كلامي ويؤمن بالذي أرسلني له الحياة الأبدية، ولن يأتي إلى دينونة، وإنما ينتقل من الموت إلى الحياة. الحق الحق أقول لكم: إن ثمة ساعة تأتي، وقد أتت الآن، يسمع

فيها الموتى صوت ابن الله، والذين يسمعون يحيون. لأنه كما أن الآب له الحياة في ذاته، هكذا أعطى الابن أن تكون له الحياة في ذاته. وقد أعطاه السلطان أن يدين، لأنه ابن الإنسان. لا تعجبوا من هذا، فإنه تأتي ساعة يسمع فيها الذين في القبور صوته، فيخرج الذين عملوا الصالحات إلى قيامة الحياة، والذين عملوا السيئات إلى قيامة الدينونة، أنا وحدى لا أستطيع من نفسي أن أعمل شيئاً، وإنما حسبما أسمع أدين، ودينونتي عادلة، لأنني لا أبتغي مشيئتي، بل مشيئة الآب الذي أرسلني».

وفي هذه العبارات العظيمة الدلالة، العميقة المعنى، يوضح مخلصنا العلاقة التي تربطه بأبيه السماوي، باعتبار أنهما ذات إلهية واحدة، ولهما مشيئة واحدة. فما يريده الآب يريده الابن أيضاً وما يعمله الآب يعمله الابن أيضاً. والابن باعتباره الله الظاهر في الجسد، لا يسعه أن يعمل من نفسه شيئاً إلا مايرى الآب يعمله، أي أن عمل الابن بصفته الله المنظور، لا يمكن إلا أن يكون مطابقاً لعمل الآب، ومتفقاً معه، أي أن الابن لا ينفرد بعمل شيء دون أن يكون الآب يريده ويبتغيه، إذ أن إرادتهما واحدة، وهو يؤكد هذا المعنى كثيراً، ومن ذلك قوله: «أنا وحدى لا أستطيع من نفسي أن أعمل شيئاً» (يوحنا ٥: ٣٠) وقوله «إني لا أعمل شيئاً من نفسي وحدى وإنما أتكلم بما علمني أبي» (يوحنا ٨: ٢٨) وقوله «لأنني لم أتكلم من نفسي وحدى» (يوحنا ١٢: ٤٩) وقوله «إن الكلام الذي أكلمكم به لا أتكلم به من نفسي أنا وحدى» (يوحنا ١٤: ١٠). انظر أيضاً (يوحنا ٩: ٤).

إن السلطان الذي للابن هو نفسه السلطان الذي للآب، نظراً للوحدة الكاملة بينهما (متى ١١: ٢٧)؛ (٢٨: ١٨)؛ (لوقا ١٠: ٢٢)؛ (يوحنا ٣: ٣٥)؛ (١٧: ٢)؛ (١. كورنثوس ١٥: ٢٧)؛ (أفسس ١: ١٠ و٢١)؛ (فيلبي ٢: ٩ و١٠)؛ (العبرانيين ١: ٢)؛ (٢: ٨). والوحدة الكاملة بينهما تنطوي بالضرورة على المحبة الكاملة التي تربط بينهما (متى ٣: ١٧)؛ (١٢: ١٨)؛ (١٧: ٥)؛ (مرقس ١: ١١)؛ (٩: ٧)؛ (لوقا ٣: ٢٢)؛ (٩: ٣٥)؛ (يوحنا ٣: ٣٥)؛ (١٠: ١٧)؛ (أفسس ١: ٦)؛ (كولوسي ١: ١٣)؛ (٢. بطرس ١: ١٧). كما تنطوي الوحدة الكاملة بين الله الآب والله الابن على المشيئة الواحدة والإرادة الواحدة بينهما، متطابقة مطابقة تامة ومطلقة. ويترتب على ذلك أن كل ما يعمله الآب يراه الابن وباعتباره الله المتجسد يعمل بمقتضاه لأن إرادتهما واحدة ومشيئتهما واحدة ومقاصدهما واحدة. ووساطة الابن في مهمة الفداء التي أخذها على عاتقه، لا تنتقص ذرة واحدة من تلك الوحدة بين الآب والابن في الإرادة والمشيئة والمقاصد، لأنه حين اتخذ الابن جسداً بشرياً وحل في الأرض بين الناس كواحد منهم، ظل مع ذلك وفي نفس الوقت

في السماء، وقد سبق لمخلصنا أن قرر ذلك في حديثه مع نيقوديموس حين قال له «مامن أحد صعد إلى السماء إلا الذي نزل من السماء» (يوحنا ٣ : ١٣) . وهو - إن حل في الأرض - ظل مع ذلك وفي نفس الوقت «في حضن الآب»، إذ يقول الإنجيل للقديس يوحنا إن «الله لم يره أحد قط. الابن الوحيد الذي في حضن الآب هو الذي أخبر عنه» (يوحنا ١ : ١٨) . ولذلك فإن الابن وهو كائن في الأرض كان يعلم تمام العلم، ويرى أوضح الرؤية، كل ما يعمل الآب في السماء. ولما كان الابن واحداً مع الآب في الجوهر وفي اتحاد كامل معه، فإن «كل مايعمله الآب يعمله الابن أيضاً» وهو يعمله - وإن كان متخذاً جسد إنسان على الأرض - بنفس السلطان الذي للآب في السماء. فإذا قام الابن بعمل في السبت - وهو الاتهام الذي وجهه إليه اليهود - فإن ذلك داخل في سلطانه بنفس الدرجة التي هو داخل بها في سلطان الله الآب، بل إن الابن سيعمل - على مقتضى التوافق والمساواة والاتحاد بينه وبين الآب - أعمالاً أعظم من عمل الخير في السبت، إذ تقتضي الحكمة الإلهية ذلك، وأعظم من شفاء الرجل العليل عند بركة بيت حسدا وإصدار الأمر إليه بأن يحمل فراشه في ذلك اليوم، وستكون تلك الأعمال العظيمة مصدر عجب ودهشة لليهود، تفوق كل عجب ودهشة استولت عليهم قبل ذلك من أي معجزة صنعها مخلصنا. ولعله يشير إلى سلطانه المطلق في شفاء جميع الأمراض دون استثناء، وإخراج الأرواح النجسة بسلطان لاهوته دون أن يتضرع أو يصلي كما يفعل الأنبياء والرسل، وكيف ينتهر الريح والبحر، ويزجر الحمى، ويقيم الموتى بقدرته، دون أن يطلب شيئاً من هذا من كائن آخر خارج عن ذاته. وذلك لأنه سيقوم بما لا يمكن أن يقوم به إلا الله الآب وحده، إذ سيقيم الموتى ويعيدهم إلى الحياة «لأنه كما أن الآب يقيم الموتى ويحييهم هكذا الابن يحيي من يشاء». لقد أقام ابنة يايروس بسلطان لاهوته (مرقس ٥ : ٤١)؛ (لوقا ٨ : ٥٤) . وأقام ابن أرملة نايين بسلطان لاهوته (لوقا ٧ : ١٤) . وأقام لعازر بسلطان لاهوته (يوحنا ١١ : ٤٣) . وقال إنه يمنح الحياة، بل الحياة الأبدية، لكل من يؤمن به ويحفظ كلامه ويعمل به (يوحنا ٣ : ١٥ و١٦ و٣٦)؛ (٤ : ١٤)؛ (٦ : ٢٧ و٤٠ و٤٧ و٥٤)؛ (٨ : ٥١)؛ (١١ : ٢٥)؛ (٢٠ : ٣١)؛ (١ . يوحنا ٥ : ١١ و١٢) . وهذا أكبر دليل على أن سيدنا وفادينا له المجد هو ابن الله ويملك نفس السلطان الذي يملكه أبوه السماوي، فهو متحد به إتحاداً كاملاً. ومساوٍ له مساواة كاملة في جميع الصفات والكمالات الإلهية، كما أن من دلائل ذلك السلطان الذي يملكه مخلصنا بناء على اتحاده الكامل بالله الآب ومساواته الكاملة له، أن أباه قد سلم له القضاء كله في يوم الدينونة. فلن يكون الديان في ذلك اليوم هو الآب، وإنما سيكون هو الابن. وهذا وحده دليل كامل وكاف على ألوهية الابن الذي هو مخلصنا، مادام له كل هذا السلطان على كل البشر، إذ يملك في ذلك اليوم الرهيب المهيب أن يفصل بين الأخيار والأشرار،

فيمنح الأخيار الحياة الأبدية، وأما الأشرار فيقضى بهلاكهم الهلاك الأبدى (متى ٢٥: ٣١– ٤٦).

أما أن المسيح هو وحده الذى سيدين الأحياء والأموات فى اليوم المعين للدينونة، فهو ما نجده فى مواضع متفرقة من الكتاب المقدس: إذ يقول المسيح له المجد «ومتى جاء ابن الإنسان فى مجده، وكل الملائكة القديسين معه. يجلس عندئذ على عرش مجده، وتجتمع أمامه كل الشعوب، فيفرز بعضهم من بعض كما يفرز الراعى الخراف من الجداء، ثم يقيم الخراف عن يمينه وأما الجداء فعن يساره. حينئذ يقول الملك للذين عن يمينه تعالوا أيها المباركون من أبى لترثوا الملكوت.. ثم يقول أيضاً للأشرار الذين عن يساره: اذهبوا عنى ياملاعين إلى النار الأبدية المعدة لإبليس وملائكته...» (متى ٢٥: ٣١– ٤٦) وانظر أيضاً (متى ١٩: ٢٨). وجاء فى سفر أعمال الرسل «نحن (الرسل) الذين أكلنا وشربنا معه بعد قيامته من بين الأموات. وقد أوصانا أن نكرز للشعب، ونشهد بأنه هو الذى عينه الله دياناً للأحياء والأموات» (الأعمال ١٠: ٤١، ٤٢).. «لأنه قد عين يوما فيه مزمع أن يدين المسكونة بالعدل برجل قد عينه مقدماً للجميع إيمانا، إذ أقامه من بين الأموات» (الأعمال ١٧: ٣١). وجاء فى رسالة بولس الرسول إلى أهل روما قوله «اليوم الذى يدين الله فيه سرائر الناس بحسب إنجيلى بيسوع المسيح» (رومية ٢: ١٦)، وقوله «فإننا جميعاً سنقف أمام منبر المسيح» (رومية ١٤: ١٠). وفى رسالته الثانية إلى أهل كورنثوس يقول «لأننا جميعنا لابد من أن نظهر أمام منبر المسيح لينال كل واحد على حسب ماصنع بالجسد خيراً كان أم شراً» (٢. كورنثوس ٥: ١٠)، وفى رسالته الثانية إلى تيموثيئوس يقول «الرب يسوع المسيح سيدين الأحياء والأموات عند ظهوره وملكوته» (٢. تيموثيئوس ٤: ١).

وبسبب سلطان الدينونة هذا الذى لمخلصنا ابن الله، والذى ليس فوقه سلطان يتعين على الجميع أن يمجدوا الابن كما يمجدون الآب. ومن لا يمجد الابن لا يمجد الآب الذى أرسله إلى الأرض متخذاً جسد إنسان ليتمم عمل الفداء الذى دبرته الرحمة الإلهية لخلاص البشر وإنقاذهم من حكم الهلاك الصادر عليهم بسبب خطاياهم. وإذا كان المسيح له المجد يردد دائماً أن الآب أرسله أو أنه مرسل من الآب (يوحنا ٤: ٣٤)؛ (٦: ٣٨) فهذا الإرسال ليس من نوع إرسال الأنبياء والرسل. لأن هؤلاء إرسالهم من خارج الذات الإلهية. وأما إرسال الابن فهو إرسال من الداخل، أى من الذات الإلهية على نحو ماترسل الشمس أشعتها، فهى منها وفيها ولا تنفصل عنها. ثم إنه إذ يقول إن الآب أرسله أو أنه مرسل من الآب، إنما يقول ذلك لكى يطمئن الناس

إلى أنه ليس إلهاً آخراً مستقلاً أو منفصلاً عن الآب الذى يعرفونه بأنه هو الله. وذلك قصداً إلى توكيد الوحدانية، وأن الله واحد: فالآب هو الله غير المنظور، والابن هو الله وقد صار منظوراً. فهما ليسا اثنين، وإنما إله واحد.

وقد رتب مخلصنا على هذه الحقيقة، حقيقة أخرى ترتبط بها وتؤدى إليها، إذ قال لليهود «الحق الحق أقول لكم إن من يسمع كلامى ويؤمن بالذى أرسلنى له الحياة الأبدية، ولن يأتى إلى دينونة، وإنما ينتقل من الموت إلى الحياة». لأنه مادام له سلطان الدينونة بصفته الله الديان، وبحكم إتحاده بالله اتحاداً تاماً فإن من يطيعه، بأن يسمع كلامه، وينفذ وصاياه وأحكامه، ويؤمن به وبالآب السماوى الذى أرسله إلى الأرض متخذاً جسد إنسان ليؤدى المهمة التى دبرتها العناية الإلهية لخلاص البشر ينال الخلاص بالفعل ويستحق الحياة الأبدية التى هى من نصيب أولئك الذين نالوا الخلاص. ولن يحكم عليه الديّان العادل بالموت الذى هو الهلاك الأبدى. ويتم ذلك على مرحلتين، وفى مناسبتين، إحداهما هى «أن ثمة ساعة تأتى، وقد أتت الآن، يسمع فيها الموتى صوت ابن الله، والذين يسمعون يحيون»، أى أن ثمة أناساً وإن كانوا لا يزالون على قيد الحياة فى أثناء وجود المسيح بينهم على الأرض - يعدون موتى بسبب خطاياهم (متى ٨: ٢٢)؛ (لوقا ٩: ٥٩، ٦٠)؛ (أفسس ٢: ١ و٥)؛ (٥: ١٤)؛ (كولوسى ٢: ١٣)؛ فإن آمنوا بفادينا نالوا الخلاص، ومن ثم يستحقون الحياة الأبدية بسبب إيمانهم، وبسلطان ذلك الذى يملك الحكم بالحياة الأبدية للذين يؤمنون به، أو بالهلاك الأبدى للذين ينكرونه ويتنكرون له، ويسعون إلى القضاء عليه. والقيامة هنا هى القيامة من موت الخطيئة. وهى ليست عامة، لكنها مقصورة على الذين يسمعون كلام الله، وصوت ابن الله ودعوته وتعاليمه ويطيعون ويعملون بما سمعوا.. «هذه هى القيامة الأولى. مبارك ومقدس من له نصيب فى القيامة الأولى. هؤلاء ليس للموت الثانى سلطان عليهم» (الرؤيا ٢٠: ٥ و٦). لأنه كما أن الآب له الحياة فى ذاته، هكذا أعطى الابن أن تكون له الحياة فى ذاته، أى أنه كما أن الآب لا يستمد وجوده من آخر ولا يعتمد على آخر، وإنما هو الموجود بذاته والحىّ بذاته، وهو واهب الحياة بسلطانه المطلق، فإن الابن كذلك لا يستمد وجوده من آخر، ولا يعتمد على آخر، وإنما هو الموجود بذاته والحىّ بذاته. وهو بإتحاده الكامل بالآب واهب الحياة بسلطانه المطلق الناتج عن هذا الاتحاد. وأما المرحلة والمناسبة الثانية التى يتحدث عنها مخلصنا للحكم بالحياة الأبدية أو الموت الأبدى فهى يوم الدينونة، الذى سيكون فيه له المجد هو الديّان، إذ أعطاه أبوه السماوى هذا السلطان لأنه ابن الإنسان... وكان هو الذى نزل إلى الناس وخالطهم وعايشهم وحثهم على إنتهاج سبيل الخير كى يسلكوه فينالوا به الحياة الأبدية، وحذّرهم من إنتهاج سبيل الشر كي يبتعدوا عنه وإلا استحقوا الموت الأبدى. وهو ابن الإنسان لأنه أخذ طبيعة الإنسان واتخذ صورة الإنسان وولد من مريم العذراء كإنسان (دانيال ٧: ١٣ و١٤)؛ (متى ٢٤: ٣٠)؛ (٢٦: ٦٤)؛ (الرؤيا ١: ١٣)؛ (١٤: ١٤). لذلك صار

هو بصفته هذه رئيس الخليقة أو رأس الخليقة (كولوسي ١ : ١٥)، (الرؤيا ٣ : ١٤).

ولا ينبغي أن يعجب اليهود من هذا الذي يقوله مخلصنا عن ذلك السلطان الذي يملكه، بزعم أنه أمر غريب ولا يمكن تصوره أو تصديقه، إذ أكد لهم أنه تأتي ساعة محدّدة في نهاية هذا الدهر يسمع فيها صوته كل الذين في القبور، الذين ماتوا منذ آدم حتى تلك الساعة، فيخرج الذين عملوا الصالحات إلى قيامة الحياة الأبدية التي يمنحها هو إياهم، مكافأة لهم على ما عملوا من صالحات، والذين عملوا السيئات إلى قيامة الدينونة التي يحكم بها هو عليهم بالموت الأبدي جزاء لهم على ماعملوا من سيئات. وهذا هو ما يعرف بالقيامة العامة، أو القيامة الثانية (بالنسبة إلى القيامة الأولى وهي التوبة) أو قيامة الأجساد، إذ القيامة الأولى هي للروح. أما القيامة الثانية فللأجساد بعد أن تدخل فيها أرواحها. ويصير الإنسان كاملاً بالروح والجسد ليقف أمام منبر المسيح أو كرسيه للقضاء. ثم هي قيامة للجميع، أخياراً كانوا أو أشراراً. جاء في سفر إشعياء «تحيا أمواتك. تقوم الجثث. استيقظوا، ترنموا يا سكان التراب» (إشعياء ٢٦ : ١٩). وجاء في سفر دانيال «وكثيرون من الراقدين في تراب الأرض يستيقظون، هؤلاء إلى الحياة الأبدية، وهؤلاء إلى العار للإزدراء الأبدي» (دانيال ١٢ : ٢). وجاء في سفر الأعمال «سوف تكون قيامة للأموات، الأبرار منهم والأثمة» (الأعمال ٢٤ : ١٥). وجاء في سفر حزقيال وصف لعملية القيامة للأجساد، إذ يقول «كان صوت وإذا رعش، فتقاربت العظام كلٌ عظم إلى عظمه. ونظرت وإذا بالعصب واللحم كساها وبسط الجلد عليها من فوق وليس فيها روح. فقال لي تنبأ للروح.. وقل للروح هكذا قال السيد الرب: هلم يا روح من الرياح الأربع وهبّ على هؤلاء القتلى ليحيوا. فتنبأت كما أمرني فدخل فيهم الروح فحيوا وقاموا على أقدامهم، جيش عظيم جداً جداً» (حزقيال ٣٧ : ١ - ١٠). وانظر أيضاً (طوبيا ٤ : ٧ و١٠ و١٧)، (لوقا ١٤ : ١٤)، (٢. كورنثوس ١ : ٩)، (١. تسالونيكي ٤ : ١٦).

ثم أكد مخلصنا لليهود أن دينونة الله عادلة لا ظلم فيها ولا مجاملة ولا محاباة، لأنه كما أن الله الآب عادل عدلاً مطلقاً بحكم كماله المطلق، هكذا الابن عادل عدلاً مطلقاً بحكم كماله المطلق، لاتحاده بالآب اتحاداً تاماً، ولمساواته للآب في جميع الصفات والكمالات الإلهية. فما يصدر عن الابن من حكم يكون هو في الوقت نفسه حكم الآب. وهذا هو معنى قول مخلصنا «أنا وحدي لا أستطيع من نفسي أن أعمل شيئاً، وإنما حسبما أسمع أدين. ودينونتي عادلة، لأنني لا أبتغي مشيئتي، بل مشيئة الآب الذي أرسلني». أما أن دينونته عادلة فلأنه سيدين كل واحد على حسب عمله، إذ يقول «لأن ابن الإنسان سيأتي في مجد أبيه مع ملائكته، وعندئذ سيجازي كل إنسان على حسب أعماله» (متى ١٦ : ٢٧).. «لأننا جميعنا لابد من أن نظهر أمام منبر

المسيح لينال كل واحد على حسب ما صنع بالجسد خيراً كان أم شراً» (٢ ـ كورنثوس ٥ : ١٠). كما يقول مخلصنا «هاأنذا آتٍ سريعاً وجزائي معي، لأجازي كل واحد على حسب أعماله» (الرؤيا ٢٢ : ١٢) ـ انظر أيضاً (زكريا ٩ : ٩)، (رومية ٢ : ٦)، (٢ ـ تيموثيئوس ٤ : ٨)، (الرؤيا ١٥ : ٣)، (١٦ : ٥)، (٢٠ : ١٢ و١٣).

فما يعمل الابن هو في الوقت نفسه ما يعمل الآب، ومشيئة الابن هي في الوقت نفسه مشيئة الآب، لأنهما معاً إله واحد ورب واحد. وبحكم هذا الاتحاد لا يمكن أن يعمل الابن أمراً لا يوافق عليه الآب، أو أن تكون للابن مشيئة تختلف عن مشيئة الآب (متى ٢٦ : ٣٩ و٤٢). ولما كان اليهود لا يعرفون إلا الله الآب، ولا يعترفون إلا به، فقد أكد لهم مخلصنا هنا أنه ابن الله الآب ومساوٍ له ومتحد به. فإن أنكروا الابن فإنما ينكرون بذلك الآب، وإن تنكروا للابن فإنما يتنكرون بذلك للآب. وإذا كان الآب قد أرسل الابن إلى الناس ليكون وسيطاً بينه وبينهم، متخذاً لذلك جسداً بشرياً، فقد كان هذا تدبيراً اتفق فيه الابن مع الآب وصدر عن مشيئتهما، لأنها مشيئة واحدة لرب واحد.

٥ : ٣١ ـ ٤٧

تبرير المسيح نفسه بشهادة أعماله ويوحنا المعمدان والكتب المقدسة :

ولما كان مخلصنا في ذلك الوقت يقف أمام المحكمة العليا لليهود، وهي مجلس السنهدريم. وإذ كانت المحاكم لا تقبل من المتهم الذي تحاكمه قولاً إلا إذا أثبته بوثيقة معتمدة، أو بشهادة شهود تثق في صدقهم، فقد فعل مخلصنا ذلك مستشهداً بشهود لا تجرؤ المحكمة على رفض شهاداتهم. ومع أنه له المجد صادق الصدق الكامل، وقوله هو الحق الكامل، فقد تواضع أمام أولئك الذين يتهمونه بالكذب، ولا يصدّقون ما يقوله عن نفسه وعن حقيقة شخصيته باعتباره ابن الله. فتنازل عن شهادته لنفسه قائلاً لهم «لو كنت أشهد لنفسي لما كانت شهادتي حقاً» والمعنى إنني إن كنت أشهد لنفسي وحدي، ففي هذه الحالة لا تكون شهادتي حقاً. ولعل هذا رد على قول الفريسيين له «إنك تشهد لنفسك. فشهادتك ليست حقاً» (يوحنا ٨ : ١٣). والمعروف والمقرر في الشريعة اليهودية أنه «على فم شاهدين أو ثلاثة.. لا على فم شاهد واحد يقوم الأمر» (التثنية ١٧ : ٦)، (١٩ : ١٥)، (العدد ٣٥ : ٣٠)، (١ ـ المكابيين ٢ : ٣٧)، (متى ١٨ : ١٦)، (٢ ـ كورنثوس ١٣ : ١)، (١ ـ تيموثيئوس ٥ : ١٩)، (العبرانيين ١٠ : ٢٨).

ثم استشهد مخلصنا بشاهد يؤمن اليهود بصدقه، لأنهم كانوا يعدونه نبياً، وهو يوحنا المعمدان، قائلاً «إن هناك آخر يشهد لي، وأنا أعلم أن شهاداته التي يشهد لي بها حق. أنتم

أرسلتم إلى يوحنا فشهد بالحق. وأنا لا أقبل شهادة من إنسان. ولكنني أقول هذا لتخلصوا أنتم. ذاك كان هو السراج للموقد المنير، وقد كنتم تريدون أن تتهللوا بنوره ساعة». وكان فادينا يقصد بالشاهد الآخر هنا أعماله الإلهية التي تشهد له بأنه ابن الله، كما كان يقصد أباه السماوي الذي شهد له، وشهادته له هي الحق (١ . يوحنا ٥ : ٩). وهو باعتباره ابنه ومتحد به يعلم أنها هي الحق، فلا حاجة بعدها لشهادة إنسان، وهو لا يقبل بعد شهادة الله أن يكون الشاهد له إنساناً، مهما كان هذا الإنسان صادقاً وباراً، ولو كان نبياً تسطع قداسته كالسراج الموقد المنير (٢ . بطرس ١ : ١٩). ولكن لما كان اليهود قد فرحوا بيوحنا وتهللوا بنوره، فقد كانوا يصدقون شهاداته ،لأنهم كانوا يعدونه نبياً» (متى ١٤ : ٥)، (٢١ : ٢٦)، (لوقا ٢٠ : ٦)، وحتى الملك هيرودس «كان يرهب يوحنا، إذ كان يعلم أنه رجل بار وقديس» (مرقس ٦ : ٢٠). ولذلك استشهد مخلصنا بشهادته (يوحنا ١ : ١٥ – ٣٤) لا لأنها تعادل شهادة الله ولكن ليثق اليهود في شهادته فيؤمنوا بمخلصنا فيكون في إيمانهم به خلاصهم هم أنفسهم. وقد أوضح مخلصنا قصده من عبارته السابقة إذ قال: «أما أنا فلي شهادة أعظم من شهادة يوحنا. لأن الأعمال التي أعطاني أبي لأنجزها، تلك الأعمال التي أنا أعملها هي نفسها التي تشهد لي بأن الآب قد أرسلني». فلو كان لليهود ذرة من العقل، أو بصيص من النور يضيء قلوبهم المظلمة، ولو رفعوا غشاوة الحقد والشر التي تعمي أبصارهم وبصائرهم، لكانوا قد آمنوا بأن مخلصنا هو ابن الله، بعد أن سمعوا بآذانهم أقواله الإلهية، ورأوا بأعينهم معجزاته التي لا يمكن أن تصدر إلا عن الله وحده. ولاتخذوا من تلك الأقوال وتلك المعجزات برهاناً كافياً ووافياً وساطعاً ومقنعاً يشهد له بحقيقة شخصيته، وبأن الله الآب قد أرسله لينجز عمل الفداء لخلاص البشر على مقتضى نبوءات كل أنبيائهم. وقد كانت أعماله ومعجزاته هي الشهادة بأنه ابن الله، فقد قال «إن الأعمال التي أعملها باسم أبي هي تشهد لي» (يوحنا ١٠ : ٢٥). وقال أيضاً «إن لم أكن أعمل أعمال أبي فلا تؤمنوا بي» (يوحنا ١٠ : ٣٨). كما قال «لو لم أكن قد صنعت بينهم أعمالاً لم يصنعها أحد غيري لما كانت لهم خطيئة» (يوحنا ١٥ : ٢٤). وقد شهد نيقوديموس عضو السنهدريم اليهودي قائلاً «يا معلم نحن نعلم أنك جئت من الله معلماً، لأنه ما من أحد يقدر أن يصنع هذه الآيات التي أنت تصنع ما لم يكن الله معه» (يوحنا ٣ : ٢). وقال عنه بعض اليهود «كيف يستطيع إنسان خاطئ أن يصنع مثل هذه المعجزات» (يوحنا ٩ : ١٦). وقال عنه المولود أعمى «ما سمعنا منذ بدء الزمان أن إنساناً فتح عيني مولود أعمى. فلو لم يكن هذا من الله ما استطاع أن يصنع شيئاً» (يوحنا ٩ : ٣٢، ٣٣).

بيد أن الأبلغ من ذلك والأكثر قوة وإقناعاً هو أن الله الآب نفسه شهد لمخلصنا بحقيقة شخصيته بأنه هو ابنه الحبيب، وقد كانت تلك الشهادة بصوت مسموع واضح طرق آذان اليهود

فسمعوه ووعوه، إذ جاء في الإنجيل للقديس متى أنه بعد أن اعتمد مخلصنا من يوحنا المعمدان «إذا صوت يجيء من السماء قائلا: هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت» (متى ٣: ١٧)، (مرقس ١: ١١)، (لوقا ٣: ٢٢)، (متى ١٧: ٥). كما جاء في الإنجيل أنه بعد تجلّي مخلصنا على الجبل كان معه من تلاميذه، القديسون بطرس ويعقوب ويوحنا. «وإذا سحابة من نور غمرتهم، وإذا صوت من السحابة يقول: ـ هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت فله اسمعوا» (متى ١٧: ٥)، (مرقس ٩: ٧)، (لوقا ٩: ٣٥). ولذلك قال مخلصنا أمام مجلس السنهدريم إن «الآب نفسه الذي أرسلني هو الذي شهد لي». كما قال في مرة أخرى: «ويشهد لي أبي الذي أرسلني» (يوحنا ٨: ١٨)، (٦: ٢٧). ولكن اليهود على الرغم من أنهم قد طرق آذانهم صوت الله الآب وهو يقول عن مخلصنا إنه هو ابنه الحبيب ويأمرهم بأن يستمعوا إليه ويطيعوه بحسبانه هو الله نفسه (١. يوحنا ٥: ٦ و٧ و٩)، لم يستخدموا موهبة السمع هذه التي أعطاهم الله إياها بسبب غلظة قلوبهم، وإنما صمّوا آذانهم كي لا يسمعوا كلمة الله، كما أغمضوا أعينهم كي لا يروا مجده. وفي ذلك يقول مخلصنا عنهم في الإنجيل للقديس متى إنهم «مبصرون ولا يبصرون، وسامعون ولا يسمعون ولا هم يفهمون، ففيهم قد تمت نبوءة إشعياء القائلة: بالسمع تسمعون ولا تفهمون، وبالبصر تبصرون ولا ترون،لأن قلب هذا الشعب قد غلظ وآذانهم قد ثقل سمعها، وعيونهم قد أغمضوها لئلا يبصروا بعيونهم أو يسمعوا بآذانهم أو يفهموا بقلوبهم، أو يرجعوا إليّ فأشفيهم» (متى ١٣: ١٣ – ١٥). ولذلك فإن مخلصنا بعد أن قرر أمام أعضاء السنهدريم أن الله الآب نفسه هو الذي شهد له، قال لهم «وأنتم لم تسمعوا صوته قط ولا رأيتم صورته. وكلمته لا مقر لها فيكم. لأنكم لم تؤمنوا بالذي أرسله». وذلك لأنهم كانوا بالفعل قد سمعوا صوت الله الآب وهو يشهد لمخلصنا بأنه هو ابنه الحبيب، وقد سبق لآبائهم من قبل أن سمعوا صوته ورأوا مجده على الجبل في صحراء سيناء، ولو أنهم لم يروا هيئته (التثنية ٤: ١٢) لأن اللاهوت لا يقدر إنسان أن يراه مالم يحتجب في الناسوت (يوحنا ١: ١٨)، (١. تيموثيئوس ١: ١٧)، (١. يوحنا ٤: ٢ – ١٤)، وإذ جاء في سفر الخروج: «فقال الرب لموسى هاأنذا آت إليك في ظلام السحاب لكي يسمع الشعب حينما أتكلم معك فيؤمنوا بك أيضاً إلى الأبد... وحدث في اليوم الثالث لما كان الصباح أنه صارت رعود وبروق وسحاب ثقيل على الجبل، وصوت بوق شديد جداً. فارتعد كل الشعب الذي في المحلة. وأخرج موسى الشعب من المحلة لملاقاة الله، فوقفوا في أسفل الجبل، وكان جبل سيناء كله يدخن من أجل أن الرب نزل عليه بالنار وصعد دخانه كدخان الأتون، وارتجف كل الجبل جدا، فكان صوت البوق يزداد اشتداداً جداً وموسى يتكلم والله يجيبه بصوت... وكان جميع الشعب يرون الرعود والبروق وصوت البوق والجبل يدخن. ولما رأى

الشعب ارتعدوا ووقفوا من بعيد، وقالوا لموسى تكلم أنت معنا فنسمع، ولا يتكلم معنا الله لئلا نموت. فقال موسى للشعب: «لا تخافوا لأن الله إنما جاء لكي يمتحنكم، ولكي تكون مخافته أمام وجوهكم حتى لا تخطئوا.. وكان منظر مجد الرب كنار آكلة على رأس الجبل أمام عيون بني إسرائيل» (الخروج ١٩ : ٩ – ١٩)، (٢٠ : ١٨ – ٢٠)، (٢٤ : ١٧).

بيد أن اليهود على الرغم من أنهم سمعوا صوت الله الآب ورأوا مجده، نسوا ذلك كله أو تناسوه. وبعد أن آمنوا به أياما قليلة وعملوا بوصاياه، لم يلبثوا أن تنكروا له وخانوه وخالفوه، لأن إيمانهم به كان سطحياً ووقتياً وغير مستقر في قلوبهم. وقد أرسل إليهم أنبياءه ليعيدوهم إلى حظيرته ويحثوهم على طاعته. وقد أجمع أولئك الأنبياء في نبوءاتهم على أن الله سيرسل إليهم ابنه لخلاصهم (لوقا ٢٤ : ٢٥ و٢٧)، (الأعمال ٣ : ٢٤). فلما تحقق هذا، وجاء ابن الله إليهم رفضوه وتنكروا له وأنكروه (يوحنا ١ : ١١)، (لوقا ١٩ : ١٤)، (الأعمال ٣ : ٢٦)، (١٣ : ٤٦)، (مرقس ٧ : ٩)، (لوقا ٧ : ٣٠)، (يوحنا ١٥ : ٢٤). وبذلك رفضوا الله الآب نفسه الذي أرسله، وتنكروا له وأنكروه، وبرهنوا على ضعف إيمانهم وعدم استقرار كلمته في مشاعرهم أو ضمائرهم أو عقولهم أو قلوبهم. ومن ثم قال مخلصنا لهم: «ابحثوا في الأسفار المقدسة، لأنكم تعتقدون أن لكم فيها حياة أبدية، وتلك هي التي تشهد لي. ولكنكم لا تريدون أن تأتوا إليّ لتكون لكم حياة. مجدا من الناس لا أقبل، ولكنني عرّفتكم أن محبة الله ليست فيكم. لقد جئت باسم أبي ولكنكم لا تقبلونني. ولو أن غيري جاء باسم نفسه لقبلتموه. كيف يمكنكم أن تؤمنوا وأنتم تقبلون المجد بعضكم من بعض. وأما المجد الذي من الله الواحد وحده فلا تبتغونه. لا تظنوا أنني أشكوكم إلى الآب. فإن هناك من يشكوكم وهو موسى الذي جعلتم فيه رجاءكم، فإنكم لو كنتم تؤمنون بموسى لكنتم تؤمنون بي أيضاً، لأنه كتب عني. فإن كنتم لا تؤمنون بما كتبه، فكيف تؤمنون بكلامي؟».

وفي هذه العبارات يلوم فادينا اليهود على أنهم لا يعلمون شيئاً عما في أسفارهم المقدسة، وهي أسفار العهد القديم، أو أنهم يعلمون مافيها بصورة سطحية لا تؤهلهم لفهمها فهماً صحيحاً. ولذلك طلب إليهم أن يبحثوا في هذه الأسفار بحثاً عميقاً. لا لمجرد تلاوتها تلاوة حرفية دون فهم كما كانوا يفعلون، وإنما لدراستها دراسة دقيقة وعميقة تؤدي بهم إلى الغوص في روحها وإدراك معانيها الجليلة الأصيلة على حقيقتها. وبهذا المعنى جاء في سفر إشعياء إذ يقول «إلى الشريعة وإلى الشهادة. إن لم يقولوا مثل هذا القول فليس لهم فجر» (إشعياء ٨ : ٢٠). ويقول: «فتشوا في سفر الرب، واقرأوا واحدة من هذه لا تفقد، لا يغادر شيء صاحبه لأن فمه هو قد أمر.

وروحه هو جمعها» (إشعياء ٣٤: ١٦). وقال السيد المسيح له المجد بلسان إبراهيم الخليل: «إن لديهم موسى والأنبياء فليستمعوا إليهم» (لوقا ١٦: ٢٩). وقال له المجد لليهود: «فإنكم لو كنتم تؤمنون بموسى، لكنتم تؤمنون بي أيضاً، لأنه كتب عني» (يوحنا ٥: ٤٦). وجاء في سفر أعمال الرسل عن اليهود في مدينة بيرية: «وكان هؤلاء أشرف من الذين في تسالونيكي، فقبلوا الكلمة بكل حرص، وكانوا كل يوم يفحصون الكتب هل كانت تلك الأمور هكذا، فآمن كثيرون منهم ومن كرام النساء اليونانيات ومن الرجال عدد ليس بقليل» (الأعمال ١٧: ١١ و١٢).

وإذ كان اليهود على الرغم من فهمهم لشريعتهم ذلك الفهم السطحي غير العميق ولا الدقيق يعتقدون أن مجرد تلاوتها تمنحهم الحياة الأبدية، فقد استشهد بها مخلصنا على حقيقة شخصيته وصدق رسالته قائلا إنها «هي التي تشهد لي» (لوقا ٢٤: ٢٥ و٢٧ و٤٤)، (يوحنا ١: ٤٥)، (الأعمال ٢٤: ١٤)، (٢٦: ٢٢)، (٢٨: ٢٣)، (رومية ٣: ٢١). ولو أنهم فهموا هذه الشريعة على وجهها الصحيح لعلموا أنها تشتمل من أولها إلى آخرها على التنبؤ بمجيء المسيح ابن الله (التكوين ٢٢: ١٨)، (٢٦: ٤)، (٤٩: ١٠)، (إرميا ٢٣: ٥)، (ملاخي ٣: ١)، (٤: ٢) وتحدد موعد مجيئه تحديداً دقيقاً (دانيال ٩: ٢٤)، وتصف كيفية ميلاده من عذراء (إشعياء ٧: ١٤)، كما تصف شخصيته وصورته وطباعه وتصرفاته (إشعياء ٩: ٦)، (إرميا ٣٣: ١٤ و١٥)، (حزقيال ٣٤: ٢٣)، (٣٧: ٢٥)، (ميخا ٧: ٢٠). وتذكر بتفصيل مسهب تعاليمه وما يصدر عنه من أقوال وما سيصنع من معجزات، وما سيفعله هو مع اليهود وما سيفعله اليهود معه، وكيف أنهم على الرغم مما سيصنع لهم من خير سيضطهدونه ويطاردونه ثم في نهاية الأمر سيصلبونه فيموت على الصليب (التكوين ٣: ١٥)، (العدد ٢١: ٩)، (المزمور ٢١: ١ – ٢)، (إشعياء ٥٠: ٦)، (٥٣: ١ – ١٢). ثم تقرر تلك النبوءات أنه سيمكث في القبر ثلاثة أيام، ثم يقوم من بين الأموات (المزمور ١٥: ٩ و١٠)، ويصعد إلى السماء (المزمور ٦٨: ١٨). فلو عرف اليهود الذين يحاكمونه الآن كل هذا الذي ورد عنه في أسفارهم المقدسة ذاتها. لما لاموه ولا حاكموه، بل لكانوا قد آمنوا به ومجدوه وقدموا له الإكرام اللائق به على أنه إلههم وابن إلههم. ولكنهم لغبائهم وكبريائهم وشرهم ومكرهم وعمى بصائرهم وسواد قلوبهم لا يريدون أن يفعلوا ذلك، حتى بناء على شهادة أسفارهم المقدسة التي شهدت له، ولا يريدون أن يأتوا إليه معترفين بحقيقة شخصيته لينالوا الحياة الأبدية (يوحنا ٣: ١٥ – ١٨) التي جاء من السماء ليمنحها لهم بتقديمه ذاته فداء عنهم. فهو إنما يفعل ذلك لمصلحتهم هم، لأنهم هم المحتاجون إليه وليس هو المحتاج إليهم، أو إلى ما يقدمونه إليه من تمجيد، إذ قال له المجد «أنا لا أقبل شهادة من إنسان.. مجدا من الناس لا أقبل» (يوحنا ٥: ٣٤ و٤١). وذلك لأن بصفته الإلهية ممجد على أي حال سواء

مجدّه الناس أم لم يمجدوه (١ . تسالونيكي ٢ : ٦) . وهو لا يطلب لنفسه مجداً دنيوياً كملك أو قائد أو زعيم أو صاحب أي منصب من تلك المناصب العليا التي يسعى الناس إليها، لأن مملكته ليست من هذا العالم (يوحنا ١٨ : ٣٦) . (دانيال ٢ : ٤٤)، (لوقا ١٢ : ١٤)، (يوحنا ٦ : ١٥) . ولأن له رسالة أخرى ما جاء إلى العالم إلا لينجزها . هي رسالة الفداء لخلاص البشر (متى ١ : ٢١) . وقد أوضح لليهود أنهم لا يريدون أن يؤمنوا به ويأتوا إليه لينالوا الحياة الأبدية . لا لسبب يرجع إليه هو، وإنما لسبب يرجع إليهم هم كما عرفهم، وهي أن محبة الله ليست فيهم، على الرغم من تظاهرهم بأنهم يحبونه حباً عظيماً «لأنهم أحبوا مجد الناس أكثر من مجد الله» (يوحنا ١٢ : ٤٣) . إذ أنهم لو كانوا يحبون الله لأحبوه هو، لأنه بشهادة أسفارهم المقدسة ذاتها ابن الله . وقد جاء باسم أبيه السماوي، وقدّم نفسه إليهم بهذه الصفة . ولكنهم لم يقبلوه . وفي ذلك قال له المجد «وهذه هي الدينونة أن النور جاء إلى العالم، وأحب الناس الظلمة أكثر من النور، لأن أعمالهم كانت شريرة، فإن كل من يفعل الشر يبغض النور، ولا يُقبل إلى النور، لئلا تفتضح أعماله الشريرة وتتوبخ» (يوحنا ٣ : ١٩ و٢٠) . وذلك في حين أنهم لو أن أحداً من المسحاء الكذبة والأنبياء الكذبة جاءهم، لا باسم الآب السماوي . وإنما باسم نفسه وضد إرادة الآب السماوي لقبلوه، لأن المسحاء الكذبة والأنبياء الكذبة يستغلون نواحي الضعف في الناس، ولا سيما قليلي الإيمان منهم بالله، فيظهرون أمامهم بمظهر العظمة العالمية والمجد الدنيوي، متخذين سيماء الملوك والقادة والزعماء، واعدين إياهم بأن يمنحوهم إذا تبعوهم بعض مالهم من مجد أضفوه على أنفسهم . والناس ضعفاء النفوس ، يغريهم المجد الدنيوي بمختلف مظاهره ، فيسعون إليه ويتكالبون عليه ، ويتذللون للقادرين على منحهم إياه تذلل العبيد لسادتهم . وهذا ماكان يفعله اليهود، لأنهم كانوا يريدون مسيحاً يأتيهم كملك جبار وقائد مغوار، يقودهم بجيوشه الجرّارة ليفتحوا العالم كله ويسيطروا عليه ويستبدوا به ويستعبدوه، ويستأثروا بخيراته، ويستكثروا لأنفسهم من ثرواته، فيرضى بذلك غرورهم، ويشبع نهمهم إلى المال والجاه والشهوات والملذات . فلما جاءهم المسيح الحقيقي فقيراً بسيطاً متواضعاً زاهداً في كل أمجاد الدنيا وأطماعها، لا يملك فيها شيئاً، ويقول لهم إن مملكته ليست من هذا العالم، ولا يعدهم بأي مكسب من مكاسب الدنيا أو أموالها أو خيراتها، بل يحثهم على أن يزهدوا في ذلك كله، وأن يتطلعوا إلى غاية واحدة هي ملكوت السماوات، رفضوه واحتقروه واضطهدوه وطاردوه . وعلى الرغم من أنه أثبت لهم في كل ماقال وكل ما فعل أنه هو المسيح ابن الله الذي ينتظرونه، أنكروا عليه ذلك واستنكروه واستهانوا به وأهانوه، ومن ثم وبخهم مخلصنا قائلاً «لقد جئت باسم أبي، ولكنكم لا تقبلونني، ولو أن غيري جاء باسم نفسه لقبلتموه . كيف يمكنكم أن تؤمنوا وأنتم تقبلون المجد بعضكم من

بعض، وأما المجد الذى من الله الواحد وحده فلا تبتغونه؟» ثم كشف لهم مخلصنا عن سبب آخر لعدم إيمانهم، وهو أنهم يعدّون موسى النبى شفيعهم لدى الله ويجعلون فيه رجاءهم، ويتظاهرون بتعظيمه أعظم التعظيم، وبطاعة شريعته أعمق الطاعة. ولكنهم مع ذلك خالفوا فى تصرفاتهم وأسلوب حياتهم كل وصاياه التى تلقاها من الله، حتى لم يعودوا فى الواقع يؤمنون به أو بشريعته، ماداموا لا يطيعونه ولا يطيعون شريعته. ومن ثم أصبح موسى ولا ريب غاضباً منهم ساخطاً عليهم، يشكوهم إلى الله وهو فى العالم الآخر، كما كان يشكوهم إلى الله وهو فى هذا العالم حين كانوا يتمردون عليه فى صحراء سيناء. وقد كان هذا سبباً آخر لعدم إيمان اليهود بمخلصنا لأنهم لو كانوا لا يزالون يؤمنون بموسى لكانوا يؤمنون بمخلصنا أيضاً، لأن موسى كتب عنه. متنبئاً بمجيئه (التكوين ١٢ : ٣)، (١٨ : ١٨)، إذ يقول فى سفر التثنية: «يقيم لك الرب إلهك نبياً من وسطك، من إخوتك مثلى، له تسمعون: حسب كل ما طلبت من الرب إلهك فى حوريب يوم الاجتماع قائلا لا أعود أسمع صوت الرب إلهى. ولا أرى هذه النار العظيمة أيضاً لئلا أموت. قال لى الرب: قد أحسنوا فيما تكلموا. أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامى فى فمه فيكلمهم بكل ماأوصيته به. ويكون أن الإنسان الذى لا يسمع لكلامى الذى يتكلم به باسمى أنا أطالبه» (التثنية ١٨ : ١٥ – ١٩). ولذلك قال مخلصنا لليهود: «لا تظنوا أننى أشكوكم إلى الآب، فإن هناك من يشكوكم وهو موسى الذى جعلتم فيه رجاءكم. فإنكم لو كنتم تؤمنون بموسى، لكنتم تؤمنون بى أيضاً لأنه كتب عنى. فإن كنتم لا تؤمنون بما كتبه، فكيف تؤمنون بكلامى؟».

الفصل السادس

٦ : ١ – ١٣

إشباع الخمسة آلاف بخمس خبزات وسمكتين:

وفى وقت لاحق لتلك المعجزة التى صنعها مخلصنا للرجل العليل عند بركة بيت حسدا عند باب الضأن فى أورشليم، وماترتب عليها من محاكمة له لأنه صنع تلك المعجزة فى يوم سبت، وقال عن نفسه إنه ابن الله، مضى إلى الضفة الأخرى من بحر الجليل، الذى هو فى الواقع بحيرة كانت تدعى بحيرة طبرية، كما كانت تسمى بحيرة جنيسارت، وقد تبعه جمع عظيم ممن آمنوا به لأنهم كانوا قد رأوا معجزاته التى صنعها للمرضى. فصعد مخلصنا إلى الجبل حيث يتسع المكان لذلك الجمع العظيم كى يلقى عليهم عظاته ويزودهم بتعاليمه. وجلس هناك مع تلاميذه الذين كانوا ملازمين له فى كل مكان يذهب إليه. وكان عيد الفصح الذى هو أعظم أعياد اليهود قد اقترب موعده (اللاويين ٢٣: ٥ و٧)، (التثنية ١٦: ١)، (يوحنا ٢: ١٣)، (٥: ١١). فرفع مخلصنا عينيه ورأى جمعاً عظيماً مقبلاً إليه. ومن ثم فإنه «أشفق عليهم إذ كانوا كغنم بغير راع، فطفق يعلمهم فى أمور كثيرة حتى إذا إنقضى جزء كبير من النهار، تقدم إليه تلاميذه قائلين: إن المكان قفر وقد تأخر الوقت، فاصرفهم ليذهبوا إلى الضياع والقرى القريبة ويشتروا لأنفسهم ما يأكلون» (مرقس ٦: ٣٤ و٣٥). فالتفت مخلصنا إلى تلميذه فيلبس وسأله قائلاً: «من أين نشترى خبزاً ليأكل هؤلاء؟» وإنما قال له هذا ليمتحن مدى إيمانه به وبقدرته الإلهية التى رأى أمثلة كثيرة لها من قبل، ولا سيما أنه من أقدم تلاميذه، وقد حضر معجزاته كلها منذ أن صنع أول معجزة له وهى تحويل الماء إلى خمر فى عرس «قانا الجليل» (يوحنا ٢: ١ – ١١). وقد كان فادينا يعلم ما كان هو نفسه مزمعاً أن يفعله لإطعام ذلك الجمع العظيم الذى كان مقبلاً إليه. بيد أن فيلبس أخفق فى هذا الامتحان، إذ غابت عن ذهنه تلك القدرة الإلهية التى لمخلصنا والتى يستطيع بها أن يفعل كل شيء، وظن أنه محتاج فعلاً لأن يشترى طعاماً لكل هذا الجمع، فأجابه قائلاً «إن خبزاً بمائتى دينار لا يكفى لينال كل واحد منهم قدراً ضئيلاً». وبذلك وقع فيما وقع فيه موسى النبى من قبل عندما بكى بنو إسرائيل فى البرية «واشتهوا أن يأكلوا لحما وقالوا: من يطعمنا لحماً. قد تذكرنا السمك الذى كنا نأكله فى مصر مجاناً والقثاء والبطيخ والكرات والبصل والثوم.. فلما رفع موسى الأمر إلى الرب. وعد الرب موسى والشعب وقال: تقدسوا للغد. فتأكلوا لحماً.. تأكلون لا يوماً واحداً ولا خمسة أيام ولا عشرة أيام ولا عشرين يوماً. بل شهراً من الزمان حتى يخرج من مناخركم... فقال موسى للرب: ستمائة ألف ماش هو

الشعب الذي أنا في وسطه. وأنت قد قلت أعطيهم لحماً ليأكلوا شهراً من الزمن. أيُذبح لهم غنم وبقر ليكفيهم، أم يجمع لهم كل سمك البحر ليكفيهم. فقال الرب لموسى: هل تقصر يد الرب؟. الآن ترى أيوافيك كلامي أم لا». (العدد ١١: ١ - ٢٣) - انظر أيضاً (٢. الملوك ٤: ٤٣ و٤٤)، (متى ١٥: ٣٣)، (مرقس ٨: ٤) كما أخفق في هذا الامتحان الذي أخفق فيه فيلبس تلميذ آخرمن أقدم تلاميذ مخلصنا. كان هو أيضاً قد رأى من قبل كل معجزاته، وهو أندراوس أخو سمعان بطرس، ففكر بنفس الطريقة التي فكر بها فيلبس وقال «إن هنا غلاماً معه خمس خبزات من الشعير وسمكتان. ولكن ما عسى أن تكون هذه بالنسبة لكل هذا الجمع؟». أي أنه أبدى اليأس من حل هذه المشكلة، أو من حل هذه التي بدت له أنها مشكلة. وعندئذ شرع معلمنا يفعل ماكان مزمعا أن يفعل. فقال لتلاميذه «اجعلوا الناس يجلسون» وكان ثمة عشب كثير في المكان فجلسوا عليه. وكان عددهم نحو خمسة آلاف. ومن ثم أخذ مخلصنا الخبزات التي كانت مع ذلك الغلام الذي أشار إليه أندراوس. وشكر وباركها. ثم قسمها على الجالسين. وكذلك السمكتين، بقدر مارغب كل منهم. وقد تكاثر الخبز والسمك بطريقة معجزية، فأكل منه أولئك الخمسة الآلاف حتى شبعوا جميعاً. بل لقد فاض منه قدر كبير. فقال مخلصنا لتلاميذه «اجمعوا ما فضل من الكسر لئلا يضيع شيء منها»، فجمعوها وملأوا اثنتي عشرة قفة من الكسر التي فضلت عن الآكلين من خمسة أرغفة الشعير.

وقد كانت هذه المعجزة من أعظم معجزات ربنا يسوع المسيح له المجد، لأنها تدل على أنه هو الإله الخالق. إذ كانت عملية إيجاد طعام مادي من لا شيء هي عملية خلق بكل معنى الكلمة، فإن الخبز والسمك الذي أكله الجموع لم يكن شيئا وهمياً، وإنما هما خبز حقيقي، وسمك حقيقي، بدليل أنه فضلت منه كمية كبيرة. فأمرمخلصنا تلاميذه أن يجمعوها «لئلا يضيع شيء منها»، ففعلوا ذلك فملأت اثنتي عشرة قفة. فكان ذلك تحقيقاً للرمز الذي يتمثل في الأمر الذي أصدره الله إلى موسى النبي بأن يحتفظ بكمية من المن الذي كان يرسله الله إلى اليهود حين احتاجوا إلى الطعام وهم في صحراء سيناء، فكان خبزاً نازلاً من السماء. إذ جاء في سفر الخروج أن اليهود تذمروا على موسى حين جاعوا «فقال الرب لموسى هاأنذا أمطر لكم خبزاً من السماء.. فقال لهم موسى هو الخبز الذي أعطاكم الرب لتأكلوا.. وقال لهم موسى: هذا هو الشيء الذي أمر به الرب: ملء العمر منه يكون للحفظ في أجيالكم، لكي يروا الخبز الذي أطعمتكم به في البرية حين أخرجتكم من أرض مصر. وقال موسى لهارون خذ قسطاً واحداً واجعل فيه ملء العمر مناً وضعه أمام الرب للحفظ في أجيالكم. كما أمر موسى وضعه هارون أمام الشهادة للحفظ» (الخروج ١٦: ٤ و١٥ و٣٢ و٣٣ و٣٤). وجاء في سفر المزامير أن الله «أمطر عليهم مناً للأكل.. أكل الإنسان خبز الملائكة. أرسل عليهم زاداً للشبع» (المزمور ٧٨: ٢٤ و٢٥). وفعلا ظل ذلك

القسط الذى يحتوى على المن محفوظا في تابوت العهد الذى كان يحتوى على أقدس تراث اليهود، ولذلك وضعوه فى قدس الأقداس، كما ذكر ذلك بولس الرسول إذ يقول: «قدس الأقداس فيه مبخرة من ذهب وتابوت العهد مصفحاً من كل جهة بالذهب الذى فيه قسط من ذهب فيه المن وعصا هارون التى أفرخت ولوحا العهد» (العبرانيين ٩: ٣ و٤).

فلئن كابر المكابرون وأنكر المنكرون لمعجزات فاديناً، ولا سيما فى شفائه للمرضى، زاعمين أن الشفاء كان يرجع إلى تأثير نفسى أدى إلى ذلك الشفاء. فكيف يفسرون خلق المسيح لذلك الطعام المادى الذى أكله خمسة آلاف شخص. وبقيت منه بقية كانت هى البرهان الساطع والقاطع الذى لا يقبل مكابرة ولا إنكاراً. على أنه كان طعاماً حقيقياً وليس شيئاً نفسياً أو وهمياً، كما كانت هى البرهان الساطع الذى لا يقبل كذلك مكابرة ولا إنكاراً على أن سيدنا له المجد هو الله الخالق، وهو وحده القادر على أن يقول للشىء كن فيكون.

وتظهر عظمة المعجزة وقيمتها فى كثرة عدد الجماهير التى قُدِّرت أعدادها بخمسة آلاف رجل (متى ١٤: ٢١)، (مرقس ٦: ٤٤) فيما عدا النساء اللائى لم يكن من السهل أن يندس الرجال بينهم ليحصوا عددهن، وكذلك الأطفال. وقد أكلوا من الخبز والسمك «بقدر ما رغب كل منهم». أى أن المسيح لم يبخل عليهم بشىء بحجة كثرة عدد الآكلين وقلة الخبز والسمك. ثم إنهم أكلوا حتى شبعوا. علما بأنهم على ما يروى الإنجيل للقديس مرقس «أسرعوا سيراً على الأقدام من كل المدن» (مرقس ٦: ٣٣)، وأنهم ظلوا طوال النهار بغير طعام يستمعون إلى الرب يسوع، أى أنهم كانوا جائعين جداً. فلابد أنهم أكلوا كثيراً ليشبعوا. ثم إنهم لم يشبعوا فقط بعد هذا الجوع لساعات طويلة من المشى على الأقدام والاستماع إلى مواعظ رب المجد. وإنما تبقى من الكسر مامِلأ إلى الحافة اثنى عشرة قفة. وهنا أمر مثير ومبهر، إذ كيف يكون الأصل الذى جاءوا به إلى مخلصنا خمسة أرغفة وسمكتين، مما لا يشغل إلا جزءاً من قفة، يتبقى منه بعد أن تأكل الألوف الجائعة «بقدر ما رغب كلٌ منهم»، اثنا عشرة قفة مملوءة، أى ما تبقى يزيد على الأصل خمسين ضعفاً على الأقل؟. كيف يمكن للعقل أن يفسر هذا الأمر تفسيراً طبيعياً منطقياً إلا بأن المسيح أثبت بهذه المعجزة قدرته على الخلق، وسلطانه المطلق على المادة. فهو سيدها، ومنها يصنع ما يشاء وما يريد، وهو يسخرها لمقاصده العالية ولخير خليقته.. «إن يفعل ما يشاء» (دانيال ٤: ٣٥) «ويستطيع كل شىء. ولا يعسر عليه أمر» (أيوب ٤٢: ١).

٦: ١٤ و١٥

اليهود يحاولون اختطاف السيد المسيح ليجعلوه ملكاً:

فلما رأى الناس الآيات التى صنعها مخلصنا، ولا سيما معجزته التى رأوها بأعينهم فى ذلك اليوم، وهى أنه خلق لهم من العدم طعاماً كان من الوفرة بحيث أشبعهم جميعاً وهم خمسة آلاف نفس، فيما عدا النساء والأطفال، قالوا «هذا بالحقيقة النبى الآتى إلى العالم»، أى أنه هو النبى

الذى أشار الله إليه حين كان اليهود فى صحراء سيناء. إذ قال لموسى «أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك وأجعل كلامى فى فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به، ويكون أن الإنسان الذى لا يسمع لكلامى الذى يتكلم به باسمى أنا أطالبه» (التثنية ١٨ : ١٨ و١٩)، وإذ كان اليهود يعلمون أن هذا النبى هو نفسه المسيح ابن الله، والنبوءة إحدى وظائفه للناسوتية، فهو من حيث إنسانيته ملك وكاهن ونبى (متى ٢١ : ١١)، (لوقا ٧ : ١٦)، (٢٤ : ١٩)، (يوحنا ١ : ٢١) (٤ : ١٩)، (٧ : ٤٠). ومن ثم فقد كان ذلك الذى قالوه عن هذا الذى أطعمهم بمعجزة إلهية، ينطوى على إيمان منهم بأنه هو المسيح الذى ينتظرونه. وإذ كانوا يعتقدون أن المسيح حين يأتى سيكون ملكاً لليهود يجلس على عرش مملكتهم ليعيد إليهم مجد مملكة داود التى كانوا يفخرون بها ويتطلعون إلى إستعادتها (لوقا ١ : ٣٢ و٣٣)، (الأعمال ١ : ٦)، (يوحنا ١ : ٤٩). اعتزموا أن يأتوا ويختطفوه ليجعلوه ملكاً. وقد كان هذا فهماً خاطئاً منهم للرسالة الحقيقية للمسيح، لأنه جاء لا ليكون ملكاً أرضياً، وإنما هو الملك السماوى، ومملكته ليست من هذا العالم (يوحنا ١٨ : ٣٦ و٣٧). ولذلك فإن مخلصنا إذ رأى عندئذ أنهم اعتزموا أن يفعلوا ذلك انصرف إلى الجبل وحده، ليحول دون ذلك الذى يريد عامة اليهود أن يفعلوه، لأنه وإن كان فى ظنهم تكريماً وتعظيما له، وتحقيقاً لأمل يراودهم فى التخلص من ربقة الرومان الذين كانوا يستعبدونهم، فإنه فى الحقيقة يدل على خطأ منهم فى فهم رسالته وفى معرفة حقيقة شخصيته التى هى أعظم بما لا يقاس من شخصية أى ملك من ملوك الأرض، لأنه ملك الملوك ورب الأرباب (١ - تيموثيوس ٦ : ١٥)، (الرؤيا ١٧ : ١٤)، (١٩ : ١٦). كما أن حركتهم تلك تنطوى على تمرد على الرومان، مما يجعلها حركة سياسية، لا كما يريدها هو أن تكون بعثاً روحياً. وهو لم يأت ليكون زعيماً سياسياً يتزعّم ثورة ضد الرومان أو غير الرومان (لوقا ١٢ : ١٤). وإنما ليكون فادياً للبشر جميعاً، يخلصهم بفدائه لهم من الحكم بالهلاك الذى أصدرته العدالة الإلهية بسبب شرورهم وآثامهم. وإذ كان يخشى له المجد أن يشترك تلاميذه أنفسهم فى تلك الحركة التى تهدف إلى تنصيبه ملكاً أرضياً. مدفوعين إلى ذلك بطموحهم لأن تكون لهم المناصب العليا فى مملكته تلك (مرقس ١٠ : ٣٥ - ٣٧)، انصرف إلى الجبل وحده (مرقس ٦ : ٤٧)، (متى ١٤ : ٢٣). معتمداً ألا يأخذهم معه كعادته فى اصطحابه لهم إلى كل مكان يذهب إليه.

٦ : ١٦ - ٢١

السيد المسيح يمشى على ماء البحر:

حتى إذا كان المساء نزل تلاميذ مخلصنا إلى البحر، وركبوا سفينة وعبروا بحر الجليل متجهين إلى كفر ناحوم، وإذ كان الظلام قد خيّم ولم يكن مخلصنا قد جاء بعد من الجبل إليهم. تفادياً لرغبتهم التى شاركوا فيها الجموع فى أن ينادوا به ملكاً. وكان بحر الجليل هائجاً. إذ هبت

عليه ريح شديدة، لأن هذا البحر محاط بتلال وجبال يبلغ ارتفاع بعضها أكثر من ألف قدم، في حين أن سطحه منخفض جداً، يقل ارتفاع سطحه عن سطح البحر الأبيض المتوسط نحو سبعمائة قدم. ولذلك فإنه كثيراً ماتهبُّ عليه رياح عاصفة تثير فيه زوابع عاتية عنيفة. فلما كان التلاميذ قد جذفوا وأوغلوا نحو خمس وعشرين أو ثلاثين غلوة، أي ما يعادل نحو ثلاثة أو خمسة أميال، أبصروا مخلصنا ماشياً على البحر، ومقبلاً نحو السفينة. فخافوا معتقدين أنه شبح أو خيال أو روح متجسدة، فصرخوا من الخوف (متى ١٤ : ٢٦) (مرقس ٦ : ٤٨) واضطربوا كلهم (مرقس ٦ : ٤٩). فقال لهم مخلصنا «اطمئنوا أنا هو. لا تخافوا» (متى ١٤ : ٢٧)، (مرقس ٦ : ٥٠). فاطمأنوا، ورغبوا في أن يأخذوه معهم في السفينة. فاتجه نحوهم وركب السفينة. فسكنت الريح (مرقس ٦ : ٥١)، (متى ١٤ : ٣٢) فذهلوا ذهولاً عظيماً. وقد استولت الدهشة عليهم (مرقس ٦ : ٥١) إذ رأوه يمشي على الماء. وكأنه يمشي على الأرض الصلبة، على الرغم من أنهم رأوا من قبل كثيراً من معجزاته التي تدل على قدرته الإلهية. وبالفعل كانت تلك معجزة خارقة للطبيعة. تدل على أن مخلصنا بوصفه ابن الله، وبوصفه الله ذاته متجسداً، كانت له السيطرة الكاملة على الطبيعة كلها. فهو سيد الطبيعة، ويمكنه أن يسخِّر قوانينها كما يشاء بصورة يعجز عنها كل بشر. لأنه هو خالقها، وهو الذي يتصرف حسب مشيئته في كل عنصر من عناصرها. مهما بدا ذلك للعقل البشري القاصر المحدود غريباً أو عجيباً أو غير ممكن أو مستحيلاً، لأن هذا العقل عاجز عن إدراك طبيعة الله أو مدى قدرته التي لا تحدها حدود. أو تقيدها قيود أو يمنعها مانع أو يحول دونها حائل. وقد كان من أثر هذه القدرة الإلهية التي لمخلصنا على توجيه نواميس الطبيعة أنه ما إن ركب السفينة مع تلاميذه حتى هدأت الريح وسكنت العاصفة. فجاء الذين كانوا في السفينة وسجدوا له قائلين: حقاً أنت ابن الله (متى ١٤ : ٣٣). ثم لم تلبث السفينة أن بلغت شاطيء الأرض التي كانوا يقصدونها. ولقد برهن الرب يسوع المسيح بهذه المعجزة - إذ مشى على الماء - على سلطانه على الماء، أي على المادة في صورتها السائلة، كما برهن بمعجزة إشباع الجماهير الكثيرة من خمسة أرغفة وسمكتين على سلطانه على المادة في صورتها الجامدة، كما برهن بسلطانه على الريح على سلطانه على المادة في صورتها الغازية. فهو الذي كان ينتهر الرياح والأمواج ويقول للبحر اصمت. اسكت. فتسكن الرياح والأمواج ويسود هدوء عظيم (مرقس ٤ : ٣٩). فكان الناس يتعجبون ويقولون «أي إنسان هذا الذي حتى الرياح والبحر تطيعه؟» (متى ٨ : ٢٧)، (لوقا ٨ : ٢٥). حقا إنه سيد الطبيعة بغير منازع. ولذلك استولت الدهشة على التلاميذ وعلى جميع الذين كانوا معهم في السفينة فجاءوا وسجدوا له سجود العبادة قائلين: حقًا أنت ابن الله. وقد كان هذا الاعتراف الجماعي من جانب التلاميذ سابقاً على

اعتراف بطرس الرسول عندما سأل السيد المسيح له المجد تلاميذه فيما بعد في قيصرية فيلبس: «وأنتم من تقولون إني هو؟. فأجاب سمعان بطرس وقال: أنت هو المسيح الله ابن الله الحيّ» (متى ١٦: ١٥ و١٦)، (لوقا ٩: ٢٠)، (مرقس ٨: ٢٩).

٦: ٢٢- ٢٧

توبيخه للذين تبعوه لأجل الخبز:

وفي اليوم التالي راح الجمع يبحثون عن مخلصنا، إذ صنع لهم وأمامهم واحدة من أعظم معجزاته، وهي أنه أطعمهم وكانوا خمسة آلاف نفس بخمس خبزات من الشعير وسمكتين صغيرتين، أي خلق لهم طعاماً أشبعهم جميعاً وفاض منه قدر كبير، وكانوا لم يروه مع تلاميذه حين ركبوا السفينة التي أقلعت بهم في بحر الجليل. ولم يروا سفينة غيرها جاءت بعدها ليركبها مخلصنا بعد رحيل تلاميذه. بيد أن سفناً أخرى لم تلبث أن أقبلت من مدينة طبرية إلى قُرب المكان الذي كانوا واقفين فيه، والذي أكلوا فيه الخبز بعد أن صلّى ربنا عليه صلاة الشكر (يوحنا ٦: ١١) فلما تبين لهم أنه لا مخلصنا كان هناك ولا تلاميذه، وإذ كانوا يريدون أن يتبعوه حيثما ذهب، ركبوا هم أيضاً تلك السفن التي أقبلت من طبرية، وجاءوا إلى كفر ناحوم يبحثون عنه، لأنهم كانوا يعلمون أنه يقيم في تلك المدينة مع تلاميذه. وقد وجدوه فعلاً على الضفة الأخرى من البحر. يعلّم في المجمع الذي في كفرناحوم- كما ذكر لنا القديس يوحنا في الآيات التالية- فقالوا له: «يا معلم متى جئت إلى هنا؟»، لأنهم لم يكونوا قد رأوا سفينة أخرى جاءت إلى الضفة الأخرى التي كانوا واقفين عليها غير تلك التي ركبها تلاميذه ليركبها هو ويتبعهم. فعجبوا كيف اجتاز البحر إلى كفر ناحوم ومتى فعل هذا. وقد كان بحثهم عنه وتكبدهم تلك المشقة كي يجدوه يبدو في ظاهر الأمر - بعد أن رأوا المعجزة التي صنعها أمامهم وغيرها من المعجزات التي سبق لهم أن رأوها أو سمعوا بها أرادوا أن يتبعوه - كدليل على إيمانهم به. ولكن ربنا ومخلصنا العالم بكل شيء، والعارف بخفايا القلوب، صارحهم قائلاً لهم: «الحق الحق أقول لكم إنكم تبحثون عني، لا لأنكم رأيتم المعجزات، وإنما لأنكم أكلتم من الخبز وشبعتم».

وهكذا نرى مدى ما كان اليهود قد وصلوا إليه من تفاهة في التفكير والشعور، وتعلّق بالماديات وبكل مايجدون فيه منفعة لأشخاصهم، غير مكترثين بالتفكير في حقيقة ذلك الذي يقدم المنفعة لهم أو في الوسيلة التي يقدم بها إليهم تلك المنفعة، ولو كانت المعجزة من المعجزات التي لا يستطيع أن يصنعها إلا الله وحده. فمع أنهم كانوا يتعصبون لشريعتهم تعصباً أعمى، ويتظاهرون بإيمانهم بالله الذي أعطاهم تلك الشريعة إيماناً عظيماً، لم يكونوا في الواقع يفكرون

في الله ولا في تنفيذ الوصايا الواردة في شريعتهم، بقدر ما كانوا يفكرون في إشباع بطونهم والتكالب على شهواتهم وتحقيق مطامعهم التي لا تهدف إلا إلى اكتناز المال، وانتهاز كل فرصة تتيح لهم الوصول إلى الجاه ووجاهة هذه الدنيا والمناصب العليا التي تضفي عليهم مايرضي غرورهم ويدفع الآخرين إلى تكريمهم وتعظيمهم. وقد كانت تلك هي الصفات التي يتصفون بها جميعاً، ولا سيما رؤساء الكهنة والكتبة والفريسيين والصدوقيين وأمثالهم ممن كانوا يزعمون أنهم أكثر الناس غيرة على عبادة الله وحرصاً على العمل بشريعته. وحتى إذا أظهر بعض اليهود إيمانهم بمخلصنا حين يرون إحدى معجزاته، كما فعل أولئك الذين أطعمهم بمعجزة حتى شبعوا، فإن إيمانهم هذا كان سطحياً ووقتياً، فسرعان ماكان يتبدد ويزول، بل ينقلب أحياناً إلى نقيضه، كما فعلوا مع مخلصنا إذ آمنوا به بعض الوقت، ثم لم يلبثوا أن انقلبوا عليه وتنكروا له وأنكروه. وفي آخر الأمر أمسكوه وصلبوه. ومن ثم قال مخلصنا لأولئك الذين بحثوا عنه وعبروا البحر ليجدوه: « اعملوا لا من أجل الطعام الفاني، وإنما من أجل الطعام الباقي للحياة الأبدية، الذي يعطيكم ابن الإنسان، لأن هذا قد أقره الله الآب بختمه»، أي أنهم ينبغي ألا يضعوا كل همهم وإهتمامهم في العمل من أجل الطعام المادي الفاني ليشبعوا بطونهم، ومن أجل كل مايرمز إليه الطعام من مطالب الدنيا وشهواتها المادية، لأن هذه كلها لا تلبث أن تزول وتفنى ولا يبقى لهم من فائدتها شيء، بل إنها قد تؤدي إلى هلاكهم الأبدي. وفي ذلك يقول بولس الرسول في رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس «الأطعمة للجوف، والجوف للأطعمة، والله سيبيد هذا وتلك» (١ . كورنثوس ٦ : ١٣) (كولوسي ٢ : ٢٢). وإنما ليعملوا من أجل الطعام الأبدي الباقي للحياة الأبدية، أي البركات السمائية التي لا تزول ولا تفنى، والتي ينالها من يأخذ من جسده ودمه الأقدسين (يوحنا ٦ : ٥٤)، لأنها تؤدي بهم إلى الحياة الأبدية في ملكوت الله (يوحنا ٤ : ١٤)، تلك البركات التي يمنحهم إياها ابن الإنسان الذي هو مخلصنا ابن الله، الذي شهد الله علانية بأنه ابنه (متى ٣ : ١٧)، (مرقس ١ : ١١)، (لوقا ٣ : ٢٢)، (متى ١٧ : ٥)، (٩ : ٧)، (لوقا ٩ : ٣٥)، (يوحنا ١ : ٣٥)، (٥ : ٣٧)، (٨ : ١٨)، (الأعمال ٢ : ٢٢)، (٢ . بطرس ١ : ١٧) وختم الله الآب تلك الشهادة بختمه الذي يدل على أنها وثيقة رسمية صادرة عنه، كما اعتاد الناس أن يختموا كل وثيقة يريدوا أن يثبتوا أنها حقيقية، وأنها فعلاً صادرة عنهم، لا ينكروها هم، ولا يستطيع أحد أن ينكرها.

٦ : ٢٨ — ٤٠

السيد المسيح يعلن أنه هو خبز الحياة:

فلما قال مخلصنا ذلك لأولئك الذين بحثوا عنه وجاءوا إليه، ولأولئك الذين كانوا في المجمع قبل مجيئهم يستمعون إلى تعاليمه، ثارت بينهم وبينه مناقشة حادة، كتلك التي ثارت حين شفى الرجل العليل عند بركة بيت حسدا في يوم سبت، وقال عن نفسه إنه ابن الله (يوحنا ٥ : ١٨). إذ

قالوا له في هذه المرة: «ماذا نفعل حتى نعمل أعمال الله؟». فأجاب مخلصنا وقال لهم: «هذا هو عمل الله، أن تؤمنوا بالذي أرسله». فمع أنهم سألوه عن الأعمال التي تجعلهم صالحين أمام الله، والتي تجعلهم مستحقين للحياة الأبدية التي وعد بها الصالحين منهم، أجابهم بأن ثمة عملاً واحداً يكفيهم أن يعملوه، لأنه ينطوي في ذاته على كل الأعمال التي تؤدي بهم إلى الحياة الأبدية، وذلك العمل هو أن يؤمنوا بالذي أرسله الله (يوحنا ٣ : ١٧)، وهو مخلصنا الذي - وإن كان هو ابن الله الآب، وهو متحد اتحاداً كاملاً به - قد اتفقت مشيئتهما معاً على أن يكون هو الرسول إلى البشر الذي يصالح بينهم وبين الله ليرفع عنهم خطاياهم، بأن يقدم نفسه فداء عنهم، وبذلك يخلصهم من الهلاك الأبدي المحكوم به عليهم.. «لأن الله لم يرسل ابنه إلى العالم ليدين العالم، وإنما ليخلص به العالم» (يوحنا ٣ : ١٧). فلو آمن البشر جميعاً بمخلّصنا، يكونون بذلك قد آمنوا بالابن وبالآب معاً، وتكون النتيجة أنهم بحكم ذلك الإيمان سيعملون كل الأعمال التي ترضي الله، فيمنحهم الحياة الأبدية التي وعدهم بها لو آمنوا به.

على أن الإرسال للابن من قبل الآب ليس هو كإرسال الأنبياء. إنما هو كإرسال الشمس لأشعتها. فهو إرسال باتصال لا بانفصال، لأن الابن مع نزوله إلى العالم هو كائن مع الآب وفي الآب (يوحنا ١٠ : ٣٠)، (يوحنا ١٤ : ١٠ و١١ و٢٠)، (١٠ : ٣٨)، (١٧ : ٢١).

وربما يرد هنا سؤال وهو: هل عمل الله هو مجرّد الإيمان بالابن الذي نزل من السماء؟. بيد أن الجواب على ذلك هو أن الإيمان المطلوب ليس هو مجرد الإيمان اللفظي بالابن، إنما لأن نزول الابن من السماء هو فضل ورحمة من الله فإن هذا النزول هو للافتقاد، وللرحمة، ثم للخلاص. وهذا هو عمل الله مع الإنسان ومن أجل الإنسان. فلم يعد الله كما في المفهوم الوثني إلهاً يسكن وراء الجبال ولا يحفل بآلام البشر، وإنما الله في المسيحية هو الأب الرحيم والراعي الصالح.. «فإذ قد تشارك الأولاد في اللحم والدم اشترك هو أيضاً كذلك فيهما لكي يبيد بالموت ذلك الذي له سلطان الموت أي إبليس» (العبرانيين ٢ : ١٤) فالإيمان هنا هو إيمان بمحبة الله ورحمته «لأنه إلى هذا المدى أحب الله العالم حتى إنه بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به، وإنما ينال الحياة الأبدية» (يوحنا ٣ : ١٦) ويتبع الإيمان العمل وحفظ وصايا الله، فإن «الإيمان بدون أعمال ميت» (يعقوب ٢ : ٢٦)، (يوحنا ١٤ : ٢٢ و٢٣). «فمن يؤمن بالابن له الحياة الأبدية» (يوحنا ٣ : ٣٦).

وإذ تضمن قول مخلصنا التصريح بأنه هو ابن الله، ومع أن الحاضرين من اليهود سبق أن سمعوا من أقواله ورأوا من أعماله ومعجزاته ما يبرهن برهاناً ساطعاً وقاطعاً على أنه هو ابن الله بالفعل، سألوه قائلين: أية آية تصنع أنت لنرى ونؤمن بك؟ أي عمل تصنع؟، مما يدل على أنهم

بالفعل كما سبق أن قال عنهم مخلصنا: مبصرون لا يبصرون، وسامعون لا يسمعون ولا يفهمون» (متى ١٣ : ١٣) . وقد أرادوا أن يقارنوا بين معجزاته ومعجزات موسى التى صنعها مع آبائهم فى صحراء سيناء، ليثبتوا أن مخلصنا أقل شأناً من أن يكون مساوياً لموسى الذى يفخرون به، ومن أن يقول بالأحرى عن نفسه إنه هو ابن الله. وليست هذه هى المرة الوحيدة التى سألوا فيها المسيح له المجد أن يأتيهم بآية من السماء (متى ١٢ : ٣٨)، (١٦ :١)، (مرقس ٨ : ١١)، (لوقا ١١ : ١٦)، (يوحنا ٢ : ١٨) ومن ثم قالوا له «إن آباءنا أكلوا المن فى البرية وفقاً لما هو مكتوب. أنه أعطاهم خبزاً من السماء ليأكلوا»مشيرين بذلك إلى ما فى سفر المزامير إذ يقول: «أمطر عليهم مناً للأكل.. أكل الإنسان خبز الملائكة» (المزمور ٧٧ : ٢٤ و٢٥) - أنظر أيضاً الخروج (١٦ : ٤ و١٤ و١٥ و٣١ و٣٥)، (العدد ١١ : ٧)، (نحميا ٩ : ١٥ و٢٠)، (١ - كورنثوس ١٠ : ٣) . فقال لهم مخلصنا «الحق الحق أقول لكم إن موسى لم يعطكم الخبز من السماء، وإنما أبى هو الذى يعطيكم الخبز الحقيقى من السماء. لأن خبز الله هو الذى ينزل من السماء، ويهب الحياة الأبدية للعالم» . وذلك أن موسى لم يكن هو الذى أعطاهم الخبز من السماء وإنما كان الله هو الذى أعطاهم المن ليأكلوه بدلا من الخبز لعدم وجود الخبز فى الصحراء (الخروج ١٦ : ٤ و١٥)، (نحميا ٩ : ١٥ و٢٠)، (المزمور ٧٧ : ٢٤)، (التثنية ٨ : ٣) . وكان هذا المن طعاماً يأمنون به غائلة الجوع، ولكنه كان مؤقتاً، يأكلون منه ويشبعون، ولكنه لا يلبث أن يفسد بعد ساعات قليلة ويرعى فيه الدود (الخروج ١٦ : ٢٠) . وأما الخبز الحقيقى، أى النعمة الحقيقية التى تغذى الروح لا الجسد والذى لا يفسد ولا ينتهى الشبع منه أبداً، فهو الذى يرسله إليهم الله الآب من السماء، لأن خبز الله هو المسيح ابن الله الذى نزل وينزل من السماء. وهو ليس كالخبز المادى الذى لا يلبث أن يفنى، والذى مهما أكل منه الإنسان طيلة عمره، فإن هذا الإنسان لا يلبث أن يموت، وإنما هو الذى يهب الحياة الأبدية للناس، فلا تنتهى بالموت الجسدى حياتهم، وإنما يظلون أحياء بالروح إلى الأبد. وإذ كان تفكير اليهود سطحياً وتافهاً ومادياً، لا يتجاوز احتياجاتهم الجسدية والدنيوية، ويتطلعون دائماً لأن يحصلوا على ما هو أكثر فائدة وأكثر وفرة من تلك الاحتياجات. ففعلوا حين قال لهم مخلصنا ذلك، كما فعلت المرأة السامرية من قبل حين قال لها له المجد «لو كنت تعرفين عطية الله ومن هو الذى يقول لك أعطينى لأشرب، لطلبت أنت منه، فأعطاك ماءً حياً.. من يشرب من الماء الذى أعطيه إياه أنا، فلن يعطش إلى الأبد» فأجابته المرأة فى سذاجة دون أن تفهم قصده قائلة «يا سيد. أعطنى هذا الماء لكيلا أعطش» (يوحنا ٤ : ١٤ و١٥) . وذلك أن

أولئك اليهود حين حدثهم له المجد عن الخبز الذي يهبهم الحياة الأبدية قالوا له «يارب أعطنا هذا الخبز في كل حين»، وقد ظنوا خبزاً عادياً كالذي يأكلونه، ولكن له ميزة خاصة، هي أنهم إذا أكلوه يتمتعون بالحياة الأبدية فلا يموتون. وعندئذ كشف لهم مخلصنا عن المعنى الحقيقي الذي لم يفهموه لذلك الخبز الذي حدثهم عنه، قائلاً لهم «أنا هو خبز الحياة. من يُقبل إليَّ فلن يجوع. ومن يؤمن بي فلن يعطش أبداً. ولكنني قلت لكم إنكم قد رأيتموني ولم تؤمنوا. كل ما يعطينيه الآب يقبل إليَّ، ومن يقبل إليَّ لا ألقيه خارجاً. لأني قد نزلت من السماء، لا لأعمل بمشيئتي وإنما بمشيئة الآب الذي أرسلني. وهذه هي مشيئة الآب الذي أرسلني: أن كل الذين أعطاني لا أهلك منهم أحداً، بل أقيمه في اليوم الأخير. لأن هذه هي مشيئة أبي الذي أرسلني أن كل من يرى الابن ويؤمن به تكون له الحياة الأبدية، وأنا أقيمه في اليوم الأخير».

ومخلصنا له المجد حين يتكلم عن الخبز هنا، لا يقصد ذلك الخبز الذي نأكله كطعام لأجسادنا، وإنما هو يقصد أن ذلك الخبز المادي بوصفه أهم عناصر الطعام في المحافظة على الجسم لكي يستمر في الحياة الأرضية، فلا يجوع ويؤدي به الجوع إلى الموت، يعد رمزاً لذلك الطعام الروحي الذي لابد أن تتغذى به الروح لكي تستمر في الحياة الروحية هنا في الأرض ثم بعد ذلك في السماء، وبدونه تموت الروح على الرغم من استمرار حياة الجسد في الأرض، ثم يكون مصيرها بعد موت الجسد هو الموت الأبدي في السماء. ولذلك يقول له المجد: «أنا هو خبز الحياة»، أي الطعام الروحاني الذي تتغذى به الروح فتحيا به في كل زمان ومكان، وبدونه تموت في كل زمان ومكان كذلك. فالذي يؤمن بمخلصنا ويقبله ويقبل إليه لن يجوع ولن يعطش أبداً، وبذلك يحيا إلى الأبد. لأنه كما أن الجسد يموت إذا جاع وعطش، هكذا الروح تموت إذا لم تتزود بالطعام الروحاني من عند مخلصنا، وتجعله طعامها وشرابها على الدوام. وقد كرر له المجد هذا التعبير في نفس المناسبة بقوله «أنا هو خبز الحياة» (يوحنا ٦ : ٤٨ و٥١ و٥٨).

ولكن اليهود على الرغم من أنهم رأوا مخلصنا وأبصروا أعماله وسمعوا أقواله التي تدل دلالة قاطعة وساطعة على أنه هو ابن الله مخلص البشر الذي تنبأ بمجيئه كل أنبيائهم، لم يؤمنوا به (يوحنا ٦ : ٦٤) . ولم يجعلوه طعاماً وشراباً لأرواحهم كي تحيا أرواحهم ولا تموت، في حين أن الذين يفتح الله الآب قلوبهم (يوحنا ١٧ : ٢٢، ٢٤) ليؤمنوا به بوصفه ابن الله، سيقبلونه على هذا الوصف ويقبلون إليه (يوحنا ٦ : ٤٤ و٤٥) . ومن يفعل ذلك منهم يمنحه ابن الله الحياة الأبدية، ولن يلقى به خارجاً إلى ظلمات الموت الأبدي (يوحنا ٣ : ١٥ و١٦) ، لأنه هو ابن الله قد نزل من السماء ليتمم التدبير الإلهي الذي يقضي بأن يقدم نفسه ذبيحة عنهم (العبرانيين ٩ : ٢٦) ،

(العبرانيين ١٠: ١٢)، وفاديا لهم (العبرانيين ٩: ١٢)، ويغفر خطاياهم، وبذلك يصالح بين الله وبينهم (رومية ٥: ١١). فينقذهم من الهلاك الذي قضت به العدالة الإلهية عليهم (التكوين ٢: ١٧)، (٣: ٣) بسبب تلك الخطايا التي ارتكبوها، إذ خالفوا وصايا الله التي أوصى بها آدم جدهم الأول. ومخلصنا إذ نزل من السماء (يوحنا ٣: ١٣)، واتخذ جسداً بشرياً لكي يتمم هذا التدبير الإلهي، لم يكن يعمل بمشيئته هو وحده بوصفه ابن الله (متى ٢٦: ٣٩ و٤٢)، (مرقس ١٤: ٣٦)، (لوقا ٢٢: ٤٢). وإنما بالاتفاق في ذلك مع مشيئة أبيه (يوحنا ٤: ٣٤)، (٥: ٣٠) الذي هو متحد به اتحاداً كاملاً، والذي نزل من السماء مرسلاً منه بناء على مشيئتهما معاً. وقد كان من مقتضيات هذه المشيئة أن كل الذين فتح الله الآب قلوبهم ليؤمنوا بالابن لا يهلك الابن منهم أحداً (يوحنا ١٠: ٢٨)، (١٧: ١٢)، (١٨: ٩) بل في اليوم الأخير، أي في يوم القيامة، يمنحهم الحياة الأبدية فلا يهلكون ولا يموتون الموت الأبدي (يوحنا ٣: ١٥ و١٦)، (٤: ١٤)، (٦: ٢٧ و٤٧ و٥٤).

ومما يثير الانتباه في حديث السيد المسيح له المجد في هذا النص القدسيّ:

أولاً: توكيده على أنه نزل من السماء، إذ يقول له المجد «لأني قد نزلت من السماء لا لأصنع مشيئتي» (٦: ٣٨) ويقول مرة أخرى «أنا هو خبز الحياة.. الخبز النازل من السماء ليأكل منه الإنسان فلا يموت. أنا هو الخبز الحيّ الذي نزل من السماء» (٦: ٤٨- ٥١). انظر أيضاً (٦: ٥٨). ولقد سبق له المجد أن قال كذلك «ما من أحد صعد إلى السماء، إلا ذلك الذي نزل من السماء، ابن الإنسان الذي هو في السماء» (يوحنا ٣: ١٣). وليس هذا إنكاراً لتجسده من العذراء مريم، ولكنه بيان لوجوده السابق على التجسُّد. فالمسيح له وجود قبل الزمان، ووجود في الزمان. وقبل أن يولد من العذراء مريم كان كائناً في السماء. فليس ميلاده إلا تجسُّداً. إذ يقول أيضاً «فماذا لو رأيتم ابن الإنسان صاعداً إلى حيث كان قبلاً» (يوحنا ٦: ٦٢)، مما يؤكد حقيقة وجوده السابق في السماء قبل التجسد.

ثانياً: كشف مخلصنا له المجد عن حقيقة أنه هو بذاته الخبز السماوي، وأنه الطعام الحقيقي والمحيي، الذي يهب الحياة لمن يؤمن به، ولمن يقبل إليه، ولمن يغتذي منه ويعتمد عليه. وأن المن الذي أكله بنو اسرائيل في البرية كان مجرد رمز للخبز الحقيقي الذي يهبه المسيح لمن يقبل إليه بإيمان واستحقاق، وسوف يقرر في فقرة تالية أن هذا الخبز هو جسده ودمه الأقدسان.

ثالثاً: أنه ذو سلطان على أن يقيم المؤمنين به والمعتمدين عليه، والأحياء به، في اليوم الأخير، وهو يوم القيامة ولا عجب فهو يقرر في موضع آخر أنه هو القيامة والحياة (يوحنا ١١: ٢٥).

تذمر اليهود لأنه قال «أنا هو الخبز الذي نزل من السماء»:

وحين كشف مخلصنا عن هذا السر الإلهي تذمروا عليه فيما بينهم، لأنه قال: «أنا هو الخبز الذي نزل من السماء». وقالوا: «أليس هذا هو يسوع بن يوسف الذي نحن نعرف أباه وأمه. فكيف يقول الآن إني نزلت من السماء؟». وهكذا تراجع اليهود سريعاً عن إيمانهم بمخلصنا، لأنهم كانوا قوماً سطحيين غير ثابتين في تفكيرهم أو في شعورهم، ينقلبون في لحظة من النقيض إلى النقيض. فبعد أن بحثوا عن ذلك الذي أطعمهم بمعجزة واجتازوا البحر ليجدوه ويمجدوه، وبعد أن حاولوا أن يختطفوه ليقيموه ملكاً عليهم، إذا بهم في اليوم التالي مباشرة يستهينون به ويهينونه بعبارات السخرية والاستخفاف. معيرين إياه بأنه لم يكن - كما سبق أن عرفوه - إلا شخصا فقيراً من عائلة فقيرة. فكان أبوه - كما كانوا يظنون (لوقا ٣ : ٢٣) - هو يوسف الذي كان يعمل نجاراً بسيطاً (متى ١٣ : ٥٥)، (مرقس ٦ : ٣)، (لوقا ٤ : ٢٢). وكان هو يعمل معه في مهنته تلك المتواضعة. وكانت أمه مريم امرأة فقيرة وبسيطة كذلك. وقد عاش مع أولئك اليهود الذين كانوا يستمعون إليه كواحدٍ منهم، لا يميزه عنهم مال ولا جاه ولا منصب ولا مكانة مرموقة في المجتمع. فكيف يقول الآن إنه ابن الله وإنه نزل من السماء. وقد تجاهلوا تماماً ما سبق أن رأوه يصنع من المعجزات التي تدل على صدقه فيما يقول، والتي تجعله جديراً بالتمجيد والتكريم، فلم يذكروا عنه إلا حياته السابقة التي لا تستحق في نظرهم تمجيداً ولا تكريماً، وإنما إهانة واستهانة. ومن ثم صدق فيهم قوله: «لا نبي بلا كرامة إلا في وطنه وفي بيته» (متى ١٣ : ٥٧)، (مرقس ٦ : ٤)، (لوقا ٤ : ٢٤)، (يوحنا ٤ : ٤٤) بيد أنه التمس لهم العذر فيما قالوه عنه. لأن الحقائق التي ذكرها لهم كانت أسراراً إلهية لا يمكن لعقولهم السطحية الساذجة أن تفهمها أو ترتفع إلى مستواها، ولأنهم ليس في قدرتهم الإيمان بها إلا إذا وهبهم الله نعمة تفتح قلوبهم وعقولهم لقبولها والتسليم بها. فأجابهم له المجد قائلاً: «لا تتذمروا فيما بينكم. ما من أحد يستطيع أن يقبل نحوي مالم يجتذبه إليّ الآب الذي أرسلني. وأنا أقيمه في اليوم الأخير. إنه مكتوب في أسفار الأنبياء أن الجميع سيكونون متعلمين من الله. فكل من استمع إلى أبي وتعلم منه يقبل نحوي. لا أحد قد رأى الآب إلا الذي هو من الله. فهذا هو الذي رأى الآب. الحقّ الحقّ أقول لكم إن من يؤمن بي فله الحياة الأبدية».

وبذلك أكد فادينا أن الإيمان به لايكتسبه إلا أولئك الذين شاءوا فأنار الله بصائرهم وأبصارهم (يوحنا ٣ : ٢٧)، (٦ : ٦٥)، (نشيد الأناشيد ١ : ٤). وأخذ بأيديهم في ظلام الجهل وسواد القلب وتبلد الشعور وموت الوجدان ليروا من خلف الستار الجسدي لمخلصنا مجده الإلهي، فينجذبوا إليه

ويقبلوه، ويقبلوا نحوه ويؤمنوا به. ومن ثم يأخذهم مخلصنا في حضنه ويباركهم ويرعاهم، ثم يقيمهم في اليوم الأخير (يوحنا ٦: ٣٩ و٤٠ و٤٤)، ليحيوا معه إلى الأبد. وقد قرر مخلصنا أن الله مع مرور الزمن سينير عقول جميع الناس من كل الأجناس، سواء أكانوا يهوداً أم غير يهود، إذا استمعوا إلى كلام الله وتعلموا منه. بحيث يرون كلهم مجد مخلصنا فيقبلون إليه ويؤمنون به. وقد سبق لأنبياء العهد القديم أن تنبأوا بذلك، ومنهم إرميا الذي تنبأ قائلاً: «يقول الرب: أجعل شريعتي في داخلهم وأكتبها على قلوبهم.. وأكون لهم إلهاً، وهم يكونون لي شعباً.. ولا يعلمون بعد كل واحد صاحبه. وكل واحد أخاه قائلين اعرفوا الرب، لأنهم كلهم سيعرفونني من صغيرهم إلى كبيرهم. يقول الرب، لأني أصفح عن إثمهم ولا أذكر خطيئتهم بعد» (إرميا ٣١: ٣٣ و٣٤). وانظر أيضاً (إشعياء ٥٤: ١٣)، (ميخا ٤: ٢)، (١. تسالونيكي ٤: ٩)، (العبرانيين ٨: ١٠-١٢)، (١٠: ١٦ و١٧)، (١. يوحنا ٢: ٢٧). فكل من استمع إلى الآب وتعلم منه يؤمن بمخلصنا ابن الله ويقبل نحوه (يوحنا ٦: ٣٧ و٤٤ و٦٥)، لا لعلمه بطبيعة الآب، وإنما يتعلمه منه. لأنه لا أحد من البشر قد رأى الآب ولا عرف طبيعته، إلا مخلصنا الذي هو من طبيعة الآب. ومن جوهره. قال له المجد «أما أنا فأعرفه، لأني منه» (يوحنا ٧: ٢٩) وفي وحدة معه، إذ هو كائن معه وفيه (يوحنا ١٠: ٣٠)، (١٤: ١٠ و٢٠)، (١٧: ٢١). فهو وحده الذي قد رأى الآب بحكم تلك الوحدة التي تجمعهما لأنهما معاً إله واحد (قارن يوحنا ٥: ٣٧)، ومن ثم فإن الذي يؤمن بالله الآب إنما يؤمن بالتالي بالله الابن، وبذلك الإيمان تكون له الحياة الأبدية (يوحنا ٣: ١٦ و٣٦)، (٥: ٢٤)، (٦: ٤٠)، (١١: ٣٦). وقد قال الإنجيل في نفس المعنى: «الله لم يره أحد قط، الابن الوحيد الذي في حضن الآب هو الذي أخبر عنه» (يوحنا ١: ١٨). وقال أيضاً «ولا أحد يعرف الابن إلا الآب: ولا أحد يعرف الآب إلا الابن» (متى ١١: ٢٧)، (لوقا ١٠: ٢٢) وقال مخلصنا له المجد «إن أبي يعرفني وأنا أعرف الآب» (يوحنا ١٠: ١٥). وقال في مناجاته للآب «يا أبتاه الحق إن العالم لم يعرفك وأما أنا فعرفتك» (يوحنا ١٧: ٢٥).

ثم عاد مخلصنا فأكد لليهود ما سبق أن قاله لهم وأدى إلى تذمرهم، قائلاً لهم: «أنا هو خبز الحياة. آباؤكم أكلوا المن في البرية وماتوا. أما هذا فهو الخبز النازل من السماء ليأكل منه الإنسان فلا يموت. أنا هو الخبز الحي الذي نزل من السماء. من يأكل من هذا الخبز يحيا إلى الأبد. والخبز الذي سأعطيه أنا هو جسدي الذي سأبذله من أجل حياة العالم». فإذا كان اليهود قد تفاخروا عليه له المجد بالمعجزة التي جرت لآبائهم في صحراء سيناء على يد موسى النبي، وهي أن الله أرسل لهم المن ليأكلوه في تلك الصحراء التي لا طعام فيها. فإن هذا المن لم يكن إلا طعاماً وقتياً لا يغذي إلا جسد الإنسان، ثم لا يلبث هذا الطعام أن يفسد ولا يلبث ذلك الإنسان أن يموت. وفعلاً فإن كل آباء اليهود الذين أكلوا من ذلك المن ماتوا (يوحنا ٦: ٣١). أما مخلصنا

فهو الخبز الحي. وهو خبز الحياة، الذى من يأكله يحيا إلى الأبد ولايموت (يوحنا ٦ : ٥١ و٥٨). وليس للموت الثانى عليه سلطان (الرؤيا ٢٠ : ٦)، والإنسان الذى يتغذى بهذا الخبز الحى الذى نزل من السماء (يوحنا ٣ : ١٣) تكون له الحياة الأبدية.

وهنا يكشف السيد المسيح له المجد عن سر عظيم وهو سر التناول من جسده ودمه. فالمسيح هو «شجرة الحياة» الحقيقية (التكوين ٢ : ٩)، (٣ : ٢٢ و٢٤). وهو «الكرمة الحقيقية» (يوحنا ١٥ : ١) والمؤمنون به هم الأغصان. فهو له المجد يقول «فكما أن الغصن لا يمكنه أن يأتى بثمر من ذاته وحده إن لم يثبت فى الكرمة. هكذا أنتم لا يمكنكم أن تأتوا بثمر إن لم تثبتوا فىَّ. أنا الكرمة وأنتم الأغصان. فالذى يثبت فىَّ وأنا فيه يأتى بثمر كثير، لأنكم بدونى لا تستطيعون أن تفعلوا شيئاً. وأما الذى لا يثبت فىَّ فيطرح خارجاً كالغصن يجف» (يوحنا ١٥ : ١ – ٦). ولما لم يكن للغصن حياة من غير الكرمة التى يأخذ منها عصارة الحياة فتسرى فيه الحياة. ومن دون ذلك يجف ويموت. هكذا المؤمنون حياتهم بالمسيح ومن المسيح. منه يستمدون الحياة، لأن فيه كانت الحياة (يوحنا ١ : ٤). والسيد المسيح يتكلم هنا بكل الوضوح قائلاً إنه هو الخبز الحقيقى الذى نزل من السماء (يوحنا ٦ : ٣٢) وخبز الحياة (يوحنا ٦ : ٣٥) الذى يهب الحياة للعالم (يوحنا ٦ : ٣٣) وأنه هو جسده ودمه الذى يبذله من أجل حياة العالم (العبرانيين ١٠ : ١٠). وأن من يأكله يحيا به، وأن جسده هو الطعام الحق، وأن دمه هو الشراب الحق، ولذلك فإن من يأكل جسده ويشرب دمه فله الحياة الأبدية. أما الذى لا يأكل جسده ولا يشرب دمه فليس له حياة فى نفسه. وكلها كلمات واضحة، ولا تحتاج إلى مزيد من تفسير فى أن سر التناول ذبيحة حقيقية يأكل منها الإنسان أكلاً حقيقياً لا مجازياً ولا معنوياً، وأنه بهذا الأكل الحقيقى والشرب الحقيقى يستمد عصارة الحياة من الكرمة الحقيقية لكى يحيا، ومن دون ذلك فلا حياة. فالإنسان - وهو له بداءة - لابد أن تكون له نهاية. أما الذى يعطيه الحياة إلى الأبد فهو تناوله من شجرة الحياة التى هى جسد المسيح ودمه. لأن المسيح «فيه كانت الحياة» (يوحنا ١ : ٤) بل هو «الحياة» ذاتها، فقد قال «أنا هو القيامة والحياة» (يوحنا ١١ : ٢٥). وإذن فالمسيح ليس حياً فقط، بل هو «الحياة» وله «الحياة فى ذاته» (يوحنا ٥ : ٢٦). وهو لذلك واهب الحياة، وأصل الحياة، ومبدىء الحياة، ومنه الحياة «كل شىء به كان وبغيره لم يكن شيئاً مما كان» (يوحنا ١ : ٣). ولأن مخلصنا كشف بوضوح عن حقيقة التناول من جسده ودمه الأقدسين، وضرورة هذا التناول للحياة الأبدية، لذلك اكتفى الإنجيل للقديس يوحنا بما جاء على فم المسيح له المجد فى حديثه وحواره مع اليهود بعامة، ومع تلاميذه بخاصة. ولم يورد ما أوردته الأناجيل الثلاثة الأخرى عن تسليم السيد المسيح لسر القربان المقدس فى ليلة آلامه إذ «أخذ يسوع خبزاً وباركه وقسمه وناول

تلاميذه وقال: خذوا كلوا فإن هذا هو جسدي الذى يبذل عنكم. إصنعوا هذا لذكرى، ثم أخذ كأسا وشكر وناولهم قائلاً: اشربوا منها كلكم، فإنَّ هذا هو دمي للعهد الجديد الذى يسفك عنكم وعن كثيرين لمغفرة خطاياهم» (متى ٢٦: ٢٦- ٢٨)، (مرقص ١٤: ٢٢- ٢٤)، (لوقا ٢٢: ١٩ و٢٠). وجاء فى الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس: «لأننى تسلمت من الرب ما سلمتكم أيضا أن الرب يسوع فى الليلة التى أسلم فيها، أخذ خبزاً وشكر فكسر وقال: خذوا كلوا هذا هو جسدى المكسور لأجلكم. إصنعوا هذا لذكرى. كذلك الكأس أيضاً بعدما تعشُّوا قائلاً: هذه الكأس هى العهد الجديد بدمى. إصنعوا هذا لذكرى.. إذن فمن أكل هذا الخبز أو شرب كأس الرب بدون استحقاق يكون مجرماً إلى جسد الرب وإلى دمه. ولكن ليمتحن الإنسان نفسه. وهكذا يأكل من الخبز ويشرب من الكأس. لأن الذى يأكل ويشرب بدون استحقاق يأكل ويشرب دينونة لنفسه غير مميز جسد الرب» (١. كورنثوس ١١: ٢٣- ٣٠).

بيد أن اليهود فهموا أقوال سيدنا فهماً سطحياً مادياً فأخذوا يجادلون بعضهم بعضاً قائلين «كيف يستطيع هذا أن يعطينا جسده لنأكله؟» ومن ثم قال لهم مخلصنا «الحق الحق أقول لكم: مالم تأكلوا جسد ابن الإنسان وتشربوا دمه لا تكون لكم حياة فى أنفسكم. من يأكل جسدى ويشرب دمى فله الحياة الأبدية، وأنا أقيمه فى اليوم الأخير. لأن جسدى هو طعام حقاً، ودمى هو شراب حقاً. من يأكل جسدى ويشرب دمى يثبت فىّ وأنا أيضاً أُقيم فيه. كما أن الآب الحى قد أرسلنى، وأنا كذلك أحيا بالآب هكذا فإن الذى يأكلنى يحيا بى. هذا هو الخبز الذى نزل من السماء. وهو ليس كالمن الذى أكله آباؤكم ثم ماتوا. من يأكل من هذا الخبز يحيا إلى الأبد».

٦: ٥٩- ٧١

رجوع كثيرين من تلاميذ المسيح لعدم فهمهم طبيعته:

وقد كانت هذه الأقوال التى نطق بها مخلصنا وهو يعلِّم اليهود فى مجمعهم بكفر ناحوم، أقوالاً إلهية عالية المعنى جداً على أفهامهم، ولا سيما أن معظمهم كانوا قوماً جهلاء، مظلمى العقول ومظلمى القلوب معاً. فحين سمع هذه الأقوال كثيرون من تلاميذه الذين سبق لهم أن آمنوا وتبعوه حين سمعوا تعاليمه ورأوا معجزاته ـ وقد كان هؤلاء غير تلاميذه الاثنى عشر الذين كانوا يلازمونه ملازمة دائمة ـ قالوا فيما بينهم «إن هذا الكلام عسير. من يستطيع أن يستمع إليه؟» أى أنهم عاجزون عن فهمه. وإذ علم مخلصنا فى نفسه بمقتضى علمه الإلهى أن تلاميذه هؤلاء تذمروا من كلامه قال لهم «أهذا يجعلكم ترتابون؟ فماذا لو رأيتم ابن الإنسان صاعداً إلى حيث كان من قبل؟». أى أنهم إذا كانوا قد راودهم الشك فى صدق كلامه حين قال لهم إنه نزل

من السماء، فماذا يفعلون إذا رأوه صاعداً إلى السماء، كما حدث ذلك بالفعل بعد ذلك؟. إنهم ينبغي أن يثقوا في كلامه ثقة كاملة بعد أن أثبت لهم بتعاليمه ومعجزاته أنه قادر على كلّ شيء. والقادر على كل شيء لابد أن يكون صادقاً في كلّ مايقول. وسيكون دليل صدقه حين قال إنه نزل من السماء، هو أنه سيصعد إلى السماء. ولكنهم قد أعمى الجهل بصيرتهم. ومن ثم أعمى أبصارهم. فهم لا يصدقون حتى مايرونه بأعينهم. وإذ رأى له المجد ذلك منهم، ولمس ذلك الجهل فيهم، أخذ يعمل على إنارة قلوبهم المظلمة، وتنوير أذهانهم الجامدة المتبلّدة، ليفهموا أقواله الروحية فهماً روحيّاً لا جسدياً، ومعنوياً لا حرفياً. فقال لهم: «إنّ الرّوح هو الذي يحيي، وأما الجسد فلايجدى نفعاً. والكلام الذي قلته لكم هو روح وحياة»، لأنه إنما يوجه أقواله الروحيّة إلى أرواحهم لا إلى أجسادهم، فإذا فهموه بأرواحهم كان لهم فيه حياة لأرواحهم، وأما إذا فهموه بأجسادهم، فإنه لا يجدى نفعاً لا لأرواحهم ولا لأجسادهم، وإنما سيظلون أمواتاً بالروح وإن كانوا لا يزالون أحياء بالجسد. ولا يفهم من قوله «إن الروح هو الذي يحيي أما الجسد فلايجدى نفعاً. الكلام الذي قلته لكم هو روح وحياة» ماادّعاه بعض الذين يريدون أن يتملصوا من الفهم الواضح الصريح لكلمات السيد المسيح له المجد عن حقيقة سر التناول، وأنه فيه يعطى المسيح جسده للمؤمنين به قوتاً حقيقيّاً لأرواحهم، وغذاءً أبدياً روحانيّاً لنفوسهم للحياة الأبدية. فمعاذ الله أن يكون المعنى من ذلك أن جسد المسيح لا يجدى نفعاً. بل إنه على العكس يبيّن صراحة بهذه الكلمات أن التناول من جسده المقدّس ودمه الكريم هدفه الحقيقي بناء الروح لا الجسد. فهو قوة للروح وغذاء للنفس، وهو إكسير الحياة الذي يهب الآخذين منه الحياة الأبدية. والحياة ضد الموت. وليس معنى الحياة مجرد الاستمرار في الوجود، لكنه الاستمتاع بقوة الحياة في عالم الروح بكل أسباب السعادة الباطنية، والصحة الروحية، والسلام الداخلي الذي يفوق كل عقل. إن الأشرار سوف يقومون في اليوم الأخير للدينونة والعذاب الأبدي لا الحياة الأبدية. أما الأبرار والصدّيقون فسوف يكفل لهم تناولهم من شجرة الحياة الأبدية وهي جسد المسيح ودمه في سر التناول، ليس مجرد الاستمرار في الوجود، وإنما الوجود الحي والسعيد، والتمتع الدائم بالحياة التي في الله. فلا موت ولا مرض ولا حزن ولا كآبة ولا ألم من أي نوع، بل فرح وسلام وسعادة وحبور في الروح والجسد، لأنهم كالأغصان يأخذون من الكرمة عصارة الحياة التي تكفل للأغصان الخضرة الدائمة، والنمو، والحياة، وعدم الذبول أو الموت.

وإذ كان مخلصنا يعلم بمقتضى علمه الإلهي الذي يكشف مكنونات النفس البشرية وما تنطوي عليه العقول والقلوب، قال لهم: «ولكن قوماً منكم لا يؤمنون». فقد كان منذ البدء يعلم من هم الذين سوف لا يؤمنون به، ومن هم الذين سيؤمنون. كما كان يعلم من هو الذي سيخونه من

بين تلاميذه الاثني عشر أنفسهم ويسلمه لأعدائه ليقتلوه. وقد كان يعلم كذلك مدى غلظة قلوب اليهود وانغماسهم في الماديات الدنيوية بدرجة تطمس أرواحهم، وتغلق عقولهم، وتسدل ستاراً سميكاً من الظلام على أفهامهم بحيث يعجزون عن أن يدركوا معنى أقواله السماوية ومغزى أعماله الإلهية، فيستحيل عليهم أن يؤمنوا به ويقبلوا إليه، إلا من يمنحه الله منهم موهبة من لدنه تتطهر بها روحه، وينفتح عقله ويستنير فهمه، فيرى مجد مخلصنا الإلهي من خلال جسده البشري، ويدرك معنى أقواله على حقيقتها، وبذلك يؤمن به وبأقواله. ومن ثم قال مخلصنا لليهود: «لذلك قلت لكم إنه ما من أحد يستطيع أن يقبل إليّ ما لم يوهب من أبي».

ولذلك نكص على أعقابهم كثيرون ممن كانوا يتبعون مخلصنا ويظهرون بمظهر تلاميذه، فلم يعودوا يمشون معه كما كانوا يفعلون من قبل. فقال مخلصنا لتلاميذه الاثني عشر الذين سبق له أن اختارهم فلازموه ملازمة دائمة: «ألعلكم أنتم أيضاً تريدون أن تمضوا؟» وإنما قال لهم ذلك ليمتحن إيمانهم. فأجابه سمعان بطرس نيابة عنهم جميعاً: «يارب إلى من نذهب؟ إن كلام الحياة الأبدية عندك. ونحن قد آمنا وعرفنا بيقين أنك أنت هو قدوس الله المسيح ابن الله الحي». وبذلك القول تحقق تلاميذ مخلصنا الاثنا عشر أن علمه الإلهي بهم كان صادقاً نافذاً حين اختارهم من بين المئات غيرهم الذين تبعوه ليكونوا هم الصف الأول من المؤمنين به، وأنهم كانوا جديرين حقاً بالثقة الغالية التي وضعها فيهم ليكونوا هم أوائل الذين يحملون الأمانة التي تركها لهم ووضعها في أعناقهم، وهي التبشير به في كل أنحاء الأرض، واجتذاب النفوس من كل الأمم إلى حظيرته لتنال بالإيمان به الحياة الأبدية التي وعد بها كل الذين يؤمنون به بصفته قدّوس الله المسيح ابن الله الحي. على أنه في قوله لتلاميذه الأخصّاء، وهم الاثنا عشر «ألعلكم أنتم أيضاً تريدون أن تمضوا» يبدو واضحاً إصراره له المجد على أقواله الخاصة بسر التناول، وأن جسده هو الطعام الحق ودمه هو الشراب الحق، وأن من يأكل جسده ويشرب دمه يحيا إلى الأبد، وأن من لا يأكل جسده ويشرب دمه بالمعنى الحقيقي لا المجازي ليس له حياة في نفسه. وإلا فلماذا ترك الربّ يسوع عدداً كبيراً من أتباعه ينكصون على أعقابهم ولا يعودون يمشون معه بعد أن اعترضوا عليه قائلين: «كيف يستطيع هذا أن يعطينا جسده لنأكله» (٦: ٥٢). فيجيبهم بإصرار قائلاً «الحق الحق أقول لكم: مالم تأكلوا جسد ابن الإنسان وتشربوا دمه فلن تكون لكم حياة في أنفسكم.. لأن جسدي هو طعام حقاً ودمي هو شراب حقاً. لقد كان من الممكن لو أنهم فهموا على غير ما قصد أن يراجع قوله شارحاً بعبارات أخرى يتفادى بها فهمهم الحرفي لمنطوق كلماته. ومع ذلك لم يتراجع ولم يتنازل عن قوله مصراً عليه كل الإصرار، وهو الذي

جاء ليخلص لا ليهلك، وليجمع لا ليبدد. بل زاد على قوله أن وجه إلى تلاميذه الاثنى عشر قوله: «ألعلكم أنتم أيضاً تريدون أن تمضوا؟» أى أنه سيبقى عند قوله مصراً عليه حتى لو ذهب عنه تلاميذه الأخصاء الاثنا عشر. وهذا تعبير يبدو فيه واضحاً ثباته على موقفه، وبالتالى أن كل ماقاله خاصاً بسرّ التناول ينبغى لمن يريد أن يكون من أتباعه أن يفهمه على حقيقته فهماً حرفياً، لا مجال فيه لمجاز أو تورية.

وحين سمع مخلصنا إجابة تلاميذه على لسان بطرس قال لهم: «ألم أكن أنا الذى اخترتكم أنتم الاثنى عشر؟» مما يدل على أن إيمانهم به كان ناتجاً عن أن الله قد أنار عقولهم وأودع فى قلوبهم هذا الإيمان، ومن ثم اختارهم مخلصنا ليكونوا تلاميذه وأقرب الناس إليه وخلفاءه فى التبشير بكلمة الخلاص التى جاء بها له المجد إلى العالم. وقد كان يعلم كل مافى قلب كل واحد منهم، كما كان يعلم منذ الابتداء أن واحداً منهم سيسيطر عليه إبليس فى نهاية الأمر، ويدفعه إلى خيانته وتسليمه إلى أعدائه ليقتلوه. ولذلك ختم كلامه إليهم قائلاً «وواحد منكم لإبليس». وكان يعلم من هو ذلك الواحد بالذات من بين تلاميذه الاثنى عشر، وهو يهوذا بن سمعان الإسخريوطى، لأنه كان هو الذى سيغويه إبليس بأن يسلمه، فخضع لغوايته بالفعل، وسلمه أخيراً لأعدائه من اليهود.

الفصل السابع

٧: ١- ١٣

عدم صعوده إلى أورشليم علانية في عيد المظال لأن الوقت لم يأت بعد:

وأخذ فادينا بعد ذلك يجول في أنحاء إقليم الجليل (يوحنا ٤: ٣)، (٦: ١). ولم يشأ أن يجول في إقليم اليهودية الذى عاصمته أورشليم، لأن زعماء اليهود في ذلك الإقليم ولا سيما رؤساء الكهنة والكتبة والفريسيين والصدوقيين وأمثالهم كانوا يبتغون قتله (يوحنا ٥: ١٦ و١٨)، (٧: ١٩)، (٨: ٣٧ و٤٠)، (١١: ٥٣). ولما كان ثمة موعد محدد في الترتيب الإلهي لموته على الصليب فداء للبشر لمغفرة خطاياهم، ولم يكن هذا الموعد قد حلّ بعد، فإنه لم يشأ أن يتعرض للموت قبل حلول ذلك الموعد، حتى اقترب عيد المظال (اللاويين ٢٣: ٣٤ و٤٢ و٤٣)، (التثنية ١٦: ١٣ و١٦)، (زكريا ١٤: ١٦-١٩)، وهو آخر عيد من الأعياد السنوية الكبرى لليهود، وكانت الشريعة تقضي بأن يذهب فيه كل رجل منهم للاحتفال به في هيكل أورشليم. وكانوا يقيمون في أثناء احتفالهم به في مظال يقيمونها في ساحات المدينة، وعلى الجبال المجاورة لها، ليقيموا فيها إحياء لذكرى إقامة آبائهم في مظال مماثلة، حين كانوا في صحراء سيناء. وكان الاحتفال بذلك العيد يستمر ثمانية أيام. فلما اقترب موعده تكلم مع مخلصنا إخوته (متى ١٢: ٤٦)، (مرقس ٣: ٣١)، (الأعمال ١: ١٤) وهم في الحقيقة ليسوا إخوته وإنما أقرباؤه حسب الجسد ومعارفه فلم يكن للمسيح إخوة أشقاء، لأن أمه كانت عذراء ولم تتزوج، وكان اليهود يطلقون على الأقارب والمعارف لقب الإخوة (التكوين ١٣: ٨)، (٢٩: ١٥)، (٢. بطرس ٣: ١٥) وقد قال هؤلاء له: «ارتحل من هنا وامض إلى اليهودية، حتى يرى تلاميذك أعمالك التي تصنعها. فإنه لا أحد يعمل شيئاً في الخفية وهو يبتغي أن يكون معروفاً. إن كنت تعمل هذه الأعمال فأظهر نفسك للعالم»، إذ أن أقرباءه ومعارفه أولئك الذين كان يقال عنهم إنهم إخوته لم يكونوا هم أنفسهم يؤمنون به (مرقس ٣: ٢١). وذلك غيرة منه وحسداً له على ما نال من شهرة وتمجيد بين الناس بسبب أقواله وأعماله والمعجزات التي كانت تجرى على يديه، ومن ثم كانوا يقصدون في ما قالوه له أنه إذا كان حقًّا ما يقوله ويعمله، وإذا كانت المعجزات التي يصنعها حقيقية، فلابد أن يبغى من ورائها الشهرة والمجد لنفسه، فلا يصح أن يقتصر في إظهارها - كي يصل إلى هذه الغاية - على أعداد قليلة من الناس في منطقة الجليل، وإنما فلينتهز فرصة العيد الذى يتجمع للاحتفال به في أورشليم أعداد عظيمة من اليهود الآتين من كل أنحاء بلادهم، فيقول أمامهم ما يقول ويعمل ما يعمل، حتى يسمع تلاميذه البعيدون من المؤمنين به (يوحنا ٦: ٦) أقواله ويروا أعماله، فتزداد شهرته ويتضاعف مجده. وقد كان أقرباؤه غير مخلصين في ذلك الذى قالوه

له، لأنهم كانوا لا يعنيهم أمره هو، إذ كانوا يعلمون أن اليهود الذين فى أورشليم يريدون قتله. فلم يكترثوا بهذا الخطر الذى يهدده، وإنما كان يعنيهم أمر أنفسهم، لأنه إذا قتله اليهود يشفى ذلك غليلهم الناشىء عن غيرتهم منه وحقدهم عليه، وإذا آمن به اليهود فسيجعلونه ملكاً عليهم، فينال أولئك الأقرباء من وراء ذلك منافع لأنفسهم. وقد كان مخلصنا يعلم بطبيعة الحال خبيئة أنفسهم وما يضمرونه نحوه فى قلوبهم. ومع ذلك أجابهم بكل تسامح ووداعة قائلاً: «إنَّ وقتى لم يأت بعد، وأما أنتم فوقتكم مهيأ فى كل حين. إن العالم لا يمكن أن يبغضكم. أما أنا فيبغضنى لأنى أشهد عليه بأن أعماله شريرة. فاصعدوا أنتم إلى العيد، وأما أنا فلن أصعد الآن إلى هذا العيد، لأن وقتى لم يحن بعد».

وذلك أنه كان لكل عمل من أعمال مخلصنا وقت محدد فى التدبير الإلهى، وينبغى أن يتم فى الوقت المحدد له بالدقة. ولم يكن الوقت المحدد لذهابه إلى أورشليم قد أتى بعد (يوحنا ٢: ٤)، (٧: ٨ و٣٠)، (٨: ٢٠). وأما هم فإنهم غير مرتبطين فى أعمالهم بأى وقت محدد، ومن ثم يمكنهم أداءها فى أى وقت يشاءون دون أن يحسبوا حساب شئ. لأنهم إذ كانوا أشراراً كسائر الناس الذين فى العالم فليس لدى أحد فى العالم أى مبرر لأن يبغضهم من أجله. وأما هو فإن الناس الذين فى العالم يبغضونه (يوحنا ١٥: ١٨) لأنه يؤنبهم علانية على أعمالهم الشريرة (يوحنا ٣: ١٩)، وهم يريدون له الموت. وهو وإن كان لا يخشى الموت لأنه ماجاء إلى العالم إلا ليموت على الصليب إتماماً لعمل الفداء الذى أخذه على عاتقه (يوحنا ١٢: ٢٧) إلا أن هذا الموت له وقت محدد ينبغى أن يتم فيه، فهو لا يشاء أن يعطى اليهود فرصة لأن يقتلوه قبل الوقت المحدد لموته. كما أن ثمة وقتاً محدداً لصعوده إلى أورشليم للاحتفال بعيد المظالّ. فهو لا يشاء أن يصعد إليها قبل ذلك الوقت المحدد. وأما أقرباؤه فليصعدوا إلى هناك فى الوقت الذى يشاءون. وبالفعل قال لهم هذا ومكث فى الجليل، حتى إذا حان الوقت المحدد لصعوده هو إلى أورشليم، وكان ذلك بعد أن صعد أقرباؤه. صعد هو أيضاً إليها للاحتفال بالعيد. ولكنه حرص على ألا يراه رؤساء اليهود الذين فى أورشليم. فلم يظهر بينهم علانية، وإنما إلتزم التخفى، لئلا يقتلوه قبل الوقت المحدد لموته. وأما عامة اليهود من جموع الشعب الذين كانوا من قبل قد رأوا معجزاته أو سمعوا بها، فإنهم كانوا يتوقعون مجيئه فى ذلك العيد ويتوقون إلى رؤيته (يوحنا ١١: ٥٦). فلما تأخر ظهوره بينهم أخذوا يبحثون عنه قائلين: «أين هو؟». وكان ثمة كثير من التهامس فى شأنه بينهم (يوحنا ٩: ١٦)، (١٠: ١٩). فقد كان بعضهم يقولون «إنه إنسان صالح» (يوحنا ٢١: ٤٦)، (لوقا ٧: ١٦)، (يوحنا ٦: ١٤)، (٧: ٤٠)، فى حين كان البعض الآخر يقولون «كلا بل إنه يضل الشعب»، على أنه لم يكن أحد يتكلم علانية عنه خوفاً من رؤساء اليهود الذين كانوا يكرهونه ويحقدون عليه ويضمرون الشر له (يوحنا ٩: ٢٢)، (١٢: ٤٢)، (١٩: ٣٨).

تعليمه في الهيكل وإرسال الفريسيين خداماً ليمسكوه:

حتى إذا انقضت نصف أيام العيد، أي أربعة أيام، صعد مخلصنا إلى الهيكل، إذ حان الوقت لأن يظهر نفسه، وأخذ يعلم اليهود، فكانوا يتعجبون قائلين «كيف هذا يعرف الكتب وهو لم يتعلم؟». فقد كان معروفاً لدى اليهود أن مخلصنا يعمل نجاراً بسيطاً (متى ١٣: ٥٥)، (مرقس ٦: ٣). وأنه لم يتلق تعليماً عالياً كالذي كان يتلقاه الكتبة والفريسيون من علماء الشريعة الذين كانوا يتظاهرون باحتكارهم للعلم بخفايا شريعتهم وأسرارها، وإن كان المؤكد أن معلمنا تلقى قدراً من التعليم يؤهله لأن يقرأ ويكتب. فقد التحق بالكتّاب في الناصرة على عادة اليهود، إذ كان الكتّاب ملحقاً بالمجمع الذي يتلون فيه صلواتهم في كل مدينة وقرية، وذلك بدليل أن مخلصنا قرأ فصلاً من الشريعة في مجمع الناصرة، كما جاء في الإنجيل للقديس لوقا (لوقا ٤: ١٦- ٢١). وكذلك ورد في الإنجيل للقديس يوحنا أنه كان يعرف الكتابة، فقد كتب بإصبعه على الأرض (يوحنا ٨: ٦- ٨). كما ورد عنه أنه وهو في سن الثانية عشرة كان في الهيكل «جالساً في حلقة العلماء، يستمع إليهم ويسألهم. وكان كل الذين يسمعونه مشدوهين من علمه وأجوبته» (لوقا ٢: ٤٦ و٤٧). وذلك فضلاً عن أن ردوده على أسئلة اليهود ولا سيما الذين كانوا يريدون أن يأخذوا عليه قولاً يخالف الشريعة ليهلكوه، كانت تتضمن الدليل على معرفته الكاملة بكل أحكام الشريعة اليهودية بمقتضى علمه الناسوتي وعلمه اللاهوتي معاً وفي وقت واحد، لأنه هو صاحب تلك الشريعة وواضعها. ومن ثم أجاب معلمنا على تساؤل اليهود في هذا الشأن قائلاً: «إن تعليمي ليس من عندي، بل من عند الذي أرسلني. فإن عمل أحد بمشيئة الذي أرسلني فسيعرف عندئذ إن كان تعليمي من الله، أم أنني أتكلم من عندي وحدي. إنّ من يتكلم من عند نفسه وحده، إنما يبتغي مجد نفسه، وأما الذي يبتغي مجد الذي أرسله فهو صادق ولا يبتغي ظلماً». وذلك أن اليهود على الرغم من كل نبوءات أنبيائهم الذين تنبأوا عن المسيح الآتي بأنه ابن الله، وأنه متحد بالله اتحاداً تاماً، وهو كائن في الآب، والله الآب كائن فيه، وأن ما يقوله هو ما يقوله الله الآب نفسه في نفس الوقت، إذ جاء في سفر التثنية قول الله الآب عن ابنه «أجعل كلامي في فمه» (التثنية ١٨: ١٨)، كانوا لا يعرفون الله إلا بصورة مجرّدة من كل الحقائق المتعلقة بطبيعته كما وردت في نبوءات أنبيائهم، وكما وردت على لسان مخلصنا، ولا يؤمنون إلا بأقوال الله الآب وحده، ومن ثم أراد مخلصنا أن يساعدهم على فهم هذه الحقيقة ليؤمنوا بحقيقة شخصيته باعتباره ابن الله الذي أرسله لإتمام رسالةٍ دبرتها المحبة الإلهية للبشر من أجل خلاصهم، وهي

أن يفديهم ليحقق لهم هذا الخلاص فقرر لهم أن تعليمه إنما هو تعليم الله الآب المتحد بالله الابن، والذى أرسل الابن لإنجاز هذه الرسالة. فلئن كان الابن قد قام بالتعليم، فإن تعليمه كان هو فى نفس الوقت تعليم الله الآب نفسه فى الوقت ذاته، فإن عمل أحد من اليهود أو غير اليهود بمشيئة الله الآب الذى أرسل الابن (يوحنا ٣ : ١١)، (٨ : ٢٨)، (١٢ : ٤٩)، (١٤ : ١ و٢٤) فسيعرف عندئذ أن تعليم الابن هو فى الوقت ذاته تعليم الله الآب نفسه، وليس تعليم الابن مستقلاً عن تعليم الله الآب. ومن ثم فإنّ الابن لا يشهد لنفسه، وإنما الذى يشهد له بأنه صادق فيما قال هو أن ماقاله هو فى الوقت ذاته ماقاله الله الآب الذى هم يؤمنون به. ولكن اليهود لا يؤمنون بذلك لأنهم لا يفهمون شريعتهم التى تلقوها بواسطة الله الآب من موسى النبى (الخروج ٢٤ : ٣)، (التثنية ٣٣ : ٤)، (يوحنا ١ : ١٧)، (الأعمال ٧ : ٢٨)، ولا يعملون بمقتضاها، ولذلك يسعون إلى قتل ذلك الذى تحدثت عنه تلك الشريعة بأنه هو ابن الله، ومن ثم قال لهم مخلصنا: «أما أعطاكم موسى الشريعة، ومع ذلك فما من أحد منكم يعمل بالشريعة؟ لماذا تسعون إلى قتلى؟» ومع أنهم كانوا فعلاً يسعون إلى قتله (متى ١٢ : ١٤)، (مرقس ٣ : ٦)، (١١ : ١٨)، (يوحنا ٥ : ١٦ – ١٨)، (١٠ : ٣١ و٣٩)، (١١ : ٥٣)، فقد أنكروا ذلك، وكانوا فى ردهم عليه وقحين كل الوقاحة، إذ أجابوه قائلين «إنّ بك شيطاناً. من الذى يسعى إلى قتلك؟» فهم لم ينكروا أنهم كانوا يسعون إلى قتله فحسب، وإنما برهنوا بقولهم هذا على جهلهم بحقيقة شخصيته بوصفه المسيح ابن الله الذى ينتظرونه. وتمادوا فى ذلك الإنكار حتى لقد اتهموه بأن معجزاته التى صنعها بينهم ليبرهن لهم بها على أنه هو ابن الله إنما هى ليست من الله، وإنما من الشيطان (يوحنا ٨ : ٤٨ و٥٢)، (١٠ : ٢٠)، (متى ١١ : ١٨) فأجابهم مخلصنا وقال لهم «لقد أتيت عملاً واحداً فدهشتم كلكم. من ثم أعطاكم موسى الختان، وهو ليس من موسى، وإنما من الآباء. وأنتم تختتنون الإنسان فى السبت، فإن كان الإنسان يختتن فى السبت لئلا تنقض شريعة موسى، أفتسخطون علىّ لأننى شفيت إنساناً بأكمله فى السبت؟. لا تحكموا حسب الظاهر، وإنما احكموا بالحق». أى أنه صنع معجزة لم يروا هم غيرها وهى معجزة شفاء العليل عند بركة بيت حسدا، فدهشوا كلهم لأنه صنع تلك المعجزة فى السبت، ولاموه على ذلك. بل قدموه إلى المحاكمة بدعوى أنه خالف أحكام شريعتهم، فى حين أن لديهم حكم تلك الشريعة نفسها الذى يقضى بختان الطفل فى السبت إن صادف ذلك الموعد اليوم الثامن من مولده (اللاويين ١٢ : ٣) وتلك هى شريعة الله لم ينزلها على موسى فحسب، وإنما أنزلها قبله بنحو أربعمائة وثلاثين سنة على الآباء الأولين لليهود (التكوين ١٧ : ١٠)، (غلاطية ٣ : ١٤ و١٧). فهم إذعاناً لتلك الشريعة يختتنون الطفل فى اليوم الثامن من مولده ولو صادف ذلك يوم سبت. فإن كانوا يفعلون ذلك فى

يوم سبت لئلاً ينقضوا شريعة موسى، أفيسخطون على مخلصنا لأنه شفى إنساناً بأكمله في السبت؟. إنّ الختان عمل شرّعه الله لليهود ليكون شاهداً على العهد الذى قطعه مع آبائهم، وعلى إلتزامهم بهذا العهد. وهو يحتاج إلى عملية جراحية بسيطة لا تلبث أن يتم الشفاء منها فى أيام قليلة، واليهود يقومون به في يوم السبت إن اقتضى الأمر ذلك، على الرغم من وصية الامتناع عن القيام بأى عمل فى يوم السبت. فهل يلومون مخلصنا ساخطين عليه لأنه شفى إنساناً بأكمله، جسداً وروحاً، في يوم السبت؟ (يوحنا ٥ : ٨ و٩ و١٦) . إن هذا مخالف للمنطق والتفكير السليم. ولا يمكن أن يكون ناتجاً إلا عن أن اليهود كانوا يستهينون بالسيد المسيح ويستخفون به، لبساطة مظهره، إذ كان نجاراً متواضعاً وديعاً بسيط الثياب، لا يرتدى ملابس الملوك ولا يضع على رأسه تيجانهم، في حين أنهم كانوا يتوقعون - حسب فهمهم الخاطىء لشخصية المسيح الذى ينتظرونه - مجيء ملك تحيط به كل المظاهر الفخمة والضخمة للملوك. وذلك فضلاً عن أنهم كانوا يقيمون حتى لمظهر الأشخاص العاديين من غير الملوك وزناً كبيراً. ومن ثم كان رؤساؤهم وفقهاؤهم الكتبة والفريسيون يظهرون أمامهم بالثياب الضافية البرّاقة لينالوا احترامهم وتبجيلهم وإجلالهم، ولو كانوا فى الحقيقة أبعد الناس عن استحقاق الاحترام والتبجيل والإجلال. ومن ثم أوصاهم مخلصنا قائلاً: «لا تحكموا حسب الظاهر. إنما احكموا بالحق». لأنهم إن حكموا بالحق، ولم يحاسبوا مخلصنا على حسب مظهره الإنسانى البسيط، وإنما على مقتضى أعماله الإلهية العظيمة، لايعودوا بعد ذلك يستهينون أو يستخفون به أو يسخطون عليه أو يحاكمونه من أجل عمل صالح قام به في يوم السبت. بل على العكس يكبرونه ويعظمونه ويؤمنون بحقيقة شخصيته، لا كمجرد إنسان، وإنما لأنه يملك القدرة الإلهية التى بها. وبها وحدها، يصنع كل معجزاته. (اللاويين ١٩ : ١٥)، (التثنية ١ : ١٦ و١٧)، (الأمثال ٢٤ : ٢٣)، (إشعياء ١١ : ٣)، (زكريا ٧ : ٩)، (يوحنا ٨ : ١٥). (يعقوب ٢ : ١).

فلما سمع اليهود تلك العبارات من مخلصنا بدأ تفكيرهم يتبلبل من جهته، ولا سيما أهل أورشليم، الذين كانوا خاضعين وخانعين لتفكير وتدبير رؤساء الكهنة وغيرهم من أصحاب المناصب العليا فى تلك المدينة، وخصوصاً أعضاء السنهدريم. ومن ثم قالوا: «أليس هذا هو الذى يبتغون قتله، وهوذا يتكلم علانية، ولا يقولون له شيئاً. فهل أيقن الرؤساء أن هذا هو المسيح؟ إلا أن هذا قد عرفنا من أين هو، وأما المسيح متى جاء فسوف لا يعرف أحد من أين هو». وقد برهنوا بذلك على جهلهم حتى بأقوال كتبهم المقدسة التى تتضمن نبوءات صريحة بأن المسيح الذى ينتظره اليهود سيولد في بيت لحم (ميخا ٥ : ٢)، (مرقس ٢ : ٥) من عذراء (إشعياء ٧ : ١٤)، وسيعيش فى الناصرة لأنه سيدعى ناصرياً (متى ٢ : ٢٣). فكيف يقولون إنه متى جاء فسوف لا يعرف أحد من أين هو؟!

وقد ضاعف من بلبلة فكر يهود أورشليم بشأن مخلصنا أن رؤساءهم تركوه يتكلم علانية في هيكل أورشليم ذاته، في حين أنهم سبق أن أضمروا قتله وطفقوا يبحثون عنه لتنفيذ ذلك الذي أضمروه له، ومن ثم راح أولئك اليهود يتساءلون فيما بينهم عما إذا كان رؤساؤهم أنفسهم قد أيقنوا أن هذا هو المسيح الذي ينتظرونه (يوحنا ٣ : ١)، (٧ : ٤٨). بيد أنهم كانوا مخطئين في ذلك الظن أيضاً، لأن رؤساءهم لم يكونوا قد تركوا مخلصنا يتكلم علانية لأنهم اعترفوا بأنه هو المسيح، وإنما لأنهم خافوا أن يقبضوا عليه ويقتلوه علانية لئلاً يثور عليهم أولئك الذين آمنوا به ويفتكوا بهم (لوقا ٢٠ : ١٩). ومن ثم فنّد مخلّصنا مزاعمهم تلك ولا سيما قولهم إنهم قد عرفوا من أين هو في حين أن المسيح متى جاء سوف لا يعرف أحد من أين هو، إذ رفع صوته في الهيكل وهو يعلّم قائلاً: «إنكم تعرفونني، وتعرفون من أين أتيت، وأنا لم آت من نفسي وحدي، وإنما أرسلني ذلك الذي هو حق، وأنتم لا تعرفونه. أما أنا فأعرفه، لأني منه، وهو الذي أرسلني». أي أنهم وإن كانوا يعرفونه بوصفه ذلك النجار البسيط، يعرفون أنه جاء من الناصرة حيث كان يعيش مع أمه التي كانوا يعرفونها هي أيضاً (متى ١٣ : ٥٥)، (مرقس ٦ : ٣)، (لوقا ٤ : ٢٢)، (يوحنا ٨ : ١٤)، (٦ : ٤٢) فإن معرفتهم هذه لا تدل إلا على معرفته من حيث ناسوته. وأما من حيث لاهوته فإنهم كان ينبغي أن يعرفوا من نبوءات أنبيائهم أنه هو ابن الله الذي أتى من السماء، وأنه لم يأت بمشورته وحده باعتباره أقنوم ابن الله، وإنما بالمشورة المشتركة التي تمت بينه وبين أبيه الذي هو الله الآب المتحد به والذي أرسله (يوحنا ٥ : ٤٣)، (٨ : ٤٢)، ذلك الآب الذي هو حق (يوحنا ٨ : ٢٦)، (رومية ٣ : ٤)، (يوحنا ٥ : ٣٢) والذي إن كانوا هم لا يعرفونه على حقيقته (يوحنا ٨ : ١٩ و٥٥)، (١٥ : ٢١)، (١٦ : ٣)، (١٧ : ٢٥)، (متى ١١ : ٢٧) فإنه هو يعرفه (متى ١١ : ٢٧)، (يوحنا ٨ : ٥٥)، (١٠ : ١٥)، (١٧ : ٢٥) لأنه منه (يوحنا ٦ : ٤٦). ولأنه في اتحاد كامل معه، فهو يعرفه معرفته لنفسه، ويعرفه المعرفة العيانية المباشرة، المعرفة الذاتية، التي لا يعرفها أحد آخر غيره، ويعرف أنه هو الذي - بناء على المشورة المتحدة بينهما - أرسله للقيام بعمل الفداء من أجل خلاص البشر إتماماً للتدبير الإلهي، وبمقتضى الرحمة الإلهية التي اقتضتها محبة الله لخليقته.

وإذ قال مخلصنا إنه من الله، أي في كينونة واحدة مع الله الآب، مساوياً بذلك نفسه به، أراد اليهود عندئذ أن يقبضوا عليه ليقتلوه، (متى ٢١ : ٤٦)، (مرقس ١١ : ١٨)، (١٢ : ١٢)، (لوقا ٢٠ : ١٩)، (١٩ : ٤٧)، (يوحنا ٧ : ١)، (٥ : ١٦، ١٨)، (٨ : ٣٧، ٤٠) بدعوى أنه جدف على الله وأهانه، ولكن يد الله قد شلت أيديهم عن أن يفعلوا هذا في ذلك الحين، لأن الساعة التي كانت محددة في التدبير الإلهي لموت مخلصنا لم تكن قد جاءت بعد (يوحنا ٧ : ٤٤)، (٨ :

٢٠)، (١٠: ٣٩) بيد أنه على الرغم مما أضمره له أولئك اليهود الأشرار، فقد آمن به في تلك اللحظة كثيرون من الجمع الذين كانوا يحتفلون بالعيد في أورشليم، والذين سمعوا هذه الأقوال الإلهية التي صدرت عنه، قائلين «ألعل المسيح متى جاء يصنع معجزات أكثر من تلك التي صنعها هذا؟» (انظر يوحنا ٢: ٢٣)، (٨: ٣٠)، (١٠: ٤٢)، (١١: ٤٥)، (١٢: ١١ و٤٢) ونفهم من ذلك أنهم آمنوا بأنه هو المسيح، متأثرين بالمعجزات التي كان قد صنعها أمامهم (يوحنا ٢: ١١)، فضلا عن الأقوال التي سمعوها منه، والتي سحرتهم وبهرتهم ودخلت إلى صميم قلوبهم. إلا أنّ الفريسيين المتزمتين المتحفظين الذين كانوا يخشون أن يغطي مجد مخلصنا على مكانتهم لدى اليهود، سمعوا الجمع يتهامسون بذلك في شأنه، فاحتدموا غيظاً منه وحقداً عليه هم وشركاؤهم في السؤدد والسلطان وهم رؤساء الكهنة، وأرسلوا خدماً ليقبضوا عليه ليقتلوه. فقال مخلصنا: «أنا باق معكم زماناً يسيراً ثم أمضي إلى الذي أرسلني. عندئذ ستطلبونني فلا تجدونني، وحيث أكون أنا لن تستطيعوا أنتم أن تأتوا». أي أنه إن كره الفريسيون ورؤساء الكهنة وجوده بينهم، خوفاً علي أنفسهم، فلينزعوا من نفوسهم كراهيتهم له وخوفهم منه، لأنه لن يبقى معهم طويلاً، وإنما أياماً قليلة يمضي بعدها إلى الآب الذي أرسله، (يوحنا ١٢: ٣٥)، (١٣: ٣٣)، (١٤: ١٩)، (١٦: ١٦- ١٩)، (يوحنا ١٤: ١٢)، (١٦: ٥ و١٠ و١٧)، (٢٠: ١٧). وذلك بعد أن يتمم عمل الفداء الذي جاء من أجله إلى العالم. وعندئذ سيظلون في إنتظار المسيح الذي ينتظرونه فلا يجيء إليهم في أثناء حياتهم علي الأرض، لأنه قد جاء إليهم بالفعل فأنكروه. وإذ سيكون هو على عرش لاهوته في ملكوت السماوات فلن يستطيعوا أن يأتوا إليه بعد موتهم (يوحنا ٨: ٢١)، (١٣: ٣٣)، (هوشع ٥: ٦). لأنهم أشرار قد رفضوه فرفضهم، ولم يؤمنوا به فأصبح مصيرهم المحتوم هو الموت الأبدي. وإذ قال مخلصنا ذلك قال اليهود فيما بينهم: «إلى أين يزمع هذا أن يذهب حتى إننا لن نجده؟ ألعله مزمع أن يذهب إلى شتات اليونانيين، ويعلّم اليونانيين؟ ماهذا الكلام الذي يقوله: ستطلبونني فلا تجدونني، وحيث أكون أنا لن تستطيعوا أنتم أن تأتوا؟». وقد برهنوا بذلك على غبائهم أوتغابيهم. إذ تساءلوا في هزء وسخرية إلى أين هو مزمع أن يذهب، مع أنه قال لهم في عبارته نفسها إنه سيذهب إلى الذي أرسله، ثم تمادوا في هزئهم وسخريتهم. فتساءلوا عما إذا كان سيترك اليهود الذين كانوا يتفاخرون بأنهم هم وحدهم شعب الله المختار دون سائر الشعوب ويذهب إلى اليونانيين الوثنيين (يعقوب ١: ١)، (١. بطرس ١: ١) الذين هم موضع إحتقارهم وإزدرائهم كي يعلّمهم، معبرين بذلك عن جهلهم أيضاً بحقيقة شخصية المسيح الذي ينتظرونه، لأن نبوءات أنبيائهم كانت تشير صراحة إلى أن المسيح حين يجيء سيكون معلماً لا لليهود وحدهم وإنما لكل شعوب الأرض، بغير تمييز بين يهودي ووثني،

لأنه سيجيء من أجل خلاص البشر جميعاً فى كل زمان ومكان. ثم طفق أولئك العميان البصر والبصيرة يتهكمون على قوله «ستطلبوننى فلا تجدوننى، وحيث أكون أنا لن تستطيعوا أنتم أن تأتوا»، غير مدركين مافى هذا القول من إشارة إلى المصير الرهيب الذى ينتظرهم، إذ أنهم بعد موتهم سيتحققون فى عالم الأرواح أن هذا الذى هزءوا به وسخروا منه وأهانوه إنما هو المسيح الحقيقى الذى جاءهم فتنكروا له وأنكروه ورفضوه. وعندئذ سيسعون فى طلب رؤيته. ولكنهم سيكونون قد نالوا جزاء رفضهم له فاستقرت أرواحهم فى الجحيم وعندئذ يستحيل عليهم أن يأتوا إليه أو يروه وهو جالس على عرشه فى ملكوت السماوات، حيث لا يستطيع أن يأتى إليه أو يراه إلا الذين آمنوا به فاستحقوا الحياة الأبدية فى دار النعيم.

٧ : ٣٧ - ٤٤

حدث إنشقاق فى الجمع بسببه:

وفى اليوم الأخير العظيم وهو اليوم الثامن من ذلك العيد وهو عيد المظال (اللاويين ٢٣ : ٣٦)، (العدد ٢٩ : ٣٥)، (نحميا ٨ : ١٨) الذى يحتشد فيه أكبر عدد من اليهود فى هيكل أورشليم كى يقيموا أعظم الاحتفالات المقدسة لديهم قبل عودتهم إلى بلادهم، وقف مخلصنا وصاح بأعلى صوته كى يسمعه الجميع، منادياً بدعوة الإنجيل قائلاً «إن عطش أحد فليأتِ إلىّ ويشرب. من آمن بى فكما قال الكتاب ستجرى من باطنه أنهار ماء حى». وكانت عادة اليهود قد جرت على أنهم فى اليوم الأخير من عيد المظال يقيمون إحتفالاً عظيماً يسمونه «سكب الماء»، وكانوا يأتون فيه بإناء ذهبى ويملؤونه ماء من بركة سلوام ويجيئون به من تلك البركة فى مهرجان عظيم تعلو فيه أصوات التراتيل وينطلق هتاف البوق حتى إذا بلغوا الهيكل يصعدون إلى المذبح ويسكبه رؤساء الكهنة أمام الرب فى بهجة عظيمة وترنيم وتسبيح (إشعياء ٤٤ : ٣)، (٥٥ : ١)، (٥٨ : ١١). ويبدو أن مخلصنا قد صاح بعبارته تلك فى أثناء ذلك الاحتفال، كى يوضح لليهود أن ذلك الماء الأرضى الذى يسكبونه أمام الرب ليس إلا رمزاً للماء السمائى الحى الدائم الجريان والانسكاب على المؤمنين. فإن عطش أحد من البشر جميعاً إلى الإيمان الحقيقى أو كان يعانى أى نوع من الألم الذى يشبه ألم العطشان، فليأت إلى مخلصنا ويؤمن به فيشرب من هذا الماء الذى فيه الخلاص من كلّ خطيئة (يوحنا ٦ : ٣٥)، (الرؤيا ٢٢ : ١٧)، كما أنّ فيه الخلاص من كلّ آلام الحياة وضيقاتها، لأن من يؤمن به تنطبق عليه أقوال أنبياء العهد القديم من الكتاب المقدّس، إذ تجرى من باطنه أنهار ماء حى (الأمثال ١٨ : ٤)، (إشعياء ١٢ : ٣)، (حزقيال ٤٧ : ١، ٢)، (زكريا ١٤ : ٨)، (يوحنا ٤ : ١٠). ومثال ذلك ماجاء فى نبوءات إشعياء النبى إذ يقول

إن المؤمن يصير «كنبع مياه لا تنقطع مياهه» (إشعياء ٥٨ : ١١) . وإنه يصير «بئر ماء حيّة» (إشعياء ٤ : ١٥) . وإن الله يجعل «الأرض اليابسة مفاجر مياه» (إشعياء ٤١ : ١٨) وإنه يجعل «فى القفر أنهاراً» (إشعياء ٤٣ : ١٩) . ويقول القديس يوحنا كاتب هذه البشارة عندما ذكر تلك العبارة التى صاح بها معلمنا أنه إنما قال هذا عن الروح القدس الذى كان المؤمنون به عتيدين أن ينالوه (إشعياء ٤٤ : ٣) ، (يوئيل ٢ : ٢٨) ، (يوحنا ١ : ٣٣) ، (١٦ : ٧) . لأن الروح القدس لم يكن قد أعطى بعد ، إذ لم يكن مخلصنا قد تمجد بعد ، أى لم يكن قد أظهر مجده بعد بقيامته من بين الأموات ثم صعوده إلى السماء فإنّ الروح القدس لم ينسكب على المؤمنين إلا بعد ذلك (الأعمال ١ : ٤) ، (٢ : ٤ و١٧ و٣٣ و٣٨) ، (١٩ : ٢٠) ، (يوحنا ٢٠ : ٢٢) . وقد استخدم مخلصنا نفسه هذا التعبير حين قال قبل فترة قصيرة من موته على الصليب «قد أتت الساعة ليتمجد ابن الإنسان» (يوحنا ١٢ : ٢٣ و٢٦) . ومن ثم رمز مخلصنا إلى الروح القدس بالماء الحى الدائم الانسكاب والتدفق على المؤمنين بكل مايحويه من بركات ومواهب ينالونها (يوحنا ١٦ : ٧) ويمتلئون بها فلا تلبث أن تنساب وتتدفق منهم فى صورة أخلاق نبيلة وأعمال صالحة وثمار طيبة تؤهلهم للحياة الأبدية فى ملكوت السماوات .

فحين سمع ذلك الكلام قوم من الجمع بهرهم وسحرهم ونفذ إلى أعماق قلوبهم فقالوا عن مخلصنا : «هذا بالحقيقة هو النبى» . وكانوا يقصدون بذلك النبى الذى تنبأ موسى عنه لآباء بنى إسرائيل بأنه سيجىء ، إذ قال لهم «يقيم لك الرب إلهك نبياً من وسطك مثلى» (التثنية ١٨ : ١٥) ، (يوحنا ١ : ٢١) (٦ : ١٤) . ولقب النبى كان يشير فى الحقيقة إلى المسيح المنتظر . إذ أن النبوءة هى إحدى وظائفه ، فالمسيح من حيث ناسوته ، أى إنسانيته ، نبى وملك وكاهن . والنبى هو من يتنبأ بإرادة الله ويخبر عنه . وقد قال الإنجيل «الله لم يره أحد قط . الابن الوحيد الذى فى حضن الآب هو الذى أخبر عنه» (يوحنا ١ : ١٨) . بيد أن لقب النبى أكثر تعميماً من لقب المسيح المحدد كما ذكرته النبوءات . فقد قال آخرون ممن استمعوا إلى أقوال مخلصنا عندئذ فى الهيكل «هذا هو المسيح» ، أى هذا هو بالذات الذى ينتظره اليهود ليخلصهم وفق نبوءات أنبيائهم (يوحنا ٤ : ٢٥ و٢٦ و٤٢) ، (٦ : ٦٩) . بيد أن بعض الحاضرين من غير هؤلاء أبدوا ريبهم فى أن يكون هذا هو المسيح ، قائلين «ألعل المسيح من الجليل يأتى؟ ألم يقل الكتاب إنه من نسل داود ومن قرية بيت لحم التى منها كان داود يأتى المسيح؟» . وقد اعتمد هؤلاء فى ريبتهم تلك على معلومات خاطئة من جانبهم ، وعلى تفسير خاطىء للنبوءات (يوحنا ١ : ٤٦) ، (٧ : ٥٢) . كما تلقوه من الكتبة والفريسيين الذين وصفهم معلمنا بأنهم عميان قادة عميان ، لأنهم لو كانوا سألوا أحد تلاميذ مخلصنا أو سألوا مخلصنا نفسه عن نسبه حسب الجسد لعلموا فعلاً أنه من نسل داود

(المزمور ١٣١ : ١١)، (إرميا ٢٣ : ٥)، (متى ١ : ١)، (لوقا ١ : ٣٢ و٦٩)، (الأعمال ١٣ : ٢٣)، (رومية ١ : ٣)، (الرؤيا ٢٢ : ١٦). ولو سألوا أحد تلاميذه عن موضع ولادته لعلموا أن ميلاده كان بالفعل في بيت لحم، مدينة داود (١ . صموئيل ١٦ : ١و٤) التي ذكر ميخا النبي أن المسيح الذي ينتظره اليهود سيولد فيها (ميخا ٥ : ٢)، (متى ٢ : ٥)، (لوقا ٢ : ٤). ولو كانوا هم أو معلموهم من الكتبة والفريسيين على علم بكل نبوءات العهد القديم لعلموا منها أن المسيح الذي ينتظرونه سينشأ في مدينة من مدن الجليل وهي الناصرة، كما ذكر ذلك القديس متى إذ يقول في بشارته إنه «سكن في مدينةٍ تدعى الناصرة، ليتم ماقيل بالأنبياء إنه سيدعى ناصرياً» (متى ٢ : ٢٣). وكما سبق أن تنبأ إشعياء النبي عن ظهور المسيح المنتظر في أرض الجليل، إذ يقول عن تلك الأرض التي كانت من نصيب سبطي زبولون ونفتالي: «أرض زبولون وأرض نفتالي.. طريق البحر عبر الأردن جليل الأمم. الشعب السالك في الظلمة أبصر نوراً عظيماً. الجالسون في أرض ظلال الموت أشرق عليهم نور» (إشعياء ٩ : ١)، (متى ٤ : ١٢ – ١٦). ومن ثم حدث انشقاق بين الجمع المحتشد في الهيكل في شأن مخلصنا (يوحنا ٦ : ٥٢)، (٧ : ١٢)، (٩ : ١٦)، (١٠ : ١٩). وعلى الرغم من أن قوماً منهم آمنوا بأن هذا هو المسيح الذي ينتظرونه من قديم الزمان، فإن قوماً آخرين منهم عادوه وعاندوه وأرادوا أن يقبضوا عليه ليقتلوه (يوحنا ٧ : ٣٠). ولكن أحداً لم يلق عليه يداً، لأنّ قوة غير منظورة أخفته عن أعينهم، إذ أنّ ساعة موته لم تكن في التدبير الإلهي قد أتت بعد، وقد كان ينبغي أن يكون موته في لحظة محددة تحديداً دقيقاً بمقتضى المشيئة المشتركة بين الله الآب والله الابن، بحيث لا يتم ذلك الموت قبل تلك اللحظة بلحظة، أو بعدها بلحظة.

٧ : ٤٥ – ٥٣

رجوع المرسلين ومحاجة نيقوديموس الفريسيين:

وكان رؤساء الكهنة والفريسيون قد أرسلوا جندهم (يوحنا ٧ : ٣٢) ليقبضوا على مخلصنا ويقتلوه بعيداً عن أعين جموع الشعب التي التفّت حوله وآمن عدد كبير منها به، مما أثار الغيرة والحقد في قلوب أولئك الذين يعدّون أنفسهم رؤساء اليهود وفقاءهم، والذين أحنقهم وأغاظهم أن يمجد الشعب مخلّصنا بدلاً من أن يمجدهم. فقرروا قتله والخلاص منه، كي يظلوا محتفظين بما يتمتعون به لدى الشعب من مجد وسلطان ومناصب ومكاسب. غير أن الجند عادوا إليهم دون أن يقبضوا عليه، فقال هؤلاء لهم: «لماذا لم تأتوا به؟». فأجاب الجند: «ماتكلّم إنسان قط بمثل ما يتكلّم به هذا الإنسان»، مما يدل على أنهم حين ذهبوا إليه وجدوه يعلّم الجموع، واستمعوا إلى

تعاليمه الإلهية الرائعة، وإلى عباراته السمائية السامية، البديعة التركيب العميقة المعنى، التى كان ينطق بها فى رقة وفى عظمة معاً، وفى وداعة وهيبة مجتمعين، فنفذت فوراً إلى أعماق قلوبهم وبهرتهم وسحرتهم، لأنهم لم يكونوا قد سمعوا من قبل إنساناً قط يتكلّم بمثل هذا السمو وهذه الروعة، ومن ثم أحبوه وهابوه ولم تطاوعهم قلوبهم على أن يتقدموا إليه ويلقوا القبض عليه، كما أمرهم رؤساؤهم أن يفعلوا. وعلى الرغم من علمهم بشراسة أولئك الرؤساء وخوفهم مما ينتظرونه على أيديهم من عقاب صارم وتعنيف عنيف، عادوا إليهم دون أن يقبضوا عليه. ولقد شهد الإنجيل بالإنطباع العام لدى الشعب كله بما كان للمسيح له السجد من سلطان ورهبة وروعة فى تعليمه، فيقول مثلاً «بهتت الجموع من تعليمه لأنه كان يعلمهم بوصفه صاحب سلطان وليس كالكتبة» (متى ٧: ٢٨ و٢٩). وفعلاً أثار حنق الفريسيين أعدى أعداء مخلصنا، فصرخوا فى وجوه الجنود قائلين لهم: «ألعلكم أنتم أيضاً قد ضللتم؟ هل آمن به أحد من الرؤساء أو من الفريسيين؟. ولكن هذا الشعب الذى لا يعرف الشريعة شعب ملعون».

ويدلُّ ذلك على مدى ماكان لرؤساء الكهنة والفقهاء من سيطرة على عقول عامة اليهود. فهم يوجهونهم فى شئون دينهم وشئون دنياهم على السواء الوجهة التى يريدونها لهم، والتى تهدف إلى استغلال الشعب لمصلحتهم، كى يغدق عليهم الاحترام والإجلال، كما يغدق عليهم قبل ذلك وبعد ذلك العطايا والهدايا والأموال، ويطيعهم طاعة عمياء. ولما كان الجند من أتباع أولئك الرؤساء والفقهاء الذين يتلقون عنهم أجورهم ويستمدون الهيبة لدى الشعب من هيبتهم، فقد كانوا ينتظرون منهم أن يكونوا أول الممتثلين لتعليماتهم وتعاليمهم، والخاضعين لتوجيهاتهم ووجهات نظرهم. ولما كان رؤساء الكهنة والفريسيون قد أنكروا مخلصنا وعاندوه وعادوه وأضمروا الاعتداء عليه بزعم أنه يضلل الشعب بأقواله وأعماله (يوحنا ٧: ١٢)، (متى ٢٧: ٦٣ و٦٤). حتى اعتقد الشعب أنه هو المسيح المنتظر فقد أغاظهم وأحنقهم أن ينضم جندهم إلى عامة الشعب فى الإيمان به. والانبهار بتعاليمه ومعجزاته. وكان ينبغى عليهم - فى نظرهم - أن يتمثلوا بهم فى كل ما يقولونه ويفعلونه. ولما كان رؤساء الكهنة والفريسيون وهم سادتهم وقادتهم لم يؤمنوا به. كان على الجند منْ ثمّ أن يتبعوهم ويتابعوهم وينقادوا إليهم إنقياداً أعمى. فيؤمنوا بمن يؤمن به أولئك وينكروا ما ينكرونه. فكيف جرؤ الجند على أن يخالفوهم فى الرأى. ويؤمنوا بمن أنكروه هم أنفسهم؟ لقد أثار ذلك نقمة الفريسيين ليس فقط على الجند وإنما على الشعب اليهودى كله. ذلك الشعب الذى كان خاضعاً لهم خضوعاً تاماً فى كل ما يقولون. ومتمثلاً بهم فى كل ما يفعلون، حتى إذ جاء مخلصنا فاستدار الشعب وأعطاهم ظهره والتف حول ذلك الشاب الفقير المتواضع وآمن بأنه هو المسيح ابن الله الذى تنبأ بمجيئه أنبياؤهم منذ آلاف السنين، قال الفريسيون فى غيظ وحقد «إن هذا الشعب لا يعرف الشريعة شعب ملعون». فإذا وصموا الشعب بأنه لا يعرف الشريعة، فإن هذه الصفة لاصقة بهم هم أنفسهم، وليس بالشعب الذى أثبت بإيمانه

بالمسيح أنه أكثر منهم معرفة بالشريعة، لأن الشريعة وكل أسفار العهد القديم تنبأت بكل الملابسات التى تحيط بمجيء المسيح وكل الصفات التى يتصف بها وكل الأقوال التى سيقولها وكل الأعمال التى سيعملها وكل الحوادث التى ستؤدى إلى تعذيبه وقتله على خشبة الصليب، وكل ما يعقب ذلك من قيامته وصعوده إلى السماء. ولكن الفريسيين أعمتهم شهواتهم الدنيوية عن كل ماجاء فى كتبهم المقدسة متعلقاً بالمسيح المنتظر. فنسوها أو تناسوها، حتى إذا جاءهم فعلاً ذلك الذى ينتظرونه محققاً كل التفاصيل التى قالها أنبياؤهم عنه أنكروه وناصبوه العداء وحاربوه، حتى قاموا عليه أخيراً وصلبوه مبرهنين بذلك على أنهم هم الجهلاء بالشريعة، وليس أولئك الذين آمنوا به من الشعب الذى وصموه بالجهل ووصفوه بأن «شعب ملعون». فكانوا بذلك هم الذين يستحقون اللعنة فى نار جهنم. وأما الذين آمنوا به فقد فازوا بالنعمة واستحقوا النعيم فى ملكوت السماوات.

بيد أن نيقوديموس الذى كان واحداً منهم (يوحنا ٣: ١ و٤ و٩)، إذ كان عضو السنهدريم، وهو مجلس الشيوخ اليهودى، وكان نيقوديموس هذا من بين الرؤساء الذين آمنوا بالمسيح (يوحنا ١٢: ٤٢ و٤٣). وكان هو الذى جاء من قبل إلى مخلصنا ليلاً (يوحنا ٣: ٢)، (١٩: ٣٩). واستفسر منه عن حقيقة تعاليمه. ثم بعد استماعه إليه توطد إيمانه به. وتصدى لهم قائلاً: «هل تحكم شريعتنا على أحد مالم تسمع منه أولاً وتعرف ماذا فعل؟». وقد كان هذا هو صوت العقل والعدل. لأن هذا هو بالفعل ما تأمر به الشريعة (الخروج ٢٣: ١)، (التثنية ١: ١٧). (١٧: ٦-١٠)، (١٩: ١٥)، (الأمثال ١٨: ١٣)، (الأعمال ٢٣: ٣). ومن ثم أفزعهم هذا الصوت وروعهم. لأنه صادر عن واحد منهم. ولأنه قول الحق الذى يهدم كل مزاعمهم وافتراءاتهم التى جعلوا من غيرتهم على الشريعة ستاراً لها. وخماراً يسترون به سخائفهم ودناءاتهم. ومن ثم ثارت ثائرتهم عليه أكثر مما ثارت على الجند، وقالوا له فى غيظ «لعلك أنت أيضاً من الجليل؟ ابحث وانظر، فإنه لا يقوم نبى من الجليل». إذ كان يهود الجليل محتقرين من اليهود المتزمتين لأنهم اختلطوا فى مدنهم ومعاملاتهم بالوثنيين من الأمم الأخرى، ومن ثم كانوا يعدون وصف الشخص بأنه جليلى إهانة له. وقد أحنق أعضاء السنهدريم دفاع زميلهم نيقوديموس عنه، فأرادوا تجريحه بأن يصفوه بهذا الوصف ويصموه بهذه الوصمة. وفى سبيل ذلك برهنوا على جهلهم حتى بالشريعة التى يزعمون أنهم علماؤها وفقهاؤها والمتبحرون فيها، إذ قالوا - لتسفيه مسلك زميلهم - إنه «لا يقوم نبى من الجليل»، معتقدين بذلك أنهم قدموا الدليل القاطع والحجة التى لا

سبيل إلى نقضها، مع أنهم يعرفون جيداً أو لا يعرفون على الإطلاق أن يونان النبى قد قام من الجليل، وأن ناحوم النبى قد قام من الجليل. ولكنهم عموا أو تعاموا عن هذه الحقيقة، وجهلوها أو تجاهلوها، وقد طمس الغيظ قلوبهم وذهب الحقد بالبقية من عقولهم. وإذ كانوا يعلمون فى قرارة أنفسهم أنهم يغالطون، لم ينتظروا إجابة من نيقوديموس. وإنما انصرف كل منهم إلى بيته، فى إنتظار فرصة أخرى تتيح لهم توجيه تهمة قاتلة إلى مخلصنا، يتخلصون بها منه، ويزيحوه من طريق مطامعهم وشهواتهم، كى يظلوا ينعموا بما هم فيه مع زملائهم من جاه وسلطان، ومن وجاهة ومال وملذات يظنوا أنها ستدوم لهم على مدى الزمان.

الفصل الثامن

٨ : ١ – ١١

الفريسيون يقدمون إليه المرأة الزانية :

أما مخلصنا له المجد فمضى إلى جبل الزيتون، ليقضى بقية النهار والليل فى الصلاة كعادته نائماً، لأنه لم تكن له كسائر الناس دار يأوى إليها، فقد كان فقيراً أشد ما يكون الفقر. ولذلك فقد كانت الجبال هى مأواه، وكان فيها خير مكان يناجى فيه أباه السماوى، على إنفراد وبعيداً عن فضول الناس وريائهم وضوضائهم. ثم فى الصباح الباكر عاد إلى الهيكل كى يواصل فيه أداء رسالته التعليمية بوصفه بيت الله الآب وبيته هو ابن الله، ولأن أعداداً عظيمة من الذين جاءوا من كل البلاد للاحتفال بالعيد كانوا مجتمعين فيه، فهى فرصة مباركة لينادى فيهم بتعاليمه قبل أن تنتهى فترة وجوده بينهم على الأرض ويرتفع إلى السماء. ولما كان الشعب كله مشتاقاً لأن يستمع إليه ويتمتع بالكلمات العذبة التى تخرج من فمه فتنفذ إلى أعماق قلوبهم، فما إن رأوه حتى أقبلوا إليه فى لهفة وتعطش، فجلس يعلمهم، جلوس المعلّم صاحب السلطان على القلوب والعقول والأرواح. بيد أن إلتفافهم حوله أحنق وأغاظ رؤساء الكهنة والكتبة والفريسيين، فأقبلوا إليه هم أيضاً، وقد هيئوا له فخاً مزدوجاً ليوقعوه فيه، ويتمكنوا من الحكم بالموت عليه، إذ قدموا إليه امرأة ضبطوها تزنى، وأقاموها فى الوسط كما يقام المتهم فى وسط ساحة القضاء أمام القاضى، وقالوا له: «يامعلّم قد ضبطنا هذه المرأة متلبسة وهى تزنى. وشريعة موسى تقضى برجمها، فماذا تقول أنت؟».

فعلى الرغم مما سبق لهم أن وجهوه إليه من شتائم وإهانات، وإستخفاف وتحقير، تظاهروا ـ ليحبكوا مكيدتهم ـ بأن يحترمونه ويبجلونه ويرتضون حكمه، قائلين له «يامعلّم»، وهو لقب كان مقصوراً فى مجتمعهم على العظماء والرؤساء والمعلّمين المبجلين، ولكنهم ما قالوا هذا إلا ليحرجوه كى يجدوا ما يتهمونه به، مغلفين بأدبهم المصطنع فى مخاطبته كل ما يتصفون به من مكر وخبث ودهاء وإلتواء، لأن شريعة موسى التى استشهدوا بها كانت تقضى برجم الزانية، إذ جاء فى سفر اللاويين «إذا زنى رجل مع امرأة.. فإنه يقتل الزانى والزانية» (اللاويين ٢٠: ١٠) . وجاء فى سفر التثنية أن المرأة إذا زنت «يرجمها رجال مدينتها بالحجارة حتى تموت» (التثنية ٢٢: ٢١) . فلو أن مخلصنا حكم بما يناقض ذلك اتهموه بمخالفة شريعة موسى وقضوا بموته. وإن هو حكم برجم المرأة اتهموه بمخالفة شريعة التسامح والغفران التى نادى هو بها وعدّها شريعته، ومن ثم اتهموه بأنه يضلل الشعب، وقضوا أيضاً بموته. وأما مخلصنا فانحنى

يخط بأصبعه على الأرض معبراً بذلك لهم عن إدراكه لمكرهم وخبثهم ودهائهم والتوائهم، وإذ استبطأوا إجابته ظنوا أنه قد ارتبك ولا يدري ماذا يقول أو كيف ينجو من ذلك الكمين المحكم الذي نصبوه ليوقعوه فيه، فألحوا عليه يستعجلون إجابته التي كانوا واثقين أنها ستكون القاضية عليه. ولكنه فاجأهم مفاجأة أربكتهم وأذهلتهم وأوقعتهم في شر أعمالهم، إذ رفع رأسه وقال لهم «من كان منكم بلا خطيئة فليبدأ ويرمها بحجر» ثم انحنى ثانية يخط على الأرض في إنتظار تصرفهم، وليمنحهم فرصة يراجعون فيها أنفسهم. ولعله كان يكتب على الأرض خطاياهم واحداً واحداً فتبينوا أنهم خطاة وزناة، وقد ارتكب كل منهم من أعمال الشر والفجور مثلما ارتكبت هذه المرأة، بل ربما ارتكب ما هو أكثر منها شراً وفجوراً، فأدركوا أن مخلصنا يعلم خبايا نفوسهم وأنه إنما يوبخهم ويقرر لهم من خلال عبارته تلك أنه لا يجوز لشرير أن يحاكم شريراً، ولا لفاجر أن يحكم على فاجر. بل فليترك هذا وذاك، المحاكمة والحكم للصالحين الأبرار، وفي نهاية الأمر لله الحاكم الديّان وحده. فلما سمعوا هذا منه وفهموا توبيخه لهم، أخذوا يخرجون متسللين في خزي وخجل واحداً فواحداً، يتقدمهم الشيوخ الذين حفلت حياتهم الطويلة بقدر أكبر من أعمال الشر والفجور. يتبعهم الشباب الذين لايزالون في بداية هذا الطريق الشائن المخزي حتى خرجوا جميعاً بعد أن فشلت مكيدتهم ضد مخلصنا وأطبق الفخ الذي نصبوه له عليهم هم أنفسهم، وبقي مخلصنا وحده، والمرأة قائمة في الوسط لم تحاول أن تهرب بعد أن ذهب كل الشهود الذين قبضوا عليها وشهدوا ضدها. وإنما بهرتها وأسرتها حكمة ذلك المعلّم السماوي وحلمه ورحمته، فانقشعت غشاوة الشر والشهوة عن عينيها، ورأت طريق الندم والتوبة مفتوحاً على مصراعيه أمامها، ومن ثم انتظرت لتسمع حكم قاضيها الرحيم الذي جاءوا بها إليه. ولم يلبث مخلصنا أن رفع رأسه وقال لها: «يا امرأة أين أولئك الذين حكموا عليك؟ أما دانك أحد؟». قالت «لا أرى أحداً يا سيدي»، وهكذا خاطبته في مذلة واحترام عميق، وهي لا تزال تنتظر حكمه عليها، موقنة أنه الحكم العادل الذي تستحقه مهما كان هذا الحكم قاسياً. ولكن فادينا الحبيب قال لها في سماحة مذهلة، وتسامح لا يقدر عليه إلا الله القادر وحده: «ولا أنا أدينك. فاذهبي ومن الآن لا تعودي تخطئين». وبذلك رفض إدانتها، ليفتح لها باب الندم والتوبة، كي تتطهر من إثمها، ولا تعود تخطئ مرة أخرى محققاً بذلك رسالته التي جاء من أجلها إلى العالم. إذ يقول «لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب، بل المرضى، فما جئت لأدعو أبراراً بل خطاة إلى التوبة» (مرقس ٢: ١٧)، (لوقا ٥: ٣١ و٣٢)، (متى ٩: ١٢ و١٣). ويقول: «لأن ابن الإنسان لم يأت ليهلك نفوس الناس، بل ليحييها» (لوقا ٩: ٥٦)، (١٩: ١٠)، (يوحنا ٣: ١٧)، (١٢: ٤٧). وهنا يبدو أن مخلصنا كشف بوضوح أنه في مجيئه الأول لا يدين أحداً. إذ هو جاء ليخلص لا ليدين، إذ قال

«لأن الله لم يرسل ابنه إلى العالم ليدين العالم، وإنما ليخلص به العالم» (يوحنا ٣: ١٧)، وقال «وأما أنا فلا أدين أحداً» (يوحنا ٨: ١٥) كما قال «وإن سمع أحد كلامي ولم يحفظه فأنا لا أدينه. لأنني ما جئت لأدين العالم، بل لأخلص العالم» (يوحنا ١٢: ٤٧). هذا في المجيء الأول. أما في المجيء الثاني، فلسوف يدين، لأنه سيكون هو الديان، إذ قال له المجد «فإن الآب لا يدين أحداً وإنما سلَّم القضاء كله للابن ليمجد الجميع الابن كما يمجدون الآب» (يوحنا ٥: ٢٢). وانظر أيضاً (الأعمال ١٠: ٤٢)، (١٧: ٣١)، (٢. تيموثيئوس ٤: ١). (١. بطرس ٤: ٥).

٨: ١٢- ٢٠

المسيح نور العالم:

ثم خاطب مخلصنا اليهود قائلاً «أنا هو نور العالم. من يتبعني لا يسير في الظلام وإنما يكون له نور الحياة». وقد سبق لدانيال النبي أن قال في نبوءته عنه: «هو يكشف العمائق والأسرار، ويعلم ماهو في الظلمة، وعنده يسكن النور» (دانيال ٢: ٢٢). وقال سمعان الشيخ عندما أبصره في طفولته حين دخلت به أمه مريم العذراء في الهيكل: «الآن أطلق ياسيدي عبدك بسلام وفقا لكلمتك، فإن عيني قد أبصرتا خلاصك الذي أعددته أمام كل الشعوب. نوراً يتجلى للوثنيين ومجداً لشعبك إسرائيل» (لوقا ٢: ٢٨- ٣٢). وقال عنه الإنجيل للقديس يوحنا «وكان الكلمة هو الله.. فيه كانت الحياة. والحياة كانت نور الناس، والنور يضيء في الظلمة، والظلمة لم تدركه.. كان النور الحقيقي الذي ينير كل إنسان آتيا إلى العالم» (يوحنا ١: ٤ و٥ و٨ و٩). وقال مخلصنا له المجد عن نفسه: «وهذه هي الدينونة، أن النور جاء إلى العالم، وأحب الناس الظلمة أكثر من النور، لأن أعمالهم كانت شريرة.. فإن كل من يفعل الشر يبغض النور، ولا يقبل إلى النور لئلا تفتضح أعماله الشريرة وتتوبخ. وأما من يفعل الحق. فإنه يقبل إلى النور» (يوحنا ٣: ١٩- ٢١). وقال: «مادمت في العالم فأنا نور العالم» (يوحنا ٩: ٥). وقال في حديثه مع اليهود «إن النور باق في وسطكم زماناً يسيراً، فسيروا في النور مادام النور لكم لئلا يدرككم الظلام.. مادام لكم النور فآمنوا بالنور لتصيروا أبناء النور.. أنا قد جئت للعالم نوراً حتى إن كل من يؤمن بي لا يمكث في الظلام» (يوحنا ١٢: ٣٥ و٣٦ و٤٦). نعم إن المسيح هو نور، وهو «النور الحقيقي» (١. يوحنا ٢: ٨). لأنه بطبيعته الإلهية نور، وهو خالق النور (التكوين ١: ٣)، «وساكن في نور لا يدنى منه» (٢. تيموثيئوس ١: ١٦). ثم هو «النور الحقيقي»، لأن ماعداه من نور (متى ٥: ١٤ و١٦) مأخوذ ونابع منه. وهو «النور» الذي جاء إلى العالم فأناره بتعليمه وإرشاده. ولذلك فإن الكنيسة وهي جسده (أفسس ٥: ٢٣) تقام لها «منارة» علامة على أنها «حاملة» النور. أما النور الحقيقي فهو

المسيح نفسه بطبيعته الإلهية ثم بتعليمه. فطبيعته الإلهية نور، وتعليمه أيضاً نور. فهو «نور العالم». ومن يتبعه يهتدي بنوره فلا يسير هائما في الظلام، فيضل الطريق، ويتخبط في دياجير الحياة، فسرعان ما يسقط في هاوية الهلاك، وإنما يكون له نور الحياة الذي هو معرفة الله والسير على هُدى تعاليمه ووصاياه، مما يؤدي بالإنسان إلى النجاة من شرور الدنيا والتمتع بعد ذلك ببركات الحياة الأبدية في السماء. وقد كان ينبغي أن يكشف مخلصنا للناس عن حقيقة ذاته وهو في أواخر الأيام التي كان مقرراً أن يقضيها بينهم على الأرض، لتثمر فيهم تعاليمه ويؤمنوا به وبرسالته. ولكن الذين سمعوا قوله من الفريسيين أحنقهم ذلك، ولم يسعفهم منطقهم السقيم وحقدهم الأسود على مخلصنا إلا بإعتراض تافه وجهوه إليه، إذا قالوا له «إنك تشهد لنفسك، فشهادتك ليست حقاً». وقد نسوا أو تناسوا أن موسى الذي هو أعظم أنبيائهم وعليه كل رجاءهم قد شهد لنفسه، إذ قرر لآبائهم أنه مرسل من الله، وقد فعل ذلك كل الذين تلوه من الأنبياء مقررين أن الله قد أرسلهم وأنه تكلم بأفواههم. وقد طلب الفريسيون أنفسهم من يوحنا المعمدان أن يشهد لنفسه ليتحققوا من حقيقة شخصيته. معتمدين في ذلك على شهادته. إذ قالوا له «من أنت لنعطي جواباً للذين أرسلونا ماذا تقول عن نفسك؟» (يوحنا ١ : ٢٢). وإذ كان مخلصنا مهتما بالفعل بأن يكشف لهم عن حقيقة شخصيته ليؤمنوا به فإن ذلك يكون هو الطريق إلى خلاصهم، قدم لهم حججاً قوية تثبت بما لا مجال معه للشك أن شهادته عن نفسه صادقة كل الصدق، إذ قال لهم «إني وإن كنت أشهد لنفسي فشهادتي حق، لأني أعلم من أين جئت وإلى أين أذهب. وأما أنتم فلا تعلمون من أين جئت ولا إلى أين أذهب». أي أنه عالم كل العلم بحقيقة شخصيته الإلهية. وموقن كل اليقين بتفاصيل الرسالة التي جاء من أجلها إلى العالم. لأنه عالم وموقن كل العلم وكل اليقين أنه ابن الله، وأنه من عند الله الآب جاء (يوحنا ٨ : ٤٢)، (١٣ : ٣)، (١٦ : ٢٧ و٢٨) وإلى الله الآب يذهب (يوحنا ١٣ : ٣)، (١٦ : ٢٨)،. وأنه إنما جاء لمهمة محددة هي خلاص البشر من الهلاك الأبدي المحكوم به من العدل الإلهي عليهم، فهو يتكلم عن أمور يعلمها علم اليقين. وأما هم فلا يعلمون عنها شيئاً (يوحنا ٧ : ٢٨)، (٩ : ٢٩). ولا يستطيعون بتركيبهم البشري المادي أن يعلموا عنها شيئاً. فهو في نور وهم في ظلام. ولئن شهد بتلك الأمور إنها شهادة الذي يرى في النور، وأما هم فإن الظلام الذي يكتنفهم يجعلهم لا يرون شيئاً. فما يشهد هو به لا يستطيع أحد غيره أن يشهد به لأنه لايراه، ولا يمكنه أن يراه، ومن ثم فإن واقع الأمر يجعله هو الشاهد الوحيد وإن شهد لنفسه (يوحنا ١٨ : ٣٧)، (الرؤيا ١ : ٥)، (٣ : ١٤). لأنه لا سبيل إلى شهادة غيره عنه ولا تعارض بين ما يقوله هنا «إن كنت أشهد لنفسي فشهادتي حق»، وبين قوله سابقاً «لو كنت أشهد لنفسي لما كانت شهادتي حقاً» (يوحنا ٥ : ٣١). لأن المعنى من

قوله هذا أنه إن كان يشهد لنفسه وحده ولا يؤيده في هذه الشهادة أحد آخر، فإن هذه الشهادة تكون غير صحيحة طبقاً للمبدأ المقرر في الشريعة وهو أنه «على فم شاهدين أو ثلاثة تقوم كل كلمة» (٢ . كورنثوس ١٣ : ٥) ، (التثنية ١٧ : ٦) ، (١٩ : ١٥) ، (متى ١٨ : ١٦) . مؤكداً بهذا أنه لا يشهد لنفسه وحده . إنما يشهد له الآب الكائن معه، وقد شهد له أيضاً يوحنا المعمدان . ثم إن أعماله تشهد له . ولذلك يضيف مخلصنا قائلاً: «وإنما هناك آخر يشهد لي وأنا أعلم أن شهادته التي يشهد لي بها حق . أنتم أرسلتم إلى يوحنا فشهد بالحق . . أما أنا فلي شهادة أعظم من شهادة يوحنا، لأن الأعمال التي أعطاني أبي لأنجزها، تلك الأعمال التي أنا أعملها هي نفسها التي تشهد لي بأن الآب قد أرسلني . والآب نفسه الذي أرسلني قد شهد لي» (يوحنا ٥ : ٣٢ – ٣٧) . ويقول أيضاً في نفس الفقرة السابقة «فأنا أشهد لنفسي، ويشهد لي أبي الذي أرسلني» (يوحنا ٨ : ١٨) .

ثم قال مخلصنا لليهود تأييداً لما قاله لهم: «أنتم حسب الجسد تدينون، وأما أنا فلا أدين أحداً، وإني وإن دنت فدينونتي حق، لأنني لست وحدي، بل أنا والآب الذي أرسلني . وقد جاء في شريعتكم أن شهادة رجلين حق، فأنا أشهد لنفسي، ويشهد لي أبي الذي أرسلني» (يوحنا ٨ : ١٥ و١٦) .

فقد حكم الفريسيون على شخصية مخلصنا حسب المظاهر المادية الجسدية له (يوحنا ٧ : ٢٤) ، وحسب المقاييس البشرية الجسدية التي يحكمون بها على البشريات والماديات (١ . صموئيل ١٦ : ٧) . ولما كان مخلصنا قد جاء إلى العالم في صورة إنسان فقير وديع بسيط الملبس متواضع المهنة، فلم يستطيعوا بمقاييسهم تلك أن يدركوا أن هذا هو المسيح الذي ينتظرونه، وأن هذا هو ابن الله الآب، وأنه هو وأبوه في وحدة كاملة، فهو رب المجد ذاته . في حين أنهم كانوا يتصورون أن المسيح الذي ينتظرونه سيأتيهم في مجد دنيوي عظيم، كملك جبار وقائد مغوار، يرتدي ملابس الملوك ويسكن في قصورهم ويجلس على عروشهم ويقود جحافل جيوشهم، ليغزو بهم العالم ويجعلهم ـ على مقتضى غرورهم وجشعهم ومطامعهم ـ سادة كل الشعوب والأمم . ومن ثم هزأوا بمخلصنا حين جاء إليهم بهذه الصورة البسيطة كإنسان عادي يرتدي أرخص الثياب ولا يملك مسكنا ولا يجلس ولا ينام إلا على الأرض، ولا يقود إلا حفنة من الناس البسطاء الودعاء المتواضعي المهنة مثله، فهم لا يحاربون ولا يمتطون الخيل أو يمتشقون السيف أو يخوضون معارك القتال، وإنما يجوبون المدن والقرى والشوارع والطرقات والحقول والسهول والجبال خلف معلمهم في سلام ومسالمة ومحبة للجميع وخدمة للجميع، صانعين خيراً لكل الناس مع معلمهم، فكان من الصعب على أولئك الفريسيين المتغطرسين المتعالين المتعاظمين أن يدركوا أن هذا هو الإله خالق السماوات والأرض ومالك السماوات والأرض، والحاكم العزيز الجبار لكل ما في السماوات والأرض، فحكموا عليه حسب مقاييسهم الدنيوية الأرضية الجسدية،

وحسب هذه المقاييس أدانوه بأنه مضلل وغير صادق في شهادته عن نفسه بأنه نور العالم. وأما هو فلا يدين أحداً (يوحنا ٣: ١٧) حسب هذه المقاييس في أثناء وجوده على الأرض، لأنه ما جاء ـ في هذه المرة ـ ليدين أحداً وإنما ليخلص الهالكين (يوحنا ١٢: ٤٧). وحتى إذا أدان أحداً في هذه الأثناء، أي أصدر عليه حكماً، فإنه يحكم بالحق (يوحنا ٥: ٣٠). لأنه هو الحق (يوحنا ١٤: ٦)، (١: ١٤)، (١٨: ٣٧). وهو الإله الحق، فضلاً عن أنه هو الحاكم والديّان للخليقة كلها في اليوم الأخير (٢. كورنثوس ٥: ١٠). ولما كان هو الإله العادل والحاكم العادل والديّان العادل، فإن دينونته حق، لأنها دينونة الله الابن. وهي في الوقت ذاته دينونة الله الآب، «لأن الآب لا يدين أحداً وإنما سلّم القضاء كله للابن» (يوحنا ٥: ٢٢) فلئن شهد مخلصنا لنفسه بأنه هو نور العالم (يوحنا ٩: ٥)، إن شهادته هي في الوقت ذاته شهادة الآب الذي أرسله ليتمم عمل الفداء بمشورتهما المشتركة والمتحدة منذ الأزل من أجل خلاص البشر. وإذ كان مخلصنا يستشهد دائماً بأحكام الشريعة اليهودية ليقنع اليهود بما يقول، استشهد هنا بحكم من أحكام تلك الشريعة يقضي بأنه ينبغي للحكم كي يكون عادلاً أن يستند إلى شهادة شاهدين على الأقل. إذ جاء في سفر التثنية أنه «لا يقوم شاهد واحد على إنسان في ذنب ما أو خطيئة ما من جميع الخطايا التي يخطىء بها. على فم شاهدين أو على فم ثلاثة شهود يقوم الأمر» (التثنية ١٩: ١٥). وقياساً على هذا الحكم ذكر مخلصنا أنه يشهد لنفسه، ويشهد له في الوقت نفسه أبوه الذي أرسله (يوحنا ٥: ٣٧). وإذا كانت شهادة الإنسان لنفسه لا تصح في الأمور البشرية (العبرانيين ١٠: ٢٨)، فإنه في الأمور الإلهية، لا يوجد شاهد يمكن أن يشهد عليها إلا الله وحده، لأنه هو وحده الذي يعلمها، ومن ثم فإن شهادة الله الابن لنفسه تكون صحيحة ولا سيما وأنها تقترن بشهادة الآب الكائن مع الابن في وحدانية كاملة. وقد كان واضحاً مما قال مخلصنا أنه يقصد بأبيه الله الآب نفسه. ولكن الفريسيين إذ أفحمهم مخلصنا بهذا المنطق الإلهي المقنع القاطع المانع لكل مغالطة أو مماحكة، لم يقتنعوا، وإنما راحوا يغالطون ويتمحكون، مبتعدين عن جوهر المناقشة التي خرجوا منها مهزومين وتظاهروا بأنهم لا يعلمون من هو أبوه الذي يتحدث عنه فقالوا له «أين أبوك؟».

وقد كانوا يعلمون كل العلم أنه إذا قال إن أباه قد أرسله وشهد له، فإنما يعني أباه السماوي الذي هو الله الآب نفسه. ولكنهم إذ كانوا ينكرون أنه المسيح ابن الله الذي تنبأ بمجيئه كل أنبيائهم، اصطنعوا الجهل وسألوه في مغالطة واضحة عمن يكون أبوه، وأين هو، باعتباره أباً أرضياً مثل آباء سائر الناس. ليستدعوه كي يشهد له حسب قوله. وإذ أدرك هو أنهم يغالطون. لم يشأ أن يذكر لهم صراحة من هو أبوه وأين هو، وإنما أخذ يوبخهم على جهلهم أو تجاهلهم،

فأجاب قائلاً: «إنكم لا تعرفونني أنا ولا تعرفون أبي. لو كنتم تعرفونني لكنتم تعرفون أبي»، أي أنهم على الرغم من ادّعائهم أنهم بصفتهم كما يزعمون شعب الله، لا يعرفون الله في الحقيقة، لأنهم لو كانوا يعرفونه لعرفوا ابنه أيضاً حسب نبوءات أنبيائهم عنه. وقد قال لتلاميذه في ليلة آلامه عن اليهود إنهم «لم يعرفوا الآب ولا عرفوني» (يوحنا ١٦ : ٣)، (١٥ : ٢١)، (٨ : ٥٥). ولو كان اليهود يعرفون ابن الله لعرفوا الله أيضاً، لأن الله الآب كما يقول بولس الرسول في مقدمة رسالته للعبرانيين: «بعد ما كلّم الآباء بالأنبياء قديماً بأنواع وطرق كثيرة، كلمنا في هذه الأيام في ابنه الذي هو بهاء مجده وصورة جوهره وحامل كل الأشياء بكلمة قدرته بعد ما صنع بنفسه تطهيراً لخطايانا جلس في يمين العظمة في الأعالي» (العبرانيين ١ : ١ – ٣). ولأن من رأى الابن فقد رأى الآب (يوحنا ١٤ : ٩). ومن عرف الابن قد عرف الآب. إذ يقول الإنجيل للقديس يوحنا إن مخلصنا قال لتلاميذه «لو كنتم قد عرفتموني لعرفتم أبي أيضاً»، وحين قال له تلميذه فيلبس «ياربّ أرنا الآب وكفانا» أجابه قائلاً «أنا معكم كل هذا الزمان ولم تعرفني بعد يا فيلبس؟ الذي رآني فقد رأى الآب» (يوحنا ١٤ : ٧ – ٩).

قال مخلصنا هذه الكلمات للفريسيين وهو يعلّم في رواق الخزانة، وهو أحد أروقة هيكل أورشليم، وكانت به الخزانة التي كان اليهود يضعون فيها تقدماتهم من النقود (مرقس ١٢ : ٤١)، والتي كان رؤساء الكهنة والفريسيون يجتمعون حولها عادة، لأن هدفهم الأكبر كان هو الاستيلاء على تلك النقود. وكانت هي إلههم الحقيقي الذي يعبدونه، والذي كانوا حريصين على أن يكونوا أقرب مايكونون إليه. وإذ أحنقتهم تلك الكلمات التي قالها مخلصنا مقرراً أنه ابن الله وأن الله أبوه، وكان القول بذلك جريمة في نظرهم تتضمن التجديف على الله وتستوجب الحكم بالموت على مخلصنا، فإن أحداً لم يستطع أن يقبض عليه عندئذ (يوحنا ٧ : ٣٠). لأن قوة إلهية حجبته عن أعينهم، إذ أن الساعة التي كانت مقررة في التدبير الإلهي لموته لم تكن قد أتت بعد (يوحنا ٧ : ٨). وقد كان ينبغي أن يكون موته في ساعة محددة لا تتقدم لحظة ولا تتأخر لحظة، على مقتضى الحكمة الإلهية السامية والمشيئة الإلهية المقررة منذ الأزل.

٨ : ٢١ – ٣٠

المسيح يواصل التعليم في الهيكل:

وقال مخلصنا أيضاً لليهود ورؤسائهم: «إني سأمضي، وستأخذون تبحثون عني وتموتون في خطاياكم. فحيث أمضي أنا لا تستطيعون أنتم أن تأتوا». وكان يعني كما هو واضح أنه سيرتفع بعد أيام قليلة إلى السماء. وقد سبق له أن قال مثل هذا (يوحنا ٧ : ٣٤) ثم عاد فقاله مرة ثالثة

لتلاميذه (يوحنا ١٣ : ٣٣) . وعندئذ سيتحقق المنكرون له من اليهود أنه هو المسيح ابن الله، وأنهم قتلوه ظلماً، فيروحون يبحثون عنه فلا يجدونه، لأنه سيرتفع إلى أحضان أبيه السماوى ويصعد إلى السماء التى منها نزل، حيث لا يستطيعون هم أن يرتفعوا، لأنهم خطاة. ومن ثم يموتون فى خطاياهم (يوحنا ٨ : ٢٤) بعد أن فوّتوا على أنفسهم فرصة الخلاص، بعدم إيمانهم بذلك الذى جاء ليمنحهم الخلاص، وحاربوه وعذبوه وصلبوه. وحتى إذا غلظت قلوبهم ولم يدركوا أن هذا الذى قتلوه هو المسيح ابن الله، حتى بعد أن رأوا معجزة قيامته من بين الأموات وصعوده إلى السماء، وظلوا يبحثون عن ذلك الذى يعتقدون أنه المسيح الحقيقى حسب فكرتهم الخاطئة عنه، فلن يجدوه، لأنه لن يأتى أبداً بعد أن أتى المسيح الحقيقى ثم صعد إلى السماء، ومن ثم لن ينالوا الخلاص بسبب عدم إيمانهم به، ويموتون فى خطاياهم. ولكن اليهود ورؤساءهم فهموا هذا القول من مخلصنا فهماً سطحياً كما هو شأنهم دائماً، وفسروه تفسيراً تافهاً يتفق مع تفاهة أفكارهم وسفاهة مقاصدهم (يوحنا ٨ : ٤٨) . إذ قالوا: «لعله سيقتل نفسه، إذ يقول حيث أمضى أنا لا تستطيعون أنتم أن تأتوا». وكان هذا القول منهم ينطوى أيضاً على عدم إدراكهم لحقيقة شخصيته (يوحنا ٧ : ٣٥) باعتباره المسيح ابن الله، وعدم إدراكهم أنه إذا مضى فإنه يمضى عائداً إلى أبيه السماوى (يوحنا ١٦ : ١٦) الذى هو بلاهوته كائن معه فى وحدانية كاملة، والذى هو من الرفعة والعلو والطهارة التامة والنقاء الإلهى بحيث لا يستطيع أى إنسان خاطىء مهما بلغت خطيئته من الضآلة أن يصل إليه أو يقترب منه. ومن ثم قال لهم مخلصنا «أنتم من أسفل، وأما أنا من فوق، أنتم من هذا العالم وأما أنا فلست من هذا العالم. لذلك قلت لكم إنكم ستموتون فى خطاياكم. لأنكم إن لم تؤمنوا بأنى أنا هو فستموتون فى خطاياكم». أى أنهم من أسفل حيث الأرض والأرضيات، والمادة والماديات (يوحنا ٣ : ٣١) . فهم لا يفكرون إلا تفكيراً مادياً، وأما هو فمن فوق، حيث السماء والسمائيات، والروح والروحيات، وما يتكلم به إنما يفوق عقولهم ومداركهم فلا يمكنهم أن يفهموه، لأنهم من هذا العالم (يوحنا ١٥ : ١٩)، (١ يوحنا ٤ : ٥) الذى هو مسكن الناس، وأما هو فليس من هذا العالم (يوحنا ١٧ : ١٤ و١٦) . وإنما هو رب العالم، وملك العالم، ومالك العالم، الساكن فى السماء: وفى قوله له المجد «أما أنا فمن فوق.. وأما أنا فلست من هذا العالم» على الرغم من أنه جاء فى الجسد، وولد من العذراء مريم، بيان لحقيقة لاهوته، وأزليته، وأن له وجوداً قبل الزمان. وأن وجوده لم يبدأ بميلاده من مريم، وإنما هو «منذ القديم، منذ أيام الأزل» (ميخا ٥ : ٢) . وإن ميلاده من مريم هو فى الحقيقة مجرد تجسد، إذ يقول الإنجيل للقديس يوحنا إن «الكلمة اتخذ جسداً» (يوحنا ١ : ١٤) . لذلك قال لليهود إنهم إن لم يفتحوا عيونهم وعقولهم وقلوبهم ويؤمنوا بأنه هو المسيح ابن الله الذى تنبأ بمجيئه كل أنبيائهم. فسيموتون فى خطاياهم. (لوقا ٢١ : ٨)، (مرقس ١٣ : ٦) .

بيد أن اليهود ورؤساءهم ظلوا مع ذلك مغلقي الأعين والعقول والقلوب، فعلى الرغم من وضوح أقوال مخلصنا ودلالتها على أنه هو المسيح الحقيقي الذي ينتظرونه، قالوا له «من أنت؟» فقال لهم مخلصنا «أنا ذاك الذي منذ البدء كلمتكم عنه»، أي أنه سبق منذ أن بدأ رسالته التعليمية يقول لليهود سواء في مجاز وتورية أو في صراحة ووضوح أنه هو المسيح ابن الله الآتي إلى العالم على مقتضى نبوءات كل أنبيائهم (يوحنا ٤ : ٢٦)، (١٣ : ١٩)، (٨ : ٢٨). وقد ظل هذا هو تعليمه على الدوام، لم يتراجع عنه أو يناقضه أو ينقضه، وقد ذكره وكرره في كل قول وكل فعل فعله، فهم إذ يسألونه الآن «من أنت؟» إنما ينطوي سؤالهم على استخفاف به، وتكذيب له، وتهكم عليه. كما ينطوي على ما يملأ قلوبهم من غلظة وفظاظة وشر ومكر ولؤم والتواء. ولذلك قال لهم مخلصنا: «إن عندي الكثير لأقوله وأحكم به في شأنكم. بيد أن الذي أرسلني هو حق. وما سمعته منه هو الذي أتكلم به في العالم». أي أن في قدرته أن يوبخهم بكلام كثير ويدينهم عن خطايا كثيرة ارتكبوها، ومنها إنكارهم له وعدم إيمانهم به، على الرغم من كل ما سمعوه من تعاليمه ورأوه من معجزاته. ولكن أرجأ ذلك الكلام وتلك الإدانة إلى يوم الدينونة، إذا هم تشبثوا بخطاياهم وبعدم إيمانهم، واكتفى بأن أكد لهم أن الكلام الذي قاله لهم حق، لأن أباه السماوي هو واحد معه في الجوهر، والذي أرسله هو حق (يوحنا ٣ : ٣٣)، (٧ : ٢٨) وما سمعه منه هو الذي تكلم به في العالم (يوحنا ٣ : ٣٢)، (٨ : ٤٠). فإن لم يصدقه العالم لأنه صدر عنه وهو في صورة ناسوته. فليصدقه لأنه صدر عن جوهر لاهوته. حيث إنه ما تكلم إلا بما سمعه من الله الآب (يوحنا ١٢ : ٤٩)، (١٥ : ١٥) الذي هو كائن معه وفيه. فما قاله الابن هو في نفس الوقت ماقاله الآب. وهذا دليل كاف على أن ماقاله هو الحق. ولكن اليهود ورؤساءهم مع ذلك ظل الظلام يغلف أرواحهم وأفكارهم ومشاعرهم، فلم يدروا أو يدركوا أن مخلصنا إنما يكلمهم عن الآب السماوي الذي هو أبوه، والذي هو كائن معه وفيه (يوحنا ١٤ : ١٠ و١١) وواحد معه في الجوهر (يوحنا ١٠ : ٣٠). فأخذ مخلصنا يزيدهم شرحاً وإيضاحاً. لأنه إنما كان ينذرهم الإنذار الأخير. قبل أن ينطلق عائداً إلى السماء. كي يتوبوا ويثوبوا إلى رشدهم ويؤمنوا به. وكان يحذرهم التحذير الأخير من نتيجة إنكارهم له وهي أن يموتوا في خطاياهم، فلا ينعموا بالخلاص الذي جاء إلى العالم كي ينعم به عليهم، فيتمتعوا بالنعيم في ملكوت السماوات. ومن ثم قال لهم: «حينما ترفعون ابن الإنسان تدركون عندئذ أني أنا هو، وأني لا أعمل شيئاً من نفسي وحدي، وإنما أتكلم بما علمني أبي، إن الذي أرسلني هو معي ولم يتركني وحدي. لأني في كل حين

أعمل ما يرضيه». أي أنهم لا يعرفون الآن حقيقة شخصية مخلصنا بوصفه المسيح ابن الله (رومية ١ : ٤) الذي ينتظرون مجيئه، ولكنهم سيعرفونها حق المعرفة حين يرفعونه على الصليب ليقتلوه (يوحنا ٣ : ١٤)، (١٢ : ٣٤). ثم إذ يموت على الصليب ويمكث جثمانه في القبر ثلاثة أيام. وبعدها يقوم، وقد عاد إلى الحياة بقوته وحده. فإن هذه المعجزات سوف توقظ ضمائر الصالحين منهم. وإذ يصارحهم تلميذه بطرس في يوم الخمسين قائلاً لهم «فليعلم يقيناً جميع بيت إسرائيل أن الله جعل يسوع هذا الذي صلبتموه أنتم رباً ومسيحاً» سيصرخون قائلين «ماذا نصنع؟» (الأعمال ٢ : ٣٦ و٣٧)، أي ماذا يفعلون ليبرهنوا على أنهم آمنوا به. بعد أن يكونوا قد آمنوا بالفعل، وإذ يؤمنون بحقيقة شخصيته بصفته ابن الله فسيعرفون عندئذ الحقيقة المرتبطة بهذه الحقيقة، وهي أن أباه الذي يتحدث عنه إنما هو الله الآب الذي يعبدونه هم. وإذ أن ابن الله كائن مع أبيه السماوي في وحدانية كاملة، فهو لا يعمل مستقلاً عنه بإرادته وحده (يوحنا ٨ : ١٦)، (١٦ : ٣٢)، وإنما يعمل كل شيء بإرادته هو وإرادة أبيه معه في نفس الوقت لأن إرادتهما واحدة متحدة، ومشيئتهما واحدة. وقد سبق لمخلصنا بيان إرادته الواحدة والآب السماوي. فقال «طعامي هو أن أعمل بمشيئة الذي أرسلني وأنجز عمله» (يوحنا ٤ : ٣٤). وقال «لأنني لا أبتغي مشيئتي بل مشيئة الآب الذي أرسلني» (يوحنا ٥ : ٣٠). وقال «لأنني قد نزلت من السماء لا لأعمل بمشيئتي، وإنما بمشيئة الذي أرسلني» (يوحنا ٦ : ٣٨). ولئن تكلم الابن بشيء إنما يتكلم بلسانه هو وبلسان أبيه معه في نفس الوقت، لأن ما يتكلم به الابن إنما يتكلم به الآب (يوحنا ٣ : ١١) إذ أن الابن هو الله الغير المنظور وقد صار منظوراً، وهو «الكلمة» (يوحنا ١ : ١). وعلى الرغم من أن الآب قد أرسل الابن إلى العالم لينجز عمل الفداء الذي قاما معاً بتدبيره لخلاص البشر من الهلاك الذي استحقوه بسبب خطاياهم، فإن الابن لم ينفصل عندئذ عن الآب الذي أرسله، ويصبح وحده، وإنما هما في ذات واحدة وكيان إلهي واحد كالشمس وضوئها، فمنذ كانت الشمس شمساً كانت مضيئة، ونورها كائن معها وفيها ولا ينفصل عنها. ومن ثم ظل الابن يعمل بمشيئة الآب وبما يرضي الآب، لأن ما يشاؤه الابن هو في الوقت نفسه ما يشاؤه الآب. ولأن ما يرضي الابن هو في الوقت نفسه ما يرضي الآب (يوحنا ٥ : ١٩ و٣٠).

وإذ قال مخلصنا هذا لليهود ليقنعهم بحقيقة شخصيته في منطق إلهي قوي قويم، آمن به كثيرون منهم، وقد لانت له قلوبهم ودانت لهم عقولهم، مبرهنين بذلك على أنه وإن كانت الأغلبية فاسدة فاجرة وعنيدة في التشبث بالمكر والشر، فإن ثمة أقلية نقية وتقية ومستعدة لأن تنتهج طريق البر والخير (انظر يوحنا ٢ : ٢٣)، (٧ : ٣١)، (١٠ : ٤٢)، (١١ : ٤٥)، (١٢ : ١١ و٤٢). وهكذا كما يقول بولس الرسول «قد حصلت بقية حسب اختيار النعمة» (رومية ١١ : ٥).

إدعاء اليهود أنهم أحرار وجواب المسيح:

وعندئذ قال مخلصنا لليهود الذين آمنوا به، كي يوطد إيمانهم، ويستبعد ذوى الإيمان الضعيف منهم: «إن ظللتم متمسكين بكلامي، فبالحقيقة تكونون تلاميذى، وتعرفون الحق، والحق يحرركم». أى أنه لا يكتفى ممن آمنوا به، بأن يكون إيمانهم هذا وقتياً، أو ضعيفاً، أو زائغاً، أو زائلاً، وإنما يكون إيماناً دائماً، قوياً، حقيقيّاً، ثابتاً، بحيث يظلون متمسكين بأقواله وتعاليمه ووصاياه، متخذينها شريعة لهم، وطبيعة لاصقة بأنفسهم، يمارسونها كأنها صفة من صفاتهم، ولازمة من لوازم حياتهم، لا يحيدون عنها، ولا يصطنعون المبررات لمخالفتها أو التهرب منها. لأنهم لو فعلوا ذلك يكونون بالحقيقة تلاميذه» (يوحنا ٢ : ٢)، الذين يتخذونه طوال حياتهم معلماً لهم منذ لحظة إيمانهم به حتى لحظة موتهم، لا ينحرفون، ولا تملأ الكبرياء قلوبهم، مهما بلغوا من السن أو من المنصب أو من الجاه أو من العلم أو من التجربة، فيظنون أنهم قد بلغوا الغاية التى ليس بعدها غاية، وإنما يظلون معتبرين أنفسهم تلاميذ أصاغر بالنسبة لمعلّمهم الأكبر والأوحد والأمجد. يتخذونه نبراساً لحياتهم. ويتخذون تعاليمه أساساً لكل تصرفاتهم. لأنهم بذلك، وبذلك وحده، يعرفون الحق، أى يعرفون الله، ويعرفون كل الحقائق التى تتصل بالله، أو التى يوحى بها الله أو التى يوصى بها الله، إذ أن كل ماعدا الحقائق الإلهية باطل ووهم وضلال وظلام فى ظلام. وقد قال مخلصنا لتلاميذه مؤكداً هذا المعنى: «اثبتوا فىّ... فكما أن الغصن لا يمكنه أن يأتى بثمر من ذاته وحده إن لم يثبت فى الكرمة، هكذا أنتم لا يمكنكم أن تأتوا بثمر إن لم تثبتوا فىّ. أنا الكرمة وأنتم الأغصان فالذى يثبت فىّ وأنا فيه يأتى بثمر كثير، لأنكم بدونى لا تستطيعون أن تفعلوا شيئاً. وأما الذى لا يثبت فىّ فيطرح خارجاً كالغصن، فيجف فيجمعونه ويطرحونه في النار فيحترق. إن أنتم ثبتم فىّ وثبت كلامى فيكم فإنكم تطلبون ماتشاءون فيكون لكم. بهذا يتمجد أبى أن تأتوا بثمر كثير، فتكونوا تلاميذى... فاثبتوا فى محبتى، إن حفظتم وصاياى تثبتم فى محبتى كما أنى أنا حفظت وصايا أبى وثبت فى محبته» (يوحنا ١٥ : ٤ - ١٠) وانظر أيضاً (٢. يوحنا : ٩) فإذا عرف اليهود الحق (يوحنا ١ : ١٤ و١٧)، فإن الحق يحررهم من كل باطل ومن كل وهم ومن كل ضلال، ويخرجهم من الظلام إلى النور، لأن يعتقهم من سلطان الشيطان عليهم، ومن استعباد الشيطان لهم (رومية ٦ : ١٤ و١٨ و٢٢). ومن ثم يحررهم من كل ما يكبلهم به الشيطان من أغلال الشرور والآثام، والأضاليل والأوهام، والجور والفجور والظلم والظلام (غلاطية ٥ : ١ و١٣)، (يعقوب ١ : ٢٥)، (٢ : ١٢)، (١. بطرس ٢ : ١٦).

بيد أن اليهود كانوا بطبيعتهم يتصفون بالصلف والكبرياء والغرور والاستعلاء. وبالرغم من أنهم ظلوا طوال تاريخهم مستعبدين لشعوب وأمم أخرى غير شعبهم وأمتهم، كانوا يعتقدون أنهم شعب الله المختار (اللاويين ٢٥ : ٤٢)، وأنهم إذ ينتسبون إلى إبراهيم أبي الأنبياء وخليل الله، يكتسبون بذلك شرفاً يميزهم ويفرزهم عن سائر شعوب الأرض (يوحنا ٨ : ٣٧ و٣٩)، (متى ٣ : ٩)، ومن ثم جرح قول مخلصنا «إن الحق يحرركم» ذلك الشعور بكل تلك الصفات الكامنة فيهم، والتي تجري في عروقهم وتمتزج بدمائهم. فأجابوه قائلين: «إننا ذرية إبراهيم، ولم يستعبدنا أحد قط. فكيف تقول أنت: إنكم تصيرون أحراراً؟». وإذ قالوا ذلك صحح لهم مخلصنا فكرتهم الخاطئة عن الحرية، وفهمهم الزائف لها. إذ أجابهم قائلاً «الحق الحق أقول لكم إن كل من يقترف الخطيئة هو عبد للخطيئة. والعبد لا يمكث في البيت إلى الأبد، وأما الابن فيمكث إلى الأبد. فإن حرركم الابن فبالحقيقة تصيرون أحراراً. أنا أعلم أنكم ذرية إبراهيم ولكنكم تبتغون قتلي، لأن كلامي لا مقر له فيكم». وبذلك أوضح لهم أنه حين كلمهم عن الحرية، لم يكن يعني حرية الشعب في أن يحكم نفسه. وقد كان يعلم أنهم حين يتشدقون بالحرية بهذا المعنى إنما يكذبون ويغالطون، لأنهم لم يتمتعوا بالحرية بهذا المعنى أبداً، وإنما كانوا منذ نشأتهم الأولى مستعبدين لشعوب أخرى من مصريين وآشوريين وبابليين ويونان ورومان وغيرهم من الشعوب الأقل من هذه قوة وسطوة. بل إنهم كانوا حتى في ذلك الوقت الذي زعموا فيه أمام فادينا أنهم لم يستعبدهم أحد قط، كان الرومان يستعبدونهم أشنع وأبشع استعباد، ويدوسون بأقدامهم على رقابهم، ويسددون إلى صدورهم أسنّة حرابهم، حتى أصبحوا أكثر عبودية من كل العباد في الأرض، وأكثر مذلة من كل الأذلاء فيها. ومع ذلك لم يشأ مخلصنا في سماحته وتسامحه ووداعته وتواضعه أن يكذّبهم في زعمهم، أو يضربهم على الجرح الذي يؤلمهم. وإنما اكتفى بأن شرح لهم معنى العبودية الحقيقية، وهي العبودية للخطيئة، قائلاً لهم إن كل من يقترف الخطيئة هو عبد للخطيئة، ولو كان يتمتع بكل الحريات التي تكفلها القوانين الأرضية والشرائع الوضعية للبشر (رومية ٦ : ١٦ و١٧ و١٩ – ٢١). (٢. بطرس ٢ : ١٩). وكما أن العبد لا يقيم في بيت سيده كالابن إقامة دائمة، ولا يكون له مثل الابن نصيب في ميراث ذلك السيد (التكوين ٢١ : ١٠)، (غلاطية ٤ : ٣٠)، (لوقا ١٥ : ٣١)، هكذا المستعبد للخطيئة فإنه لا يقيم في ملكوت الله إلى الأبد. وأما الذي يحرره ابن الله من الخطيئة إذا آمن به وعمل بتعاليمه ووصاياه، فإنه يتمتع بالحرية الحقيقية (رومية ٨ : ٢). (٦ : ١٤ و١٨ و٢٢)، (٢. كورنثوس ٣ : ١٧)، ويقيم في ملكوته ويصير بحق بنوته له وارثاً في ذلك الملكوت. لقد تفاخر اليهود بأنهم ذرية إبراهيم، وهو بالفعل شرف عظيم لم ينكره مخلصنا عليهم، لأن إبراهيم كان نبياً بل كان أبا الأنبياء جميعاً، وقد نال

أعظم الرضا من الله حتى لقد أعطاه الله عهداً بأن تتبارك بنسله كل قبائل الأرض (التكوين ١٢: ٣)، (١٨: ١٨)، (٢٢: ١٨)، (٢٦: ٤)، (٢٨: ١٤)، (الأعمال ٣: ٢٥)، (غلاطية ٣: ٨).
ولكن اليهود لم يعودوا يستحقون هذا الشرف بعد أن نكصوا عن مسلك إبراهيم، مسلك الخير والبر والصلاح، وانتهجوا على النقيض مسلك الشر والجور والفجور. ولا أدل على ذلك من أن مخلصنا نفسه جاء كي يهديهم ويفديهم ويبذل نفسه عنهم لينقذهم من الهلاك المحكوم به عليهم. فبدلاً من أن يؤمنوا به ويحبوه، كفروا به وحاربوه، وعادوه واعتدوا عليه، وراحوا آخر الأمر يبتغون قتله (يوحنا ٨: ٤٠)، (٧: ١). ولو أنهم استمعوا إلى كلامه وجعلوا له مكاناً مستقراً في قلوبهم، لما فكروا هذا التفكير الشائن، ولا دبروا هذا التدبير الشرير. أما وقد فعلوا ذلك فإنهم لا يستحقون شرف الانتساب إلى إبراهيم البار، أو التشدق بأنهم ذريته أو تربطهم به أي صلة من الصلات أو علاقة من العلاقات. وقد قال القديس يوحنا المعمدان لليهود «يا أبناء الأفاعي من أشار عليكم بالهرب من الغضب الذي سيحل بكم؟. الأحرى بكم إذن أن تثمروا ثمراً يليق بالتوبة، ولا يخطر لكم أن تقولوا في أنفسكم حسبنا أن إبراهيم أبونا، لأنني أقول لكم إن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أبناء لإبراهيم، وها قد وضعت الفأس على أصول الشجر، فكل شجرة لا تثمر ثمراً جيداً تقطع وتلقى في النار» (متى ٣: ٧- ١٠).

٨: ٣٨- ٤٧

يزعمون أنهم أبناء إبراهيم ويعملون عمل الشيطان:

وواصل مخلصنا كلامه إلى اليهود الذين عادوه وعاندوه ولا سيما رؤساء الكهنة والفريسيين، قائلاً «أنا أتكلم بما رأيت لدى أبي، وأنتم تعملون بما سمعتم من أبيكم»، أي أنه إذ يتكلم معهم فإن كلامه إنما يعبر عن الحقائق الإلهية كما يراها هو رأي العين في السماوات، ويراها في نفس الوقت أبوه السماوي الذي هو كائن معه وفيه في وحدانية كاملة، إذ أنهما يريانها معاً. ولما كان هو وأبوه جوهر الحق في ذاته، فإن ما يريانه معاً هو الحقائق الراسخة الأزلية الأبدية التي لا تقبل الريبة أو الشك أو المكابرة أو المهاترة التي يثيرها أعداء مخلصنا. وفي أكثر من موضع يلح - له المجد - على نفس الحقيقة. ففي حديثه إلى نيقوديموس يقول له: «الحق الحق أقول لك إننا نتكلم بما نعلم ونشهد بما رأينا... وما رآه (الابن) وما سمعه هو الذي به يشهد» (يوحنا ٣: ١١، ٣٢). وفي حديثه إلى تلاميذه رداً على سؤال فيلبس يقول له «ألا تؤمن بأني أنا في أبي وأنّ أبي فيّ؟ إن الكلام الذي أكلمكم به لا أتكلم به من نفسي أنا وحدي، وإنما الآب الكائن فيّ هو الذي يعمل أعماله. صدقوني أني في أبي، وأن أبي فيّ... إن الكلام الذي تسمعونه ليس كلامي وإنما

كلام الآب الذى أرسلنى» (يوحنا ١٤: ١٠ و٢٤) - انظر ايضا (يوحنا ٥: ١٩ و٣٠)، (٨: ٤٢).
وأما اليهود فيسلون بما سمعوا من أبيهم الذى هو الشيطان، لأنهم أشرار والشيطان هو أبو الأشرار وهم أبناؤه، فهو الذى يوسوس لهم بما يعملون، ويحرضهم عليه. وقد كان واضحاً كل الوضوح من قول مخلصنا أن أباهم الذى يعنيه فى ذلك القول هو الشيطان. ولكنهم على مقتضى طبيعتهم الماكرة الخبيثة الملتوية لجأوا إلى المغالطة والمناورة، قائلين «أبونا هو إبراهيم». فقال لهم مخلصنا: «لو كنتم أبناء إبراهيم لكنتم تعملون أعمال إبراهيم. ولكنكم الآن تبتغون قتلى وأنا إنسان قد كلمكم بالحق الذى سمعه من الله، وهذا مالم يفعله إبراهيم، إنكم تعملون أعمال أبيكم». وهكذا هدم فادينا - بعبارة واحدة وحجة قوية - إدعاءهم الذى يتشدقون به، ويتفاخرون به، فى عجرفة وفى صلف، متمسحين بإبراهيم النبى الصالح البار، قائلين إنه أبوهم، مما يوحى بأنهم ورثوا عنه صلاحه وبره، وقد كانوا فى ذلك مغالطين وكاذبين، لأنهم لو كانوا قد ورثوا عن إبراهيم ذلك الصلاح وذلك البر، لماثلوه فى صفاته وخلاله، وتمثلوا به فى أعماله (انظر رومية ٢: ٢٨)، (٩: ٧)، (غلاطية ٣: ٧ و٢٩). ولكنهم فى نفس هذه اللحظة التى يزدهون فيها ويباهون بأنه أبوهم وبأنهم أبناؤه يرتكبون جريمة بشعة شنيعة ماكان إبراهيم ليرتكبها، إذ يسعون إلى قتل إنسان برىء بار (يوحنا ٧: ١)، (٨: ٢٣ و٤٠)، لا لشىء إلا أنه كلمهم بالحق الذى هو كلام الله الآب نفسه (يوحنا ٨: ٢٦). وإذ كان هو بوصفه لبنه الكائن معه فى الجوهر والكائن فيه فى وحدانية كاملة، فإن مايقوله الابن هو ما يقوله الآب. وما يقوله الآب هو ما يقوله الابن، فهما يقولانه معاً، ويستمع كل منهما إلى الآخر فى نفس الوقت. فإن كان أولئك اليهود الضالون المضللون القاتلون المغتالون يزعمون أنهم أبناء إبراهيم، فإنه زعم باطل. لأن إبراهيم لم يكن ضالاً ولا مضللاً، ولم يكن قاتلاً ولا مغتالاً، وإنما هذه صفات الشيطان وحده، فلم يكن إبراهيم إذن هو أباهم (متى ٣: ٩) وإن كانوا من سلالته. وإنما أبوهم هو الشيطان الذى يتبعونه ويطيعونه، ويعملون حسب تفكيره وتدبيره ومشيئته. ولكن اليهود إذ سمعوا ذلك من مخلصنا تمادوا فى تغابيهم ومغالطتهم ومناورتهم على الرغم من وضوح كلامه وقوة حجته، فتظاهروا بأنهم لا يفهمون أو يعلمون ذلك الذى يعنيه بأنه أبوهم. وإذ سبق أن أحبط إدّعاءهم بأنهم أبناء إبراهيم، لجأوا - فى دهائهم والتوائهم - إلى إدعاء آخر قائلين «إننا لم نولد من زنى وإنما لنا أب هو الله وحده». ولم يدروا أنهم برفضهم المسيح وهو الله الظاهر فى الجسد وإتّباعهم الشيطان ونزواتهم قد سقطوا فى خطيئة الزنى لأنهم عبدوا إلهاً آخر هو الشيطان وشهواتهم (التثنية ٣١: ١٦)، (إشعياء ١: ٢١)، (هوشع ٢: ٤). على أن اليهود إذ قالوا «لنا أب هو الله وحده» قصدوا أبوة الله لهم بالمعنى العام لا بمعنى البنوة الخاصة التى نسبها المسيح له المجد إلى نفسه من حيث هو صورة الله الغير منظور (كولوسى ١: ١٥). أى أن الله هو أصلهم من حيث هو الذى

خلقهم وبرأهم، وأوجدهم. وفى ذلك قال موسى النبى يوبخ شعب إسرائيل «أبهذا تكافىء الرب أيها الشعب الأحمق الذى لا حكمة له أليس أنه هو أبوك مالكك الذى فطرك وأبدعك» (التثنية ٣٢: ٦). وجاء فى سفر إشعياء النبى «فإنك أنت أبونا.. والآن يارب أنت أبونا. نحن الطين وأنت جابلنا ونحن جميعاً عمل يديك» (إشعياء ٦٣: ١٦)، (٦٤: ٨)، (ملاخى ١: ٦).

بيد أن مخلصنا بادر عندئذ كذلك إلى إحباط هذا الإدعاء الذى ادعاه اليهود بنفس الوضوح ونفس القوة قائلاً لهم «لو كان الله أباكم لأحببتمونى لأننى من الله خرجت وأتيت. فأنا لم آت من نفسى وحدى، وإنما هو الذى أرسلنى. لماذا لا تفهمون كلامى؟. لأنكم لا تستطيعون أن تستمعوا إلى ما أقول. إنكم أنتم من أب هو إبليس، وشهوات أبيكم تبتغون أن تتمموا. ذاك الذى كان منذ البدء قتالاً للناس. ولم يثبت على الحق أبداً، لأنه ليس فيه من الحق شىء. متى تكلم فإنما يتكلم مما عنده. لأنه كذاب وأبو الكذاب. وأما أنا فلأننى أقول لكم الحق لا تؤمنون بى. من منكم يستطيع أن يثبت علّى خطيئة؟ فإن كنت أقول لكم الحق، فلماذا لا تصدقونى. من كان من الله يسمع كلام الله، فإن كنتم لا تسمعون، فلأنكم لستم من الله».

وقد كان له المجد يعنى فيما قال فى منطقه الإلهى القوى القويم أنهم لو كان الله أباهم حقاً لفهموا وعلموا بناء على نبوءات أنبيائهم وبناء على مارأوه من تعاليمه ومعجزاته أنه هو ابن الله. وأنه كائن معه فى جوهر الألوهية الواحد. وأنه خرج من الله خروج النور من الشمس، معها وفيها منذ أن كانت شمساً ولا ينفصل عنها، ليجىء إلى العالم كى يتمم عمل الفداء الذى دبرته العناية والرحمة الإلهية لخلاص البشر من نتيجة الشر الذى ارتكبوه والذى استوجب فى العدل الإلهى هلاكهم.

ويلاحظ هنا أن السيد المسيح له المجد يبين فى قوله «لأننى من الله خرجت وأتيت» أنه قبل أن يولد من مريم كان مع الآب، وأن وجوده مع الآب كان منذ الأزل، وأنه قبل أن يظهر فى العالم كان فى السماء ثم نزل منها، ومن مريم أخذ الجسد الذى ظهر به فى صورة إنسان، وإن كان هو الله الأزلى ذاته، وقد اتخذ فى الزمان جسداً. فهذا هو المعنى الذى يؤكده له المجد فى مواضع متفرقة من الإنجيل. ومن ذلك (يوحنا ٣: ١٣ و٣١)، (٦: ٣٣ و٣٨ و٤١ و٤٢ و٤٦ و٥٠ و٥١ و٥٨ و٦٢)، (١٣: ٣)، (١٦: ٢٧ و٢٨ و٣٠)، (١٧: ٨ و٢٥).

ومن ثم فإن مخلصنا لم يأت - وهو أقنوم الابن فى الطبيعة الإلهية - من نفسه وحده، وإنما كانت مشيئته فى ذلك متحدة بمشيئة الله الآب الذى أرسله كى ينجز هذه المشيئة التى يشترك فيها الله الآب مع الله الابن. وهذا هو المعنى المقصود من قوله دائماً إن «الآب أرسلنى»، ليؤكد

أنه لم ينفرد في مجيئه بمشيئته وحده دون مشيئة الآب. وبهذا ينفى إنفصاله عن الآب، فهو معه، وهو من طبيعته وجوهره، فمشيئة الابن هي مشيئة الآب لأن الآب والابن هما معاً واحد (يوحنا ١٠ : ٣٠)، أى أنهما خاصيتان في ذات إلهية واحدة، أقنومان في جوهر واحد. فالله لا ينقسم في طبيعته، كما لا ينقسم في مشيئته (انظر يوحنا ٣ : ١٧ و٣٤)، (٥ : ٣٦ و٣٨ و٤٣)، (٦ : ٢٩ و٣٨ و٥٧)، (٧ : ٢٨ و٢٩)، (١٠ : ٣٦)، (١١ : ٤٢)، (١٧ : ٣ و٨ و١٨ و٢١ و٢٣ و٢٥)، (٢٠ : ٢١).

ولكن اليهود لم يستطيعوا - بعقلهم الجسدى المادى الجامد المحدود - أن يفهموا كلام فادينا (يوحنا ٧ : ١٧) أو يسمعوا له بالطاعة والإذعان (يوحنا ٥ : ٢٥)، لأنهم لم يكونوا ممتلئين بروح القدس الذى هو روح الله، والذى لا يمكن لأى إنسان بدونه أن يفهم العقيدة المسيحية أو يقتنع بها أو يصل لأن يدرك مغزاها ومرماها، لأنه «لا يستطيع أحد أن يقول: يسوع رب، إلا بروح القدس» (١. كورنثوس ١٢ : ٣) وإنما كان اليهود قد امتلأوا بروح الشيطان وهو إبليس الذى كان رئيساً من رؤساء ملائكة الله (يهوذا : ٦). ولكنه ملأته الكبرياء حتى تمرد على الله واعتقد أنه قادر على أن يفرض سيادته على العالم من دونه، ومن ثم غضب الله عليه وحرمه من كل ما كان قد منحه إياه من قدرات وسلطات، وأسقطه من مكانه ومكانته، وأودعه في أسفل سافلين ليحاسبه في يوم الدينونة على تمرده ويحكم عليه بالجزاء الذى يستحقه في العدل الإلهى، وهو الهلاك الأبدى (٢. بطرس ٢ : ٤) الذى يستحقه الجاحدون والمعاندون والمتمردون على الله، وهو جهنم (متى ٢٥ : ٤١) التى يصطلى بنارها كل الجاحدين والمعاندين له والمتمردين عليه. فكل الذين استولى عليهم إبليس وسيطر على إرادتهم لا يعملون بمشيئة الله الذى هو أبو المؤمنين به والخاضعين له. وإنما يعملون بمشيئة أبيهم الحقيقى الذى هو إبليس (متى ١٣ : ٣٨ و٣٩)، ذلك الذى كان منذ سقوطه (١. يوحنا ٣ : ٨) وغضب الله عليه قد امتلأ بالغيرة من الناس أبناء الله بالحقد عليهم (الرؤيا ١٢ : ١٠)، فعمل بكل قواه منذ أن خلقهم الله على اجتذابهم إليه ليقتلهم (٢. تيموثيئوس ٢ : ٢٦)، (التكوين ٣ : ٤) ويقضى على كل فضيلة فيهم، ويسوقهم إلى سبيل الضلال عن طريق الله الذى هو الحق المطلق، لأنه حاد عن الحق منذ أن تمرد على الله فلم يعد له في الحق شيء، وإنما انتهج سبيل الضلال والكذب، لأنه السبيل الوحيد الذى يستطيع أن ينتهجه منذ أن حاد عن طريق الله الذى هو طريق الهداية الكامل والصدق الذى لا تشوبه شائبة من الكذب على الاطلاق (١. يوحنا ٢ : ٤). فلئن تكلم ذلك الشيطان بالكذب إنه يتكلم بما يتصف به، لأنه أصبح بطبيعته بعد أن تمرد على الله كذاباً لا يستطيع أن يعيش إلا بالكذب. وبالتالى أصبح أبا للكذب ومصدراً له وأكثر المخلوقات قدرة عليه وأقدرها على أن يوحى به إلى

الناس ويغريهم به ويدعوهم إليه. وقد فعل ذلك مع الفاسدين المفسدين من اليهود فأصبح أباً لهم من دون الله (متى ١٢ : ٣٤). ومن ثم لم يعد أبوهم هو إبراهيم. ولم يعد أبوهم هو الله إله إبراهيم، وإنما أصبح أبوهم هو إبليس، ذلك الذي يوسوس في صدور الناس. وقد اعتادوا أن يرددوا ما يوحي إليهم من الأكاذيب والأضاليل والأباطيل. فلم يعودوا قادرين على أن يؤمنوا بالحق (يوحنا ١٨ : ٣٧) الذي جاءهم به مخلصنا ابن الله، مع أنه كان باراً بريئاً من كل خطيئة (متى ٢٧ : ٤)، (٢. كورنثوس ٥ : ٢١). صادقاً لا تشوب أي قول من أقواله أو أي عمل من أعماله أية شائبة من خطأ أو خطيئة أو شهوة من شهوات الناس أو شر من شرورهم «إنه لم يخطئ» (١. بطرس ٢ : ٢٢)، (العبرانيين ٤ : ١٥)، (١. يوحنا ٣ : ٥) وإنما كان طاهراً باراً وقدوساً (العبرانيين ٧ : ٢٦). صالحاً صادقاً (متى ٢٢ : ١٦)، (مرقس ١٢ : ١٤) كريماً حليماً، وداعاً وديعاً متواضعاً (متى ١١ : ٢٩) سمحاً متسامحاً. وقد تحداهم مخلصنا أن يستطيع واحد منهم أن يثبت عليه خطيئة ارتكبها أو ذنباً جناه (متى ٢٧ : ١٩ و٢٣)، (لوقا ٢٣ : ٤١). لأنه كان يعلم وكانوا كلهم يعلمون أنه وإن كان قد عاش بين الناس كواحد منهم (العبرانيين ٢ : ١٤)، وأنه شابههم في كل شيء يتصف به الناس (العبرانيين ٢ : ١٧)، (فيلبي ٢ : ٧) إلا شيئاً واحداً هو أنه كان يتصف بالكمال المطلق في كل أقواله وأعماله وأفكاره ومشاعره، وانفعالاته وتصرفاته. فإن كانت هذه حاله، وهذه أقواله وأعماله،. وهذا مدى صدقه فيما يقول وإخلاصه فيما يعمل، فلماذا لا يصدقونه وهو يردد على مسامعهم كلماته التي هي في نفس الوقت كلمات الله ذاته؟ أليس هذا دليلاً على أنهم لا يعرفون الله، لأنهم لو كانوا يعرفونه لاستمعوا إلى كلامه (يوحنا ١٠ : ٢٦ و٢٧) فكيف إذن يزعمون أنهم أبناء الله، وهم لا يعرفونه؟ (١. يوحنا ٤ : ٦).

٨ : ٤٨ – ٥٠

اتهامهم المسيح أن به شيطان:

وقد كان هذا منطقاً قوياً دحض به مخلصنا مزاعم اليهود (يوحنا ١ : ١٩)، وهدم الركيزة التي يرتكزون عليها في غرورهم وعجرفتهم وصلفهم واستخفافهم به وتطاولهم عليه، ولكنهم مع ذلك تمادوا في سفاهتهم وتفاهتهم ولم يجدوا غير الشتائم يوجهونها إليه، شأن كل مهزوم ضعيف الحجة، قائلين له: «ألم نكن على صواب إذ قلنا إنك سامري وبك شيطان؟». وقد كانت هذه العبارة البذيئة تتضمن إهانتين تنطويان على كل ما يملأ قلوب رؤساء الكهنة والكتبة والفريسيين من حقد على مخلصنا وكراهية له وتحامل حقير وشرير عليه، إذ كان وصفهم له بأنه سامري يعدّ شتيمة لدى المتعصبين من اليهود (٢. الملوك ١٧ : ٢٤ – ٤١) الذين كانوا يحتقرون السامريين (متى ١٠ : ٥)، (لوقا ١٧ : ١٥، ١٨) ويزدرونهم ويتهمونهم بأنهم كفرة خارجون على الدين اليهودي (لوقا ٩ : ٥٢ – ٥٦)، وأنهم ملعونون من الله ومصيرهم جهنم وبئس المصير (يوحنا ٤ : ٩). وأما إتهامهم لمخلصنا بأن به شيطاناً فكان ينطوي على إهانة أحقر وأكثر شراً،

لأنهم إنما قصدوا بها أن يصموه بأنه مجنون ذاهب العقل، أو بأنه قد استولى عليه الشيطان، فهو لا يصنع كل المعجزات التي يصنعها إلا بواسطته وبقدرته الشيطانية، وليس بما لمخلصنا من قدرة ذاتية إلهية تدل على أنه هو ابن الله وأنه هو الله ذاته، وأنه هو المسيح الذي كان اليهود ينتظرونه بناء على نبوءات أنبيائهم التي تتضمن ما سيصنعه المسيح المنتظر حين يجيء من آيات ومعجزات. ولقد تكرر هذا الاتهام و هذه الشتيمة لمخلصنا وفادينا من جانب اليهود عدداً من المرات، إذ ورد مثلاً في الإنجيل: «أجاب الجمع وقالوا إن بك شيطاناً. من الذي يسعى إلى قتلك؟» (يوحنا ٧: ٢٠).. «فقال كثيرون منهم: إن به شيطاناً وقد اختل عقله، فلماذا تستمعون إليه؟» (يوحنا ١٠: ٢٠). وانظر أيضاً (يوحنا ٨: ٥٢). وقال مخلصنا له المجد يروى بشاعة هذا الاتهام المؤلم «يكفى التلميذ أن يكون كمعلمه والخادم كسيده، فإن كان رب البيت قد لقبوه ببعل زبول. فكيف بالأحرى يلقبون أهل بيته؟» (متى ١٠: ٢٥). بل إن بعض اليهود اتهموه بأنه ببعل زبول رئيس الشياطين يخرج الشياطين، إذ جاء في الإنجيل «أما الكتبة الذين من أورشليم فقالوا إن معه بعل زبول وإنه برئيس الشياطين» (مرقس ٣: ٢٢)، (متى ٩: ٣٤)، (١٢: ٢٤)، (لوقا ١١: ١٥ و١٨ – ٢٠). على أن هؤلاء الأشرار قالوا أيضاً عن يوحنا المعمدان نفس ماقالوه عن مخلصنا إذ قال مخلصنا «بمن أشبه هذا الجيل؟ إنه يشبه صبية جالسين في الأسواق.. فقد جاء يوحنا لا يأكل ولا يشرب فقالوا: إن به شيطاناً» (متى ١١: ١٦ – ١٨).

وعلى الرغم مما كان يتضمنه قول أولئك الأشرار من شتائم وإهانات لمخلصنا فإنه بكماله الإلهي لم يغضب ولم يرد على شتائمهم بشتائم أو على إهاناتهم بإهانات، وإنما أجابهم كعادته في وداعة وسماحة وتسامح قائلاً لهم: «أنا ليس بي شيطان، ولكنني أكرم أبي وأنتم تهينونني. إنني لا أطلب المجد لنفسي. فثمة من يطلب ويدين». فكل ما كان يهدف إليه هو أن ينفي الاتهام عن نفسه ويعمل على أن يقنع بالحقيقة أولئك الضالين المضللين، المعادين المعتدين القاتلين. ومن ثم تجاوز عن شتيمتهم له بأنه سامرى، لأنه كان يعلم أنهم يعرفون في قرارة أنفسهم أنه ليس سامرياً، وأنهم إذ يصفونه بهذا الوصف ليسوا إلا كاذبين ومغالطين ومفترين. ثم أكد لهم أنه ليس به شيطان يذهب بعقله أو يصنع المعجزات بواسطته، وإنما هو بهذه المعجزات إنما يبرهن على قدرة أبيه السماوى وقدرته هو باعتباره ابنه وكائن معه في وحدانية الذات الإلهية (انظر متى ١٢: ٢٥–٢٩)، (مرقس ٣: ٢٣– ٢٧)، (لوقا ١١: ١٧– ٢٢). فهو بذلك إنما يمجد أباه السماوى وهو الله الذى يعبدونه ويزعمون في كبرياء وصلف أنهم أبناؤه. ومع ذلك فإنهم لا يقابلون هذا التمجيد وهذا التكريم منه لله الآب السماوى إلا بأن يشتموه ويهينوه، مع أنه إذ يمجد الله الآب ويكرمه لا يطلب مجداً لنفسه لدى الناس ولا تكريماً منهم (يوحنا ٥: ٤١)، (٧: ١٨)، وإنما كل ما يطلبه هو أن يؤمنوا ويصدقوه في كل ما يقول ويعمل، لا لمصلحته هو، وإنما لمصلحتهم هم الذين ما جاء إلى العالم إلا ليفديهم كي يغفر الله خطاياهم ويعفيهم من حكم الموت والهلاك الذى أصدرته عدالته الإلهية عليهم بسبب شرورهم وآثامهم. بل إن مخلصنا لم يطلب حتى أن يعاقب أولئك

الأشرار وينتقم منهم جزاء ما وجهوه إليه من شتائم وإهانات، وما أضمروه له من إعتداءات بلغت حد التآمر عليه بالقتل. فإنه ما جاء إلى العالم فى هذه المرة ليدين أحداً (يوحنا ٣: ١٧)، وإنما أرجأ الدينونة إلى اليوم المحدد لذلك في التدبير الإلهى، عسى أن تستيقظ ضمائر أولئك الخطاة الأشرار قبل موتهم، فتؤنبهم على ما ارتكبوا من خطايا وشرور، وتفتح أمامهم باب الندم والتوبة، فتشملهم رحمة الله التى تتسع لكل نادم وتائب، مهما كانت جسامة خطاياه وشروره.

٨: ٥١- ٥٩

تذمر اليهود من كلام المسيح ومحاولة رجمه:

ثم قال فادينا لليهود «الحق الحق أقول لكم إن كان أحد يحفظ كلامى فلن يرى الموت أبداً». وقد كان له المجد يعني بهذا القول أن الذى يؤمن به ويعمل بوصاياه سيتمتع بالحياة الأبدية في السماء، فهو- وإن مات في هذه الدنيا- لن تفنى روحه الفناء الأبدى الذى هو مصير أرواح الذين لا يؤمنون بمخلصنا والذين لا يعملون بوصاياه.

وفضلاً عن ذلك فإن من يسمع كلام ابن الله ويطيعه ويعمل به، فسوف يحيا بالروح ولن يغلبه الموت، موت الخطيئة، بل إن كان ميتا بالخطيئة فإنه بسماعه كلام ابن الله وبالعمل به يتوب. والتوبة في حياة الإنسان يقول عنها الإنجيل «هذه هى القيامة الأولى. مبارك ومقدس من له نصيب فى القيامة الأولى. هؤلاء ليس للموت الثانى سلطان عليهم» (الرؤيا ٢٠: ٥ و٦). والموت الثانى هو الهلاك الأبدى فى جهنم النار الأبدية (الرؤيا ٢٠: ١٤) يقول سيدنا يسوع المسيح له المجد عن القيامة الأولى، وهى التوبة من الخطيئة: «الحقّ الحقّ أقول لكم إن من يسمع كلامى ويؤمن بالذى أرسلنى له الحياة الأبدية. ولن يأتى إلى دينونة، وإنما ينتقل من الموت إلى الحياة. الحقّ الحقّ أقول لكم إنّ ثمّة ساعة تأتى، وقد أتت الآن يسمع فيها الموتى صوت ابن الله، والذين يسمعون يحيون» (يوحنا ٥: ٢٤ و٢٥). وقال أيضاً لمرثا أخت لعازر «أنا هو القيامة والحياة. من آمنَ بى وإن مات فسيحيا. وكلّ من كان حيّاً وآمن بى فلن يموت إلى الأبد» (يوحنا ١١: ٢٦).

ولكن اليهود بغباء عقولهم وعمَى قلوبهم، فهموا هذا القول فهماً سطحياً جسدياً دنيوياً، وكانوا عاجزين عن أن يتساموا إلى معناه العميق الروحى السماوى، فتمادوا فى التطاول على مخلصنا وإهانته قائلين له: «قد علمنا الآن أن بك شيطاناً. فقد مات إبراهيم والأنبياء، وأنت تقول إن كان أحد يحفظ كلامى فلن يذوق الموت أبداً. أفأنت أعظم من أبينا إبراهيم الذى مات، والأنبياء الذين ماتوا أيضاً؟ منْ عساك تجعل نفسك؟» أى أنه بذلك القول الذى قاله لهم قد أعطاهم الدليل على صدق إتهامهم له بأن به شيطاناً، أى أنه مختلّ العقل يهذى وينطق بما لا يدرى. لأنّ أى

عاقل - في تفكيرهم - يصدق أن إنساناً لا يموت، في حين أنّ إبراهيم أبا آبائهم وأول كلّ أنبيائهم قد مات. كما مات كل هؤلاء الأنبياء وهم أعظم عظمائهم. فكيف يقول مخلّصنا أن مَنْ يحفظ كلامه فلن يرى الموت أبداً؟. ولقد برهن أولئك اليهود الجهلاء الأغبياء المظلمو العقول والقلوب على أنهم - على الرغم من كل ما رأوا من معجزات مخلّصنا الإلهية وما سمعوا من تعاليمه السماوية - لم يدركوا حقيقة شخصيته، باعتباره المسيح ابن الله الذى كانوا ينتظرونه، والذى سبق لكلّ أنبيائهم أن وصفوا بروح النبوة كلّ أقواله وأعماله، وأوردوا كلّ أحداث حياته منذ ولادته من عذراء بحلول روح القدس عليها إلى موته على الصليب، وقيامته من بين الأموات، وصعوده إلى السماء. ولذلك عيروه في استهجان واستخفاف بأنه يزعم أنه أعظم من إبراهيم (يوحنا ٤ : ١٢)، وأعظم من كل الأنبياء. ولو أدركوا حقيقة شخصيته لعلموا أنه بالفعل أعظم منهم جميعاً (لوقا ١١ : ٣١ و٣٢)، (متي ١٢ : ٤١ و٤٢)، لأنه ربهم وإلههم. ومن ثمّ أجابهم مخلّصنا قائلاً لهم «إن كنت أنا وحدى أمجد نفسى فليس مجدي شيئاً، وإنما هنالك أيضاً أبى هو الذى يمجدني - ذلك الذى تقولون أنتم إنه إلهنا، وأنتم لا تعرفونه. أما أنا فأعرفه. وإن قلت إنني لا أعرفه أكون مثلكم كاذباً، ولكنني أعرفه وأحفظ كلامه. لقد تهلّل إبراهيم أبوكم مشتهياً أن يرى يومي، وقد رأى وفرح».

ومن ذلك نرى أن مخلّصنا لكى يقنع اليهود بمنطقهم الإنساني الذى لا يقبل شهادة أحد لنفسه، تنازل هو عن شهادته لنفسه مع أن شهادته حق (يوحنا ٨ : ١٤)، (الرؤيا ١ : ٥)، (٣ : ١٤)، لأنه الإله الحق. واستند إلى شهادة أبيه السماوى (يوحنا ٥ : ٣٧)، (٨ : ١٨) الذى هو كائن معه وفيه في وحدانية كاملة، والذى سبق أن شهد له (يوحنا ١٣ : ٣٢)، (١٢ : ٢٣)، (١٦ : ١٤)، (١٧ : ١)، (الأعمال ٣ : ١٣). ومجّده بصوت مسموع حين اعتمد من يوحنا المعمدان، إذ قال: «هذا هو ابنى الحبيب الذى به سررت» (متى ٣ : ١٧)، (مرقس ١ : ١١)، (لوقا ٣ : ٢٢). وحين تجلّي على الجبل أمام تلاميذه بطرس ويعقوب ويوحنا، إذ قال أيضاً: «هذا هو ابنى الحبيب الذى به سررت. له اسمعوا» (متى ١٧ : ٥)، (مرقس ٩ : ٧)، (لوقا ٩ : ٣٥).

وقد وبّخ مخلّصنا اليهود قائلاً إنهم يزعمون كاذبين أنهم يعرفون الله الذى هو أبوه، في حين أنهم لا يعرفونه (يوحنا ٧ : ٢٨)، (١٧ : ٢٥)، (١٥ : ٢١). لأنهم لو كانوا يعرفونه لعملوا بوصاياه وأطاعوه. فهم إذ تنكروا له أنكروه، وإذ تجاهلوا تعاليمه جهلوه. وأما مخلّصنا فيعرفه حق المعرفة (يوحنا ٧ : ٢٩)، (١٧ : ٢٥) لأنه أبوه ولأنه منه (يوحنا ٧ : ٢٩) وكائن معه ومع الروح القدس، لأنهم معاً إله واحد. فهو يعرفه معرفة نفسه. «ولا أحد يعرف الآب إلا الابن» (متى ١١ : ٢٧)،

(لوقا ١٠ : ٢٢)، (يوحنا ١٠ : ١٥). وهذه حقيقة لو أنكرها وقال إنه لا يعرف الله أباه لكان مثل اليهود يقترف رذيلة الكذب في حين أنه منزه عن كل رذيلة، كامل كمالاً مطلقاً. فهو يعرفه، ويعمل في حياته الناسوتية على مقتضى تعاليمه ووصاياه. كما أنه في كيانه اللاهوتي كذلك يعمل على مقتضى تلك التعاليم والوصايا ذاتها، لأنها كما أنها تعاليم ووصايا الله الآب، هي في الوقت ذاته تعاليم ووصايا الله الابن، الذي هو مخلّصنا له المجد. ولئن كان اليهود يفاخرون بأن إبراهيم هو جدّهم الأوّل والأعظم. فإن إبراهيم نفسه قد اشتهى بروح النبّوة أن يرى اليوم الذي يجيء فيه إلى العالَم المسيح ابن الله مخلّص العالم (متى ١٣ : ١٧)، (لوقا ١٠ : ٢٤)، (العبرانيين ١١ : ١٣). وقد تحقق له ذلك بالفعل، إذ رأى ذلك اليوم وفرح، لأنه يوم الخلاص للبشر جميعا منذ عهد أبيهم الأوّل آدم إلى عهد إبراهيم نفسه وذريته من بعده حتى مجيء مخلّصنا وتقديم نفسه ذبيحة على الصليب لتحقيق ذلك الخلاص. ولقد كمل الفرح بإتمام الخلاص وعمل الفداء، ونزول المسيح إلى الجحيم، وهو العالم السفلي، ليبشرالأرواح المحبوسة فيه (١ . بطرس ٣ : ١٩). وهذا هو السبب في أن يوم السبت الكبير السابق على عيد القيامة يسمى في المصطلح الكنسي «سبت الفرح»، لأن الأرواح فرحت بالخلاص الذي حقّقه المسيح بموته، وإذا تمّ نزل فبشرهم به ونقلهم إلى الفردوس. ولكن اليهود بجهلهم أيضاً وغباوتهم فهموا ذلك القول من مخلّصنا فهماً حرفياً سطحياً كأنما يعني أنّ إبراهيم قد رأى في أثناء حياته على الأرض يوم مجيء مخلّصنا، وبالتالي أن مخلّصنا قد رأى إبراهيم ومِنْ ثمّ قالوا له في سخرية واستخفاف وتكذيب: «إنك لم تبلغ الخمسين بعد، أفرأيت إبراهيم؟». ويدلّ على ما يملأ قلوبهم من حقد وضغينة أنهم لم يتبينوا حتى حقيقة سن مخلّصنا الذي لم يكن قد تجاوز الثالثة والثلاثين من عمره في ذلك الحين، فظنوا أنه في نحو الخمسين ولعلّ مرجع ذلك إلى هيبة معلّمنا التي تجعله يبدو أكبر من السنّ الحقيقية له في ناسوته، ومِنْ ثمّ قالوا له: «إنك لم تبلغ الخمسين بعد. أفرأيت إبراهيم؟». وحينئذ كشف لهم النقاب عن حقيقة شخصيته الإلهية. إذ قال لهم: «الحقّ الحقّ أقول لكم: قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن»، أي أنه أزليّ (يوحنا ١ : ١)، (١٧ : ٥)، وهذه صفة الله وحده (الخروج ٣ : ١٤)، (إشعياء ٤٣ : ١٠ و١١ و١٣) وقد عدّوا ذلك تجديفاً على الله يستحق عنه الموت حسب شريعتهم، فرفعوا حجارة ليرجموه (يوحنا ١٠ : ٣١ - ٣٣)، (١١ : ٨). وأما هو فإذ كانت الساعة المحدّدة في التدبير الإلهي لموته على الصليب لم تأت بعد، توارى عنهم مختفياً عن أنظارهم بطريقة معجزيّة، وعبر مجتازاً في وسطهم دون أن يروه، وخرج من الهيكل. وهكذا مضى دون أن يستطيع أحد أن يمسه بسوء. وفي هذا سلطان لاهوته أن يتوارى عن الناس فلا يرونه. وكثيراً

ما فعل ذلك. ومن ذلك مافعله مع تلميذي عمّواس بعد قيامته المجيدة إذ اختفى عنهما (لوقا ٢٤ : ٣١). غير أنه حدث منه ذلك أيضاً قبل صلبه وقيامته، عندما غضب منه اليهود «وقاموا وراحوا يدفعون به إلى خارج المدينة حتى جاءوا به إلى قمة الجبل الذى كانت مدينتهم مقامة عليه كي يطرحوه من هناك إلى أسفل، ولكنه مرّ في وسطهم ومضى» (لوقا ٤ : ٢٨– ٣٠). وفي مرّة أخرى «أرادوا أن يمسكوه ولكنه خرج من أيديهم» (يوحنا ١٠ : ٣٩). وانظر كذلك (يوحنا ٧ : ٣٠ و٣٢ و٤٢)، (١٢ : ٣٦).

الفصل التاسع

٩ : ١ – ٧

شفاء الأعمى منذ ولادته :

يعد ذلك صنع مخلّصنا واحدة من أعظم وأعجب معجزاته، وهى معجزة إعادة البصر إلى رجل كان أعمى منذ ولادته.

وقد صنع مخلّصنا كل المعجزات التى صنعها رحمةً بالناس وإشفاقاً عليهم وحناناً نحوهم وإثباتاً لقدرته الإلهية، ليؤمنوا بأنه هو المسيح ابن الله الذى تنبأ الأنبياء بأنه سيجيء إلى العالم لخلاص البشر. ومن ذلك أنه أقام ابن أرملة نايين من الموت رحمة بأمّه البائسة (لوقا ٧ : ١١ – ١٧) . وأقام ابنة رئيس المجمع كذلك من الموت استجابة لضراعة أبيها الحزين (لوقا ٨ : ٤٠ – ٤٢ و٤٩ – ٥٦)، (متى ٩ : ١٨ – ٢٦)، (مرقس ٥ : ٢٢ – ٤٣) . وشفى ذا اليد اليابسة والمرأة المنحنية دون أن يطلب إليه أحدهما ذلك، رحمة بهما (مرقس ٣ : ١ – ٦)، (متى ١٢ : ٩ – ١٤)، (لوقا ٦ : ٦ – ١١)، (١٣ : ١١ – ١٧) . وقد حول الماء إلى خمر فى عرس قانا الجليل استجابة لرغبة أمه وتلبية لشفاعتها وإنقاذاً للعريس من الحرج، وإسهاماً مع الحاضرين فى بهجة تلك المناسبة الإجتماعية المباركة السعيدة (يوحنا ٢ : ١ – ١١)، وأطعم جموع المستمعين إليه رحمة بهم وإشفاقاً عليهم من أن ينصرفوا جائعين بعد أن لازموه ساعات طويلة. بل أياماً متوالية (مرقس ٦ : ٣٠ – ٤٤)، (متى ١٤ : ١٣ – ٢١)، (لوقا ٩ : ١٠ – ١٧)، (يوحنا ٦ : ٥ – ١٣)، (مرقس ٨ : ١ – ٩)، (متى ١٥ : ٣٢ – ٣٩) . بيد أن مخلّصنا كان يرفض فى بعض الأحيان أن يصنع معجزة للإنسان، إلا إذا كان ذلك الإنسان مؤمناً بأنه قادر على أن يصنع له تلك المعجزة، مبرهناً بذلك على أن قلبه تربة خصبة صالحة لكى يبذر فيها السيد المسيح بذاره، ويجنى منها ثماره . أما الإنسان الذى يغلق قلبه ويوصده رافضاً الإيمان غير مستعد لقبوله، فإنه يبرهن بذلك على أن ذلك القلب المغلق الموصد الذى يحمله بين جنبيه هو أرض صلبة صخرية، لا جدوى من بذر البذار فيها، ولا أمل فى جنى الثمار منها. فالأجدر لها أن تظل هكذا جرداء خربة مجدبة. ومنْ ثمّ فإن مخلّصنا كان كثيراً ما يصرح بأنه إنما صنع المعجزة تشجيعاً لإيمان الطالب لها والمحتاج إليها: فقد قال عن إيمان قائد المائة الرومانى الذى توسّل إليه أن يشفى غلامه: «إنى لم أجد لدى أحد فى إسرائيل إيماناً بهذا القدر»، ثم قال له «اذهب وعلى حسب إيمانك فليكن لك»، فشفى غلامه (متى ٨ : ١٠ – ١٣)، (لوقا ٧ : ١ – ١٠) . وقال للمرأة الكنعانية التى توسلت إليه أن يشفى ابنتها: «أيتها المرأة عظيم هو إيمانك. فليكن لكِ ماتريدين»، فشفيت ابنتها (متى ١٥ : ٢٨)، (مرقس ٧ : ٢٤ – ٣٠) . وقال للأعمى الذى طلب منه الشفاء فى أريحا:

«إن إيمانك قد خلصك» (لوقا ١٨ : ٤٢)، (متى ٢٠ : ٢٩– ٣٤)، (مرقس ١٠ : ٤٦– ٥٢). وقال للأعميين اللذين تبعاه إلى البيت وهما يلحان في طلب الشفاء: «أتؤمنان بأني قادر أن أفعل هذا؟ فقالا له: نعم ياربـ» فشفاهما (متى ٩ : ٢٨ و٢٩). وحين جاء إليه قوم بالرجل المفلوج، لم يستطيعوا الدخول بسبب الزحام فنقبوا السقف وأنزلوه منه مع فراشه أمام السيد المسيح، ومن ثم جاء في الإنجيل للقديس متى: «فلما رأى يسوع إيمانهم قال للمفلوج: اطمئن يابني، مغفورة لك خطاياك»، ثم قال له: «قم احمل فراشك واذهب إلى بيتك» (متى ٩ : ١– ٦)، (مرقس ٢ : ٣– ١٢)، (لوقا ٥ : ١٨– ٢٦). أما الذين اهتز إيمانهم بسبب هول الفاجعة التي أصابتهم، فكان مخلصنا يأخذ بأيديهم في رفق وحنان ليطمئنهم مؤكداً لهم قدرة الإيمان على إنقاذهم وهو الذي يؤدي إلى نجاتهم من فاجعتهم، فقال لرئيس المجمع الذي سمع بموت ابنته «لا تخف، وإنما آمن فقط»، ثم أعاد إلى ابنته الحياة (مرقس ٥ : ٣٦)، (لوقا ٨ : ٥٠)، (متى ٩ : ١٨– ٢٦). وقال لمرثا أخت لعازر حين رآها يائسة من قيامة أخيها بعد أن مكثت جثته في القبر أربعة أيام: «إن آمنت ترين مجد الله»، ثم أعاد الحياة إلى أخيها (يوحنا ١١ : ٤٠). وأما الذين اهتز إيمانهم بغير مبرر فقد وبخهم السيد المسيح: ومن ذلك أنه حين استولى الذعر على تلاميذه بسبب العاصفة التي هبت عليهم وهم في السفينة قال لهم: «لماذا أنتم خائفون يا قليلي الإيمان؟»، ثم أوقف العاصفة (متى ٨ : ٢٦)، (مرقس ٤ : ٤٠)، (لوقا ٨ : ٢٥). وحين جاء مخلصنا إلى تلاميذه ماشياً على ماء البحر وطلب إليه بطرس أن يذهب إليه هو أيضاً ماشياً على الماء، لم يلبث أن خاف وكاد أن يغرق، فقال له مخلصنا: «يا قليل الإيمان، لماذا شككت؟» (متى ١٤ : ٣١). وكان مخلصنا يؤكد في تعاليمه أهمية الإيمان وقوة أثره، فكان يقول: «إن كنت تستطيع أن تؤمن، فكل شيء مستطاع للمؤمن» (مرقس ٩ : ٢٣). ويقول: «إن من قال لهذا الجبل انتقل وانطرح في البحر بدون أن يخامره الشك في قلبه، بل يؤمن بأن مايقوله سيكون، فإنه يتم له ما يقول» (مرقس ١١ : ٢٣)، (متى ٢١ : ١٢). بل إنه يقول إن «الذي يؤمن بي، فالأعمال التي أعملها يعملها هو أيضاً بل ويعمل أعظم منها» (يوحنا ١٤ : ١٢). أما غير المؤمنين فكان مخلصنا يندد بهم ويرفض أن يصنع أي معجزة لهم. إذ جاء في إنجيل متى أنه «حين جاء إلى وطنه كان يعلمهم في مجامعهم حتى بهتوا وقالوا من أين له هذه الحكمة وهذه القدرات؟ أليس هذا هو ابن النجار؟... فكانوا مرتابين في أمره. أما يسوع فقال لهم: لا نبي بلا كرامة إلا في وطنه وفي بيته، ولم يصنع هناك معجزات كثيرة بسبب عدم إيمانهم» (متى ١٣ : ٥٤– ٥٨)، (مرقس ٦ : ١– ٦). وكذلك: «جاء الفريسيون والصدوقيون وطلبوا إليه كي يجربوه أن يريهم آية من السماء فأجاب وقال لهم: إذا كان المساء تقولون سيكون الجو صحواً لأن السماء محمرة، وفي الصباح تقولون سيكون الجو

مطيراً اليوم لأن السماء محمرّة ومكفهرة، يا مراؤون أتستطيعون أن تتبينوا وجه السماء، وأما علامات الأزمنة فلا تستطيعون أن تتبينوها؟. إنه لجيل شرير وفاسق يطلب آية فلا يعطى إلا آية يونان النبي، ثم تركهم ومضى» (متى ١٦: ١ – ٤)، (مرقس ٨: ١١ – ١٣). وقد قصد بآية يونان النبي معجزة قيامته بعد أن يمكث في القبر ثلاثة أيام، كما خرج يونان حياً من بطن الحوت بعد أن مكث ثلاثة أيام. أي أن قيامة السيد المسيح بعد موته هي المعجزة الوحيدة التي يمكن أن يقتنع بها أولئك الذين يصرّون على عدم الإيمان به. وكما أن معجزات مخلصنا تتطلب الإيمان، فإنها كذلك تؤدي إلى الإيمان. وقد صرح السيد المسيح بذلك أحياناً. إذ أنه - كما سنرى - حين علم بمرض لعازر قال لتلاميذه: «إن هذا المرض ليس مرضاً للموت بل لأجل مجد الله، كي يتمجد ابن الله به». ثم حين علم أنه مات قبل أن يذهب إليه قال لهم: «أنا أفرح من أجلكم - إذ لم أكن هناك لتؤمنوا» (يوحنا ١١: ٤، ١٥) أي أن موت لعازر قد أتاح الفرصة لأن يصنع السيد المسيح تلك المعجزة التي تفوق تصور العقل البشري، إذ يعيد إليه الحياة ويرد إليه الروح بعد أن ظل جثمانه في القبر أربعة أيام وأخذ يتحلل. ومن ثم يؤمن التلاميذ بمعلّمهم إيماناً عظيماً. ويكون ذلك مدعاة لفرحه. وإذ كان اليهود يناوئون السيد المسيح ويكذبونه منكرين أنه هو المسيح ابن الله الذي ينتظرونه قال لهم: «صدقوني أني في أبي وأن أبي فيّ، وإلا فصدقوني من أجل الأعمال نفسها» (يوحنا ١٤: ١١)، أي إذا كنتم لا تصدقونني من أجل أقوالي التي أقولها لكم، فصدقوني من أجل أعمالي ومعجزاتي التي أصنعها أمامكم. ويقول الإنجيل للقديس يوحنا بعد أن سرد بعض معجزات مخلصنا: «وقد صنع يسوع أمام تلاميذه آيات أخرى كثيرة لم تكتب في هذا الكتاب. وأما هذه فقد كتبت لتؤمنوا بأن يسوع هو المسيح ابن الله، ولتكون لكم إن آمنتم الحياة الأبدية باسمه» (يوحنا ٢٠: ٣٠، ٣١).

حقاً إنّ من يتأمل معجزات السيد المسيح لا يسعه إلا أن يؤمن بشخصه الإلهي، وبأن هذا هو المسيح ابن الله الحي وكلمته، الذي تنبأ الأنبياء بأنه سيجيء لخلاص البشر، ومن ثم يؤمن بتعاليمه ووصاياه ويعمل بها، فإن هذه المعجزات تتضمن في ذاتها الدليل على أن ما للسيد المسيح من سلطان لم يكن في يوم من الأيام لأحد من البشر، ولا يمكن نسبته إلا إلى الله وحده. فقد أثبت السيد المسيح سلطانه على الإنسان جسماً وروحاً. فإذا مرض الجسم كان هذا المرض هو اختلال أو إنحلال يصيب عضواً من أعضاء الجسم أو وظيفة من وظائفه. ولابد لهذا الاختلال أو الإنحلال من عنصر من العناصر أو عمل من الأعمال يزيل أثره ويعيد إلى الجسم نظامه الدقيق وتركيبه الصحيح الذي خلقه الله عليه والذي لا يحيا إلا به، كدواء يتعاطاه المريض فيزيل علته، أو عملية يجريها فتستأصل الجزء الفاسد منه، وربما تطلب الشفاء في جميع الحالات عدداً من

الشهور أو عدداً من السنين، أو ربما استعصى الأمر على كل دواء من الأدوية أو عملية من العمليات فامتنع الشفاء وانتهى الأمر بالمريض بعد العذاب إلى الموت. بيد أن السيد المسيح كان يجيء إليه المصابون بأخطر الأمراض المزمنة وأبشعها أثراً وأكثرها استعصاء، فيشفيها على الفور في لحظة واحدة بغير دواء ولا أي نوع من أنواع العلاج، وإنما بكلمة واحدة منه، أو حتى بمجرد صدور إرادته دون أن يقول شيئاً، ودون أن يبذل مجهوداً ودون أن يستغرق وقتاً. فسلطانه على الجسم سلطان مطلق، يأمره فيأتمر على الفور، ويصدر إليه إرادته فيطيع في اللحظة ذاتها، بقوة لا يمكن مقاومتها، وبقدرة لا يستطيع أمامها إلا الخضوع والخنوع. بل لقد يحدث أن يموت الجسم بعد أن تفارقه الروح، وتمضي عليه بضع ساعات فيبدأ يفسد، أو تمضي عليه بضعة أيام فيبدأ يتحلل ويتحول إلى تراب، وقد تركه الناس في القبر، ونفضوا منه أيديهم بعد أن بكوا عليه ما شاء لهم البكاء وندبوه على قدر ما أحبوه واستشعروا الحزن عليه والفجيعة فيه. غير أن السيد المسيح عندئذ يجيء في كل هدوء وطمأنينة وسلام روحي. ويقول للصبية التي ماتت منذ بضع لحظات وهي مسجاة على الفراش: «يا صبية قومي» فتقوم (لوقا ٨: ٥٤)، (مرقس ٥: ٤١). ويقول للشاب الذي مات منذ بضع ساعات وهو محمول على النعش: «أيها الشاب لك أقول قم» فيقوم (لوقا ٧: ١٤). ويقول للعازر الذي مات منذ بضعة أيام وتعفنت جثته في القبر: «لعازر هلما خارجاً» فيقوم ويخرج (يوحنا ١١: ٤٣). فليس سلطان السيد المسيح في هذه الحالات مقصوراً على الجسد وحده، وإنما هو يشمل الجسد والروح معاً. لأن الجسد بعد أن فسد أعاد إليه بكلمته الإلهية صلاحه، ولأن الروح بعد أن فارقت الجسد وانفصلت عنه أمرها أن تعود فعادت إلى الجسد في الحال واتصلت به، فقام الميت وقد استرد الحياة. ولعل في تلك المعجزات الرائعة ما ييسر لنا فهم حقيقة القيامة التي يصعب على عقولنا القاصرة أن تفهمها. بل ليصعب علينا أحياناً أن نصدقها. لأنه إذا كان في الإمكان أن تعود الروح إلى الجسد بعد أن يتحلل تحللا جزئيا، كان في الإمكان أيضاً أن تعود إليه بعد أن يتحلل تحللا كاملا، لأن القادر على أن يعيده صحيحاً ويعيد إليه الروح في الحالة الأولى، قادر أيضاً على أن يعيده صحيحاً ويعيد الروح إليه في الحالة الثانية، لأنه صاحب السلطان على الجسد والروح كليهما. وبما أنه قادر على كل شيء فإن الجمع بين الجسد والروح في أي حالة من الحالات وفي أي ساعة من الساعات مهما طال الزمن، إنما يدخل في سلطانه وفي نطاق قدرته. وقد أثبت السيد المسيح بقدرته الإلهية التي تنطوي عليها هذه المعجزات أنه هو صاحب ذلك السلطان، بل إن السيد المسيح يظل صاحب السلطان على الإنسان حتى بعد أن يموت وينتقل إلى العالم الآخر، إذ أنه يملك سلطان غفران الخطايا (مرقس ٢: ١٠)، (متى ٩: ٦)، (لوقا ٥: ٢٤). بيد أن سلطانه بهذا الصدد أكثر من ذلك شمولاً وأبعد

مدى وأعظم خطراً وأعمق أثراً، إذ صرح بأنه هو الذى يملك أيضاً سلطان الديونة في اليوم الأخير. فهو الذى يكافىء الأبرار فى ذلك اليوم مانحاً إياهم الحياة الأبدية، ويعاقب الأشرار حاكما عليهم بالهلاك الأبدى (يوحنا ٥ : ٢٦– ٢٩)، (متى ٢٥ : ٣١– ٤٦) . وقال بطرس الرسول عن السيد المسيح: «هذا هو المعَين من الله ديانا للأحياء والأموات» (الأعمال ١٠ : ٤٢) . وقال عنه بولس الرسول إنه هو «العتيد أن يدين الأحياء والأموات عند ظهوره وملكوته» (٢ . تيموثيئوس ٤ : ١) . وقد أثبتت معجزات السيد المسيح أن له السلطان لا على الأرواح الإنسانية فحسب، وإنما على الأرواح الشيطانية كذلك (مرقس ١ : ٢٧)، (لوقا ٤ : ٣٦) . كما دلت معجزات السيد المسيح على أن سلطانه ليس مقصوراً على الكائنات البشرية فقط، ولا على الكائنات الشيطانية فحسب، وإنما على الخليقة كلها وعلى الطبيعة كلها بجميع جواهرها ومظاهرها وظواهرها، وحيوانها و نباتها وجمادها، ومياهها ورياحها وعواصفها (مرقس ٤ : ٤١)، (متى ٨ : ٢٧)، (لوقا ٨ : ٢٥)، وله السلطان على كل مانراه أو لا نراه من موجوداتها وصور وجودها.

وقد صنع مخلصنا ضمن ما صنع من تلك المعجزات التى برهن بها على سلطانه الإلهى، عدداً لا يحصى من معجزات شفاء المرضى الذين كانت أمراضهم فى الغالب مستعصية الشفاء، أو فى بعض الأحيان مستحيلة الشفاء، فلا طبيب يستطيع أن يداويها، ولا دواء ينفع فيها. ولقد كان العمى من أكثر الأمراض استعصاء على الشفاء. ومن ثم فقد صنع مخلصنا كثيرا من المعجزات التى أعاد بها البصر إلى الذين فقدوه (لوقا ٧ : ٢١، ٢٢)، (متى ١١ : ٥)، (مرقس ٨ : ٢٢– ٢٦)، (١٠ : ٤٦– ٥٢)، (لوقا ١٨ : ٣٥– ٤٣) . ولعل من أروع تلك المعجزات تلك التى رواها الإنجيل للقديس يوحنا، إذ يقول إنه فيما كان مخلصنا مجتازاً رأى رجلاً أعمى منذ ولادته . وإذ كان اليهود يعدُّون كل مرض وكل عاهة تصيب الإنسان إنما ترجع إلى خطيئة إقترفها، فقد تساءل تلاميذ مخلصنا فى دهشة عن العلة فى عاهة هذا الذى ولد أعمى، وهل هى خطيئة اقترفها أبواه وينال هو جزاءها، أو هى خطيئة اقترفها هو ذاته قبل ولادته فى حياة أخرى عاشها قبل هذه الحياة على مقتضي عقيدة تناسخ الأرواح، أو الاستجساد، أى العودة إلى التجسد، التى كانت شائعة فى ذلك العصر فى بلاد الشرق ولا سيما فى مصر وفلسطين والهند، ومن بينات هذا الاعتقاد قول اليهود للمولود أعمى بعد أن شفاه السيد المسيح له المجد: «فى الخطيئة قد ولدت أنت بجملتك... أفأنت تعلّمنا؟» (يوحنا ٩ : ٣٤) ومن ثم سأل التلاميذ معلمهم قائلين: «يامعلم، من الذى أخطأ أهذا أم أبواه حتى ولد أعمى» بيد أن مخلصنا أجاب قائلاً: «لا هذا أخطأ ولا أبواه، وإنما لكى تظهر فيه أعمال الله. فإننا ينبغى - مادام النهار - أن نعمل أعمال الذى أرسلنا. لأنه سيجىء الليل، الذى لا يستطيع أحد أن يأتى فيه عملاً. مادمت فى العالم، فأنا نور العالم» . أى

أن ذلك الرجل الأعمى منذ ولادته لم يخطئ هو أو أبواه، وإنما شاءت الحكمة الإلهية ذلك «لكى تظهر فيه أعمال الله». أى أن الله أعده لهذه اللحظة التى يعيد إليه فيها مخلصنا بصره بمعجزة حتى يؤمن الناس بقدرة الله التى فى مخلصنا. ومن ثم أن يؤمنوا بأنه هو ابن الله، وأنه هو الله ذاته ظاهراً فى الجسد. ولا يستفاد من قول فادينا هنا: «لا هذا أخطأ ولا أبواه» أن المولود أعمى عاش بريئاً من كل خطيئة، أو أن أبويه لم يقترفا خطيئة فى حياتهما. وإنما المفهوم من سياق السؤال وإجابة مخلصنا على هذا السؤال أنه لا خطيئة هذا الرجل بالذات، ولا خطيئة أبويه، هى العلة الحقيقية فى أنه وُلِد أعمىَ، وإنما هى مشيئة الله غير المدركة الذى شاء لهذا الرجل أن يولد أعمى، فإذا شفاه السيد المسيح له المجد بهذه الصورة التى لم يسبق لها مثيل فى التاريخ، برز فيها سلطان المسيح وقدرة عظمته، وظهر مجد لاهوته.

أما فى غير حالة هذا الرجل فقد تكون خطيئة الوالدين أحياناً سبباً فى عاهة أو نقص خلقى يولد به الطفل، كما يظهر هذا فى بعض الأمراض الخبيثة الناتجة عن النجاسة، وقد تنهك الخطيئة القوة الطبيعية فى الرجل أو المرأة أو تستهلكها، فلا يحمل الجنين أو الطفل إلا طاقة منهكة مستهلكة خاملة لا تقوى طويلاً على البقاء فى الحياة، فقد يموت فى البطن وهو جنين أو قد يخرج إلى الحياة ولكن لا يعيش طويلاً، أو إذا عاش طويلاً أو قصيراً فغالباً ما يعيش مريضاً بائساً، بغير مناعة وبغير قدرة كبيرة على مقاومة الأمراض، وقد ينشأ متخلفاً عقلياً أو ذهنياً أو معوقاً جسمانياً، وهذا كله مما يدخل فى نطاق الوعيد الإلهى: «أنا الرب إلهك إله غيور أفتقد ذنوب الآباء فى الأبناء إلى الجيل الثالث والرابع من مبغضىّ» (الخروج ٢٠: ٥)، (٣٤: ٧)، (التثنية ٥: ٩). وهو ما يعرف عند العلماء بقانون الوراثة.

أما الخطأ الذى وقع فيه العلاّمة أوريجينوس فى هذا الصدد فهو أنه اتخذ من سؤال التلاميذ «من الذى أخطأ أهذا أم أبواه حتى ولد أعمى» تكأة للاعتقاد بأن الأرواح البشرية كانت تحيا سابقاً فى العالم الآخر، ثم أخطأت. فعاقبها الله بأن طردها من ذلك العالم الروحانى إلى عالم المادة وحبسها فى أجساد لتكفر عن خطاياها فى حياتها السابقة، وهو الرأى الذى ذهب إليه أفلاطون فى «نظرية المثل». وقد أدرك أوريجينوس بعد حين أنه كان من الخطأ أن يتخذ من سؤال التلاميذ تكأة وبرهاناً على صحة مذهب أفلاطون، فاعتذر صراحة فى بعض كتبه عن هذا الخطأ وعدَلَ عنه.

إن السيد المسيح له المجد يقرر أنه بكيانه الإلهي ذو طبيعة نورانية. وأنه هو مصدر النور الذى ينير العالم (يوحنا ١: ٤ و٥ و٩)، وأنه طالما هو مقيم بين الناس الذين في العالم فهو نور العالم (يوحنا ٣: ١٩)، (٨: ١٢)، (١٢: ٤٦). ومن ثم فإن فترة إقامته في العالم قبل صعوده إلى السماء هي بمثابة فترة النهار التى تتمتع فيها الأرض بنور الشمس (يوحنا ١٢: ٣٥ و٣٦) حتى إذا غابت الشمس حلّ ظلام الليل محل نور النهار. فطالما أنّ مخلصنا مقيم في العالم وينيره بشخصه الإلهي، لا يتوقف عن القيام بأعمال الرحمة التي تتطلبها مشيئة الله الآب الذى أرسله (يوحنا ٤: ٣٤) (٥: ١٩ و٣٦)، (١٧: ٤). كما تتطلبها فى نفس الوقت مشيئة الله الابن الذى هو كائن مع وفى أبيه السماوى، فى وحدانية تامة، حتى إذا انتهت فترة إقامته - له المجد - فى العالم بصعوده إلى السماء (يوحنا ٧: ٣٣)، فلن يعود الناس قادرين على أن يتمتعوا بما كانوا يسمعون من تعاليمه وماكانوا يرون من معجزاته، لأنه هو النور الذى يضيء عالمهم مادام مقيماً بينهم (يوحنا ١٢: ٣٥، ٣٦).

على أن هذا المبدأ يسرى أيضاً على الإنسان، وفى هذه الحالة يكون «النهار» هو فترة حياته على الأرض إلى أن يموت. وأما الليل فهو نهاية النهار، عندما تنتهى حياة الإنسان بالموت. والمعنى من ذلك أن ما ينفع الإنسان فى آخرته هو عمله الذى يعمله في حياته هنا (يوحنا ١١: ٩)، (غلاطية ٦: ١٠) فإذا مات شريراً فاسداً، فلا توبة له هناك، وبالتالى فلا غفران... «ليس فى الموت من يذكرك وهل فى الجحيم من يعترف لك؟» (المزمور ٦: ٦)، (٣٠: ٩)، (٨٨: ١٠-١٢)، (١١٥: ١٧)، (الجامعة ٩: ١٠)، (إشعياء ٣٨: ١٨).

وبعد أن قال مخلصنا هذا لتلاميذه رداً على سؤالهم بخصوص الرجل المولود أعمى، تفَل على الأرض وصنع من التفل طيناً وطلى بالطين عينى ذلك الرجل، وقال له: «اذهب فاغسل وجهك فى بركة سلوام» وقد أوضح الإنجيل للقديس يوحنا سبب تحديد مخلصنا له المجد لهذه البركة بالذات كى يغسل فيها وجهه، فقال إن إسمها معناه «المرسَل»، أى أنها ترمز إلى شخصه الإلهى باعتباره المرسل من الله الآب لخلاص البشر، لأنها كانت ترمز فى النبوءات إلى عرش ومملكة بيت داود (إشعياء ٨: ٦)، (نحميا ٣: ١٥) (لوقا ١٣: ٤). ولأن النبوءات كانت تقول عن المسيح الآتى إنه «مرسل من الله»، وإنه هو «ملاك العهد» أى «رسول العهد» (ملاخى ٣: ١). كما أن مخلصنا نفسه قد أشار إلى ذلك بقوله لتلاميذه «فإننا ينبغى - مادام النهار - أن نعمل أعمال الذى أرسلنا» (يوحنا ٩: ٤). وفعلاً فإن المولود أعمى ذهب إلى بركة سلوام وغسل وجهه، وعاد بصيراً (يوحنا ٩: ٧ و١١).

ومما يلفت النظر ويستدعي التأمل في هذه المعجزة أنَّ الربَّ يسوع المسيح تذرع لشفاء المولود أعمى بوسيلة فريدة لم يسبق إليها في كل التاريخ. حتى المولود أعمى نفسه قال لقادة اليهود الذين أخذوا يستجوبونه: «ما سمعنا منذ بدء الزمان أن إنساناً فتح عيني مولود أعمى» (يوحنا ٩: ٣٢)، خصوصاً بهذه الكيفية اليتيمة التي لا مثيل لها، وهي أنه «تفل على الأرض وصنع من التفل طيناً، وطلى بالطين عيني المولود أعمى».

حقاً لقد سبق للسيد المسيح أن شفى رجلاً أخرس بأن «تفل ولمس لسانه.. فانحلت عقدة لسانه وتكلم بطلاقة» (مرقس ٧: ٣٣- ٣٥). كذلك جاءوا إليه في بيت صيدا برجل أعمى، «فتفل في عينيه ووضع يديه عليه.. فتطلع بقوة وشفي ورأى كل شيء بوضوح (مرقس ٨: ٢٢ و٢٣). أما في شفاء المولود أعمى فقد تفل مخلصنا له المجد لا على لسان الرجل ولا «في عينيه» وإنما «تفل على الأرض» أولاً، ثم خلط التفل بالتراب على الأرض «وصنع من التفل طيناً»، ثم أخذ الطين وطلى به عيني المولود أعمى، وهو أمر غريب، كما أنه حدث فريد ليس له نظير من قبل في تاريخ الإنسان. بل إن السيد المسيح لم يصنع نظير ذلك من قبل بالنسبة لجميع العميان الذين شفاهم له المجد ممن ذكرهم الإنجيل، مما يدل على أن مخلصنا قصد بهذا الإسلوب الفريد أن يقدم به وسيلة إيضاح لحقيقة لاهوتية كبرى، وهي قدرته على خلق عينين من الطين لهذا المولود أعمى. إذ أن هذه هي الطريقة التي اتبعها الله تعالى في خلق آدم الإنسان الأول. فقد «جبل الرب آدم تراباً من الأرض، ونفخ في أنفه نسمة حياة» (التكوين ٢: ٧)، (٣: ١٩). ويقول أيوب الصديق «أنا أيضاً من الطين تقرصت» (أيوب ٣٣: ٦)، (١٠: ٩)، (إشعياء ٢٩: ١٦). وجاء في سفر إشعياء «ويل لمن يخاصم جابله.. هل يقول الطين لجابله ماذا تصنع؟» (إشعياء ٤٥: ٩) وجاء فيه: «والآن يارب، أنت أبونا. نحن الطين وأنت جابلنا ونحن جميعاً عمل يديك» (إشعياء ٦٤: ٨)، (إرميا ١٨: ٤ و٦).

ومن هنا نعلم أن المعجزة التي صنعها السيد المسيح مع المولود أعمى لم تكن كغيرها من معجزات الشفاء للعيون المصابة بالجفاف في العصب البصري، بل كانت معجزة خلق لعينين لم يكن لهما وجود في المقلتين. لهذا فإنه له المجد طلى أو بالأحرى ملأ بالطين المقلتين الفارغتين فخلق بالطين عينين للأعمى، وهذا هو السبب الحقيقي فيما أحدثته هذه المعجزة من دويٍّ غير عادي عند الكتبة والفريسيين أكثر جداً مما أحدثته أي معجزة أخرى سابقة لشفاء العميان، فأخذوا يستجوبون الرجل مرات: «كيف انفتحت عيناك؟... كيف أبصرت؟» (يوحنا ٩: ١٠ و١٥).. وأنت ماذا تقول عنه وقد فتح عينيك؟ (٩: ١٧).. ثم عادوا فاستدعوا الرجل وقالوا له

ماذا صنع بك؟ كيف فتح عينيك؟ (٩: ٢٤– ٢٦) .. فاستدعوا أبويه وسألوهما قائلين: أهذا هو ابنكما الذى تقولان إنه ولد أعمى، فكيف إذن يبصر الآن؟» (٩: ١٨– ٢١).

أضف إلى ذلك ماتركته هذه المعجزة فى نفوس اليهود الآخرين من آثار بعيدة المدى عن قدرة المسيح وسلطانه بحيث كانت عندهم أعظم من إقامة لعازر من بين الأموات، بعد أن صار له فى القبر أربعة أيام. لذلك قالوا عندما رأوه: «أما كان هذا الذى فتح عينى الأعمى منذ ولادته قادراً على أن لا يترك هذا أيضاً يموت؟» (يوحنا ١١: ٣٧). والمعنى واضح أن الذى يقوى على الأصعب يقوى بالأحرى على الأيسر. وإذ كانت معجزة المولود أعمى أصعب وأعسر وأعظم شأناً من معجزة إقامة لعازر من بين الأموات بعد أن صار له فى القبر أربعة أيام. ذلك لأن الإقامة من الموت هى إعادة الحياة إلى الجسم المتحلل بعد أن خرجت منه الروح، وهى معجزة على الرغم من عظمتها وروعتها أقل روعة من معجزة خلق عينين من العدم أو من التراب. ولم يكن لهما سابقا وجود.

«وبه خلق الدهور» (العبرانيين ١: ٢).

إذن لقد أثبت السيد المسيح له المجد بهذه المعجزة، معجزة تفتيح عينى المولود أعمى، أنه الخالق، وهذا توكيد لما قاله الإنجيل للقديس يوحنا في البدء كان الكلمة... وكان الكلمة هو الله.. كل شيء به كان، وبغيره لم يكن شيء مما كان.. كان فى العالم وكان العالم به» (يوحنا ١: ١– ٣ و ١٠). وماجاء فى الرسالة الأولى إلى كورنثوس «ورب واحد وهو يسوع المسيح، الذى به كان كل شيء، وبه نحن قائمون» (١ـ كورنثوس ٨: ٦) .. «هو صورة الله الذى لا يرى.. كل شيء خلق به وله»(كولوسي١: ١٥ و ١٦) .. «وبه خلق العالمين» (العبرانيين ١: ٢).

٩: ٨– ١٢

شهادة الأعمى عن شفاء المسيح له:

وقد ذهل اليهود حين رأوا ذلك الذى كان مولوداً أعمى إذ أصبح بصيراً يراهم كما يرونه. فقال جيرانه والذين كانوا يعرفونه من قبل يستعطي وهو أعمى «أليس هذا هو الذى كان يجلس ليستعطي؟». وقد اختلفوا في أمره، فقال بعضهم «إنه هو»، وقال البعض الآخر «لا بل يشبهه». أما هو فكان يقول «أنا هو» فقالوا له «كيف انفتحت عيناك؟». أجاب وقال «إن الإنسان الذى يدعى اسمه يسوع صنع طيناً، وطلى به عينيّ وقال لى اذهب فاغسل وجهك فى بركة سلوام، فذهبت وغسلت وجهى فأبصرت». فقالوا له «أين هو ذلك الإنسان؟» قال «لا أعلم»، إذ كان مخلّصنا بعد أن طلي بالطين عينيه وأمره أن يذهب ليغسل وجهه فى بركة سلوام قد تركه ومضى.

استجواب الفريسيين للأعمى ولأبويه :

وإذ استولت الدهشة على اليهود أمام تلك المعجزة الخارقة للطبيعة، ولم تستطع عقولهم القاصرة أن تدرك الكيفية التي تمت بها، ولا أن تعرف مغزاها لأنهم لم يكونوا يعرفون حقيقة الشخصية الإلهية لذلك الذي صنعها. وإذ كانوا يلجأون في مثل هذه الأمور إلى فقهاؤهم من الفريسيين (يوحنا ١١ : ٤٦)، جاءوا إليهم بذلك الذي كان من قبل أعمى، ليستفتوهم في أمره، ولا سيما أنه كان سبت حين صنع مخلصنا الطين وفتح عينيه. وكان القيام بأي عمل في السبت خطيئة عظمى في شريعتهم (يوحنا ٥ : ٩، ١٠) تستوجب الموت، فسأله الفريسيون هم أيضاً «كيف أبصرت؟»، فقال لهم «إنه وضع طيناً على عينيّ ثم اغتسلت فأبصرت». فقال قوم من الفريسيين «إن هذا الإنسان ليس من الله لأنه لا يحفظ السبت». وهكذا بلغ من غباء أولئك الفريسيين الذين كانوا يدّعون لأنفسهم العلم أنهم عميت أبصارهم وبصائرهم عن أن يدركوا دلالة هذه المعجزة. فلم يكن ثمة ما يسترعي إنتباههم إلا أن مخلصنا قد صنع طيناً وشفى به الأعمى في يوم السبت الذي لا يجوز فيه للإنسان أن يصنع شيئاً أو يقوم بأي عمل (متى ١٢ : ٢). فبرهنوا بذلك على جهلهم الواضح والفاضح لنبوءات أنبيائهم الذين تنبأوا جميعاً بما سيصنع المسيح الذي ينتظرونه حين يجيء من معجزات منها أن يفتح أعين العميان. كما برهنوا على سواد قلوبهم ومدى حقدهم على مخلصنا وغيرتهم منه وكراهيتهم له، حتى لقد أسدل كل ذلك ستاراً كثيفاً يحجب عن عيونهم مجد تلك المعجزة وجلالها السماوي وارتفاعها عن مستوى قدرة البشر (يوحنا ٢ : ١١)، (٣ : ٢)، (٩ : ٣٣)، فلا يقدر عليها إلا الله وحده. بيد أن قوماً آخرين كانوا أكثر إنصافاً وأقل حقداً فقالوا: «كيف يستطيع إنسان خاطىء أن يصنع مثل هذه المعجزات؟». ومن ثم وقع بينهم انقسام (انظر يوحنا ٦ : ٥٢)، (٧ : ١٢و٤٣)، (١٠ : ١٩). وقد أدى بهم ذلك التضارب في الرأي إلى أن يتناسوا ما لهم من علم ومكانة في المجتمع، فاحتكموا إلى الرجل الذي كان أعمى والذي كان شحاذاً فقيراً وجاهلاً وفي أحط مراتب ذلك المجتمع، فقالوا له «وأنت ماذا تقول عنه وقد فتح عينيك؟». وقد كان الرجل أكثر منهم ذكاء عقل ونقاء قلب، إذ فهم كل الفهم وأدرك كلَّ الإدراك مغزى ما صنعه به فادينا له المجد فقال «إنه نبي» (انظر متى ٢١ : ١١)، (يوحنا ٤ : ١٩)، (٦ : ١٤). غير أن اليهود في غباوتهم أو تغابيهم، وفي جهلهم أو تجاهلهم، وفي عماهم أو تعاميهم لم يصدقوا أن ذلك الرجل كان أعمى ثم أبصر. لأن استعادته البصر بعد أن كان أعمى منذ ولادته كان أمراً يفوق عقولهم ويتفوق على كل مشاعرهم وأحاسيسهم. ومن ثم استدعوا أبويه، وسألوهما قائلين: «أهذا هو ابنكما الذي تقولان إنه وُلِد أعمى؟ فكيف إذن يبصر الآن؟». وإذ كان أبوا ذلك الرجل المسكين فقيرين ولا حول

لهما ولا قوة، فقد خافا وجزعا من أولئك الفريسيين الذين يواجهونهما بالصلف وبالعداء والتهديد بالاعتداء. ومن ثم أجابا في خوف ظاهر وتهرب يدل على مقدار هلعهما من أولئك الأقوياء المفترين، قائلين: «إننا نعلم أنّ هذا هو ابننا وأننا ولدناه أعمى أما كيف يبصر الآن فلا نعلم. أو من الذى فتح عينيه فلا نعلم. إنه بالغ سن الرشد، اسألوه فيتكلم هو عن نفسه». وكان واضحا أنّ أبويه قالا هذا لخوفهما من اليهود، أو بالأحرى رؤساء اليهود، لأنهم كانوا قد أصدروا قراراً بأنه إذا اعترف أحد بأن مخلصنا المسيح هو الذى صنع هذه المعجزة وغيرها من المعجزات يقطع من المجمع، أي يصير مغضوبا عليه من الرئاسات الدينية لليهود (يوحنا ٧: ١٣)، ويصبح شخصاً منبوذاً لا يصح لليهود أن يعاملوه ولا يصح له هو أن يعامل اليهود. وهذه أبشع وأشنع عقوبة يمكن أن تصيب يهودياً، لأنها بمثابة الحكم عليه بالإعدام. وقد ورد بعد ذلك قول الإنجيل «فقد آمن به كثيرون من الرؤساء أنفسهم، وإن كانوا بسبب الفريسيين لم يعترفوا به علناً لئلا يطردوا من المجمع» (يوحنا ١٢: ٤٢). ومن ذلك ما قيل عن.. «يوسف الذى من الرامة وكان تلميذاً ليسوع، وإن يكن خفية لخوفه من اليهود» (يوحنا ١٩: ٣٨). انظر أيضاً (الأعمال ٥: ١٣). وقد قال السيد المسيح له المجد لتلاميذه: «فإنهم سيخرجونهم من المجامع» (يوحنا ١٦: ٢). وقد أخرجوا المولود أعمى فعلاً فطردوه من جماعة اليهود (يوحنا ٩: ٣٤).

وقد واصل اليهود من الفريسيين وغير الفريسيين محاولاتهم المستميتة لكي ينفوا عن مخلصنا قدرته الإلهية التى يستطيع بها أن يصنع معجزات يعجز البشر عن أن يصنعوها، ومِنْ ثَمّ عادوا فاستدعوا الرجل الذى كان أعمى وأرادوا التأثير عليه بالترهيب والترغيب والوعد والمكافأة والوعيد بالعقاب، وقالوا له «مجد الله، فإننا نعلم أن هذا الإنسان خاطئ» (يشوع ٧: ١٩)، (١ صموئيل ٦: ٥)، (عزرا ١٠: ١١)، (الرؤيا ١١: ١٣). وفي هذا القول ما فيه من إيماء بما يتفق مع عقولهم القاصرة، ونفوسهم المريضة، وقلوبهم الممتلئة غيرة وحسداً وحقداً وضغينة وكراهية لمخلصنا له المجد. بيد أن الرجل بنفس صافية صادقة بريئة من أي غرض أو مرض أو غيرة أو حسد أو حقد أو ضغينة أو كراهية تجاه ذلك الإنسان الذى أراه الدنيا بعد أن كان لا يرى بصيصا منها، وأبرأه من علة كانت ستقضي عليه بأن يعيش العمر كله فى ظلام دامس لا بصيص فيه من النور، ولا بصر فيه ولا بصيرة. وإذ كان الرجل تحت تأثير المعجزة الخارقة للطبيعة التى حدثت له لم يستطع أن ينكرها. وإنما اعترف بما تنطوى عليها من مقدرة فوق طاقة البشر. فلم يرهبه إرهاب ولا عقاب، ولم يستطع أن يغريه إغراء أو يثنيه عن قول الحق ترغيب ولا وعد بالثواب. ومِنْ ثَمّ أجاب اليهود قائلاً «إن كان خاطئا فلا أعلم. وإنما أعرف شيئاً واحداً وهو أنني كنت أعمى والآن أبصر». وإذ أخفقت محاولاتهم معه ارتبكوا ولم يجدوا ما يقولونه له إلا أن

يسألوه مرة أخرى عما سبق لهم أن سألوه عسى أن يتراجع فيما قرر أو يقول شيئاً مخالفاً لما سبق أن قاله فيضبطوه متلبساً بتناقض أقواله ويستنتجوا من ذلك كذبه وعدم صحة المعجزة التي صنعها معه مخلصنا، وهذا ما كانوا يهدفون إليه من كل محاولاتهم، إذ قالوا له «ماذا صنع بك؟ كيف فتح عينيك؟». فضاق ذرعاً بلجاجتهم وسماجتهم وسوء نيتهم وسواد طويتهم، وأجابهم قائلاً «قد قلت لكم ولم تسمعوا، فلماذا تريدون أن تسمعوا مرة أخرى؟ هل ترغبون أنتم أيضاً في أن تصيروا تلاميذه؟». وذلك أنه هو شخصياً إذ آمن به صار تلميذاً له، ولم يستطع أن يفهم من إلحاف اليهود عليه في السؤال وإلحاحهم في طلب الإجابة، إلا أنهم يريدون هم أيضاً أن يؤمنوا بمخلصنا ويصيروا من تلاميذه، بيد أنهم اعتبروا هذا القول منه إهانة لهم، فشتموه قائلين «أنت تلميذ ذاك، وأما نحن فتلاميذ موسى، ونحن نعلم أن الله كلم موسى، وأما هذا فلا نعلم من أين هو». وهكذا عيروه بأنه تلميذ مخلصنا مغمضين أعينهم عن المعجزة الإلهية العظيمة التي صنعها له والتي لا يسع أي إنسان - مهما يبلغ شره ومكره وغفلة عقله وغلظة قلبه - إلا أن يخر ساجداً أمام عظمة صانعها ويعترف بقدرته الإلهية ويتبعه إلى أقصى الأرض خادماً له ومتتلمذاً عليه (يوحنا ٥ : ٢٥). وقد أنكر اليهود واستنكروا أن يكونوا من تلاميذ مخلصنا، مفتخرين في زهو كاذب وصلف قبيح بأنهم تلاميذ موسى (رومية ٢ : ١٧)، لا لأنهم تلاميذه حقاً، إذ أنهم خالفوا كل وصاياه (يوحنا ٥ : ٤٥)، وإنما لمجرد الاستعلاء والكبرياء. وقد راحوا يقارنون بين موسى ومخلصنا، مزهوين ومزدهين بمكانة موسى العظيمة إذ كلمه الله، ومزدرين بمخلصنا زاعمين أنهم لايعلمون من أين جاء (يوحنا ٨ : ١٤)، (٧ : ٢٨). وقد برهنوا بذلك على جهلهم الصارخ بكتبهم المقدسة ذاتها، لأنها تتضمن أقوال أنبيائهم الذين تنبأوا جميعاً بما فيهم موسى نفسه بمجيء المسيح، وذكروا أنه هو ابن الله الذي سيجيء من السماء. كما أنهم كانوا في هذا الذي قالوه مغالطين حتى أنفسهم، لأنه إن كان افتخارهم بموسى قائماً على أساس أن الله كلمه، فهم يعلمون أن الله كلم مخلصنا أيضاً وتكلم عنه وهو يعتمد من يوحنا المعمدان، إذ قال على مسمع من كل اليهود الحاضرين «هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت» (متى ٣ : ١٧)، (مرقس ١ : ١١)، (لوقا ٣ : ٢٢). وما من شك في أن أولئك الحاضرين من اليهود - وكان بينهم تلاميذ يوحنا - قد أذاعوا خبر ذلك القول الإلهي في كل بلاد اليهودية، فلم يعد خافياً على أحد ولا مجهولاً لإنسان، ولا سيما أن يوحنا كان يردد على مسامع كل من يجيء إليه ما رآه وسمعه حين جاء إليه مخلصنا ليعتمد منه (يوحنا ١ : ١٩ - ٣٤). وإذن كان اليهود يعلمون من أين جاء مخلصنا، فإذا أنكروا ذلك فقد كانوا كاذبين ومغالطين. وحتى لو كان إنكارهم عن جهل منهم بأقوال أنبيائهم، وتجاهل لأقوال يوحنا المعمدان الذي كانوا يعدونه نبياً، فقد كان ينبغي أمام تلك

المعجزة الإلهية التي صنعها مخلصنا إذ فتح عيني ذلك المولود أعمى أن يدركوا دون مكابرة أو كبرياء أن هذا هو ابن الله الذي تنبأ بمجيئه الأنبياء. ولكن حال بينهم وبين أن يدركوا تلك الحقيقة حقدهم على مخلصنا وحنقهم عليه وغيرتهم منه، إن المولود أعمى وهو ذلك الإنسان البسيط الفقير المتواضع الذي لا يزعم لنفسه علماً ولا معرفة ولا زهواً ولا استعلاء قد أدرك من ذلك الذي صنعه مخلصنا معه أنه كائن سماوي، وأنه فوق مستوى البشر العاديين، وأنه لو لم يكن باراً وطاهراً وقوياً وقادراً لما استطاع أن يعيد إليه عينيه المفقودتين، بل أن يخلق من العدم عينين جديدتين، ومِنْ ثَمَّ أجاب وقال لهم «إن في هذا عجبا أنكم لا تعرفون من أين هو، وقد فتح عينيَّ. ونحن نعلم أن الله لا يسمع للخطاة. وأما الذي يتقي الله ويعمل بمشيئته فإن الله يسمع له. وما سمعنا منذ بدء الزمان أن إنساناً فتح عيني مولود أعمى. فلو لم يكن هذا من الله، ما استطاع أن يصنع شيئاً» (انظر أيوب ٢٧ : ٨ و٩)، (٣٥ : ١٢)، (المزمور ١٧ : ٤١)، (٢٣ : ١٥ و١٦)، (٦٥ : ١٨)، (١٤٤ : ١٩)، (الأمثال١ : ٢٨)، (١٥ : ٢٩)، (٢٨ : ٩)، (إشعياء ١ : ١٥)، (إرمياء ١١ : ١١)، (١٤ : ١٢)، (حزقيال ٨ : ١٨)، (ميخا ٣ : ٤)، (زكريا ٧ : ١٣)، (يعقوب ٥ : ١٦)، (يوحنا ٣ : ٢).

وقد أفحم ذلك الإنسان البسيط علماء اليهود بحكمته الفطرية ومنطقه السليم. ومِنْ ثَمَّ حنقوا حنقاً شديداً عليه وهم المتعالون المتعالمون الزاعمون لأنفسهم الحكمة كلها والمنطق الذي لا منطق بعده. فأجابوا وقالوا له «في الخطيئة قد ولدت أنت بجملتك، أفأنت تعلّمنا». وهكذا لم يجدوا غير الشتائم يوجهونها إليه، والافتراءات يفترونها عليه، لأن الرجل إن كانت أمه قد ولدته أعمى وفقيراً معدماً حتى اضطر أن يستعطي من الناس، فإنه لم يولد في الخطيئة، ولم يكن خاطئا (يوحنا ٩ : ٢، ٣) وإذ لم يكن لديهم الدليل على ذلك لكي يتهموه، اكتفوا بأن شتموه. وإذ انهزموا أمامه و عجزوا عن الرد عليه لم يجدوا أمامهم إلا العنف - وهو السبيل الوحيد أمام الضعفاء - فطردوه من أمامهم في غلظة وفظاظة، وعدّوه منبوذاً من المجتمع اليهودي (يوحنا ٩ : ٢٢ و٣٥ - ٤١)، (٣. يوحنا : ١٠).

٩ : ٣٥ - ٤١

إيمان الأعمى بألوهية المسيح:

وسمع مخلصنا بأن رؤساء اليهود طردوا ذلك الرجل، فحين لقيه بعد هذا - وكان ذلك على الأرجح في هيكل أورشليم - أراد أن يختبر مدى إدراكه لحقيقة شخصيته، فقال له «أتؤمن بابن الله؟». وقد برهن الرجل على أنه على استعداد لأن يؤمن بابن الله لو أنه يعرفه، إذ قال «من هو

يا سيدى فأؤمن به؟». وإذ رأى مخلصنا تلك الاستعداد منه قال له «إنك تراه وهو هو الذى يكلمك» (انظر يوحنا ٤ : ٢٦) . وهكذا أعلن مخلّصنا حقيقة شخصيته لذلك الرّجل المسكين، مع أنه قليلاً ما فعل ذلك، بل إنه ـ لحكمة لديه ـ كان فى الغالب يوصى الذين يصنع لهم المعجزات، كما يوصى تلاميذه الذين يشهدونها بألا يذيعوا أمرها. ولكن مخلّصنا ـ بسبب ما أبداه ذلك الرجل من استعداد للإيمان ـ أراد أن يستجيب له ويوطد ذلك الإيمان فيه. ومن ثَمّ كشف له النقاب وهو الفقير البائس عمّا لم يكشفه لكثيرين من الملوك والرؤساء، والمتعالين والمتعاظمين.

أليس كلام السيد المسيح مع المولود أعمى دليلاً واضحاً على حرصه له المجد على أن يعرفه أتباعه والمؤمنون به على أنه هو فى حقيقته «ابن الله» على الرغم من أنه فى نفس الوقت بحسب الجسد «ابن الإنسان»؟. هذه هي الحقيقة المسيحية الكبرى، وهى الصخرة التى أقام المسيح عليها كنيسته.. فهو له المجد يقول «على هذه الصخرة ـ أنت المسيح الله ابن الله الحى ـ أبنى كنيستى» (متى ١٦ : ١٦ و١٨) . نعم إن السيد المسيح هو ابن الله وهو ابن مريم. هو ابن الله من حيث لاهوته، إذ هو الله الكلمة الذى نزل من السماء.. «الله لم يره أحد قط. الابن الوحيد الذى فى حضن الآب هو الذى أخبر عنه» (يوحنا ١ : ١٨) . حقا إنه كان يخفى لاهوته عن الشيطان لئلا يتعطل الصليب، وهو عمل الفداء والخلاص الذى جاء من السماء لينجزه ويتممه (يوحنا ١٢ : ٢٧) .. «لأن لو عرفوا لما صلبوا رب المجد» (١ . كورنثوس ٢ : ٨)لكنه كان من وقت إلى آخر يكشف عن حقيقة لاهوته، وأنه ابن الله بالحقيقة، وابن الله الوحيد الذى ليس لبنوته نظير، فهو متفرد بهذا النوع من البنوة لأنه من طبيعة الله الآب ومن جوهره (يوحنا ٧ : ٢٩) . وهو واحد معه فى الجوهر (يوحنا ١٠ : ٣٠) ـ انظر (متى ٤ : ٣)، (١٤ : ٣٣)، (٢٦ : ٦٣)، (٢٧ : ٥٤)، (مرقس ١ : ١)، (٣ : ١١)، (لوقا ١ : ٣٥)، (٤ : ٤١)، (٢٢ : ٧٠)، (يوحنا ١ : ٣٤ و٤٩)، (٥ : ٢٥)، (١٠ : ٣٦)، (٢٠ : ٣١)، (الأعمال ٩ : ٢٠)، (رومية ١ : ٤)، (٢ . كورنثوس ١ : ١٩)، (غلاطية ٢ : ٢٠)، (العبرانيين ٤ : ١٤)، (٦ : ٦)، (٧ : ٣)، (١٠ : ٢٩)، (١ . يوحنا ٣ : ٨)، (٥ : ١٠)، (الرؤيا ٢ : ١٨) .

وقد كان الذى كان أعمى عند حسن الظن به، فسرعان ما أعلن الإيمان بمخلصنا قائلا له «أؤمن يا سيدى» ثم برهن على إدراكه لحقيقة شخصه الإلهى، إذ سجد له. والسجود هنا لابدّ أن يكون سجود العبادة، لا مجرّد سجود الاحترام (انظر متى ١٤ : ٣٣)، (٢٨ : ١٧)، (٢ : ٢و ١١)، (لوقا ٢٤ : ٥٢)، (العبرانيين ١ : ٦) . وعندئذ قال مخلصنا تعليقاً على تلك المعجزة التى فتح بها عينى الأعمى «أتيت أنا دينونة للعالم، حتى يبصر الذين لا يبصرون ويعمى الذين يبصرون»

أى أنه جاء من السماء إلى العالم إمتحاناً للذين فى العالم (انظر يوحنا ٣: ١٩). حتى يفتح أعين العميان فيبصروا ويفتح قلوب غير المؤمنين فيؤمنوا. وأما الذين يدّعون لأنفسهم البصيرة والبصر فإن غلظة قلوبهم تعمى بصائرهم وأبصارهم (متى ١٣: ١٣ - ١٥)، حتى إن الحق يتألق كالشمس أمامهم فلا يبصرونه (إرميا ٥: ٢١)، (إشعياء ٦: ٩)، ونور الله يتدفق عليهم ومن حولهم فلا يرونه أو تتبيّنه أعينهم (حزقيال ١٢: ٢)، (التثنية ٢٩: ٤)، والمسيح الذى ينتظرونه منذ آلاف السنين يأتى إليهم فلا يدركون حقيقة شخصيته، وإنما يتنكرون له وينكرونه. حتى إذا جاء يوم الدينونة كوفئ المؤمن على إيمانه، وعوقب المنكر بسبب نكرانه (يوحنا ٥: ٢٢ و٢٧)، (١٢: ٤٨).

وقد سمع هذا القول من مخلّصنا قوم من الفريسيين الذين كانوا عندئذ معه. فقالوا له «ألعلنا نحن أيضاً عميان؟». قال لهم مخلصنا «لو كنتم عمياناً لما كانت لكم خطيئة. ولكنكم الآن تقولون إننا نبصر. فخطيئتكم لهذا باقية». أى أنهم لو كانوا ينكرون أنه المسيح ابن الله عن جهل يشبه جهل الأعمى بما لايرى، لما كان فى ذلك خطيئة من جانبهم (متى ١٢: ٣٢)، (لوقا ١٢: ١٠). أما وهم يدّعون العلم والمعرفة (رومية ٢: ١٩)، (الأمثال ٢٦: ١٢)، فى حين أنهم ينكرون أنه المسيح ابن الله، فليس ذلك جهلاً منهم يمكن أن يكون عذراً لهم، وإنما هو ادّعاء للجهل أو تجاهل للحقيقة ينفى كلّ عذر لهم ويجعل خطيئتهم متعمدة، ويجعلهم متمسكين بها مصرّين عليها، ومن ثمّ فإنها تغدو خطيئة مستمرة وباقية فى أعناقهم، لا إنفصام لها، ولا غفران عنها (متى ١٢: ٣١ و٣٢)، (لوقا ١٢: ١٠)، قال السيد المسيح له المجد: «لو لم أكن قد جئت وكلمتهم لما كانت لهم خطيئة. وأما الآن فليس لهم عذر فى خطيئتهم.. لو لم أكن قد صنعت بينهم أعمالاً لم يصنعها أحد غيرى لما كانت لهم خطيئة» (يوحنا ١٥: ٢٢ و٢٤).

الفصل العاشر

١٠ : ١ – ٦

المسيح هو راعي الخراف وهي تعرف صوته:

وقد استطرد مخلصنا في مخاطبته لليهود قائلاً لهم: «الحق الحق أقول لكم إنَّ الذي لا يدخل من الباب إلى حظيرة الخراف وإنما يتسلق إليها من موضع آخر، هو سارق ولص. وأما الذي يدخل من الباب فهو راعي الخراف، وله يفتح البوّاب، والخراف تسمع صوته، فيدعو خرافه بأسمائها ويخرجها، ومتى أخرج خرافه التي تخصه، سار قدامها وهي تتبعه، لأنها تعرف صوته. أمّا الغريب فلا تتبعه وإنما تهرب منه لأنها لا تعرف صوت الغريب».

وقد كان مخلصنا يعني بذلك أنه هو المسيح الحقيقي الذي تنبأت بمجيئه النبوءات، ولم يكن مسيحاً كاذباً أو مزيفاً كما يحاول اليهود أن يصوروه. لأن المسيح الحقيقي هو في الواقع الراعي الحقيقي للبشر، الذين هم بمثابة خرافه. فإن لم يكن هو الراعي الحقيقي لما كان قد جاء إلى عالم البشر الذي هو بمثابة الحظيرة للخراف، بالصورة التي جاء بها مخلصنا، إذ تجسد في بطن السيدة العذراء مريم، لا من زرع بشر وإنما من روح القدس الذي هو روح الله الآب. وقد تمثل فيه كل الكمال الإلهي، سواء باعتباره ابن الإنسان، أو باعتباره ابن الله. فقد كان باعتباره ابن الإنسان مطيعاً لله كما ينبغي أن تكون طاعة الإنسان لله، وكان باعتباره ابن الله ممثلاً للطبيعة الإلهية بكل كمالاتها في الصفات والقدرات. أما لو كان قد جاء عن غير ذلك الطريق من زرع إنسان تجوز الخطيئة عليه، أو جاء غير مطيع لله، أو غير مالك لكمالات الله في صفاته وقدراته، ومن تلك القدرات صنع المعجزات التي لا يمكن أن تصدر إلا من الله وحده، لكان مسيحاً زائفاً يشبه ذلك السارق واللص الذي لا يجرؤ على أن يدخل حظيرة الخراف من بابها. وإنما يتسلق إليها من موضع آخر، لا ليرعى الخراف شأن راعيها، وإنما ليسرقها (إرميا ٢٣ : ١ – ٤)، (زكريا ١١ : ٤ – ١٧). ولذلك فإن الخراف إذ لا تعرفه تفزع منه وتهرب من وجهه، وأما الراعي الحقيقي للخراف فإنه يتقدم بخطوات واثقة مطمئنة صلبة إلى باب الحظيرة. ولما كان حارس ذلك الباب يعرفه فإنه يفتح له الباب (الأعمال ١٤ : ٢٧)، (١٦ : ٦ و٧)، (١ . كورنثوس ١٦ : ٩)، (٢ . كورنثوس ٢ : ١٢)، (كولوسي ٤ : ٣)، (الرؤيا ٣ : ٨). ولما كانت الخراف التي في الحظيرة أيضاً تعرفه فإنها تهرع إليه حين تسمع صوته. ولما كان هو من جانبه يعرف تلك الخراف واحداً واحداً لأنها تخصه فإنه يناديها كلاً باسمه ويخرجها من حظيرتها ليرعاها، حتى إذا أخرج تلك الخراف جميعاً سار قدامها، وهي إذ تعرفه وتعرف صوته تتبعه، أما الغريب الذي ليس هو

الراعي الحقيقي للخراف، وإنما هو لص جاء ليسرقها، فإنها إذ لا تعرف صوته لا يمكن أن تتبعه وإنما تهرب فزعة منه. وقد جاء مخلصنا إلى العالم باعتباره الراعي الحقيقي للبشر، ولذلك دخل من الباب الذي يدخل منه ذلك الراعي، باب الحق والصدق والرحمة والعدل، ولا يجرؤ على أن يدخل منه السارقون اللصوص الذين هم المسحاء والأنبياء الكذبة، باب الخداع والختال والاحتيال والغش. وهو يعرف خاصته من البشر. ومن ثَمّ فهو يدعوهم بأسمائهم واحداً واحداً، فيتبعونه على الفور. لأنهم في أعماق وجدانهم يعرفون صوته، ولأنهم في صميم قلوبهم يدركون أن هذا هو راعيهم الحقيقي، وأن هذا هو إلههم الذي أحبهم وأحبوه، وآمنوا به وائتمنوه على أنفسهم، واطمأنوا إليه، فارتضوا قيادته لهم، وأسلموه قيادهم.

١٠ : ٧- ١٨

المسيح هو الراعي الصالح الذي يبذل نفسه عن الخراف:

وإذ رأى مخلّصنا له المجد أن اليهود لم يفهموا المَثَل الذي ضربه لهم (يوحنا ١٦ : ٢٥ و٢٩)، (٢. بطرس ٢ : ٢٢)، أخذ يشرح لهم مغزى ذلك المَثَل قائلاً: «الحقَّ الحقَّ أقول لكم إني أنا باب الخراف. جميع الذين أتوا قبلي هم لصوص وسُرّاق، ولكن الخراف لم تسمع لهم. أنا هو باب الخراف فإن دخل بي أحد يَخلُص ويدخل ويخرج ويجد مَرعى».

وهكذا بدأ مخلّصنا يطبق المثل على نفسه، مقرراً أنه هو الراعي الحقيقي للبشر الذين هم خرافه ورعيته... «كراعٍ يرعى قطيعه. بذراعه يجمع الحملان. وفي حضنه يحملها ويقود المرضعات»، (إشعياء ٤٠ : ١١)، (إرميا ٣١ : ١٠)، (حزقيال ٣٤ : ١٢- ١٤ و٢٣). وهو في نفس الوقت الباب الذي يدخل منه الذين يؤمنون به من البشر ويخرجون ويحيون ويخلصون (يوحنا ١٤ : ٦)، (أفسس ٢ : ١٨)، (العدد ٢٧ : ١٦ و ١٧)، أي هو الواسطة التي تتحقق بها كل تحرُّكات البشر وتقوم عليها حياتهم ويتم عن طريقها خلاصهم من الهلاك المحكوم به من العدالة الإلهية عليهم بسبب شرورهم. وأما جميع الذين أتوا قبله ممن قاوموه زاعمين كذباً أنهم مسحاء أو أنبياء أو فقهاء أو معلّمون من دونه، فلم يكونوا رعاة حقيقيين يهدفون إلى خير البشر أو خلاصهم، وإنما هم لصوص وسرّاق (يوحنا ٨ : ٤٤)، يهدفون إلى المجد الدنيوي لأنفسهم (حزقيال ٣٤ : ٢- ١٠) . ولو كان في ذلك هلاك البشر جميعاً (إرميا ٢٣ : ١- ٤). ولذلك لم يجدوا أحداً من البشر يسمع لهم أو يتبعهم فسرعان ما انكشف زيفهم وافتضحت نيتهم وطويّتهم.

فإن عجز أولئك اليهود عن أن يدركوا أنّ مخلّصنا هو المسيح الحقيقي وأن يميزوا بينه وبين المسحاء الكذبة، فذلك لأنهم قد أغلق الحقد آذانهم فلم يسمعوا صوته، وأعمى الحسد أعينهم فلم

يبصروا مجده. ولو كانوا من رعيته حقاً لسمعوا صوته ورأوا مجده ولم ينكروه أو يتنكروا له، ولم يحاربوه أو يناصبوه العداء. وعندئذ كان يمكنهم أن يدركوا شخصيته ويؤمنوا بأن المسيح ابن الله الذي ينتظرونه. بيد أن اليهود على الرغم من أن هذا المثل الذي ضربه لهم مخلصنا كان واضحاً كل الوضوح لم يفهموا معناه ولا مغزاه، كما لم يفهموا، أو لم يريدوا أن يفهموا - في غباوتهم وغلظة قلوبهم - لماذا قاله لهم. ومِنْ ثَمَّ استمرّ سيدنا يوضح هذا المعنى وهذا المغزى لليهود قائلاً «إن السارق لايأتي إلا ليسرق ويذبح ويهلك، وأما أنا فأتيت لتكون لهم حياة، وليكون لهم أفضل. أنا هو الراعي الصالح، والراعي الصالح يبذل نفسه عن الخراف. وأما الذي هو أجير وليس راعياً. ذلك الذي ليست الخراف له، فيرى الذئب مقبلاً فيهرب ويترك الخراف، فيخطفها الذئب ويبدّدها، لأنه أجير. فهو لا يبالي بالخراف».

فالسارق الذي ليس راعياً حقيقياً للخراف لا يأتي إليها إلا مُتَسلّلاً من النافذة أو متسلقاً الجدار ليسرقها لأنه لص، أو ليذبحها ويهلكها لأنه مجرم وشرير.. «لا يفتقد المنقطعين ولايطلب المطرود ولا يجبر المكسور ولا يربي القائم، بل يأكل لحم السمان ويهشّم أظلافها.. ويل للراعي الباطل الذي يهمل الغنم. سيكون السيف على ذراعه وعلى عينه اليمنى فتيبس ذراعه يبساً وتكلّ عينه اليمنى» (زكريا ١١: ١٦ و١٧). وهذا ينطبق على السحاء والأنبياء الكذبة، وعلى الفقهاء والمعلِّمين الزائفين الذين - كي يشبعوا شهوات نفوسهم في المجد الدنيوي - يزعمون للناس أنهم مرسلون من الله، أو أنهم ينقلون إلى الناس تعاليم الله، في حين أنهم مرسلون من الشيطان ولا ينقلون إلى الناس إلا تعاليمه ليسرقوا الإيمان بالله من قلوبهم، فيكون في ذلك موتهم الروحي وهلاكهم الأبدي. وأما مخلّصنا فقد أتى إلى العالم كي يهب للناس الحياة الروحية في الدنيا، والحياة الأبدية في السماء (يوحنا ٥: ٤٠). فتكون الحياة الرُوحية أفضل لهم من الحياة المادية التي يحيونها في الدنيا، وتكون الحياة الأبدية في السماء، لو امتلأت قلوبهم بالإيمان والبرّ، أفضل لهم من الهلاك الأبدي، لو امتلأت قلوبهم بالكفران والشر، وذلك لأن مخلصنا هو الراعي الصالح للبشر الذين هم خليقته وخاصته، فهو أمين عليهم، حريص على خيرهم. وقد بلغ به حرصه الحدّ الذي لا يمكن أن يتصور العقل مداه، إذ أنه وهو ابن الله وهو الله ذاته تنازل ونزل من علياء سمائه إلى الأرض متخذاً صورة الإنسان المخلوق من التراب كي يقدّم نفسه ذبيحة عن أولئك الذين أحبهم كل الحب، كي يكفّر بآلامه وموته على الصليب عن خطاياهم التي استحقوا بسببها الهلاك الأبدي (يوحنا ١٥: ١٣). وأما ذلك الذي لا تربطه بالبشر تلك الرابطة القوية، رابطة الخالق نحو مخلوقاته، والمالك نحو ممتلكاته، والأب نحو أبنائه، والمحب نحو أحبّائه، وإنما هو مكلف برعايته نظير أجرٍ يتقاضاه، فهو أجير وليس راعياً، وهو حريص على

تقاضى أجره، وعلى مصلحة نفسه، وسلامة حياته، أكثر من حرصه على مصلحة رعيته، أو سلامة حياتها. ومن ثمَّ فإنه إذا رأى خطراً يهددها لا يتصدى للدفاع عنها، أو التعرض لأى أذية يصيبه في سبيل المحافظة عليها، أو توفير الأمان لها، وإنما يهرب ناجياً بنفسه من ذلك الخطر، تاركاً رعيته في غير مبالاة تحت رحمة ذلك الخطر الذي لا يلبث أن ينقض عليها فيهلكها، لأنه أجير لا تربطه بالرعيَّة تلك الصلة القوية التي تربط بين صاحبها الحقيقي وبينها، صلة الامتلاك والمحبة والعطف والرحمة والحنان. وهى الصلة التى تربط بين الله والإنسان. وهى ذاتها الصلة التي تربط بين مخلصنا ابن الله وبين بنى الإنسان. وفي ذلك يقول مخلصنا شارحاً وموضحاً: «أنا هو الراعي الصالح. وأعرف الخراف التي هى لى، وخرافى التي هى لى تعرفني. كما أن أبي يعرفني وأنا أعرف الآب. وسأبذل نفسي عن خرافي. ولى خراف أخرى ليست من هذه الحظيرة، ينبغي أن أجيء بها هى أيضاً فتسمع صوتي. ويكون ثمة رعية واحدة وراع واحد. لذلك يحبني أبي، إذ أبذل نفسي كى أستردها مامن أحد ينتزعها مني، وإنما أبذلها أنا وحدى من ذاتي، فلي سلطان أن أبذلها ولي سلطان أن أستردها. هذه هى الوصية التى قبلتها من أبى».

وقد أكدَّ مخلِّصنا بهذه العبارات الدقيقة اللفظ العميقة المعنى أنه هو الراعي الصالح لرعيته من بني البشر (حزقيال ٣٤: ٢٣، ٣١)، (ميخا ٥: ٤) لأنه هو إلههم الذى يرعاهم بما له من صلاح إلهي لا يمكن أن يضاهيه صلاح أى إنسان مهما تبلغ فضيلته أو قداسته أو حرصه على رعاية رعيته. ومما يجعل هذه الرعاية وطيدة الأسباب قوية الدعائم بالغة حدَّ الكمال، أنه يعرف خرافه الذين هم المؤمنون به معرفة تامة ووثيقة.. «يعلم الرب الذين هم له» (٢. تيموثيئوس ٢: ١٩). فهو خالقهم وأبوهم، ومن ثمَّ فهو عالم بكل خواطر أنفسهم، وخلجات قلوبهم، وما يظهرونه وما يبطنونه من أفكارهم ومشاعرهم وأعمالهم وأقوالهم وآلامهم وآمالهم وأهدافهم ونواياهم. كما أنهم من جانبهم يعرفونه بقدر إيمانهم به ومحبتهم له وطاعتهم إياه وثقتهم فيه باعتباره راعيهم وفاديهم ومخلِّصهم وإلههم. فالصلة بينهم وبينه وثيقة وعميقة، بنفس الدرجة التي تتصف بها الصلة بينه هو وبين أبيه السماوي، إذ يعرف كل منهما الآخر معرفة الكائن لذاته، لأنهما كليهما كيان واحد وإله واحد ووحدة واحدة وذات إلهية واحدة... «ولا أحد يعرف الابن إلا الآب، ولا أحد يعرف الآب إلا الابن» (متى ١١: ٢٧)، (لوقا ١٠: ٢٢)، (يوحنا ٧: ٢٩)، (٨: ٥٥)، (١٧: ٢٥). ولما كان هذا هو مدى العلاقة التي تربط بين مخلصنا وبين رعيته من بنى البشر، الذين هم بمثابة خرافه، وهذا هو مقدار الحب الذى يضمره لهم، فإنه قد تنازل - وهو الإله العظيم المتعالى - فأتى إليهم، متخذاً جسداً كجسدهم المجبول من التراب.

وعاش بينهم كما يعيشون، وعانى مثلهم ما يعانون، وقرّر بحكمته ورحمته الإلهية أن يموت عنهم ويضع نفسه لأجلهم (١. يوحنا ٣: ١٦). كي يفديهم ويكفّر عن خطاياهم التي استحقوا بسببها لدى عدالة الله الهلاك والموت الأبدي، فيمنحهم بذلك الغفران والخلاص والحياة الأبدية. وإن كان شعب الله مقصوراً في البداية على الأمة اليهودية التي خصها بالرعاية وأعلن لها ذاته وأنزل عليها شريعته وكان أبناؤها هم وحدهم خرافه ورعيته (إشعياء ٥٦: ٨)، فإنه حين أتى إلى العالم كي يقوم بعمل الفداء الذي ارتضى أن ينجزه، كان يهدف لا إلى خلاص اليهود وحدهم الذين كان يتألف منهم قبل ذلك قطيع حظيرته التي هي كنيسته، وإنما إلى خلاص البشر جميعاً بما فيهم غير اليهود من الوثنيين الذين اعتبرهم هم أيضاً خرافه (يوحنا ١١: ٥٢). ومن ثمّ كان ينبغي أن يدعوهم هم أيضاً (الأعمال ١٨: ١٠)، فيسمعوا صوته، ويتبعوه، فيتألف من كلّ القاطنين في الأرض قطيع واحد ورعية واحدة (حزقيال ٣٧: ٣٣)، (أفسس ٢: ١٣ - ١٨). ويكون لهم راع واحد (حزقيال ٣٤: ٢٣)، (٣٧: ٢٤)، هو مخلصنا له المجد، راعي الخراف العظيم (العبرانيين ١٣: ٢٠). وأسقفها (١. بطرس ٢: ٢٥)، ورئيس الرعاة وراعي الرعاة (١. بطرس ٥: ٤) الذي أتى إلى العالم، لا ليبذل نفسه عن اليهود وحدهم، وإنما عن البشر جميعاً. وقد كان عمل الفداء هذا بتدبير الإرادة الواحدة التي تجمع بين مخلصنا وأبيه السماوي، والتي تعبر أصدق تعبير عن محبة ابن الله للبشر، كما تعبر في نفس الوقت عن محبة الآب السماوي لابنه الحبيب. وهنا يقرّر مخلّصنا أنه يبذل نفسه عن البشر بمحض إرادته ومسرته هو وحده.. «إنه ضرب من أجل ذنب شعبي.. إنه جعل نفسه ذبيحة إثم.. إنه سكب للموت نفسه.. وهو حمل خطايا كثيرين، وشفع في المذنبين» (إشعياء ٥٣: ٧ و٨ و١٢).. «أخلى نفسه متخذاً صورة العبد، صائراً في شبه الناس.. وضع نفسه وأطاع حتى الموت، الموت على الصليب..» (فيلبي ٢: ٧ - ٩)، (العبرانيين ٢: ٩). فليس في مقدور أحد أن يأخذ من مخلّصنا نفسه، لأنه هو مالكها ولا سلطان لأحد غيره عليها، ولا يمكن لأحد أن ينتزعها منه على الرغم منه كما هو الشأن بالنسبة للبشر (لوقا ٢٣: ٤٦)، (متى ٢٦: ٥٣)، (يوحنا ٢: ١٩)، (٥: ٢٦). فهو يبذلها من ذاته، كما أن له السلطان أن يستردها بإرادته وحدها. وقد تمّ هذا التدبير الإلهي لعمل الفداء بمشورة الآب، كما أنه كان في نفس الوقت بقبول من الابن، لأنه ارتضى أن يبذل نفسه عن البشر - بدافع من محبته لهم - لخلاصهم ورفع الغضب الإلهي عنهم (انظر يوحنا ٦: ٣٨)، (١٢: ٤٩)، (١٥: ١٠).

١٠ : ١٩- ٢١

حدوث إنشقاق بين اليهود بسبب كلام المسيح:

فلما سمع اليهود هذه الأقوال من مخلّصنا اختلفوا فيما بينهم كعادتهم (يوحنا ٧: ٤٣)، (٩: ١٦)، (٦: ٥٢) المعروفة عنهم في كل زمان ومكان، لأنهم أهل شقاق ونفاق وتنافر وتناحر وخصام وإنقسام. فقال كثيرون منهم وهم الحاقدون على مخلصنا والناكرون له والنافرون منه «إن به شيطاناً وقد اختل عقله، فلماذا تستمعون إليه؟» وهكذا عجزوا بعقولهم المظلمة وقلوبهم المجرمة عن أن يجادلوه أو يحاوروه أو يجاروه فيما قال. فلم يجدوا سبيلاً إلى الرد عليه إلا أن يشتموه ويتهموه بأقبح وأقسى ما يمكن توجيهه من إتهام، إذ وصموه بأنّ به شيطاناً نجساً (يوحنا ٧: ٢٠)، (٨: ٤٨ و٥٢) يجعل منه إنساناً شريراً دنساً، وبأنه مختل العقل (مرقس ٣: ٢١)، مصاب بالجنون، يهرف بمالا يعرف، ويهذي بمالا يدري. فلا جدوى من الاجتماع به أو الإستماع إليه. بيد أن آخرين غير أولئك ممّن كانوا أكثر عقلاً وعدلاً وأقل حسداً وحقداً، أجابوهم قائلين «ليس هذا كلام من به شيطان. أفيستطيع شيطان أن يفتح أعين العميان؟» وقد برهن هؤلاء بهذا القول على سلامة في التفكير، واستقامة في المنطق، إذ استندوا في تفنيد مزاعم الفريق الأول إلى حجتين دامغتين، هما أن أقوال مخلّصنا هي أقوال إلهية سامية وسمائية، ولا يمكن أن تصدر بحال من الأحوال عن شيطان نجس أو دنسٍ أو محتالٍ أو دجّال.. لأنه لو كان الشيطان هو المتكلّم لكانت كلماته نجسة كنجاسته، دنسة كدنسه، منطوية على كل ما يتصف به الشيطان من احتيال ودجل ومن كلّ أسلوب كذوبٍ يعمل به جاهداً على أن يخدع الإنسان ويدفعه إلى الشر ويوقعه في مهاوي الهلاك. كما أن أعمال مخلّصنا هي أعمال إلهية سامية وسمائية، وتنطوي على معجزات فوق طاقة أي مخلوق من مخلوقات الله، سواء أكان إنساناً أو شيطاناً، ولا يقدر عليها إلا الله وحده لأنه «من الذي... يخلق.. البصير والأعمى؟ أليس إياي أنا الرب؟» (الخروج ٤: ١١).. هو «الرب يفتح عيون العميان» (المزمور ١٤٥: ٨)، (٩٣: ٩). ومن ذلك تلك المعجزة الباهرة المبهرة التي صنعها مخلصنا والتي أقل ما قاله المولود أعمى لليهود بمناسبة تفتيح عينيه «أفيستطيع شيطان أن يفتح أعين العميان؟» (انظر يوحنا ٩: ٦ و٧ و٣٢ و٣٣).

١٠ : ٢٢- ٣٠

سؤالهم هل هو المسيح؟ وجوابه عليهم:

وكان في ذلك الوقت عيد التجديد بأورشليم. وقد أنشأ يهوذا المكابي هذا العيد في عام ١٦٥ قبل الميلاد، تخليداً لذكرى تجديد الهيكل في عهده، إذ كان أنطيوخوس ملك سوريا قد هاجم

بلاد اليهود ودخل هيكل أورشليم وأشاع فيه الخراب، ونهب نفائسه، وفرض الديانة اليونانية الوثنية على الشعب اليهودي. فاعتنقها كثيرون منهم، وقد تمرّد متّاتيا وخرج مع أبنائه إلى الجبال وأعلن الحرب على أنطيوخوس. فلما مات خلّفه في زعامة المتمردين أكبر أبنائه يهوذا، وهو الملقّب بالمكابي. وقد ظلّ هذا يقاتل حتى استطاع الاستيلاء على أورشليم، وهناك وجد الهيكل وقد إلتهمت النار معظمه، ونجسه اليونان بوضع معبوداتهم فيه، وإذ لم يجد يهوذا وسيلة إلى تطهير حجارته من الدنس الذي لحق بها حسب الشريعة اليهودية، هدمها وجاء بحجارة جديدة، وأعاد بناء الهيكل من جديد، وصنع له آنية جديدة. ثم في اليوم الخامس والعشرين من الشهر التاسع من السنة العبرية وهو شهر كسلو، دشّن الهيكل، وظل يقيم فيه الطقوس ويقدم الذبائح ثمانية أيام منذ ذلك اليوم، وقرر أن يكون هذا عيداً دائماً لليهود. يحتفلون به مدة ثمانية أيام تبدأ في اليوم الخامس والعشرين من شهر كسلو من كلّ عام. وقد أصبح اليهود يعدّون هذا العيد من أهم وأعظم أعيادهم، وكانوا يجعلون له من أسباب البهجة ما كانوا يجعلون لعيدي الفصح والمظال، فكانوا في أثنائه يزينون مدخل الهيكل بتيجان من الذهب ويضيئون كل الأنوار التي في الهيكل وفي أورشليم. ولذلك كانوا يسمونه أيضاً عيد الأنوار.

ولم يكن يتحتم الاحتفال بعيد التجديد في أورشليم كسائر الأعياد المقدسة لدى اليهود، وإنما كان كل واحد يحتفل به في المكان الذي يقيم فيه، بيد أن مخلّصنا اشترك في احتفالات هذا العيد يوم ذاك في أورشليم للتبشير والتعليم خلال الأيام الثمانية المحدّدة له. وكان ذلك في فصل الشتاء. وقد حدث أنه كان يمشي في الرواق المسمّى رواق سليمان في هيكل أورشليم (الأعمال ٣: ١١)، (٥: ١٢). وقد أطلق عليه ذلك الاسم لأنه كان مبنياً في نفس المكان من الهيكل الجديد الذي كان يقوم فيه رواق سليمان في الهيكل الأول. وقد انتهز اليهود هذه الفرصة، إذ كانت أفكارهم مبلبلة بشأن حقيقة شخصية مخلصنا، فأحاطوا به وقالوا له «إلى متى تتركنا في حيرة؟ إن كنت أنت المسيح فقل لنا ذلك صراحة». ويدلّ قولهم على أنهم كانوا ـ على الرغم من حقدهم عليه ومعاداتهم له ـ يترجح في قرارة أنفسهم احتمال أن يكون هذا هو المسيح ابن الله الذي تنبأ كل أنبيائهم عن مجيئه، والذين كانوا بالفعل ينتظرونه. ولقد كرر شيوخ اليهود في مجمع السنهدريم هذا السؤال على مخلصنا في أثناء محاكمتهم له، فجاء في الإنجيل: «ثم قالوا له: أأنت المسيح؟ قلْ لنا. فقال لهم: إن قلت لكم فلن تصدقوا... إن ابن الإنسان منذ الآن سيكون جالساً عن يمين قدرة الله. فقالوا جميعاً: أفأنت إذن ابن الله؟ قال: نعم أنا هو كقولكم» (لوقا ٢٢: ٦٦–٧٠) وجاء في الإنجيل: «فأجاب رئيس الكهنة وقال له: أستحلفك بالله الحيّ أن تقول لنا هل أنت

المسيح ابن الله؟ فقال له يسوع : نعم أنا هو كقولك» (متى ٢٦ : ٦٣ و٦٤)، (مرقس ١٤ : ٦١ و٦٢). وقد أجابهم مخلصنا في هذه المرة أيضاً قائلاً: «قد قلت لكم فلم تؤمنوا. إنّ الأعمال التي أعملها باسم أبي هي تشهد لي. ولكنكم لا تؤمنون لأنكم لستم من خرافي كما قلت لكم. إن خرافي أنا تسمع صوتي وأنا أعرفها فهي تتبعني وأنا أيضاً أعطيها الحياة الأبدية، فلا تهلك إلى الأبد ولا يقدر أحد أن يخطفها من يدي. إنّ أبي الذي أعطانيها هو أعظم من الجميع. فلا يقدرأحد أن يختطفها من يد أبي، أنا وأبي نحن معاً واحد». ويدل هذا القول من مخلّصنا على أن أولئك اليهود الذين سألوه - على الرغم من أنهم كانوا يفكرون في إحتمال أن يكون هذا هو المسيح - كان إنكارهم له أرجح في نفوسهم من الإيمان به، بسبب إزدرائهم له، لبساطة مظهره، وبسبب غيرتهم منه، لأن كثيرين من الشعب التفّوا حوله وأعطوه كرامة أكثر مما كانوا يعطونه لرؤساء كهنتهم وفقهائهم من الكتبة والفريسيين. وعلى الرغم من أنه قال لهم صراحة في الفترة الأخيرة تلميحاً وتصريحاً إنه هو المسيح ابن الله الذي ينتظرونه، فإنهم لم يؤمنوا به وإنما أهانوه وعادوه وحاولوا مرات كثيرة أن يعتدوا عليه، مع أنهم لم يكونوا في حاجة لأن يعلن لهم لا تلميحاً ولا تصريحاً حقيقة شخصيته (انظر يوحنا ٥ : ١٩)، (٨ : ٣٦ و٥٦ و٥٨). لأن أعماله التي تنطوي على معجزات لا يمكن أن تصدر إلا عن القدرة الإلهية وحدها (يوحنا ٢ : ٢٣)، (٣ : ٢)، (٩ : ١٦ و٢٣). وقد صنعها فعلاً باسم أبيه السماوي الذي هو الله الآب (يوحنا ٥ : ٣٦) كما أنه صنعها بقدرته الذاتية باعتباره هو الله الابن (يوحنا ١٤ : ١٠)، (١٥ : ٢٤)، (١٠ : ٣٨). وكان ينبغي أن يكون فيها أصدق الشهادة وأقوى الإقناع لهم بأنه هو المسيح. ولكنهم قد عميت عقولهم وغلظت قلوبهم. فلم يؤمنوا به لأنهم ليسوا من خرافه كما سبق أن قال لهم (يوحنا ٨ : ٤٧)، (١. يوحنا ٤ : ٦)، أي ليسوا ممن انفتحت عيونهم ولانت قلوبهم فعرفوا بذلك حقيقة شخصيته، وعرفوا أن هذا هو راعيهم الصالح بمجرّد أن سمعوا صوته كما تعرف الخراف راعيها حين تسمع صوته (يوحنا ١٠ : ٣ و٤ و١٤ و١٦). وهو - بعلمه الإلهي - يعرفهم كما يعرف الراعي الصالح خرافه، فهم يتبعونه على الفور. وهو - إذ يؤمنون به وتمتلئ قلوبهم بكلمته المحيية التي فيها خلاصهم - يمنحهم الحياة الأبدية التي يستحقها المؤمنون الصادقون والأتقياء الأطهار والأنقياء الضمائر والسرائر والأفكار، فلا يهلكون إلى الأبد (يوحنا ٦ : ٣٧ و٣٩)، (١٧ : ١١ و١٢)، (١٨ : ٩)، كما يهلك الكافرون والمنكرون والآثمون والأشرار، ولايقدر الشيطان ولا أتباع الشيطان من بني الإنسان أن يختطفوهم من يده، لأن أباه السماوي جعلهم رعيته (يوحنا ٦ : ٣٧ و٣٩). فهو يرعاهم ويحافظ عليهم، وقد عهد بهم إلى ابنه الحبيب ليرعاهم كذلك ويحافظ عليهم (يوحنا ١٧ : ٢ و٤ و٦ و٧ و٩ و١١ و١٢ و٢٤). لأن رعاية الابن هي رعاية الآب، ومحافظة الابن على

رعاياه هي نفسها محافظة الآب على رعاياه. وكما أن الآب أعظم من جميع القوى التى فى الكون بحيث لا يمكن لأى من تلك القوى أن تغلبه، فإن الابن كذلك أعظم من جميع تلك القوى فلا يمكن لأى منها أن تغلبه، لأن الآب والابن إله واحد وكيان واحد وذات واحدة.

وهنا يعلن السيد المسيح له المجد فى قوله «أنا وأبى نحن معاً واحد» الحقيقة العظمى أنه وإن كان ابن الله، لكن هذه البنوة أزلية غير زمنية، فليس الابن متأخراً عن الآب فى الزمان، لأنه «معه» دائماً منذ الأزل ولم تمر لحظة فى الزمان كان فيها الآب ولم يكن الابن «معه». ثم إنها بنوة حقيقية وطبيعية وليست نسبية. إذ أن الابن من طبيعة الآب ومن جوهره (يوحنا ٧: ٢٩)، (٦: ٤٦). وهى أيضاً بنوة متصلة غير منفصلة، فالابن لم ينفصل عن الآب لحظة واحدة، إذ هو كائن معه وفيه دائماً (يوحنا ١٤: ٦ و١٠ و١١ و٢٠)، (١٠: ٢٨). ومن هنا جاء قول الآباء فى قانون الإيمان «واحد مع الآب فى الجوهر» أى أن الابن والآب معاً هما جوهر واحد، وذات إلهية واحدة (انظر يوحنا ١٧: ١١ و٢٢). ὁμοούσιος τῷ πατρί

١٠: ٣١- ٤٢

طلب اليهود أن يمسكوه ومحاولة رجمه:

وإذ صرح مخلصنا لليهود بأنه هو والله الآب واحد، عدّوا ذلك تجديفاً منه على الله، لأنهم - على الرغم من كل ماقاله لهم إثباتا لهذه الحقيقة - لم يؤمنوا بأنه هو المسيح ابن الله الذى ينتظرونه. فالتقطوا حجارة مرة أخرى ليرجموه (اللاويين ٢٤: ١٠- ١٦). ولم تكن هذه هى المرة الوحيدة التى التقط فيها أشرار اليهود حجارة ليرجموا الرب يسوع. فعندما أعلن لهم وجوده الأزلى قبل إبراهيم رفعوا حجارة ليرجموه. إذ قال الإنجيل «قال لهم يسوع: الحق الحق أقول لكم قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن. فرفعوا حجارة ليرجموه» (يوحنا ٨: ٥٨ و٥٩) انظر أيضاً (يوحنا ١١: ٨). ومن ثم أجابهم مخلصنا قائلاً: إنّ أعمالاً كثيرة حسنة أريتكم من لدن أبى، فبسبب أى عمل منها ترجموننى؟»، أى أن أعماله كلها كانت أعمال رحمة لهم وعطف عليهم وإحسان يسديه إليهم، إذ شفى مرضاهم، وأقام من بين الأموات موتاهم، وأخرج الشياطين والأرواح النجسة من المتسلطة عليهم، وقام بتعزية من كان حزيناً، وتقوية من كان ضعيفاً، وهداية من كان ضالاً منهم، وكانت حياته التعليمية كلها وصايا وإرشادات لهم تهدف إلى خيرهم وتؤلف بين قلوبهم، وتغرس فيهم المحبة بعضهم لبعض، والرحمة بعضهم على بعض، والإحسان من غنيهم على فقيرهم، والإنصاف من كبيرهم على صغيرهم. ولم يحدث فى يوم من الأيام أو فى لحظة من اللحظات أن أساء إلى أحد منهم أو إرتكب فى حقه خطأ أو خطيئة. بل لقد غفر

للمخطئين والخاطئين، وتسامح مع الحاقدين والحاسدين، ولم يستكبر حتى على الآثمين والأشرار منهم، وإنما خالطهم وأكل وشرب معهم ليعينهم على أن يثوبوا إلى رشدهم، ويتوبوا عن آثامهم وشرورهم، ويأوبوا إلى طريق البر والخير فيرثوا الحياة الأبدية التى أعدها للأبرار والأخيار. فلماذا بعد كل هذا يريدون أن يرجموه، وبسبب أى من هذه الأعمال الكريمة الرحيمة المليئة بالمحبة والسلام يريدون أن يقضوا عليه؟. وإذ لم يكن فى استطاعتهم أن ينسبوا إليه أى عمل شرير يبرر محاولتهم قتله، أجابوه قائلين «إننا نرجمك لا بسبب عمل حسن، وإنما بسبب التجديف. لأنك وأنت إنسان تجعل نفسك إلهاً». مما يدل على أنهم على الرغم من كل معجزاته الإلهية التى صنعها لهم، وكل كلمات الحكمة السماوية التى فاه بها على مسامعهم، وكل الحجج القويمة القوية الساطعة القاطعة التى ساقها إليهم ليثبت لهم إنه هو المسيح ابن الله، ظلوا كافرين به، منكرين له، مصرين على عدم إيمانهم بأنه هو ابن الله الذى تنبأ بمجيئه كل أنبيائهم، متهمين إياه بالضلال والتضليل، وزاعمين أنه مجرد إنسان، وأنه إذ يجعل نفسه إلهاً إنما يهرف ويجدف على الله ويستحق من أجل ذلك الموت على مقتضى شريعتهم التى تقضى بالموت على كل المجدفين. قال الإنجيل فى مرة سابقة «فاشتدت رغبة اليهود فى قتله، لأنه لم ينقض السبت فحسب، وإنما قال أيضاً: الله أبى، مساوياً نفسه بالله» (يوحنا ٥: ١٨) - انظر (فيلبى ٢: ٦).

ومن ثم أجابهم مخلصنا قائلاً: «أليس مكتوباً فى شريعتكم: أنا قلت إنكم آلهة؟ فإن كان يدعو أولئك الذين كانت إليهم كلمة الله آلهة، والكتاب لا يمكن نقضه، أفتقولون أنتم للذى قدسه الآب وأرسله إلى العالم إنك تجدف لأنى قلت إننى أنا ابن الله؟».

وهكذا ساق إليهم مخلصنا - لتفنيد ذلك الإتهام الذى وجهوه إليه - حجة مأخوذة من الكتاب المقدس نفسه، الذى لا يمكن لهم إنكاره أو المماراة فيه أو نقض ما ورد به، (انظر يوحنا ١٢: ٣٤)، (١٥: ٢٥)، (رومية ٣: ١٩)، (١٣: ١٠)، (١ - كورنثوس ١٤: ٢١) إذ جاء فى سفر المزامير قول الله لبنى البشر «أنا قلت إنكم آلهة وبنو العلى كلكم» (المزمور ٨١: ٦). فإن كان الله يصف بنى الإنسان جميعاً بأنهم آلهة، فهل يتهم اليهود مخلصنا بالتجديف لأنه قال عن نفسه إنه ابن الله وهو الذى قدسه الآب السماوى (لوقا ١: ٣٥) أى كرّسه وعيّنه (رومية ١: ٤)، (الأعمال ١٠: ٤٢)، وخصصه لخلاص العالم، فصار هو المعين لخلاص العالم (الأعمال٥: ٣١). إذ ليس بأحد غيره الخلاص (الأعمال ٤: ١٢)، ومن ثم صار هو «رئيس خلاصنا» (العبرانيين ٢: ١٠) الآتى من السماء من أجل خلاص العالم (يوحنا ٣: ١٧)، (٤: ٤٢)، (١١: ٢٧).

على أنه ما أعظم الفرق بين معنى «إله» فى قول المزمور «أنا قلت أنكم آلهة» وبين أن «المسيح إله». فكلمة «إله» إذا قيلت عن بشر، فهى بمعنى سيّد أو قاض أو رئيس أو صاحب

سلطان وسيادة على من هم دونه. وبهذا المعنى قال الرب الإله لموسى عن هرون أخيه «وهو (أى هارون) يكون لك فماً، وأنت تكون له إلهاً» (الخروج ٤ : ١٦). وبهذا المعنى قال الربّ لموسى عن فرعون ملك مصر، «انظر قد جعلتك إلهاً لفرعون، وهارون أخوك يكون نبيًّا» (الخروج ٧ : ١). فموسى جعله الرب إلها بالنسبة لهارون، وجعله إلهاً بالنسبة لفرعون، وإذن فموسى ليس إلهاً على الإطلاق، وبالتالى ليس هو الله إنما هو إله بالنسبة لشخص جعله الرب تحت أمره وتحت سلطانه. وبهذا المعنى المحدود لكلمة «إله» قال إكليمنضس الإسكندرى إنّ الله خلق الإنسان ليكون إلهاً، أى جعله إلهاً صغيراً، له السيادة على ما هو دونه من كائناتٍ حية وجامدة. ولعل إكليمنضس يهذا يفسر السلطان الذى منحه الله للإنسان ليحكم به الكائنات التى جعلها الله فى حيازته، وقال الله «لنصنع الإنسان على صورتنا كشبهنا، وليتسلط على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى البهائم وعلى كل الأرض وعلى جميع الدبابات التى تدب على الأرض... فخلق الله الإنسان على صورته، على صورة الله خلقه، ذكراً وأنثى خلقهم. وباركهم الله وقال لهم: انموا واكثروا.. واملأوا الأرض وأخضعوها، وتسلّطوا على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى كل حيوان يدب على الأرض» (التكوين ١ : ٢٦ و٢٧).

أما السيد المسيح فليس مجرد إله بهذا المعنى، إنما هو الإله الأزلى الأبدى. الألف والياء. البداءة والنهاية. الكائن الذى كان، الدائم إلى الأبد. والقادر على كل شيء (الرؤيا ١ : ٨)، (٢١ : ٦)، (٢٢ : ١٣) والذى قال «أنا والآب نحن معاً واحد» (يوحنا ١٠ : ٣٠). ولولا أنّ اليهود قد فهموا أن المسيح نسب إلى ذاته أنه من جوهر الآب ومن طبيعته، وأنه منه (يوحنا ٧ : ٢٩) وأنه كائن معه وفيه (يوحنا ١٤ : ١٠ و١١ و٢٠)، (١٧ : ٢١) لما التقطوا حجارة أكثر من مرة ليرجموه (يوحنا ١٠ : ٣١)، (٨ : ٥٩). ولمّا سألهم لماذا يرجمونه، أجابه اليهود قائلين «إننا نرجمك لا بسبب عملٍ حسن، وإنما بسبب التجديف. لأنك وأنت إنسان تجعل نفسك إلهاً» (يوحنا ١٠ : ٣٣).

إذن لقد فهموا معنى الألوهية هنا لا بالمعنى الذى قيل عن موسى بالنسبة إلى هارون أو بالنسبة إلى فرعون. كذلك قال الإنجيل فى موضع آخر: «فاشتدت رغبة اليهود فى قتله، لأنه لم ينقض السبت فحسب، وإنما قال أيضاً: الله أبى، مساوياً نفسه بالله» (يوحنا ٥ : ١٨). أى أن اليهود فهموا أن السيد المسيح له المجد لا ينسب إلى ذاته الألوهية بالمعنى المحدود والنسبى الذى قيل فى موسى وغيره (المزمور ٨١ : ١ و٦)، وإنما بالمعنى المطلق الذى لا ينسب إلا إلى الله الواحد وحده، وإلا لما كانوا يتهمونه بالتجديف، ومن ثم يبغون رجمه وقتله.

وما قلناه عن معنى «إله وآلهه» ينسحب على كلمة «ابن» في قول السيد المسيح له المجد عن نفسه «إنني أنا ابن الله» فهذه البنوة ليست من طراز تلك البنوّة التي قيلت في المزمور «أنكم آلهة وبنو العلى كلكم» فهذه البنوّة الأخيرة هي بنوّة نسبية كمل قيل في أولاد شيث بن آدم إنهم «بنو الله» (التكوين ٦ : ١) . وقــيل عن الملائكة إنهم «بنو الله» (أيوب ٢ : ١)، بمعنى أن هؤلاء منسوبون إلى الله بوصفه خالقهم من جهة، وبوصفهم عبيده المخلصين في عبادتهم له . وكذلك هناك نوع من البنوة من قبيل الإنعام كما قيل في (يوحنا ١ : ١٢) . أما بنوة المسيح له فهي أولا بنوة طبيعية، أي أن المسيح هو ابن الله بالطبيعة (لوقا ١ : ٣٥) . بالطبع لا بالوضع (يوحنا ٩ : ٣٥ و٣٧)، لأنه من ذات جوهره (يوحنا ٧ : ٢٩) وكائن في حضنه، أي في عمقه وفي ذاته (يوحنا ١ : ١٨) . ولذلك فهو الابن الوحيد الذي ليس له نظير في هذا النوع من البنوة (يوحنا ١ : ١٨)، (٣ : ١٦ و١٨)، (١ . يوحنا ٤ : ٩) . وقد فهم اليهود هذه البنوة بهذا المعنى الخاص حتى إنهم قالوا لبيلاطس مطالبين بموته «إنه على مقتضى شريعتنا يستحق الموت، لأنه جعل نفسه ابن الله» (يوحنا ١٩ : ٧) . والمسيح ابن الله لأنه «صورة الله الغير المنظور» (كولوسي ١ : ١٥) ولذلك فمن رآه فقد رأى الآب (يوحنا ١ : ١٨)، (١٤ : ٧ و٩)، (٦ : ٤٦) .

ثم ساق مخلصنا إلى اليهود حجة أخرى تفنّد اتهامهم له، قائلاً لهم «إن لم أكن أعمل أعمال أبي فلا تؤمنوا بي . ولكن إن كنت أعمل أعماله فإن لم تؤمنوا بي، آمنوا بالأعمال، لتعلموا وتعرفوا أنّي أنا في أبي، وأنّ أبي فيّ»، أي أن المعجزات التي يصنعها يعجز عن أن يصنع مثلها أي إنسان في أي مكان أو زمان، ولا يقدر عليها إلا الله وحده . وهذا ما قرره له المجد بنفسه إذ قال «لو لم أكن قد صنعت بينهم أعمالاً لم يصنعها أحد غيري لما كانت لهم خطيئة» (يوحنا ١٥ : ٢٤) . فهي أعمال تبرهن بذاتها وفي ذاتها بما لا يدع مجالاً للشك على أنها أعمال إلهية، وأن مخلصنا الذي يصنعها هو ابن الله . فكما أن الله الآب هو وحده القادر عليها، فإن الله الابن هو وحده القادر عليها كذلك، لأن الآب والابن كيان واحد وطبيعة واحدة . فإن كان اليهود لا يقتنعون ولا يؤمنون بأنّ مخلصنا هو ابن الله بسبب بساطة مظهره، تواضع مهنته، وعدم امتلاكه ما يمتلك الملوك والقادة والرؤساء والأغنياء من أموال طائلة ومن أسباب الوجاهة والجاه، فليقتنعوا وليؤمنوا بالمعجزات التي يصنعها، والتي يعجز عن أن يصنع واحدة منها كل ملوك الأرض وقادتها ورؤسائها وأغنيائها، لأنهم عندئذ يقتنعون ويؤمنون بأن مخلصنا الذي هو صانع تلك المعجزات هو ابن الله وهو الله ذاته، لأن العلاقة بين ابن الله وبين الله أبيه هي علاقة الذات بذاتها . فالابن بكل كيانه في الآب، والآب بكل كيانه في الابن (يوحنا ١٤ : ١٠

و١١ و٢٠) ، (١٧: ٢١ و٢٣) ، على مقتضى طبيعة الله الفريدة الفذّة الفائقة التى تتسامى أعظم التسامى وأعمق التسامى عن أن يدرك حقيقتها العقل البشرى المحدود إلى أبعد الحدود، والذى يرسف بطبيعته المادية الأرضية فى سلسلة لا إنتهاء لها من الأغلال والقيود. قال السيد المسيح له المجد: «أما أنا فلى شهادة أعظم من شهادة يوحنا، لأن الأعمال التى أعطانى أبى لأنجزها، تلك الأعمال التى أنا أعملها هى نفسها التى تشهد لى» (يوحنا ٥: ٣٦).

ولكن اليهود على الرغم من تلك الحجج الرائعة المقنعة التي ساقها إليهم مخلصنا ليؤمنوا بأنه هو المسيح ابن الله الذى ينتظرونه، عجزوا - بغبائهم وسواد قلوبهم وعمى أبصارهم وبصائرهم (يوحنا ٩: ٣٩- ٤١) وسيطرة الحقد والحسد على أفكارهم ومشاعرهم (متى ٢٧: ١٨) - عن أن يدركوا تلك الحقيقة السمائية السامية التي أعلنها لهم، وأرادوا مرة أخرى أن يمسكوه ليقتلوه (انظر يوحنا ٧: ٣٠ و٤٤) ، (٨: ٥٩) ، بدعوى تجديفه على الله، إذ قرر أنه هو ابن الله، ولكنه خرج من أيديهم، إذ اختفى بطريقة معجزية عن أبصارهم، أو لعلّ هيبته الإلهية حالت بينهم وبين أن يلقوا أيديهم عليه وهم يرونه ينصرف عنهم. ثم عاد إلى الضفة الأخرى لنهر الأردن، حيث كان يوحنا يعمد من قبل (يوحنا ١: ٢٨) ، ومكث هناك. وإذ كان الذين شهدوا معجزاته، ولا سيما الذين سبق لهم أن سمعوا شهادة يوحنا عنه (يوحنا ٣: ٢٦- ٣٠) ، (١: ٢٧ و٢٩ و٣٠- ٣٤) . لا يفتأون يتحدثون عنه ويتبعونه حيث يمضى، أتى كثيرون منهم إلى الموضع الذى ذهب إليه وهم يقولون فيما بينهم «إن يوحنا لم يصنع أى معجزة، ولكن كل ما قاله عن هذا كان حقاً» . ومن ثم آمن به كثيرون هناك، مبرهنين بذلك على أنهم كانوا أكثر من أولئك الذين أنكروه ذكاء عقل وصفاء نفس ونقاء سريرة، وتجرداً من كل حقد وحسد وغيرة، وابتعاداً عن كلّ ما يفسد الشعور والتفكير. وفى أكثر من موضع نجد أن كثيرين من اليهود بل من الرؤساء أيضاً كانوا يؤمنون به (انظر يوحنا ٧: ٣١) ، (٨: ٣٠) ، (١١: ٤٥) .

الفصل الحادى عشر

١١ : ١ – ١٦

مرض لعازر وموته :

وكان ثمة بالقرب من أورشليم قرية اسمها بيت عنيا (متى ٢١ : ١٧)، (٢٦ : ٦)، (مرقس ١١ : ١ و١١ و١٢)، (١٤ : ٣)، (لوقا ١٩ : ٢٩)، (٢٤ : ٥٠)، (يوحنا ١٢ : ١)، تقيم بها أسرة كان أفرادها يؤمنون بمخلصنا له المجد، فكان هو يحبهم ويأتمنهم ويستريح فى دارهم حين يكون قاصداً أورشليم أو عائداً منها، ولا يفتأ كلما مرَّ بهم يغرس فيهم تعاليمه ليكونوا من صفوة تلاميذه . وكانت تلك الأسرة مكونة من رجل اسمه لعازر، ومن أختيه اللتين كان اسمهما مريم ومرثا (انظر لوقا ١٠ : ٣٨ و٣٩) . وقد بلغ من إيمان مريم بمخلصنا أنها فى إحدى المرات الأخيرة، كانوا قد أقاموا له في بيت سمعان الأبرص هناك فى بيت عنيا وليمة عشاء، فأخذت قارورة سعتها مائة درهم من طيب الناردين الغالى الثمن ثم سكبته على رأسه وهو جالس إلى مائدة الطعام، ثم دهنت قدميه ومسحتهما بشعر رأسها . ولعلها أرادت بذلك أن تعبِّر عن إمتنانها وشكرها للرب يسوع المسيح الذى أقام أخاها لعازر من بين الأموات (انظر متى ٢٦ : ٦ – ١٣)، (مرقس ١٤ : ١ – ٩)، (يوحنا ١٢ : ٣ – ٨) .

وقد حدث أن لعازر مرض مرضاً شديداً فأرسلت أختاه مرثا ومريم إلى مخلصنا قائلتين «يارب هوذا الذى تحبه مريض» . فلما سمع مخلصنا ذلك النبأ قال «إن هذا المرض ليس مرضاً للموت، بل لأجل مجد الله . كى يتمجد ابن الله به» . وقد كانت الأختان تهدفان من رسالتهما تلك إلى مخلصنا ـ بسبب إيمانهم بقدرته الإلهية ـ إلى أن يجىء ليشفيه . ولكن مخلصنا كان يهدف إلى غاية أخرى، إذ كان يعلم أن هذا المرض الذى أصاب لعازر لم يكن المقصود منه فى حكمة الله وتدبيره أن ينتهى إلى الموت، كأىِّ مرض يصيب الإنسان تمهيداً لموته، وإنما قد رتبت العناية الإلهية هذا المرض كوسيلة للإعلان عن قدرة الله ومجده على يد مخلصنا ابن الله، وإعلانا فى الوقت نفسه عن قدرة مخلصنا ليؤمن بنو البشر أنه هو ابن الله، فيتمجد مخلصنا ابن الله بهذه القدرة التى لا تتأتى إلا لله الواحد وحده . وقد قال له المجد مثل ذلك عن المولود أعمى إنه ولد كذلك «لكى تظهر فيه أعمال الله» (يوحنا ٩ : ٣) . ومن ثم فإن مخلصنا ـ على الرغم من أنه كان يحب مرثا ومريم ولعازر أخاها ـ حين سمع أن لعازر مريض لبث فى الموضع الذى كان فيه يومين، لا تهاوناً منه نحو ذلك الذى كان يحبه، ولا تباطؤاً فى تلبية نداء أختيه اللتين كانتا تلميذتين له، وإنما تمهيداً للتدبير الإلهى كى يصنع واحدة من أعظم معجزاته

إن لم تكن أعظمها جميعاً، ليبرهن على قدرة لاهوته، ويظهر مجده بوصفه ابن الله. «صورة الله الغير المنظور» (كولوسي ١ : ١٥)، «لكي يتمجد الآب في الابن» (يوحنا ١٤ : ١٣). «ومجد الابن هو مجد الله الآب لأنه منه (يوحنا ٧ : ٢٩)، إذ قال له المجد «جميع ما هو للآب فهو لي» (يوحنا ١٦ : ١٥)، (١٧ : ١٠).

وهنا نلاحظ قول الإنجيل «وكان يسوع يحب مرثا ومريم أختها ولعازر»، وعندما أرسلت الأختان إلى الرب يسوع ليأتي كي يشفي لعازر قالت له عبارة مقتضبة «هوذا الذي تحبه مريض»، إن هذا التعبير عن محبة المسيح له المجد لهذه الأسرة، هذه المحبة الخاصة التي استحقت أن ينوه عنها الإنجيل لابد أن تكون أساسها أن المسيح له المجد قد وجد في أعضاء هذه الأسرة صفات استحقت شرف محبته. أما مرثا فكانت فتاة تتفانى في خدمته له المجد (يوحنا ١٢ : ٢)، وتبذل جهدها ونفسها بذلاً في سبيل الترحيب به (لوقا ١٠ : ٣٨)، وإعداد الطعام والمائدة التي يجلس إليها مع الناس الذين يحدثهم عن ملكوت الله. وكانت هي نفسها تتمتع بالإستماع له في أثناء الإعداد للطعام وما بعده، ولقد ظهر منها ما يدل على استفادتها من تعليمه فيما يتعلق بالقيامة العامة، بدليل قولها عن أخيها لعازر «أنا أعلم أنه سيقوم في القيامة في اليوم الأخير» (يوحنا ١١ : ١٤)، وقولها «إنني أومن بأنك أنت المسيح ابن الله الآتي إلى العالم» (١١ : ٢٧). وأما مريم فهي التي كانت تجلس عند قدميه تستمع إلى كلامه. وقد أثنى الرب يسوع عليها ووصفها بأنها «قد اختارت مريم النصيب الصالح الذي لن ينزع منها» (لوقا ١٠ : ٣٩ و٤٢). وأما لعازر فلابد أنه كان لا يستمع فقط (يوحنا ١٢ : ٢)، وإنما كان نموذجاً للشاب والرجل العامل بما يسمع، ولذلك استحق أن «يحبه» المسيح كما قالت الأختان، وهو تعبير نادر، ولا يمكن أن يوصف به إلا إنسان تميز بصفات وفضائل يراها فيه المسيح فيحبه من أجلها. وقد قال عنه بفمه «إن لعازر حبيبنا قد نام» (١١ : ١١).

ثم قال مخلصنا لتلاميذه بعد ذلك «لنعد إلى اليهودية» حيث كانت مدينة بيت عنيا على جبل الزيتون بالقرب من أورشليم، فقال له تلاميذه «يا معلم إن اليهود كانوا يبتغون أن يرجموك، أفتذهب الآن إلى هناك؟». وكان لقب المعلم - وبالعبرانية رابي - يكنى به عن أعلى مراتب العلم والأستاذية، لأنه كان يعني العالم أو العلامة، وهو يقابل في المصطلح الجامعي الحديث لقب الأستاذ أو الدكتور. فأجاب مخلصنا قائلا «أليس في النهار اثنتا عشر ساعة؟ فإن مشى أحد في النهار لا يعثر لأنه يرى نور هذا العالم، وأما إن مشى في الليل فإنه يعثر لأنه ليس فيه النور». وقد برهن التلاميذ بما قالوه لمعلمهم على حبهم له، وخوفهم عليه من أن يقتله أعداؤه من اليهود (انظر يوحنا ١٠ : ٣١) في إقليم اليهودية الذي كانت عاصمته أورشليم. وكانت بيت عنيا التي كان لعازر يقيم فيها مع أختيه إحدى ضواحي أورشليم. ولكن مخلصنا أجاب عن تساؤل تلاميذه

بما يعنى أنه ينبغى أن يعمل الأعمال التى جاء لينجزها فى هذا العالم قبل أن يرتفع عنه إلى السماء (لوقا ١٣ : ٣٣) . لأنه طالما هو فى العالم فهو نور العالم (يوحنا ٩ : ٥) ، (١٢ : ٣٥ و٤٦) الذى هو بمثابة نور النهار بالنسبة لبنى البشر الذين ينجزون أعمالهم فى أثناء النهار، وخلال مدته التى تمتد اثنتى عشرة ساعة، يمشون وينتقلون من مكان إلى آخر فى أمان واطمئنان إلى أنهم لن يعثروا. أما بعد أن يرتفع مخلصنا إلى السماء فلا تعود ثمة فرصة لبنى البشر كى يروا أعمال قدرته، وكى يسيروا فى حياتهم على هدى نوره . فيكونوا كمن يمشى فى ظلام الليل، فلا يلبث أن يتعثّر ويسقط لأن الظلام يكتنفه من حواليه وفى داخله، ولأنه بسبب هذا الظلام يغدو أعمى البصر والبصيرة، فهو عاجز عن أن يتجنب الخطأ فى خطواته، كما أنه عاجز عن أن يتجنب الخطيئة فى أفعاله وتصرفاته.

قال مخلصنا هذا لتلاميذه، ثم بعد ذلك قال لهم: «إنّ لعازر حبيبنا قد نام، ولكننى سأذهب لأوقظه». ولم يكن مخلصنا يعنى بالنوم هنا نوم الرقاد وإنما كان يعنى نوم الموت. لأنه كان يعلم أن لعازر قد مات بالفعل. ويدل ذلك على أن الموت ليس إلا صورة من صور النوم يستيقظ بعده الإنسان فى العالم الآخر كما يدل على أن النوم ليس إلا صورة من صور الموت الذى تفتر فى أثنائه الإحساسات الجسدية للإنسان وتستريح روحه من عناء المطالب الأرضية حتى يستيقظ مرة أخرى، ثم يتكرر هذا على الأرض حتى النوم الأخير الذى هو الموت. وليست هذه هى المرة الوحيدة التى يصف فيها المسيح له المجد الموت بأنه نوم. فقد قال عن ابنة يايروس، وكانت قد ماتت وكان الجميع يبكون عليها ويندبونها «لا تبكوا، فإنّ الصبية لم تمت ولكنها نائمة» (لوقا ٨ : ٥٢) ، (متى ٩ : ٢٤) ، (مرقس ٥ : ٣٩) . انظر أيضاً (التثنية ٣١ : ١٦) ، (دانيال ١٢ : ٢) ، (متى ٢٧ : ٥٢) ، (الأعمال ٧ : ٦٠) ، (١٣ : ٣٦) ، (١ . كورنثوس ١٥ : ٦ و١٨ و٥١) ، (١ . تسالونيكى ٤ : ١٦) .

ومن ثم فإن مخلصنا قرر أن يذهب إلى لعازر كى يوقظه من نوم الموت ويعيده إلى الحياة. ولكن التلاميذ اعتقدوا أنه يحدثهم عن نوم الرقاد. وأن لعازر لم يمت وإنما نام فقط كما ينام الناس للراحة والاستجمام، ومن ثم قالوا له «إن كان قد نام فإنه يقوم». فقال لهم مخلصنا صراحة «إن لعازر قد مات. وأنا أفرح من أجلكم ـ إذ لم أكن هناك ـ لتؤمنوا. ولكن هلموا نذهب إليه». وهكذا أعلن مخلصنا الحكمة التى توخاها من إبطائه فى الاستجابة لمريم ومرثا حين أخبرتاه أن لعازر مريض، وتضرعتا إليه أن يأتى ليشفيه. فقد تعمد له المجد ألا يذهب حينذاك لكى يموت لعازر ويظل دفين القبر أربعة أيام حتى تتحلل جثته كى يذهب عندئذ ويصنع معجزته الإلهية

العظيمة فيقيمه من بين الأموات. وكان هذا ما يعنيه له المجد حين قال لتلاميذه «إنَّ هذا المرض ليس مرضاً للموت، بل لأجل مجد الله. كى يتمجد ابن الله به». أى ليرى تلاميذه وسائر الناس هذه المعجزة فيؤمنوا بقدرة الله الآب وسلطانه، وبأن مخلصنا هو ابن الله الذى له نفس قدرة الآب وسلطانه. فيتمجد الآب فى الابن (يوحنا ١٤ : ١٣)، ويتمجد الآب بالابن (يوحنا ١٢ : ٢٨). وقد فرح مخلصنا من أجل تلاميذه، لأنهم سيرون هذه المعجزة فيتوطد إيمانهم به، فى حين أنه لو كان قد ذهب إلى لعازر وهو فى حالة مرضه فحسب، ما كانت قد أتيحت هذه الفرصة للتلاميذ كى يروا تلك المعجزة. وإذ قال مخلصنا «هلموا نذهب إليه»، قال تلميذه توما (متى ١٠ : ٣)، (مرقس ٣ : ١٨)، (لوقا ٦ : ١٥)، (يوحنا ١٤ : ٥)، (الأعمال ١ : ١٣)، الملقب ديديموس (يوحنا ٢٠ : ٢٤)، (٢١ : ٢) للتلاميذ رفاقه «لنذهب نحن أيضاً كى نموت معه»، فأوضح بهذا القول مدى محبته ومحبة سائر التلاميذ لمعلمهم، حتى إنهم كانوا على استعداد لأن يتعرضوا لأى خطر يتعرض هو له حين يذهب إلى إقليم اليهودية، ولو كان هذا الخطر هو الموت.

١١ : ١٧ - ٢٧

مجىء المسيح إلى بيت عنيا وحديثه مع مرثا:

فلما جاء مخلصنا إلى بيت عنيا كان لعازر قد مات وظل جثمانه فى القبر أربعة أيام. وكانت بيت عنيا قريبة من أورشليم على بعد نحو خمس عشرة غلوة منها، وكان كثيرون من اليهود قد جاءوا إلى مرثا ومريم ليعزوهما عن أخيهما، فما سمعت مرثا أن معلمنا قادم حتى خرجت تستقبله (انظر لوقا ١٠ : ٣٨). وأما مريم فلبثت قاعدة فى البيت. وقالت مرثا لمعلمنا «يارب لو كنت هنا ما كان أخى قد مات. ولكننى مازلت أعلم أن كل ما تطلب من الله يعطيك الله إياه». وقد برهنت مرثا بقولها هذا على مدى معرفتها لحقيقة شخصية مخلصنا وقوة إيمانها بقدرته الإلهية، وبأنه قادر على أن يقيم أخاها من موته حتى بعد أن مات، ويعيد الحياة إليه. وبالفعل قال لها مخلصنا «سيقوم أخوك». بيد أن مرثا أرادت أن تسمع منه كلمة توطد إيمانها بقدرته على أن يصنع هذه المعجزة التى تفوق كل عقل وتتجاوز كل خيال، فقالت له «أنا أعلم أنه سيقوم فى القيامة فى اليوم الأخير»، مبرهنة بهذا على أنها قد استفادت حقاً من تعليم السيد المسيح له المجد فيما يتعلق بحقيقة القيامة العامة لجميع الناس فى نهاية هذا الدهر، وأن هذا التعليم صار عندها عقيدة ثابتة لا ينالها الشك من بين يديها ولا من خلفها. فقد قال السيد المسيح له المجد «تأتى ساعة يسمع فيها كل الذين فى القبور صوته. فيخرج الذين عملوا الصالحات إلى قيامة الحياة، والذين عملوا السيئات إلى قيامة الدينونة» (يوحنا ٥ : ٢٨ و٢٩) وانظر أيضاً (لوقا ١٤ : ١٤)، (الأعمال ٢٣ : ٦)، (٢٤ : ١٥)، (٢٦ : ٨)، (دانيال ١٢ : ٢).

فقال لها مخلصنا «أنا هو القيامة والحياة. من آمن بي وإن مات فسيحيا. وكل من كان حياً وآمن بي فلن يموت إلى الأبد». أي أن مخلصنا هو مصدر القيامة من الموت وصانعها بموته عن البشر وقيامته هو نفسه بقدرته الذاتية من بين الأموات. فهو أقام ذاته بسلطان لاهوته. ولم يقف أحد على قبره ليقيمه من بين الأموات، بل قام والقبر مغلق ليبرهن على أنه ليس للموت سلطان عليه أن يمسكه. وعلى أنه هو أيضاً صاحب السلطان على أن يقيم الموتى ويحييهم في الحياة الحاضرة وفي اليوم الأخير. وذلك فيما يعرف بالقيامة العامة. قال له المجد: «لأنه كما أن الآب يقيم الموتى ويحييهم، هكذا الابن يحيي من يشاء» (يوحنا ٥: ٢١)، (لوقا ٧: ١٤)، (٨: ٥٤) وقال أيضاً «من يأكل جسدي ويشرب دمي فله الحياة الأبدية، وأنا أقيمه في اليوم الأخير» (يوحنا ٦: ٥٤) - وانظر أيضاً (يوحنا ٥: ٢٦)، (٦: ٣٩ و٤٠ و٤٤).

كما أن مخلصنا هو الحياة ذاتها (يوحنا ١٤: ٦)، (كولوسي ٣: ٤)، (١. يوحنا ٥: ٢٠)، ومصدر الحياة، ومنشيء الحياة، وصانع الحياة، ومبدئ الحياة، فهو الخالق للحياة في البدء. لأن «كل شيء به كان، وبغيره لم يكن شيء مما كان» (يوحنا ١: ٣) وهو «خبز الحياة» (يوحنا ٦: ٣٥ و٤٨ و٥١). وهو المعيد إلى الحياة كل الأموات في اليوم الأخير (يوحنا ٦: ٣٩ و٤٠ و٤٤ و٥٤). فبواسطته كانت الحياة. و «فيه كانت الحياة» كما يقول الإنجيل (يوحنا ١: ٤). وهنا نتساءل: هل يجرؤ نبي أو رسول أن يقول عن نفسه «أنا هو القيامة والحياة»؟ لو لم يكن المسيح هو الله لكان مجدفاً على الله. فمن آمن بمخلصنا وإن مات فسيحيا. إذ أن مخلصنا بموته على الصليب قد أحيانا (١. يوحنا ٤: ٩) نحن الموتى بالخطيئة، لأنه كفّر بموته عن خطايانا. فبعد أن كنا أمواتاً بالخطيئة أصبحنا أحياء بالصليب وبالإيمان بذلك الذي مات عنا على الصليب (رومية ٦: ٨) - ولئن رقدنا رقاد الموت إننا أحياء به وفيه (العبرانيين ١٢: ٩). فلا يلحق الموت إلا بأجسادنا، وأما أرواحنا فتحيا في ملكوت السموات (٢. كورنثوس ١٣: ٤) (٢. تيموثيئوس ٢: ١١)، بل إن أجسادنا ذاتها التي لحق بها الموت في الأرض سيقيمها مخلصنا في يوم للقيامة فتحيا في السماء، وكل من كان حياً وآمن بمخلصنا وإن مات موت الجسد، فإنه لن تموت روحه أبداً. وإنما سيحيا روحاً وجسداً إلى الأبد. فقد قال له المجد: «الحقّ الحقّ أقول لكم إنّ من يؤمن بي فله الحياة الأبدية» (يوحنا ٦: ٤٧)، (٣: ١٥ و١٦ و٣٦)، (٦: ٤٠)، (رومية ٨: ١٣)، (١. يوحنا ٥: ١٢).

وقد قال مخلصنا ذلك لمرثا ثم سألها قائلاً «أتؤمنين بهذا؟» قالت له «نعم ياربّ إنني أومن بأنك أنت المسيح ابن الله الآتي إلى العالم». وقد صادقت بهذا على هذه الحقيقة اللاهوتية

العظمى، وهى «الصخرة» التى بنيت عليها كنيسة المسيح (متى١٦ : ١٦)، (١٤ : ٣٣)، (٤ : ٣)، (مرقس ١ : ١)، (٦ : ٦٩)، (٩ : ٣٥ – ٣٨)، وقد كانت مرثا تعنى بقولها هذا أنها مادامت قد آمنت بأن مخلصنا هو المسيح ابن الله الذى تنبأ الأنبياء بأنه سيأتى إلى العالم، فإن هذا يتضمن فى ذاته أنه هو القيامة والحياة. وأنه قادر على أن يقيم الموتى ويعيد إليهم الحياة. وبالتالى أنه قادر على أن يقيم أخاها لعازر بعد أن مات منذ أربعة أيام. وأن يعيد إليه الحياة. مهما بدا ذلك للعقل البشرى مستحيلاً وبعيداً كل البعد عن التصديق.

١١ : ٢٨ - ٤٤

إقامة لعازر من الموت:

وبعد هذا ذهبت مرثا ودعت مريم أختها سراً وقالت لها «قد حضر المعلم وهو يدعوك» (انظر متى ٢٦ : ٨)، (مرقس ١٤ : ١٤)، (لوقا ٢٢ : ١١) (يوحنا ١٣ : ١٣). وقد حرصت على أن تكتم هذا السر عن الموجودين مع أختها، إما خوفا من إحراج المعزّين لو أنها أنبأتها بالأمر بصوت مرتفع، مما قد يضطرهم إلى الخروج من البيت، أو لأنها كانت تعلم أن رؤساء اليهود يضمرون الشر لمعلمنا. ولو أنهم علموا بحضوره إلى إقليم اليهودية لعملوا على قتله. فما إن سمعت مريم قول أختها حتى نهضت مسرعة وجاءت إليه. ولم يكن قد بلغ القرية بعد. وإنما كان لا يزال فى الموضع الذى لاقته فيه مرثا. فلما رأى اليهود الذين كانوا مع مريم فى البيت يعزونها أنها نهضت مسرعة وخرجت، تبعوها معتقدين أنها ذاهبة إلى القبر لتبكى هناك. وأما مريم فحين جاءت إلى حيث كان مخلصنا ورأته خرّت عند رجليه قائلة له «يارب لو كنت ههنا ما كان أخى قد مات»، مما يدل على أنها هى الأخرى كانت تؤمن إيماناً قوياً وصادقاً بأن هذا هو المسيح ابن الله، وأنه كان قادراً على أن يشفى أخاها لو أنه جاء قبل موته. فلما رآها مخلصنا تبكى، ورأى اليهود الذين جاءوا معها أيضاً يبكون مشاركة لها ولشقيقتها فى حزنهما، تألم بالروح واضطرب، وقال لهم «أين وضعتموه؟». قالوا له «يارب تعال وانظر». وعندئذ بكى مخلصنا. فقال اليهود «انظروا كم كان يحبه!». وهنا نلمس ذلك التوازن العجيب بين شخصية السيد المسيح الإنسانية وشخصيته الإلهية. فعلى الرغم من أنه كان عالماً بأنه سيقيم لعازر من الموت، وإن كان قد ظل فى القبر أربعة أيام، وعلى الرغم من أنه كان على ثقة لاريب فيها من قدرته الإلهية على ذلك، نجده يبدى أرفع وأرق المشاعر التى يمكن أن تصدر عن إنسان أمام فاجعة موت حبيب له، وأمام تفجّع ذويه عليه. فبعد أن قال لتلاميذه «إن لعازر حبيبنا قد نام، ولكننى سأذهب لأوقظه»، لم يلبث حين ذهب وجاءت إليه مريم أخت لعازر مرتاعة هالعة

باكية أن «تألم بالروح واضطرب»، ثم «بكى». والتألم بالروح والاضطراب، حدث مثله أكثر من مرة (انظر يوحنا ١٢ : ٢٧)، (١٣ : ٢١)، ثم الانفعال بالبكاء ومثله بكاؤه على أورشليم (لوقا ١٩ : ٤١). هو برهان على حقيقة إنسانيته التي إتخذها وهو الإله. فلم تكن إنسانيته مجرد جسد بلا روح إنسانية كما زعم أبوليناريوس، وإنما كانت إنسانية كاملة من روح وجسد. ولم تكن إنسانيته أو ناسوته مجرد شكل خارجي بمثابة سكن للاهوته على مازعم نسطور. إنما كانت إنسانيته إنسانية حقيقية بينها وبين لاهوته اتحاد حقيقي كامل وتام، اتحاد في أقنوم واحد وطبيعة واحدة لا تقبل الافتراق أو الإنقسام أو التجزئة، مثلها مثل اتحاد الروح بالجسد في الإنسان من حيث هو اتحاد كامل وتام، وليس مجرد جمع أو ضم بين جوهرين من طبيعتين مختلفتين، بحيث إن ما تنفعل به الروح ينفعل به الجسد حالاً وعلى الفور وفي نفس الوقت، بطبيعة الاتحاد الكائن بينهما. ومثله مثل الكتلة من الحديد المتوهج بالنار لمدة طويلة بحيث تصبح الرابطة بينهما ليست مجرد جمع أو ضم بين شيئين مختلفين، وإنما إتحاد حقيقي كامل، بحيث لا يمكن أن يفصل بين النار والحديد بآلة قطع حادة، فقد اتحد الحديد بالنار والنار بالحديد اتحاداً بموجبه صارت الكتلة المتوهجة بالنار تتصف بخصائص الحديد من حيث الكتلة والوزن والحجم، وخصائص النار من حيث التوهج والإضاءة والإحراق، ولكن من غير اختلاط أو امتزاج أو تغيير، فلم يفقد الحديد طبيعته ولا فقدت النار طبيعتها. وإنما صار الحديد مع النار طبيعة واحدة من طبيعتين. هكذا اللاهوت اتحد بالناسوت في طبيعة واحدة لها خصائص للاهوت والناسوت معاً.

أما سؤاله «أين وضعتموه؟» فلم يكن سؤالاً على بسيط الحال. إنما كان تنبيهاً إلى أنه ليس هناك تواطؤ بينه وبين أسرة لعازر، وأنه لم يكن حاضراً بالجسد موت لعازر ولم يشهد جنازته، ولا رأى دفنه أو مكان دفنه، وهو توكيد لما سبق أن قاله لتلاميذه، وهو في عبر الأردن على مسيرة يومين من بيت عنيا: «وأنا أفرح من أجلكم، إذ لم أكن هناك، لتؤمنوا» (١١ : ١٥). فقد كان لابد لإظهار روعة المعجزة، وبالتالي إعلان مجد لاهوته، أن يبقى بعيداً عن بيت عنيا إلى أن مات لعازر، وصار له في القبر أربعة أيام، حتى لقد شهدت أخته قائلة «إنه قد أنتن». فسؤاله «أين وضعتموه؟» تثبيت في أذهان اليهود الذين شهدوا المعجزة الرائعة أنه كان بعيداً بالجسد عن الموقع كله وعن واقعة الموت وما قبل الموت وما بعد الموت، حتى إذا أقام لعازر من الموت بسلطان لاهوته تبين اليهود شهود المعجزة أن المعجزة كانت حقيقية وكاملة وفوق كل شبهة شك، وأنها بعيدة تماماً عن كل تدبير بشري.

ولا نستطيع أن نقرأ قول الإنجيل «بكى يسوع» دون أن نتوقف لنتساءل هل كان بكاؤه لمجرد إبراز إنسانيته، أو كان حزناً وأسى على خليقته التي دخل إليها الموت بكل متاعبه ومضايقاته، وذلك نتيجة للخطيئة (التكوين ٢ : ١٧)، (١ . كورنثوس ١٥ : ٥٦)(رومية ٥ : ١٢). فأفسد

صورتها الجميلة، وأطفأ نورها (يعقوب ١ : ١٥) . أو كان بكاؤه أيضاً إذكاءً لفضيلة المشاركة الوجدانية بين الناس المبلوين والمجربين والمتألمين، «بكاء مع الباكين» (رومية ١٢ : ١٥)، أو لهذه الأسباب جميعها مجتمعة معاً؟ إنه تعليم لنا أن نشارك الناس آلامهم، وهذا هو قمة الإنسانية، متمثلة في المسيح بصفته آدم الثاني، آدم النموذج الأعلى للإنسانية، «تاركاً لنا مثالاً لكي تتبعوا خطواته» (١ . بطرس ٢ : ٢١) .

وقد كان لهذه القدرة الإلهية الجليلة، ولهذه المشاعر الإنسانية النبيلة أعظم الأثر في اليهود، حتى لقد قال بعض منهم «أما كان هذا الذي فتح عيني الأعمى منذ ولادته قادراً على أن لا يترك هذا أيضاً يموت؟» . وكان هذا القول منهم أوضح وأفصح دليل على أنهم آمنوا بحقيقة شخصيته، كما آمنوا بمدى قدرته، حتى لقد أدهشهم بكاؤه على حبيبه الذي مات، مع أنه كان قادراً على أن يشفيه قبل أن يموت . كما أنه قادر على أن يقيمه بعد أن مات . ولقد برهن قولهم هذا على انبهارهم بمعجزة المولود أعمى، وأنها لم تكن مجرد شفاء كغيرها من معجزات شفاء العميان الآخرين . وإنما كانت معجزة «خلق» لعينين من الطين لرجل لم تكن له عينان في موضع العينين، وهو ما لا يستطيعه نبي أو رسول، ولا يستطيعه إلا الله الخالق وحده .

وإذ رأى مخلصنا هذه العواطف الحزينة الجياشة التي أبدتها الأختان لموت أخيهما الحبيب، تحنن في نفسه وجاء إلى القبر، وكان مغارة قد وضع على بابها حجر (انظر متى ٢٧ : ٦٠)، (مرقس ١٥ : ٤٦)، (لوقا ٢٤ : ٢)، (يوحنا ٢٠ : ١) فقال مخلصنا للواقفين هناك «ارفعوا هذا الحجر» . وعندئذ فزعت مرثا ونسيت إيمانها بقدرة مخلصنا، ذلك الإيمان الذي اعترفت به منذ لحظة قصيرة، وقالت «يارب، إنه قد أنتن لأن هذا هو يومه الرابع»، وكان الذي أفزعها أنها تخيلت جثمان شقيقها وقد تحلل وراح الدود يرعى فيه كما يحدث لكل ميت في يومه الرابع . فقال لها مخلصنا «ألم أقل لك أنك إن آمنت ترين مجد الله؟» . ثم رفعوا الحجر عن باب القبر ورفع مخلصنا عينيه إلى فوق وقال «يا أبتاه أشكرك لأنك قد سمعت لي، وأنا عالم أنك تسمع لي في كل حين . وإنما قلت ذلك من أجل هذا الجمع الواقف حولي، ليؤمنوا بأنك أنت الذي أرسلتني» . وهنا نرى دليلاً على أن الهدف الأول الذي كان يهدف إليه مخلصنا من المعجزات التي كان يصنعها هو أن يعطي لليهود دليلاً محسوساً وملموساً على أنه هو المسيح ابن الله الذي تنبأ بمجيئه الأنبياء، فيتبينوا حقيقة شخصيته ويؤمنوا به على هذا الوصف . ولعل مما يؤيد ذلك أنه صنع كل المعجزات بسلطانه هو . لأنه هو باعتباره ابن الله، له كل ما لله الآب من القدرات ومن كل الصفات الإلهية، إذ يقول هو نفسه «جميع ما هو للآب فهو لي» (يوحنا ١٦ : ١٥)،

١٦: ١٠)، إذ أنه كائن معه في وحدانية كاملة. ولكنه لكي يثبت لليهود هذه الحقيقة خاطب أباه السماوي على مشهد ومسمع منهم، بما يفيد أن كل ما يصنعه إنما يصنعه بالاتفاق مع أبيه، لأن إرادتهما واحدة ومشيئتهما واحدة، وتدبيرهما واحد. وليس هناك خصومة بينهما، فهو لم يأت ليعلن عن نفسه إلهاً ثانياً، أو إلهاً آخر، لأن الله واحد. فلئن كان الله الآب قد أرسل الله الابن لينجز عمل الفداء لغفران خطايا البشر، وإن الإرسال هنا لا يفيد الانفصال، إذ أنهما ظلاّ مع ذلك في اتحاد كامل ووحدة كاملة. وهذا سر من أسرار اللاهوت والطبيعة الإلهية لا يمكن للعقل البشري المحدود أن يسمو إلى كنهه غير المحدود. لهذا حرص الرب يسوع المسيح على أن يعلن دائما عن ذاته أنه مرسل من الآب وأن الآب أرسله توكيداً وضماناً لحقيقة الوحدانية الإلهية، وأن الله واحد. على أن الإرسال الذي ينسبه السيد المسيح إلى ذاته بالنسبة للآب ليس إرسالاً من خارج الذات الإلهية على نحو إرسال الله للأنبياء. لكنه إرسال من داخل ومن باطن كإرسال الشمس لأشعتها والضوء أو النور النابع منها. فهو منها منذ كانت الشمس شمساً وهو لا ينفصل عنها بل هو منها وفيها وبها ومعها دائماً بغير افتراق.

مرة أخرى نؤكد أن السيد المسيح له المجد إذ صلى على قبر لعازر، لم يصلّ صلاة الطلب، لكي يسأل الآب أن يهبه سلطاناً ليس له كما يفعل الأنبياء، وإنما كانت صلاته مناجاة بينه وبين الآب على مرأى ومسمع من الناس ومن تلاميذه ليتبين الجميع علاقته الوطيدة بالآب وكيانه فيه (يوحنا ١٢: ٣٠). على أنه عندما أقام لعازر من الموت أقامه بسلطانه الإلهي. إذ قال «لعازر هلمّ خارجاً»، فلم يطلب ذلك من الآب، وكذلك بالنسبة لجميع معجزاته لم يصلّ ليطلب قوة خارجة عن ذاته، بل كانت القوة تخرج منه (لوقا ٦: ١٩)، (٨: ٤٦)، (٥: ١٧)، (مرقس ٥: ٣٠).

وبعد أن قال مخلصنا هذا صرخ بصوت عظيم: «لعازر هلمّ خارجاً»، فخرج الميّت مربوطة يداه ورجلاه بأكفان وملفوفاً وجهه بمنديل، فقال لهم مخلصنا: «حلّوه ودعوه يمضي». وهكذا صدر الأمر الإلهي من مخلصنا مباشرة باعتباره أمره هو إلى الذي مات منذ أربعة أيام، وتحلل جسده، أن يعود إلى الحياة، فعاد جسده إلى حالته الأولى قبل أن يفسد، واسترد الروح التي كانت قد انتقلت إلى العالم الآخر. فكان هذا أسطع وأروع دليل على أن مخلصنا هو الله المحيي (يوحنا ٥: ٢١)، وأنه هو الحياة (يوحنا ١٤: ٦)، وبه كانت الحياة (يوحنا ١: ٣ و١٠)، ومنه كانت الحياة (الأعمال ٣: ١٥)، وفيه كانت الحياة (يوحنا ١: ٤).

وإلا فكيف يفسر المنكرون لألوهية مخلصنا هذه المعجزة، وكيف يعللونها أو يحللونها أو يؤولونها إن لم يكن صانعها هو الله الخالق نفسه، الذي يقول للشيء كن فيكون، وبأمره تأتمر الأجساد فتتكون بعد إنحلال وفساد، وتأتمر الأرواح فتعود إلى الأجساد بعد أن كانت قد انتقلت إلى عالم الأرواح؟

١١ : ٤٥- ٥٤

نبوءة قيافا وتشاور رؤساء الكهنة على قتل المسيح:

ومن ثم فإن كثيرين من اليهود الذين كانوا قد جاءوا إلى مريم إذ رأوا ما فعل مخلصنا آمنوا به (يوحنا ٢ : ٢٣)، (١٠ : ٤٢)، (١٢ : ١١ و١٨). وقد كان هذا هو الذى يهدف إليه - له المجد - منذ أن اتجهت إرادته لأن يصنع هذه المعجزة الفذة الفائقة المجد. غير أن بعض أولئك اليهود ذهبوا إلى الفريسيين أعداء مخلصنا وأخبروهم بما فعل فهالهم الأمر، وتملكهم الذعر، وسيطر على قلوبهم الحقد والحسد والخوف من إزدياد شهرة مخلصنا، وإمتداد سلطانه على نفوس اليهود، وإشتداد تزاحمهم عليه وإلتفافهم حوله، مما يهدد سلطان أولئك الرؤساء والفقهاء ويزعزع مكانتهم فى المجتمع اليهودى، فراحوا يقولون فيما بينهم: «ماذا نعمل فإن هذا الإنسان يصنع معجزات كثيرة، فإن تركناه هكذا آمن الجميع به، فيأتي الرومان ويستولون على موضعنا وأمتنا» (انظر يوحنا ١٢ : ١٩). وقد كانوا في قولهم هذا مرائين ومغالطين حتى لأنفسهم، إذ تظاهروا بخوفهم من الرومان أن يستولوا على بلادهم ويستعبدوا أمتهم، إذ يرون أنَّ زعيماً لهم قد ظهر بينهم. فى حين أن الرومان كانوا يسيطرون على بلادهم وعلى أمتهم، ولم يكن أولئك الرؤساء يبدون هذه الحماسة من قبل ضد الرومان، بل لقد كانوا على العكس ينافقونهم ويتملقونهم ويتحالفون معهم ضد شعبهم اليهودى نفسه. وإنما كان خوفهم الحقيقى على أنفسهم لا على بلادهم وأمتهم، وعلى ما لهم على الشعب اليهودى من سلطان يجنون من ورائه مكاسب عظيمة لهم فى المال والجاه والمكانة والنفوذ (انظر الأعمال ٤ : ١٦). ولم يكن خوفهم الحقيقى من الرومان، وإنما من مخلصنا نفسه الذى رأوا أنه سيسلبهم هذا السلطان. وقد كان ثمة واحد منهم يفوقهم جميعاً فى نفاقه وتملقه للرومان، كما يفوقهم جميعاً فى خوفه من مخلصنا ومما أصبح له من نفوذ على الشعب، وذلك هو قيافا (لوقا ٣ : ٢)، (الأعمال ٤ : ٦) الذى كان رئيساً للكهنة فى تلك السنة، وكان بالتالى هو رئيس السنهدريم، الذى هو مجلس الشيوخ اليهودى، والذى كان له السلطان الأعلى على اليهود فى كل أمور دينهم ودنياهم. وإذ كان قيافا هو أكثر الرؤساء خوفاً من تزايد مكانة مخلصنا لدى الشعب اليهودى، قال لهم «إنكم لا تعرفون شيئاً، ولا تدركون أنه خير

لكم أن يموت إنسان واحد عن الشعب ولا تهلك الأمة كلها». وقد كان يعنى بقوله هذا تحريض رؤساء الكهنة والفريسيين على قتل مخلصنا، لا خوفاً من أن تهلك الأمة كلها بسببه كما يزعم، وإنما ليتخلص هو منه فيحتفظ بما له من منصب ومكسب وسلطان. بيد أن الإنجيل للقديس يوحنا نظر إلى هذا القول الذى نطق به قيافا من زاوية أخرى، إذ يقول إنه «لم يقل ذلك من نفسه وإنما إذ كان هو رئيس الكهنة فى تلك السنة تنبأ بأن يسوع مزمع أن يموت عن الأمة، وليس عن الأمة فقط، وإنما ليجمع أبناء الله المتفرقين إلى وحدة واحدة». وذلك أن الرياسة العليا للكهنوت فى هيكل أورشليم كانت - بتدبير من الدولة الرومانية فى ذلك الحين - تسند كل عام إلى واحد من رؤساء الكهنة. وكان من وظائف هذا الرئيس الأعلى بصفته الدينية هذه فى مدة رياسته أن ينطق بالنبوءات (الخروج ٢٨ : ٣) ، (العدد ٢٧ : ٢١) ، (١ - صموئيل ٢٣ : ٩) ، (٢٨ : ٦) ، (٣٠ : ٧) ، (عزرا ٢ : ٦٣) . وإذ كان قيافا هو ذلك الرئيس فى تلك السنة التى صنع فيها مخلصنا معجزة إقامة لعازر، كان ما قاله، وإن كان فى ظاهره يعبر عن رغبته الشخصية فى قتل مخلصنا للخلاص منه (يوحنا ١٨ : ١٤) ، إلا أن هذا القول كان ينطوى فى حقيقته على نبوءة بأن مخلصنا سيموت فداءً عن الأمة اليهودية تكفيراً عن خطاياها، وليس عن الأمة اليهودية وحدها، وإنما عن جميع أمم الأرض (إشعياء ٤٩ : ٦) ، (١ - يوحنا ٢ : ٢) ، ليجمع بين البشر الذين هم أبناء الله المتفرقون فى كل مكان، كى يجعل منهم - بعد أن ينالوا الخلاص - أمة واحدة ورعية واحدة، (أفسس ٢ : ١٤ - ١٧) ، يكون هو راعيها الأوحد، كما قرر هو نفسه له المجد إذ يقول «ولى خراف أخرى ليست من هذه الحظيرة ينبغى أن أجىء بها هى أيضاً فتسمع صوتى ويكون ثمة رعية واحدة وراع واحد» (يوحنا ١٠ : ١٦) . وفى هذا المعنى تنبأ حزقيال النبى قائلاً «هكذا قال السيد الرب لهم: هأنذا أحكم بين الشاة السمينة والشاة المهزولة ... فأُخلّص غنمى، فلا تكون من بعد غنيمة، وأحكم بين شاة وشاة وأقيم عليها راعياً واحداً فيرعاها» (حزقيال ٣٤ : ٢٠ - ٢٣) . كما تنبأ حزقيال قائلاً «ويكون لجميعهم راع واحد، فيسلكون فى أحكامى ويحفظون فرائضى ويعملون بها» (حزقيال ٣٧ : ٢٤) .

وقد اقتنع أعضاء المجمع من رؤساء الكهنة والفريسيين بما قاله قيافا، فأخذوا منذ ذلك الحين يتآمرون على قتل مخلصنا، ومن ثم لم يعد مخلصنا يمشى بين اليهود علانية (يوحنا ٤ : ١ و٣) ، (٧ : ١) ، لئلا يعطيهم الفرصة كى يقبضوا عليه ويقتلوه قبل الموعد المحدد فى التدبير الإلهى لموته على الصليب. وإنما مضى إلى بقعة بالقرب من البرية المتاخمة لأورشليم حيث كانت مدينة تسمى أفرايم (٢ - صموئيل ١٣ : ٢٣) تقع فى الشمال الشرقى لأورشليم وتبعد عنها نحو ٢٤ كيلومتراً، ومكث هناك مع تلاميذه.

١١ : ٥٥ — ٥٧

ترصد اليهود ليمسكوه في عيد الفصح :

فلما اقترب عيد الفصح أعظم أعياد اليهود (يوحنا ٢ : ١٣) ، (٥ : ١) ، (٦ : ٤) صعد كثيرون من المناطق الريفية في كل أنحاء فلسطين إلى أورشليم قبل حلول موعد ذلك العيد ليتطهروا على عادتهم إستعداداً للاحتفال به (العدد ٩ : ١٠) ، (٢ . أخبار الأيام ٣٠ : ١٧) ، (يوحنا ١٨ : ٢٨) .

وإذ كانت شهرة مخلصنا قد ذاعت بينهم لا سيما بعد أن سمعوا عن معجزته العظيمة الأخيرة حين أقام لعازر من الموت بعد أن ظل جثمانه في القبر أربعة أيام، أخذوا يبحثون عنه في تطلع ولهفة قائلين بعضهم لبعض وهم قيام في الهيكل «ماذا تظنون، ألعله لن يأتي إلى العيد؟» . وقد كانوا في ريبة من أن يأتي، إذ كان رؤساء الكهنة والفريسيون قد أصدروا أمراً - بناء على القرار الذي اتخذوه بقتل مخلصنا - بأن على من يعرف أين هو أن يرشدهم إليه ليمسكوه ويقتلوه .

الفصل الثانى عشر

١٢ : ١ - ١١

مريم أخت لعازر تدهن بالطيب قَدَمىْ المسيح:

وقبل عيد الفصح بستة أيام، جاء فادينا إلى بيت عنيا، وهى قرية تقع إلى الجنوب الشرقى من جبل الزيتون، على مسافة نحو ميلين من أورشليم، وهى التى تدعى الآن العازرية، وكان يقيم فيها لعازر الذى كان قد مات ثم أقامه فادينا من بين الأموات. وكانت تقيم معه هناك أختاه مريم ومرثا اللتان كانتا تلميذتين لمخلصنا، وكانتا من المؤمنات أعمق الإيمان به، وبأنه هو المسيح ابن الله الذى تنبأ بمجيئه أنبياء اليهود منذ موسى حتى يوحنا المعمدان، فأقام سمعان الأبرص (متى ٢٦ : ٦)، (مرقس ١٤ : ٣) لمخلصنا هناك وليمة عشاء تكريماً له. وكانت مرثا تقوم بالخدمة كى تعد العشاء للمعلم وتلاميذه (انظر لوقا ١٠ : ٣٨) وتعمل على راحتهم. وكان لعازر من بين الجالسين إلى المائدة معه. وأما مريم فأخذت قارورة سعتها مائة درهم من طيب الناردين الخالص الغالى الثمن، وسكبته أولا على رأس مخلصنا (متى ٢٦ : ٧)، (مرقس ١٤ : ٣)، ثم دهنت قدميه ومسحتهما بشعر رأسها. فامتلأ البيت من شذا الطيب. وقد كان ما فعلته مريم دليلاً ساطعاً ورائعاً على مقدار تبجيلها وإجلالها ومحبتها وإعزازها لسيدنا رب المجد، وخضوعها وخشوعها إلى حد العبادة أمام عظمته الإلهية، ولعلها لم تكن فى حاجة إلى مزيد من الإيمان بربوبيته التى تستحق كل عبادة بعد أن رأته بعينيها يقيم أخاها من بين الأموات، فخرج أمامها من قبره بعد أن مكثت جثته فيه أربعة أيام وتحللت حتى كادت أن تغدو ترابا يختلط بتراب الأرض.

غير أن أحد تلاميذ مخلصنا وهو يهوذا بن سمعان الإسخريوطى الذى كان مزمعا أن يخونه ويسلمه إلى أعدائه، وقد سلمه إليهم بعد ذلك بالفعل، اعترض على ما فعلته مريم فى حنق وحقد قائلاً «أما كان بالأحرى أن يباع هذا الطيب بثلاثمائة دينار وتعطى للفقراء؟». وقد قال هذا - كما يقرر الإنجيل للقديس يوحنا نفسه - لا لأنه كان يهتم بالفقراء، وإنما كان سارقاً، وقد كان كيس النقود معه (يوحنا ١٣ : ٢٩)، فكان يستولى على ما فيه. وهكذا نرى الدهشة العظيمة أنه حتى تلاميذ مخلصنا رب المجد الذين لا يتجاوز عددهم الاثنى عشر تبين أن من بينهم واحداً خائناً وشريراً وحاقداً وحاسداً وسارقاً وفاسد الذمة، على الرغم من أن معلمه وسيده اصطفاه كسائر زملائه ليكون من أقرب المقربين إليه، وعامله معاملة الأب الحنون لأبنائه، والراعى الصالح لخرافه، وأراه كل معجزاته، وأسمعه كل تعاليمه، وأطلعه على كل أسرار السماء، فرفعه بذلك إلى

أعلى مكان بين البشر الذين في كل الأرض. ولكنه مع ذلك ملأ الحقد قلبه على معلمه نفسه وأكلته الغيرة منه، حتى أصبح يعاديه كواحد من أبشع وأشنع أعدائه، واستكثر على تلك المرأة أن تقدم إليه ما ينبئ بإحترامها وإكرامها إياه، فأخفى ضغينته عليه وكراهيته له تحت ستار التظاهر بعطفه على الفقراء، والزعم بأنهم أحق بالمال الذى اشترت به المرأة الفاضلة قارورة الطيب وسكبتها على قدمي ربها وموضع إجلالها وعبادتها وحبها، في حين أنه كان يطمع في ذلك المال لنفسه، لأنه كما يقول الإنجيل «كان سارقا، وقد كان كيس النقود معه، فكان يستولى على ما فيه»، مما يدل على أن خيانته لم تكن طارئة ولا بنت ساعتها، وإنما كانت طبيعة فيه طالما انتهج سبيلها من قبل في كل مرة استولى لنفسه على بعض ما في كيس النقود الذى ائتمنه سيده عليه، ليصرف مما فيه من مبالغ زهيدة على احتياجات معلمه الصالح وتلاميذه الفقراء الذين كانوا قد تفرغوا من كل إهتمامات الدنيا وإحتياجاتها ليتبعوا ذلك الذى آمنوا بأنه هو المسيح ابن الله مخلص العالم الذي كانوا ينتظرونه من آلاف السنين، ليعفيهم من حكم الهلاك الذى أصدرته العدالة الإلهية على البشر بسبب خطاياهم. وإذ سمع مخلصنا ما قاله هذا الخائن الشرير الماكر عن تلك المرأة الفاضلة، قال وكأنه يخاطب تلاميذه كلهم من فرط سماحته ووداعته «دعوها، فقد حفظت هذا ليوم دفني. لأن الفقراء عندكم في كل حين، وأما أنا فلست عندكم في كل حين» (متى ٢٦ : ١٠ و١١)، (مرقس ١٤ : ٦ و٧)، أى أنه لعلمه بأن اليهود سيقتلونه في هذا الأسبوع نفسه، اعتبر ما فعلته مريم إذ ضمخت بالطيب جسده قد فعلت ذلك بدافع إحساسها بأنه سيموت وأن واحداً - بسبب الخوف من رؤساء اليهود - لن يجرؤ على أن يضمخ جسده بالطيب كما هو الشأن بالنسبة لكل الذين يموتون (انظر يوحنا ١٩ : ٤٠). فبادرت هي إلى أن تضمخ بالطيب جسده مقدما حتى قبل أن يموت (متى ٢٦ : ١٢)، (مرقس ١٤ : ٨)، لكي لا يكون ثمة تقصير في إتمام هذا الطقس الواجب نحو كل الذين يموتون. وأما ذلك الزعم الذى زعمه يهوذا بأنه غيور على مصلحة الفقراء، فقد فنده مخلصنا بأن الفقراء موجودون في كل زمان ومكان، ويمكن أن يساعدهم من يريد مساعدتهم في كل حين وفي كل موضع، دون أن يمنع ذلك مانع أو يحول دونه حائل. وأما وجود السيد المسيح ابن الله بين البشر فهو مؤقت ولن يستمر في كل حين، لأنه لن يلبث أن يصعد إلى السماء بعد أن ينجز مهمة الفداء التى جاء من أجلها إلى العالم (يوحنا ٧ : ٣٣)، (٨ : ٢١ و٢٨). ومن ثم فإنه لن تتاح أية فرصة لتكريمه إلا في الفترة التى يقضيها بين الناس قبل أن يرتفع إلى حيث كان في ملكوت السماوات (يوحنا ٦ : ٦٢). وهكذا أشاد مخلصنا بما فعلته مريم فأضفى عليها بذلك شرفاً عظيماً خلّد ذكرها بين نساء العالمين (متى ٢٦ : ١٣)، (مرقس ١٤ : ٩). كما أنه بدفاعه عما فعلته المرأة أبرأها مما اتهمها به يهوذا

من إفراط وتفريط وإتلاف للمال يصرف في غير موضعه على مقتضى تفكير ذلك الخائن إذ أنفقت المال في تكريم سيدها وصاحب الفضل عليها، وسيد يهوذا نفسه وصاحب الفضل عليه، وسيد البشر جميعاً وصاحب الفضل عليهم، إذ فداهم ونجاهم من الهلاك الذي استحقوه بسبب شرورهم وخطاياهم.

وقد علم جمع كثير من اليهود أن مخلصنا قد أتى إلى بيت لعازر وأخته مريم ومرثا، فجاءوا لا ليروا مخلصنا فحسب في هذه المرة، وإنما ليروا أيضاً لعازر الذي أقامه من بين الأموات بعد أن مكثت جثته في القبر أربعة أيام. وإذ علم رؤساء الكهنة ذلك بدأوا يتآمرون ليقتلوا لعازر أيضاً. لأن كثيرين من اليهود كانوا بسببه يذهبون فيؤمنون بمخلصنا، بعد تلك المعجزة الإلهية التي صنعها له. فبرهن أولئك الرؤساء بذلك على غبائهم وظلام عقولهم وقلوبهم معاً، إذ ظنوا أن قضاءهم على لعازر يقضي على المعجزة التي تمت بالفعل، والتي لم يعد من الممكن أن يمحوها من أذهان الناس إختفاء لعازر بالموت أو بغير الموت. كما لم يعد من الممكن الحيلولة دون أن يؤمن الناس بالقدرة الإلهية التي لمخلصنا، والتي رأوها رؤية العين، أو سمعوها ممن رأوها رؤية العين، فأصبحت خالدة إلى الأبد في عقول الناس وقلوبهم وضمائرهم ومشاعرهم وكل جارحة فيهم.

١٢ : ١٢- ١٩

دخول المسيح أورشليم راكباً على جحش:

وفي الغد - الذي كان يوافق صباح الأحد ١٠ من نيسان - سمع الجمع العظيم الذي جاء للعيد أن فادينا قادم إلى أورشليم. وإذ كانوا يؤمنون به ويتمنون رؤيته، وقد عقدوا العزم على إستقباله استقبال الملوك المنتصرين والزعماء الظافرين على الرغم مما يدبر له أعداؤه من رؤساء الكهنة والفريسيين، أخذوا سعف النخل الذي هو رمز التكريم والتعظيم والإجلال والتبجيل والبهجة والفرح، وخرجوا لإستقباله، وهم يهتفون قائلين «هوشعنا. مبارك الآتي باسم الرب ملك إسرائيل» (انظر أيضاً متى ٢١ : ٩)، (مرقس ١١ : ٩)، (لوقا ١٩ : ٣٨)، و«هوشعنا» لفظ آرامي معناه «خلصنا» أو «المجد لمخلصنا» (المزمور ١١٧ : ٢٥). ويدل هتافهم هذا على أنهم قد آمنوا بأن فادينا هو المسيح ابن الله الذي تنبأ كل أنبيائهم بأنه سيأتي لخلاص العالم، والذي كانوا يعتقدون أنه حين يأتي سيجلس على عرش داود (لوقا ١ : ٣٢). وسيكون ملكاً لبني إسرائيل، كي يستعيد لهم مملكة داود التي فقدوها. بل يستعيد لهم مملكة أعظم منها، ليحكم بواسطتها العالم كله، ويجعل اليهود سادة كل الشعوب على مقتضى غرورهم وشعورهم الذي لا يفتأ يراودهم بأنهم هم

وحدهم شعب الله المختار. وأنهم سيكونون هم المسيطرين على الأرض كلها، وأصحاب السلطة والهيلمان على البشر فى كل زمان ومكان. بيد أن مخلصنا - للمفارقة العجيبة - لم يدخل أورشليم بعربة حربية تجرها عشرات الخيول، كما يفعل الملوك والقواد الذين يصفهم التاريخ بالعظمة والمجد. وإنما أراد بحكمته الإلهية أن يوضح للناس أن هذه العظمة كما يتصورونها إنما هى أحلام أطفال، وأن هذا المجد كما يفهمونه إنما هو سراب كاذب ووهم خلاب. ومن ثم قصد ربنا وإلهنا ومخلصنا وفادينا أن يلقن أولئك المخادعين المخدوعين المغرورين السادرين فى غيهم وجهلهم وضلالهم درسا لا ينسونه. وهو أنه اختار فى موكب النصر الذى دخل به أورشليم - وهو ملك الملوك ورب الأرباب (الرؤيا ١٩ : ١٦) - لا العربات الفارهة، ولا الخيول المطهمة. وإنما وجد جحشاً مما يستعمله أفقر الفقراء وأبأس البؤساء وأتعس التعساء من المساكين والكادحين والرازحين تحت أثقل أثقال الحياة، المطحونين المسحوقين المحرومين حتى من لقمة العيش، فركب ذلك الجحش ليدخل به فى موكب نصره إلى أورشليم عاصمة اليهود المتعالين المتعالمين الصلفين المتعجرفين المتكبرين المتنمرين. كى يوبخ تعاليهم وتعالمهم بتواضعه وهو ملكهم ومعلمهم، ويندد بصلفهم وعجرفتهم وهو القوى القهار وإن اتخذ جسد مخلوق من دم ولحم مثلهم وهو خالقهم وموجدهم، ويخجلهم ويرذلهم على تكبرهم وتنمرهم مع أنهم بالنسبة إليه أضعف الضعفاء وأتفه التافهين وهو الإله العظيم الجبار الذى فى مقدوره بنفخة من فيه أن يقضى عليهم فى لحظة بالفناء، ويحيلهم إلى هباء فى هباء.

ويقول الإنجيل للقديس يوحنا إن مخلصنا ركب ذلك الجحش وفقاً لما هو مكتوب فى النبوءات عن دخول المسيح ابن الله ملك إسرائيل وملك الملوك الآتى إلى العالم قائلاً «لا تخافى يا إبنة صهيون. هوذا ملكك يأتى إليك راكباً على جحش ابن آتان». ويشير الإنجيل بذلك إلى زكريا النبى الذى تنبأ قائلاً «ابتهجى جداً يا إبنة صهيون. اهتفى يا بنت أورشليم. هوذا ملكك يأتى إليك. هو عادل ومنصور. وديع راكب على حمار وعلى جحش ابن أتان» (زكريا ٩ : ٩). والمقصود هنا بإبنة صهيون وبإبنة أورشليم هو الأمة اليهودية التى كانت تنتظر فى لهفة عظيمة مجىء المسيح الذى كانت النبوءات تقرر أنه سيكون ملك اليهود (إشعياء ٩ : ٦ و٧)، (إرميا ٢٣ : ٥ و٦)، (٣٠ : ٩)، (ميخا ٥ : ٢)، (متى ٢ : ٢)، الذى كانوا يعتقدون أنه سيحررهم من عبودية الرومان، وينصرهم على جميع أعدائهم ويعيد إليهم مجد مملكة داود، ويغزو بهم العالم ليجعلهم سادة كل الأمم. غير أن اليهود كانوا واهمين فى إعتقادهم هذا، غير مدركين ولا فاهمين ما تنطوى عليه تلك النبوءة ذاتها من معان تنفى عن المسيح المنتظر أن تكون مملكته أرضية تحف بها أمجاد ممالك الأرض، لأنها على الرغم من أنها تقرر أن المسيح المنتظر سيكون ملكاً وأنه

سيأتى إلى أورشليم ويدخلها منتصراً، فإنها تقرر فى الوقت نفسه أنه لن يكون ملكاً صلفاً متعجرفاً متعالياً مغالياً فى إحاطة نفسه بكل مظاهر الفخامة والضخامة والسلطان والهيلمان متربعاً على عربة ذهبية مطعمة بالجواهر الكريمة تجرها كوكبة من خيول مطهمة مكسوة بأفخر الأغطية الحريرية ومزخرفة بأندر الحلى اللؤلؤية، وتجرى أمامه الآلاف المؤلفة من الفرسان، وتتبعه الآلاف المؤلفة من الأسرى والسبايا راسفين فى السلاسل والأغلال، مجللين بالمذلة والهوان. وإنما سيأتيهم المسيح وهو الملك الحقيقى، بل ملك الملوك ورب الأرباب وديعاً متواضعاً يركب أكثر ما يركبه الناس تواضعاً وهو الحمار، ليثبت للناس أن مملكته ليست من هذا العالم (يوحنا ١٨ : ٣٦) حتى يحيط نفسه بأمجاد هذا العالم، وإنما مملكته فى السماء، قاصداً أن يوجه أنظارهم ويحول إهتماماتهم من الأرض إلى السماء وينزع من نفوسهم شهواتهم الدنيوية فى أن يقتنوا مناصب الأرض ومكاسب الأرض التى تزول وتفنى، ليدفع بهم إلى التطلع نحو بركات السماء وإمتيازات السماء التى لا تزول ولا تفنى.

ولم يكن سائر اليهود وحدهم الذين أخطأوا فى فهم مغزى ذلك الذى فعله مخلصنا، وإنما اشترك تلاميذه أنفسهم فى هذا الخطأ فى مبدأ الأمر. إذ كانوا هم أيضاً يتوقعون فى ذلك الحين أن يكون معلمهم ملكاً أرضياً يحقق لليهود جميعاً (الأعمال ١ : ٦) ويحقق لهم هم أنفسهم تطلعاتهم الدنيوية (متى ٢٠ : ٢١ – ٢٨)، (مرقس ١٠ : ٣٥ – ٤٥). لأنهم حتى ذلك الحين لم يكونوا قد أدركوا إدراكاً كاملاً حقيقة الرسالة التى جاء من أجلها إلى العالم (مرقس ٩ : ٣٢)، (لوقا ١٨ : ٣٤). ولكنهم لما تمجد معلمهم بموته على الصليب ثم قيامته من بين الأموات وصعوده أمامهم إلى السماء (يوحنا ٧ : ٣٩)، (١٧ : ٥) ثم حلول الروح القدس عليهم، تذكروا أن ما حدث كان مكتوباً عنه فى النبوءات (يوحنا ٢ : ٢٢)، (١٤ : ٢٦) ولا سيما تلك النبوءة التى نطق بها زكريا النبى. كما تذكروا أن ماقعلوه هم أنفسهم حين شاركوا سائر اليهود فى الاحتفال بدخوله أورشليم رافعين سعف النخل وهاتفين له فى فرح وبهجة بعبارات التكريم والتعظيم، إنما كان تحقيقاً لتلك النبوءة المكتوبة عنه.

وقد شهد له الجمع الذين كانوا معه حين دعا لعازر إلى خارج القبر وأقامه من بين الأموات (يوحنا ١١ : ٤٥). فكان سماعهم بأنه صنع هذه المعجزة مما زاد فى حماستهم له وحرارتهم فى تمجيده ومبادرتهم إلى إستقباله ذلك الاستقبال الرائع الذى لا تستقبل به الشعوب إلا ملوكها المنتصرين وزعماءها المحبوبين الظافرين (متى ٢١ : ١٠ و١١)، (لوقا ١٩ : ٣٧). بيد أن أعداءه من الفريسيين لم تلبث أن أكلت الغيرة قلوبهم وأشعلت فيها نار الحقد والحسد فقالوا بعضهم

لبعض فى غيظ وحنق «أترون كيف أنكم لا تفيدون شيئاً؟ هوذا العالم قد ذهب وراءه». وهكذا بلغ بهم حقدهم وحسدهم وغيظهم وحنقهم أنهم انهالوا باللوم على أنفسهم، معترفين بهزيمتهم أمام عدوهم الذى انتصر عليهم، وبعجزهم عن أن يفعلوا شيئاً يصدون به ذلك التيار الجارف من حب جموع الشعب والتفافهم حوله وتمجيدهم إياه، مما جعل أولئك الفريسيين موضع الإهمال من الشعب بعد إهتمامه بهم، وإنفضاضه من حولهم، بعد أن كانوا مقبلين عليهم خاضعين لهم، واستهانته بهم بعد أن كانوا موضع إجلالهم وتبجيلهم فى كل مكان يحلون به بينهم (يوحنا ١١ : ٤٧ و٤٨)، ومن ثم ازدادت فى قلوب الفريسيين الرغبة فى قتل مخلصنا ومخلصهم هم أيضاً، كى يتخلصوا منه إلى الأبد، فلا يعود ثمة سلطان على الشعب إلا لهم وحدهم. فلم يفتأوا منذ ذلك الحين يتلصصون عليه ويتربصون به كى يمسكوه فى خفية من الشعب الذى يحبه، ويقتلوه.

١٢ : ٢٠ - ٤٣

إنباء المسيح عن موته وعدم إيمان كثيرين:

وكان ثمة قوم من اليونانيين صعدوا ليسجدوا فى العيد، لأنهم - وإن كانوا من اليونانيين - قد اعتنقوا الديانة اليهودية (انظر الأعمال ١٧ : ٤)، (يوحنا ٧ : ٣٥)، ووجب عليهم أن يأتوا فى العيد كما يفعل سائر اليهود ليحتفلوا به فى هيكل أورشليم طبقاً للشريعة اليهودية (انظر ١ - الملوك ٨ : ٤١ و٤٢)، (الأعمال ٨ : ٢٧). وإذ كانوا قد سمعوا كثيراً عن مخلصنا وتعاليمه ومعجزاته، لا سيما معجزته الأخيرة العظيمة حين أقام لعازر من بين الأموات بعد أن ظل جثمانه فى القبر أربعة أيام. كما سمعوا بما لقيه مخلصنا من تكريم وتعظيم حين جاء فى ذلك الأسبوع نفسه إلى أورشليم، تاقت أنفسهم لأن يتحدثوا إلى ذلك المعلم العظيم ليؤمنوا به كما آمن به كثيرون من اليهود، أو ليزدادوا به إيماناً إن كانوا قد آمنوا بما سمعوه عنه، ويتأكدوا من حقيقة شخصيته وحقيقة تعليمه ورسالته. وإذ كانوا فى نظر سائر اليهود الأصليين يهوداً دخلاء لا يجوز لهم دخول الهيكل، كانوا يقضون أيام العيد فى دار الهيكل الخارجية التى كانوا يسمونها «دار الأمم» (١ - مل ٨ : ٤١ - ٤٣). ومن ثم تقدموا إلى أحد تلاميذ مخلصنا وهو فيلبس الذى من بيت صيدا بالجليل (يوحنا ١ : ٤٤)، وناشدوه أن يتوسط لهم لكى يحقق رغبتهم فى دخول الهيكل حيث كان مخلصنا، قائلين لفيلبس «يا سيد نريد أن نرى يسوع». وإذ تهيَّب فيلبس من أن ينقل هذه الرغبة إلى سيده بمفرده جاء وقال ذلك لتلميذ آخر من تلاميذ مخلصنا وهو أندراوس (متى ١١ : ٢١)، (يوحنا ١ : ٤٤)، فذهب هذا معه إلى مخلصنا، وأفضيا إليه معاً برغبة أولئك اليونانيين. بيد أن مخلصنا حين سمع أن أولئك اليونانيين يرغبون فى مقابلته كانت تلك فرصة اتخذها ليتحدث

مباشرة وبصفة عامة عن لب الموضوع بجملته وهو اقتراب الساعة (يوحنا ١٣ : ١)، (١٧ : ١) التى سيفتح فيها بموته وقيامته باب الخلاص، لا لليهود وحدهم، وإنما لغيرهم من اليونانيين ومن سائر أمم الأرض، ولا سيما أن حديثه هذا كان فى يوم خميس العهد السابق مباشرة على يوم صلبه وموته على الصليب. ومن ثم أجاب قائلاً «قد أتت الساعة ليتمجد ابن الإنسان»، أى اقترب الوقت ليموت ثم يقوم فى اليوم الثالث من بين الأموات ثم يصعد إلى السماء، حيث يتمجد (يوحنا ١٣ : ٣٢) على عرش ألوهيته. وإذ كان موته - وهو الإله - أمراً يفوق مستوى العقل البشرى المحدود، شرح له المجد فلسفة الموت قائلاً : «الحق الحق أقول لكم إن حبة الحنطة مالم تقع فى الأرض وتموت، تظل وحدها. وأما إن ماتت فهى تأتى بثمر وفير». أى أن حبة الحنطة مالم يدفنها الزارع فى الأرض تظل منفردة كما هى، فتجف ويأكلها السوس وتنحل وتفنى، وأما إذا غرسها الزارع ودفنها فى الأرض فإنها وإن اتخذت صورة الميت الدفين فى القبر - سرعان ما تلين وتدب فيها الحياة وتنبت وتزدهر وتنمو حتى تصبح شجرة خضراء يانعة ناضرة مليئة بالحيوية، ثم لا تلبث أن تثمر وتتوجها سنابل القمح الذهبية المليئة بالثمر الوفير الذى هو مصدر النعمة والبركة (١ - كورنثوس ١٥ : ٣٦). هكذا الإنسان فإن الموت بالنسبة إليه هو باب الحياة لأنه حين يتوارى جسده عند الموت مدفوناً فى تراب الأرض لايكون معنى ذلك أنه أصابه الفناء الأبدى كما يزعم بعض الجهلاء، ممن يدّعون العلم، ويصفون أنفسهم فى زهو أحمق بالماديين أو بالطبيعيين أو بالوجوديين، وإنما تبدأ بموت جسده الأرضى حياته الروحية فيتمتع بالحياة الأبدية فى السماء، وهى الحياة الحقيقية المليئة بثمار النعمة والبركة السمائية التى ليست كل ثمار الأرض المادية بالنسبة إليها إلا هباء وهراء.

ثم يرتب مخلصنا على هذه الحقيقة المبدئية التى هى أساس فلسفة الموت فى العقيدة المسيحية، نتيجتها الحتمية والمنطقية فيقول: «من أحب نفسه يهلكها، ومن أبغض نفسه فى هذا العالم يحفظها للحياة الأبدية». وذلك لأنه إن كان الهدف الأسمى للإنسان على هذا الأساس ليس هو الحياة المادية الفانية على الأرض، وإنما هو الحياة الروحية الأبدية فى السماء، فإن كل من تعلقت نفسه بالجسديات وبالماديات وبالأرضيات وبكل ما يتصل بتلك الموجودات الزائفة الزائلة من مطالب ومطامع وإهتمامات وشهوات، بحيث يستأصل بذلك من نفسه كل إهتمام بما هو روحى وسمائى وأبدى، إنما يهلك بذلك نفسه إذ يحرمها من ثمار النعمة والبركة فى السماء، التى هى مصدر الحياة الأبدية وجوهرها. وأما كل من يوجه نفسه لأن تبغض الجسديات والماديات والأرضيات التى لا تلبث أن تزول ويتجه بها نحو الإهتمام بالروحيات والأبديات التى لا تزول أبداً، فإنه يضمن لها بذلك الحياة الحقيقية التى هى الحياة الأبدية فى السماء. وقد ألح السيد

المسيح له المجد على هذا المعنى فى أكثر من مناسبة، إذ قال «من ربح حياته خسرها، ومن خسر حياته من أجلى ربحها» (متى ١٠ : ٣٩)، وقال «لأن من أراد أن يخلص حياته فيهلكها، ومن أهلك حياته من أجلى ومن أجل الإنجيل يخلصها» (مرقس ٨ : ٣٥)، (لوقا ٩ : ٢٤)، (١٧ : ٣٣)، (متى ١٦ : ٢٥). والحياة المقصودة هنا هى حياة الإنسان على الأرض وما يتوافر لها من أسباب المتعة الأرضية الجسدية المادية. هذه الحياة المادية إذا خسرها الإنسان فى سبيل المسيح ومبادىء الإنجيل يربح بذلك لنفسه حياة أبدية. فما يبدو أنه خسارة فى الدنيا يصبح ربحاً فى الآخرة. كذلك المقصود بأن يبغض الإنسان نفسه، أى أن يحرم الإنسان نفسه من متعة ولذة وراحة أرضية، إرضاء لله وخضوعاً للشريعة وتنفيذاً لمبادىء الإنجيل، فهذا خير له وأبقى. لأنه بهذه البغضاء يخلص نفسه من الهلاك الأبدى، ويحقق لذاته النعيم الدائم والحياة الأبدية.

وقد كان حديث معلمنا عن فلسفة الموت هذه عاماً يشمل الناس جميعاً وينطبق عليهم كلهم فى كل زمان ومكان. بيد أنه كان يشير بها - فى تلك اللحظة التى صارح فيها السامعين باقتراب ساعة موته هو - إلى أن موته على الصليب أمر قد تقرر فعلا وسيتم حتماً بمقتضى التدبير الإلهى، ليكون موته هو باب الحياة للبشر جميعاً، وليكون صليبه هو رمز الحياة للبشر جميعاً (رومية ١٤ : ٩). فلا حياة للبشر إلا بموت المسيح على الصليب فداء عنهم، للتكفير عن خطاياهم التى استحقوا عنها لدى العدالة الإلهية الموت والهلاك.

وإذ أشار مخلصنا إلى موته على الصليب، أوضح السبيل لكل من يريد أن يؤمن به، ويكون خادماً له فى دعوته، ومبشراً بعقيدته، ومنتهجاً فى حياته ذات سيرته، ومتجها إلى ذات غايته، إذ قال «من يخدمنى فليتبعنى، وحيث أكون أنا فهناك يكون خادمى، ومن يخدمنى يكرمه أبى». ولم يكن يقصد هنا أن الذى يريد أن يخدمه فليتبعه كما تبعه تلاميذه ليتعلموا منه فحسب، لأن وجوده على الأرض كان قد انتهى ولم يعد باقيا منه إلا ساعات قليلة، وإنما كان يقصد أن يتبعه فى طريق الآلام ليرتفع معه على الصليب الذى كان اليهود سيرفعونه عليه فى اليوم التالى. ويتضح ذلك مما قاله قبل ذلك مراراً، إذ جاء فى الإنجيل للقديس متى أنه قال «من لا يحمل صليبه ويتبعنى فلا يستحقنى. من ربح حياته خسرها. ومن خسر حياته من أجلى ربحها» (متى ١٠ : ٣٨ و٣٩). وجاء فيه أنه قال «من أراد أن يتبعنى، فلينكر ذاته ويحمل صليبه ويتبعنى، لأن من أراد أن يخلص حياته يهلكها، ومن أهلك حياته من أجلى يجدها. لأنه ماذا يستفيد الإنسان لو أنه ربح العالم كله وخسر نفسه، أو ماذا يعطى الإنسان عوضاً عن نفسه؟» (متى ١٦ : ٢٤ - ٢٦). وجاء فى الإنجيل للقديس مرقس أنه قال «من أراد أن يتبعنى فلينكر ذاته ويحمل صليبه ويتبعنى.

لأن من أراد أن يخلص حياته فليهلكها، ومن أهلك حياته من أجلي ومن أجل الإنجيل يخلصها» (مرقس ٨: ٣٤ و٣٥). وجاء في الإنجيل للقديس لوقا أنه قال «من لا يحمل صليبه ويتبعني لا يستطيع أن يكون لي تلميذاً» (لوقا ١٤: ٢٧).

وذلك أن المؤمن بالمسيح لا يكون إيمانه به صادقاً وعميقاً إن لم يتبعه في كل خطواته منذ بدايتها حتى الصليب. فينبغي أن يتحمل في سبيل الإيمان به كل أنواع الجهاد الروحي، ويتحمل كل ما تحمله هو من الآلام والأوجاع والصفع والجلد والإهانة والهوان والعار. ثم يحمل صليبه كما حمل هو صليبه. ويرتضي أخيراً أن يصلب كما صلب هو. لأن الصليب هو رمز الحياة، وطريق الحياة. وباب الحياة. ومجد الحياة. لا تلك الحياة الفانية على الأرض. وإنما الحياة الأبدية في السماء. لأنه بذلك، وبذلك وحده. يستحق خادم المسيح أن يتبعه إلى حيث يمضي هو، ليشاركه في مجده السماوي، الذي هو المجد الإلهي. إذ أنه كما شاركه في هوانه على الأرض يستحق بذلك كذلك أن يشاركه في مجده في السماء. وفي هذا المعنى قال السيد المسيح له المجد لتلاميذه القديسين «ولئن ذهبت وأعددت لكم مكاناً سأجيء ثانية وآخذكم إليّ، حتى تكونوا أنتم معي حيث أكون أنا» (يوحنا ١٤: ٣). وقال في مناجاته لأبيه السماوي عن تلاميذه «يا أبتاه أريد أن هؤلاء الذين أعطيتنيهم يكونون معي حيث أكون أنا ليعاينوا مجدي الذي أعطيتني» (يوحنا ١٧: ٢٤) - انظر أيضاً (٢. كورنثوس ٥: ٨)، (فيلبي ١: ٢٣)، (١. تسالونيكي ٤: ١٧).

وهذا الخادم الذي يتبع المسيح حاملاً صليبه. ثم مصلوباً عليه. ويخدمه بأمانة وتقوى وصبر واحتمال، سينال كرامة من الله الآب. لأنه قال له المجد «من قبلني فقد قبل الذي أرسلني» (متى ١٠: ٤٠)، (مرقس ٩: ٣٧)، (يوحنا ١٣: ٢٠).. «ومن لا يمجد الابن لا يمجد الآب الذي أرسله» (يوحنا ٥: ٢٣). ولقد حرص مخلصنا له المجد على بيان التوافق بينه وبين الآب، وبين مشيئته ومشيئة الآب توكيداً لمبدأ وحدة الذات الإلهية، ووحدة الجوهر، أي أنه مع الآب جوهر واحد وذات إلهية واحدة، بحيث إن الذي يكرمه الابن يكرمه الآب في الوقت نفسه. ويالها من كرامة عظيمة، وياله من شرف لا يدانيه شرف لذلك الخادم الذي يسبغ عليه ملك الملوك ورب الأرباب. لا مجرد رضاه فحسب. وإنما تكريمه أيضاً. ذلك التكريم الذي يرفعه من أن يكون مجرد خادم لسيده إلى مرتبة أعلى وأسمى، إذ يصبح بمثابة الابن لذلك السيد، تربطه به رابطة الاتحاد التي تربط الابن بأبيه، كما صرح بذلك مخلصنا نفسه حين قال في مساء ذلك اليوم ذاته مخاطباً أباه السماوي: «يا أبتاه القدوس. احفظهم في اسمك هؤلاء الذين أعطيتنيهم، ليكونوا في وحدة كما نحن.. ولست أطلب من أجل هؤلاء فقط، وإنما أيضاً من أجل أولئك الذين يؤمنون بي

بكلامهم، ليكونوا جميعهم في وحدة، كما أنك أنت أيها الآب فيّ وأنا أيضاً فيك، ليكونوا هم أيضاً فى وحدة فينا.. قد أعطيتهم المجد الذى أعطيتنى ليكونوا فى وحدة. كما أننا نحن فى وحدة. أنا فيهم وأنت فىّ، ليكونوا هم أيضاً فى وحدة كاملة.. يا أبتاه أريد أن هؤلاء الذين أعطيتنيهم يكونون معى حيث أكون أنا، ليعاينوا مجدى الذى أعطيتنى.. يا أبتاه الحق، إنّ العالم لم يعرفك، وأما أنا فعرفتك، وهؤلاء أيضاً عرفوا أنك أنت الذى أرسلتنى. وقد أخبرتهم باسمك وسأظل أخبرهم، لتكون فيهم المحبة التى بها أحببتنى، وأكون أنا أيضاً فيهم» (يوحنا ١٧: ١١- ٢٦).

إن الله ليس بظالم حتى يهمل مكافأة الذين يخدمونه ويكرمونه. ولقد وعد، ووعده صادق، إذ قال«إنى أكرم الذين يكرمونني».. (١. صموئيل ٢: ٣٠) - انظر أيضاً (المزمور ٤٩: ٢٣)، (المزمور ٩٠: ١٥)، (لوقا ١٢: ٣٧).

ثم اتجه مخلصنا بعد ذلك إلى أبيه السماوى بصلاة رائعة، هى فى حقيقتها مناجاة لا طلب، تتجسم فيها وحدة ناسوته الكامل بلاهوته الكامل اتحاداً فريداً فى بابه، فذّاً فى مفهومه الدقيق العميق الذى يتسامى على أفهام البشر فيقفون أمامه مبهورتين مبهورين، إذ وضحت فيه الضعفات البشرية المنهارة أمام الآلام الجسدية التى فوق طاقة البشر. كما اتضحت فيه بنفس القوة وفى نفس الوقت القدرات الإلهية للجبارة، المنزهة عن كل ضعف والموجهة نحو إتمام المشيئة الربانية بكل حسم وحزم وبغير تضعضع أو تراجع. إذ أن مخلصنا فى تلك اللحظة التى يعلم أنه سيواجه فيها بعد لحظات قليلة أبشع وأشنع ألوان العذاب والإرهاب والإهانة والاستهانة والعداء والاعتداء والشتيمة والسخيمة وخيانة الخائنين وشماتة الأعداء، ثم القتل مذبوحا على خشبة الصليب كالمجرمين الآثمين واللصوص الأشقياء وسافكي الدماء، اتجه إلى أبيه القدوس فى السماء يناجيه قائلاً «نفسى الآن قد اضطربت، فماذا أقول؟ يا أبتاه نجنى من هذه الساعة. ولكننى من أجل هذا أتيت إلى هذه الساعة». وهكذا نرى المسيح الإنسان يضطرب أمام الموت والهوان اضطراب كل إنسان، ويفزع إلى أبيه القادر ضارعاً إليه كما يفعل كل امرىء فى شدته ومحنته لينجيه من ذلك الخطر الفظيع الشنيع الذى يهدده. وليست هذه هى المرة الوحيدة التى ينسب فيها السيد المسيح إلى ذاته أنه «اضطرب بالروح»، أو أن «نفسه اضطربت» بالحزن أو الألم. فقد عبّر عن ذلك أكثر من مرة، فقال عن نفسه وهو فى شدة آلامه النفسية فى بستان جثسيمانى فى ليلة صلبه «إن نفسى حزينة حتى الموت». وقال عنه الإنجيل إنه «بدأ يحزن ويرتاع ويكتئب» (متى ٢٦: ٣٧ و٣٨)، (مرقس ١٤: ٣٣ و٣٤) وكان يكابد آلاما عنيفة» (لوقا ٢٢: ٤٤). وقال «ولى معمودية لأصطبغ بها. وما أشد ما أعانى حتى تتم» (لوقا ١٢: ٥٠). وقال عنه الإنجيل إنه لما رأى مريم أخت لعازر تبكى، ورأى اليهود الذين جاءوا معها يبكون «تألم بالروح واضطرب» (يوحنا ١١: ٣٣). وقال عنه الإنجيل أيضاً إنه بعد أن غسل أرجل تلاميذه أخذ يحدثهم عن الذى سيخونه «ولما قال يسوع هذا اضطرب بالروح»، وصرح قائلاً:

الحقّ الحقّ أقول لكم إن واحداً منكم سيسلمني» (يوحنا ١٣ : ٢١). وجاء عنه في رسالة القديس بولس إلى العبرانيين أنه «في أيام جسده قدّم بصراخ شديد ودموعٍ طلبات وتضرعات للقادر أن يخلصه من الموت» (العبرانيين ٥ : ٧). وهذا كله دليل على أن يسوع المسيح كانت إنسانيته إنسانية حقيقية كاملة، وأنه قد عاني في إنسانيته الآلام التي يعانيها من له إنسانية كاملة؛ فلم يكن الجسد الذي اتخذه الله الكلمة جسداً خيالياً كما زعم أوطاخي وبعض الهراطقة، وإنما كان جسده جسداً حقيقياً قابلاً للآلام. كذلك اتخذ الله الكلمة روحاً إنسانية وليس مجرد جسد كما زعم أبوليناريوس، وفي هذه الروح الإنسانية اضطرب وتألم وصرخ وبكى وحزن حتى الموت.

ولكن السيد المسيح باعتباره ابن الإله، لا يلبث على الفور أن يتدارك - في مناجاته لأبيه السماوي - هذا الموقف الإنساني الضعيف، مقرراً أن هذا الذي قاله إنما يتعارض مع التدبير الإلهي الحكيم الرحيم الذي اشترك فيه مع أبيه السماوي لخلاص البشر، بأن يقدم نفسه ذبيحة عنهم. وقد كان هذا هو الهدف الأسمى والأوحد من مجيئه إلى العالم. وقد كان مصمماً على أن يتمم ويحقق هذا الهدف. ومن ثم فإنه ما إن نطق بتلك العبارة التي صدرت عن مشاعره كإنسان، حتى أردف على الفور قائلاً بشفتيه الإلهيتين «ولكنني من أجل هذا أتيت إلى هذه الساعة». فهو لن يتضعضع أو يتراجع أمام الضعف البشري، وسيتقدم بخطوات ثابتة نحو الصليب بإرادته الإلهية ليتمم التدبير الإلهي. ومع ذلك فإنه بالمشاعر البشرية مرة أخرى تطلّع إلى التأييد من أبيه السماوي لإتمام ذلك التدبير الذي كان من المحتّم أن يتم، فقال «يا أبتاه مجد ابنك»، لأن هذا التمجيد يتضمن التأييد الذي من شأنه أن يمحو من نفسه نهائياً ذلك التردد الذي سبق أن ساوره. وبالفعل جاء صوت من السماء يقول «قد مجّدْتُ وسأظل أُمجِّده»، أي أن الله الآب إذ يمجد ابنه، إنما يمجده منذ الأزل وسيظل يمجده إلى الأبد. ويدل على ذلك قول فادينا لأبيه القدوس في عشية ذلك اليوم نفسه: «يا أبتاه قد أتت الساعة. مجد ابنك ليمجدك ابنك.. أنا قد مجدتك على الأرض، والعمل الذي أعطيتني لأعمل قد أكملته. فالآن مجدني يا أبتاه عند ذاتك بالمجد الذي كان لي عندك من قبل كون العالم» (يوحنا ١٧ : ١ و٤ و٥).

فلما سمع الجمع الذين كانوا واقفين هذا الصوت الذي جاء من السماء، قالوا «إنه رعد قد أرعد»، إذ كان هذا الصوت مدوياً طرق آذانهم طرقاً قوياً، ولكنهم كان في آذانهم وقْرٌ من أثر حياتهم الجسدية الدنيوية الغارقة في الماديات، فلم يكن في مقدورهم أن يميزوا صوت الله الروح الأعظم حين يتكلم، ومن ثم انطبق عليهم قول حزقيال النبي إذ يقول: «وكان إليّ كلام الرب قائلاً: يا ابن آدم أنت ساكن في وسط بيت متمرد، الذين لهم أعين لينظروا ولا ينظرون. لهم آذان

ليسمعوا ولا يسمعون، لأنهم بيت متمرد» (حزقيال ١٢ : ٢) . كما انطبق عليهم قول إرميا النبي إذ يقول «اخبروا بهذا في بيت يعقوب وأسمعوا به في يهوذا قائلين: اسمع هذا أيها الشعب الجاهل والعديم الفهم، الذين لهم أعين ولا يبصرون، لهم آذان ولا يسمعون» (إرميا ٥ : ٢٠، ٢١) . وكذلك جاء في الإنجيل للقديس متى قول مخلصنا «أكلمهم بأمثال، لأنهم مبصرون ولا يبصرون، وسامعون ولا يسمعون. ولاهم يفهمون. ففيهم قد تمت نبوءة إشعياء القائلة: بالسمع تسمعون ولا تفهمون، وبالبصر تبصرون ولا ترون. لأن قلب هذا الشعب قد غلظ. وآذانهم قد ثقل سمعها، وعيونهم قد أغمضوها لئلا يبصروا بعيونهم أو يسمعوا بآذانهم، أو يفهموا بقلوبهم. أو يرجعوا إليّ فأشفيهم» (متى ١٣ : ١٣ – ١٥) .

وقال آخرون من اليهود حين سمعوا هذا الصوت «إنّ ملاكاً هو الذي كلّمه». ويدل ذلك على جهلهم الواضح والفاضح حتى بشريعتهم اليهودية ذاتها وبتاريخهم كله، لأنهم سمعوا مخلصنا وهو يخاطب أباه قائلاً «يا أبتاه مجد ابنك»، فكان المعقول والمنطقي أن يجيبه الجواب من الله الآب نفسه. ولكنهم بسبب ذلك الجهل الذى طمس عقولهم وقلوبهم لم يتصوروا أن الله قادر على أن يتكلم مباشرة بصوته هو، مع أن كتبهم المقدسة ممتلئة بالحالات التى تكلم الله فيها إلى قديسيه، فقد كلم أباهم الأول إبراهيم، وكلم بعد ذلك إسحق ويعقوب. ثم طالما كلم أعظم أنبيائهم موسى طوال الأربعين سنة التى أقام اليهود فى أثنائها فى صحراء سيناء، حتى لقد أصبح معروفاً بأنه «كليم الله». ثم كلم الله كل أنبياء اليهود الذين جاءوا بعد موسى، كما يتضح من نصوص نبوءاتهم ذاتها، بل إن لليهود فى ذات العصر الذى عاش مخلصنا معهم فيه تكلم الله بصوت مسموع حين قام يوحنا المعمدان بتعميد مخلصنا، وقد سمع صوته كل الذين كانوا حاضرين فى ذلك الحين، إذ جاء فى الإنجيل للقديس متى قوله: «حتى إذا اعتمد يسوع صعد توا من الماء، وإذا السماوات قد انفتحت له فرأى روح الله نازلاً مثل حمامة ومقبلاً عليه، وإذا صوت يجيء من السماء، قائلاً: هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت» (متى ٣ : ١٦ و١٧) وقد ذكر ذلك كذلك الإنجيل للقديس لوقا (لوقا ٣ : ٢١ و٢٢) . على أن هذه المناجاة بين الابن والآب على مسمع من التلاميذ ومن جميع الناس كانت برهاناً وبينة على المحبة بين الابن والآب، والاتفاق فى المشيئة بينهما، وأنه ليس هناك تعارض أو تنافر أو إنقسام بينهما فى التدبير والمشيئة. وكان هذا أمراً نافعاً ومفيداً ومريحاً لليهود ولجميع الناس. فقد كانوا فى حيرة فى شأن المسيح وعلاقته بالآب السماوى، وكانوا فى حاجة إلى أن يتبينوا علاقة التوافق والتوازم بينهما. وأن يسوع المسيح لم يأت ليعلن عن نفسه إلهاً آخر ثانياً. وإنما الابن والآب معاً إله واحد، والمناجاة تجرى فيما بينهما برهان على التوافق بينهما، من حيث إن الابن مع الآب وفى الآب اقنومان وخاصيتان فى ذات واحدة وجوهر واحد.

وإذ رأى مخلصنا ما أبداه بعض اليهود من إنكار لسماعهم صوت الله على الإطلاق، زاعمين أنه صوت رعد أرعد، وما أبداه بعضهم الآخر من إنكار لأن يكون هذا هو صوت الله نفسه، زاعمين أنه لم يكن إلا صوت ملاك، مما يدل على استكثارهم لأن يتكلم الله نفسه مع مخلصنا، لأن إعترافهم بذلك إنما يتضمن إعترافاً بأن مخلصنا هو ابن الله، في حين أنهم ينكرون عليه ذلك، قرر مخلصنا لهم ما يفيد أن هذا هو بالفعل صوت أبيه السماوي، قائلاً «ليس من أجلي كان هذا الصوت ولكن من أجلكم أنتم». أي أنه إن مجده الله الآب تمجيداً يتضمن الشهادة بأنه هو بالفعل ابنه، فإن مخلصنا ليس في حاجة هو شخصياً لهذه الشهادة لأنه يعلم أنه ابن الله، فشهادته له تقرير أمر مقرر وتحصيل حاصل. وإنما كانت هذه الشهادة من الله الآب لابنه موجهة إلى اليهود الحاضرين حينذاك ليؤمنوا بأن يسوع هذا الذي يستهينون به ويهينونه لبساطة مظهره واتخاذه جسد إنسان مثلهم، إنما هو ابنه حقًا وصدقاً ليؤمنوا بذلك ويفتحوا أعينهم على حقيقته الإلهية (انظر يوحنا ١١ : ٤٢) فيرجعوا عما هم غارقين فيه من غباء والتواء وجهالة وضلال.

ثم قال مخلصنا «الآن قد وقعت الدينونة على هذا العالم. الآن يطرح رئيس هذا العالم خارجاً»، أي أن هذا العالم الذي سيطر عليه الشر بواسطة الشرير، وهو الشيطان الذي جعل من العالم مملكته حتى أصبحت له الرئاسة عليه، سيكون صليب المسيح الذي سيصلب عليه بعد ساعات قليلة رمزاً وبرهاناً على ذلك الشر الذي غرق العالم فيه، فكان هو دليل إدانته على كل الخطايا التي ارتكبها البشر منذ سقوط آدم حتى تلك الساعة التي قررت الرحمة الإلهية أن ترحم فيها البشر من الهلاك الذي قضى به العدل الإلهي عليهم بواسطة ذلك الفادي الإلهي الذي جاء ليقدم نفسه ذبيحة عنهم تكفيراً عن خطاياهم. وقد كانت آخر هذه الخطايا التي ارتكبها العالم واستحق عنها الدينونة، هو أنه لفرط ما تمكن الشر منه، بدلاً من أن يستقبل الفادي الذي جاء لخلاصه استقبال المنقذ النبيل، ويفرح به، ويقدم إليه ما هو جدير به من الشكر والامتنان والتكريم والتبجيل والحب الجزيل، قام عليه فقتله معلقاً إياه على الصليب الذي كان يرمز للهوان أشنع الهوان والعار أبشع العار. وفي ذلك قال مخلصنا له المجد «وهذه هي الدينونة أن النور جاء إلى العالم، وأحب الناس الظلمة أكثر من النور، لأن أعمالهم كانت شريرة» (يوحنا ٣ : ١٩). انظر أيضاً (يوحنا ٩ : ٣٩)، (١٦ : ١١).

ومن ثم فإن تلك الدينونة التي استحقها العالم بتعليق مخلصنا على الصليب كانت صليباً للعالم نفسه علق نفسه عليه عن استحقاق حقيقي للهوان والعار، في حين أصبح الصليب بالنسبة

لمخلصنا رمزاً للمجد والفخار (١ . كورنثوس ١ : ١٨) . وبعد أن كان بالنسبة للعالم أداة الموت أصبح بموت مخلصنا عليه مصدراً للحياة (غلاطية ٦ : ١٤) . إذ بواسطته قهر مخلصنا مصدر الشر والهلاك الذى كان مسيطراً على العالم، وهو الشيطان الذى كان بسيطرته على العالم هو «رئيس هذا العالم» (يوحنا ١٤ : ٣٠) ، (١٦ : ١١) . لأن مخلصنا إذ قدم نفسه فداء عن البشر فغفر بذلك خطاياهم وأعادهم إلى حظيرة الله وطاعته وعبادته، قد سلب الشيطان كل سيطرة له عليهم (متى ١٢ : ٢٩) ، وجرده من كل نفوذ له كان يستذلهم به ويجعلهم تحت طاعته، وعبيداً وعباداً له (كولوسى ٢ : ١٤ و١٥) . ومن ثم خلعه عن عرشه وطرحه خارج العالم ليكون مجرد مخلوق شرير حقير متمرد على الله ينتظر فى سجنه ساعة الدينونة (٢ . بطرس ٢ : ٤) التى هو واثق أن الحكم سيصدر عليه فيها بالهلاك (متى ٢٥ : ٤١) . وقد عبر بعض أتباع هذا الشيطان من الشياطين أنفسهم عن يقينهم من ذلك الهلاك الذى ينتظرهم، إذ قالوا لمخلصنا حين أمرهم أن يخرجوا من إنسان احتلوا جسده «ما لك ولنا يا يسوع الناصرى؟ أجئت لتهلكنا؟ إننا نعرف من أنت. أنت قدوس الله» (مرقس ١ : ٢٤) ، (لوقا ٤ : ٣٤) ، (متى ٨ : ٢٩) ولعل رب المجد يسوع المسيح بقوله «الآن يطرح رئيس هذا العالم خارجاً» فيما يشير إلى الطرح النهائى للشيطان فى جهنم ، يبشر تلاميذه والمؤمنين به بأن هذا الطرح قد بدأ بنزول المسيح إلى العالم، ثم بعمل الفداء والخلاص الذى يتم بصلب المسيح الفادى وموته. وبذلك يخرج الشيطان من حياة المؤمنين بالمسيح الذين ينالون المعمودية باسمه، فيطرح الشيطان خارجاً عنهم. فإذا حاربهم فلا يحاربهم من داخل أجسادهم. إذ قد خرج منهم فى المعمودية، وإنما يحاربهم من خارج. قال مخلصنا «إن القوى الذى يتسلح ليحرس داره تكون أمتعته فى أمان. ولكنه متى جاء عليه ذلك الذى هو أقوى منه، تغلب عليه ونزع منه كل أسلحته التى كان يعتمد عليها ويوزع غنائمه» (لوقا ١١ : ٢١ و٢٢) ، (مرقس ٣ : ٢٧) ، (متى ١٢ : ٢٩) .

وبعد ذلك قال مخلصنا مؤكداً أيضاً «متى ارتفعت عن الأرض سأجتذب إلىّ الجميع» . وتتضمن تلك العبارة مرحلتين من مراحل ارتفاع مخلصنا عن الأرض. فكانت المرحلة الأولى هى ارتفاعه على خشبة الصليب . إذ يقول القديس يوحنا إنه «قال هذا مشيراً إلى الكيفية التى سيموت بها» . وقد قال الإنجيل «وكما رفع موسى الحية فى البرية هكذا ينبغى أن يرفع ابن الإنسان لكى لا يهلك كل من يؤمن به وإنما ينال الحياة الأبدية» (يوحنا ٣ : ١٤) . وقال فادينا لليهود «حينما ترفعون ابن الإنسان تدركون عندئذ أنى أنا هو» (يوحنا ٨ : ٢٨) . انظر (متى ٢٠ : ١٩) ، (يوحنا ١٨ : ٣٢) . ويقرر مخلصنا عن ذلك أنه متى ارتفع على الصليب الذى يعده باب الحياة، سيجتذب جميع البشر معه (يوحنا ٦ : ٤٤) إلى الحياة الأبدية التى ما ارتضى موته على الصليب إلا ليفتح

باب تلك الحياة الأبدية لهم(رومية ٥ : ١٨ و١٩) . وأما المرحلة الثانية فهى ارتفاعه عن الأرض بصعوده إلى السماء (مرقس ١٦ : ١٩) ، (لوقا ٩ : ٥١) ، (الأعمال ١ : ١١) ، (١ . تيموثيئوس ٣ : ١٦) ، حيث أعد لجميع الذين منحهم الخلاص مكاناً هناك ليكونوا معه إلى الأبد، إذ قال مخاطباً أباه السماوى «يا أبتاه أريد أن هؤلاء الذين أعطيتنيهم يكونون معى حيث أكون أنا، ليعاينوا مجدى الذى أعطيتنى» (يوحنا ١٧ : ٢٤) . وقال لتلاميذه فى وصاياه الأخيرة لهم حين أوشك أن يفارقهم «لا تضطرب قلوبكم.. إن فى بيت أبى منازل كثيرة .. أنا ذاهب لأعدّ لكم مكاناً. ولئن ذهبت وأعددت لكم مكاناً، سأجيء ثانية وآخذكم إلىّ، حتى تكونوا أنتم معى حيث أكون أنا» (يوحنا ١٤ : ١ – ٣) . ولم يكن هذا الوعد بطبيعة الحال مقصوراً على تلاميذه الاثنى عشر وحدهم، وإنما كان لكل المؤمنين به فى كل زمان ومكان. وهكذا فإن مخلصنا بإرتفاعه على الصليب رمز الحياة، سيجذب جميع المؤمنين به إلى الحياة الأبدية. كما أنه بإرتفاعه بعد ذلك إلى السماء سيجذب جميع المؤمنين به إلى ملكوته السماوى ليكونوا معه فى ذلك الملكوت إلى الأبد.

وإذ فهم اليهود الحاضرون من قول مخلصنا أنه سيرتفع عن الأرض، أجابوه قائلين «قد سمعنا من الشريعة أن المسيح يدوم إلى الأبد. فكيف تقول أنت إن ابن الإنسان ينبغى أن يرفع؟ من هو ابن الإنسان هذا؟» . وقد أخذ اليهود فكرتهم هذه عن أن مملكة المسيح تدوم على الأرض إلى الأبد من أقوال أنبيائهم. إذ يقول إشعياء النبى «لأنه يولد لنا ولد ونعطى ابناً وتكون الرياسة على كتفه ويدعى اسمه عجيباً مشيراً إلهاً قديراً أبا الأبد رئيس السلام. لنمو رياسته وللسلام لا نهاية على كرسى داود وعلى مملكته ليثبتها ويعضدها بالحق والبر من الآن إلى الأبد» (إشعياء ٩ : ٦ و٧) . ويقول دانيال النبى «كنت أرى فى رؤى الليل. وإذا مع سحب السماء مثل ابن إنسان أتى وجاء إلى القديم الأيام فقربوه قدامه، فأعطى سلطاناً ومجداً وملكوتاً لتتعبد له كل الشعوب والأمم والألسنة. سلطانه سلطان أبدى ما لن يزول وملكوته ما لا ينقرض» (دانيال ٧ : ١٣ و١٤) . انظر أيضاً (المزامير ٨٨ : ٣٦) ، (١٠٩ : ٤) ، (إشعياء ٥٣ : ٨) ، (حزقيال ٣٧ : ٢٥) ، (دانيال ٢ : ٤٤) ، (٧ : ١٤ و٢٧) ، (ميخا ٤ : ٧) . وعندما بشر الملاك العذراء مريم بميلاد المسيح منها قال لها «فيملك على بيت يعقوب إلى الأبد، ولن يكون لملكه إنقضاء» (لوقا ١ : ٣٣) .

وقد كان خطأ اليهود دائماً فى أنهم يفسرون آيات كتابهم المقدس تفسيراً حرفياً سطحياً، لضحالة تفكيرهم، وضآلة عقولهم، وعجزهم عن أن يغوصوا إلى أعماق المعانى التى تتضمنها تلك الآيات السامية السماوية التى وردت فى نبوءات الله على فم أنبيائهم. فلم يكن المقصود فيما قال أولئك الأنبياء عن ملكوت المسيح أنه سيكون ملكاً أرضياً تدوم مملكته على الأرض إلى

الأبد، لأن هذا مستحيل عقلاً وبداهة. لأن الأرض ستفنى (متى ٢٤: ٣٥)، (١٣: ٣١) ولن تدوم إلى الأبد. وإنما المقصود أن عقيدته التي سيغرسها في الناس وشريعته التي سيضعها لهم ويحكم العالم كله بها، هي التي ستدوم في الأرض إلى أن تفنى، وفي السماء التي لن تفنى أبداً. وإنما ستبقى إلى الأبد. غير أن اليهود إذ لم يروا في المسيح إلا أنه مجرد إنسان، ولم يدركوا أنه هو الله في نفس الوقت، ظنوا أنه سيظل ملكاً كسائر ملوك الأرض، وسيظل سلطانه وهو في الأرض دائماً إلى نهاية الزمان، على مقتضى التفسير الحرفي لقول النبي إن «سلطانه سلطان أبدي ما لن يزول، وملكوته ما لا ينقرض»، ولعلَّ الدليل على نظرتهم إليه كمجرد إنسان أنهم قالوا له «فكيف تقول أنت إن ابن الإنسان ينبغي أن يُرفع؟»، مع أنه لم يقل عن نفسه وهو يكلمهم في تلك اللحظة أنه ابن الإنسان. ولعلهم قالوا هذا لأنهم طالما سمعوه قبل ذلك يلقب نفسه بابن الإنسان، أو لعلهم كانوا يعدون ما قاله دانيال النبي عن المسيح المنتظر أنه رآه في رؤى الليل «مثل ابن إنسان» (دانيال ٧: ١٣)، ومن ثم تبلبلت أفكارهم من نحوه، وثارت شكوكهم في أن يكون هذا هو حقاً المسيح الذي ينتظرونه مادام يقول إنه سيرتفع عن الأرض ولا يبقى إلى الأبد ملكاً أرضياً يجلس على عرش داود إلى نهاية الأزمان، على مقتضى فهمهم الخاطئ لنبوءات الأنبياء.

فأجابهم مخلصنا إجابة بليغة يصحح بها خطأهم في فهم حقيقة شخصية المسيح، ويوضح لهم جوهر رسالته التي جاء من أجلها إلى العالم ليقضي في إنجازها زمناً محدوداً ثم يرتفع إلى السماء. إذ قال لهم «إن النور باق في وسطكم زماناً يسيراً، فسيروا في النور مادام النور لكم، لئلا يدرككم الظلام، لأن الذي يمشي في الظلام لا يدري إلى أن يذهب. فآمنوا بالنور مادام لكم النور لتصيروا أبناء النور». فهو يقول لهم بذلك إنه ليس مجرد إنسان ذي جسد كما يظنون، وإنما هو الله الذي هو نور من نور، ونور في نور. وهذا ما قرره مخلصنا من قبل في صراحة ووضوح، إذ قال «أنا هو نور العالم. من يتبعني لا يسير في الظلام، وإنما يكون له نور الحياة» (يوحنا ٨: ١٢). وقال «مادمت في العالم فأنا نور العالم» (يوحنا ٩: ٥). وقال «أنا قد جئت للعالم نوراً حتى إن كل من يؤمن بي لا يمكث في الظلام» (يوحنا ١٢: ٤٦). وقال الإنجيل عن يوحنا المعمدان الذي شهد لمخلصنا «كان رجل قد أرسل من الله اسمه يوحنا. جاء هذا كي يشهد للنور ليؤمن الكل على يده. لم يكن هو النور وإنما أُرسل ليشهد للنور. كان النور الحقيقي الذي ينير كل إنسان آتياً إلى العالم. كان في العالم.. والعالم لم يعرفه» (يوحنا ١: ٦- ١٠). وقال «إن النور جاء إلى العالم وأحبَّ الناس الظلمة أكثر من النور، لأن أعمالهم كانت شريرة» (يوحنا ٣: ١٩). وواضح أن المقصود بالنور بهذا المعنى هو الله ذاته، كما تدل على ذلك كل نبوءات العهد القديم.

إذ جاء مثلاً في سفر أيوب «أين الطريق إلى حيث يسكن النور» (أيوب ٣٨ : ١٩) . وجاء في سفر دانيال النبي أن الله «عنده يسكن النور» (دانيال ٢ : ٢٢) . وجاء في سفر المزامير عن الله أنه «اللابس النور كثوب» (المزمور ١٠٣ : ٢) . وجاء فيه على لسان داود النبي «الرب نوري وخلاصي» (المزمور ٢٦ : ١) وجاء فيه على لسان داود أيضاً «بنورك نرى نوراً» (المزمور ٣٥ : ٩) . كما وصف تلاميذ مخلصنا الله بأنه نور، إذ يقول القديس يوحنا «إن الله نور وليس فيه ظلمة البتة» (١ . يوحنا ١ : ٥) . ويقول القديس بولس عن الله إنه «المبارك العزيز الوحيد ملك الملوك ورب الأرباب الذي وحده له عدم الموت، ساكناً في نور لا يُدنى منه» (١ . تيموثيئوس ٦ : ١٥ و١٦) .

وهكذا قرر مخلصنا لليهود إذ وصف نفسه بأنه النور، أنه هو ابن الله، وأنه هو الله ذاته. وأخبرهم بأنه ـ على عكس فهمهم الخاطئ ـ لن يبقى معهم في الأرض إلى الأبد كما يظنون، وإنما سيغادرهم بعد زمن يسير لا يتجاوز ساعات قليلة، يصلبه رؤساء اليهود بعدها ليرتفع أولاً على الصليب ليموت عليه، ثم يرتفع بعد ثلاثة أيام عن القبر في قيامته من بين الأموات ـ ثم أخيراً يرتفع بعد أربعين يوماً صاعداً إلى السماء . وهو في ذلك الزمان اليسير الذي يبقى خلاله في وسطهم سيكون هو نورهم الذي يستنيرون به في حياتهم . فلينتهزوا هذه الفرصة التي سرعان ما ستعبر ليسيروا على هدى نوره لئلا يدركهم الظلام الذي سيحل عليهم بعد إرتفاعه عنهم، فيروحون يتخبطون في ذلك الظلام كالعميان الذين فقدوا نور أعينهم، فهم يمشون على غير هدى . ولا يدرون في أي طريق تسوقهم أقدامهم . ولا يدرون إلى أين يذهبون (يوحنا ١١ : ١٠) ، (١ . يوحنا ٢ : ١١) . فلا يلبثون أن يضلوا السبيل (إرميا ١٣ : ١٦) . ومن ثم يتعرضون لكل أنواع المخاطر والمهالك التي يتعرض لها كل الذين يمشون في الظلام، ولا سيما ظلام العقل والقلب والروح (أفسس ٥ : ٨) . فلا نجاة لهم إلا بأن ينتهزوا فرصة وجود النور الإلهي المتمثل في مخلصنا في أثناء الفترة القصيرة التي بقيت ليرتفع عنهم كي يؤمنوا به، لأنهم إن آمنوا بالنور المتمثل فيه يصيروا أبناء النور (لوقا ١٦ : ٨) ، (أفسس ٥ : ٨) ، (١ . تسالونيكي ٥ : ٥) ، (١ . يوحنا ٢ : ٩) ، أي أبناءه هو، فيستنيروا بنوره، ويسيروا في حياتهم على هداه، وينالوا شرف الانتساب إليه إنتساب الأبناء إلى أبيهم، والتلاميذ إلى معلمهم، ومن ثم ينعكس نوره عليهم . ولما كان هو نور العالم يصبحون هم أيضاً كما قال لتلاميذه نوراً للعالم، إذ قال لهم «أنتم نور العالم» (متى ٥ : ١٤) .

قال مخلصنا لليهود هذا ثم مضى واختفى عنهم بقوة لاهوته (انظر أيضاً يوحنا ٨ : ٥٩)، (١١ : ٥٤). إيذاناً باختفاء نوره الإلهي الذي حدثهم عنه من بينهم، وأنذرهم وحذرهم من أن يستمروا في إنكاره والتنكر له لئلا يكتنفهم الظلام بعد إرتفاعه عنهم فيسقطوا في هوة الهلاك. بيد أنهم على الرغم من كل ما سمعوه منه بالتلميح تارة وبالتصريح تارة أخرى ليثبت لهم حقيقة شخصيته الإلهية، وعلى الرغم من أنه صنع معجزات كثيرة أمامهم لا يمكن أن تصدر إلا عن الله القدير نفسه، لم يؤمنوا به، وصمّوا آذانهم عن أن تسمع كل ماقاله. وأغلقوا أعينهم عن أن ترى كل ماصنع من المعجزات أمامهم، لعناد قلوبهم وعقولهم، وعمى بصائرهم وأبصارهم، واستعباد الشر والشرير لهم، ليتم فيهم قول إشعياء النبي «يارب من آمن بما سمع منا؟ ولمن تجلت ذراع الرب؟» (إشعياء ٥٣ : ١) - انظر أيضاً (رومية ١٠ : ١٦). لهذا لم يستطيعوا أن يؤمنوا، لأن إشعياء قال أيضاً «قد طمس على عيونهم وأغلق على قلوبهم. لئلا يبصروا بعيونهم أو يفقهوا بقلوبهم، ويرجعوا إليّ فأشفيهم» (إشعياء ٦ : ٩و١٠) - انظر (متى ١٣ : ١٤). وقد قال إشعياء هذا عن اليهود حين رأى بروح النبوءة مجد مخلصنا متنبئاً عنه قبل مجيئه بمئات السنين (إشعياء ٦ : ١). وهكذا شهد بمكر اليهود وشرهم وعنادهم وغلظة أكبادهم نبيٌ من أنبيائهم هم أنفسهم، فكانوا هم الشهود على أنفسهم بأنفسهم.

ومع ذلك قد آمن بمخلصنا كثيرون من الرؤساء أنفسهم الذين كانت لهم أكبر المناصب في المجتمع اليهودي، إذ كانوا أعضاء في مجلس السنهدريم الذي هو مجلس الشيوخ اليهودي أعلى سلطة في بلادهم. بيد أن أولئك الرؤساء الذين آمنوا بمخلصنا كانوا ذوي عقول أكثر تفتحاً وقلوب أكثر نقاء، ونفوس أكثر صفاء، فلم تمنعهم عن الإيمان بالمسيح له المجد كبرياء ولا استعلاء، ولا جهل ولا غباء، ولا حقد ولا حسد، ولا ضمير أحمق ولا تفكير أخرق، كما كان هو الشأن بالنسبة لسائر اليهود. ومع ذلك حرص أولئك الرؤساء على أن يظل إيمانهم بمخلصنا في الخفاء، خوفاً من الفريسيين أعداء الرب يسوع الذين كانوا يتربصون به الدوائر لقتله، ولا سيما أنهم مع رؤساء الكهنة من أعضاء مجلس السنهدريم كانوا كما يقرر الإنجيل «قد أصدروا أمراً بأن على من يعرف أين هو أن يرشدهم إليه ليمسكوه» (يوحنا ١١ : ٥٧)، ومن ثم لم يجرؤ أولئك الرؤساء الذين آمنوا بمخلصنا على أن يعترفوا به علانية لئلا يثير ذلك عليهم رؤساء الكهنة والفريسيين فيطردوهم من مجلس السنهدريم الذي كانوا يسمونه المجمع فيفقدوا بذلك مكانتهم العظيمة في المجتمع اليهودي (انظر يوحنا ٧ : ١٣)، (٩ : ٢٢). وقد كان ذلك موطن الضعف فيهم، لأنهم كما يقرر الإنجيل «أحبوا مجد الناس أكثر من مجد الله». وقد ذكر لنا الإنجيل اسم إثنين من أولئك الرؤساء الذين آمنوا بمخلصنا سراً. وهما نيقوديموس ويوسف الرامي. إذ يقول لنا الإنجيل

إنه «كان رجل من الفريسيين اسمه نيقوديموس من رؤساء اليهود، جاء إلى يسوع ليلاً وقال له يا معلم نحن نعلم أنك جئت من الله معلماً، لأنه ما من أحد يقدر أن يصنع هذه الآيات التى أنت تصنع مالم يكن الله معه» (يوحنا ٣ : ١ و٢) . وأما يوسف الرامى فيقول لنا الإنجيل إنه «رجل غنى من الرامة .. وكان هو أيضاً قد تتلمذ ليسوع» (متى ٢٧ : ٥٧) ، وأنه «كان عضوا بمجلس السنهدريم، وكان رجلاً صالحاً باراً. ولم يكن راضياً عن رأيهم أو عملهم. وهو من الرامة إحدى مدن اليهودية، وكان هو أيضاً ينتظر ملكوت الله» (لوقا ٢٣ : ٥٠ و٥١) . ثم يقرر الإنجيل أنه «كان تلميذاً ليسوع، وإن يكن خفية لخوفه من اليهود» (يوحنا ١٩ : ٣٨) . بيد أن هذين الرجلين على الرغم مما أبديا فى مبدأ الأمر من حرص على عدم إذاعة إيمانهما بمخلصنا خوفاً على مكانتهما، وحذراً على سلامتهما، لم يلبثا حين رأيا الخطر الذى يهدد معلمنا أن أبديا أعظم الشجاعة وأكرم الشهامة فجاهرا بإيمانهما به على رؤوس الأشهاد وفعلاً مالم يجرؤ على أن يفعله أقرب أقربائه وأحب تلاميذه إليه، غير مباليين بأى خطر يهددهم ولو كان هذا الخطر هو الموت، إذ يقول الإنجيل إن أعضاء مجلس السنهدريم حين قرروا القبض على مخلصنا وقتله «قال لهم نيقوديموس الذى كان قد جاء إلى يسوع ليلاً، وكان واحداً منهم: هل تحكم شريعتنا على أحد مالم تسمع منه أولاً، وتعرف ماذا فعل؟» (يوحنا ٧: ٥٠ و٥١) . ويقول الإنجيل عما فعله يوسف الرامى حين قبض رؤساء اليهود على مخلصنا وقتلوه على خشبة الصليب.. «وإذا برجل اسمه يوسف، كان عضواً بمجلس السنهدريم، وكان رجلاً صالحاً باراً. ولم يكن راضياً عن رأيهم أو عملهم.. وقد تقدم إلى بيلاطس وطلب جسد يسوع، ثم أنزله ولفه بكتان وسجاه فى قبر قد نحته فى الصخر، ولم يكن قد دفن فيه أحد من قبل» (لوقا ٢٣ : ٥٠- ٥٣) . ثم يقرر الإنجيل أن نيقوديموس اشترك مع يوسف الرامى فى إنزال جسد مخلصنا عن الصليب وتكفينه ودفنه، إذ يقول «وجاء أيضاً نيقوديموس الذى كان قد أتى من قبل إلى يسوع ليلاً، وكان يحمل حنوطاً من المر والصبر، يزن نحو مائة رطل. وأخذا جسد يسوع وكفناه بلفائف من الكتان مع الأطياب على عادة اليهود فى التكفين. وكان فى الموضع الذى صلبوه فيه بستان، وفى البستان قبر جديد لم يوضع فيه من قبل أحد قط. فوضعوا يسوع فيه» (يوحنا ١٩ : ٣٩- ٤٢) . وهكذا فإن هذين الرجلين البارين الفاضلين بعد أن كانا يحبان مجد الناس أكثر من مجد الله كما يقول الإنجيل (يوحنا ٥ : ٤٤)، انتهى بهما إيمانهما بمخلصنا ومخلص العالم كله إلى أنهما أحبا مجد الله أكثر من مجد الناس. ولابد أنهما فى سبيل إيمانهما بالرب ومجاهرتهما الفائقة الشجاعة بهذا الإيمان، لقيا بعد ذلك من رؤساء اليهود كل ألوان العنف والعسف والبطش والتنكيل، شأن كل مؤمن شجاع، وشهم نبيل.

ذكر بعض تعاليم السيد المسيح:

وقد علّق مخلصنا على إيمان أولئك الرؤساء الذين آمنوا به قائلاً «إن الذى يؤمن بى، ليس بى يؤمن، وإنما آمن بالذى أرسلنى. والذى يرانى فقد رأى الذى أرسلنى. أنا قد جئت للعالم نوراً، حتى إنّ كل من يؤمن بى لا يمكث فى الظلام». وهنا يؤكد مخلصنا مرة أخرى أنه متحد بأبيه السماوى اتحاداً كاملاً. فهما معاً إله واحد (يوحنا ١٠ : ٣٠)، وإن كان الله الآب الذى هو متحد به قد أرسله إلى العالم (مرقس ٩ : ٣٧)، (يوحنا ٣ : ١٧) متخذاً جسد إنسان ليتمم التدبير الإلهى لغفران خطايا البشر بتقديم نفسه فداء عنهم لخلاصهم من حكم الهلاك الصادر من العدالة الإلهية عليهم، فإنه على الرغم من الجسد البشرى الذى اتخذه لم يزل فى نفس الوقت متحداً بألوهيته مع الله الآب، لم ينفصل عنه لحظة واحدة أبداً، بحيث إن الذى يراه إنما يرى فيه الله الآب الذى هو متحد به. وقد أكد له المجد على هذا المعنى إذ قال أيضاً «من رآنى فقد رأى الآب» (يوحنا ١٤ : ٩). انظر (كولوسى ١ : ١٥)، (العبرانيين ١ : ٣). ومن ثم فإن الذى يؤمن به وهو فى جسد ناسوته إنما يؤمن فى نفس الوقت بالله أبيه الذى أرسله ليفدى البشر (يوحنا ٣ : ١٧) من فرط حبه لهم (يوحنا ١٥ : ١٣) ورحمته بهم ورغبته فى أن يتصالحوا معه (٢ . كورنثوس ٥ : ١٨ و١٩ و٢٠)، ويعودوا كما خلقهم فى الأصل أبناء أطهاراً أنقياء أبرياء من الخطيئة التى سقطوا بسببها واستحقوا العقاب عنها، كالابن الضال (لوقا ١٥ : ١١ – ٣٢) الذى عاد أخيراً إلى أبيه نادماً تائباً فاستحق من جديد حبه له وحنانه عليه ورعايته إياه، حبّ الأب لأبنائه، وحنانه عليهم، ورعايته لهم. وبناء على ذلك الترتيب الإلهى جاء مخلصنا إلى العالم وإن يكن متخذاً جسد إنسان (فيلبى ٢ : ٦ و٧ و٨)، فإنه مازال وهو فى ذلك الجسد الإنسانى هو الله نفسه الذى هو بطبيعته نور من نور. ومن ثم فإنه يقول إنه جاء نوراً للعالم (انظر أيضاً يوحنا ٨ : ١٢)، (٩ : ٥ و٣٩) حتى إن كل من يؤمن به على هذا الاعتبار لا يمكث فيما كان غارقاً فيه قبل ذلك من ظلام العقل والقلب والنفس والروح والضمير والوجدان، كأنه ليس من جنس البشر وإنما من جنس أحط أنواع الحيوان، وإنما يغمره النور الإلهى الذى ينبعث من مخلصنا بحكم طبيعته الإلهية، فينقشع عنه الظلام الذى كان يغمر عقله وقلبه ونفسه وروحه وضميره ووجدانه وكل جارحة فيه، ومن ثم يسير فى تصرفاته وكل شئون حياته على هدى نور مخلصنا ويسترد الطبيعة الأولى لأبيه الأول آدم حين خلقه الله فى البدء على صورته ومثاله (التكوين ١ : ٢٦ و٢٧) طبيعة الخير والبر والفضيلة والطهارة والنقاء والصفاء وكل صفات الكمال التى يتصف بها الله ذاته. أما ذلك الذى لا يؤمن بمخلصنا باعتباره ابن الله وباعتباره متحداً بالله كل الاتحاد، وإنما

يكفر به وينكر ويتنكر له ويتمرد عليه فله شأن آخر إذ يقول مخلصنا له المجد «الذي يؤمن به لا يدان، وأما الذي لا يؤمن به فقد أدين لأنه لم يؤمن باسم ابن الله الوحيد. وهذه هي الدينونة، أن النور جاء إلى العالم وأحب الناس الظلمة أكثر من النور، لأن أعمالهم كانت شريرة» (يوحنا ٣ : ١٨ و١٩) . ويقول «إن سمع أحد كلامي ولم يحفظه فأنا لا أدينه. لأنني ما جئت لأدين العالم بل لأخلص العالم. إنّ من ينكرني ولا يقبل كلامي فله من يدينه. الكلام الذي تكلمت به هو الذي يدينه في اليوم الأخير، لأنني لم أتكلم من نفسي وحدي. وإنما الآب الذي أرسلني هو الذي أوصاني بما أقول وبما أتكلم. وأنا أعلم أن وصيته هي حياة أبدية. فما أقول هو ماقاله لي الآب، وبه أتكلم».

وذلك أن مخلصنا خلال كل حياته التعليمية، قد كلّم الناس بكلام الله الذي هو في نفس الوقت كلامه هو باعتباره ابن الله المتحد به. فكل من سمع كلامه ولم يحفظه ولم يعمل به إنما يستوجب الدينونة، لا من مخلصنا. لأنه ما جاء هذه المرة في مجيئه الأول ليدين العالم (يوحنا ١٢ : ٤٧) . فلم تكن هذه هي مهمته في تلك المرة، وإنما إنحصرت مهمته في هذا المجيء الأول في أن يبذل نفسه لخلاص العالم. ومن ثم فإن الإنسان الذي ينكره ولا يقبل كلامه الذي تكلم به ليعمل بمقتضاه باعتبار ذلك الكلام هو وصايا الله للإنسان التي يهدف بها إلى مصلحته وإصلاح أمره واستحقاقه للغفران الذي يهيئه للحياة الأبدية، إنما يبرهن ذلك الإنسان بعدم قبوله هذا الكلام وعدم عمله بمقتضاه على أنه غير مستحق للغفران ولا للحياة الأبدية. ومن ثم فإن مخلصنا عند مجيئه الثاني في اليوم الأخير المخصص للدينونة سيدينه باعتباره الديّان في هذه المرة ويحكم باستحقاقه - بمقتضى العدل الإلهي - للهلاك الأبدي. لأن مخلصنا إذ كلّم الناس في مجيئه الأول لم يكن الكلام الذي نطق به كلامه وحده، وإنما كان في نفس الوقت هو كلام الله الآب الذي هو كائن معه في وحدانية الذات. وكانت وصايا مخلصنا للناس هي في نفس الوقت وصايا الله الآب الذي أرسل مخلصنا إلى العالم متخذاً جسد إنسان لخلاص الإنسان. وكان على إتفاق كامل معه في توجيه تلك الوصايا للناس، لأن كيانهما واحد. وجوهرهما واحد. وإرادتهما واحدة. لأنهما كليهما إله واحد. ومخلصنا الذي هو الله الابن يعلم كما يعلم الله الآب في نفس الوقت أن هذه الوصايا إنما تهدف إلى توجيه الناس إلى الحياة الأبدية. لأنها هي في ذاتها حياة أبدية. وخلاصة ذلك أن ماقاله ويقوله مخلصنا الذي هو الله الابن هو ذاته ما قاله ويقوله الله الآب، وأن ما تكلم به ويتكلم به مخلصنا الذي هو الله الابن هو ذاته ما تكلم به الله الآب. وقد هدَف مخلصنا من كل هذا الشرح والتوضيح أن يثبت لليهود أنه هو الله في الجسد، ليؤمنوا به على هذا الوصف، ومن ثم يعملوا بوصاياه باعتبارها هي وصايا الله ذاته.

الفصل الثالث عشر

١٣ : ١ و٢

ما حدث في عيد الفصح:

وقد احتفل مخلصنا مع تلاميذه بعيد الفصح اليهودي في مساء اليوم الرابع عشر من شهر نيسان، وكان يوافق مساء يوم الخميس، السادس من أبريل، وهو الذي نسميه اليوم «خميس العهد»، إذ رأى مخلصنا أن ساعته المحددة في التدبير الإلهي قد جاءت لينتقل من العالم ويمضي إلى الآب السماوي، وقد أحب خاصته الذين في العالم، وهم المؤمنون به وفي مقدمتهم تلاميذه الاثنا عشر، أحبهم إلى نهاية المدى، حباً عظيماً، وحبا مستديماً لا ينقطع، ولا يزول إلى الأبد. ومن ثم أراد أن يودعهم الوداع الأخير قبل موته على الصليب في اليوم التالي. فاجتمع بهم ليأكل معهم الفصح اليهودي، وليزودهم بوصاياه ويكشف لهم مالم يكن قد كشفه حتى ذلك الحين من أسرار ألوهيته، ويعطيهم العهد الجديد الذي أسسّه لتقوم عليه كنيسته المسيحية الروحية الإلهية المجاهدة على الأرض والمنتصرة في السماء.

وكان أعداء مخلصنا من رؤساء الكهنة والفريسيين يواصلون في ذلك الحين إجتماعاتهم ويدبرون مؤامراتهم ضده ليمسكوه بخدعة ويقتلوه، «ولكنهم قالوا: ليس في العيد لئلا يحدث شغب بين الشعب» (متى ٢٦ : ٥). وذلك أن مخلصنا له المجد لم يكن يظهر في مكان أو يذهب من مكان إلى مكان، حتى تندفع الجموع الزاخرة إليه وتتجمهر حوله وتتبعه أينما سار في محبة وإعجاب وإجلال وإكبار، لتستمع إلى تعاليمه السمائية السامية، وتستمتع برؤية طلعته البهية الساحرة، ومعجزاته الإلهية الباهرة. ومن ثم لم يكن في استطاعة أعدائه أن ينتزعوه من بين تلك الجموع جهاراً ليقتلوه أو يتعرضوا له بأي سوء، لأنهم كما جاء في الإنجيل للقديس لوقا «كانوا خائفين من الشعب» (لوقا ٢٢ : ٢).

ومن ثم راحوا يتآمرون سراً فيما بينهم، في غضب مكظوم وغيظ مكتوم وحقد محموم، عسى أن يهديهم تفكيرهم الماكر الغادر الأثيم اللئيم إلى وسيلة يمسكونه بها تحت جنح الظلام بعيداً عن الشعب، وقد أطلقوا الجواسيس خلفه ليترصدوا تحركاته ويتصيدوا فرصة يكون فيها وحده ليمسكوه، بيد أن الشيطان لم يلبث أن وفر عليهم هذا العناء، وأعفاهم من كل هذا الجهد الذي يبذلونه في الخفاء، لأن فادينا الحبيب كان خصمه اللدود الذي ما جاء إلى العالم إلا لدحره والقضاء على سلطانه على البشر، ومن ثم أراد أن يبرهن على مدى ما وصل إليه نفوذه على أولئك البشر وسطوته وسيطرته عليهم، فساق إلى أعداء مخلصنا واحداً من تلاميذه الاثني عشر

أنفسهم، الذين اختارهم من بين البشر جميعاً ـ وهم القوم البسطاء الفقراء القرويون ـ ليكونوا معلّمي البشرية كلها من بعده. ولذلك أكرمهم وعلّمهم وأدّبهم وهذّبهم ولقّنهم تعاليم السماء، ورفعهم إلى مصاف الرسل والأنبياء. وقد إئتمنهم ووضع فيهم ثقته وغمرهم بحبه وحدبه وحنانه وحمايته، ومنحهم سلطاناً ليكونوا خلفاءه على الأرض. لكن الشّر المتغلغل في أعماق نفوس البشر بتحريض الشيطان لم يلبث أن أطل كما تطل الأفعى برأسها بين أفراد تلك الأسرة المقدسة المؤسسة على المحبة والوفاء، ومبادئ ملكوت السموات، فظهر من بينهم خائن خسيس استبد به الشر واستعبده الشيطان. فكان رمزاً لكل خائن خسيس فى كل زمان ومكان. وكان ذلك هو يهوذا سمعان الإسخريوطى، الذى ألقى الشيطان فى قلبه أن يخون معلمه ويسلمه لأعدائه، والذى يبدو مما قيل عنه فى البشائر أن خيانته لمعلمه والشر الشائن الذى ينطوى عليه ما فعله فى حقه، لم يكن أمراً طارئاً ولا فكراً عارضاً ولا حادثاً عابراً ابن ساعته. وإنما كان تصرفاً ناجماً عن حِقد مستعر كانت تنطوى عليه نفسه، وغيرة مسعورة كانت تعتلج بين جوانحه، وتتأجج بنار كبرياء مكبوتة كانت تأكل قلبه، وتسلب لبه، وتسبيه وتعميه عن كل ما هو فيه من نعمة أسبغها عليه معلمه. ويتبين ذلك كله من سياق تلك الحادثة التى سبق أن جرت فى «بيت عنيا» قبل ستة أيام من ذلك الحين. عندما كان مخلصنا يتناول العشاء مع تلاميذه فى بيت سمعان الأبرص (متى ٢٦ : ٦). فأخذت مريم أخت لعازر الذى أقامه من بين الأموات، قارورة طيب غالى الثمن ودهنت به قدمى مخلصنا ومسحتهما بشعر رأسها. إذ قال يهوذا عندئذ «أما كان بالأحرى أن يباع هذا الطيب بثلثمائة دينار وتعطى للفقراء؟» (يوحنا ١٢ : ٥)، ويبدو من هذا كيف أن يهوذا قد أكلت قلبه الغيرة المفعمة بالحقد، مختلطة بشهوة محبة المال، حين رأى التكريم الذى قدمته تلك المرأة لمخلصنا، مع أن التكريم لم يكن أمراً مستغرباً ولا مستكثراً من امرأة أعاد مخلصنا أخاها إلى الحياة وأقامه من القبر بعد أن مكثت جثته فيه أربعة أيام. ولما كان الشرّ يبذر فى الإنسان إذا تسلل إلى نفسه كل ألوان الرذائل، لم يقتصر أثره فى يهوذا على أن يجعله حسوداً حقوداً خائناً فحسب. وإنما جعله كذلك لصاً وسارقاً يختلس المال القليل الذى كانت تحتفظ به جماعة مخلصنا فى كيسها الذى كانت تسدُّ منه حاجاتها الضرورية، والذى ائتمنه معلّمه على أن يكون فى عهدته. وفى ذلك يقول القديس يوحنا إنه «كان سارقاً. وقد كان كيس النقود معه. فكان يستولى على ما فيه» (يوحنا ١٢ : ٦). فلم يكن عجيباً منه ولا غريباً ـ وقد بلغ به الانحطاط هذا المدى ـ أنه تسلل خفية كما جاء فى الإنجيل للقديس متى إلى أعداء معلمه وهم مجتمعون يتآمرون فيما بينهم ليقبضوا عليه غدراً ويقتلوه: «وقال لهم: ماذا تعطونى وأنا أسلمه إليكم؟ فاتفقوا معه على أن يعطوه ثلاثين من الفضة. ومنذ ذلك الحين أخذ يترقب

الفرصة ليسلمه إليهم» (متى ٢٦: ١٤ - ١٦). وقد جاء في الإنجيل للقديس لوقا أن يهوذا «تحدث مع رؤساء الكهنة وقواد الجند بشأن الوسيلة التي بها يسلمه إليهم. ففرحوا واتفقوا معه على أن يعطوه فضة فواعدهم، وأخذ يترقب فرصة ليسلمه إليهم بعيداً عن أعين الشعب» (لوقا ٢٢: ٤-٦). وهكذا باع ذلك الدنيء، سيده ومعلمه ومربيه وصاحب الفضل عليه نظير ثلاثين قطعة من الفضة، وهي التي كان اليهود يسمونها «الشاقل»، وهي تساوي نحو عشرين قرشاً، أي أن المبلغ كله لا يتعدى ستة جنيهات. وهو الثمن الذي كان مقرراً في الشريعة اليهودية لشراء عبد (الخروج ٢١: ٣٢). وهذا دليل آخر على أن الدافع إلى خيانة يهوذا لم يكن ذلك القدر الضئيل من المال وحده، مع أنه كان يشتهي المال ويسرقه، وإنما كان قبل كل شيء هو ذلك القدر الكبير من الحقد الذي كان يضمره في قرارة نفسه لسيده، بسبب ما كان يراه من تمجيد الناس له، ذلك التمجيد الذي يبدو أنه - بسبب كبريائه الشيطانية - كان يشتهيه لنفسه، ولذلك أسعده أن ينزل بسيده من مرتبة الألوهية التي أعلنها للناس عن نفسه فآمنوا به، إلى مرتبة العبيد التي أرادها له هو بالثمن الذي ارتضى أن يبيعه به. حسداً له، وحقداً عليه، وتشفياً منه. فكان بذلك أشنع وأبشع وأحقر وأحط مثال للخائن الخسيس الجاحد الجبان في كل العصور إلى آخر الزمان.

١٢: ٣- ١١

المسيح يغسل أرجل تلاميذه:

وعلى الرغم من أن مخلصنا يعلم كل العلم مكانته العظيمة إلى غير حد أو نهاية بوصفه ابن الله، وبوصفه الله ذاته، ويعلم أن أباه السماوي قد دفع كل شيء إلى يديه (متى ٢٨: ١٨)، فهو بذلك يملك كل السلطان الذي للآب (يوحنا ١٧: ١٠)، لأنه ملك الملوك ورب الأرباب (الرؤيا ١٩: ١٦)، ويعلم أنه من لدن الله الآب خرج خروج النور من الشمس، لأن طبيعته هي من ذات طبيعة الآب، ولأنه في وحدانية كاملة معه، وأنه إلى الله الآب يمضي بعد أن يتمم عمل الفداء الذي من أجله جاء إلى العالم، وعلى الرغم من مجيئه إلى العالم متخذاً جسد إنسان، فإنه لم ينفصل بصفته الإلهية لحظة واحدة عن الله الآب الذي هو متحد به اتحاداً أزلياً وأبدياً لا ينقطع ولا ينقسم، لأنه وهو في العالم بجسده بين الناس، ظل مع ذلك بلاهوته في السماء متحداً بالله الآب ومنه، اتحاداً كلياً شاملاً عميقاً وثيقاً. بيد أنه مع علمه بمكانته العظيمة تلك التي لا تدانيها عظمة كائن آخر في الكون الذي هو خالقه وسيده وملكه ومالكه، فإنه قام بعد تناوله عشاء الفصح مع تلاميذه بعمل مذهل من أعمال التواضع. ينبهر أمامه العقل ولا يكاد يصدق إنسان أنه يصدر عن رب المجد. إذ أنه قام عن العشاء وخلع رداءه الخارجي الذي كان من عادة الناس

في ذلك العصر أن يلتفوا به فوق ما يرتدون من ثياب، وأخذ منشفة وعقدها حول خصره مؤتزراً بها كما يفعل الخدم، ثم صب ماء في وعاء كانوا يستخدمونه للاغتسال بقصد التطهير، وكانوا لذلك يسمونه المطهرة، وأخذ ينحني على أرجل تلاميذه واحداً بعد واحد ويغسلها بالماء ثم يمسحها بالمنشفة التي كان مؤتزراً بها. وكان غسل الأرجل بهذه الطريقة من أعمال الخدم والعبيد التي يؤدونها لسادتهم، ولا سيما بعد عودة أولئك السادة من السوق أو من أي مكانٍ آخر لتطهير أرجلهم مما علق بها من تراب الطريق وأوحاله، وخاصة أن الناس في تلك الأيام كانوا يلبسون في أرجلهم نعالاً مكشوفة كثيرة الفتحات بغير جوارب، فكانت أرجلهم تتسخ اتساخاً شديداً. فكان ما فعله مخلصنا إذ تنازل وغسل أرجل تلاميذه كأنه خادمهم، بدلاً من أن يغسلوا هم رجليه وهو سيّدهم ومعلمهم، بل هو ربهم وإلههم، أمراً هالهم جداً، وأذهلهم أشد الذهول، وأدهشهم أعظم الدهشة. ولولا أنهم يهابونه جداً، ويطيعونه طاعة كاملة، ولا يخالفون له أمراً، لاعترضوا عليه وامتنعوا عن أن يتركوه يقوم بهذا العمل الغريب العجيب، الذي لم يحدث أنهم رأوا سيداً يقوم به نحو أحدٍ ممن هم أقل منه شأناً وأدنى منزلة. وفعلاً فإن سمعان بطرس الذي كان أكثرهم جرأة وأسرعهم إلى التعبير عن شعوره وانفعاله. حين جاء الدور عليه ليغسل معلمه رجليه قال له بطرس في عجب ودهشة واحتجاج يكاد يبلغ حد الاستنكار: «أأنت يا رب تغسل رجليّ؟!». وإذ كانت لمخلصنا حكمة يضمرها فيما فعله أجاب وقال له: «إن الذي أفعله أنا لا تدركه أنت الآن ولكنك ستدركه فيما بعد». ومع ذلك أصر بطرس على امتناعه قائلاً في إنفعال شديد: «لن تغسل رجليّ أبداً». فأجاب مخلصنا قائلاً: «إن لم أغسل رجليك فليس لك معي نصيب». ولما كان هذا تهديداً رهيباً يؤدي تنفيذه إلى حرمان سمعان بطرس من كل إمتيازات إيمانه بمعلمه الإلهي ويحرمه الحياة الأبدية التي طالما وعد بها تلاميذه، اندفع يقول في حماسة شديدة: «يارب ليس رجليّ فقط، بل يديّ ورأسي أيضاً». فقال له مخلصنا: «إن الذي استحم لا يحتاج إلا لأن يغسل قدميه، فإنه طاهر كله. وأنتم أيضاً أطهاراً». وكان له المجد يعني بقوله هذا أن المعمودية التي سبق أن اعتمد بها تلاميذه جعلتهم أطهاراً طهارة شاملة، فلم يعودوا بحاجة إلا لغسل أقدامهم لتحقيق الغاية الأخرى التي قصد إليها مما فعله في تلك الساعة لهم، والتي سيعود فيصارحهم بها بعد قليل. بيد أنه لم يلبث أن استدرك قائلاً «ولكنكم لستم كلكم أطهاراً». فقد كان يعلم - كما يقرر ذلك الإنجيل للقديس يوحنا نفسه - أنّ واحداً منهم وهو يهوذا الإسخريوطي مزمع أن يخونه ويسلمه لأعدائه في تلك الليلة ذاتها. وإذ كان الشيطان قد دخل قلبه وملأه بالشر لم يعد طاهراً، وإنما نجسه إنقياده للشيطان ودنسه، ولذلك قال مخلصنا: «إنكم لستم كلكم أطهاراً».

خاطبهم أن يتمثلوا به:

وعلى قلة ماأورده رسل السيد المسيح فيما كتبوه في بشائرهم من تعاليمه وأعماله التعليمية بالنسبة لمجموع تلك التعاليم والأعمال طوال مدة خدمته التبشيرية منذ أن أعلن ذاته للناس حتى صعد إلى السماء، فإن هذا القليل الذي وصل إلينا يتضمن كل ما يخطر على فكر إنسان من الوسائل الكفيلة بتعليم الناس في أسرع وأروع صورة، والوصول في هذا السبيل إلى أعظم وأعمق نتيجة يمكن أن يصل إليها معلم بالنسبة لتلاميذه، لا بالنسبة لأولئك الذين تتلمذوا على السيد المسيح في حياته على الأرض فحسب، وإنما بالنسبة لكل أجيال البشر على مدى التاريخ منذ مجيء السيد المسيح إلى نهاية الزمان، أولئك الذين ما إن يقرأون تعاليمه حتى يتخذوه معلماً لهم، ويعدوا أنفسهم تلاميذ له، يستمعون إليه ويطيعونه فيما يقول، ويتمثلون به فيما يعمل، وقد استشعروا ما في أقواله من قوة خفية تستحوذ فوراً على القلوب، وما في أعماله من قدرة إلهية لا يملك الإنسان أمامها إلا الخضوع والخشوع والطاعة والولاء. وقد كان لبلاغة السيد المسيح أثر عظيم في تعليم تلاميذه الذين كانوا يستمعون إليه، إذ كان يبهرهم ويسحرهم بعباراته الحلوة اللفظ العميقة المعنى، وينفذ إلى عقولهم بأمثاله البديعة، وتشبيهاته الرائعة وأقواله المأثورة التي كان لا يفتأ يستخدمها لتقريب معانيه السامية إلى مداركهم القاصرة. وكان سرعان ما يقنعهم ويفحم المعاندين منهم بقوة حجته وحضور بديهته ومواجهته لهم بأحكام شريعتهم وأقوال أنبيائهم. وكان يضاعف من أثر هذا كله في نفوسهم ماكانوا يستشعرونه من هيبته وعظمته، وما كانوا يرونه من نبل هيئته وجمال صورته وجلال شخصيته. فكان هذا كله من عوامل تأثيره فيهم كمعلِّم، ومن وسائل تهيئة نفوسهم لتكون تربة صالحة يغرس فيها تعاليمه فتستقر وتنمو وتثمر. كما كان من هذه العوامل والوسائل معجزاته وتنبوءاته، فقد كان يصنع المعجزات أمام الناس ليؤمنوا بأنه ليس مجرد إنسان، وأن تعاليمه إنما هي تعاليم الله. فكانت معجزاته هي الدليل على صدق تعاليمه. ومن ثم هي السبيل إلى ثقة الناس في تلك التعاليم واحترامهم لها وسلوكهم على مقتضاها. وكان السيد المسيح كذلك ينطق بالتنبوءات، حتى إذا تحققت علم الذين سمعوها أن قائلها صادق فيما كان يقول وفيما كان يفعل، فآمنوا به، وعملوا بتعاليمه، وأثمرت تلك التعاليم فيهم الثمر الذي أراده وقصد بحكمته إليه.

وقد كان من وسائل السيد المسيح التعليمية - فضلاً عما تقدَّم - الوصية والنصيحة، والأمر والنهي والتحذير، والسؤال والاختبار، والشرح والتوضيح وتصحيح الفهم، والقياس والمقارنة

والاستنتاج وتقرير الحقائق، واستخدام الأمثلة العملية والحقائق الملموسة وعناصر البيئة فى تقريب التعاليم إلى الأفهام. كما كان من وسائله التعليمية العطف على الناس والعناية بهم وإشباع حاجاتهم. وكان منها الاستحسان والتشجيع والترغيب والمكافأة. وكذلك العقاب والتوبيخ والتخجيل، والانتهار والتأديب والوعد والوعيد. بيد أن أعظم الوسائل على الإطلاق هى أنه كان يجعل نفسه قدوة للناس، فكان يفعل ما يقول، ويطبق على نفسه ما يطالب الناس به. وقد كانت حياته كلها فى أدق تفاصيلها مثلاً أعلى للناس، لو احتذوه لأغناهم ذلك عن كل تعليم، وعن كل تربية وتقويم. ومن ثم كانت حياة السيد المسيح فى ذاتها هى الدعامة الأولى لكل تعاليمه، وهى أبلغ وأبعد أثراً من كل ما تعلمه الإنسان منذ أن خلقه الله إلى نهاية الزمان.

وقد كانت عملية غسل السيد المسيح لأرجل تلاميذه درساً عملياً لهم، أراد أن يعلمهم به فضيلة التواضع. وقد كان ذلك عقب حادثة لمس فيها ميل بعض تلاميذه إلى العظمة العالمية وتطلعهم إليها قبل أن تتفتح عيونهم على حقيقة شخصيته الإلهية، ويدركوا كل الإدراك جوهر تعاليمه السماوية، فوبخهم على ذلك وأفهمهم معنى العظمة الحقيقية. إذ كانوا يظنون أنه سيجلس على عرش المملكة الأرضية لليهود على مقتضى الاعتقاد الذى كان سائداً بأن المسيح سيعيد للأمة اليهودية مجد مملكة داود. ومن ثم حدث كما جاء في الإنجيل للقديس متى أن تقدمت إليه أم تلميذيه يعقوب ويوحنا قائلة له «اسمح بأن يجلس ابناى هذان أحدهما عن يمينك والآخر عن يسارك فى مملكتك. أما يسوع فأجاب وقال: إنكما لا تدريان ما هو الذى تطلبان. أفتستطيعان أن تشربا الكأس التى سأشربها أنا، وأن تصطبغا بالصبغة التى سأصطبغ أنا بها؟. قالا له: نستطيع. فقال لهما: أما كأسى فتشربانها، وبالصبغة التى أصطبغ بها تصطبغان. وأما أن تجلسا عن يمينى وعن يسارى فليس لى أن أعطيه إلا للذين أُعِدَّ لهم من أبى الذى فى السماوات. فلما سمع التلاميذ العشرة الآخرون ذلك حنقوا على الأخوين. أما يسوع فدعاهم وقال لهم: أنتم تعلمون أن رؤساء الوثنيين يَعُدّون أنفسهم سادة لهم. وأن عظماءهم يتسلطون عليهم. أما أنتم فلا ينبغى أن يكون هذا فيما بينكم. وإنما من أراد أن يكون سيداً فليكن للجميع عبداً. ومن أراد أن يكون عظيماً بينكم فليكن لكم خادماً» (متى ٢٠ : ٢٠ – ٢٧). وجاء فى الإنجيل للقديس لوقا أن تلاميذ السيد المسيح «حدث بينهم نزاع فيمن ينبغى أن يعد الأعظم فيهم، فقال لهم: إن ملوك الوثنيين يسودونهم، والمتسلطين عليهم يحسبون ذوى الفضل فيهم. أما أنتم فلا ينبغى أن يكون هكذا فيما بينكم، وإنما الأعظم فيكم فليكن كالأصغر، والرئيس كالذى يخدم. لأنه من هو الأعظم: أهو الذى يجلس إلى المائدة أم الذى يخدم؟ أليس الذى يجلس إلى المائدة؟ ولكننى بينكم كالذى يخدم» (لوقا ٢٢ : ٢٤ – ٢٧). كما جاء فى الإنجيل للقديس لوقا أن تلاميذ السيد المسيح «خامرهم الفكر

فيمن عسى أن يكون هو الأعظم بينهم. فعلم يسوع فكر قلوبهم. ومن ثم أخذ طفلاً، وأقامه بين يديه، وقال لهم: إن من يقبل هذا الطفل باسمي فقد قبلني، ومن قبلني فقد قبل الذي أرسلني، لأن الأصغر بينكم جميعاً سيكون هو الأعظم فيكم» (لوقا ٩: ٤٦ – ٤٨).

وهكذا كان السيد المسيح يطلب إلى الناس أن يسلكوا سبيل التواضع فيما بينهم ويتجنبوا مظاهر العظمة الكاذبة. وكان هو نفسه أعظم المتواضعين. ليكون قدوة ومثالا لهم. وقد طلب إليهم أن يتشبهوا به في تواضعه فقال لهم «تعلموا مني أنا الوديع المتواضع القلب، تجدوا راحة لنفوسكم» (متى ١١: ٢٩). وقال إن «ابن الإنسان نفسه لم يأتِ ليخدم بل ليخدم» (متى ٢٠: ٢٨). وهكذا جعل من نفسه خادماً للناس وهو ربهم وسيدهم. ولعل أروع مثلٍ لتواضعه هو ذلك المثل العملي الذي ضربه لتلاميذه حين غسل أرجلهم كما رأينا. وقد أوضح بنفسه حكمة هذا الذي صنعه معهم، إذ أنه بعد أن غسل أرجلهم وأخذ رداءه، عاد فجلس إلى المائدة وقال لهم «أتفهمون ما قد صنعت بكم؟ إنكم تدعونني المعلم والرب، وحسنا تقولون لأنني أنا كذلك. فإن كنت وأنا ربكم ومعلمكم قد غسلت أرجلكم، فأنتم أيضاً ينبغي لكم أن يغسل بعضكم أرجل بعض، لأنني أعطيتكم مثالاً، حتى كما صنعت أنا بكم تصنعون أنتم أيضاً بعضكم ببعض. الحق الحق أقول لكم إنه ما من خادم أعظم من سيده وما من رسول أعظم ممن أرسله، إن عرفتم هذا فمباركون أنتم إن عملتم به». ولعل مما يستلفت النظر في تلك العبارة البليغة البالغة السمو التي قالها مخلصنا لتلاميذه أنه على الرغم مما يدل عليه غسله لأرجل تلاميذه من تواضع يفوق تصور البشر ويتجاوز حدود خيالهم، لم يمنعه ذلك من أن يقرر الحقيقة التي لا يمكن أن يحجبها تواضعه مهما يبلغ مدى هذا التواضع، وهي أنه هو المعلم وهو الرب، وهو يقرر ذلك لا عن تعاظم أو عن تفاخر أو زهو أو كبرياء أو استعلاء. وإنما عن معرفة كاملة لحقيقة شخصيته الإلهية وإيضاحٍ لأمر واقع وإفصاح عن حقيقة مقررة، كي يبين لتلاميذه مدى تواضعه، إذ تنازل وهو المعلم والرب كي يقوم بدور الخادم لمن هم عبيده وعباده، حتى يدفع بهم دفعاً قوياً وبطريقة عملية محسوسة وملموسة لأن يتمثلوا به فيما فعل ويتخذوه مثالاً لهم في فضيلة التواضع، مع أنهم مهما تواضعوا إذا غسل بعضهم أرجل بعض فلن يبلغ تواضعهم ما هو بمثابة قطرة واحدة من الماء بالنسبة لبحر زاخر تملأ مياهه الكون كله، لأنهم حين يتواضعون بعضهم نحو بعض فهم على أي حالٍ في مرتبة واحدة كبشر من طينة واحدة، ومن ثم لا يكاد تواضعهم في هذه الحالة يعد تواضعاً. في حين أن معلمهم إذ يتواضع معهم إلى الحد الذي يغسل فيه أرجلهم إنما يكون بذلك قد تنازل تنازل الله العظيم القدير الجبار الخالق لكل شخص ولكل شيء نحو الذين هم خليقته وعبيده وعباده، والذين هم بالنسبة إليه أصغر الأصاغر وأضعف الضعفاء وأقل في كيانهم منه بما لا يقاس، حتى يكادوا أن يكونوا بالنسبة إليه ذرات ضئيلة لا وزن لها على الإطلاق. فتلاميذ مخلصنا هم بالنسبة إليه لا يعدون أن يكونوا خداماً بالنسبة لسيدهم، وما من

خادم أعظم من سيده، ولا يعدون أن يكونوا رسلاً بالنسبة للربّ الذى أرسلهم، وما من رسول أعظم ممن أرسله. فلو أنهم عرفوا أن سيدهم وربهم قد تواضع حتى ارتضى أن يغسل أرجلهم، همّ خدامه ورسله، كى يحذر حذوه، ويتعلّموا أن يتواضعوا تواضعه، استحقوا بذلك رضاءه عنهم وبركته لهم، واستحقوا أن يكونوا تلاميذه وخلفاءه على الأرض فى الدعوة لملكوت السموات.

١٣ : ١٨ - ٣٠

السيد المسيح يتنبأ بخيانة يهوذا:

قال مخلصنا هذا لتلاميذه، ثم استدرك قائلاً: «لست أقول هذا عنكم جميعاً، فأنا أعرف الذين اخترتهم، وإنما ليتم المكتوب أن الذى أكل معى خبزى قد رفع على عقبه. أقول لكم هذا منذ الآن قبل أن يحدث، حتى إذا ما حدث تؤمنون أنى أنا هو»، إذ أنه بعد أن قال لهم «إن عرفتم هذا فمباركون أنتم إن عملتم به»، لم يلبث أن استثنى واحداً منهم اعتبره إياه غير مبارك، وهو يهوذا الخائن الذى كان مخلصنا قد وصفه من قبل بأنه شيطان، إذ جاء فى الإنجيل للقديس يوحنا أنه له المجد قال لتلاميذه «ألم أكن أنا الذى اخترتكم أنتم الاثنى عشر وواحد منكم لإبليس. قال هذا عن يهوذا بن سمعان الاسخريوطى أحد الاثنى عشر. لأنه كان هو الذى اعتزم أن يسلمه» (يوحنا ٦ : ٧٠ و٧١). وقد كان مخلصنا عندئذ يعلم أن يهوذا قد تآمر مع رؤساء اليهود على أن يسلمه إليهم ليقتلوه، بعد أن كان مخلصنا قد اختاره ضمن أقرب تلاميذه إليه، واصطحبه فى كل مكان ارتاده معهم، وأسمعه كل تعاليمه السامية ووصاياه السماوية، وأكل معه وشرب معه. وغمره بحبه وحدبه وحنانه إلى آخر لحظة، حتى إنه حين غسل أرجل تلاميذه منذ لحظة قصيرة غسل رجليه هو أيضاً باعتباره لا يزال واحداً منهم، بل إنه أشركه معهم قبل ذلك فى تناول عشاء الفصح. ولكن يهوذا مع كل ذلك قد ذهب عقله ومات ضميره أو كاد، وانحط شعوره فبلغ أسفه درجة يمكن أن يبلغها إنسان، حتى لقد خان سيده ومعلّمه ومربّيه ومهذّبه وصاحب الفضل عليه، فباعه لأعدائه نظير بضعة دريهمات كانت هى الثمن المقدر لشراء عبد. فتحققت بذلك الصفة التى وصفه به مخلصنا نفسه، إذ قال إنه شيطان. كما تحققت بذلك - كقول مخلصنا - النبوءة المكتوبة عنه فى سفر المزامير التى تقول إن «رجل سلامى الذى وثقت به، آكل خبزى رفع علىّ عقبه» (المزمور ٤٠ : ٩). وقد قرر مخلصنا أنه تنبأ لتلاميذه بما سيفعله ذلك الخائن، حتى إذا تحقق ذلك بالفعل وثبت صدق نبوءته، آمنوا بأنه هو المسيح ابن الله الذى ينتظرونه، والذى بقدرته الإلهية يعلم الغيب فى الماضى والحاضر والمستقبل، لأن علمه كامل شامل أزلى أبدى لا يحده زمان ولا مكان.

ثم قال مخلصنا لتلاميذه «الحق الحق أقول لكم إنّ مَنْ يقبل الذى أرسله يقبلنى، ومن يقبلنى يقبل الذى أرسلنى». فبعد أن استبعد ذلك التلميذ الذى خانه من قائمة رسله الأمناء. وبعد أن قرر أنه «ما من رسول أعظم ممن أرسله» فيما يتعلق بفضيلة التواضع التى يجب على الرسول أن

يتصف بها بعد أن رأى أن سيده نفسه الذى هو مرسله، والذى هو بهذا الاعتبار أعظم منه متصف بها، وقد مارسها بالفعل في أروع صورها، عاد مخلصنا فأعطى كرامة لتلاميذه الذين هم رسله، حتى كاد أن يساويهم بنفسه فيما له من كرامة ذاتية، لأنهم ماداموا رسلاً له، إنما يعتبرون بهذه الصفة ممثلين له، ومستمدين كرامتهم من كرامته. فأولئك الذين يقبلونهم ويقابلونهم بالإكرام والاحترام والتقدير والتقديس، إنما يكرمونه هو نفسه بذلك ويحترمونه ويقدرونه ويقدسونه. ولما كان هو نفسه مرسلاً من الله أبيه السماوى الذى هو متحد به، فإن أولئك إذ يكرمونه ويحترمونه ويقدرونه ويقدسونه فى شخص رسله، إنما يكرمون الآب نفسه ويحترمونه ويقدرونه ويقدسونه. وهكذا رفع مخلصنا بهذه العبارة تلاميذه الأمناء الأوفياء الذين هم رسله إلى أعلى منزلة بين البشر. فألزم بذلك سائر البشر الذين يرسلهم إليهم أن يرفعونهم إلى تلك المنزلة ذاتها التى رفعهم هو إليها، وأن يعاملونهم على هذا الاعتبار بكل إجلال وإكبار وتبجيل ووقار، ويطيعوهم فيما يوصونهم به باعتبار وصاياهم هي وصاياه هو نفسه، الجديرة بكل طاعة وخضوع وخشوع.

وعلى الرغم من أن مخلصنا ذكر لتلاميذه وكرر فى إشارات عابرة أن واحداً منهم سيخونه، فإنهم لم ينتبهوا إلى هذه الحقيقة إنتباهاً كافياً، لأنهم - ما عدا الخائن نفسه - لم يكن ليخطر لهم هذا الأمر على بال. بل لم يكونوا يتصورونه ولو فى الخيال. ومن ثم رأى مخلصنا بحكمته السامية أن يصارحهم بهذه الحقيقة الخطيرة المريرة على نفسه، إذ لم يلبث أن اضطرب بالروح فى ألم عظيم ونفس حزينة، وصرّح قائلاً «الحقّ الحقّ أقول لكم إن واحداً منكم سيسلمني». فوقع عليهم ذلك القول وقوع الصاعقة العنيفة العاتية المفاجئة، وأخذوا ينظرون بعضهم إلى بعض، مذهولين مبهوتين حائرين لا يدرون من الذى يعنيه بقوله هذا، وقد تملكتهم الدهشة والرهبة، فلم يجسر واحد منهم على أن يسأله عمّن يكون هذا الخائن من بينهم. الذى بلغت به الخسة والدناءة والوضاعة أن يسلّمه لأعدائه كى يقتلوه. وحتى بطرس الذى كان أكثرهم جرأة وإندفاعاً وإسراعاً فى التعبير عن مشاعره، لم يجرؤ فى هذه المرّة على مخاطبة معلّمه بتلك الصراحة المعهودة فيه والمعروفة عنه. وكان متكئاً فى حضن مخلصنا واحد من تلاميذه، لم يشأ القديس يوحنا أن يذكر اسمه مكتفياً بأنه قال عنه إنه «هو الذى كان يسوع يحبه»، وكان ذلك تواضعاً منه وإخفاء لشخصه، لأن ذلك التلميذ هو القديس يوحنا نفسه، وإن كان قوله هذا ينطوى فى الوقت نفسه على فخر وفرح بمحبة مخلصنا له. لأنه كان أقرب تلاميذه إليه وأكثرهم تعلقاً به. فأومأ إليه سمعان بطرس بإشارة خفية ليسأله عمّن يعني بقوله. فانحنى ذلك التلميذ وهو يوحنا على صدر مخلصنا، وقال له بصوتٍ هامسٍ «ربى، منْ هو؟». فأجاب مخلصنا قائلاً «إنه هو الذى

سأعطيه اللقمة التي أغمسها، ثم غمس اللقمة وأعطاها ليهوذا بن سمعان الإسخريوطي. وهكذا تحققت بحذافيرها النبوءة القائلة «آكل خبزي رفع عليَّ عقبه» (المزمور ٤٠: ٩). فبعد أن أخذ يهوذا اللقمة دخله الشيطان. أو بالأحرى أطبق الشيطان قبضته عليه إطباقاً كاملاً، فملأ قلبه وعقله وروحه إمتلاءً كاملاً شاملاً، بحيث أصبح يهوذا عبداً في يده، بعد أن كان مجرد تابع مطيع له، يستحل لنفسه - بناء على توجيهاته - السرقة من كيس النقود الذي ائتمنه معلمه عليه، وجعله في حوزته، كما يستحل الغيرة من معلمه والحقد عليه إذ يرى تمجيد الناس له، في حين أنه يطمع هو نفسه في هذا التمجيد لنفسه، كما يبدو ذلك واضحاً وفاضحاً في تنديده بما فعلته مريم أخت لعازر حين عبَّرت عن تمجيدها لمخلصنا بأن غسلت بالطيب الغالي الثمن قدميه ومسحتهما بشعر رأسها وإذ كان مخلصنا يعلم أن يهوذا قد سقط سقوطاً نهائياً في يد الشيطان بعد أن غمس اللقمة وأعطاه إياها، وأصبح من المؤكد أنه سيستمر في تنفيذ مؤامرته التي حاكها مع رؤساء اليهود، ولم يعد ثمة سبيل بعد ذلك لأن يثوب إلى رشده ويتوب عن شره، ولما كان مخلصنا قد اعتزم إتمام عمل الخلاص واتجه لهذه الغاية نحو الصليب ليقدِّم نفسه ذبيحة عليه في اليوم التالي الذي يوافق عيد الفصح، باعتباره هو حمل الفصح الحقيقي، نظر إلى يهوذا وقال له «ما أنت فاعله فافعله سريعاً»، طالباً منه بذلك أن يذهب فوراً ليتمم تنفيذ مؤامرته مع رؤساء اليهود بأن يسلمه إليهم في تلك الليلة ليقتلوه في اليوم التالي، أي في الوقت المحدد بالدقة لموته على الصليب فداء عن البشر. كما أنه قصد بطلبه هذا من يهوذا أن ينفرد بعد خروجه ببقية تلاميذه الأمناء المخلصين كي يودعهم ويزودهم بوصاياه الأخيرة لهم. بيد أن الأمر الذي لا يسع العقل البشري إلا أن يقف مشدوهاً أمامه هو المدى الذي وصل إليه حلم مخلصنا ورقته وتسامحه وسماحته، إذ أنه على الرغم مما كابده من ألم ومرارة إزاء تلك الخيانة الخسيسة من أحد تلاميذه حتى ليقول الإنجيل نفسه أنه «اضطرب بالروح»، لم يشأ أن يفضح ذلك التلميذ علانية أمام زملائه، فلم يذكر لهم أنه هو الذي سيخونه على الرغم من أنهم كانوا في أشد اللهفة ليعرفوا شخصية ذلك الخائن من بينهم. وإنما همس بذلك همساً للجالس منهم بجواره، بل إنه حتى في العبارة التي وجهها إلى يهوذا نفسه إذ قال له «ما أنت فاعله فافعله سريعاً»، لم يوضح ما هو ذلك الذي يفعله يهوذا، حتى إنَّ أحداً من التلاميذ الجالسين إلى المائدة لم يعرف لماذا قال له هذا، فظن بعضهم، إذ كان كيس النقود مع يهوذا، أنَّ مخلصنا قال له «اشتر ما نحتاج إليه في العيد»، أو أمره بأن يعطى الفقراء شيئاً كما اعتاد مخلصنا أن يفعل. أما يهوذا فبعد أن أخذ اللقمة خرج على الفور لتنفيذ مؤامرته ضد معلمه، مما يدل على أن يهوذا على الرغم من أنه أدرك عندئذ أنَّ معلمه يعلم بتلك المؤامرة التي يحيكها سراً مع أعدائه ليسلمه إليهم كي يقتلوه، لم يستيقظ ضميره

الجاحد. أو يرق قلبه الجامد، ولم يتراجع عن جريمته الشنيعة البشعة. إذ كان قد عقد العزم عليها بصفة نهائية لا رجعة فيها ولا نكوص عنها. وكان الوقت حين خرج ليلاً. وهو الوقت الذى رآه مناسباً لتنفيذ مؤامرته وتسليم سيده لقاتليه تحت جنح الظلام، بعيداً عن أعين الشعب الذى يحبه ويؤمن به ويعمل على الثورة ضد أعدائه لو أنهم حاولوا أن يلحقوا به أى سوء.

١٣ : ٣١ - ٣٣

خروج يهوذا لتتميم المؤامرة:

فلما خرج يهوذا الخائن قال مخلصنا «الآن قد تمجد ابن الإنسان، وتمجد الله فيه. وإن كان الله قد تمجّد فيه فإن الله سيمجدّه في ذاته، وسيمجده سريعاً. أى أن نجاح يهوذا فى مؤامرته مع رؤساء اليهود للقبض على مخلصنا وتعليقه على خشبة الصليب، قد فتح الباب لآخر حلقة من حلقات المهمّة التى جاء مخلصنا إلى العالم لإنجازها، وهى أن يموت فداء عن البشر لخلاصهم من الهلاك الأبدى الذى كان محكوماً عليهم بسبب خطاياهم، وفقاً للتدبير الإلهى. وبإنجاز مخلصنا لهذه المهمة التى اقتضت أن يتخذ وهو ابن الله جسد ابن الإنسان ليموت فيه على خشبة الصليب فداء عن البشر، قد نجح في تحقيق هدف الله الآب وهدفه هو. وكان نجاحه يتضمن إنتصاره. وكان إنتصاره يتضمن تمجيده. فيالها من مفارقة عجيبة أن خشبة الصليب التى كانت رمزاً للهوان والعار واللعنة فى الشريعة اليهودية إذ تقول إن «المعلق على خشبة ملعون» (التثنية ٢١ : ٢٣)، أصبحت بموت مخلصنا عليها رمزاً للمجد والفخر والبركة، بل أصبحت وهى وسيلة الموت على الأرض، هى وسيلة الحياة الأبدية فى السماء. وإذ تمجّد ابن الإنسان الذى هو فى نفس الوقت ابن الله بموته على الصليب، تمجّد الله فيه بهذا التدبير الذى أعطى به أسطع دليل وأروع برهانٍ على محبته للبشر.. «لأنه هكذا أحب الله العالم حتى إنه بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبدية» (يوحنا ٣ : ١٦). وإن كان الله الآب قد تمجّد فى ابنه الذى اقتضى تدبير رحمته للبشر أن يقدّمه فداء عنهم ليكون واسطة الصلح بينه وبينهم، لأن «الله كان فى المسيح مصالحاً العالم لنفسه، غير حاسب لهم خطاياهم» (٢ . كورنثوس ٥ : ١٩). فإن الله الآب سيمجد ابنه في ذاته، لأنه متحد به اتحاداً كاملاً، ومن ثم فإنَّ مجد الآب هو مجد الابن، ومجد الابن هو مجد الآب فى الوقت نفسه. وقد ورد مخلصنا هذا المعنى فى موضع آخر، إذ يقول لأبيه السماوى «يا أبتاه قد أتت الساعة. مجّد ابنك ليمجدك ابنك.. أنا قد مجدتك على الأرض، والعمل الذى أعطيتنى لأعمل قد أكملته. فالآن مجدنى يا أبتاه عند ذاتك بالمجد الذى كان لى عندك من قبل كَوْنِ العالم» (يوحنا ١٧ : ١

و٤ و٥) . أما قول مخلصنا بعد ذلك إن الله الآب «سيمجده سريعاً» ، فإنما يعنى أن موته على الصليب الذى هو من آيات مجده سيتم بعد ساعات قليلة، لأنه قال هذا فى مساء يوم خميس العهد، ثم مات على الصليب فى الساعة التاسعة من نهار اليوم التالى وهو يوم الجمعة الحزينة . وهكذا برهن مخلصنا له المجد بقوله هذا على أنه كان على علم إلهى كامل بكل الأحداث التى ستأتى عليه ساعة بساعة ، بل لحظة بلحظة ، وفق توقيت دقيق لا يقدر عليه إلا الله وحده .

وبعد أن قال مخلصنا هذا إلتفت إلى تلاميذه قائلاً لهم: «يا أبنائى أنا باقٍ معكم زماناً يسيراً بعد، وستطلبوننى، وكما قلت لليهود حيث أذهب أنا لا تستطيعون أنتم أن تأتوا. أقول لكم أنتم أيضاً الآن» . وقد كانت لهجة حديث مخلصنا إلى تلاميذه حين قال لهم هذا تنم عن حبٍّ عظيم لهم وإشفاقٍ عظيم عليهم، إذ خاطبهم قائلاً «يا أبنائى» شأن الأب الحنون العطوف على أبنائه وهو يودعهم، مصارحاً إياهم بأنه قد أوشك أن يرحل عنهم بعد لحظات معدودة حين يقبض أعداؤه عليه ويأخذونه ليقتلوه . ولسوف يكون هذا أمراً شديد القسوة عليهم. بعد أن لازمهم ولازموه ملازمة كاملة ودائمة سنوات كثيرة . كان هو فى أثنائها أباهم وحبيبهم ومعلمهم وحاميهم ومحاميهم ومصدر قوتهم وعزتهم وأمنهم وطمأنينتهم، فلم يكونوا يقعون فى ضيق، إلا بادر فأزال أسباب ضيقهم، ولم يكونوا يتعرضون لخطر إلا سارع فأبعد الخطر عنهم. أمّا وقد أوشك أن يذهب عنهم. فإنهم سيجدون أنفسهم كاليتامى الذين لا حول لهم ولا قوة أمام الضيقات والمخاطر التى يعلم أنها تنتظرهم، وأنها ستحيط بهم من كل جانب فى مواجهة أعدائه وأعدائهم الذين سيضطهدونهم ويعاملونهم فى قسوة ووحشية أكثر ضراوة من قسوة الوحوش نفسها ووحشيتها. وعندئذ سيلتفتون حولهم ويطلبونه ليستنجدوا به فلا يجدونه كما كان يجدونه فى أثناء حياته على الأرض معهم، وإن كان سيظل معهم بقوة لاهوته بعد إرتفاعه عنهم إلى السماء، وقد وعدهم بذلك بعد قيامته ، إذ قال لهم «وهأنذا معكم كل الأيام إلى إنقضاء الدهور» (متى ٢٨ : ٢٠) . وأما إذا طلبوه وهو فى الجسد كما كان من قبل بينهم وبحثوا عنه وأرادوا أن يأتوا إليه بعد صعوده . لن يستطيعوا أن يأتوا إلى حيث يذهب هو، أى إلى السماء، فلن يستطيعوا ذلك، كما سبق أن قرر لليهود إذ قال لهم: «أنا باقٍ معكم زماناً يسيراً بعد ثم أمضى إلى الذى أرسلنى. عندئذ ستطلبوننى فلا تجدوننى، وحيث أكون أنا لا تستطيعون أنتم أن تأتوا» (يوحنا ٧ : ٣٣ و٣٤) . كما قال لهم «إننى سأمضى وستأخذون تبحثون عنى، وتموتون فى خطاياكم. فحيث أمضى أنا لا تستطيعون أنتم أن تأتوا» (يوحنا ٨ : ٢١) . بيد أن ثمة فارقاً كبيراً بين ما تعنيه عبارته التى قالها لتلاميذه، وما تعنيه عبارته التى قالها للمنكرين له من اليهود. إذ أنه كان يعنى بالنسبة لتلاميذه المحبين له المؤمنين به أنه بإرتفاعه عنهم إلى السماء سيفارقهم بالجسد،

وسيظل مع ذلك مؤيداً ومسانداً لهم بروحه القدوس إلى الأبد، وأنهم إن كانوا لن يستطيعوا أن يذهبوا الآن في أثناء حياتهم على الأرض إلى حيث يذهب إلى السماء، فإنهم سيذهبون فيما بعد إلى حيث هو في السماء، إذ وعدهم بعد ذلك قائلاً «أنا ذاهب لأعد لكم مكاناً، ولئن ذهبت وأعددت لكم مكاناً سأجيء ثانية وآخذكم إليّ حتى تكونوا أنتم معي حيث أكون أنا» (يوحنا ١٤ : ٢ و٣). أما بالنسبة لليهود الذين عادوه واعتدوا عليه وأصروا على إنكارهم له بوصفه المسيح ابن الله، ثم آخر الأمر قتلوه بأبشع وأشنع وسيلة، فإنهم بعد إرتفاعه إلى السماء لن يستطيعوا مهما حاولوا ذلك أن يأتوا إلى حيث يذهب، إذ حلّ غضبه عليهم إلى الأبد واستحقوا بذلك الموت الأبدي، بدليل قوله لهم «إنني سأمضي، وستأخذون تبحثون عني وتموتون في خطاياكم» (يوحنا ٨ : ٢١).

١٣ : ٣٤ و٣٥

وصية السيد المسيح للتلاميذ بالمحبة:

وإذ كان مخلصنا يودع تلاميذه الوداع الأخير قبل موته، أعطاهم وصية هي في الواقع أعظم وصاياه، بل هي محور وجوهر كل وصاياه، حتى لتدور حولها كل روح المسيحية التي غرسها في تلاميذه وفي كل المؤمنين به إلى آخر الدهر، إذ قال لهم: «وصية جديدة أنا أعطيكم: أن تحبوا بعضكم بعضاً. كما أحببتكم أنا فتحبوا أنتم أيضاً بعضكم بعضاً. بهذا يعرف الجميع أنكم تلاميذي إذا أحببتم بعضكم بعضاً». ويا له من حب ليس أعظم منه حب ذلك الذي أوصاهم أن يحبوا به بعضهم بعضاً، لأنه طالبهم بأن يكون حبهم هذا مساوياً ومماثلاً لحبه هو نفسه لهم وللبشر جميعاً، إذ بلغ هذا الحب أروع صورة يمكن أن يتصورها العقل أو يصل إليها مدى الخيال، لأنه بلغ حداً ليس ثمة حد بعده يمكن أن يخطر بالبال، إذ ارتضى وهو ابن الله، وهو الله ذاته، في صورة ابن مريم، بسبب هذا الحب الذي يضمره للبشر أن يبذل نفسه فيموت فداء عنهم لينقذهم من الهلاك الذي كان محكوماً به عليهم. وقد قرر هو نفسه ذلك حين كرر تلك الوصية بعد ذلك لتلاميذه قائلاً: «هذه هي وصيتي أن تحبوا بعضكم بعضاً كما أحببتكم أنا. ما من حب أعظم من أن يبذل أحد نفسه عن أحبائه» (يوحنا ١٥ : ١٢ و١٣). فبهذا القدر العظيم العميق من الحب الذي أحب مخلصنا به تلاميذه والمؤمنين به، ينبغي أن يحبوا هم بعضهم بعضاً، لأنهم بهذا وحده يثبتون أنهم تلاميذه حقاً وصدقاً، ماداموا يتخذونه مثالاً يحتذونه ويسيرون في حياتهم على منواله، وإلا فإنهم لا يستحقون أن يكونوا تلاميذ حقيقيين له.

تنبأ السيد المسيح بإنكار بطرس:

وإذ قال مخلصنا لتلاميذه إنه لن يبقى معهم إلا زماناً يسيراً بعد، وإنه حيث يذهب هو لا يستطيعون هم أن يأتوا، سأله سمعان بطرس الذى اعتاد أن يتحدث نيابة عن زملائه التلاميذ، قائلاً «إلى أين تذهب يا رب؟». ويدل هذا السؤال على أن التلاميذ لم يكونوا إلى ذلك الحين يعلمون شيئاً عن الأحداث الخطيرة التي كانت ستقع لمعلمهم، مع أن هذه الأحداث كانت ستبدأ بعد لحظات قليلة. ومن ثم لم تكن لديهم إلى ذلك الحين فكرة واضحة عن مهمة الفداء التى جاء معلمنا لينجزها مع أنه طالما حدثهم عنها منذ ابتدأ يعلمهم حتى هذه الساعة، إذ تنبأ لهم وحدهم، أو تنبأ للجموع على مسامعهم بأن اليهود سيمسكونه ويذيقونه كل صنوف الألم والعذاب، ثم يقتلونه بعد أن يسلموه للحاكم الوثنى الرومانى، وأنه سيظل فى القبر ثلاثة أيام ثم يقوم بعد ذلك عائداً إلى الحياة. وقد كان يقول ذلك عن طريق الرمز تارة، وعن طريق التشبيه تارة أخرى. كما كان يقوله تلميحاً غامضاً موجزاً أحياناً، وصريحاً واضحاً بكل تفاصيله أحياناً أخرى. إذ حدث أن «أجابه قوم من الكتبة والفريسيين قائلين: يا معلم نريد منك آية. فأجاب وقال لهم: إنَّ جيلاً شريراً وفاسقاً إذ يطلب آية لا تعطى له سوى آية يونان النبى، لأنه كما مكث يونان ثلاثة أيام وثلاث ليال فى جوف الحوت، كذلك يمكث ابن الإنسان ثلاثة أيام وثلاث ليال فى جوف الأرض» (متى ١٢ : ٣٨ - ٤٠). وقد جاء في العهد القديم من الكتاب المقدس أن اليهود حين كانوا فى صحراء سيناء بعد خروجهم من مصر قتلت الحيات المحرقة عدداً كبيراً منهم «فقال الرب لموسى اصنع لك حيةً محرقة وضعها على راية، فكل من لُدغ ونظر إليها يحيا. فصنع موسى حية من نحاس ووضعها على الراية فكان متى لدغت حيةٌ إنساناً ونظر إلى حية النحاس يحيا» (العدد ٢١ : ٦ - ٩). ومن ثم جعل مخلصنا هذه الحية المرفوعة رمزاً لرفعه على الصليب قائلاً إنه «كما رفع موسى الحيّةَ فى البرية، هكذا ينبغى أن يُرفع ابن الإنسان، لكى لا يهلك كل من يؤمن به، وإنما ينال الحياة الأبدية» (يوحنا ٣ : ١٤ و١٥). وقال لتلاميذه إنَّ «لى معمودية لأصطبغ بها، وما أشد ما أعانى حتى تتم» (لوقا ١٢ : ٥٠). وقد قصد بالمعمودية هنا الآلام التى ستغمره كأنها معمودية دم، والتى سيظل يعانيها حتى ينجز الرسالة التى جاء من أجلها إلى العالم. وقال لتلميذيه يعقوب ويوحنا أمام باقى التلاميذ: «أفتستطيعان أن تشربا للكأس التى سأشربها أنا، وأن تصطبغا بالصبغة التى سأصطبغ أنا بها؟» (مرقس ١٠ : ٣٨). وكان يعنى كأس

الموت التي يعرف أنه سيشربها، وصبغة الآلام التي يعرف أنه سيعانيها. وحين جاءت مريم أخت لعازر بقارورة طيب غالي الثمن ودهنت به قدمي مخلصنا ومسحتهما بشعر رأسها، تذمّر يهوذا الإسخريوطي زاعماً أن في ذلك إسرافاً وإتلافاً. أما هو فقال «دعوها فقد حفظت هذا ليوم دفني» (يوحنا ١٢ : ٧). حتى إذا حان الوقت الذي شاءت حكمة مخلصنا أن يصارح فيه تلاميذه بكل ما سيحدث له على أيدي اليهود، بدأ يفعل ذلك، وإن يكن بالتدريج، لكي لا يصدمهم أو يثبط هممهم. فراح يفضي إليهم بالحقيقة شيئاً فشيئاً، ويكشفها لهم درجة درجة، ومرحلة بعد مرحلة. فقال لهم «إن ابن الإنسان سوف يسلّم إلى أيدي الناس» (لوقا ٩ : ٤٤). ثم قال لهم إنه «ينبغي أولا أن يعاني آلاماً كثيرة وأن يرفضه هذا الجيل» (لوقا ١٧ : ٢٥). ثم قال لهم «إنّ ابن الإنسان سوف يُسلّم إلى أيدي الناس فيقتلونه. وفي اليوم الثالث يقوم» (مرقس ٩ : ٣٠). ثم قال لهم بتفصيل أكثر «إن ابن الإنسان ينبغي أن يتألم كثيراً ويمتهن من الشيوخ ومن رؤساء الكهنة والكتبة ويُقتل وبعد ثلاثة أيام يقوم» (مرقس ٨ : ٣١). ثم حدّد المكان الذي سيقتله اليهود فيه، فقال لهم «إنه ينبغي أن يمضي إلى أورشليم ويعاني آلاماً كثيرة من الشيوخ ورؤساء الكهنة والكتبة ويقتل ثم في اليوم الثالث يقوم» (متى ١٦ : ٢١ – ٢٨). ثم أوضح إجراءات محاكمته وزاد من تفصيلات ما سيعاني من صنوف الألم والهوان، فقال لهم «ها نحن أولاء صاعدون إلى أورشليم ولسوف يُسلم ابن الإنسان إلى رؤساء الكهنة وإلى الكتبة فيحكمون عليه بالموت، ويسلمونه إلى الوثنيين ليهزأوا به ويجلدونه ويصلبوه، وفي اليوم الثالث يقوم» (متى ٢٠ : ١٨ و١٩). ثم أضاف مزيداً من مظاهر العار الذي سيتعرّض له فقال لهم إنه «سيتم كل ما هو مكتوب بالأنبياء عن ابن الإنسان، فإنهم سيسلمونه إلى الوثنيين، ويهزءون به ويهينونه، ويبصقون عليه. وبعد أن يجلدونه يقتلونه، وفي اليوم الثالث يقوم» (لوقا ١٨ : ٣١ – ٣٣).

وبذلك أعطاهم صورة كاملة شاملة لأدق التفاصيل عمّا سيفعله به اليهود منذ أن يمسكوه غدراً إلى أن يقتلوه ظلماً وبغياً على خشبة الصليب. حتى إذا جاء موعد بدء هذه الآلام التي سيعانيها وهذا الموت الذي سيشرب كأسه صارحهم كما رأينا قائلاً «الحقّ الحقّ أقول لكم إنّ واحداً منكم سيسلمني» (يوحنا ١٣ : ٢١). ثم قال لهم أخيراً: «يا أبنائي أنا باقٍ معكم زماناً يسيراً بعد، وستطلبونني، وكما قلت لليهود حيث أذهب أنا فلا تستطيعون أنتم أن تأتوا» (يوحنا ١٣ : ٣٣).

ومع ذلك فإنهم على قدر ما مهد أذهانهم لمعرفة ما سيحدث له وظل يفعل ذلك إلى آخر لحظة لم يفهموا ما يرمي إليه وسألوه على لسان سمعان بطرس «إلى أين تذهب يا رب؟».

فأجاب مخلصنا قائلاً «حيث أذهب أنا لا تستطيع أنت الآن أن تتبعني. ولكنك ستتبعني أخيراً». أي أن الآلام التي سيعانيها مخلصنا بعد ساعات قليلة لن يستطيع بطرس الآن أن يعانيها، والموت الذي سيتجرع كأسه مخلصنا على خشبة الصليب لن يستطيع بطرس الآن أن يتجرعه. ولكنه فيما بعد سيتبع معلمه في طريق آلامه وموته، حين يشهد له ويستشهد في سبيله. فقال بطرس في حماسته المعهودة واحساسه المتدفق: «يارب لماذا لا أستطيع أن أتبعك الآن؟ إنني أفديك بحياتي». وعندئذ أجابه مخلصنا إجابة رهيبة مذهلة لا شك أنها فاجأت بطرس مفاجأة تكاد أن تكون قاتلة، إذ قال له في ألم ومرارة «أتفديني بحياتك؟ إنه لن يصيح الديك حتى تكون قد أنكرتني ثلاث مرات».

الفصل الرابع عشر

١٤ : ١ – ٣

تعزية المسيح للتلاميذ عن مفارقته لهم:

ثم واصل فادينا الحبيب كلماته الوداعية لتلاميذه ووعوده المعزية لهم ووصاياه الأخيرة إليهم، قائلاً «لا تضطرب قلوبكم. إن كنتم تؤمنون بالله فآمنوا بى. إنَّ فى بيت أبى منازل كثيرة. فإن لم يكن كذلك لقلت لكم. أنا ذاهب لأُعِدَّ لكم مكاناً، ولئن ذهبت وأعددت لكم مكاناً سأجيء ثانية وآخذكم إلىَّ. حتى تكونوا أنتم معى حيث أكون أنا». فقد لمس مخلصنا ما انتاب تلاميذه من اضطراب حين علموا أنه سيتركهم بعد لحظات قليلة. وحين علموا فى نفس الوقت أنَّ واحداً منهم سيخونه ويسلمه لأعدائه كى يقتلوه، وأنَّ آخر منهم - أيضاً وهو من أكثرهم إلتصاقاً به وحماساً له - سينكره ويتبرأ من علاقته به أو معرفته له على الإطلاق. بل علموا كذلك أنهم جميعاً سيستولى عليهم الشك من نحوه فى هذه الليلة ذاتها حين يقبض أعداؤه عليه ويفرون هاربين وفقاً للنبوءة القائلة «إنى سأضرب الراعى فتتبدد خراف الرعية» (متى ٢٦ : ٣١)، (مرقس ١٤ : ٢٧). ومن ثم أراد مخلصنا العطوف الحنون الرقيق النفس المرهف الحس أن يخفف من اضطراب قلوبهم، ويعيد السكينة والطمأنينة إلى أرواحهم التى أهاجتها وأزعجتها تلك الأنباء العنيفة المخيفة التى أنبأهم بها. فصارحهم كى يسرِّى عنهم ويعزيهم بحقيقة رائعة تملأ القلوب الحزينة أفراحاً وتفعم النفوس القلقة المضطربة طمأنينة وارتياحاً، طالباً إليهم - قبل أن يفضى إليهم بتلك الحقيقة - أن يصدقوه فيما سيقوله لهم، وذلك بأن يتوطد إيمانهم به بوصفه المسيح ابن الله. لأنهم إن كانوا يؤمنون بالله فليؤمنوا به هو ابنه الكائن معه فى جوهر الألوهية دائماً، وليؤمنوا مِن ثَمَّ بأن ما سيقوله لهم هو حق وصدق، لأن الله لا يصدر عنه إلا الحق والصدق. ثم أفصح لهم بعد ذلك عن تلك الحقيقة التى لا يعلمها إلا هو وحده، وهى أنه إن تركهم الآن، فإنه لن يتركهم إلى الأبد، وإنما سيهيئ لهم السبيل كى يتبعوه إلى حيث يذهب، ليقيموا معه إقامة أبدية دائمة، لأن فى بيت أبيه السماوى منازل كثيرة مخصصة للمؤمنين به وبابنه الإلهى، سيقيمون فيها إقامة أبدية دائمة فى الوقت المخصص لذلك فى التدبير الإلهى. وقد أكَّد مخلصنا لتلاميذه أن هذه حقيقة ثابتة لا ينبغى أن يرتابوا فيها، وإلا لما قالها لهم، لأنه صادق فى كل ما يقول، ولا يمكن - وهو الإله الكامل الصفات - أن يقول إلا الصدق. وفى قوله له المجد «منازل كثيرة» ما يطمئن تلاميذه وسائر المؤمنين به إلى أن فى ملكوت الله مكاناً متسعاً لكل من يستحق الدخول إليه، وأنه لن يضيق الملكوت بمن هو أهل له، ولن يُقال لأحد من

القديسين ليس لك مكان في الملكوت، طالما أنه مستحق، بل إن «المنازل الكثيرة» تعني أيضاً المراتب المتباينة لأهل بيت الله من القديسين. ولما كان الله عادلاً وكان جزاؤه للناس وفقاً لأعمالهم، فلابد أن يكون الجزاء متفاوتاً، وهذا يطابقه قول المسيح له المجد «هأنذا آتي سريعاً، ومعي الجزاء الذي أجزي به كل واحد حسب عمله» (الرؤيا ٢٢ : ١٢) وقوله «لأنّ ابن الإنسان سيأتي في مجد أبيه مع ملائكته، وعندئذ سيجازي كل إنسان حسب أعماله» (متى ١٦ : ٢٧). ويقول الكتاب المقدس أيضاً «كل واحد سيأخذ أجرته بحسب تعبه» (١ . كورنثوس ٣ : ٨). ثم أنبأ مخلصنا تلاميذه بأنه وإن كان سيفارقهم الآن فإنه ذاهب ليعد لهم مكاناً في تلك المنازل التي في بيت أبيه. ولئن ذهب وأعد لهم مكاناً، إنه سيجيء ثانية ويأخذهم إليه، حتى يكونوا هم معه حيث يكون هو. بيد أن المجيء الثاني الذي وعدهم به ليأخذهم إليه سيكون على مراحل متتالية، وبكيفيات متفاوتة، فإنه سيجيء إليهم أولاً عند قيامته من بين الأموات بعد أن يموت على الصليب ويمكث في القبر ثلاثة أيام، وعندئذ سيظل معهم أربعين يوماً وهو في جسد مجده، يخاطبهم ويخاطبونه كما كان يفعل في أثناء وجوده معهم قبل موته، حتى يصعد أمامهم إلى السماء. ثم إنه سيجيء إليهم ثانيةً في يوم الخمسين حين يرسل عليهم نعمة الروح القدس الكائن أيضاً معه ومع الآب منذ الأزل، إذ يقول الوحي الإلهي إنّ «الذين يشهدون في السماء هم ثلاثة: الآب والكلمة والروح القدس. والثلاثة هم واحد» (١ . يوحنا ٥ : ٧). وقد أوضح مخلصنا ذلك لتلاميذه. إذ قال لهم بعد ذلك «لأنني ماضٍ إلى أبي.. وسأطلب إلى الآب فيعطيكم معزّياً آخر ليقيم معكم إلى الأبد.. يقيم معكم ويكون فيكم. لن أتركّكم يتامى، وإنما سأجيء إليكم. بعد قليل لن يراني العالم بعد، وأما أنتم فسوف ترونني. لأنني أنا حيّ فأنتم ستحيون أيضاً» (يوحنا ١٤ : ١٢ - ١٩).

فبحلول موهبة الروح القدس على التلاميذ وملازمته لهم طوال حياتهم على الأرض، يكون السيد المسيح قد حلّ بينهم ولازمهم ملازمة كاملة، يؤازرهم في أداء الرسالة التي كلفهم بأدائها من بعده، ويشجعهم على احتمال المتاعب والمصاعب والمصائب والأوجاع التي سيكابدونها في سبيل أداء هذه الرسالة، ويعزيهم ويقويهم على احتمال الموت نفسه الذي يعلم أنهم سيتجرعون كأسه جميعاً، إذ يؤدي بهم الجهاد في نهاية الأمر إلى الاستشهاد. ثم يجيء إليهم أخيراً في يوم الدينونة كي يفي بوعده حين قال لهم «الحق أقول لكم إنكم أنتم يا من تبعتموني، متى جلس ابن الإنسان على عرش مجده عند تجديد كل شيء، ستجلسون أنتم أيضاً على اثني عشر كرسياً، وتدينون أسباط إسرائيل الاثني عشر» (متى ١٩ : ٢٨). كما قال: «ومتى جاء ابن الإنسان في مجده وكل الملائكة القديسين معه، يجلس عندئذ على عرش مجده، وتجتمع أمامه كل الشعوب.. حينئذ يقول الملك للذين عن يمينه: تعالوا أيها المباركون من أبي لترثوا الملكوت المعد

لكم من قبل إنشاء العالم» (متى ٢٥: ٣١- ٣٤). وقال «حينئذ يضيء الأبرار مثل الشمس في ملكوت أبيهم» (متى ١٣: ٤٣)، وقال «لا تخف أيها القطيع الصغير، فإنه قد حسن لدى أبيكم أن يعطيكم الملكوت» (لوقا ١٢: ٣٢).

وفي قول مخلصنا لتلاميذه: «ولئن ذهبت وأعددت لكم مكاناً سأجيء ثانية وآخذكم إليَّ» وعد منه له المجد بمجيئه الثاني مرة أخرى في نهاية هذا الدهر الحاضر، وتوكيد لوعوده السابقة بهذا المجيء الذي سيدين فيه الأحياء والأموات. وفي ذلك يقول أيضاً: «لأن ابن الإنسان سيأتي في مجد أبيه مع ملائكته، وعندئذ سيجازي كل إنسان على حسب أعماله» (متى ١٦: ٢٧) ويقول: «ومتى جاء ابن الإنسان في مجده وكل الملائكة القديسين معه، يجلس عندئذ على عرش مجده، وتجتمع أمامه كل الشعوب فيفرز بعضهم من بعض» (متى ٢٥: ٣١) ويقول أيضاً: «من خزي مني ومن كلامي، سيخزى منه ابن الإنسان متى جاء في مجده، ومجد أبيه وملائكته القديسين» (لوقا ٩: ٢٦)، (مرقس ٨: ٣٧) ـ انظر أيضاً (متى ٢٤: ٣ و٣٠ و٣٧ و٣٩)، (٢٦: ٦٤)، (مرقس ٨: ٣٨)، (لوقا ٢٣: ٤٢)، (يوحنا ٢١: ٢٢)، (الأعمال ١: ١١)، (١ ـ كورنثوس ١١: ٢٦)، (١٥: ٢٣)، (١، تسالونيكي ٢: ١٩)، (٥: ٢)، (٢. تسالونيكي ٢: ١ و٨)، (٢. بطرس ٣: ٤ و١٢)، (١ ـ يوحنا ٢: ٢٨)، (الرؤيا ٣: ١١)، (٢٢: ٧ و١٢ و٢٠).

١٤: ٤- ٦

المسيح هو الطريق والحق والحياة:

ثم قال مخلصنا لتلاميذه وهو يودعهم: «أنتم تعرفون الطريق إلى حيث أنا ذاهب». فقال له تلميذه توما: «يارب إننا لا نعرف إلى أين أنت ذاهب، فكيف نعرف الطريق؟». قال له مخلصنا: «أنا هو الطريق والحق والحياة. لا يأتي أحد إلى الآب إلا بي».

وقد كان مخلصنا يعلم أن تلاميذه مازالوا كسائر اليهود يفكرون في مملكته تفكيراً مادياً، معتقدين أن المسيح سيكون ملكا أرضياً يقيم في الأرض مملكة أرضية. بيد أنه طالما صرح لهم وصارحهم كما سبق أن رأينا بأنه ما جاء إلى العالم إلا ليقدم نفسه ذبيحة عن البشر ليفديهم، مكفراً بذلك عن خطاياهم، كي ينقذهم ويعفيهم من حكم الهلاك الصادر من العدالة الإلهية عليهم بسبب هذه الخطايا. وقد كان هذا هو هدفه الأول والأعظم. فلم يكن إذن يهدف لأن يقيم مملكة أرضية، وإنما يعتزم بعد إنجاز مهمة الفداء التي جاء إلى العالم من أجلها أن يذهب إلى مملكته الحقيقية التي هي المملكة السمائية، وهي المملكة الإلهية الجديرة بشخصه الإلهي. ومن ثم فإنه حين قال لهم: «أنتم تعرفون الطريق إلى حيث أنا ذاهب»، كان بذلك يستدرجهم ليفهموا

تلك الحقيقة فهما صريحاً وصحيحاً. وبالفعل قال له توما كما كان يتوقع: «يارب إننا لا نعرف إلى أين أنت ذاهب، فكيف نعرف الطريق؟». وعندئذ أماط لهم اللثام عن تلك الحقيقة الجوهرية التى تتمثل فى شخصيته الإلهية، وهى حقيقة تنطوى فى ذاتها على ثلاث حقائق جوهرية هى أيضاً، وتؤدى كل منها إلى الأخرى، فتتكون منها كلها حقيقة واحدة شاملة، إذ قال له: «أنا هو الطريق والحق والحياة».

فمخلصنا ابن الله وكلمته هو «الطريق» الأوحد الذى يؤدى بالإنسان إلى الخلاص، وإلى معرفة الله الآب والإتصال به وعبادته وطاعته والعمل بأحكامه ووصاياه بحيث ينال رحمته ورضاه، ويتمتع بنعمته ويحيا على هُدى نوره وضياه. فمخلصنا بهذا المعنى هو الوسيط الأوحد بين الله الآب والناس. ولا يمكن أن يأتى أحد إلى الآب إلا به. وفى هذا المعنى يقول بولس الرسول فى رسالته إلى أهل روما «فإذ قد تبررنا بالإيمان لنا سلام مع الله بربنا يسوع المسيح الذى به أيضاً قد صار لنا الدخول بالإيمان إلى هذه النعمة التى نحن فيها مقيمون. ونفتخر على رجاء مجد الله» (رومية ٥: ١ و٢). وتنبأ إشعياء النبى عن مخلصنا قائلاً: «وتكون هناك سكة وطريق يقال لها الطريق المقدسة. ولا يَعْبر فيها نجس، بل هى لهم. من سلك فى الطريق حتى الجهّال لا يضل» (إشعياء ٣٥: ٨).

ومخلصنا هو «الحق»، لأنه هو كلمة الله الذى هو وحده الحق الكامل الذى تتضمنه كل صفات الكمال التى يتصف بها الله. فهو الحقيقة الوحيدة فى الكون كله التى لا تشوبها ذرّة واحدة من الباطل أو البطلان، ولا تتطرّق إليها خَطْرة واحدة من الريبة أو الشك. وتأييداً لذلك قال مخلصنا لليهود: «إن ثبتم متمسكين بكلامى، فبالحقيقة تكونون تلاميذى وتعرفون الحقّ، والحق يحرركم» (يوحنا ٨: ٣١ و٣٢). وفى هذا المعنى يقول القديس يوحنا فى مقدمة بشارته إنّ الكلمة الذى هو مخلصنا يسوع المسيح «اتخذ جسداً وحلّ بيننا، وقد أبصرنا مجده، مجد الابن الوحيد لأبيه، الممتلىء من النعمة والحق» (يوحنا ١: ١٤). ويقول: «إنّ الشريعة بموسى أعطيت، وأما النعمة والحق فبيسوع المسيح كاناه» (يوحنا ١: ١٧). كما يقول فى رسالته الأولى: «إن ابن الله قد جاء وأعطانا بصيرة لنعرف الحق، ونحن فى الحق فى ابنه يسوع المسيح. هذا هو الإله الحق والحياة الأبدية» (١ـ يوحنا ٥: ٢٠).

ومخلصنا هو «الحياة». لأنه فدانا ومات عنا ثم قام حياً فأحيانا بموته وأقامنا بقيامته من الموت الذى كان محكوماً به علينا، وقد صرّح مخلصنا نفسه بذلك فى موضع آخر إذ قال: «أنا هو القيامة والحياة» (يوحنا ١١: ٢٥). وقال لليهود «الحق الحق أقول لكم مالم تأكلوا جسد ابن

الإنسان وتشربوا دمه لا تكون لكم حياة في أنفسكم. من يأكل جسدي ويشرب دمي فله الحياة الأبدية، وأنا أقيمه في اليوم الأخير.. كما أن الآب الحي قد أرسلني، وأنا كذلك أحيا بالآب. هكذا إن الذي يأكلني يحيا بي. هذا هو الخبز الذي نزل من السماء. وهو ليس كالمن الذي أكله آباؤكم ثم ماتوا. من يأكل من هذا الخبز يحيا إلى الأبد» (يوحنا ٦: ٥٣- ٥٨). وقال: «أما أنا فأتيت لتكون لهم حياة ويكون لهم أفضل» (يوحنا ١٠: ١٠). وقال عنه القديس يوحنا في بشارته إن «فيه كانت الحياة» (يوحنا ١: ٤). كما قال في رسالته الأولى: «إن ابن الله قد جاء وأعطانا بصيرة لنعرف الحق.. هذا هو الإله الحق والحياة الأبدية» (١. يوحنا ٥: ٢٠). وقال المسيح له المجد في الرؤيا للقديس يوحنا اللاهوتي «من يغلب فسأعطيه أن يأكل من شجرة الحياة التي في وسط فردوس الحياة» (الرؤيا ٢: ٧).

وهكذا تتدرج هذه الحقائق الثلاث في تسلسلها، لتصبح حقيقة واحدة خالدة، فإن مخلصنا هو «الطريق» الوحيد، طريق الخلاص، المؤدي بالبشر إلى الله، وهو «الحق» الوطيد الأزلي الأبدي، لأنه هو نفسه الله، وهو «الحياة» في جوهرها ومصدرها، لأنه بكيانه الإلهي حيّ منذ الأزل وإلى الأبد، ولأنه بالنسبة لكل الكائنات به كانت الحياة. و «فيه كانت الحياة».

١٤: ٧- ١١

أنا في الآب والآب فيّ:

ثم قال مخلصنا لتلاميذه: «لو كنتم قد عرفتموني، لعرفتم أبي أيضاً. ومنذ الآن تعرفونه وقد رأيتموه». فقال له فيلبس: «يارب أرنا الآب وكفانا». قال له مخلصنا «أنا معكم كل هذا الزمان ولم تعرفني بعد يا فيلبس؟ من رآني فقد رأى الآب. فكيف تقول أنت أرنا الآب؟ ألا تؤمن بأني أنا في أبي وأنّ أبي فيّ؟ إن الكلام الذي أكلّمكم به لا أتكلم به من نفسي أنا وحدي، وإنما الآب الكائن فيّ هو الذي يعمل أعماله. صدقوني أني في أبي وأن أبي فيّ. وإلا فصدقوني من أجل الأعمال نفسها».

ويدل كلام فادينا لتلاميذه على أنهم حتى ذلك الحين ـ وهو يودعهم الوداع الأخير، بعد أن قضى معهم سنوات كثيرة يعلّمهم ويصنع المعجزات أمامهم ويفعل كل ما من شأنه أن يفتح أعينهم على حقيقة شخصيته الإلهية ـ ظلوا مع ذلك لا يعرفونه كما هو في حقيقته باعتباره ابن الله لأنه كان مستتراً في الجسد، وقد اتخذ له الجسد له حجاباً وإذ لم يعرفوه هو، برهنوا بذلك على أنهم لا يعرفون الله الآب نفسه. لأن الابن والآب كيان واحد، وطبيعة واحدة وإله واحد ولأن الابن هو صورة الله الغير المنظور (كولوسي ١: ١٥) وإنما ظلّ التلاميذ حتى آخر لحظة يعتقدون حقّاً أن هذا هو المسيح الذي ينتظرونه، ولكنهم كانوا كسائر اليهود يعتقدون أن المسيح

مجرد ملك من نسل داود يجيء ليجلس على عرش مملكة داود ليعيد إليها مجدها، بل ليجعلها سيدة الممالك وليجعل اليهود سادة الأرض كلها. ولكن مخلصنا لم يلبث أن أنبأهم بأنهم منذ تلك اللحظة التي يحدثهم فيها سيعرفونه حقاً، وسيعرفونه على حقيقته بعد أن يمسكه اليهود أمامهم، ويقتلونه على خشبة الصليب لينجز بذلك عمل الفداء الذي ما جاء إلى العالم إلا لينجزه. ثم إذ يراه تلاميذه بعد ذلك وقد أقام نفسه بين الأموات بسلطانه هو وحده بعد ثلاثة أيام مكثها في القبر، ثم يرونه بعد ذلك صاعداً أمام أعينهم إلى السماء بذات جسده الإنساني الذي اتخذه وعاش به بينهم، فإنهم عندئذ سيعرفونه، لا باعتباره ملكاً أرضياً كما كانوا يتوهمون، وإنما باعتباره الملك السماوي للكون كله، ولا باعتباره مجرد يسوع الإنسان ابن الإنسان الذي عاش بينهم كواحد منهم، وإنما باعتباره في نفس الوقت المسيح ابن الله، الذي هو كائن مع الآب منذ الأزل وإلى الأبد، ومن ثم إذ يعرفونه يعرفون أباه أيضاً، لأنهما كليهما ذات واحدة وكيان واحد. وإذ قد رأوه هو هو ابن الله، فقد رأوا فيه وفي ذات الوقت الله الآب نفسه الكائن معه في الجوهر الإلهي.

بيد أن التلاميذ ظلوا مع ذلك غير مدركين تماماً حقيقة شخصية معلمهم، ولا حقيقة علاقته بالآب السماوي، على الرغم من كل ما سبق أن قاله لهم وصنعه أمامهم. ومن ثم قال له أحد أولئك التلاميذ، وهو فيلبس «ياربـ أرنا الآب وكفانا». ولكن مخلصنا لم يغضب مع ذلك أو يستاء مما برهن عليه تلاميذه من بطء في الفهم وقصور في الإدراك، إذ كان يعلم أنهم قوم ريفيون بسطاء محدودو التفكير، قليلو الحظ - في ذلك الحين - من المعرفة أو الثقافة. في حين أن الأمور التي يحدثهم عنها ويطلب منهم إدراكها أمور سامية سماوية تفوق مدارك أعظم الفلاسفة وأعلم العلماء وأفقه الفقهاء، لأنها تتعلق بطبيعة الله التي لا يمكن للعقل البشري مهما كان ذكياً أو عبقرياً أن يرتفع درجة واحدة إلى مستواها الذي لا حد لرفعته، أو يغوص درجة واحدة إلى عمقه الذي لا حدّ لنهايته. فمن المحال بأي حالٍ من الأحوال أن يعرف شيئاً من أمرها، أو يكشف شيئاً من سرِّها إلا بواسطة إلهام من الله ذاته على فم واحدٍ من أنبيائه، أو بالأحرى على فم ابنه وكلمته، الذي وهو كائن معه في الثالوث الإلهي، اتخذ لنفسه جسداً كأجساد الناس وكلّم الناس بواسطته، وكشف لهم بعض الأسرار عن ماهية كيانه وكُنْهِ طبيعته. ومن ثم أجاب مخلصنا تلميذه في سماحة ووداعة وعتاب رفيق قائلاً «أنا معكم كلّ هذا الزمان ولم تعرفني بعد يا فيلبس؟ من رآني فقد رأى الآب، فكيف تقول أنت أرنا الآب؟ ألا تؤمن بأني أنا في أبي وأنّ أبي فيّ؟».

فقد كان ينبغي على التلاميذ وقد رأوا خلال السنوات الطويلة التي قضوها مع معلمهم تلك المعجزات التي صنعها بكلمة منه وبسلطانه وحده، والتي لا يمكن أن يصنعها إلا الله وحده، أن

يتبينوا ويعرفوا أن هذا فضلاً عن أنه هو ابن الله وكلمته، هو في نفس الوقت الله نفسه. لأن الله واحد. ولا يمكن أن يكون ابن الله إلا الله نفسه، كما لا يمكن أن يكون كلمة الله إلا الله نفسه كذلك. وقد كان حتى اليهود الذين أنكروا أن سيدنا يسوع هو المسيح الذي ينتظرونه يفهمون هذا الفهم، إذ أنهم حين قال لهم مخلصنا «إنّ أبى حتى الآن يعمل، وأنا أيضاً أعمل»، صمموا على قتله «لأنه قال أيضاً: الله أبى مساوياً نفسه بالله» (يوحنا ٥: ١٧ و١٨). ولذلك قرر مخلصنا لتلاميذه صراحة أنّ من رآه فقد رأى الآب. ولامَهم على أنهم لا يزالون حتى هذه اللحظة التى يودعهم فيها لا يدركون هذه الحقيقة، مما دفع بواحد منهم أن يطلب إليه أن يريهم الآب، مبرهناً بذلك على أنه مع بقية زملائه من التلاميذ لم يكونوا يؤمنون حتى هذه اللحظة أن معلمهم ابن الله في طبيعة واحدة مع الله الآب، وأن الله الآب في طبيعة واحدة مع ابنه، لأنهما كليهما واحد، بحيث إن الكلام الذي يكلمهم به لا يتكلم به من نفسه هو وحده، وإنما الآب الكائن فيه هو الذي يقول أقواله، وهو الذي يعمل أعماله. فأقوال الابن هى فى نفس الوقت أقوال الآب. وأعمال الآب هي في نفس الوقت أعمال الابن. وقد طالما قرر مخلصنا وكرر هذه الحقيقة من قبل. ومثال ذلك أنه قال «وأنا لم آتِ من نفسي وحدي، وإنما أرسلني ذلك الذي هو حق.. أما أنا فأعرفه لأني منه» (يوحنا ٧: ٢٨ و٢٩). وقال: «وإن لم أكن أعمل أعمال أبى فلا تؤمنوا بى. ولكن إن كنت أعمل أعماله فإن لم تؤمنوا بى آمنوا بالأعمال، لتعلموا وتعرفوا أنى أنا فى أبى، وأنّ أبي فيّ» (يوحنا ١٠: ٣٧ و٣٨). وقال «إن الذى يؤمن بى ليس بى يؤمن. وإنما آمن بالذى أرسلني. والذى يرانى فقد رأى الذى أرسلني» (يوحنا ١٢: ٤٤ و٤٥).

وإذ كان مخلصنا يعلَم أنّ هذا السر السماوى الذى يتعلق بطبيعة الله هو أعظم وأعمق وأعقد من أن يفهمه تلاميذه بعقولهم الريفية البسيطة، بل أن يفهمه أعظم المفكرين وأعلم العلماء، مالم يفتحوا للإيمان به عقولهم وقلوبهم، ويتقبلوه بأرواحهم وكل جوارحهم، لأن الإيمان به وقبوله يتطلب الإيمان أولاً بالسيد المسيح إلهاً ورباً، وقبوله فادياً ومخلصاً، والثقة فيه وفى كل ماقال وكل ما فعل ثقة كاملة لا يشوبها ظل من الشك مهما كان طفيفاً، أو يخامرها أثر من الريبة مهما كان خفيفاً، لم يستخدم مخلصنا فى إقناع تلاميذه بهذا السر أى نظرية من النظريات العلمية، أو أى برهان من البراهين الفلسفية، وإنما إذ كان يعلم أن تلاميذه يثقون كل الثقة فى صدقه فى كل ما يقول، بعد سنوات طويلة من ملازمتهم له والتصاقهم به ومعرفتهم إياه معرفة الأبناء لأبيهم، والتلاميذ لمعلمهم، قال لهم كى يقنعهم بذلك السر الإلهى العميق العويص الذى أفضى به إليهم

«صدقوني أني في أبي وأن أبي فيّ». ثم دعاهم إلى استخدام عقولهم، مهما تكن ريفية وبسيطة، في اللجوء إلى شيء من الاستنتاج والاستنباط، فاستطرد قائلاً «وإلا فصدقوني من أجل الأعمال نفسها»، أي أنهم إذا كان من العسير عليهم أن يصدقوا أنه هو الله نفسه وهم يرونه إنساناً بينهم، فليستنتجوا وليستنبطوا من المعجزات التي صنعها أمامهم، والتي لا يمكن أن يصنعها إلا الله وحده أنه هو الله، وإن يكن ظاهراً في جسد إنسان ولا سيما أن نبوءات أنبيائهم عن المسيح الذين تنبأوا جميعاً بأنه سيأتي إلى العالم يمكن أن تعينهم على إستيعاب هذه الحقيقة مهما تكن عسيرة على فهمهم أو مستعصية على تفكيرهم، فمع كون أولئك الأنبياء يصفون المسيح الذي كانوا ينتظرونه بأنه إنسان، فإنهم يصفونه في الوقت نفسه بأنه ابن الله، وبأنه كلمة الله، وبأنه في الوقت نفسه أيضاً هو الله ذاته، وينسبون إليه كل الصفات والقدرات الإلهية. ولولا أن نبوءاتهم كانت وحياً يتلقونه من الله وينطقون به كما يتلقونه دون أيّ تدخل من تفكيرهم الخاص، ما كان من الممكن أن يجمعوا في شخص المسيح بين هذه الصفات البشرية والصفات الإلهية، بتلك الصورة التي تفوق مدارك البشر وتتجاوز مدى تفكيرهم الإنساني، لقصور تلك المدارك، وعجز ذلك التفكير عن أن يصل إلى معرفة ماهية الله أو فهم طبيعته، أو مدى قدرته، أو سر تدبيره ومغزى حكمته فيما يفعل أو يقول. ولذلك قال الله في نبوءات إشعياء النبي موضحاً هذه الحقيقة: «لأن أفكاري ليست أفكاركم ولا طرقكم طرقي، يقول الرب، لأنه كما علت السموات عن الأرض هكذا علت طرقي على طرقكم وأفكاري عن أفكاركم» (إشعياء ٥٥: ٨ و٩).

ومن ثمّ فإن المزامير - التي نطق بها داود النبي وغيره من الأنبياء - تزخر بالنبوءات التي تصف المسيح بأنه ابن الله، إذ جاء فيها بلسان المسيح: «إني أخبر من جهة قضاء الرب. قال لي أنت ابني، أنا اليوم ولدتك.. فالآن أيها الملوك تعقلوا.. قبّلوا الابن لئلا يغضب فتبيدوا من الطريق.. طوبى لجميع المتكلين عليه» (المزمور ٢: ٧- ١٢). وجاء فيها قول الله الآب عن المسيح: «هو يدعوني أبي أنت.. أنا أيضاً أجعله بكراً أعلى من ملوك الأرض.. وكرسيه مثل أيام السماوات.. يثبت إلى الدهر» (المزمور ٨٨: ٢٦- ٣٧). كما جاء فيها: «اللهم أعط أحكامك للملك، وبرك لابن الملك، يدين شعبك بالعدل ومساكينك بالحق.. يقضي لمساكين الشعب.. يسجد له كل الملوك. كل الأمم تتعبد له.. يكون اسمه إلى الدهر.. ويتباركون به. كل أمم الأرض يطوبونه» (المزمور ٧١: ١- ٤ و١١- ١٧). وجاء في نبوءات إشعياء النبي: «لأنه يولد لنا ولد ونعطى ابناً، وتكون الرياسة على كتفه ويدعى اسمه عجيباً مشيراً إلهاً قديراً، أبا الأبد، رئيس السلام» (إشعياء ٩: ٦).

وجاء في نبوءات إشعياء النبي أن المسيح هو كلمة الله، وأن الله سيرسله لخلاص البشر، إذ يقول «كما ينزل المطر والثلج من السماء ولا يرجعان إلى هناك، بل يرويان الأرض ويجعلانها تلد وتنبت وتعطى زرعاً للزارع وخبزاً للآكل. هكذا تكون كلمتى التى تخرج من فمى، لا ترجع إلىّ فارغة. بل تعمل ما سررت به وتنجح فيما أرسلتها له» (إشعياء ٥٥: ١٠ – ١٢).

وقد أسندت النبوءات إلى المسيح كل الصفات الإلهية. إذ تنبأ إشعياء النبى قائلاً إنه سيكون «إلهاً قديراً» (إشعياء ٩: ٦). وتنبأ إرميا النبى قائلاً «هذا هو اسمه الذى يدعونه به: الرب برنا» (إرميا ٢٣: ٦). وقال داود النبى فى المزامير مشيراً إلى المسيح: «قال الربّ لربّى اجلس عن يمينى حتى أضع أعداءك تحت قدميك» (المزمور ١٠٩: ١). وجاء فى المزامير عن المسيح أن «كل الأمم تتعبد له.. كل الأمم يطوبونه.. ومبارك اسم مجده إلى الدهر» (المزمور ٧١: ١١ و١٧ و١٩). وتنبأ دانيال النبى عنه قائلاً: «كنت أرى فى رؤى الليل، وإذا مع سحاب السماء مثل ابن إنسان أتى وجاء إلى القديم الأيام فقرّبوه قدّامه. فأعطى سلطاناً ومجداً وملكوتاً لتتعبد له كل الشعوب والأمم والألسنة. سلطانه سلطان أبدى مالن يزول، وملكوته مالا ينقرض» (دانيال ٧: ١٣ و١٤).

وذكرت النبوءات أنه أزلى أبدى، وأنه هو الخالق، إذ تنبأ إشعياء النبى قائلاً بلسان المسيح «أنا هو. أنا الأول وأنا الآخر، ويدى أسست الأرض ويمينى نشرت السماوات.. السيد الرب أرسلنى وروحه» (إشعياء ٤٨: ١٢ و١٣ و١٦). وجاء فى سفر الأمثال بلسان المسيح أيضاً: «الرب قنانى أول طريقه. من قبل أعماله منذ القدم. منذ الأزل مُسحت. منذ البدء.. كنت عنده صانعاً» (الأمثال ٨: ٢٢ و٢٣ و٣٠). وقال عنه ميخا النبى فى نبوءاته إنّ «مخارجه منذ القديم، منذ أيام الأزل» (ميخا ٥: ٢). وقال عنه دانيال النبى إن «سلطانه سلطان أبدى مالن يزول، وملكوته مالا ينقرض» (دانيال ٧: ١٤). وذكرت النبوءات أنه ينبغى الاتكال على المسيح، لأن ذلك بمثابة الاتكال على الله، إذ جاء فى المزامير: «قبّلوا الابن لئلا يغضب فتبيدوا من الطريق.. طوبى لجميع المتكلين عليه» (المزمور ٢: ١٢). كما ذكرت النبوءات أن هيكل الله هو هيكل المسيح بصفته الإلهية، إذ تنبأ ملاخى النبى قائلاً: «يأتى بغتة إلى هيكله السيد الذى تطلبونه.. الذى تسرُّون به» (ملاخى ٣: ١).

ومن ذلك نرى أن إجابة السيد المسيح له المجد عن سؤال تلميذه فيلبس عن حقيقة شخصية المسيح، حين قال له فيلبس «أرنا الآب وكفانا، فأجابه قائلاً «أنا معكم كل هذا الزمان ولم تعرفنى بعد يا فيلبس؟. من رآنى فقد رأى الآب، فكيف تقول أنت: أرنا الآب؟ ألا تؤمن بأنى أنا فى أبى

وأن أبي فيّ» إن هذا التصريح القدسي من فم الرب يسوع، يكشف حقيقة يسوع المسيح، ويبرهن على أنه هو بعينه الله ذاته ظاهراً في الجسد، أو هو بعينه الله الغير المنظور وقد صار منظوراً. ومما يؤكد هذا المعنى المقصود قوله له المجد «لو كنتم قد عرفتموني لعرفتم أبي أيضاً، ومنذ الآن تعرفونه. وقد رأيتموه». ومن هذا القول يتضح أن السيد المسيح له المجد يكشف لتلاميذه أنهم لم يعرفوه على حقيقته من هو، وذلك لأنه مستتر في الجسد، وقد اتخذ الجسد له حجاباً. ولو كانوا قد عرفوه على حقيقته، وعرفوا من هو، لعرفوا الآب، لأنه هو صورة الآب الغير المنظور، ولأنه بلاهوته كائن في الآب، والآب كائن فيه، من غير افتراق أو انفصال. إذ يقول «ألا تؤمن بأني أنا في أبي وأنّ أبي فيّ؟..»، ويقول إن «الآب كائن فيّ هو الذي يعمل أعماله». ويقول «صدقوني أني في أبي وأبي فيّ»، ثم يضيف قائلاً لتلاميذه «ومنذ الآن تعرفونه، وقد رأيتموه». ومعنى هذا أن التلاميذ قد رأوا الآب فكيف رأوا الآب فعلاً، مع أن الآب غير منظور، إذ قال عنه الإنجيل «الله لم يره أحد قط» (يوحنا ١ : ١٨). وقال عنه الكتاب المقدس «وملك الدهور الذي لا يفنى ولا يُرى الإله الحكيم وحده» (١ . تيموثيئوس ١ : ١٧). وقال السيد المسيح له المجد «لا أحد قد رأى الآب إلا الذي هو من الله. فهذا هو الذي قد رأى الآب» (يوحنا ٦ : ٤٦)؟. والجواب واضح: أن التلاميذ قد رأوا الآب وهو الغير المنظور، في المسيح لأنه «هو صورة الله الغير المنظور» (كولوسي ١ : ١٥). ولذلك أيضاً قال «إن كنتم تؤمنون بالله، فآمنوا بي» (يوحنا ١٤ : ١). وقال «والذي يراني فقد رأى الذي أرسلني» (يوحنا ١٢ : ٤٥).

١٤ : ١٢ - ١٤

الإيمان يصنع أعظم الأعمال:

ثم قال مخلصنا لتلاميذه «الحقّ الحقّ أقول لكم إن الذي يؤمن بي. فالأعمال التي أعملها يعملها هو أيضاً، بل يعمل أعظم منها. لأنني ماضٍ إلى أبي، فكل ما تطلبون باسمي أنا أفعله لكم، لكي يتمجد الآب في الابن، فإن طلبتم شيئاً باسمي أفعله».

فقد طلب مخلصنا من تلاميذه في العبارات السابقة أن يؤمنوا به، لأن الإيمان به أصلاً هو طريق الخلاص والحياة الأبدية. بيد أنه بالنسبة للتلاميذ يتضمن امتيازاً آخر. فقد أنبأهم بأنه بعد قليل يفترق عنهم حين يصعد ويمضي إلى أبيه السماوي. ولما كانوا هم تلاميذه الذين أراهم كل مجده بما صنع أمامهم من معجزاته الإلهية وأعطاهم كلّ تعاليمه ووصاياه، بما أسمعهم من كلماته السماوية، فقد أعدّهم بذلك الإعداد الوافي والكافي ليواصلوا عمله بعد

مفارقته الأرضية لهم ويمضى إلى الآب، قاصداً أن يكونوا بعد ذلك هم رسله إلى العالم أجمع والمبشرين به كل الشعوب، وعلى مدى كلّ الأزمان. ولما كانت قدرته الإلهية غير المحدودة على صنع المعجزات التي يعجز عن أن يصنع مثلها أى بشر، هى من أعظم وأعمق دعائمه فى إقناع الناس بألوهيته، وعد تلاميذه بأنهم إن آمنوا به الإيمان الكامل، وأيقنوا بأنه هو ابن الله، وأنه هو الله ذاته، فسيمنحهم من فيض قدراته السمائية اللانهائية القدرة على أن يصنعوا باسمه وبسلطانه، المعجزات التى كان يصنعها هو بنفسه، لينجحوا فى أداء الرسالة الجليلة النبيلة التى عهد بها إليهم بعد إرتفاعه عنهم، بل وعدهم بأن يعطيهم القدرة على أن يصنعوا من المعجزات أعظم مما صنع هو، ليؤمن الناس بأنهم - بما يبدون من القدرات التى يستمدونها منه - هم رسله حقاً ووكلاؤه وخلفاؤه على الأرض، فيؤمنوا بهم. وبالتالى يؤمنوا بالذى أرسلهم. وهذا هو جوهر ومحور تلك الرسالة التى عهد بها إليهم. وهم إذ يصنعون تلك المعجزات، لا يصنعونها بقدرتهم الشخصية، وإنما بقدرته هو. ويقتضى ذلك منهم حين يشرعون فى صنع تلك المعجزات أن يبتهلوا إليه ويطلبوا منه أن يمنحهم تلك القدرة التى هى قدرته هو، واعداً إياهم بأن كل ما يطلبونه باسمه - كى يكونوا قادرين على صنع المعجزات - سيفعله، أى سيعطيهم القدرة على تحقيقه، فيكون ذلك دافعاً ومشجعاً للناس على الإيمان بابن الله وتمجيده بواسطتهم. وبذلك يتمجد الآب بالابن، كما يتمجد الابن فى الآب، لأنهما معاً جوهر واحد، وإله واحد. وقد كرر ذلك الوعد لهم لتأكيده وتوطيده فى نفوسهم. وبالفعل فإنهم بعد قيامته من بين الأموات وصعوده إلى السماء حققوا طلبه منهم، إذ آمنوا به عندئذ أصدق الإيمان وأعمق الإيمان وكل الإيمان. كما حقق هو وعده لهم بأن منحهم القدرة على أن يصنعوا - باسمه هو وبقدرته هو - من المعجزات مثل ما كان يصنعه وهو بينهم على الأرض، بل أن يصنعوا - باسمه هو وبقدرته هو كذلك - أعظم من المعجزات التى صنعها هو من قبل، وذلك هو ما سوف يصنعونه فى خلاص النفوس من خطاياها بالتوبة، فذلك عند المسيح أعظم من إقامة لعازر من بين الأموات، بقدر ما تعظم قيامة الروح من موت الخطيئة على قيامة الجسد من موت القبر. إذ يذكر لنا الإنجيل فى سفر أعمال الرسل أن تلميذه بطرس استطاع أن يجتذب إلى الإيمان بمخلصنا ثلاثة آلاف نفس فى يوم واحد، وهو يوم الخمسين الذى حلّ فيه الروح القدس على التلاميذ. وكان ذلك بالكلمة التى ألقاها بطرس عليهم فى ذلك اليوم، مبشراً إياهم بالسيد المسيح (الأعمال ٢ : ٤١) . فكانت هذه معجزة بالغة الروعة، إذ أدت فى لحظة واحدة إلى خلاص كل تلك الآلاف من النفوس الهالكة، مما يتضمن شفاءها من أمراضها الروحية، التى هى أشنع وأبشع من الأمراض الجسدية، بل يتضمن إقامتها من الموت المحكوم به من العدالة الإلهية عليها.

وذلك فضلاً عن المعجزات الأخرى التي صنعها تلاميذ مخلصنا باسم يسوع المسيح وبقدرته. وقد جاء عن ذلك في سفر أعمال الرسل أنه «جرى على أيدي الرسل بين الشعب كثير من الآيات والعجائب. وكانوا يجتمعون بنفس واحدة في رواق سليمان. وأما الآخرون فلم يكن أحد منهم يجسر أن يلتصق بهم. لكن كان الشعب يعظِّمهم. وأخذ عدد المؤمنين بالرب يزداد: جماهير من رجال ونساء. حتى إنهم كانوا يحملون المرضى خارجاً في الشوارع ويضعونهم على الفرش والأسرة، حتى إذا جاء بطرس ووقع ظله على أحد منهم يبرأ. واجتمع جمهور المدن المحيطة إلى أورشليم حاملين المرضى والمعذبين من الأرواح النجسة، وكانوا يبرأون جميعهم» (الأعمال ٥: ١٢– ١٦).

وحدث أن «صعد بطرس ويوحنا إلى الهيكل.. وكان رجل أعرج من بطن أمه.. كانوا يضعونه كل يوم عند باب الهيكل المعروف بالباب الجميل ليسأل صدقة.. فتفرس فيه بطرس ومعه يوحنا. وقال: انظر إلينا فتطلع إليهما منتظراً أن يأخذ منهما شيئاً. فقال بطرس: لا فضة عندي ولا ذهب، ولكني أعطيك ماعندي: باسم يسوع الناصري قم وامش، وأمسكه بيده اليمنى وأنهضه. ففي الحال تشدَّدت رجلاه وكعباه، فوثب ووقف وصار يمشي. ودخل الهيكل معهما وهو يمشي ويطفر ويسبح الله... وأبصره جميع الشعب. . فامتلأوا دهشة وحيرة مما جرى له».. وعندئذ أخذ بطرس يبشر الشعب بربنا يسوع المسيح.. «وكثيرون من الذين سمعوا الكلمة آمنوا، وصار عدد الرجال (المؤمنين) نحو خمسة آلاف» (الأعمال ٣: ١– ١٠)، (٤: ٤). «وجالوا مبشرين بالكلمة. فانحدر فيلبس إلى مدينة السامرة، وكان يكرز لهم بالمسيح. وكان الجميع يصغون بنفس واحدة إلى ما يقوله فيلبس عند استماعهم ونظرهم الآيات التي صنعها، لأن كثيرين من الذين بهم أرواح نجسة كانت تخرج صارخة بصوت عظيم، وكثيرين من المفلوجين والمقعدين شفوا، فكان فرح عظيم في تلك المدينة» (الأعمال ٨: ٤– ٨).

«وحدث أن بطرس وهو يجتاز بالجميع أيضاً نزل إلى القديسين الساكنين في لِدّة (وهي مدينة كانت تقع في الطريق المؤدي من أورشليم إلى يافا). فوجد هناك إنساناً اسمه اينياس مضطجعاً على السرير منذ ثماني سنين، وكان مفلوجاً، فقال له بطرس: يا إينياس يشفيك يسوع المسيح. قم وافرش لنفسك. فقام للوقت ورآه جميع الساكنين في لِدّة وسارون (وهي سهل كان يمتد شمالي يافا)الذين رجعوا إلى الرب. وكان في يافا تلميذة اسمها طابيثا. أي غزالة ـ هذه كانت ممتلئة أعمالاً صالحة وإحسانات كانت تعملها. وحدث في تلك الأيام أنها مرضت وماتت، فغسّلوها ووضعوها في قاعة علوية. وإذ كانت لِدّة قريبة من يافا، وسمع التلاميذ أن بطرس فيها، أرسلوا رجلين يطلبان إليه ألا يتوانى عن أن يجتاز إليهم. فقام بطرس وجاء معهما. فلما وصل

صعدوا به إلى القاعة العلوية. فوقفت لديه جميع الأرامل يبكين.. فأخرج بطرس الجميع خارجاً وجثا على ركبتيه وصلّى ثم إلتفت إلى الجسد وقال: يا طابيثا قومي، ففتحت عينيها. ولما أبصرت بطرس جلست فناولها يده وأقامها. ثم نادى القديسين والأرامل وأحضرها حيّة. فصار ذلك معلوماً في يافا كلها. فآمن كثيرون بالرب» (الأعمال ٩: ٢٣– ٤٢).

وحدث في لسترة، وهي مقاطعة كانت تقع جنوبي غلاطية في آسيا الصغرى، أن «كان يجلس في لسترة رجل عاجز الرجلين مقعد من بطن أمه ولم يمش قط. هذا كان يسمع بولس يتكلّم، فشخص إليه، وإذ رأى أنه له إيمان ليشفى، قال بصوت عظيم: قم على رجليك منتصباً. فوثب وصار يمشي» (الأعمال ١٤: ٨– ١٠). «وكان الله يصنع على يدي بولس قوات غير المعتادة. حتى كان يؤتى عن جسده بمناديل أو مآزر إلى المرضى فتزول الأمراض، وتخرج الأرواح الشريرة منهم.. وكان اسم الرب يسوع يتعظّم. وكان كثيرون من الذين آمنوا يأتون مقرين ومخبرين بأفعالهم.. هكذا كانت كلمة الرب تنمو وتقوى بشدّة» (الأعمال ١٩: ١٧– ٢٠) وفي ترواس، وهي ميناء مدينة ميسّية في شمال غربي آسيا الصغرى. حدث «إذ كان التلاميذ مجتمعين، خاطبهم بولس.. وأطال الكلام إلى نصف الليل.. وكان شاب اسمه أفتيخوس جالساً في الطاقة مثقلاً بنوم عميق.. فسقط من الطبقة الثالثة إلى أسفل وحمل ميتاً فنزل بولس ووقع عليه واعتنقه قائلاً: «لا تضطربوا.. ثم صعد.. وأتوا بالفتى حيّاً» (الأعمال ٢٠: ٧– ١٢).

فبهذه المعجزات وأمثالها تحقق وعد مخلصنا لتلاميذه بأنهم ـ بعد أن يمضي إلى أبيه السماوي ـ إذ آمنوا به، فالأعمال التي يعملها هو يعملونها هم أيضاً، بل يعملون أعظم منها، بقوته هو وبسلطانه هو، لأنه ـ وإن ارتفع إلى السماء ـ سيظل معهم كل الأيام إلى إنقضاء الدهور (متى ٢٨: ٢٠). ولسوف يؤثرون في الناس ويهدونهم بمواعظهم، ويقيمون الخطاة من موت الخطيئة.

١٤: ١٥

محبة الله في حفظ وصاياه:

وبعد أن أوصى مخلصنا تلاميذه بأن يؤمنوا به ليمنحهم السلطان الذي وعدهم به، أوصاهم كذلك بأنهم إن كانوا يحبونه أعمق الحب وأصدق الحب، فليحفظوا وصاياه التي سبق أن أوصاهم بها، والتي يوصيهم بها الآن، إذ قال لهم «إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي». وهو إذ يطلب منهم أن يحبوه فذلك لأنه يحبهم حباً لا مثيل له ولا يمكن أن يكون هناك حب أعظم منه، حتى لقد بلغ حدّ تضحيته بذاته من أجلهم ومن أجل البشر جميعاً. وقد طالما صارحهم بذلك إذ قال لهم: «ما من حب أعظم من أن يبذل أحد نفسه عن أحبائه» (يوحنا ١٥: ١٣) وقد لقبهم بأحبّائه

إذ قال لهم «بيد أنني أقول لكم يا أحبائي لا تخافوا من الذين يقتلون الجسد، ثم لا يستطيعون بعد ذلك شيئاً أكثر من هذا» (لوقا ١٢ : ٤).

وقد كان مخلصنا يعلم أن تلاميذه يحبونه فعلاً، ولكنه طلب إليهم مزيداً من الحب ليكون حبهم له كاملاً وشاملاً وعميقاً وصادقاً. ولن يتحقق ذلك إلا بأن يطيعوه في كل ما أوصاهم به. وقد كرر طلبه هذا إليهم مراراً ليؤكده ويوطده في أذهانهم وفي وجدانهم. إذ قال لهم «إن الذي لديه وصاياي ويحفظها هو الذي يحبني. والذي يحبني يحبه أبي وأنا أيضاً أحبه وأظهر له ذاتي» (يوحنا ١٤ : ٢١). وقال «من يحبني يحفظ كلامي ويحبه أبي وإليه نأتي وعنده نقيم» (يوحنا ١٤ : ٢٣). وقال «إن حفظتم وصاياي تثبتم في محبتي» (يوحنا ١٥ : ١٠). وقال «أنتم تكونون أحبائي إن عملتم بما أوصيكم به» (يوحنا ١٥ : ١٤).

ولعلّ مما يدل على أن تلاميذ مخلصنا قد أطاعوه وتابعوه فيما أوصاهم به، ماذكره القديس يوحنا في رسالته الأولى إذ يقول «إنْ أخطأ أحد فلنا شفيع عند الآب يسوع المسيح البار، وهو كفّارة لخطايانا.. بهذا نعرف أننا قد عرفناه إن حفظنا وصاياه. من قال قد عرفته وهو لا يحفظ وصاياه فهو كاذب وليس الحقُّ فيه. وأما مَن حفظ كلمته فحقّاً في هذا تكملت محبة الله، بهذا نعرف أننا فيه» (١. يوحنا ٢ : ١ – ٥). ويقول «كل من يؤمن أن يسوع هو المسيح فقد وُلِد من الله. وكل من يحب الوالد يحب المولود منه أيضاً. بهذا نعرف أننا نحب أولاد الله إذ أحببنا الله وحفظنا وصاياه. فإن هذه هي محبة الله أن نحفظ وصاياه» (١. يوحنا ٥ : ١ – ٣).

١٤ : ١٦ – ٢٠

وعد المسيح بإرسال الروح القدس:

لقد أنبأ مخلصنا تلاميذه فيما سبق من حديثه إليهم بأنه قد حان الوقت كي يمضي إلى الآب، وأنهم إن آمنوا به الإيمان الكامل فإنه سيعطيهم السلطان بعد إرتفاعه عنهم ليصنعوا باسمه وبقدرته المعجزات التي كان يصنعها هو، بل أعظم منها. ثم وعدهم بأن كل ما يطلبونه باسمه سيستجيب لهم فيه إذا هم حفظوا وصاياه بدافع من إيمانهم وحبهم إياه، ثم شرح لهم بعد هذا كيف سيتحقق ذلك، إذ قال: «وسأطلب إلى الآب فيعطيكم معزياً آخر ليقيم معكم إلى الأبد، روح الحق الذي لا يستطيع للعالم أن يقبله لأنه لا يراه ولا يعرفه. وأما أنتم فتعرفونه لأنه يقيم معكم ويكون فيكم. لن أترككم يتامى، وإنما سأجيء إليكم. بعد قليل لن يراني العالم بعد، وأما أنتم فسوف ترونني، لأنني أنا حيٌ فستحيون أيضاً. وفي ذلك اليوم ستعلمون أني في أبي. وأنكم أنتم فيّ وأنا فيكم».

أما قوله إنه سيطلب إلى الآب أن يعطيهم معزيا آخر ليقيم معهم إلى الأبد، فمعناه أنه لما كان مخلصنا ابن الله متحداً اتحاداً كاملاً بأبيه السماوي، وواحداً معه في جوهره، فإن أحدهما لاينفرد بالإرادة والتدبير دون الآخر، لأن إرادتهما واحدة وتدبيرهما واحد وألوهتهما واحدة. ومن ثم فإن الابن سيعمل على أن يشترك مع الآب في أن يعطي التلاميذ ذلك المعزي الآخر الذي وعدهم بإرساله إليهم. فالعطية إذن من الآب والابن معاً، وإن كان الروح القدس ينبثق من الآب. والإرسال من الآب والابن معاً، بدليل قول مخلصنا بعد ذلك «ومتى جاء المعزي الذي سأرسله أنا إليكم من عند أبي.. فهو يشهد لي» (يوحنا ١٥ : ٢٦).

وأما كلمة «المعزي» فهي في اللغة اليونانية التي كتب بها القديس يوحنا بشارته «باراكليتوس»، وهي تعني «المحامي» أو «المعين» أو الشفيع الذي يقف إلى جوار الضعيف ليدافع عنه ويسانده، ومن ثم يكون في دفاعه عنه ومساندته إياه عزاء له يتضمن الاطمئنان والإحساس بالأمن والأمان. ومخلصنا إذ يعد تلاميذه بأن يرسل إليهم من لدن الآب هذا المحامي أو المعين أو المعزي، إنما يعني به نعمة الروح القدس الذي هو متحد به مع الآب إتحاداً كاملاً، وكائن معه في الجوهر.

ومخلصنا يصف الروح القدس بأنه روح الحق، أي روح الله نفسه لأن الله هو «الحق»، وهو جوهر الحق، ومصدر الحق، والمرشد إلى الحق. ولذلك يتحدث مخلصنا عن الروح القدس فيقول في موضع آخر: «فمتى جاء ذلك الذي هو روح الحق، فهو يرشدكم إلى الحق كله، لأنه لا يتكلم من عنده. وإنما يتكلم بما يسمعه وسيخبركم بأمور آتية. إنه يمجدني لأنه يأخذ مما لي ويخبركم. كل ماهو للآب فهو لي. لذلك قلت لكم إنه يأخذ مما لي ويخبركم» (يوحنا ١٦ : ١٣- ١٥). فالروح القدس هو متحد اتحاداً كاملاً بالآب والابن. وواحد معهما في الجوهر، يتكلم بالحق الذي ليس من عنده وحده، وإنما هو من عند الثالوث القدوس الذي يتحد هو فيه مع الآب والابن. ويشير القديس يوحنا في رسالته الأولى إلى هذا المعنى فيقول «نحن من الله. فمن يعرف الله يسمع لنا، ومن ليس من الله لا يسمع لنا. من هذا نعرف روح الحق وروح الضلال» (١. يوحنا ٤ : ٦) ويقول إن «الروح هو الذي يشهد لأن الروح هو الحق. فإن الذين يشهدون في السماء هم ثلاثة: الآب والكلمة والروح القدس، وهؤلاء الثلاثة هم واحد» (١. يوحنا ٥ : ٦ و٧). كما يقول «إننا نحن من الله.. ونعلم أن ابن الله قد جاء وأعطانا بصيرة لنعرف الحق. ونحن في الحق في ابنه يسوع المسيح. هذا هو الإله الحق» (١. يوحنا ٥ : ١٩ و٢٠).

ويقول مخلصنا لتلاميذه عن الروح القدس المعزي الذي وعدهم بمجيئه إليهم إنه هو «روح الحق الذي لا يستطيع العالم أن يقبله، لأنه لا يراه ولا يعرفه. وأما أنتم فتعرفونه لأنه يقيم معكم

ويكون فيكم، وذلك لأن العالم قد عاش بعد سقوط الإنسان في الخطيئة خاضعاً للشيطان خضوع المرؤوس للرئيس، والعبد للسيد، بل خضوع العابد للمعبود، حتى لقد قال مخلصنا عن الشيطان بسبب ما له من السلطان على العالم إنه «رئيس هذا العالم» (يوحنا ١٢: ٣١)، (١٤: ٣٠)، (١٦: ١١). وقال عنه القديس بولس إنه «إله هذا الدهر» (١ . كورنثوس ٤: ٤). كما قال إن «مصارعتنا ليست مع دم ولحم (أي مع إنسان)، بل مع الرؤساء، مع السلاطين، مع ولاة العالم على ظلمة هذا الدهر، مع أجناد الشر الروحية في السماويات» (أفسس ٦: ١٢). وقال القديس يوحنا في رسالته الأولى «إننا نحن من الله، والعالم كله قد وضع في الشرير» (١ . يوحنا ٥: ١٩). ولما كان العالم قد خضع خضوعاً تاماً للشيطان الذي هو الشر والمغرى بالشر، والذى هو الباطل والمحرض على الباطل. فإن العالم لا يستطيع - وقد امتلأ بالشر وبالباطل - أن يقبل الروح القدس الذى هو الخير والداعي للخير، والذى هو الحق والمبشِّر بالحق، ولأن الشيطان قد فتح أعين هذا العالم على كل ما هو مادي وجسدي، وأعماه عن كل ما هو سماوي وروحي. فإن العالم - وقد أعميت بصيرته كما عمِي بصره، لا يمكنه أن يرى الروح القدس. لأنه روح الله، ومن ثم فإنه لا يقبله، لأنه لا يراه، ومن ثم لا يعرفه. ولأنه وقد ملأه الشيطان وسيطر عليه لا يرى إلا الماديات والجسديات، فهو لا يعرف إلا الماديات والجسديات. وفى ذلك يقول القديس بولس فى رسالته الثانية إلى أهل كورنثوس: «إن كان إنجيلنا مكتوماً، فإنما هو مكتوم فى الهالكين، الذين فيهم إله هذا الدهر قد أعمى أذهان غير المؤمنين لئلا تضيء لهم إنارة إنجيل مجد المسيح الذى هو صورة الله» (٢ . كورنثوس ٤: ٣ و٤). ويقول فى رسالته إلى أهل أفسس «أنتم إذ كنتم أمواتاً بالذنوب والخطايا، التى سلكتم فيها قبلاً حسب دهر هذا العالم، حسب رئيس سلطان الهواء، الروح الذى يعمل الآن فى أبناء المعصية، الذين نحن أيضاً جميعاً تصرفنا قبلا بينهم في شهوات جسدنا عاملين مشيئات الجسد والأفكار. وكنا بالطبيعة أبناء الغضب كالباقين أيضاً. الله الذى هو غنى فى الرحمة من أجل محبته الكثيرة التى أحبنا بها، ونحن أموات بالخطايا أحيانا مع المسيح» (أفسس ٢: ١ – ٥). ويقول القديس يوحنا في رسالته الأولى «إننا نحن من الله، والعالم كله قد وضع في الشرير، ونعلم أن ابن الله قد جاء وأعطانا بصيرة لنعرف الحق» (١ . يوحنا ٥: ١٩ و٢٠).

ولئن كان العالم الشرير، أو الأشرار الذين فى العالم، أولئك الذين استعبدهم الشيطان واستبدَّ بهم، لا يعرفون الروح القدس، لأنهم ماديون جسديون، فى حين أن الروح القدس روح إلهى سماوى فلا يمكنهم بأجسادهم المادية وأفكارهم الأرضية أن يروه أو يعرفوه، أما تلاميذ مخلصنا فسيعرفونه لأنه معلمهم الذى سيقيم فيهم إلى الأبد حين يحل عليهم، ويكون ابن الله فى نفس الوقت بعد ارتفاعه بالجسد عنهم، قائماً بقوته وقدرته إلى الأبد فيهم ومعهم، إذ وعدهم قائلاً «لن

أتركَكم يتامى، وإنما سأجيء إليكم». لأنهم إذ يفارقهم بالجسد سيحزنون حزن الأبناء لفراق أبيهم، إذ يُحسُّون بأنهم أصبحوا من بعده يتامى ليس لهم عائل ولا سند، ولا قلب حنون يعطف عليهم عطف الأب على أبنائه. ولكن مخلصنا لن يتركهم يحزنون هذا الحزن، أو يعانون هذا الإحساس، وإنما سيجيء أولاً إليهم لا بجسده، وإنما بقوَّته وبقدرته، فيمكث - وإن كانوا لا يرونه - بينهم، يقوّيهم بقوته، ويساندهم بقدرته، حتى نهاية حياتهم، ثم في اليوم الأخير سيجيء مجيئه الثاني، فيفي بوعده الذي سبق له أن وعدهم به، إذ قال لهم «الحق الحق أقول لكم إنكم أنتم يامن تبعتموني، متى جلس ابن الإنسان على عرش مجده عند تجديد كل شيء، ستجلسون أنتم أيضاً على اثني عشر كرسياً، وتدينون أسباط إسرائيل الاثني عشر» (متى١٩ : ٢٨).

ويتضح من كل ذلك أن المعزّي الذي وعد السيد المسيح له المجد تلاميذه بأنه سيرسله من قبل الآب هو «عطية الروح القدس» التي انسكبت على التلاميذ في يوم الخمسين. فامتلأوا بها روحانية ومحبة وفرحاً وسلاماً وعزاء وشجاعة، وبها استطاعوا أن يتكلموا بلغات أخرى غير لغتهم الأصلية (الأعمال ٢ : ١ - ١١). فليس المقصود بالمعزّي الذي وعد مخلصنا بإرساله إنساناً ما، وإنما المقصود هو عطية الروح القدس (١) لأنه مَن هو الإنسان الذي يقيم مع الكنيسة إلى الأبد؟ (٢) ومن هو الإنسان الذي يوصف بأنه «روح الحق الذي لا يستطيع العالم أن يقبله»؟ إن كان نبياً فما الذي يميّزه في هذا الصدد عن غيره من الأنبياء السابقين حتى يوصف بأنه روح الحق الذي لا يستطيع العالم أن يقبله؟ ثم كيف يوصف شخص ما بأنه روح الحق الذي لا يستطيع العالم أن يقبله، ونحن نعلم أن كل من دُعي نبياً وجد من الناس في العالم من قبلوه وتبعوه؟ (٣) ولو كان المقصود بالمعزي إنساناً معلوماً، فكيف يصفه المسيح بأن «العالم لا يراه ولا يعرفه»؟ (٤) ثم يضيف السيد المسيح له المجد بقوله لتلاميذه «وأما أنتم فتعرفونه، لأنه يقيم معكم ويكون فيكم»؟ فكيف ينطبق على إنسان ما، أنه يقيم معهم وأنه يكون فيهم، لو لم يكن المقصود فعلاً موهبة الروح القدس التي حلَّت على تلاميذ المسيح في الخمسين؟.

وقد أكد مخلصنا بعد ذلك وعده لتلاميذه بأن يجيء إليهم بعد ارتفاعه عنهم، فيرونه مرة أخرى، إذ قال لهم «بعد قليل لن يراني العالم بعد وأما أنتم فسوف ترونني، لأنني أنا حي فأنتم ستحيون أيضاً» أي أنه بعد وقت قصير لن يتجاوز بضع ساعات سيقتله اليهود ويوضع جثمانه في القبر فلا يعود أهل العالم يرونه. وأما التلاميذ فسوف يرونه لأنه سيقوم في اليوم الثالث من بين الأموات مسترداً حياته، ويظهر لهم ويظل معهم بالجسد أربعين يوماً، ثم يصعد أمامهم إلى

السماء، فلا ينقطعون مع ذلك عن رؤيته، لأنهم سيرونه بعد ذلك لا بعيون أجسادهم، وإنما بأرواحهم، فيحيا معهم ويحيون هم أيضاً معه وبه وفيه، لأنه هو الله الحي منذ الأزل وإلى الأبد، والذين يؤمنون به ويطيعون وصاياه يعطيهم الحياة الأبدية. وقد قرر هو ذلك المعنى مراراً إذ قال «الحقَّ الحقَّ أقول لكم إنَّ مَن يسمع كلامي ويؤمن بالذي أرسلني، له الحياة الأبدية، ولن يأتي إلى دينونة. وإنما ينتقل من الموت إلى الحياة. الحقَّ الحقَّ أقول لكم إنه ثمة ساعة تأتي، وقد أتت الآن، يسمع فيها الموتى صوت ابن الله، والذين يسمعون يحيون. لأنه كما أن الآب له الحياة في ذاته، هكذا أعطى الابن أن تكون له الحياة في ذاته» (يوحنا ٥: ٢٤ - ٢٦). وقال: «أنا هو خبز الحياة.. أنا هو الخبز الحي الذي نزل من السماء. مَن يأكل من هذا الخبز يحيا إلى الأبد.. من يأكل جسدي ويشرب دمي فله الحياة الأبدية، وأنا أقيمه في اليوم الأخير.. كما أن الآب الحي قد أرسلني وأنا كذلك أحيا بالآب، هكذا فإن الذي يأكلني يحيا بي» (يوحنا ٦: ٤٨ و٥١ و٥٤ و٥٧). وقال: «أما أنا فأتيت لتكون لهم حياة» (يوحنا ١٠: ١٠). وقال: «أنا هو القيامة والحياة» (يوحنا ١١: ٢٥). وقد عرف هذه الحقيقة تلميذه بطرس فقال له: «أنت هو المسيح ابن الله الحي» (متى ١٦: ١٦). قال بطرس لليهود: «أنتم أنكرتم القدوس البار وطلبتم أن يوهب لكم رجل قاتل: ومُبدِىء الحياة قتلتموه، الذي أقامه الله من بين الأموات ونحن شهود لذلك» (الأعمال ٣: ١٤ و١٥). وقال بولس الرسول لأهل أثينا «الإله الذي خلق العالم.. به نحيا ونتحرك ونوجد» (الأعمال ١٧: ٢٤ و٢٨). وقال لأهل روما: «فإن كنا قد متنا مع المسيح، نؤمن أننا سنحيا أيضاً معه، عالمين أن المسيح بعدما أقيم من بين الأموات لا يموت أيضاً. لا يسود عليه الموت بعد. لأن الموت الذي ماته قد ماته للخطيئة مرة واحدة، والحياة التي يحياها فيحياها لله. كذلك أنتم أيضاً احسبوا أنفسكم أمواتاً عن الخطيئة ولكن أحياء لله بالمسيح يسوع ربنا» (رومية ٦: ٨ - ١١). وقال في رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس: «كما في آدم يموت الجميع، هكذا في المسيح سيحيا الجميع» (١. كورنثوس ١٥: ٢٢). وقال في رسالته إلى أهل فيلبي: «لي الحياة هي المسيح» (فيلبي ١: ٢١). وقال في رسالته الثانية إلى تيموثيئوس: «صادقة هي الكلمة أنه إن كنا قد متنا معه (أي مع المسيح) فسنحيا أيضاً معه» (٢. تيموثيئوس ٢: ١١). وقال في رسالته إلى أهل غلاطية: «مع المسيح صُلبت، فأحيا لا أنا بل المسيح يحيا فيَّ» (غلاطية ٢: ٢٠). وقال القديس يوحنا في رسالته الأولى «بهذا أُظهِرت محبة الله فينا، أن الله قد أرسل ابنه الوحيد إلى العالم لكي نحيا به» (١. يوحنا ٤: ٩). وقال: «إن الله أعطانا حياة أبدية، وهذه الحياة هي في ابنه. من له الابن فله الحياة. ومن ليس له ابن الله فليست له حياة.. إن ابن الله قد جاء وأعطانا بصيرة لنعرف الحق. ونحن في الحق في ابنه يسوع المسيح. هذا هو الإله الحق والحياة الأبدية»

(١ . يوحنا ٥ : ١١ و١٢ و٢٠) . وحين قام السيد المسيح من بين الأموات وجاءت النسوة إلى القبر في صباح اليوم الثالث ولم يجدن جسده، استولى الجزع عليهن، فظهر لهن ملاكان وقالا لهن: «لماذا تطلبن الحي بين الأموات؟ إنه ليس هنا، وإنما قد قام» (لوقا ٢٤ : ١ – ٦) . وجاء في سفر الرؤيا على لسان السيد المسيح «أنا هو الأول والآخر والحَي وقد متُّ وهأنذا حيٌّ إلى أبد الآبدين» (الرؤيا ١ : ١٧ و١٨) . وجاء فيه عن السيد المسيح: «شكراً للجالس على العرش الحيِّ إلى أبد الآبدين» (الرؤيا ٤ : ٩) . وجاء فيه قول كاتبه القديس يوحنا إن «الملاك الذي رأيته .. رفع يده إلى السماء وأقسم بالحَي إلى أبد الآبدين، الذي خلق السماء وما فيها، والأرض وما فيها» (الرؤيا ١٠ : ٥ و٦) .

وقد ورد وصف الله المتحد بالمسيح ابن الله، بأنه حيٌ إلى الأبد في كل أسفار العهد القديم. ومن ذلك ما جاء في سفر التثنية. إذ قال الله: «أنا أنا هو وليس إله معي .. حيٌّ أنا إلى الأبد» (التثنية ٣٢ : ٤٠) . وقد تردّد في كل أسفار النبوءات قول الله وهو يقسم بذاته . ومن ذلك ما جاء في سفر نبوءة إرميا «حيٌّ أنا يقول الرب» (إرميا ٢٢ : ٢٤) . وانظر كذلك (حزقيال ١٤ : ١٦ و١٨ و٢٠)، (١٦ : ٤٨)، (١٧ : ١٦)، (١٨ : ٣)، (٢٠ : ٣)، (٣٣ : ١١)، (٣٤ : ٨)، (٣٥ : ٦) . وجاء في سفر نبوءة دانيال «أنا نبوخذ نصر رفعت عيني إلى السماء .. وباركت العلي .. وحمدت الحَي إلى الأبد، الذي سلطانه سلطان أبدي» (دانيال ٤ : ٣٤) .

ثم قال مخلصنا لتلاميذه: «وفي ذلك اليوم ستعلمون أني في أبي، وأنكم أنتم فيَّ وأنا فيكم»، أي أنه في اليوم الذي يرونه فيه بعد قيامته من بين الأموات وقد استرد الحياة، ثم يرون قوته وقدرته حية فيهم بعد صعوده إلى السماء حياً إلى الأبد، كما هو حيٌ منذ الأزل، سيعلمون عندئذ ويؤمنون إيماناً كاملاً وعميقاً بأن معلمهم هذا الذي كان قائماً بينهم بالجسد هو المسيح ابن الله الذي كانوا ينتظرونه مع سائر اليهود، وأنه متحد بأبيه السماوي في كيانه وقوته وقدرته وسائر كمالاته الإلهية التي لمسوها في شخصيته السامية وفي تعاليمه السماوية، ومعجزاته التي صنعها أمامهم، والتي لا يمكن أن يصنعها إلا الله وحده، وسيعلمون ويؤمنون كذلك بأنه مادام قد ظل بعد إرتفاعه عنهم قائماً بقوته وقدرته بينهم وحياً فيهم، فإنهم هم أيضاً أحياء به وفيه.

١٤ : ٢١ – ٢٦

التأكيد على المحبة فهي أساس حفظ الوصايا:

وبعد ذلك عاد مخلصنا يكرر وصيته العظمى لتلاميذه، تلك الوصية التي هي روح العقيدة المسيحية وأقوى أساس تقوم عليه، وهي أن يحبه تلاميذه وكل المؤمنين به . وذلك بأن يعرفوا

وصاياه ويحافظوا عليها ويعملوا بها، إذ قال لهم: «إن الذى لديه وصاياى ويحفظها هو الذى يحبنى. والذى يحبنى يحبه أبى، وأنا أيضاً أحبه وأظهر له ذاتى». وإذ كان مخلصنا دائم الترديد لهذه الوصية على مسامع تلاميذه لم يسترع إنتباههم منها فى هذه المرة إلا قوله إنه لا يُظهر ذاته لتلاميذه إلا إذا أحبوه فعملوا بوصاياه، واسترعى ذلك القول بالأخص إنتباه أحد تلاميذه وهو يهوذا، أخو يعقوب الذى كان أحد الذين يسميهم الإنجيل «إخوة الرب» (متى ١٣: ٥٥) والذى كان يُدعى كذلك لبّاوس وتدّاوس (متى ١٠: ٣)، (مرقس ٣: ١٨)، وهو كاتب رسالة القديس يهوذا الواردة فى نهاية رسائل الرسل فى العهد الجديد من الكتاب المقدس، ولتمييزه عن يهوذا الإسخريوطى الخائن قالوا عنه «يهوذا ليس الإسخريوطى» (يوحنا ١٤: ٢٢). ومن ثم قال لمخلصنا «يارب، ماذا حدث حتى إنك مزمع أن تظهر ذاتك لنا نحن، وليس للعالم؟». ويدل هذا السؤال على أن تلاميذ مخلصنا، ومنهم هذا التلميذ، كانوا لا يزالون يعتقدون أن المسيح سيقيم مملكة أرضية يملك بها العالم كله فى الأرض وليس فى السماء. ولذلك تساءل هذا التلميذ عمّا إذا كان قد حدث أمر جعل مخلصنا يغير تلك الخطة الوهمية التى كانوا يعتقدونها ويعقدون الآمال عليها، فلا يُظهر ذاته إلا لتلاميذه وحدهم وليس للعالم الذى توهموا أن مملكته الأرضية ستشمله كله، وتشمل كلّ من فيه من البشر، وسيكون تلاميذه هم أمراء تلك المملكة ووزرائها والكبراء فيها. ويبدو أنّ مخلصنا قد ساءه هذا السؤال الذى يدل على أن تلاميذه مازالوا حتى هذه اللحظة التى يودعهم فيها ليرتفع إلى السماء متشبثين بأفكارهم الخاطئة عن حقيقة شخصيته وحقيقة رسالته، على الرغم من كل ما قرره لهم وكرره مراراً عن حقيقة شخصيته وحقيقة رسالته، ومن ثم لم يرد رداً مباشراً عن هذا السؤال، وإنما واصل الكلام عن الوصية التى كان يرددها على مسامع تلاميذه، وإن كان شرح هذه الوصية وتوضيحها يتضمّن فى ذاته الرد على هذا السؤال. إذ أجاب قائلاً «من يحبنى يحفظ كلامى، ويحبه أبى، وإليه نأتى، وعنده نقيم. ومن لا يحبنى لا يحفظ كلامى»، وبذلك تجاهل مخلصنا أوهام تلاميذه وسائر اليهود عن مملكته الأرضية، واستطرد فى الكلام عن شروط رضاه، وهو فى ملكوته السماوى عن تلاميذه، وهى أن يحفظوا كلامه ويعملوا بوصاياه. وبذلك يبرهنون على حبهم له. وعندئذ يرضى عنهم، ويحبهم هو، ويحبهم أبوه السماوى الذى هو متحد به إتحاداً كاملاً، ويأتى مع أبيه السماوى إليهم بروحه القدوس ويقيم فيهم إقامة دائمة، فيحيا هو فيهم، ويحيون هم فيه به حياة مقدسة ممتلئة بالنعمة والبركة والصلاح والبر والسعادة الروحية السامية، والسلام الداخلى العميق، فلا يفتأون يرونه بأرواحهم ظاهراً لهم لأنه يقيم فيهم ومعهم.. وأما الذين لا يحفظون كلامه أو لا يعملون بوصاياه، فإنهم يبرهنون بذلك على

أنهم لا يحبونه، فلا يرضى هو عنهم ولا يحبهم ولا يأتيهم ولا يقيم فيهم. ومن ثم لايرونه ظاهراً لهم، لأنهم بعيدون عنه فهو بعيد عنهم، وبالتالي فإنهم بعيدون عن الله الآب، فهو بعيد عنهم، لأن الكلام الذي يسمعونه من مخلصنا ليس كلامه هو وحده، وإنما هو في نفس الوقت كلام الآب السماوي الذي أرسله، والذي هو متحد إتحاداً كاملاً به.

وإذ كان هذا الكلام الذي قاله مخلصنا لتلاميذه كلاما روحياً سماوياً أعلى وأعمق من أن يستطيعوا فهمه بعقولهم المحدودة البسيطة التي مازالت لا تفهم إلا الجسديات والأرضيات، وعدهم مخلصنا بأنهم لن يلبثوا بعد صعوده عنهم أن يمنحهم الفهم الكامل لذلك الكلام الغامض اليوم عليهم، إذ قال لهم: «وقد قلت لكم هذا وأنا مقيم بينكم، حتى إذا جاء المعزي، وهو الروح القدس الذي سيرسله الآب باسمي سيعلمكم كلَّ شيء ويذكركم بكل ما قلته لكم»، أي أنه أودع لديهم وصاياه وهو لا يزال بالجسد بينهم، لكي يحفظوها ويحتفظوا بها وإن لم يفهموها. ثم بعد أن يرتفع عنهم إلى السماء سيرسل إليهم روح القدس ليحل عليهم ويملؤهم بالمواهب الإلهية التي سيتمكنون بها من أن يتذكروا كل كلامه الذي قاله لهم في أثناء وجوده على الأرض معهم، وأن يفهموا الفهم الكامل كل مالم يكونوا يستطيعون فهمه من ذلك الكلام السماوي السامي على أفهام البشر.

١٤ : ٢٧

وعد المسيح للتلاميذ بمنحهم السلام السمائي:

وبعد أن أوصى مخلصنا تلاميذه بأن يحفظوا وصاياه ويحافظوا عليها ويعملوا بها، ليبرهنوا بذلك على حبهم له، ووعدهم بالمكافأة التي يستحقونها لذلك، وهي أنه عندئذ سيحبهم كما يحبونه، وبالتالي يحبهم أبوه السماوي أيضاً، أعطاهم وعداً آخر لا يقل عن ذلك الوعد جمالاً ولاجلالاً، وعدهم بسلامه الذي يملأهم بالبهجة والفرح، إذ قال لهم: «سلامي أترك لكم. سلامي أنا أعطيكم. ليس كما يعطي العالم أعطيكم أنا. لا تضطرب قلوبكم ولا تجزع»، فهو إذ يحبهم ويكون فيهم، ويملأ بالنعمة الإلهية قلوبهم، سيملأ قلوبهم بشعور آخر سيكونون أحرج ما يكونون إليه فيما سيلاقون - بعد مفارقته لهم بالجسد - من المتاعب والمصاعب والمصائب والضيقات والاضطهادات، وهو شعور السلام الذي سيمحو من قلوبهم كل اضطراب وكل جزع، وهو أعظم وأعمق وأنقى وأبقى من السلام الدنيوي الذي يعطيه العالم لأبنائه بما يمنحهم من إمتيازات جسدية مادية تنحصر في المال والمنصب والجاه وكل المباهج الزائفة الزائلة التي كانوا هم يتطلعون إليها بما يعقدون عليه من آمال في مملكته التي يتوهمون أنه سيقيمها على الأرض،

لأن السلام الذى يتركه لهم وهو يعطيهم إياه فى أثناء حياتهم الأرضية سلام روحى سماوى هو نفس السلام الذى تنعم به الأرواح فى السماء، وهو يفوق بغير حدود كل ما يمكن أن يتصوره إنسان أو يتخيله أو يشتهيه أو يأمل فيه على الأرض. فهم بذلك السلام الروحى السماوى، حين تلاقيهم المتاعب يشعرون بالراحة. وحين تصادفهم المصاعب يشعرون بالأمان. وحين تصيبهم المصائب يشعرون بالاطمئنان، وحين تحيط بهم المضيقات يشعرون بالرجاء، وحين تشتد عليهم وطأة الاضطهادات يشعرون بالعزاء، وحتى حين يسوقهم أعداؤهم إلى الموت بسبب إيمانهم يشعرون بالبهجة والفرح والاستبشار والفخار، لأنهم عندئذ يدركون أنهم بما بذلوا من الجهد والجهاد قد استحقوا إكليل الاستشهاد وكل أمجاد السماء. فياله من سلام ذلك الذى أعطاه إياهم معلمهم، لا يمكن أن ينال نعمته أويستحق عطيته من أبناء الدنيا إلا الأبرار والأطهار والقديسون والشهداء.

١٤ : ٢٨ و٢٩

معنى : لأن أبى أعظم منى :

ثم عاد مخلصنا بعد ذلك يشرح ويوضح لتلاميذه تلك الحقيقة التى سبق له أن قررها لهم فأزعجتهم وأربكتهم وحيرتهم، وهى أنه بعد ساعات قليلة سيذهب عنهم ويتركهم، وإن كان قد وعدهم بأنه سيعود فيجيء بعد ذلك ثانية إليهم، فقال لهم كى يعزيهم ويطمئنهم: «قد سمعتم قولى إننى سأذهب ثم أجيء ثانية إليكم، فلو كنتم تحبوننى لكنتم تفرحون بأنى سأذهب إلى أبى. لأن أبى أعظم منى، وقد قلت لكم ذلك الآن قبل أن يكون، حتى تؤمنوا متى كان». وهو بهذا القول إنما يقرّر ويكرّر لهم ما سبق أن صارحهم به مراراً وتكراراً عن حقيقة طبيعته الإلهية التى ظلوا حتى هذه اللحظة لا يفهمونها كل الفهم ولاتستطيع أن ترتفع إليها عقولهم القاصرة القصيرة المدى. لأنه إذ قال إنه سيذهب عنهم، كان يعنى بذلك أنه سيفادرهم بالجسد. فقط بعد أن يتم رسالة الفداء التى جاء من أجلها إلى العالم، ثم ينطلق بعد ذلك إلى أبيه السماوى، فيختفى عنهم بجسد ناسوته، ولكنه سيعود إليهم بقوة لاهوته. فلو كانوا يحبونه حقًا ويدركون هذه الحقيقة العميقة المعنى التى ظل يلقنهم إياها طوال فترة وجوده معهم وتعليمه إياهم، لكانوا يفرحون لأنه سيحقق بذهابه إلى الآب ذلك التعليم الذى لقنه إياهم، فيؤمنون بأنه حقًا ابن الله الآب. وأنه إن كان سيذهب عنهم فإنما ليذهب إلى أبيه، لأن مجد لاهوت الآب الذى هو متحد به ومشارك له فى مجد لاهوته، أعظم من تواضع جسد ناسوته الذى ظهر مخلصنا به لهم وللعالم كله. ليكفر فى هذا الجسد عن خطاياهم.

وإذ قال مخلصنا لتلاميذه فى عبارته السابقة «لأن أبى أعظم منى» إستغل أريوس هذه العبارة، كما يستغلها أتباع مذهب «شهود يهوه»، الذى يطلق عليه مذهب «الأريوسية الجديدة»

فى الزعم بأن المسيح، وهو الابن، أقل من الله الآب، وبالتالى فهو فى زعمهم مخلوق. مع أنه من الواضح أن المسيح له المجد - وقد كان فى مجال التهدئة والتعزية لتلاميذه عن مفارقته لهم بالصعود إلى السماء - أراد أن يبين لهم أن مفارقته لهم خير له، لأنه بمجيئه إلى العالم قد أخلى ذاته من صورة الرب، وأخذ صورة العبد (فيلبى ٢ : ٦ و٧). فهو بصعوده إلى السماء يسترد المجد الذى كان له قبل كون العالم (يوحنا ١٧ : ٥). والذى أخلى ذاته منه عندما تجسّد ولبس صورة الهوان. لذلك يجب أن تفرحوا بعودته إلى السماء لا أن يحزنوا، إن كانوا حقًا يحبونه. والدليل على أن هذا هو المعنى المقصود، هو قوله «لو كنتم تحبوننى لكنتم تفرحون بأنى سأذهب إلى أبى. لأن أبى أعظم منى»، وإذن فالمقصود هو بيان أن «حالة» الآب فى المجد «أعظم» من «حالة» الابن وهو على الأرض، لأن الابن لبس صورة الهوان بتجسده وصلبه وما لحقه على الأرض من إهانات وشتائم وصفع وضرب وصلب. فالآب «أعظم» من الابن لا فى الجوهر، وإنما فى حالة «الهوان» التى قبلها بتجسده. ومثل هذا التعبير مألوف فى لغة البشر حين يشار إلى المفارقة بين شخص وآخر فى منصبه أو عمله. فإذا قيل مثلاً إن فلاناً «أعظم» من فلان، فليس بمعنى أنه يفوقه فى طبيعته الإنسانية، إذ هو «إنسان» مثله فى كل ما للإنسان من صفات، ولكنه أعظم منه «حالة». هكذا الأمر بالنسبة لله «الآب» إذ هو أعظم من الله الابن، لا فى جوهر الألوهية، وإنما فى الحالة التى صار إليها المسيح بتجسده.

وقد قال مخلصنا ذلك لتلاميذه مقدّما قبل أن يحدث بالفعل. حتى إذا حدث تحققوا أنه كان صادقاً فى كل ما أنبأهم وتنبأ به لهم، فيرسخ إيمانهم بأنه هو حقًا ابن الله، وإنه هو نفسه الله الظاهر فى الجسد. وهذا هو ما حدث بالفعل. فكان إيمانهم الراسخ بمعلمهم هو النور الذى ساروا على هداه فى كل سيرتهم وفى كل جهد وجهاد بذلوه حين انطلقوا بعد قيامة معلمهم وصعوده إلى السماء ليبشروا به العالم كله عملاً بوصيته الأخيرة حين قال لهم «فاذهبوا إذن وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس وعلموهم أن يحفظوا ما أوصيتكم به» (متى ٢٨ : ٢٠).

١٤ : ٣٠ و٣١

رئيس هذا العالم يأتى ولا يملك شيئا فىّ:

وأخيراً قال مخلصنا لتلاميذه: «لا أقول لكم بعد كلاماً كثيراً، لأن رئيس هذا العالم يأتى ولا يملك شيئاً فىّ. لكن لكى يعرف العالم أنى أحب أبى، وأنى أعمل ما أوصانى به أبى. قوموا ننطلق من هنا. فقد أعطى مخلصنا تلاميذه كل الوصايا التى يريدهم أن يحفظونها ويحافظوا

عليها. ولم يعد ثمة مجال لكلام أكثر يقوله لهم، لأنه لم يعد ثمة مجال للكلام. وإنما حانت ساعة العمل الذى جاء إلى الأرض لينجزه، وهى أن يموت على الصليب تكفيراً عن خطايا البشر ليفديهم ويحقق خلاصهم، فيصالحهم مع الله الذى سبق لهم أن خالفوه وتمردوا على وصاياه فاستحقوا الموت بمقتضى العدل الإلهى. ولكنه إذ يموت على الصليب لا يكون موته بسلطان من الشيطان الذى إذ سيطر بشروره على العالم أصبح رئيس هذا العالم، وهو ذاته «إبليس» الذى وصف بأنه التنين، أو الحيَّة القديمة (الرؤيا ٢٠: ٢)، والذى أُسقط من السماء، فى حرب بينه وبين ميخائيل رئيس الملائكة، عندما تمرد ذلك الشيطان على الله الذى خلقه، فغضب عليه (الرؤيا ١٢: ٧- ١٢)، فصار الشيطان بعد أن نزل إلى الأرض «رئيس هذا العالم». ولقد كرر المسيح له المجد تلقيب الشيطان برئيس العالم فى مواضع أخرى (انظر يوحنا ١٢: ٣١)، (يوحنا ١٦: ١١). لن يكون موت مخلصنا بسلطان الشيطان وإن كان رئيس هذا العالم، وإنما سيكون موت مخلصنا بسلطانه هو، وبإرادته هو، وبرضائه هو. لأن الشيطان لا يسيطر إلا على الخطاة، ومن ثم يؤدي بهم إلى الموت. وأما مخلصنا - وإن كان وهو ابن الله قد تأنس واتخذ جسد إنسان - فإنه لم يرتكب خطيئة أبداً تجعل الشيطان يملك عليه أويملك فيه شيئاً. وقد سبق أن قرر هو نفسه ذلك إذ قال لليهود «مَنْ يستطيع أن يُثبت علىَّ خطيئة؟» (يوحنا ٨: ٤٦). فضلاً عن أنه كان هو الإله الكامل، كان فى نفس الوقت هو الإنسان الكامل. وكان كماله بناسوته يتضمَّن القداسة والطهارة والعفة والخير والبر وكل الصفات التى تنفى عنه أى صورة من صور الخطيئة، أو أى ظل لها مهما يكن ضئيلاً. كان كالصفحة البيضاء الناصعة البياض نصاعة كاملة، أو كان كالثياب التى رآه تلاميذه متجلياً بها على جبل التجلّى، والتى يصفها الإنجيل فيقول أنها «متألقة ناصعة البياض كالثلج، حتى ليعجز أى قصَّار على الأرض عن أن يجعلها فى مثل بياضها» (مرقس ٩: ٢). فهو إذن لن يموت على الصليب خضوعاً لإرادة الشيطان الذى يخضع له العالم كله، وإنما يموت بإرادته هو تنفيذاً لمشيئة أبيه بدافع من حبه له ومن إتحاده به ومشاركته إياه فى مشيئته التى اتجهت إلى خلاص البشر بتلك الوسيلة التى لم يكن هذا الخلاص ممكناً إلاَّ بها. فهو بلاهوته ارتضى أن يموت بهذه الوسيلة بمشيئة أبيه التى هى فى نفس الوقت مشيئته هو. كما أنه بناسوته ارتضى أن يموت بهذه الوسيلة، لأنَّ تلك هى وصية أبيه السماوى له، ولأنه يعمل دائما بما يوصيه به فكان ذلك برهاناً على اتحاد مشيئة اللاهوت والناسوت فى مخلصنا اتحاداً كاملاً.

وإذ كان في تلك اللحظة قد حان الوقت المحدد في الترتيب الإلهي ليبدأ مخلصنا السير في طريقه نحو الصليب، قال لتلاميذه: «قوموا ننطلق من هنا»، لأنه إذ كان يعلم أنّ أعداءه من رؤساء اليهود في طريقهم عندئذ إليه ليمسكوه ويصلبوه فيموت على الصليب، لم ينتظر الموت ليأتي إليه، وإنما سار هو نحوه بقدميه في شجاعة وشهامة، وبمحض إرادته ومشيئته، بل بمقتضى رضاه ومسرته، ومسرة أبيه السماوي الذي هو متحد به. وقد سبق أن أعلن أبوه السماوي سروره به لأنه يفعل ذلك، إذ يقول الإنجيل إنه بعد أن اعتمد مخلصنا من يوحنا المعمدان.. «إذا صوت يجيء من السماء قائلاً: هذا هو ابني حبيبي الذي به سررت» (متى ٣: ١٧)، (مرقس ١: ١١)، (لوقا ٣: ٢٢). كما يقول إنه في وقت تجليه على الجبل أمام تلاميذه بطرس ويعقوب ويوحنا.. «إذا سحابة من نور غمرتهم، وإذا صوت من السحابة يقول: هذا هو ابني حبيبي الذي به سررت، فله اسمعوا» (متى ١٧: ٥).

الفصل الخامس عشر

١٥ : ١ـ ١١

أنا الكرمة وأنتم الأغصان:

وبعد ذلك خرج مخلصنا مع تلاميذه من القاعة العليا التى كانت فى بيت مرقس الرسول، والتى أكَل فيها مخلصنا معهم الفصح، ثم ناولهم العشاء الربانى، وساروا تحت جنح الظلام فى شوارع أورشليم متجهين إلى بستان جثسيمانى الذى اعتاد ـ له المجد ـ أن يعتزل معهم فيه، وهو يقع شرقى أورشليم فيما وراء وادى قدرون بالقرب من سفح جبل الزيتون. وفيما هم سائرون واصل مخلصنا كلماته الوداعية، ووصاياه الأخيرة لتلاميذه، فقال لهم «أنا هو الكرمة الحقيقية وأبى هو الكرام. كل غصن فىَّ لا يأتى بثمر ينزعه، وكل غصن مثمر ينقيه ليأتى بثمر أكثر. أنتم الآن أنقياء بتأثير الكلام الذى كلمتكم به. اثبتوا فِىَّ كما أنا أيضاً فيكم. فكما أن الغصن لا يمكنه أن يأتى بثمر من ذاته وحده إن لم يثبت فى الكرمة، هكذا أنتم لا يمكنكم أن تأتوا بثمر إن لم تثبتوا فىَّ. أنا الكرمة وأنتم الأغصان، فالذى يثبت فىَّ وأنا فيه يأتى بثمر كثير، لأنكم بدونى لا تستطيعون أن تفعلوا شيئاً. وأما الذى لا يثبت فىَّ فيطرح خارجاً كالغصن فيجف. فيجمعونه ويطرحونه فى النار فيحترق. إن أنتم ثبتم فِىَّ وثبت كلامى فيكم. تطلبوا ما تشاءون فيكون لكم. بهذا يتمجد أبى أن تأتوا بثمر كثير، فتكونوا تلاميذى. كما أحبنى أبى هكذا أحببتكم أنا فاثبتوا فى محبتى. إن حفظتم وصاياى ثبتُّم فى محبتى، كما أنا حفظت وصايا أبى وثبتُّ فى محبته. قد كلمتكم بهذا ليكون فرحى فيكم وليكتمل فرحكم».

وقد وصف مخلصنا نفسه بأنه هو الكرمة الحقيقية، لأن الكرمة هى رمز لكل ما يعطى ثماراً وفيرة ونافعة لبنى البشر. وهى رمز لكل نعمة ولكلُ بركة يمنحها الله إياهم. بيد أن الكرمة هى نبات أرضى ومادى، فهى لا تعطى إلا ثماراً نافعة للجسد الأرضى المادى للإنسان، ونعمتها وبركتها مقصورة على حياته الأرضية المادية المؤقتة. وأما مخلصنا فهو الكرمة الحقيقية التى ليست الكرمة النباتية إلا رمزاً لها، لأنه هو الذى يمنح الثمار والنعم والبركات السمائية الروحية التى بها يحيا الإنسان حياة سمائية روحيَّة أبدية وخالدة، لا تموت بموت الجسد، وإنما يحيا الإنسان بها إلى الأبد. كما أن الذى يغرس الكرمة الأرضية المادية ويرعاها هو الإنسان بجسده الأرضى الفانى. وأما المصدر والراعى للكرمة الروحية التى تمنح كلَّ ثمرة وكل نعمة وكل بركة سمائية روحية فهو الله الآب الأزلى الأبدى نفسه. وكل غصن فى الكرمة الحقيقية التى هى المسيح ابن الله لا يأتى بثمر ينزعه الله الآب شأن كل كرام أمين يرعى كرمه. إذ ينزع كل

غصن في الكرمة لا يأتي بثمر، لأنه لا خير فيه ولا جدوى منه، في حين أنه يأخذ من عصارة الكرمة ما هو أحرى بأن تتغذى به الأغصان الأخرى المثمرة. والمقصود بالأغصان غير المثمرة هنا هم بنو الإنسان الذين يعتبرهم مخلصنا أعضاء في جسده، كما أن الأغصان هي أعضاء في جسد الكرمة. فالإنسان الذي يبرهن بسلوكه في الحياة - بالرغم من أنه متصل بالمسيح - على أنه لا يستفيد بهذا الاتصال كي يثمر أعمالاً صالحة هي بمثابة الثمار الجيدة في أغصان الكرمة، ينزعه الله الآب من جسد المسيح ويلقي به بعيداً باعتباره غصناً عقيماً لا خير فيه ولاجدوى منه. والأحرى أن يفسح مكانه لغيره من الناس ذوي الثمار الجيدة والأعمال الصالحة كي يزدادوا جودة وصلاحاً. وكما أن الكرام إذا وجد في كرمته غصناً مثمراً ينقيه مما به من شوائب من شأنها أن تنتقص من ثماره، أو تنتقص من جودة هذه الثمار، هكذا يفعل الله الآب بكل إنسان ذي ثمار جيدة وأعمالٍ صالحة. فإنه لا يفتأ يهذّبه ويؤدبه ويجربه لينزع ما به مما عساه أن ينتقص من ثماره الجيدة وأعماله الصالحة، أو ينتقص من جودة تلك الثمار أو صلاح تلك الأعمال، لأن الله الآب في حكمة تدبيره للكائنات قد شاءت إرادته أن يطهرها من كلّ شرّ وكلّ ضعف وكلّ عقم، وأن يدفع بها على الدوام في سبيل الخير والطهر والقوة والنماء والازدهار حتى يصل بها آخر الأمر إلى الكمال المطلق الذي هو خليق بما له هو ذاته من كمالٍ مطلق.

وقد قرر مخلصنا لتلاميذه أنهم أصبحوا في غير حاجة لأن ينقيهم الله الآب، لأنهم بفعل كلامه الذي كلمهم به وتعليمه لهم وتقويمه لسلوكهم وأفعالهم وأفكارهم - على مدى ثلاث سنوات وستة أشهر - أصبحوا أنقياء، كما ينبغي أن يكون النقاء. بيد أن عليهم كي يستمروا في نقائهم أن يثبتوا فيه ويوثقوا إتصالهم به، بالقدر الذي وثّق هو إتصاله بهم. لأنه كما أن الغصن لا يمكن أن يأتي بثمر من ذاته وحده إن لم يثبت في الكرمة ليستمد منها غذاءه وحياته ليمكنه بذلك أن يثمر، هكذا هم لا يمكنهم أن يأتوا بثمر جيد وأن يعملوا أعمالاً صالحة تليق بتلاميذ معلمهم الذي هو مصدر كل صلاح، إن لم يثبتوا فيه بأن يؤمنوا به إيماناً عميقاً صادقاً ويفنوا ذواتهم فيه بحيث يحيون له وبه وفيه، عاملين بتعاليمه ووصاياه، وغير متراجعين أو متضعضعين أو ضعفاء في وجه كل عناء أو إغراء، ومهما كابدوا في سبيل ذلك من عنت أو عسف أو عداء أو اعتداء. لأنه - له المجد - هو الكرمة الحقيقية مصدر كل خير وكل ثمر وكل نعمة وكل قدرة وكل سلطان. وتلاميذه والمؤمنون به جميعاً هم الأعضاء التي تستمد من الكرمة كل حياتها. لأنهم منه يستمدون الخير والثمر والنعمة والبركة والقدرة والسلطان. فإن ثبتوا فيه ووثّقوا إتصالهم به كما وثّق هو اتصاله بهم، فإن شأنهم يكون شأن الأغصان التي في الكرمة وتتشبث بها فتأتي

بثمر كثير، لأنهم بذلك يثمرون كل عمل صالح وينالون كل تلك العطايا وتكون لهم كل تلك القدرات. وأما بدونه فلا ينالون شيئاً ولا يستطيعون شيئاً. وأما الذى لا يثبت فى السيد المسيح ولا يوثّق اتصاله به، وإنما يبتعد عنه ويترك نفسه فى مهب رياح الأخطاء والخطايا والشهوات والنزوات والشرور والآثام، فإن الله ينزعه بعيداً ويطرحه خارجاً كالغصن غير المثمر. فتجف فيه الحياة كما تجف الأغصان المنزوعة من الكرمة. وكما يحدث للأغصان الجافة إذ يطرحها الكرّام خارج الكرم لتكون وقودا للنار، هكذا يطرحه ملائكة الله فى النار، فيكون مصيره الهلاك الأبدى خارج ملكوت الله الذى أعدّه للصديقين والأطهار والأبرار.

وقد أعطى مخلصنا تلاميذه وكل المؤمنين وعداً بأنهم إن ثبتوا فيه وآمنوا به وحفظوا كلامه واحتفظوا بوصاياه وحافظوا عليها وعملوا بمقتضاها بحيث تكون أساساً لحياتهم ونبراساً لهم فى كلّ أعمالهم وأقوالهم، فإنه يستجيب لهم في كل ما يطلبون، ولو طلبوا المعجزات، لأنه يمنحهم من سلطانه الإلهى سلطاناً، ومن قدرته السمائية قدرة، ومن نعمته اللانهائية زاداً لا يفنى ولا ينضب إلى الأبد. وهم إذ يثبتون فى ابن الله ويوثّقون اتصالهم به ويحيون فيه وله وبواسطته، وإذ يأتون نتيجة لذلك بثمر كثير يتمثل فى أعمالهم الصالحة لخير أنفسهم ولخير البشرية كلها، فإنما يظهرون بالمظهر الذى يرضى عنه الله الآب، ويرضى عنه الناس فيمجدون بسببه الله الآب، أبا ربنا ومخلصنا يسوع المسيح. وهم بذلك يبرهنون على أنهم حقاً تلاميذ مخلصنا. كما أنهم بذلك يستحقون أن يكونوا بالحق تلاميذه.

وقد رسم له المجد لتلاميذه ولكل المؤمنين به الطريق لأن يكونوا حقاً تلاميذه، وهو أن يحبوه وأن يثبتوا فى محبته بحيث يحيون فيه كما يحيا هو فيهم، لأنه كما أحبه أبوه السماوى حباً يفوق خيال البشر، إذ هو حب الجوهر الإلهي لذات جوهره، الكائن فيه والمتحد اتحاداً يتوحد فيه المحب بالمحبوب، فيكونان ذاتاً واحدة وكياناً واحداً، هكذا وإلى هذا المدى أحبَّ الفادى تلاميذه حباً بلغ من قوته وعمقه أنه جعلهم معه فى اتحاد كامل، يحيا هو فيهم ويحيون هم فيه ومعه وبه وله. فليظلوا إذن كى يستحقوا أن يكونوا تلاميذه ثابتين فى محبته. وذلك بأن يحفظوا وصاياه ويعملوا بها، مثلما حفظ هو وصايا أبيه السماوى فثبت في محبته. وقد قرر له المجد أنه إنما كلمهم بهذا كى يكون فيهم الفرح الذى فيه هو، ذلك الفرح الروحي السماوى الذى لا يمكن أن تصل إلى مداه أو إلى ذرة منه كل الأفراح الجسدية التى يعرفها أبناء الأرض. لأن ذلك الفرح الروحى هو الفرح الكامل الذى لن تكتمل أفراح التلاميذ والمؤمنين جميعاً إلا به، إذ أنه هو الفرح الحقيقى الذى لا يُعدُّ الفرح الأرضى بالنسبة إليه إلا فرحاً زائفاً زائلاً سرعان ما يتلاشى ويختفى كأنه السحاب أو السراب.

١٥ : ١٢ ـ ١٧

المحبة هي جوهر الديانة المسيحية :

وواصل مخلصنا وصاياه لتلاميذه قائلاً: «هذه هي وصيتي أن تحبوا بعضكم بعضاً كما أحببتكم أنا. ما من حبٍّ أعظم من أن يبذل أحد نفسه عن أحبائه، وأنتم تكونون أحبائي إن عملتم بما أوصيكم به. لا أدعوكم عبيداً بعد، لأنّ العبد لا يعلم بما يعمل سيده وأما أنتم فقد دعوتكم أحباء لأنني عرّفتكم بكل ما سمعته من أبي. لستم أنتم الذين اخترتموني. وإنما أنا الذي اخترتكم وعينتكم لتنطلقوا وتأتوا بثمر ويدوم ثمركم، كي يعطيكم الآب كل ما تطلبونه باسمي. بهذا أوصيكم: أن تحبوا بعضكم بعضاً».

فقد عدّ مخلصنا أنّ أول وأهم وأعظم وصية يتركها لتلاميذه قبل أن يغادرهم منطلقاً إلى السماء هي وصية المحبة. تلك الوصية التي هي جوهر الديانة المسيحية كلها، بل إنها هي الأساس الذي تقوم عليه الخليقة كلها وتسعد وتأمن من كل شر وكل فساد، وبدونها تنهار تلك الخليقة وتشقى وتقع في براثن الشرور والآثام، وتغدو فريسة الهلاك والانحلال والعدم. ومن ثم أوصاهم بأن يحبوا بعضهم بعضاً، وأوصى البشر جميعاً من خلالهم ومن بعدهم إلى آخر الزمان أن يحبوا بعضهم بعضاً، كما أحبهم هو ذلك الحب الكامل الذي ليس لكماله حدود وليس لمداه نهاية وليس بعده غاية، وليس لعظمته شبيه ولا مثيل يمكن أن يخطر بالبال أو يصل إليه أي تفكير أو شعور أو خيال، لأنه الحب الذي يصل إلى الحد الذي يضحّي من أجله المحب نفسه في سبيل محبوبه، ويموت فداء عنه. كما تنبأ هو بأنه سيفعل. وكما فعل بالفعل بعد ساعات قليلة، إذ بذل نفسه على الصليب فداء عن البشر وتكفيراً عن خطاياهم لينالوا به الخلاص من الهلاك المحكوم به من العدالة الإلهية عليهم بسبب شرورهم وآثامهم. فإن عمِل تلاميذه وكل المؤمنين به بوصيته تلك وأحبوا بعضهم بعضاً كما أحبهم هو، برهنوا بذلك على أنهم أحبّاؤه، إذ يبادلونه حبّاً بحب، وبذلاً ببذل، وتضحية بتضحية. وقد دعاهم أحباءه وهم البشر المتواضعون الضعفاء وهو الإله العظيم القوي الذي لا نهاية لعظمته وقوته، والذي يملأ بعظمته وقوته الكون كله والخليقة كلها. فلم يعودوا كما كانوا مِن قبل عبيداً يستعبدهم الشيطان ومن ثم يستعبدهم الشر الذي يتّصف به الشيطان، بل لم يعودوا عبيداً لله نفسه الذي كانوا من قبل يعتقدون أنه إله قاسٍ عليهم، فكانوا لا يعبدونه إلا إتقاءً لقسوته وإنما أصبحوا بالفداء الذي صنعه المسيح لهم أبناء له وأحباء له، يتجهون إليه إذ يعبدونه إتجاه الأبناء إلى أبيهم، ويحبونه حب الأحباء لحبيبهم. ويا له من فارق عظيم وشاسع بين العبد لسيده، وبين الابن لأبيه والمحب لحبيبه. فالعبد لا يعلم بما

يعمله سيده، لأن سيده يخفي عنه تفكيره وتدبيره ويطلب من أن يأتمر بأمره فى طاعة عمياء دون فهم أو استفهام، كما نأتمر الدابة بأمر قائدها فى سكون ومسكنة واستسلام. وأما الابن الحبيب إلى أبيه فإن أباه لا يأمره بأمر أو ينهاه عن أمر إلا وهو يصارحه ويوضح له الحكمة فيما يأمره أو ينهاه عنه، بدافع من محبته له، ورغبته فى كل ما فيه مصلحته وخيره وسلامه وسلامته. وقد فعل مخلصنا له المجد ذلك مع تلاميذه. فلم يعد يدعوهم عبيداً وإنما دعاهم أحبّاء لأنه صارحهم وأوضح لهم كل التدابير التي سمعها من أبيه السماوى، والتى هى فى نفس الوقت تدابيره هو، لأنه هو ابن الآب، ولأنه قائم فى حضنه منذ الأزل وإلى الأبد، وهو فى وحدة كاملة معه. فتدابير الله الآب هى فى نفس الوقت تدابيره هو، وتدابيره هو هى فى نفس الوقت تدابير الله الآب. وقد أفضى بتلك التدابير الإلهية إلى تلاميذه وإلى كل الذين آمنوا به، كما أفضى بها عن طريقهم إلى كل الذين سيؤمنون به حتى آخر الزمان، باعتبارهم أبناءه وأحباءه. ومخلصنا له المجد هو الذى اختار تلاميذه من بين كل اليهود، لأنه وجد فيهم الأرض الطيبة التي يغرس فيها بذور تعاليمه فتنمو وتأتى بثمر. ولم يكونوا هم الذين اختاروه، لأنهم لم يكونوا يعرفون حقيقة شخصيته قبل أن يعلنها لهم. كما أنه هو الذى يختار كل الذين يعلم أنهم أرض طيبة لغراسه فى كل مكان وزمان، ليؤمنوا به وينضموا إلى صفوف تلاميذه، لأنهم بدون اختياره لهم وإضاءته لقلوبهم، وإزالته للغشاوة المادية الأرضية التى تنسدل على أبصارهم وبصائرهم، لا يمكنهم أن يتساموا إلى إدراك عظمة مجد لاهوته التى يحجبها عن عيونهم وعقولهم تواضع جسد ناسوته. وهو إذ اختار تلاميذه، وإذ يختار من بعدهم كل الذين يؤمنون به من البشر فى كل أقطار الأرض وعلى مدى الدهور، قد حدّد لهم رسالة يؤدونها، وهى أن ينطلقوا ليفتحوا باب الإيمان لكل الذين لم تبلغهم بعد دعوة الإيمان، وليأخذوا بيد كل الذين بلغتهم دعوة الإيمان فلم يفهموها كى يفهموها، وكل الذين لم يقبلوها كى يقبلوها، وكل الناكرين والمكابرين وذوى العقول المظلمة والقلوب الغليظة، كى يكفّوا عن نكرانهم، ويتوقفوا عن مكابرتهم، ويفتحوا على النور عقولهم، ويغمروا بفيض الإيمان قلوبهم. وبذلك يسقى تلاميذ المسيح والمؤمنون به شجرة البشرية المجدبة غير ذات الثمر فتثمر ويتكاثر ثمرها، كما تثمر تلك الشجرة ويتكاثر ثمرها بأعمالهم الصالحة التى هى فى ذاتها ثمرة التعاليم والوصايا التى تلقّوها من معلمهم الصالح وفاديهم الحبيب، ولا سيما تلك الوصية العظمى التى يوصيهم بها الآن، وهى أن يحبوا بعضهم بعضاً، حتى إذا أتوا بتلك الثمار وتكاثرت ودام تكاثرها فلم تجف أو تتناقص أو تنضب يرضى عنهم الله الآب، كما يرضى عنهم الابن الذى هو فى كيان واحد مع الآب. فكل ما يطلبونه من الآب باسم الابن، ينالونه مكافأة لهم واعترافاً ببنوتهم له وحبهم إياه،

وبأبوته لهم وحبه إياهم. وإذ كانت وصية مخلصنا لتلاميذه ولكل المؤمنين به بأن يحبوا بعضهم بعضاً هي الوصية الأعظم والأهم بين كل الوصايا الأخرى، قد كررها مخلصنا، مؤكداً لها، مشدداً عليها مردداً ما تنطوى عليه من عظمة وأهمية، إذ قال لهم: «بهذا أوصيكم: أن تحبوا بعضكم بعضاً». لأن أصدق وأعمق وصف لله هو القائل إن «الله محبة».

١٥ : ١٨ - ٢٧

سبب بُغضة العالم للتلاميذ:

وإذ كان مخلصنا سيغادر تلاميذه بعد لحظات قليلة، إذ يقبض اليهود عليه ويقتلونه، شاءت رحمته أن يشجع تلاميذه كل يتحملوا ما سيتعرضون له من شدائد وضيقات فقال لهم «إن كان العالم يبغضكم، فاعلموا أنه أبغضنى قبل أن يبغضكم. لو كنتم من العالم، لكان العالم يحب الذين منه، ولكن لأنكم لستم من العالم، وإنما أنا اخترتكم من العالم، فلذلك يبغضكم العالم. تذكّروا الكلام الذى كلمتكم به، إذ قلت لكم إنه ليس خادم أعظم من سيده. فإن كانوا قد اضطهدونى فسيضطهدونكم أنتم أيضاً. وإن كانوا قد حفظوا كلامى فسيحفظون كلامكم. ولكنهم سيفعلون بكم هذا كله باسمى، لأنهم لا يعرفون الذى أرسلنى. لو لم أكن قد جئت وكلمتهم، لما كانت لهم خطيئة، وأما الآن فليس لهم عذر فى خطيئتهم. إنّ الذى يبغضنى يبغض أبى أيضاً. لو لم أكن قد صنعت بينهم أعمالاً لم يصنعها أحد غيرى، لما كانت لهم خطيئة. وأما الآن فقد رأونى وأبغضونى أنا وأبى. ولكن هذا قد كان ليتم المكتوب فى شريعتهم أنهم أبغضونى بلا سبب. ومتى جاء المعزى الذى سأرسله أنا إليكم من عند أبى، روح الحق المنبثق من الآب. فهو يشهد لى. وأنتم أيضاً ستشهدون لى، لأنكم معى منذ الابتداء».

ففادينا رأفة ورحمة بتلاميذه أراد أن يخفف عنهم هول ما سيعانونه ويكابدونه من اليهود، فقرر لهم أنّ هذا الذى سيعانونه ويكابدونه لن يكون مقصوراً عليهم وحدهم، وإنما سيعانيه ويكابده هو نفسه قبلهم. لأن اليهود الذين هم من أبناء العالم الذى استولى عليه الشيطان وفرض عليه سيطرته وملأه بشروره، قد أبغضوا مخلصنا قبل أن يبغضوا تلاميذه وما أبغضوا تلاميذه إلا لأنهم أبغضوه هو. وإذ كان هو باختياره لهم وتعليمه إياهم قد أخرجهم من زمرة الأشرار الذين فى العالم، ورفعهم ليكونوا من أبناء السماء، فقد أبغضهم أولئك الأشرار الذين فى العالم، لأن الأشرار لا يحبون إلا الأشرار الذين من جنسهم. لما وقد أصبح تلاميذ المسيح والمؤمنون به - بفضل تعاليمه - غرباء عن هذا العالم الشرير، ولم يعودوا من أهله، وإن كان المسيح قد اختارهم من العالم، فقد أصبح العالم يبغضهم لأنهم بصلاحهم انفصلوا عن شره وأشراره. والشر دائماً

يفزع من الخير. والأشرار دائماً يبتعدون عن الأخيار ويتجنبونهم ويحقدون عليهم ويعملون على هلاكهم والتخلص منهم، لأنهم بما هم عليه من الخير والصلاح يفضحونهم أمام غيرهم وأمام أنفسهم، كما يفضح النور خفافيش الظلام. فالخفافيش لا تفتأ تبغض النور وتهرب فزعة منه ومبتعدة عنه.

ثم ساق مخلصنا حجة أخرى يخفف بها عن تلاميذه وقع الآلام التي سيتعرضون لها بعد رحيله بالجسد عنهم، إذ ذكّرهم بالكلام الذي سبق له أن كلمهم به حين قال لهم «إنه ليس خادم أعظم من سيده». وقد كان يعني بذلك أنه باعتباره إلههم هو سيدهم، وأنهم خدامه الذين يخدمون شخصه الإلهي ويخدمون رسالته السماوية هم وكل الذين يتسلمون منهم هذه الرسالة على مدى الأجيال إلى إنتهاء العالم. فإن كان اليهود الذين في العالم قد اضطهدوه وهو سيدهم، فكم بالأحرى سيضطهدونهم هم خدامه، وإن كانوا لم يحفظوا كلامه وهو إلههم، فكم بالأحرى لن يحفظوا كلامهم. فليكن في هذا عزاء لتلاميذه ولكل المؤمنين به، لأنهم لئن لم يحفظوا كلامهم، إنهم لم يحفظوا كلام إلههم قبلهم. ولئن أبغضوهم قد أبغضوا سيدهم قبلهم. ولئن طردوهم واضطهدوهم وساقوهم إلى المحاكم والسجون، وساموهم كل ألوان التنكيل والتعذيب والقتل بأبشع الوسائل وأشنع الأساليب، فليكن عزاؤهم أن هذا كله سيحدث لهم بسبب اسم معلمهم وربهم وإلههم وحبيبهم يسوع المسيح الذين سيحملون اسمه فيلقبون بالمسيحيين. واليهود إذ يفعلون بهم هذا كله، إنما يفعلونه لأنهم لا يعلمون حقيقة شخصية المسيح ابن الله، ولا يعرفون أباه السماوي الذي أرسله. وهم لا يعرفون أباه على الرغم من أنه صارحهم بأنه هو المسيح. فلو لم يكن صارحهم بهذا لكان لهم العذر في جهلهم، ولما كانت لهم خطيئة يحاسبون عليها. أمّا وقد فعل ذلك فلا عذر لهم في خطيئتهم، لأنهم أبغضوه على الرغم من مصارحته لهم بأنه هو ابن الله، ومن ثم أبغضوا أباه أيضاً الذي يزعمون أنه إلههم، لأن الذي يبغض الابن يبغض الآب أيضاً. ولم تكن مصارحته لهم بأنه ابن الله بغير دليل حتى يكون لهم العذر في إنكارهم له، وإنما صنع بينهم ـ كي يثبت لهم هذه الحقيقة ـ أعمالاً لم يصنعها أحد غيره قط من البشر. لأنها أعمال لا يستطيع أن يصنعها إلا الله الواحد وحده. فلو لم يقدم لهم هذا الدليل، ولو لم يصنع بينهم هذه الأعمال لما كانت لهم خطيئة، ولكنهم رأوا بأعينهم كل أعماله تلك ومع ذلك أنكروه وأبغضوه وأبغضوا أباه أيضاً بغير سبب ولا جريمة أتاها ولا جريرة ارتكبها. ومن ثم علّق مخلصنا على ذلك قائلاً «ولكن هذا قد كان ليتم المكتوب في شريعتهم أنهم أبغضوني بلا سبب»، مشيراً بذلك إلى ما جاء في سفر المزامير أحد أسفار الكتاب المقدس الذي يحتوي على شريعة

اليهود، إذ يقول بروح النبوءة على لسان السيد المسيح «يبغضونني بلا سبب» (المزمور ٣٤: ١٩)، (٦٨: ٤).

بيد أن مخلصنا يعزّي تلاميذه بعد ذلك ويقوي إيمانهم به، مقرراً لهم أنه مهما أبغضه اليهود ومهما أنكروا حقيقة شخصيته بوصفه المسيح ابن الله مخلص العالم، فلا ينبغي أن يضعفوا هم أو يتزعزعوا، لأنه متى جاء المعزي - وهو الروح القدس الذي سيرسله هو إلى التلاميذ من عند أبيه السماوي، روح الحق المنبثق من الآب انبثاق الحرارة من النور، وهو في وحدة كاملة وجوهر واحد مع الآب والابن - فهو يشهد له على رؤوس الأشهاد بأنه هو ابن الله الأزلي الأبدي الذي تجسّد وتأنس ومات عن البشر، تكفيراً عن خطاياهم لينالوا به الخلاص والحياة الأبدية. كما قرر مخلصنا لتلاميذه أنهم هم أنفسهم سيشهدون هذه الشهادة نفسها له، لأنهم كانوا معه منذ الابتداء، وعرفوا منه هذه الحقيقة وآمنوا بها وبه، ولسوف يسمع العالم شهادتهم تلك فيؤمن بابن الله، ولا يستطيع أحد أن ينزع ذلك الإيمان منه على مدى الدهور وإلى اليوم الأخير.

وبينما وصف الكتاب المقدس السيد المسيح بأنه «ابن الله». قال السيد المسيح عن الروح القدس إنه «روح الحق المنبثق من الآب». وتعبير «الانبثاق» تعبير فريد لم ينسب في الكتب المقدسة إلا إلى الروح القدس. والفرق بين الانبثاق والولادة يحسّ ولا يدرك. ولعل أنسب تشبيه يمكن أن يقرّب معنى الانبثاق والولادة، والفارق الدقيق بينهما هو الشمس التي «يتولّد» منها النور، «وتنبثق» منها الحرارة، فالشمس هي الأصل ومنها تتولّد أشعة النور أو الضوء، ومنها أيضاً تنبثق أو تنبعث الحرارة أو الدفء. على أن الولادة أو الانبثاق لا يترتب على أي منهما افتراق أو اختلاف أو تخلّف في الزمن، فليس نور الشمس متخلّفاً في الزمن عن الشمس مع أنها مصدر النور، لأنه منذ أن كانت الشمس شمساً، يصدر منها النور، ولم تأت لحظة في الزمن كانت الشمس ولم يكن لها ضوء يصدر عنها. فالنور كان معها منذ وجودها. وكذلك الحرارة مع الشمس منذ وجودها، فلم تأتِ لحظة في الزمن كانت الشمس ولم تكن لها حرارة. فالحرارة كائنة معها منذ وجودها.

الفصل السادس عشر

١٦ : ١ ـ ١١

إنباء التلاميذ بما يتحملون من ضيقات وآلام:

واستطرد مخلصنا يتنبأ لتلاميذه بما سيعانونه من آلام وضيقات بعد رحيله بالجسد عنهم، ويشجعهم على إحتمال كل ما يأتي عليهم بسبب إيمانهم به، فقال لهم: «قد كلمتكم بهذا لئلا تصطدموا بما يعثركم، فإنهم سيخرجونكم من المجامع. بل ستأتي ساعة يظن فيها كل من يقتلكم أنه يقدم ذبيحة لله. وهم سيفعلون هذا بكم لأنهم لم يعرفوا الآب ولا عرفوني. وما قلت لكم هذا إلا لتتذكروا متى جاءت الساعة أنني قلته لكم. ولم أقله لكم منذ الابتداء لأنني كنت معكم. أما الآن فإنني ماضٍ إلى الذي أرسلني، ولا يسألني أحد منكم إلى أين تمضي؟.. ولكنكم إذ قلت لكم هذا ملأ الحزن قلوبكم. إلا أنني أقول لكم الحق إنه خير لكم أن أنطلق. لأنني إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزي. أما إذا مضيت فإني أرسله إليكم. ومتى جاء هذا فسيوبخ العالم على الخطيئة وعلى البر وعلى الدينونة. أما على الخطيئة فلأنهم لا يؤمنون بي، وأما على البر فلأنني منطلق إلى أبي فلا ترونني بعد. وأما على الدينونة، فلأن رئيس هذا العالم قد أُدين».

وفي هذه العبارات الرقيقة المعزيّة صارح مخلصنا تلاميذه بأنه قد أنبأهم بما سيتعرض له هو من إهانة وتعذيب وتنكيل يصل إلى حد القتل، وبما سيتعرضون له هم أيضاً من هذه الأوجاع كلها، لئلا تفاجئهم تلك الأحداث القاسية العنيفة فتصدمهم وتبعث اليأس في قلوبهم فيكون في ذلك إعثار لهم يقضي على إيمانهم به وبكل تعاليمه ووصاياه. وقد صارحهم بأن اليهود سيخرجونهم من المجامع، أي يعتبرونهم منبوذين من المجتمع كله ومحرومين من أداء الصلاة في بيوت الله، وكانت تلك هي أقسى عقوبة يتعرض لها اليهودي. كما صارحهم بأنه ستأتي ساعة يعتبرهم اليهود فيها كافرين بالله ومجدفين عليه حتى إن كل من يقتلهم يظن أنه يقدم ذبيحة لله، كوسيلة لنيل رضاه بالانتقام من أعدائه الكافرين به والمجدفين عليه. وهم يفعلون ذلك لأنهم قد عميت أبصارهم وبصائرهم فلم يعرفوا الله الآب ولم يعرفوا الله الابن. فلو أنهم عرفوا أنّ مخلصنا هو المسيح ابن الله الذي ينتظرونه لكانوا قد آمنوا به ولم يفعلوا ما فعلوه معه. وإذ لم يعرفوا ابن الله فهذا دليل على أن قلوبهم قد طمست فلم يعودوا يعرفون الله الآب نفسه الذي يتظاهرون بعبادته ويعتبرون أنفسهم شعبه المختار.

وقد قرر مخلصنا لتلاميذه أنه ماقال لهم هذا إلا ليتذكروا حين تقع الأحداث التي تنبأ لهم بها في الساعة المحددة لوقوعها أنه قال لهم ذلك قبل أن يحدث فلا يرتاعوا أو يرتعبوا لأن ذلك كله

إنما هو مقرر فى التدبير الإلهى. فليتلقوا كل ما يأتى عليه هو أو عليهم هم أنفسهم فى صبرٍ وإيمان بأن هذه هى مشيئة الله الذى لا يشاء إلا كل خير وكل بر وكل صلاحٍ للبشر. كما قرر أنه لم يقل لهم ذلك منذ الابتداء لأنه كان معهم، وكان هو الذى يشجعهم حين يخافون، ويقويهم حين يضعفون، ويخفف عنهم كل ضيق حين يتضايقون. وأما الآن وقد أزفت ساعة رحيله بالجسد عنهم وارتفاعه إلى أبيه السماوى الذى أرسله إلى العالم لإتمام هذا الفداء المجيد، فلا ينبغى أن يشعروا أنهم يتامى بدونه وأنهم لم يعد لهم من يشجعهم أو يقويهم أو يخفف الضيقات عنهم، لأنه سبق فصارحهم بما سيأتى عليهم وعمل مقدماً على إنتزاع الخوف والضعف والضيق من قلوبهم، بدافع من حبه لهم ورحمته بهم وإشفاقه عليهم وحرصه على تثبيت إيمانهم. فلا يفزعوا أو يتضعضعوا أو يتراجعوا عن ذلك الإيمان الذى غرسه فيهم وأسسه فى أعماق كيانهم ووجدانهم. أما حين كان معهم منذ الابتداء، فلم يكن ثمة حاجة لأن يقول ما قاله لهم الآن، لأنه كان بحضوره معهم هو حاميهم من كل سوء ومقويهم من كل ضعف ومشجعهم على احتمال كل ضيق ومنقذهم حين يدهمهم أى خطر. فكان فى حضوره بالجسد معهم ما يشعرهم بالأمن والأمان والاطمئنان، وما يملأ قلوبهم بالثقة واليقين والإيمان. ولكنه كان فى تلك الساعة يوشك أن يمضى إلى أبيه السماوى الذى أرسله لإتمام عمل الفداء الذى دبرته الرحمة الإلهية لخلاص البشر. وهنا طلب مخلصنا إلى تلاميذه ألاّ يسأله أحد منهم إلى أين يمضى، لأنهم لم يكونوا حتى تلك الساعة يستطيعون أن يفهموا ذلك السر الإلهى الذى ينطوى على عودته إلى أبيه السماوى، مع أنه وهو فى الجسد كان معه وظل معه وسيظل معه فى كيان واحد وكينونة واحدة منذ الأزل وإلى الأبد. وإن كان تلاميذه سيفهمون فيما بعد هذا السر كل الفهم حين يحل الروح القدس عليهم ويفتح عقولهم وقلوبهم ليدركوا كلَّ أمرٍ كان مجهولاً لهم أو غامضاً عليهم أو عسير الفهم بالنسبة إليهم. بيد أن مخلصنا حين قال لهم إنه سيمضى عنهم ملأ الحزن قلوبهم، ومن ثم طفق يخفف وطأة هذا الحزن عليهم، إذ قرر لهم أنه خير لهم أن ينطلق، لأنه إن لم ينطلق لا يأتيهم ذلك الروح القدس المعزى الذى سبق أن وعدهم بأنه سيرسله إليهم بعد رحيله بالجسد عنهم ليقويهم ويدافع عنهم ويقف إلى جوارهم فى كل محنة يتعرضون لها ويذكرهم بكل ما قاله مخلصنا من قبل لهم، ليتخذوا من أقواله زاداً لهم ودستوراً يسيرون على هداه فى كل أقوالهم وأعمالهم وفى أداء الرسالة التى كلفهم بأن يؤدوها لتبشير العالم به وجذب النفوس إلى حظيرة الإيمان بشخصه الإلهى وتعاليمه السماوية، لأنه إن لم ينطلق ماضياً بالجسد عنهم لا يأتيهم ذلك المعزى. أما إذا مضى فإنه يرسله إليهم. ومتى جاء هذا فسيوبخ العالم على الخطيئة وعلى البر وعلى الدينونة. أما على الخطيئة فلأن أهل هذا العالم لم يؤمنوا بالمسيح الذى

ما جاء متخذاً جسد إنسان مثلهم إلا ليبذل نفسه فداء عنهم كي يخلصهم من حكم الهلاك الأبدي الذي أصدرته العدالة الإلهية عليهم بسبب شرورهم. بل إنهم لم يكتفوا بعدم الإيمان به، وإنما قتلوه معلقين إياه على خشبة العار، كأنه مجرم أثيم، بل أشنع الناس إجرماً وأبشعهم إثماً، على الرغم من كل ما أدى إليهم من خير وأسدى إليهم من فضل، وتجلى به بينهم من فضيلة. وأما أن الروح القدس المعزى سيوبخ العالم على البر، وهو العدل وإعطاء كل ذى حق حقه، فلأن مخلصنا قبل أن ينطلق إلى أبيه السماوى ويختفى عن أبصار أهل هذا العالم ظل طوال وجوده بينهم يوصيهم بالبر والعدل وإسداء الحقوق إلى أهلها، ولكنهم مع ذلك ظلوا أشراراً ظالمين، يأكلون أموال الفقراء والأرامل واليتامى بالباطل دون وازع من عقيدة أو رادع من ضمير. وأما أن الروح سيوبخ العالم على الدينونة فلأن رئيس هذا العالم وهو الشيطان الذى كان مسيطراً على نفوس كل الذين فى العالم حاكماً لها متحكماً فيها قد أدين وسقط وفقد بانتصار المسيح عليه كل ما كان له من رياسة وسيطرة وسلطان. وقد سبق لمخلصنا أن قال لتلاميذه «إنى رأيت الشيطان ساقطاً من السماء كالبرق» (لوقا ١٠: ١٨). كما سبق أن قال لهم «الآن قد وقعت الدينونة على هذا العالم. الآن يطرح رئيس هذا العالم خارجاً» (يوحنا ١٢: ٣١). ومع ذلك ظل أهل العالم على شرهم ومكرهم وظلمهم وظلام عقولهم وسواد قلوبهم وإثم تفكيرهم وموت ضميرهم. مع أنهم وقد جاءهم المسيح الذى عمل على إقتلاع كل ذلك الذى غرسه الشيطان فيهم، لم يعد لهم عذر ولا مبرر للاستمرار فى مفاسدهم ومعاصيهم.

١٦: ١٢- ١٥

عمل الروح القدس:

ثم قال مخلصنا لتلاميذه «لا يزال عندى كلام كثير لأقوله لكم. ولكنكم لا تطيقون احتماله الآن. فمتى جاء ذاك الذى هو روح الحق، فهو يرشدكم إلى الحق كله، لأنه لا يتكلم من عنده، وإنما يتكلم بما يسمعه. وسيخبركم بأمور آتية، إنه يمجدنى لأنه يأخذ مما لى ويخبركم. جميع ما هو للآب فهو لى. لذلك قلت لكم إنه يأخذ مما لى ويخبركم». أى أن مخلصنا لا يزال عنده كلام كثير ليقوله لهم، يتضمن أسراراً تتعلق بطبيعته الإلهية، كما يتضمن نبوءات عما سيصادفهم بعد رحيله عنهم من متاعب ومصاعب وأوجاع وآلام وقتل وتعذيب، ولكنه لم يشأ أن يقول لهم ذلك الكلام لأنه كان يعلم أنهم لا يزالون عاجزين عن فهم تلك الأسرار التى كانت فى ذلك الحين تعلو على مداركهم ولا يمكن أن تصل إلى فهمها عقولهم القاصرة، لأنها تتعلق بالطبيعة الإلهية ذاتها. كما أنه أشفق عليهم من أن يصارحهم بتلك التجارب القاسية المريرة التى

كانوا سيتعرضون لها، ومن ثم حجب كل ذلك عنهم، مقرراً لهم أنه متى جاء ذلك المعزى الذى حدثهم عنه، والذى هو روح الحق، أى روح القدس، وهو روح الله الآب نفسه، الذى سيحل عليهم وفيهم بعد ارتفاع مخلصنا عنهم إلى السماء، فسيرشدهم إلى الحق كله فيما يتعلق بتلك الأسرار الإلهية السامية، فيفهمونها عندئذ بوحى وبعونٍ من ذلك الروح الذى سيمتلئون به. كما أنه سيمهد قلوبهم لأن تتحمل تلك التجارب القاسية المريرة التى سيتعرضون لها، ويقف فى أثنائها إلى جانبهم معزّياً ومقوياً ومدافعاً ومحامياً يعاضدهم ويساندهم ويلهمهم بما يقولون وما يفعلون، لأن روح القدس لا يتكلم من عنده هو وحده، وإنما يتكلم بما يسمعه من الآب والابن، لأنه متحد بهما فى جوهر واحد وكيان واحد وكينونة واحدة، إذ أن الثلاثة الأقانيم الإلهية إله واحد، هو الله الأزلى الأبدى الذى لا إله إلا هو، لا شريك له ولا ثانى ولا ثالث له. ومن ثم قال مخلصنا لتلاميذه إن روح القدس بصفته هذه سينبئهم بالأمور التى ستأتى عليهم، وإذ يملؤهم بمواهبه وتعزياته وتشجيعاته سيحتملون أن يسمعوا منه مالا يحتملون الآن سماعه من مخلّصنا قبل أن يتمجد ويرتفع أمامهم إلى السماء، فيتوطد إيمانهم به ويتأكد ذلك الإيمان بصفة نهائية قاطعة لا رجعة فيها ولا نكوص عنها. كما أن روح القدس سيمجد مخلصنا لأنه ينقل إليهم فكره ويخبرهم بمشيئته بعد أن يكون مخلصنا قد اختفى عنهم بالجسد. وعندئذ يعلمون مما ينبئهم به روح القدس أن جميع ماهو لله الآب من صفات وقدرات هو فى نفس الوقت صفات الابن وقدراته. ولذلك قال مخلصنا لتلاميذه إنه يأخذ مما له ويخبرهم، أى أن ما يقوله روح القدس لهم هو نفسه ما يقوله مخلصنا لهم، وكل ما يعطيهم روح القدس من مواهب وقدرات وتعزيات هى نفسها ما يعطيهم مخلصنا من مواهب وقدرات وتعزيات، لأنهما مع الله الآب جوهر واحد، وكيان واحد، وإله واحد.

١٦ : ١٦– ٢٢

إنباؤهم بقيامته وصعوده:

ثم قال مخلصنا لتلاميذه: «وبعد قليل لا ترونني. ثم بعد قليل أيضاً ترونني، لأنى منطلق إلى أبى». وقد كان يعنى أنه بعد لحظات قليلة فى تلك الليلة نفسها سيقبض اليهود عليه فلا يعود التلاميذ يرونه. ثم يقتله اليهود على خشبة الصليب. وبعد أيام قليلة لا تتجاوز الثلاثة أيام يقوم من بين الأموات، فيرونه مرة أخرى فى جسد قيامته، ثم بعد أيام قليلة بعدها لا تتجاوز الأربعين يوماً يغادرهم منطلقاً إلى أبيه السماوى، فلا يعودون يرونه بالجسد، وإن كان سيظل معهم بقوته وقدرته، إذ قال لهم قبل صعوده «وهاأنذا معكم كل الأيام إلى إنقضاء الدهور» (متى

٢٨ : ٢٠) . بيد أن تلاميذه لم يفهموا ما قاله لهم. لأنه كان إلى ذلك الحين فوق مداركهم، فقال بعضهم لبعض فيما بينهم: «ماهذا الذى يقوله لنا: بعد قليل لا تروننى، ثم بعد قليل أيضاً تروننى. ولأننى منطلق إلى أبى؟» . ثم قالوا: «ماهو هذا القليل الذى يتكلم عنه؟ إننا لا ندرى ماذا يقول» . ولكنهم لم يجسروا على أن يسألوه ما الذى يعنيه بكلامه لهيبته العظيمة، واحترامهم العظيم له. إلا أن مخلصنا بعلمه الإلهى علِم أنهم يريدون أن يسألوه، وإذ كان كل إهتمامه متجهاً إلى تقويتهم وتعزيتهم وتشجيعهم ومواساتهم فى تلك اللحظة التى كان يودعهم فيها، قال لهم «أعَن هذا تتساءلون فيما بينكم، إذ قلت لكم بعد قليل لا تروننى ثم بعد قليل أيضاً تروننى؟. الحقّ الحقّ أقول لكم إنكم ستبكون وتنوحون والعالم يفرح. أنتم ستحزنون ولكن حزنكم سيتحول إلى فرح. فالمرأة وهي تلد تحزن لأن ساعتها قد جاءت. ولكنها متى ولدت الطفل لا تعود تذكر ما كانت فيه من شدة، لفرحها بأنها ولَدت إنساناً فى العالم. هكذا أنتم الآن محزونون، ولكننى سأعود فأراكم فتفرح قلوبكم ولن ينزع أحد فرحكم منكم» . وهكذا مهّد عقولهم وقلوبهم للحدث المفجع الذى سيصيبهم بموته بعد ساعات قليلة والذى لن يملكوا إزاءه إلا أن يبكوا وينوحوا، فى حين أن العالم الشرير الذى يستبد به الشيطان ويستعبده يبدى الفرح والبهجة بموته، مشاركة للشيطان فى فرحه وبهجته لذلك الموت الذى يتوهم أن فيه نصراً له وقهراً لعدوّه اللدود الذى أعلن الحرب ضده وقرر القضاء عليه القضاء الأخير. بيد أن التلاميذ - وإن كانوا سيحزنون - لن يلبث حزنهم أن يتحول إلى فرح، فيكون شأنهم فى ذلك شأن المرأة الحامل التى تحس أن ساعة ولادتها التى تعانى فيها أشد الآلام والأوجاع قد جاءت فتحزن عندئذ وتكتئب وترتعب. ولكنها ما إن تتم عملية ولادتها وترى وليدها حتى تنسى كل ما كانت فيه من شدة وآلام وأوجاع. ويزول عنها كل ما كانت تشعر به من حزن واكتئاب وارتعاب، وينقلب هذا الشعور على الفور إلى فرح وبهجة واستبشار وفخار، لأنها أنجبت للعالم من جوف أحشائها ولحمها وعظمها إنساناً يزداد به العالم حياة وحيوية وعمراناً، هكذا التلاميذ فإنهم - وإن كانوا سيعتصر الحزن قلوبهم إذ يغيب عنهم معلمهم وحاميهم وأبوهم وربهم - لن يلبث أن يعود إليهم فيراهم ويرونه فتفرح عندئذ قلوبهم ولن يستطيع أحد أن ينزع فرحهم منهم، لأنه فرح روحى سماوى أبدى سيغطى على كل ما سيعانونه من أحزان وأوجاع جسدية أرضية مؤقتة لن تلبث أن تزول تاركة لهم الفرح كاملاً غير منقوص، ونقياً لاتشوبه شائبة، وأبدياً لا إنتهاء له ولا إنقضاء ولا زوال إلى الأبد.

١٦ : ٢٣- ٢٨

التأكيد على إجابة طلباتهم باسمه:

وقد وعد مخلصنا تلاميذه بالمكافأة التي سيكافئهم بها عن الآلام والأوجاع والأهوال التي سيتعرضون لها بسبب إيمانهم به وفي سبيل أداء الرسالة التي كلفهم بأدائها إذ قال لهم: «ويومئذ سوف لا تسألونني عن شيء. الحق الحق أقول لكم إن كل ما تطلبونه من الآب باسمي يعطيكم. إنكم حتى الآن لم تطلبوا شيئاً باسمي. اطلبوا تنالوا، ليكون فرحكم كاملاً. قد كلمتكم عن هذا بأمثال ولكن تأتي ساعة حين لا أكلمكم بعد بأمثال، وإنما أكلمكم عن الآب صراحة. وفي ذلك اليوم ستطلبون باسمي. ولا أقول لكم إنني سأطلب إلى الآب من أجلكم، فإن الآب نفسه يحبكم، لأنكم أحببتموني وآمنتم بأنني من الله الآب خرجت. خرجت من الآب وجئت إلى العالم. ثم أترك العالم وأنطلق إلى الآب».

أي أن تلاميذ مخلصنا بعد أن يتمجد بقيامته من بين الأموات وصعوده إلى السماء سيلهمهم الروح القدس الإجابة عن كل سؤال يجول بخاطرهم، فلا يعودون بحاجة إلى أي سؤال، وإنما يكونون عالمين بكل حقيقة ذكرها مخلصنا لهم، وفاهمين لها، ومؤمنين بها. وعندئذ ـ وقد توطد علمهم وفهمهم وإيمانهم ـ لا يطلبون إلى الله الآب باسم الرب يسوع المسيح شيئاً إلا أعطاهم الآب كل ما يطلبونه باسم ابنه القدوس. ولئن كانوا حتى تلك اللحظة لم يطلبوا شيئاً باسمه، إنهم منذ تلك اللحظة إذا طلبوا شيئاً ينالونه. وبذلك يكتمل فرحهم، إذ يجنون ثمرة إيمانهم وجهادهم في سبيل ذلك الإيمان. وقد قرر لهم مخلصنا أنه كلمهم حتى ذلك الحين بأمثال ورموز عن الحقائق الإلهية التي شاء له المجد أن يذكرها لهم، لأن تلك الحقائق لسموها عن أفهام البشر سموّ السماء عن الأرض كانت ترتفع كل الارتفاع عن مداركهم البشرية، فلو أنه ذكرها لهم بعبارات صريحة واضحة فلن يفهموها، أو قد يسيئون فهمها، فينقلب الغرض منها إلى نقيض ما هدف إليه من مصارحتهم بها، ولكن تأتي ساعة ـ بعد أن يرتفع عنهم ويرسل إليهم الروح القدس ليمتلئوا بمواهبه ـ لا تعود ثمة حاجة لأن يكلمهم بعد بأمثال أو رموز، وإنما يكلمهم عندئذ عن الآب صراحة، لأنهم سيكونون قد أدركوا كل الإدراك طبيعته الإلهية بوصفه ابن الله الآب المتحد به في جوهر واحد وكيان واحد وكينونة واحدة، ويكونون قد أدركوا بالتالي مكانة الابن من الآب، والصلة التي تربطهما، صلة المحبة الكاملة الناجمة عن الوحدة الكاملة والاتحاد الكامل بينهما، ونتيجة لذلك سيطلبون في ذلك اليوم ما يشاؤون من الآب باسم الابن، وعندئذ لا تكون ثمة حاجة بالابن إلى أن يطلب من الآب أن يعطيهم ما يطلبون، لأن الآب نفسه يحبهم لأنهم

أحبوا الابن وآمنوا بأنه من الآب خرج، لا خروجاً يتضمن الانفصال، وإنما خروجاً يتضمن الاتصال الأزلي الأبدى الذى يجمع بين الآب والابن فى كيان واحد لا يقبل الانفصال أو الانقسام. وبهذا المعنى خرج الابن من الآب، وجاء إلى العالم متخذاً جسداً بشرياً لينجز عمل الفداء الذى دبرته الرحمة الإلهية بمشيئة الآب والابن معاً لفداء البشر تكفيراً عن خطاياهم وإنقاذاً لهم من حكم الهلاك الصادر من العدالة الإلهية عليهم بسبب شرورهم، حتى إذا أنجز هذا التدبير ترك العالم بالجسد وانطلق إلى الآب الذي هو منه وفيه ولم ينفصل عنه لحظة واحدة أو طرفة عين منذ الأزل وإلى الأبد. وذلك سر من أسرار الطبيعة الإلهية يفوق مدارك البشر القاصرة، وسيظل يفوق مداركهم على مدى الأزمان، فلا يصل الإنسان إلى كنهه إلا بالبصيرة الروحية النافذة والإيمان العميق النابع من أعمق أعماق الوجدان الصالح الصادق الطاهر المتفتح المستنير بفعل مواهب الروح القدس، الذى هو روح الله نفسه الحكيم الرحيم القدير.

١٦ : ٢٩ ـ ٣٣

إنباؤهم بصلبه وتركهم إياه وحده:

وقد كان لهذه الأقوال التى تحدث بها مخلصنا إلى تلاميذه أثرها الفعّال والمباشر والمثمر فى تلاميذه، فقالوا له «ها أنت ذا تتكلم الآن صراحة، ولا تقول أى مثل. ونحن الآن نعرف أنك عالم بكل شيء. ولا تحتاج لأن يسألك أحد. لهذا نؤمن بأنك من الله خرجت». فقد أذهلهم أن يعرف أفكارهم دون أن يفصح بذلك لهم، وإن كان قد فعل ذلك من قبل كثيراً معهم. ولكن عقولهم البشرية كانت كما هو الشأن مع كل العقول البشرية، أو على الأقل أغلبها، قاصرة عن أن تفهم المقاصد الإلهية أو أن تدرك الطبيعة الإلهية السمائية بعقول البشر القاصرة المحدودة التى لا يتعدّى أثرها أو الغرض منها فهم الحقائق الجسدية الأرضية، التى لا تعين الإنسان إلا على أن يعيش فوق القشرة الأرضية الضئيلة غاية الضآلة التافهة غاية التفاهة بالنسبة للكون الأعظم الذى لا حدود له ولا إبتداء ولا إنتهاء له، والذى يملؤه الله بكل جزئياته وكليّاته بكيانه، ويديره بقوته ويدبره بحكمته. وقد أبهج مخلصنا تلاميذه ـ وقد أزفت ساعة رحيله بالجسد عنهم ـ بأنه بدأ يكلمهم بوضوح وصراحة ليفهموا كلامه فهماً واضحاً صريحاً بعد أن كان يكتفى بالتلميح والرمز والتشبيه وضرب الأمثال لهم، إذ كانوا لا يزالون أطفالاً فى المعرفة لا يجدى فى تعليمهم إلا وسائل الإيضاح الملموسة المحسوسة التى تتفق مع عقول الأطفال التى لا تزال تخطو خطواتها الأولى فى المعرفة والفهم والإدراك. وأما الآن فقد رأى معلمهم أنهم نضجوا ولم يعودوا فى حاجة في تعليمهم إلى أساليب تعليم الصغار والمبتدئين، ولا سيما أنهم الآن قد اكتمل إيمانهم

ومعرفتهم بأنه عالم بكل شيء، علماً لا يتصف به إلا الله الواحد وحده. فهو لا يحتاج إلى أن يسأله أحد أو يستفهم منه أحد عن أي قول يقوله، لأنه يعلم بما فى النفوس وما تخفيه الصدور، وما تعتلج به الأفئدة. ولهذا آمنوا بأنه من الله خرج، خروج النور من الشمس، أى أنه متصل بالله الآب إتصال الذات بذاتها، والجوهر بجوهره، فهو يعلم العلم الإلهي الذى لا يتصف به إلا الله الواحد وحده.

بيد أن مخلصنا على الرغم مما أبدى تلاميذه من حماسة الإيمان به وبحقيقته الإلهية، أنبأهم بما سيكون منهم مما لا يتفق مع هذه الحماسة في الإيمان، إذ أجابهم قائلاً «أتؤمنون الآن؟ هوذا تأتي ساعة، وقد أتت الآن، تتفرقون فيها كل منكم إلى حيث كان، وتتركوني وحدي. غير أنني لست وحدي، لأن أبي معي. قد كلمتكم بهذا ليكون لكم فِيَّ سلام. سيكون لكم في العالم ضيق. ولكن اطمئنوا. فقد غلبت أنا العالم»، أي أنهم - على الرغم مما أبدوا من الإيمان به في تلك اللحظة - لن يلبثوا في اللحظة التالية مباشرة - حين يأتي اليهود ويقبضون عليه - أن يهربوا جميعاً، ويذهب كل منهم فيختبئ في المكان الذي جاء منه، ويتركوه وحده، مما يتنافى مع كل ما أبدوه من إيمان به كان يقتضيهم أن يلتفوا في لحظة الضيق حوله ويدافعوا عنه ويفتدوه إذا اقتضى الأمر بأرواحهم، على قدر حبهم له وتعلقهم به وإخلاصهم لشخصه الإلهي، وقد كان هذا عتاباً مسبقاً ورقيقاً من مخلصنا يدل على مدى محبته وسماحته وتسامحه ورحمته بضعف البشر. ومع ذلك أكد لهم أنه - وإن تركوه جميعاً - لن يكون وحده أمام طغيان اليهود وحقدهم وكراهيتهم وعداوتهم واعتدائهم، لأن أباه السماوي معه، بصفة كونه في كيان واحد معه، فلن يتخلى الآب عن الابن، ولن يتخلى الابن عن الآب، إذ أنهما كليهما واحد في اتحاد كامل، هو الله الواحد. وقد قرر مخلصنا لتلاميذه أنه كلمهم بهذا لكي لا يجزعوا أو يتضعضعوا حين يحدث هذا كله، وإنما تمتلئ قلوبهم به وفيه وبواسطته بالسلام الكامل والطمأنينة الروحية التي هي أسمى درجات السلام الأبدي. وقد أنبأهم بأنهم سيكون لهم في العالم - بعد مغادرته لهم بالجسد - ضيق وكرب وحرب واضطراب وعذاب يبلغ بهم حد القتل بأبشع الوسائل وأشنعها، ولكنه طلب إليهم أن يطمئنوا مهما حدث لهم ومهما عانوا أو كابدوا أو استشهدوا، لأنه بموته وقيامته من بين الأموات قد غلب العالم، أي غلب رئيس هذا العالم الذي هو الشيطان، أصل كل شر، وعدو كل خير، ومن ثم فإنه إذا غلب هو شرور العالم، فسيغلبونها هم أيضاً ويتغلبون عليها ويقهرونها وينالون المجد الأبدي والحياة الأبدية.

الفصل السابع عشر

١٧ : ١ - ٥

طلب الابن من الآب أن يمجده:

تكلم مخلصنا بهذا لتلاميذه، ثم رفع عينيه نحو السماء مناجياً أباه السماوي في صلاة ربانية رائعة، تتضح فيها كل الوضوح علاقته بالله الآب، علاقة الابن بأبيه، ولكنها ليست كعلاقة الابن البشري بأبيه البشري، مهما كانت هذه العلاقة وثيقة وعميقة وتنطوي على الحب كله والإجلال كله والوفاء كله، ولكنها علاقة الابن الإلهي بأبيه الذي هو ذات جوهره، وجوهر ذاته، لأنهما معاً جوهر واحد متحد في كيان واحد وكينونة واحدة تتسامى جداً على فهم البشر وتتجاوز عقلهم المحدود إلى أقصى الحدود بالنسبة لله الذي لا حدود له، والذي يملأ الكون كله بكل كلياته وجزئياته، ويديره ويدبره بحكمته التي لا حد لعظمتها، وبقدرته التي لا نهاية لقوتها وفعاليتها، فلا يمكن إدراك ماهيته والتعالي إلى كنه طبيعته إلا بإلهام منه هو ذاته، ذلك الإلهام الذي لا يخص به إلا الأنقياء والأتقياء والأطهار والأبرار والقديسين الذين يؤمنون به أصدق الإيمان وأعمق الإيمان، فيفتح بصرهم وينير بصيرتهم ليروه بعين الروح لا بعين الجسد، وبشفافية الوجدان لا بأي حس من الأحاسيس المادية للإنسان.

رفع مخلصنا عينيه نحو السماء وقال: «يا أبتاه، قد أتت الساعة، مجِّد ابنك ليمجدك ابنك. كما أنك قد أعطيته سلطاناً على كل جسد كي يعطي الحياة الأبدية لكل الذين أعطيتهم له. وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحق الواحد وحده، مع يسوع المسيح الذي أرسلته. أنا قد مجدتك على الأرض، والعمل الذي أعطيتني لأعمل قد أكملته. فالآن مجِّدني يا أبتاه عند ذاتك بالمجد الذي كان لي عندك من قبل كون العالم». فالآن وقد علم مخلصنا أنه قد أتت الساعة المحددة في التدبير الإلهي ليقدم الفادي نفسه ذبيحة للعفو عن البشر وخلاصهم من الهلاك الأبدي المحكوم به من العدالة الإلهية عليهم بسبب شرورهم، طلب - له المجد - من أبيه السماوي أن يساند ناسوته في تلك المحنة الرهيبة ليجتازها ويخرج منها منتصراً كي يتمجد بذلك لدى الناس لاهوته باعتباره ابن الله، ومن ثم يتمجد الله الآب لدى الناس في نفس الوقت بالمجد الذي لابنه، وبذلك يتمجد الآب بالابن، كما تمجد الابن بالآب. فقد أعطى الآب للابن - حين عهد إليه بإنجاز عمل الفداء عن البشر - سلطاناً على كل إنسان ذي جسد كي يعطي الابن بانجاز ذلك العمل الحياة الأبدية لكل الذين أعطاهم له من بني الإنسان، بدلاً من الهلاك الأبدي الذي كان محكوماً به عليهم. وتتمثل هذه الحياة الأبدية في أن بني الإنسان - إذ يعرفون ما للابن يسوع المسيح من المجد الإلهي بعد أن يموت عنهم، ثم يقوم بإرادته وسلطان لاهوته من

بين الأموات ويصعد إلى السماء - يعرفون بالتالي أن أباه الذي أرسله لهذه الغاية هو الإله الحق الواحد وحده، لا إله غيره في الأرض أو في السماء أو في أي مكان من الأمكنة أو أي زمان من الأزمنة أو بأي اسم آخر من الأسماء. فالحياة الأبدية إذن هي جزاء كل إنسان يؤمن بالله الآب وبالله الابن، بل إن هذا الإيمان بالآب والابن هو في ذاته الحياة الأبدية التي هي حتماً نتيجة هذا الإيمان. أما وقد مجد الابن أباه على الأرض إذ أكمل العمل الذي أعطاه إياه ليعمله بأن يموت على الصليب فداء عن البشر تكفيراً عن خطاياهم وتمهيداً لمنحهم الحياة الأبدية، فقد خاطب الابن أباه مناجياً إياه بأنه قد آن الأوان ليعود إلى أحضانه عودة الذات إلى ذاتها بكل المجد الإلهي الذي كان له عنده ومعه من قبل كون العالم، ذلك المجد الذي كان ويكون ويظل لكليهما باعتبارهما جوهراً واحداً وذاتاً واحدة منذ الأزل وإلى الأبد.

١٧ : ٦ - ١٩

طلب المسيح من أجل الرسل:

وواصل فادينا مناجاته لأبيه السماوي قائلاً: «قد أظهرتُ اسمك للذين أعطيتنيهم من العالم. هم كانوا لك. وقد أعطيتني إياهم فحفظوا كلامك. وقد علموا الآن أن كل ما أعطيتني هو من لدنك، لأنني أعطيتهم الكلام الذي أعطيتني وقد قبلوه، وأيقنوا أنني منك خرجت، وآمنوا بأنك أنت الذي أرسلتني. من أجلهم أنا أطلب. لست أطلب من أجل العالم، وإنما من أجل هؤلاء الذين أعطيتنيهم، لأنهم لك. وجميع ما هو لي فهو لك. وجميع ما هو لك فهو لي. وأنا قد تمجدت فيهم. أنا لست في العالم بعد. وأما هؤلاء فهم في العالم، وأنا آتي إليك. يا أبتاه القدوس، احفظهم في اسمك، هؤلاء الذين أعطيتنيهم، ليكونوا في وحدة كما نحن واحد. حين كنت أنا معهم في العالم كنت أحفظهم في اسمك. هؤلاء الذين أعطيتنيهم حفظتهم فلم يهلك منهم أحد إلا ابن الهلاك، ليتم قول الكتاب. وأما الآن فإنني آتي إليك. وأنا أتكلم بهذا في العالم، ليكون مابي من فرح كاملاً فيهم، قد أعطيتهم كلامك. فأبغضهم العالم، لأنهم ليسوا من العالم، كما أنني أنا لست من العالم. إنني لا أطلب أن تأخذهم من العالم، وإنما أن تحفظهم من الشرير. هم ليسوا من العالم كما أنني أنا لست من العالم. قدسهم في الحق. والحق هو كلامك. كما أرسلتني إلى العالم، أرسلتهم أنا أيضاً إلى العالم. ومن أجلهم أقدس أنا ذاتي، ليكونوا هم أيضاً مقدسين في الحق».

فبعد مناجاة مخلصنا مع أبيه السماوي التي تحدث فيها عن علاقته هو ابن الله بالله الآب، وما أنجزه من مهمة شاءت إرادته هو مع أبيه أن ينجزها في العالم، بعد أن أنجزها بالفعل، انتقل إلى مناجاته بشأن أولئك الذين إختارهم مع أبيه من بين أبناء العالم ليكونوا تلاميذه الذين سيبشرون به العالم وينشرون بين أبنائه تعاليمه، قائلاً إنه أظهر اسمه لهم وأفهمهم طبيعته

ولقنهم شريعته، مقرراً أنه ما إختارهم إلا لأنهم كانوا أرضاً طيبة ليغرس فيهم تعاليمه عن أبيه السماوى. لأنهم كانوا من أبناء الله الصالحين، ومن ثم فإنهم سرعان ما فهموا كلام الله الذى لقنه لهم وحفظوه وحافظوا عليه وعملوا به. وإذ آمنوا بأن معلمهم هو ابن الله أدركوا أن كل ما نطق به من تعاليم وكل ما صنعه من آيات ومعجزات، وكل ما أعطاهم من تلك التعليمات، وكل ما وهبهم أن يصنعوه هم أنفسهم من الآيات والمعجزات، إنما هى عطايا وهبات ومقدرات الله الآب نفسه، وأنها كلها من لدنه، لأنه ما كلمهم إلا بكلام الله الآب نفسه، فقبلوه وآمنوا بصدقه، لأنهم أيقنوا أن معلمهم هو ابن الله وأنه منه خرج باعتباره من ذات طبيعته وجوهره، وآمنوا بأنه هو الذى أرسله كما ترسل الشمس أشعتها التى هى من صميم كيانها لتنير وتبث الحرارة والحياة. ولذلك فهو يطلب من أجلهم المكافأة من أبيه السماوى، مبرهناً بذلك على أنه هو نفسه قد وجدهم أهلاً للمكافأة، لأنه هو وأبوه السماوى كيان واحد وذات واحدة، وهو يطلب لهم المكافأة لأنهم آمنوا به وبأبيه، من بين أناس العالم كله الذين لم يطلب شيئاً أو يقرر شيئاً بشأنهم حتى هذه اللحظة، لأن تلاميذه الذين أعطاهم الله الآب له، قد آمنوا بالله الآب فأصبحوا من رعيته. ولأن رعية الآب هم فى نفس الوقت رعية الابن، ورعية الابن في نفس الوقت هم رعية الآب، وكل ما للآب فهو للابن. وكل ما للابن فهو للآب، إذ أن الآب والابن إله واحد وكيان واحد وذات واحدة. وإذ آمن التلاميذ بالابن فقد تمجد بذاته الإلهية فيهم، لا لأنه ـ له المجد ـ إزداد مجداً بهم، وإنما لأن إيمانهم به أبرز مجده الإلهى للعالم وأظهره لكل الذين فى العالم، فكان هذا فضلاً لهم يستحقون من أجله المكافأة التى قرر فى مناجاته مع أبيه السماوى أنهم أهل لها وأنهم يستحقونها لديه ولدى أبيه فى نفس الوقت، ولما كان مخلصنا قد أنجز المهمة التى جاء متجسداً ومتأنساً من أجلها إلى العالم وسيصعد بعد قليل إلى أبيه تاركاً هذا العالم. ولما كان تلاميذه لا يزالون في هذا العالم ومن أناس هذا العالم، فقد طلب إلى أبيه السماوى القدوس من أجل أولئك التلاميذ الذين أعطاهم إياه وشاركه فى إختيارهم أن يحفظهم فى اسمه، مؤمنين به، خادمين له، لا يرتاعون أو يتزعزعون أو يتراجعون عن ذلك الإيمان أو تلك الخدمة مهما لاقوا فى سبيل ذلك من متاعب ومن مصاعب ومن مصائب ومن آلام ومن أسقام ومن أوجاع، ليكونوا جميعاً صفاً واحداً، وإرادة واحدة، ووحدة كاملة، ياحبذا لو كانت تشبه فى تماسكها وصلابتها وقوتها وإندماجها الاندماج الذى لا إنفصال فيه ولا إنفصام، كأنهم يد واحدة ورجل واحد، كما أن الآب والابن معاً إله واحد، فإن مخلصنا حين كان مع تلاميذه فى العالم كان حريصاً كل الحرص على أن يحافظ على توحيد كيانهم وتوطيد إيمانهم وحفظهم فى اسم الله الآب وباسمه ومن أجل اسمه. وبذلك حفظ أولئك الذين أعطاه الله الآب إياهم وحافظ عليهم، فلم يهلك منهم بفضله أحد إلا ابن الهلاك الذى استحق الهلاك بسبب ضعف إيمانه وتسلط الشر

على وجدانه واستسلامه لغواية الشيطان له، والذى كان مقرراً فى العلم الإلهى أنه بسبب هذا كله سيكون مصيره السقوط والهلاك على الرغم من أن الله وهبه الحرية الكاملة فى تصرفاته فسلك طريق الشر والضلال، مع أن مخلصنا فتح له طريق الخير والخلاص على مصراعيه. وكان مخلصنا يعنى بابن الهلاك هذا تلميذه يهوذا سمعان الإسخريوطى الذى كان يعلم أنه سيخونه وسيسلمه إلى أعدائه ليقتلوه والذى تنبأ عنه أنبياء العهد القديم، إذ ألهمهم الله بأنه سيفعل ذلك، إذ يقول داود النبى فى المزاميرعلى لسان السيد المسيح «رجل سلامتى الذى وثقت به. آكل خبزى رفع على عقبه» (المزمور ٤٠: ٩). كما قال عنه «ليقف شيطان عن يمينه.. لم يذكر أن يصنع رحمة بل طرد إنساناً مسكيناً وفقيراً والمنسحق القلب ليميته. وأحب اللعنة فأتته، ولم يسر بالبركة فتباعدت عنه. ولبس اللعنة مثل ثوبه فدخلت كمياه فى أحشائه» (المزمور ١٠٨: ٦و١٧و١٨). وإذ كانت هذه هى نبوءات الأنبياء عنه قال مخلصنا فى ذلك الحديث الوداعى إلى تلاميذه إنه سيهلك «ليتم قول الكتاب».

ومضى مخلصنا بعد ذلك فى مناجاته لأبيه السماوى بشأن تلاميذه قائلاً إنه وقد أزفت الساعة ليأتى منطلقاً إليه، يتكلم معه على مسمع منهم وهو لا يزال فى العالم ليكون مابه من فرح - إذ أنجز عمل الرحمة الذى من أجله قدم نفسه ذبيحة عن البشر تكفيراً عن خطاياهم- دافعاً لتلاميذه لأن يفرحوا هم أيضاً، إذ يرون معلمهم وقد امتلأ فرحاً، وأن يكون فرحهم هذا كاملاً، بقدر مايرون أن فرحه هو كامل.

وقد أوضح مخلصنا فى مناجاته أنه أعطى تلاميذه كلام أبيه السماوى، أى تعاليمه ووصاياه، التى هى فى نفس الوقت تعاليم مخلصنا نفسه ووصاياه، لأنه مع أبيه فى كيان واحد ووحدة واحدة، ولكن العالم أبغض التلاميذ لأنهم إذ تحرروا بتعاليم السيد المسيح من سلطان الشيطان رئيس هذا العالم أصبحوا غرباء عن هذا العالم، وليسوا من هذا العالم، كما أن معلمهم ربنا يسوع المسيح ليس من هذا العالم، لأنه - وإن كان هو الرئيس الحقيقى لهذا العالم - لا يمكن أن ينسب نفسه إلى أى مكان فى الوجود يسود فيه الشر ويتحكم فيه الشرير. فهو إذ كان يملأ الكون بوجوده الإلهى فإنه ينفر من كل شر وينبذ كل شرير ويطرده عنه بعيداً حتى يوم الدينونة الذى يحكم فيه بالهلاك الأبدى على جميع صور الشر وكل فئات الأشرار. ومخلصنا إذ يقرر أن تلاميذه ليسوا من العالم لا يهدف بذلك إلى أن يأخذهم من العالم كى ينقذهم من شروره، وإنما أن يعمل على أن يحفظهم من الشرير الذى هو الشيطان رئيس هذا العالم والمسيطر عليه. فكما أن مخلصنا ليس من العالم وليس للشيطان عليه سلطان، هكذا يريد لتلاميذه الذين هم أيضاً ليسوا من العالم أن يتحرروا وهم لا يزالون فى العالم من سلطان الشيطان الذى يسيطر به على بنى الإنسان. وذلك بأن يتقدسوا فى الحق، أى أن يؤمنوا بالحق فيصبحوا بذلك قديسين. والحق هو

الله، وهو كلام الله ووصاياه التي لو عملوا بها لامتلأوا بالقداسة التي بها يهزمون الشيطان وكل قواته ومؤامراته، وينجون من كل أحابيله وضلالاته، ويصبحون جديرين بأن يكونوا رسلاً لمخلصنا. لأنه كما أن الله الآب قد أرسل ابنه القدوس إلى العالم كي ينجز المهمة التي دبرتها الرحمة الإلهية لخلاص أهل العالم، هكذا أرسل ابن الله أيضاً تلاميذه إلى أهل العالم كي يبشروهم بمجيء المخلص الذي وهبهم هذا الخلاص بدمه الزكي الذي سفكه على الصليب تكفيراً عن خطاياهم، والذي سفكه عنهم باذلاً ذاته من أجلهم وقد قدسهم به، ليكونوا هم أيضاً مقدسين بالله الحق وفي الله الحق الذي شاء بدافع من محبته لهم ورحمته إياهم أن يمنحهم هذا الخلاص من حكم الهلاك الذي كان محكوماً به من العدالة الإلهية عليهم بسبب شرورهم.

١٧ : ٢٠ - ٢٣

طلب المسيح من أجل المؤمنين:

ولما كان مخلصنا هو مخلص جميع البشر وأباهم وربهم، لم يقصر مناجاته مع أبيه السماوي على إسباغ نعمته على تلاميذه وحدهم وإنما قال: «ولست أطلب من أجل هؤلاء فقط، وإنما أيضاً من أجل أولئك الذين يؤمنون بي بكلامهم، ليكونوا جميعهم في وحدة. كما أنك أنت أيها الآب في وأنا أيضاً فيك، ليكونوا هم أيضاً في وحدة فينا، كي يؤمن العالم بأنك أنت الذي أرسلتني. قد أعطيتهم المجد الذي أعطيتني ليكونوا في وحدة كما أننا نحن أيضاً في وحدة. أنا فيهم وأنت فيّ، ليكونوا هم أيضاً في وحدة كاملة. وليعلم العالم بأنك أنت الذي أرسلتني، وأنني أحببتهم كما أحببتني»، أي أن كل ما أراده - له المجد - لتلاميذه من نعمة وتقديس وحماية ينطبق أيضاً على كل البشر في كل زمان ومكان الذين يؤمنون به، ويجاهدون بهذا الإيمان علناً وصراحة، لتجمعهم جميعاً جامعة واحدة هي الجامعة المسيحية من كل أمة ومن كل شعب ومن كل جنس. فكما أن مخلصنا ابن الله تجمعه بالله الآب وحدة كاملة وكيان واحد، يريد - له المجد - أن يكون جميع المؤمنين به في وحدة كاملة ذات إيمان واحد يجعلها في اتصال تام بالله الآب وبابنه الذي أرسله إلى العالم لتحقيق هذه الوحدة بين كل أممه وشعوبه وأجناسه، ذلك الإيمان الذي يقوم على المعرفة الحقيقية لله الآب والاقتناع الكامل بأنه هو الذي أرسل ابنه الحبيب لخلاص العالم، إذ أسبغ بمجيئه إلى بني البشر الذين في العالم مجده الذي هو في نفس الوقت مجد الله الآب ليكونوا جميعاً بالإيمان في وحدة واحدة، كما أن الابن في وحدة واحدة مع الآب تجمع بينهما في كيان واحد وجوهر واحد، لأنهم إذ أنهم بإيمانهم بالابن أصبحوا يحيون فيه كما يحيا الابن في الآب. وبذلك يحيون هم أيضاً في وحدة كاملة تشبه الوحدة التي بين الابن والآب. وبذلك يعلم البشر الذين في العالم ويؤمنون بأن الآب هو الذي أرسل إليهم الابن، كما

يعلمون - إذ قدم نفسه ذبيحة عنهم - انه احبهم كما احب الاب ابنه. وهذه أعلى وأسمى وأنبل وأكمل درجة من درجات الحب يمكن أن يتصورها العقل أو يصل إليها الخيال.

١٧ : ٢٤ – ٢٦

يطلب من أجل الجميع أن يكونوا معه في السماء:

ثم ختم مخلصنا مناجاته لأبيه السماوى قائلاً «يا أبتاه أريد أن هؤلاء الذين أعطيتنيهم يكونون معي حيث أكون أنا ليعاينوا مجدى الذى أعطيتني، لأنك أحببتني قبل إنشاء العالم. يا أبتاه الحق، إن العالم لم يعرفك، وأما أنا فعرفتك، وهؤلاء أيضاً عرفوا أنك أنت الذى أرسلتني. وقد أخبرتهم باسمك وسأظل أخبرهم، لتكون فيهم المحبة التي بها أحببتني، وأكون أنا أيضاً فيهم».

وتدل تلك التعبيرات الجميلة الجليلة على مدى الحب الذى أسبغه مخلصنا على تلاميذه وكل المؤمنين به في كل زمان ومكان الذين أعطاهم له الآب فأصبحوا من رعيته ورعية الآب الذى هو متحد به، إذ شاءت إرادته أن يكونوا معه حيث يكون هو، أى في الملكوت ليروا بأعينهم مجده الإلهي الذى هو مجد الله الآب في الوقت نفسه، بعد أن كانوا يرونه إنساناً بينهم يتصف بوداعة الطبع وبساطة المظهر وتواضع المهنة. لأنه إذ أحبه الآب قبل إنشاء العالم، أي منذ الأزل، حب الذات لذاتها والجوهر لجوهره، فإن له المجد الإلهي الذى لله الآب منذ الأزل وإلى الأبد، وهو يريد لتلاميذه والمؤمنين به بعد رؤيتهم له كإنسان أن يروا مجده بصفته ابن الله وبصفته الله ذاته، لأنهم بذلك يكتمل إيمانهم وتكتمل السعادة التي يريدها لهم بعد أن ذاقوا العذاب الذى تحملوه من أجله ومن أجل الشهادة له ومن أجل الاستشهاد الذى شربوا كأسه في سبيل تمجيد اسمه والتبشير بوصاياه وتعاليمه، فإن العالم لم يعرف الله الآب، بل إن اليهود أنفسهم الذين أعلن ذاته لهم دون سائر الشعوب، وكانوا لا يفتأون يتشدقون بأنهم شعبه، قاوموه وعاندوه وعادوه واعتدوا على شريعته. ثم قتلوا بعد ذلك ابنه الذى أرسله لخلاصهم. وأما ابنه فإن عرفه منذ الأزل معرفة الذات لذاتها، لأنه منه وفيه وفي وحدة كاملة معه. وقد هدى تلاميذه إلى معرفته فآمنوا بأنه ابنه وأنه هو الذى أرسله. وقد أخبرهم باسمه، أي بكنه طبيعته وحقيقة جوهره، وسيظل يخبرهم بذلك طالما هو قائم بينهم بجسده على الأرض أو وهو قائم معهم بقوته بعد صعوده عنهم إلى السماء، كي يتعاظم حبهم له إلى المدى الذى يضاهى حب أبيه السماوى له، وعندئذ لا يحيا بينهم فحسب، وإنما يحيا فيهم، أى في صميم كيانهم ووجدانهم، فيحيون هم فيه وبه وله. حياة أبدية لا نهاية لها ولا إنقضاء ولا فناء.

الفصل الثامن عشر

١٨ : ١ - ٩

تسليم يهوذا لسيده:

ألقى مخلصنا ذلك الخطاب الروحي الرائع المؤثر الذى ودع به تلاميذه وزودهم بآخر تعاليمه ووصاياه. ثم ختمه بمناجاة أبيه السماوى فى كلمات إلهية بديعة الأسلوب رقيقة اللفظ، دقيقة الصياغة، عميقة المعنى، لا يمكن أن يضاهيها فى بداعتها وروعتها ورقتهما، ودقتها وعمقها أى كلمات يقولها بشر مهما بلغ من علمه وحكمته وبلاغته وعبقريته فى أى مكان من الأمكنة أو زمان من الأزمنة، لأنها هى كلمات الله ذاته خالق البشر، والمهيمن على كل مكان وزمان، وقد خرج مع تلاميذه من القاعة التى أكل فيها الفصح معهم ثم ناولهم العشاء الربانى، وهى القاعة التى كانت - كما قرر الآباء الأوائل - تعلو منزل مرقس الرسول كاروز الديار المصرية، ونزل معهم إلى وادى قدرون الذى يمتد بين الجبل الذى كان يقوم عليه هيكل أورشليم وجبل الزيتون. حيث كان ثمة فى سفح ذلك الجبل بستان هو المسمى - كما ورد فى البشائر الأخرى - بستان جثسيمانى، فدخله مخلصنا هو وتلاميذه، وكان يهوذا الإسخريوطى تلميذه الخائن الذى تآمر مع رؤساء اليهود على تسليمه إليهم يعرف ذلك المكان، لأن مخلصنا كان يجتمع فيه كثيراً مع تلاميذه حين يكون فى أورشليم. ومن ثم أخذ يهوذا عصبة من الجند والخدام من عند رؤساء الكهنة والفريسيين، وجاء بهم إلى هناك، وإذ كان الوقت مساء وقد اشتد الظلام، أقبلوا ومعهم المشاعل والمصابيح والأسلحة، كأنهم يبحثون عن مجرم عريق فى الإجرام يتزعم عصابة من قاطعى الطريق يختبئون تحت جنح الظلام، مدججين بالسلاح للسرقة والنهب والقتل ومقاومة من يهاجمهم أو يحاول القبض عليهم. بيد أن مخلصنا خرج إليهم وتقدم نحوهم قبل أن يصلوا إليه أو يكتشفوا مكانه على الرغم من أنه كان عالماً بكل ما سيأتى عليه بواسطتهم من كل ألوان التنكيل والتعذيب والاعتداء والإهانة والسخرية والاستهزاء. بل كان عالماً أنهم بعد هذا كله سيقتلونه بأبشع الأساليب تنكيلاً وأشنعها إذلالاً، وهى أنهم يعلقونه على خشبة الصليب، رمز المهانة والعار. ومع ذلك خاطبهم بكل وداعة وهدوء ووقار قائلاً لهم «من تطلبون» ؟ أجابوه قائلين «يسوع الناصرى» . فقال لهم على الفور «أنا هو». وكان يهوذا الخائن الذى وعدهم بأن يدلهم عليه ويسلمه إليهم واقفاً. فلما قال لهم مخلصنا إنى أنا هو أذهلتهم المفاجأة فارتدوا إلى الوراء من جلال هيبته وقوة عظمته وسطوة سلطانه على النفوس، وسقطوا على الأرض. بيد أنه على الرغم من أنهم كانوا من أعدى أعدائه، وأن مهمتهم كانت هى القبض عليه لسفك دمه. لم تفارقه رقته وسماحته وتسامحه حتى بالنسبة إليهم، إذ أراد أن

يخفف من روعهم ويلطف من وقع المفاجأة عليهم، فسألهم ثانية «من تطلبون؟». قالوا «يسوع الناصري» فأجابهم قائلاً «قد قلت لكم إني أنا هو. فإن كنتم تطلبونني. فاتركوا هؤلاء يذهبون». فلم ينكر نفسه أمام أولئك الذين جاءوا معتزمين قتله. ولم يشفق على نفسه من ذلك الشر الشنيع الذي يريدونه له، وإنما أشفق على تلاميذه من أي شر يصيبهم بسببه. ولا عجب في ذلك فإنه ما جاء إلى العالم وبذل نفسه ذبيحة على الصليب إلا شفقة منه على البشر جميعاً من مصير الهلاك المحكوم به عليهم بسبب شرورهم. وقد كانوا جميعاً لا يعرفون الله ولا يؤمنون به. وحتى اليهود الذين أعلن الله لهم نفسه. تنكروا له وأنكروه وتمردوا على تعاليمه ووصاياه، فكم بالأحرى يشفق مخلصنا على تلاميذه الذين أحبوه وتركوا كل مالديهم في العالم وتبعوه، واتخذوه لهم معلماً وهادياً وسيداً وأباً، بل اتخذوه حين آمنوا بربوبيته رباً. ومن ثم فإنه كافأهم بأنه لم يشأ أن يعرضهم للآلام التي كان يعرف أنه سيتعرض هو لها. تلك الآلام التي إن كان هو قد احتملها لأنها هي جوهر رسالته. ولأنها مهما بلغت من الشناعة والبشاعة لا يمكن أن تؤدي به إلى الهلاك كما كان رؤساء الكهنة يريدون له، لأنه ابن الله الحي الذي لا يمكن أن يجوز عليه الهلاك بأي صورة من الصور، فإنها قد تؤدي إلى هلاك تلاميذه الذين هم بشر يتصفون بما للبشر من مواطن الضعف التي قد تؤدي بهم فعلاً تحت ضغط التنكيل والتعذيب إلى الهلاك. ولذلك علق الإنجيل للقديس يوحنا على ذلك قائلاً: «وذلك لتتم الكلمة التي قالها (السيد المسيح) إن الذين أعطيتنيهم لم أهلك منهم أحداً». وبينما يدل ارتداد الجند ومن معهم إلى الوراء وسقوطهم على الأرض حين كشف لهم مخلصنا عن شخصيته، وهم كثرة كثيرة مسلحة في حين أنه هو بمفرده وأعزل من كل سلاح، على هيبته الإلهية التي سقطت عليهم فتراجعوا وسقطوا لا مرة بل مرتين. تدل الواقعة نفسها على أنه لو كان ينتوي الهرب كان في سقوطهم فرصته الملائمة. خصوصاً أنه قد أثبت في مواقف سابقة أنه كان في قدرته أن يتوارى عن الناس كلما أراد ذلك، ويفلت من بين أيديهم مجتازاً بينهم فلا يرونه في حين يكونون قاصدين أن يمسكوه أو يلقوا أيديهم عليه ويرجموه (يوحنا ٨: ٥٩)، (١٢: ٣٦). وهذا البرهان على أنه أسلم ذاته لأيديهم بإرادته. بل إنه هو الذي خرج إليهم، ولم يدعهم يتعبون في البحث عنه (يوحنا ١٨: ٤). وهذا توكيد لقوله السابق «ما من أحد ينتزعها مني، وإنما أبذلها أنا وحدي من ذاتي. فلي سلطان أن أبذلها ولي سلطان أن أستردها» (يوحنا ١٠: ١٧و١٨)./ وقوله أيضاً «نفسي الآن قد اضطربت. فماذا أقول؟ أيها الآب نجني من هذه الساعة. ولكنني من أجل هذا أتيت إلى هذه الساعة» (يوحنا ١٢: ٢٧).

١٨ : ١٠و١١

بطرس يقطع أذن عبد رئيس الكهنة:

وعلى الرغم مما أبداه مخلصنا من وداعة وسماحة وهدوء تجاه أولئك الذين جاءوا ليقبضوا عليه كي يقتلوه. تصرف تلميذه سمعان بطرس على عادته في حماسة وتسرع واندفاع بلغ حد الاعتداء دفاعاً عن معلمه، إذ كان معه سيف فاستله وضرب عبد رئيس الكهنة فقطع أذنه اليمنى. وكان اسم ذلك العبد ملخس. وقد نسي بطرس في تلك اللحظة المثيرة كل التعاليم التي تلقاها طوال بضع سنوات من مخلصنا، والتي تدعو إلى المحبة والسلام والمسالمة وعدم العداء أو الاعتداء حتى على الأعداء، ومن ثم قال له مخلصنا في لهجة تدل على الاستياء «ضع السيف في غمده». وقد جاء في الإنجيل للقديس متى أنه قال له بعد أن أمره أن يرد سيفه إلى مكانه «لأن كل من يأخذ بالسيف. بالسيف يهلك. أتظن أني لا أستطيع الآن أن أطلب إلى أبي فيقدم لي في الحال أكثر من إثنى عشر جيشاً من الملائكة» (متى ٢٦ : ٥٢و٥٣). وفي هذا القول الدلالة القاطعة على أن مخلصنا كان يستنكر أن يعتدى أي مؤمن به أي إعتداء حتى على الأعداء، لأن رسالته رسالة سلام، وديانته ديانة سلام. فكيف يستقيم ذلك مع العداء والاعتداء؟ كما أن في هذا القول الدلالة القاطعة على أن مخلصنا له السلطان الإلهي الذي يستطيع به، لو أراد، أن يدافع عن نفسه ويدفع عنه قوى الأرض كلها لو أنها هاجمته. ولكنه لم يكن يريد ذلك لأنه ما جاء إلى العالم إلا من أجل هذه اللحظة (يوحنا ١٢ : ٢٧). ليقدم نفسه ذبيحة عن البشر تكفيراً عن خطاياهم وخلاصاً لهم من الهلاك الأبدي، تنفيذاً للتدبير الإلهي الذي سبق أن تم بالاتفاق بينه وبين أبيه السماوي الذي هو متحد به اتحاداً كاملاً. وقد سبق له قبول هذا التدبير طواعية وإختياراً. فهو إذ مات على الصليب كان ذلك بكامل إرادته هو، لا بإرادة اليهود أو غير اليهود من بني البشر كما قد يبدو في الظاهر، وإن كان هذا لا يعفى اليهود من مسئولية قتله بغير ذنب جناه أو جرم ارتكبه. لأنهم إذ قتلوه كانوا مختارين لذلك غير مجبرين عليه. وقد قرروا هم أنفسهم ذلك، إذ قالوا للوالي الروماني بيلاطس البنطي بعد أن تبرأ من دمه، إن «دمه علينا وعلى أبنائنا» (متى ٢٧ : ٢٥). والإنسان مسئول أمام العدالة الإلهية عما يرتكبه من شر بمحض إرادته هو وتصميمه بمحض إختياره على تنفيذ تلك الإرادة. وهكذا قدم مخلصنا نفسه مختاراً ليتجرع كأس الموت وهو البريء البار تنفيذاً للتدبير الإلهي الذي ارتضاه لخلاص البشر. ولذلك قال لبطرس «الكأس التي أعطانيها أبي، ألا أشربها؟» فبرهن بذلك على أنه جاء لا ليعادي البشر أو يعتدى عليهم حتى لو عادوه واعتدوا عليه وقتلوه ظلماً وعدواناً، وإنما جاء ليخلصهم وليمنحهم الحياة الأبدية والسلام الأبدي. ومن ثم فإنه حتى في هذه اللحظة التي بلغ فيها حقد تلك الطغمة الباغية من البشر عليه ذروته وحقارته. وكان يحق له أن يستنكر هذه

الخسة، تصرف على العكس من ذلك تماماً. إذ أنه بعد أن وبخ تلميذه بطرس حين ضرب عبد رئيس الكهنة بسيفه فقطع أذنه، يذكر لنا الإنجيل للقديس لوقا أنه «لمس أذن العبد فأبرأها» (لوقا ٢٢ : ٥١). فهل فوق هذا الكمال كمال؟ وهل فوق هذا الجلال جلال؟ وهل فوق ذلك المثل الرائع النبيل الجميل الذى ضربه له المجد مثل أروع وأنبل وأجمل فى السماحة أو التسامح أو الغفران؟ ذلك هو ما اتصف به المسيح من كمال وجلال وروعة ونبل وجمال وسماحة وتسامح وغفران، وتلك هى الصفات التى أرادها للمسيحيين الحقيقيين من بنى الإنسان فى كل زمان وكل مكان.

١٨ : ١٢ - ١٤

القبض على السيد المسيح:

ولكن قلوب اليهود الذين جاءوا ليقبضوا على مخلصنا لم تلبث أن إستردت غلظتها وفظاظتها، وتناسوا إرتياعهم أمام هيبته بعد أن رأوا ماراوا من وداعته وسماحته، وتجاهلوا المعجزة التى صنعها أمامهم، إذ أعاد إلى عبد رئيس الكهنة أذنه التى قطعها بطرس وشفاه وأبرأ جرحه، فأمسك الجنود والقائد والخدام اليهود مخلصنا وأوثقوه. وقد كان من عادتهم أن يسوقوا المجرمين موثقى الأيدى من الخلف بحبل يلفونه أيضاً حول أعناقهم، ومن ثم فعلوا ذلك بمخلصنا. كأنه من أخطر المجرمين إجراماً. ثم ساقوه أولاً إلى حنان، لأنه كان حما قيافا الذى كان رئيس الكهنة فى تلك السنة. وقد كان قيافا هذا هو الذى أشار على اليهود قائلاً «إنه خير أن يموت إنسان واحد عن الشعب» (يوحنا ١١ : ٥٠). وكان رؤساء اليهود من أعضاء المجمع المسمى بالسنهدريم ساهرين عندئذ فى قلق ولهفة، منتظرين عودة العصبة التى أرسلوها للقبض على مخلصنا تحت جنح الظلام، لكى يسارعوا - بعيداً عن أعين الشعب الذى يؤمن به - إلى الحكم عليه بالموت بأى تهمة يلفقونها ضده. وقد صمموا على أن يتخلصوا منه فى تلك الليلة بأى وسيلة وبأى حيلة، ولو كانت مخالفة كل المخالفة لشريعتهم، أو لأى قاعدة أو قانون. ومن ثم فإن الجند والقائد وخدام اليهود مضوا به بعد أن أوثقوه بالحبال إلى حنان أولاً. وكان حنان هذا هو الذى كان هيرودس الكبير قد جاء به من الاسكندرية ليكون عوناً له فى حكمه الظالم الغاشم الوحشى، والذى ظل خمسين عاماً يتمتع برياسة الكهنوت هو وأبناؤه الخمسة. وكان رجلاً متغطرساً شرساً ماكراً داعراً متكالباً على كل ملذات الدنيا وشهواتها. وعلى الرغم من وجود رئيس كهنة رسمى وهو قيافا، ووجود رؤساء كهنة عديدين غيره فى ذلك الحين، كان حنان هو صاحب السلطان الفعلى على الكهنوت، وصاحب النفوذ الأكبر بين السلطات الحاكمة، وفى مجلس السنهدريم. وقد كان المقصود بتقديم مخلصنا إليه أولاً هو أن حكمه عليه بالموت سيكون ملزماً لأى سلطة تحاكم مخلصنا بعد ذلك، على الرغم من أنه لم يكن هو رئيس الكهنة

الرسمي عند ذاك. ومن ثم كانت محاكمته لمخلصنا غير شرعية ولا قانونية. كما كانت إجراءات هذه المحاكمة غير شرعية ولا قانونية من نواح كثيرة أخرى، ولا سيما من حيث المكان الذي تمت فيه، لأنه لم يكن جائزاً المحاكمة في منزل أحد، وإنما في دار القضاء، ومن حيث الساعة التي تمت فيها، لأنه لم يكن جائزاً محاكمة متهم أو الحكم عليه في أثناء الليل، وإنما ينبغي أن تكون المحاكمة نهاراً.

١٨ : ١٥ ـ ١٨

إنكار بطرس أمام جارية:

وفي هذه الأثناء كانت تجري خارج الدار مأساة أليمة مريرة تنطوي على أقسى وأقبح صور التخاذل والضعف البشري. إذ أن سمعان بطرس ـ الذي كان أجرأ تلاميذ مخلصنا ـ والذي قال له منذ لحظات «إنني ولو اضطررت أن أموت معك لن أنكرك» (متى ٢٦ : ٣٥) . والذي بالفعل حين جاء اليهود للقبض على معلمنا «استل سيفه وضرب عبد رئيس الكهنة. فقطع أذنه» ـ كان قد تبع مخلصنا من بعيد وهم يسوقونه إلى دار رئيس الكهنة، كما تبعه تلميذ آخر هو القديس يوحنا كاتب هذه البشارة. وإن كان تواضعه قد منعه أن يصرح بذلك، وكان هذا التلميذ الآخر معروفاً لدى رئيس الكهنة فأمكنه أن يدخل مع مخلصنا إلى دار رئيس الكهنة. وأما بطرس فظل واقفاً في الخارج عند الباب. فخرج التلميذ الآخر الذي كان معروفاً لدى رئيس الكهنة وهو القديس يوحنا وكلم حارسة الباب وأدخل بطرس، فقالت الجارية حارسة الباب لبطرس «ألست أنت أيضاً من تلاميذ هذا الرجل؟». وعندئذ إنهارت شجاعة ذلك الرجل الذي كان معروفاً بين زملائه التلاميذ بالشجاعة، فقال «لا، لست منهم»، ثم تسلل إلى فناء الدار ووقف بين العبيد والخدام، وكانوا في تلك الساعة المتأخرة من الليل قد أشعلوا جمراً لأنه كان برد وأخذوا يستدفئون، فوقف هو أيضاً متظاهراً بأنه يستدفىء معهم.

١٨ : ١٩ ـ ٢٤

المحاكمة أمام حنان رئيس الكهنة:

حتى إذا جيء بمخلصنا أمام حنان رئيس الكهنة، استخدم هذا الرجل كل الخبث والمكر اللذين هما من أبرز صفاته، فتظاهر بأنه لا يعرف شيئاً عن مخلصنا، أو تلاميذه أو عن تعاليمه، وكأنه قاضي محايد يستجوب متهماً ماثلاً أمامه، في حين أنه كان يقصد أن يقتنص منه كلمة يدينه بسببها. وقد أدرك مخلصنا مقصده فأجابه قائلاً: «إنني كلمت العالم علانية، وقد علمت كل حين في المجامع وفي الهيكل حيث يجتمع اليهود كلهم، ولم أقل أي كلمة في الخفاء، فلماذا تسألني أنا؟ سل الذين سمعوا ماقلت لهم، فإن هؤلاء يعرفون ماقلته». وقد كانت هذه إجابة

منطقية مفحمة وملجمة لرئيس الكهنة، ترد سهمه إلى نحره، وتفضح مكنون شره ومكره، وتكشف عن سوء نيته وسواد طويته، وتتلف خطته التي انتهجها ليتصيد كلمة من مخلصنا يدينه بها ويحكم عليه بالموت بسببها. وذلك مما دفع أحد خدام رئيس الكهنة الواقفين لأن يستشيط غيظاً وغضباً وتظاهرا بالغيرة على كرامة سيده، فلطم مخلصنا قائلاً له: «أهكذا تجيب رئيس الكهنة؟». بيد أن مخلصنا لم تفارقه - حتى إزاء هذه الإهانة الشائنة والاعتداء الوقح - وداعته وسماحته، وإنما أجاب ذلك الخادم في عتاب رقيق وإن كانت تشوبه مسحة من الأسى والمرارة قائلاً له: «إن كنت قد غلطت في كلامي فقل لي فيما غلطت. فإن كنت قد تكلمت بالصواب فلماذا تضربني؟»، ولكن خادم رئيس الكهنة لم يجد ما يقوله. لأن مخلصنا كشف له أنه كان فيما فعل ظالماً ومعتدياً دون موجب للاعتداء. وإنما كان ما صدر عنه مجرد نفاق وتملق لرئيس الكهنة. كما أن رئيس الكهنة نفسه وهو حنان لم يجد فيما قاله له مخلصنا أي تهمة يستطيع أن يدينه بها فأرسله موثقاً إلى قيافا رئيس الكهنة الرسمي في تلك السنة عسى أن يستطيع إلصاق تهمة بمخلصنا تؤدي إلى الحكم عليه بالموت. وكان مجرد إرساله إليه موثقاً دليلاً في ذاته على أنه حكم بإدانته.

١٨ : ٢٥ - ٢٧

إنكار بطرس للمرة الثالثة وصياح الديك:

وفيما كانوا يسوقون مخلصنا إلى خارج الدار مقيداً بالحبال، كان تلميذه سمعان بطرس واقفاً يستدفيء مع الخدام، فقال له أولئك الخدام «ألست أنت أيضاً من تلاميذه؟» فأنكر للمرة الثانية - ذلك الذي كان معروفاً بشجاعته وجرأته - وقال «لست منهم». وقد جاء في الإنجيل للقديس متى أنه أقسم قائلاً «إني لا أعرف هذا الرجل» (متى ٢٦ : ٧٤). ثم قال واحد من عبيد رئيس الكهنة كانت تربطه صلة بذلك الذي قطع بطرس أذنه «أما رأيتك أنا معه في البستان؟» فأنكر بطرس للمرة الثالثة. وقد جاء في الإنجيل للقديس متى أنه «عندئذ بدأ يلعن ويحلف قائلاً: إني لا أعرف هذا الرجل» (متى ٢٦ : ٧٤). وفي تلك اللحظة صاح الديك. وإذ لم يستطع رئيس الكهنة حنان - كما رأينا - أن يصطاد من مخلصنا كلمة يدينه بها، وكان يعرف أنه ليس صاحب السلطان الشرعي في محاكمته أرسله موثقاً إلى قيافا رئيس الكهنة الرسمي. وفيما كانوا خارجين به من دار حنان إلى قيافا يقول الإنجيل للقديس لوقا إن مخلصنا «نظر إلى بطرس. فتذكر بطرس كلمة الرب إذ قال له: لن يصيح الديك اليوم حتى تكون قد أنكرتني ثلاث مرات. فمضى بطرس إلى الخارج وبكى بكاءً مراً. (لوقا ٢٢ : ٦١و٦٢) فكانت دموع بطرس التي ذرفها وهو يبكي ذلك البكاء المر هي الدليل على ندمه وتوبته الصادقة، وهي التي طهرته وأبرأته من خطئه وخطيئته في حق سيده، مما أدى - كما سترى - إلى عفو سيده عنه وغفرانه زلته التي ارتكبها تحت

وطأة ضعفه البشري، لا عن تراجع في إيمانه، وإنما عن تضعضع في عزيمته. والندم والتوبة الصادقة هما السبيل إلى العفو والغفران، وإلى الرحمة الإلهية التي لا حدود لها ولا قيود عليها. لأن الله كما هو عادل عدالة مطلقة، فإنه رحيم كذلك رحمة مطلقة.

١٨ : ٢٨ ـ ٣٢

محاكمات السيد المسيح:

ولم يذكر الإنجيل للقديس يوحنا تفصيلات محاكمة مخلصنا أمام قيافا. ولكننا نعلم من الإنجيل للقديس متى أن رؤساء اليهود مضوا بمخلصنا إلى دار قيافا الذي كان رئيساً للكهنة في تلك السنة. وقد انتقل أعضاء مجلس السنهدريم إلى هناك في الهزيع الأخير من الليل كي يواصلوا المحاكمة بطريقة شرعية، ويصدروا الحكم الذي كانوا يتلهفون عليه، والذي ظلوا الليل كله ساهرين للتوصل إليه. بيد أن مافعلوه ظل مع ذلك غير شرعي، لأنه لم يكن جائزاً المحاكمة في منزل، ولا في أثناء الليل. وفي دار قيافا كما يقول ذلك الإنجيل «كان الكتبة والشيوخ مجتمعين.. وكان رؤساء الكهنة والشيوخ والمجمع كله يبغون شهادة زور ضد يسوع ليقتلوه. ولكنهم لم يجدوا، مع أن شهود زور كثيرين قد جاءوا من أجل ذلك. وأخيراً تقدم شاهدا زور، وقالا: إن هذا قد قال إني أستطيع أن أهدم هيكل الله ثم في ثلاثة أيام أبنيه. فنهض رئيس الكهنة وقال له: أما تجيب بشيء على ما يشهد به أولئك عليك؟. أما يسوع فظل صامتاً. فأجاب رئيس الكهنة وقال له: أستحلفك بالله الحي أن تقول لنا هل أنت المسيح ابن الله؟. فقال له يسوع: نعم أنا هو كقولك. وإني لأقول لكم كذلك إنكم منذ الآن سترون ابن الإنسان جالساً عن يمين القدرة وآتياً على سحب السماء، وعندئذ مزق رئيس الكهنة ثيابه قائلاً: لقد جدف. فما حاجتنا بعد إلى شهود؟ ها أنتم أولاء قد سمعتم الآن تجديفه. فماذا ترون؟ فأجابوا وقالوا: أنه يستحق الموت. وعندئذ راحوا يبصقون في وجهه ويلكمونه. وراح آخرون يلطمونه قائلين: تنبأ لنا أيها المسيح من الذي ضربك» (متى ٢٦ : ٥٧ ـ ٦٨). وقد انطلقوا يبحثون عن شهود زور يشهدون ضد مخلصنا، لأنهم ـ وإن كانوا قد بيتوا النية على الحكم عليه بالموت غيلة ولغير سبب شرعي ـ أرادوا أن يضفوا مظهر الشرعية على المحاكمة ليوهموا الناس بأن ثمة أسباباً تجعله يستحق الموت. وإذ كان إختصاصهم في نظر الجرائم الجنائية لا يتعدى جريمتي التجديف على الله والتعليم المخالف للدين، أطلقوا منادين في كل أنحاء المدينة ينادون بأن كل من لديه شهادة ضد يسوع الناصري فليتقدم بها. ولكن أحداً لم يتقدم، فجاءوا من عندهم بشهود يشهدون ضده زوراً. بيد أن شهاداتهم كانت متناقضة واضحة الكذب والتلفيق. حتى تقدم إثنان منهم وقالا: «إن هذا قد قال إني أستطيع أن أهدم هيكل الله ثم في ثلاثة أيام أبنيه». وكان ذلك يعني أنه عدو للهيكل وأنه يريد هدمه. وهذا أمر يثير أشد السخط لدى اليهود الذين كان الهيكل هو

رمز أمتهم وموضع فخارهم. كما كان ذلك يعنى أنه يمارس أعمال السحر التى لا يمكن بغيرها أن يبنى ذلك الهيكل الضخم الذى استغرق بناؤه ستة وأربعين عاماً. فهو إذن يجدف على الله إذ يعتدى على هيكله. وهذه جريمة تستوجب الموت. كما أنه يمارس أعمال السحر، وهذه جريمة تستوجب الموت كذلك. وقد كان مخلصنا بالفعل قد سبق له أن قال عبارة قريبة من هذه، ولكن الشاهدين تعمداً تحريفها من حيث المعنى ومن حيث اللفظ. إذ كان اليهود قد طلبوا من مخلصنا آية يثبت لهم بها أنه هو المسيح الذى ينتظرونه. وإذ كان قد سبق أمامهم من الآيات ما يكفى لإثبات هذه الحقيقة. ولكنهم لم يقتنعوا، أراد أن يقرر لهم أنهم لن يقتنعوا إلا بعد أن يروا موته ثم قيامته. فقال لهم: «انقضوا هذا الهيكل وأنا فى ثلاثة أيام أقيمه» (يوحنا ٢ : ١٩)، مشيراً بذلك إلى أنهم سيقتلونه وينقضون هيكل جسده، ولكنه بعد ثلاثة أيام سيقيم هذا الجسد حياً. ويبدو هذا المعنى واضحاً فى الإنجيل للقديس يوحنا حين ذكر هذه العبارة إذ يقول «فأجاب اليهود وقالوا له: أية آية ترينا حتى تفعل هذا؟ أجاب يسوع وقال لهم: انقضوا هذا الهيكل وأنا فى ثلاثة أيام أقيمه. فقال له اليهود: فى ست وأربعين سنة بنى هذا الهيكل، أفتقيمه أنت فى ثلاثة أيام؟. ولكنه كان يتكلم عن هيكل جسده. فلما قام من بين الأموات تذكر تلاميذه أنه قال هذا» (يوحنا ٢ : ١٨ - ٢٢). ولكن الشاهدين حرفا المعنى الذى كان يقصد إليه السيد المسيح بقوله، وشهدا زوراً بأنه كان يقصد لا هيكل جسده، وإنما هيكل أورشليم. كما أنهم - لتدعيم هذا التحريف فى المعنى - حرفا بعض الألفاظ فى عبارته، إذ قال هو «انقضوا هذا الهيكل»، أى أنكم «إذا نقضتم هيكل جسدى». وأما هما فقالا إنه قال «إنى أستطيع أن أهدم هيكل الله». وقد قال هو «وأنا فى ثلاثة أيام أقيمه». وواضح أن الإقامة تعنى إقامة الجسد إلى الحياة بعد الموت. وأما هما فقالا إنه قال «وأنا فى ثلاثة أيام أبنيه»، لكى ينصرف المعنى بذلك إلى بناء الهيكل الحجرى، لا إلى إقامة الهيكل الجسدى. ولعل أوضح دليل على ما ارتكباه من تحريف فى عبارته، أنه لو كان قد قالها بالصورة التى زعماها، لكان اليهود قد حاكموه وقتلوه منذ زمان طويل، ولكنهما كانا شاهدى زور، وكانت شهادتهما كاذبة، وقد تحققت فيهما النبوءة القائلة بلسان السيد المسيح «قام على شهود زور» (المزمور ٢٦ : ١٢)، والنبوءة القائلة أيضاً بلسانه «أنا أفديهم وهم يتكلمون علىّ بكذب» (هوشع ٧ : ١٣). وإذ كان مخلصنا عالماً أنه لا جدوى من مناقشة أولئك الذين يحاكمونه، لأنهم أشرار ظالمون مفترون قاتلون، لا ضمير لهم ولا رحمة فى قلوبهم، فقد صمت، ولم يفتح فاه بكلمة واحدة، وبذلك تحققت نبوءة إشعياء التى تقول عن المسيح إنه «ظلم. أما هو فتذلل ولم يفتح فاه. كشاة تساق إلى الذبح، وكنعجة صامتة أمام جازيها فلم يفتح فاه» (إشعياء ٥٣ : ٧). بيد أن صمته النبيل الجليل أغاظ أولئك الحاقدين الموتورين المتحجرفين. فنهض رئيس الكهنة وقال له «أما تجيب بشىء على ما يشهد به أولئك عليك؟». وقد أراد بذلك

أن يثيره ليتصيد منه كلمة يدينه بها، لكنه ظل صامتاً لا يعطيهم هذه الفرصة التي يتحرقون تحرقاً لإقتناصها. وعندئذ لجأ رئيس الكهنة الخبيث الماكر إلى السؤال الذي كان واثقاً من أن السيد المسيح لا يمكن أن يمتنع عن الإجابة عنه، إذ قال له: «أستحلفك بالله الحي أن تقول لنا هل أنت المسيح ابن الله؟»، وقد حددت نبوءات كل أنبياء اليهود أوصاف السيد المسيح تحديداً كاملاً دقيقاً، وبينت زمان مجيئه إلى العالم ومكان ميلاده وظروف حياته، وأوضحت ما سينادي به من التعاليم وما سيصنعه من المعجزات، وصرحت بكل ما سيحدث له في أثناء وجوده على الأرض. فلو أن اليهود ـ ولا سيما رؤساؤهم وفقهاؤهم ـ فكروا قليلاً في تطبيق هذه النبوءات التي وردت في كتبهم المقدسة على ذلك الذي يحاكمونه ويصممون على قتله، لتبينوا أنه هو المسيح الذي ينتظرونه. لكنهم أطارت الكبرياء عقولهم، وأعمت الغيرة أبصارهم وبصائرهم، وأماتت الحقد مشاعرهم وضمائرهم، وقد أصابهم الذعر على مناصبهم ومكاسبهم، فاندفعوا في جنون للقضاء على مسيحهم. بل لقد كان تصريحه بأنه هو المسيح هو التهمة التي كانوا يتسقطونها من فمه ليدينوه بها ويقتلوه بسببها. وبالفعل أجاب السيد المسيح عن سؤال رئيس الكهنة عما إذا كان هو المسيح ابن الله قائلاً «نعم أنا هو». وقد كان طوال مدة تعليمه لا يقول صراحة إنه هو المسيح ابن الله إلا نادراً. فقد كان يريد أن تكون تعاليمه ومعجزاته هي الدليل على هذه الحقيقة. لكنه إذ أصبح الموقف لا يحتمل السكوت الذي قد يحمل في هذه الحالة معنى الإنكار، جاهر بهذه الحقيقة، وهو عالم أن مجاهرته بها ستكون هي السبب في موته، لكي يكون هذا إعلاناً للعالم كله بأنه هو المسيح ابن الله، ولكي لا يعود لليهود عذر بعد ذلك يتذرعون به لتبرئة أنفسهم من دمه. وقد أراد أن يوبخهم على كبريائهم وغبائهم، ويصحح خطأهم في فهم نبوءات أنبيائهم، إذ ازدروا تواضعه وهو على الأرض، فوصف لهم مجده وهو في السماء، قائلاً: «وإني لأقول لكم كذلك إنكم منذ الآن سترون ابن الإنسان جالساً عن يمين القدرة، وآتياً على سحب السماء»، أي أنه على الرغم من أنه هو ابن الله الذي تواضع واتخذ صورة الإنسان، قد ظل محتفظاً بمجده الإلهي. ولن يلبثوا أن يروه جالساً عن يمين القدرة الإلهية، وهو متخذ تلك الطبيعة التي ازدروه بسببها وهو ماثل أمامهم وهو كونه ابن الإنسان، على مقتضى النبوءة التي يقول فيها الله الآب للمسيح «اجلس عن يميني» (المزمور ١٠٩ : ١). فمع أنهم يرونه الآن إنساناً وديعاً متواضعاً بسيط المظهر لا حول له ولا قوة، أمام سطوتهم وجبروتهم، لن يلبثوا أن يروه ملكاً يجلس على عرشه في مجد وجلال وسلطان، كما أنهم سيرونه «آتياً على سحب السماء»، وفقاً لنبوءة دانيال النبي عن المسيح التي يقول فيها: «وإذا مع سحب السماء مثل ابن إنسان أتى وجاء إلى القديم الأيام (وهو الله الآب)، فقربوه. فأعطي سلطاناً ومجداً وملكوتاً لتتعبد له كل الشعوب والأمم والألسنة. سلطانه سلطان أبدي، ما لن يزول، وملكوته مالا ينقرض»،

(دانيال ٧: ١٣و١٤). وبهذا السلطان سيأتى المسيح إلى اليهود قريباً فيدينهم على شرورهم ويحكم بهلاكهم، كما أنه سيأتى إلى العالم كله فى يوم الدينونة ليحكم بهلاك الأشرار جميعاً، فكان هذا إنذاراً أخيراً من السيد المسيح إلى أولئك الذين تنكروا له، وأصروا على إنكاره، وتآمروا على قتله. ولكن هذا الإنذار - ككل ما سبق أن وجهه إليهم من إنذارات - لم يكن ليفتح أعينهم - وإنما ازدادوا عمى على عماهم، ولم يكن ليضىء بنور الحقيقة قلوبهم، بل ازدادت هذه القلوب ظلاماً على ظلامها. ولم يكن ليجعلوا منه هادياً يهديهم ويأخذ بأيديهم فى طريق الخلاص، وإنما جعلوا منه دليل إتهام ضد مخلصهم، وسلاحاً يقتلونه به، إذ مزق رئيس الكهنة ثيابه قائلاً: «لقد جدف، فما حاجتنا بعد إلى شهود؟ ها أنتم أولاء قد سمعتم الآن تجديفه». وكان تمزيق الثياب عادة قد جرت عند اليهود إذا ما سمعوا أو رأوا شيئاً يتضمن إهانة لله (إشعياء ٣٦: ٢٢)، (٣٧: ١)، ولذلك تظاهر رئيس الكهنة بالغيرة الشديدة على مجد الله والغضب الشديد على مازعم من إهانة لحقته، إمعاناً فى إثبات تهمة التجديف التى ألصقها بالسيد المسيح، مستخلصاً إياها من ذات كلامه. وقد وجد فيها المنقذ من ورطة إخفاقهم فى العثور على شهود تكفى شهادتهم للحكم عليه بالموت، ومن ثم أدار بصره فى أعضاء المجلس، وقال لهم فى لهفة وتسرع: «فماذا ترون؟»، وكأنه بذلك يسألهم عن رأيهم بإعتبارهم أعضاء المحكمة المختصة بإصدار الحكم. لكنه إنما كان سؤالاً شكلياً، لأنه وهو رئيس المجلس، قد سبق وأصدر الحكم فعلاً على المخلّص بالموت، إذ اتهمه بالتجديف، ولأنه بحكم رياسته للمجلس يدرك أن الأعضاء المرؤسين له سيوافقونه لا محالة على الحكم الذى أصدره بموته، ولا سيما أنهم كانوا كلهم مثله متلهفين على إصدار هذا الحكم، وقد سهروا طوال الليل كى يصلوا إلى إصداره، وهذا ما حدث بالفعل، إذ أجابوه قائلين: «إنه يستحق الموت»، أى أن الشريعة تقضى بموته، ومع أنهم لم تكن لهم سلطة إصدار الحكم بالموت فى ذلك الحين. وإنما كان ذلك من سلطة الوالى الرومانى فإنهم بهذا الحكم الذى أصدروه، جعلوا موته محققاً، لأن الوالى الرومانى كان قليلاً ما يتعرض لهم فى شئون دينهم، وكان يوافقهم غالباً فى الأحكام التى يبنونها على أسباب دينية. وبمجرد أن أصدر مجلس السنهدريم حكمه على السيد المسيح بالموت، بدأ أعضاء ذلك المجلس من رؤساء الكهنة والشيوخ والكتبة يهينونه ويعتدون عليه ويهزأون به، إذ راحوا يبصقون فى وجهه ويلكمونه، كما خرجوا على وقارهم الذى يليق بمكانتهم وشيخوختهم فراحوا يلطمونه وهم يقولون ساخرين: «تنبأ لنا أيها المسيح من الذى ضربك؟»، وهكذا تحققت نبوءة إشعياء النبى القائل بلسان المسيح: «وجهى لم أستر عن العار والبصق» (إشعياء ٥٠: ٦) - والقائل «بذلت خدى للناتفين» (إشعياء ٥٠: ٦). كما تحققت نبوءة إرميا النبى القائل: «يعطى خده لضاربيه. يشبع

عاراً (مراثي إرميا ٣: ٣٠). وتحققت نبوءة ميخا النبي القائل: «يضربون قاضي إسرائيل بقضيب على خده» (ميخا ٥: ١).

كما لم يذكر الإنجيل للقديس يوحنا محاكمة مخلصنا للمرة الثالثة أمام مجلس السنهدريم. بيد أننا نعلم من الأناجيل الأخرى أنه على الرغم مما بذله رئيسا الكهنة حنان وقيافا وأعضاء مجلس السنهدريم من جهد عنيف محموم طوال الليل في الوصول إلى حكم بالموت على السيد المسيح، وعلى الرغم من أنهم قرروا بالفعل في محاكمتهم الصورية له أنه يستحق الموت، لم يجرؤا على إعلان هذا الحكم أو إذاعته بين الشعب، لأنهم كانوا يدركون أن كل الإجراءات التي اتخذوها كانت غير شرعية ولا قانونية، إذ لم يكن شرعياً ولا قانونياً محاكمة متهم أو الحكم عليه في أثناء الليل أو في مكان غير ساحة القضاء، ومن ثم أرادوا أن يتداركوا ذلك الخطر الذي ارتكبوه في الإجراءات والذي دفعهم إليه تسرعهم ولهفتهم على قتل السيد المسيح، وأرادوا أن يضفوا طابع الشرعية المفتعلة على المحاكمة، ويتظاهروا بالتزام أحكام القوانين والمبادىء المعمول بها في هذا الشأن. فألقوا بالسيد المسيح في السجن حتى يبزغ أول خيط من نور النهار، وعندئذ جاءوا به موثق اليدين من الخلف إلى قاعة في الهيكل كانت مخصصة للمحاكمة، وكانوا يسمونها «ليسكات هجازيت» أي «القاعة المبلطة»، حيث كان قد اجتمع مجلس السنهدريم بكامل هيئته في تلك الساعة المبكرة من فجر يوم الجمعة الرابع عشر من نيسان (أبريل). وكان المجلس يضم كل أعداء السيد المسيح من الكهنة والكتبة والصدوقيين والفريسيين وغيرهم من الشيوخ ذوي النفوذ في البلاد. وكانوا كلهم تقريباً قد عقدوا العزم مقدماً على الحكم بالموت على السيد المسيح، ماعدا أفراداً قلائل منهم كانوا يؤمنون بالسيد المسيح في قرارة أنفسهم، دون أن يعلنوا ذلك. وقد ذكرت البشائر من هؤلاء اثنين هما نيقوديموس (يوحنا ٣: ١، ٤، ٩)، (٧: ٥٠) ويوسف الرامي (متى ٢٧: ٥٧و٥٩)؛ (مرقس ١٥: ٤٣و٤٥)؛ (لوقا ٢٣: ٥٠). وكانت التهمة التي اعتزموا توجيهها إليه ليتمكنوا من قتله هي التجديف على الله، التي لم يستطيعوا في أثناء المحاكمتين السابقتين غير الشرعيتين أن ينسبوا إليه غيرها، وإن كانوا قد ألصقوها به زوراً وبهتاناً. فقد أخفقوا في الحصول على شهود يشهدون ضده. وحتى شهود الزور الذين سخروهم لهذه الغاية كانت شهاداتهم متناقضة وظاهرة التلفيق، بحيث لا تصلح أساساً لإدانته. وقد طالما اتهموه بأنه يخالف وصية حفظ السبت، وهي تهمة عقوبتها في الشريعة الرجم. ولكنهم أحجموا عن توجيهها إليه لأنها كانت ترتبط دائماً بمعجزات الشفاء التي صنعها في ذلك اليوم، والتي كانت تبهر الشعب وتدفعه إلى الإيمان به. كما أنهم طالما اتهموه بأنه يرفض التقاليد والوصايا الشفوية التي ابتدعها زعماء الفريسيين. ولكنهم أحجموا كذلك عن توجيه هذه التهمة إليه، لأن

الصدوقيين كانوا يوافقونه في ذلك ويرفضون تلك التقاليد والوصايا.. وقد كان يمكن أن يتهموه بأنه دخل الهيكل وادعى لنفسه السلطان عليه والحق في أن يطرد منه الذين كانوا يملأونه من الصيارفة وباعة الثيران والحمام، ولكنهم جبنوا عن توجيه هذه التهمة إليه. لأن هذا الذي فعله في الهيكل وإن كان قد أسخط الكهنة، كان موضع الرضا والتأييد من الشعب، ولم يكونوا يستطيعون أن يتهموه بأن له تعاليم خفية تخالف الشريعة أو تناهض الرومان، لأن تعاليمه كلها كانت علنية، وكان ينادي بها في الشوارع والميادين والمجامع وفي الهيكل نفسه، على مسمع من الجميع دون استثناء وبغير خفاء. وهكذا لم يجدوا في جعبتهم غير تلك التهمة التي اصطنعوها اصطناعاً ولفقوها تلفيقاً، إذ بنوها على ما أعلنه في محاكمته السابقة من أنه هو المسيح ابن الله. وقد كانت هذه حقيقة يستوجب من أجلها التبجيل والإجلال، لكنهم اعتبروها جريمة يستحق عليها الإهانة والموت. ومن ثم ركزوا كل جهدهم في أن يدفعوه دفعاً لأن يذكرها مرة أخرى علانية، وكأنها اعتراف من المتهم بجريمة ارتكبها. ولما كان الاعتراف سيد الأدلة، كان في ذلك ما يكفيهم ليصدروا عليه الحكم الذي يعتبرونه شرعياً وقانونياً، والذي يثقون أن أحداً لن يستطيع أن يعارض فيه أو يعترض عليه. لأنه يتفق مع شريعة اليهود، إذ أن عقوبة التجديف في تلك الشريعة هي الموت. ولذلك يقول الإنجيل للقديس لوقا: «وما إن طلع النهار حتي اجتمع شيوخ الشعب ورؤساء الكهنة والكتبة وساقوه إلي مجلس السنهدريم، ثم قالوا له: أأنت المسيح؟ قل لنا. فقال لهم: إن قلت لكم فلن تصدقوا، وإن سألتكم فلن تجيبوا. إن ابن الإنسان منذ الآن سيكون جالساً عن يمين قدرة الله. فقالوا جميعاً: أفأنت إذن ابن الله؟! قال: نعم أنا هو كقولكم فقالوا ما حاجتنا بعد إلي شهادة شهود؟ فإننا بأنفسنا قد سمعنا من فمه هو» (لوقا ٢٢: ٦٦ ـ ٧١). وهكذا أقر السيد المسيح للمرة الثانية أمام أعدائه الذين يحاكمونه بأنه هو ابن الله، وهو عالم أن ذلك الإقرار هو الذي سيؤدي إلى موته. وبالفعل سريعاً ما إلتقط أعداؤه هذا القول الذي كانوا يتلهفون على سماعه منه، وانفضّوا في نشوة وظفر قائلين إنه لا حاجة بهم إلى شهود يستكملون بشهادتهم مظاهر محاكمتهم الصورية لهذا المتهم البريء، لأنه قد اعترف، وقد سمعوا بآذانهم إعترافه، وبهذا تكون المحاكمة قد إنتهت بطريقة يبدو للناس أنها قانونية، ويكون الحكم بالموت على هذا الأساس هو الحكم الواجب والعادل والمطابق للشريعة. وقد اعتبروه حكماً نهائياً، لأنهم ـ وإن كانوا يعلمون أنه لا يمكن تنفيذه إلا بعد تصديق الوالي الروماني عليه ـ فإنهم ـ إذ كان هذا الحكم يتعلق بأمر ديني محض ـ كانوا موقنين أن الوالي الروماني ـ وهو بيلاطس البنطي ـ سيصادق عليه فوراً، لأن الرومان لم يكونوا يتعرضون لليهود في أي أمر يتعلق بديانتهم وكانوا لا يعارضون أي حكم يصدرونه بناء على مبادىء تلك الديانة.

وهكذا يقول الإنجيل للقديس يوحنا إنهم جاءوا بمخلصنا في الصباح الباكر من عند قيافا الذي كان يرأس مجلس السنهدريم إلى دار الولاية التي كانت مقراً للحاكم الروماني بيلاطس البنطي. وكان من عادتهم أن يسوقوا المجرمين موثقي الأيدي من الخلف بحبل يلفونه أيضاً حول أعناقهم. ومنْ ثمّ فعلوا ذلك بالسيد المسيح لكي يظهروه أمام الشعب بمظهر المجرم الذي ثبتت جريمته وصدر الحكم عليه. ويدلّ على ذلك أن الإنجيل للقديس متى يقول إنهم «أوثقوه ومضوا به وسلموه إلي الوالي بيلاطس البنطي» (متى ٢٧ : ٢) وقد ساقوه في مظاهرة ضخمة صاخبة تضمّ كل أعضاء مجلس السنهدريم يتقدمهم رئيسهم قيافا رئيس الكهنة ويتبعهم أذنابهم من الخدم والعبيد والجنود والغوغاء وساروا به على مرأى من أهالي المدينة على طول الطريق المؤدي من قاعة المحكمة بالهيكل إلى القنطرة التي كانت تعلو وادي «تريبيون»، ثم إلى دار الولاية التي كانت قصراً فاخراً ضخماً ذا أسوار عالية، كان هيرودس الكبير قد أقامه على المرتفع القائم في الجهة الجنوبية الغربية من الهيكل. وقد تعمدوا أن يذهبوا إلى الوالي في هذه المظاهرة الضخمة الصاخبة التي تضم رؤساء اليهود وعظماءهم وجمهرة كبيرة من الشعب ليرهبوا بيلاطس فيذعن للحكم الذي أصدروه ويصادق عليه بغير فحص ولا مناقشة. وكانت الساعة حين بلغوا دار الولاية لا تتعدى الساعة السابعة صباحاً. وإذ كان بيلاطس وثنياً، وكان اليهود لا يدخلون بيوت الوثنيين «لم يدخلوا هُم دار الولاية مخافة أن يتنجسوا فلا يتمكنوا من أن يأكلوا الفصح»، ومن ثم خرج بيلاطس إليهم». وإذ أقلقوه في تلك الساعة المبكرة من الصباح قابلهم وهو يكاد ينفجر من الغيظ والغضب، وقال لهم في ضيق وضجر «ماهي التهمة التي توجهونها إلى هذا الرّجل؟» فأجابوه وقالوا له «لو لم يكن هذا فاعل شر لما أسلمناه إليك». قال لهم بيلاطس «خذوه أنتم واحكموا عليه طبقاً لشريعتكم». فقال له اليهود «إننا لا يحق لنا أن نقتل أحداً». أي أنهم لا يملكون الحكم بالموت بغير مصادقة الوالي الروماني. وقد كان ذلك لتتم الكلمة التي سبق لمخلصنا أن قالها مشيراً إلي الكيفية التي سيموت بها، أي الصلب، لأن تلك كانت وسيلة رومانية لتنفيذ الحكم بالموت. فلو أن الوالي الروماني صادق علي حكم الموت الذي أصدره اليهود علي مخلصنا لكانت وسيلة ذلك هي تعليقه على الصليب حتى يموت. وفي ذلك تنبأ مخلصنا لتلاميذه حين كانوا صاعدين إلى أورشليم في المرة الأخيرة قائلاً لهم: «ها نحن أولاء صاعدون إلي أورشليم، ولسوف يسلم ابن الإنسان إلى رؤساء الكهنة وإلى الكتبة فيحكمون عليه بالموت، ويسلمونه إلى الوثنيين ليهزأوا به ويجلدوه ويصلبوه»(متى ٢٠ : ١٨و١٩).

وقد جاء في الإنجيل للقديس لوقا أن رؤساء اليهود إذ رأوا ما كان عليه الوالي الروماني من غيظ وغضب، وضيق وضجر، أحجموا عن أن يوجهوا إلي السيد المسيح أمامه تهمة التجديف

التي سبق لهم أن جعلوها أساساً للحكم عليه بالموت، خشية أن يرفض المصادقة على الحكم، فتجاوزوا عن تلك التهمة الدينية التي لا يأبه لها ذلك الحاكم الروماني، وراحوا يكيلون للسيد المسيح إتهامات سياسية، يظهرونه فيها بمظهر المتمرد على قيصر الرومان، قائلين له «إننا وجدنا هذا يفسد الأمة، ويقول بالامتناع عن أداء الجزية لقيصر، مدعياً أنه هو المسيح الملك» (لوقا ٢٣ : ١ و ٢).

وقد صاغوا هذه الإتهامات بكل ما اشتهروا به من الخبث والمكر والدهاء والشر. فقد كانوا يهدفون من ورائها لا إلي إحراج بيلاطس وقسره قسرا على الاستماع إليهم والرضوخ إلي مشيئتهم فحسب، وإنما كانوا يهدفون كذلك إلى إشراك الرومان فى مسئولية قتل السيد المسيح ليتخلصوا هم منها. كما كانوا يهدفون إلى أمر آخر كان أكثر أهمية لديهم، وكانوا يتلهفون عليه ويتحرقون تحرقاً لتحقيقه، فيشفوا غليلهم من السيد المسيح ويتشفوا أبشع وأفظع ما يكون التشفي، وهو أن يقتله الرومان لا بطريقة الرجم أو الخنق اليهودية، وإنما بالطريقة الرومانية، وهي التعليق على خشبة الصليب، لأن المعلق على خشبة يعتبر في الشريعة اليهودية ملعوناً من الله (التثنية ٢١ : ٢٢و٢٣) ولأن هذه الوسيلة من وسائل القتل تتضمن أقسى ألوان التنكيل والتعذيب، وأقبح صور الهوان والمذلة والعار.

١٨ : ٣٣ - ٤٠

براءة المسيح أمام بيلاطس وهيرودس:

وقد كانوا يعتقدون أن بيلاطس البنطي سيأخذ هذه الإتهامات التى ساقوها إليه قضية مسلمة، فيصدر حكمه بالموت على السيد المسيح دون محاكمة أو تحقيق. بيد بيلاطس رأى ما يطلّ من أعينهم من حقد متقد وضغينة مضطرمة وقسوة مفترسة ورغبة مجلونة فى الفتك بذلك الشاب الوسيم الوديع الهادىء الذى كان يقف أمامه فى نبل الملوك وسمو الملائكة، فأيقن أنه برىء من تلك الإتهامات التى يوجهها إليه أولئك الأشرار المتوحشون الهائجون المائجون، دون أن يقدموا عليها أى دليل، أو يؤيدوها بأى حجة من وثيقة مكتوبة أو شهادة شاهد واحد، فقرر أن يتولى التحقيق بنفسه. ومن ثم عاد فدخل دار الولاية ودعا إليه مخلصنا وقال له: «أأنت ملك اليهود؟»، وقد كان هذا هو جوهر الاتهامات الثلاث التي وجهها رؤساء اليهود إليه، لأنه إذا اعترف بأنه ملك اليهود كان هذا دليلاً على أنه يتزعمهم، ويحرضهم على الثورة ضد قيصر الرومان ويحضهم على الامتناع عن دفع الجزية إليه والخلاص من حكمه وسيطرته، فيفسد بذلك الأمة على حدّ قولهم الذى أرادوا به أن يتملقوا قيصر ويتظاهروا بالولاء له

وبالغضب على من يثور عليه. وقد كانت هذه التهمة ظاهرة البطلان، لأن السيد المسيح لم يتعرض للأمور السياسية قط، وقد سبق أن قال لليهود منذ أيام قليلة فى هيكلهم نفسه حين أرادوا أن يقحموه في هذه الأمور «أعطوا ما لقيصر لقيصر». إلا أنه حين سأله بيلاطس عما إذا كان هو ملك اليهود أجابه قائلاً «أمن نفسك تقول هذا، أم قال لك آخرون ذلك عنى؟». فقال بيلاطس «ألعلي أنا يهودي؟ إن أمتك ورؤساء الكهنة هم الذين أسلموك إليّ، فماذا فعلت؟». فأجاب مخلصنا قائلاً: «إن مملكتي ليست من هذا العالم. ولو كانت مملكتى من هذا العالم لكان خدّامى يقاتلون عنى كى لا أسلم إلى اليهود. والآن فإن مملكتى ليست من هذا العالم». فقال له بيلاطس: «أفأنت إذن ملك؟» . أجاب مخلصنا قائلاً: «نعم أنا ملك كقولك. ولأجل هذا وُلدت أنا، ولأجل هذا جئت إلي العالم كى أشهد للحق، فكل من هو من الحق يسمع صوتى»، فقال له بيلاطس: «وما هو الحق؟». لكنه لم ينتظر إجابة السيد المسيح عن هذا السؤال، إذ تحقق من كلامه بما فيه الكفاية أنه برىء مما يتهمونه به. ومن ثم خرج ثانية إلي اليهود وقال لهم: «إننى لا أجد فى هذا الرجل خطيئة. ولما كانت قد جرت العادة عندكم على أن أطلق لكم فى الفصح سراح واحد، فهل تريدون أن أطلق لكم سراح ملك اليهود؟»، وقد كان هذا حكماً واضحاً صريحاً من الوالي الرومانى ببراءة السيد المسيح. فلما سمع اليهود هذا الحكم ثارت ثائرتهم وهاجوا هياجاً هيستيرياً، وعادوا جميعاً يصرخون فى غلٍ وغضب قائلين: «لا تطلق سراح هذا، بل باراباس». وكان باراباس هذا لصاً.

وقد ذكر الإنجيل للقديس لوقا بعض تفصيلات لتلك المحاكمة لم يوردها الإنجيل للقديس يوحنا. وهي أن اليهود راحوا يلوحون بقبضات أيديهم فى تهديد ووعيد للوالي نفسه، قائلين: «إنه يهيج الشعب ويعلّم فى كل اليهودية إبتداء من الجليل إلى هنا» (لوقا ٢٣ : ٥). وإذ كان بيلاطس يحتقر أولئك اليهود معتبراً إياهم طغمة دنيئة منحطة، وكان يزدرى خلافاتهم الدينية التى لا تنتهى، معتبراً إياها خزعبلات قوم جهلة حمقى مخرِّفين، ضاق ذرعاً بهم، وضاق ذرعاً بهذه القضية التى يعرضونها عليه، فما إن سمعهم يذكرون الجليل حتى وجد فى ذلك فرصة للتخلص منهم ومن قضيتهم. ومن ثم «سأل عما إذا كان الرجل جليلياً. فما إن علم أنه تابع لولاية هيرودس حتى أرسله إلى هيرودس الذى كان هو أيضاً فى أورشليم فى تلك الأيام» (لوقا ٢٣ : ٥ - ٧) وذلك على الرغم من أنه كان يمقت هيرودس، وكانت بينهما عداوة سافرة.

كما لم يتكلم الإنجيل للقديس يوحنا عن تفصيلات محاكمة مخلصنا أمام هيرودس، وكانت تلك هى المحاكمة الخامسة التى تعرض لها فى ذلك اليوم. ولكن الإنجيل للقديس لوقا شرح تفصيلات هذه المحاكمة، ومنه نعلم أن بيلاطس البنطى حين طلب من اليهود أن يأخذوا

مخلصنا إلى هيرودس ملك الجليل ليتولى محاكمة مخلصنا باعتباره جليلياً خرجت مظاهراتهم الضخمة الصاخبة من دار الوالى الرومانى لتبدأ رحلة جديدة من الهوان للسيد المسيح. وقد ساقوه مكبل اليدين مغلول العنق بالحبال، عبر شوارع أورشليم وعلى مرأى من أهاليها، إلى القصر الضخم الذى كان يقيم فيه هيرودس ملك الجليل حين يجيء إلى أورشليم فى الأعياد، وكان هيرودس مخلوقاً فظيع الطباع، فاجراً داعراً، سافكاً للدماء. وقد اغتصب من أخيه فيلبس زوجته هيروديا واتخذها لنفسه، فلما وبخه يوحنا المعمدان على ذلك سجنه ثم قطع رأسه (متى ١٤: ٣ - ١١). حتى إذا ترامت إلى هيرودس أخبار معجزات السيد المسيح كان يتنازعه شعوران: أحدهما هو الرغبة فى أن يراه وهو يصنع إحدى معجزاته، والآخر هو خوفه منه، إذ اعتقد أنه هو يوحنا المعمدان قد قام من الموت لينتقم منه (متى ١٤: ١و٢)، وخوفه فى الوقت نفسه - إذ علم بحب الشعب للسيد المسيح والتفافه حوله - من أن ينادى بنفسه ملكاً بدلاً منه، ولذلك كان يسعى إلى قتله (لوقا ١٣: ٣١). وقد وصفه السيد المسيح نفسه بأنه «ثعلب»، مما يدل على مكره ودهائه ووحشيته (لوقا ١٣: ٣٢). وقد جاء فى الإنجيل للقديس لوقا: «ولما رأى هيرودس يسوع، ابتهج إبتهاجاً عظيماً، لأنه كانه يتوق لأن يراه منذ زمن بعيد، بسبب ما كان يسمعه عنه. وكان يود أن يرى إحدى العجائب التى تجرى على يديه. وقد سأله بكلام كثير، ولكنه لم يجبه بشيء. وكان رؤساء الكهنة والكتبة واقفين، وقد أخذوا يتهمونه بعنف. فهزأ به هيرودس مع جنوده وسخر منه، وألبسه ثوباً براقاً، ثم أعاده إلى بيلاطس. فأصبح بيلاطس وهيرودس صديقين فى ذلك اليوم، وقد كانت بينهما من قبل عداوة» (لوقا ٢٣: ٨ - ١٢). ويبدو من ذلك أن رؤساء اليهود راحوا يرددون أمام هيرودس الإتهامات التى سبق أن وجهوها إلى السيد المسيح أمام بيلاطس، ولا سيما أنه يقول عن نفسه إنه ملك. وإذ كان هيرودس يخشى بالفعل فيما مضى من أن يطيح السيد المسيح به وينادى بنفسه ملكاً فى مكانه، ثم إذ رآه الآن مقبوضاً عليه مقيداً بالحبال مهاناً، استخفه الطرب وراح يسأله أسئلة بذيئة يهزأ بها منه ومن دعواه بأنه ملك. وقد جاء له - إمعاناً منه فى إهانته والسخرية به - بثوب لامع من ثياب الملوك وألبسه إياه. ولم يفتأ هو وأعوانه يشتمونه ويعتدون عليه. ولكن السيد المسيح ظل صامتاً فى جلال، لا يجيب عن أسئلة هيرودس، صابراً فى عزة، لا يشكو ولا يتذمر مما ألحقه به مع زمرته من إستهزاء وإعتداء. وإذ عجز ذلك الطاغية عن أن يستخلص منه كلمة واحدة يدينه بها، ولم يجد دليلاً واحداً على صدق الإتهامات التى كان يكيلها له أولئك الذين كانوا يزأرون من حوله كالوحوش المفترسة، أعاده إلى بيلاطس ليتولى محاكمته. فكان ذلك بمثابة الحكم مرة ثانية ببراءة السيد المسيح من جانب ذلك الملك اليهودى، بعد أن صدر الحكم الأول ببراءته من جانب الحاكم الرومانى.

الفصل التاسع عشر

١٩ : ١ - ١٢

جلد المسيح ومحاولة إطلاقه :

وعاد رؤساء اليهود وأذيالهم من الغوغاء بمخلصنا في رحلة هوان ثالثة عبر شوارع أورشليم إلى دار الوالي الروماني بيلاطس البنطي. فكانت هذه هي المحاكمة السادسة له في ليلة واحدة. وقد جاء في الإنجيل للقديس لوقا تفصيل لما حدث عندئذ. إذ «دعا بيلاطس إليه رؤساء الكهنة والعظماء والشعب، وقال لهم: لقد جئتموني بهذا الرجل كمفسد للشعب. وهاأنذا قد استجوبته أمامكم فلم يثبت لي أي شر مما تتهمون به هذا الرجل. ولا ثبت هذا لهيرودس أيضاً، إذ أعاده إلينا. فها أنتم أولاء ترون أنه ما من شيء يستوجب الموت قد صدر عنه» (لوقا ٢٣ : ١٣ - ١٥) فهاج هائجهم، وراحوا مرة أخرى كما جاء في الإنجيل للقديس متى «يوجهون الإتهامات إليه فلا يجيب بشيء، فقال له بيلاطس: أما تسمع كل هذا الذي يشهدون به عليك؟.. فلم يجبه بكلمة حتى لقد دهش الوالي جداً» (متى ٢٧ : ١٢ - ١٤) . ولم يكن صمت مخلصنا عندئذ، أو عندما كان يحاكمه حنان أو قيافا أو هيرودس من قبل، ناجماً بطبيعة الحال عن أنه كان عاجزاً عن الكلام، أو عن أنه لم تكن لديه الحجج الكافية لكي يثبت براءته، لأنه كان أبلغ البلغاء وأعظم كل من عرفتهم البشرية قوة حجة، وأقدرهم على الإقناع والدفاع عن نفسه وإثبات براءته إذا شاء. ولكنه كان يعلم أنه لا فائدة من ذلك كله إزاء قوم هم أنفسهم موقنون ببراءته. ولكنهم مع ذلك - لحقدهم عليه وغيرتهم منه وخشيتهم على أنفسهم مما كان له من مكانه لدى الشعب - يريدون أن يقتلوه سواء أكان بريئاً أم غير بريء. وقد حكموا عليه قبل أن يحاكموه، وقرروا إستحقاقه للموت قبل أن يحققوا معه. ومن ثم كان الأحكم والأكرم والأفضل والأنبل أن يلزم الصمت فلا يفتح فاه بكلمة واحدة لا نفع فيها ولا جدوى من ورائها. فتحققت بذلك نبوءة إشعياء النبي التي تقول عنه إنه «ظُلم. أما هو فتذلل ولم يفتح فاه كشاه تساق إلى الذبح وكنعجة صامتة أمام جازيها، فلم يفتح فاه» (إشعياء ٥٣ : ٧) .

وعلي الرغم من أن بيلاطس كان متعجرفاً متعالياً محتقراً لليهود مزدرياً إياهم، فقد كان يخاف من ثوراتهم التي كانوا لا يفتأون يضرمونها ضده، ومن مؤامراتهم التي كانوا لا يفتأون يحيكونها للإطاحة به. وقد أدرك منذ البداءة من قولهم إن المتهم الماثل أمامه «يقول بالامتناع عن أداء الجزية لقيصر، مدعياً أنه هو المسيح الملك» أنهم يهددونه من طرف خفي بأنه إن أطلق سراحه سيتهمونه هو نفسه بخيانة قيصر، لأنه أطلق سراح رجل متمرد على قيصر. وقد كان قيصر الرومان في ذلك الوقت هو طيباريوس الذي كان من أقسى أباطرة الرومان وأشرسهم

وأكثرهم حماقة وجنوناً وتعطشاً إلى سفك الدماء وقتل الأبرياء ولو كانوا من أقرب الأقربين إليه. ومن ثم كان بيلاطس يخشى أي وشاية تبلغه عنه، لأنها كفيلة بأن تطيح بمنصبه، بل أن تطيح برأسه. ولذلك فإنه - على الرغم من اقتناعه الكامل ببراءة السيد المسيح - جبن عن أن يحكم ببراءته. وقد كان هذا الحكم من حقه ومن صميم إختصاصه وسلطته. بيد أن ضميره مع ذلك كان لا يطاوعه على الحكم بالموت على رجل برىء، نزولاً على رغبة قوم أدنياء مجرمين ظالمين، ولا سيما أنه كما جاء في الإنجيل للقديس متى «إذ كان جالساً على منصة الحكم، أرسلت إليه زوجته قائلة: إياك وذاك البار، فإني توجعت الليلة كثيراً في الحلم من أجله» (متى ٢٧ : ١٩). ولذلك عرض بيلاطس على اليهود حلا وسطاً حاول به أن يشفي غليلهم من السيد المسيح، وفي نفس الوقت يطلق سراحه. وقد جاء في الإنجيل للقديس متى أنه «كان من عادة الوالي أن يطلق لجماهير الشعب في كل عيد سراح أي سجين يريدونه. وإذ كان لديهم حينذاك سجين معروف يدعى باراباس. قال بيلاطس للمتجمهرين: من تريدون أن أطلق لكم سراحه، أباراباس أم يسوع الذي يدعى المسيح؟ إذ كان يعلم أنهم سلموه حسداً.. ولكن رؤساء الكهنة والشيوخ حرضوا الجمع على أن يطلبوا إطلاق باراباس وإهلاك يسوع» (متى ٢٧ : ١٥ - ٢٠) «وكان من يدعى باراباس مسجوناً مع رفاق له من المشاغبين كانوا في أثناء الشغب قد ارتكبوا جرائم قتل» (مرقس ١٥ : ٧). «فأجاب الوالي وقال لهم: أي الاثنين تريدون أن أطلق لكم سراحه؟. فقالوا: باراباس. قال لهم بيلاطس: فماذا أفعل إذن بيسوع الذي يدعى المسيح؟. فقالوا له جميعاً: فليصلب. قال الوالي: لماذا؟ أي شر فعل؟ فازدادوا صياحاً قائلين: اصلبه» (متى ٢٧ : ٢١ - ٢٣).

بيد أن بيلاطس لم يفقد الأمل في إنقاذ السيد المسيح مما يريدونه له. وإذ اعتقد أنه لو جلده وأهانه وعرضه عليهم دامي الجسد مجللاً بالهوان، سيكتفون بذلك ويوافقون على إطلاق سراحه، ومن ثم جاء في الإنجيل للقديس يوحنا أنه «حينئذ أخذ بيلاطس يسوع وجلده، وضفر الجند إكليلاً من شوك ووضعوه على رأسه، وألبسوه ثوباً من أرجوان، وأخذوا يتقدمون منه ويقولون له «السلام يا ملك اليهود» (يوحنا ١٩ : ١ - ٣). وقد جاء في الإنجيل للقديس متى في تفصيل ذلك قوله: «فأخذ عندئذ جند الوالي يسوع إلى دار الولاية. وجمعوا عليه الكتيبة كلها، ثم نزعوا عنه ثيابه وألبسوه رداء قرمزياً، وضفروا تاجاً من الشوك ووضعوه على رأسه، ووضعوا قصبة في يمينه، ثم راحوا يجثون على ركبهم أمامه ويهزأون به قائلين: السلام يا ملك اليهود. ثم راحوا يبصقون في وجهه وأخذوا القصبة وراحوا يضربونه على رأسه. حتى إذا أوسعوه سخرية نزعوا عنه الرداء وألبسوه ثيابه» (متى ٢٧ : ٢٧ - ٣١). وكان الجلد يتم بطريقة وحشية

لا رحمة فيها، وفي مظهر من العار والهوان لا يماثله أى مظهر من مظاهر قسوة الإنسان على الإنسان. إذ كان الجلادون يبدأون تنفيذ هذه العقوبة بخلع ملابس المحكوم عليه حتى يغدو عارياً، مجردينه بذلك من كرامته، بل من آدميته، على مشهد من الحاضرين جميعاً. ثم يربطون يديه بحبل أو سلسلة إلى أحد الأعمدة في وضع يكون فيه منكفئاً إلى الأمام. ثم يجيئون بسوط من الجلد الغليظ، ذى أطراف عديدة معقودة على شظايا خشنة مسننة من الحديد، وينهالون به على جسمه العارى كله بضربات ساحقة متلاحقة، كل ضربة منها تشق الجلد واللحم وتنفذ حتى العظام، فتمزق شرايين الدم الذى لا يلبث أن يتفجر منبثقاً متطايراً متناثراً فى كل إتجاه. وهم مع ذلك يوالون الضربات فى همجية ضارية على الجلد الممزق واللحم المتهرئ والدم المنهمر، غير مبالين أين تقع ضرباتهم، ولو شجت الرأس، أو شرخت الوجه أو فقأت العينين، وغير عابئين بما يصيب المسكين فى أثناء ذلك من آلام لا توصف ولا يمكن إحتمالها. وقد كان كثيرون بالفعل لا يحتملونها، فيموتون والسوط لا يزال يهوى على أجسادهم. وكان هذا ما فعلوه بالسيد المسيح عندئذ، بعد أن «جمعوا عليه الكتيبة كلها». وكانت الكتيبة تتألف من نحو خمسمائة جندي. وقد انضم إليهم عدد كبير من رعاع اليهود وأوباشهم، بل من رؤسائهم وكبرائهم أيضاً. ليشهدوا هوان عدوهم وعذابه. حتى إذا أوسعوه ضرباً لم يكتفوا بذلك، ولم يراعوا ما هو عليه وقد صار ممزق الجسد مغطى من رأسه إلى قدميه بالدماء، خائر القوى إلى درجة تكاد تؤدي به إلى الموت. ولكنهم ـ إذ كانت تهمته أنه قال عن نفسه إنه ملك ـ اتخذوا منه موضوعاً لتسليتهم ولهوهم، وموضعاً لسخريتهم واستهزائهم ـ كما فعل هيرودس من قبل ـ إذ راحوا بطريقة هزلية يضفون عليه مظاهر الملوك. وإذ كان الملوك يلبسون أردية قرمزية، ويضعون التيجان على رؤوسهم، ويمسكون بالصولجان أو قصبة الملك فى أيديهم، ويتقبلون خضوع أتباعهم ورعاياهم ، أخذوا هم رداء قرمزياً قديماً وألبسوه إياه. وبدلاً من تاج الملوك المصنوع من الذهب، ضفروا هم تاجاً من الشوك ووضعوه على رأسه. وبدلاً من الصولجان جاءوا بقصبة حقيرة من الغاب ووضعوها في يمينه. ثم راحوا شأن الأتباع والرعايا يجثون على ركبهم فى مجون وسخرية أمامه، قائلين في استهزاء «السلام يا ملك اليهود». ثم لم يكتفوا بذلك أيضاً، وإنما وقد سئموا الاستمرار فى تلك التمثيلية الهزلية ـ استأنفوا ـ فى حقد ووحشية وفظاظة وبذاءة ـ العدوان عليه، فراحوا يبصقون في وجهه، وأخذوا القصبة التى كانوا قد وضعوها فى يمينه وأخذوا يضربونه بها على رأسه الذى كان يعلوه إكليل الشوك، فكان للشوك ينغرس فى جبينه، فتسيل منه قطرات الدم على وجهه، وهو صامت لا يتكلم، صابر لا يئن ولا يتوجع. حتى إذا شبعوا منه سخرية وعدواناً، نزعوا عنه الرداء وألبسوه ثيابه وعادوا به إلى بيلاطس.

ومع أن الحكم بالجلد كان في العادة مجرد تمهيد للصلب، فقد أراد بيلاطس أن يجعله عقوبة قائمة بذاتها يوهم بها اليهود أنه رضخ لرغبتهم وعاقبه، على أن يطلق سراحه بعد ذلك، لا على أساس أنه حكم ببراءته، وإنما على أساس أنه عفا عنه بعد أن أدانه، ومن ثم خرج إليهم ثانية وقال لهم «هاأنذا سأخرجه إليكم لتعلموا أني لا أجد فيه خطيئة». وأوقفه أمامهم لابساً إكليل الشوك وثوب الأرجوان، مهاناً موثقاً بالحبال، مثخناً بالجراح، مغطى بالدماء. كالشاة المذبوحة، عسى أن يكفيهم هذا ويطفيء نار حقدهم عليه، وشفاء غليلهم منه ورغبتهم في التنكيل به وإذلاله، وإبطال دعواه بأنه المسيح ابن الله وأنه ملك اليهود، لأن دعواه هذه لا يمكن أن تصح في تصورهم وسط كل هذا العار الذي غطاه وغطى على دعواه. وقال لهم بيلاطس: «هاهوذا الرجل». فلما رآه رؤساء الكهنة والخدام صاحوا قائلين «اصلبه. اصلبه». وعندئذ ضاق صدر بيلاطس وقال لهم: «خذوه أنتم واصلبوه، فإنني لا أجد فيه خطيئة يُدان عليها». فأجابه اليهود قائلين: «إن لنا شريعة، وإنه على مقتضى شريعتنا يستحق الموت، لأنه جعل نفسه ابن الله». فلما سمع بيلاطس هذا الكلام إزداد خوفاً، ودخل مرة أخرى إلى دار الولاية وقال لمخلصنا: «من أين أنت؟». ولكن مخلصنا لم يجبه، فقال له بيلاطس: «لماذا لا تكلمني؟ أما تعلم أن لي سلطاناً أن أصلبك وسلطاناً أن أطلق سراحك؟ أجاب مخلصنا قائلاً: «ليس لك علي سلطان البتة، مالم تكن قد أعطيت من فوق. ولذلك فإن الذي أسلمني إليك خطيئته أعظم». وبسبب هذا كان بيلاطس يبتغي أن يطلق سراحه، ولكن اليهود أخذوا يصيحون قائلين: «إن أنت أطلقت سراحه فلست محباً لقيصر. لأن كل من يجعل نفسه ملكاً إنما يقاوم قيصر».

١٩ : ١٣ – ١٨

صلب السيد المسيح:

فلما سمع بيلاطس هذا الكلام، أخرج مخلصنا، ثم جلس على كرسي القضاء في مكان يسمى البلاط، وبالعبرانية «جباثا». وكان يومئذ يوم الاستعداد للفصح، وهو الجمعة. أي اليوم السابق لأول أيام عيد الفصح. وكانت الساعة عندئذ نحو السادسة بالتقويم اليهودي، أي نحو الساعة الثانية عشرة ظهراً في تقويمنا الحالي، فقال بيلاطس لليهود «ها هوذا ملككم». أما هُم فصاحوا قائلين: «ارفعه، ارفعه. اصلبه». قال لهم بيلاطس «أأصلب ملككم؟». فصاح رؤساء الكهنة قائلين «ليس لنا ملك إلا قيصر». وهكذا قذفوا في وجه بيلاطس صراحة بالتهديد الذي كانوا في البداءة يخفونه في كلامهم ملمحين إليه تلميحاً. وبذلك أخفقت كل محاولاته في إنقاذ ذلك الإنسان الوديع الماثل أمامه وهو في حقيقته رب الأرباب. الذي على الرغم من صلف بيلاطس

وعجرفته، مست وداعته شغاف قلبه. وعندئذ يقول الإنجيل للقديس متى: فلما رأى بيلاطس أنه لا جدوى، وإنما بالأحرى يزداد الضجيج أخذ ماء وغسل يديه أمام الجمع قائلاً: إنى برىء من دم هـذا البار. أنـتم وشـأنكم. فـأجـاب عــندئذ كـل الشعب وقـالوا: دمـه علينا وعلى أبنائنا» (متى ٢٧ : ٢٤، ٢٥). وبهذه العبارة وقعت مسئوليـة الحكم على السيد المسيح بالموت على الشعب اليهودى كله وعلى أبنائه إلى الأبد.

ولعل مما يثير الدهشة أن أولئك اليهود الذين كانوا يهرعون إلى السيد المسيح بعشرات الألوف ليستمعوا إلى تعاليمه السماوية ليشفيهم من أمراضهم بمعجزاته الإلهية، والذين طالما بهرتهم تلك التعاليم، وأدهشتهم تلك المعجزات، فكانوا يؤمنون بأنه هو المسيح ابن الله الذى ينتظرونه، ولا يفتأون لذلك يلقبونه بابن داود، والذين أحبوه وصاحبوه فى كل مكان ذهب إليه، مقبلين إليه من كل مدنهم البعيدة وقراهم النائية، سائرين على أقدامهم مئات الأميال، وقد أرادوا أن يختطفوه ليجعلوه ملكاً عليهم، والذين استقبلوه حين دخل أورشليم آخر مرة استقبال الملوك الفاتحين والقادة المنتصرين، باسطين ثيابهم تحت أقدامه، ملوحين له بأغصان الأشجار وهم يهتفون قائلين: «المجد لمخلصنا ابن داود. مبارك الآتى باسم الرب. المجْد لمخلصنا فى الأعالي» (متى ٢١ : ٩)، والذين طالما قيل إن رؤساءهم كانوا يخافون أن يقبضوا عليه خشية أن يثوروا ضدهم ويهلكوهم من أجله، وقد استمر ذلك حتى اليوم السابق على محاكمته، فجاء فى الإنجيل للقديس متى أن أولئك الرؤساء، إذ «هموا بأن يقبضوا عليه. خافوا من الجمع لأنهم كانوا يعدونه نبياً» (متى ٢١ : ٤٦). وجاء فى الإنجيل للقديس مرقس أنهم كانوا «يبحثون كيف يمسكونه بخدعة ويقتلونه، ولكنهم قالوا: لا نفعل ذلك فى العيد لئلا يحدث إضطراب بين الشعب» (مرقس ١٤ : ١و٢). وجاء فى الإنجيل للقديس لوقا أنهم كانوا «يبتغون أن يهلكوه، ولكنهم لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئاً، لأن الشعب كله كان متعلقاً به، وبالاستماع إليه» (لوقا ١٩ : ٤٧و٤٨)، إذا بأولئك اليهود أنفسهم ينقلبون بين يوم وليلة من محبين له إلى أعداء، ومن مؤمنين به يريدون أن يجعلوه ملكاً عليهم، إلى كافرين به، منكرين له، متخذين من القول بأنه ملك تهمة ضده يطلبون بسببها قتله. فلا تعليل لذلك إلا أنهم منذ نشأتهم شعب متقلب متذبذب، ماكر ناكر للجميل، غادر يقابل الحب بالكراهية، والحسنة بالسيئة، والخير بالشر، فهو يخون الصديق، ويتملق العدو، ويمتهن الذى يكرمه ويخدمه، ويداهن الذى يذله ويستعبده. وقد كان اليهود - بطبيعتهم الشريرة الشرهة الطاغية الطامحة إلى السطوة والسيطرة والثراء والمجد الدنيوى - يعتقدون أن المسيح سيتزعمهم ويقودهم إلى الحرب ضد الرومان ليعيد إليهم مملكة داود التي كانوا يحلمون بعودتها، ثم يغزو بهم العالم كله ليجعلهم سادته والمتسلطين عليه، حتى

إذا صارحهم السيد المسيح بأنه لن يفعل ذلك لأن مملكته ليست من هذا العالم، ثم رأوه مقبوضاً عليه، موثق اليدين، مغلول العنق، مضروباً، مبصوقاً على وجهه، مهاناً، يكتنفه العار، تخلوا عنه على الفور، واشتركوا مع رؤسائهم في إهانته وتعييره والسخرية به والإعتداء عليه والمطالبة بصلبه، فأثبتوا بذلك أنهم على الرغم من كل ماقاله لهم السيد المسيح وفعله بينهم ليصرف أنظارهم عن مطامعهم الأرضية وشهواتهم البهيمية، ويفتح أعينهم على أمجاد ملكوته السماوي، ظلوا عمياناً يقودهم عميان، ورفضوا مسيحهم الذي ظلوا مئات السنين ينتظرونه، طالبين الخلاص من ذلك الذي جاء لخلاصهم، مرتضين بإعترافهم أن تكون مسئولية دمه البريء عليهم وعلى أبنائهم.

أما بيلاطس فقد تغلب في النهاية خوفه على عدالته، وجبنه على رحمته. ومن ثم أذعن لليهود وسلم السيد المسيح إليهم ليصلبوه، فأخذوه ومضوا به. وما إن نطق بيلاطس - مضطراً مغلوباً على أمره بالحكم بصلب السيد المسيح، حتى أسرع اليهود في لهفة مجنونة إلى تنفيذ الحكم فوراً، على الرغم من أن مجلس الشيوخ الروماني كان قد أصدر في عهد الإمبراطور الروماني طيباريوس قراراً بأن يؤجل تنفيذ حكم الإعدام مدة لا تقل عن عشرة أيام بعد صدور ذلك الحكم، عسى أن يظهر في تلك المدة دليل جديد على البراءة. ولكن اليهود خشوا أن يتراجع بيلاطس في حكمه على السيد المسيح، بعد أن رأوا من إصراره على تبرئته وإطلاق سراحه، كما أنهم كانوا متعطشين في وحشية إلى القضاء على السيد المسيح. وإلى تلطيخه بكل ألوان العار والهوان، ليزيلوا بذلك الأثر الجميل النبيل الباهر الساحر الذي كان قد تركه في نفوس اليهود، بتعاليمه السماوية وقدرته الإلهية، ويظهروه أمامهم في صورة أخرى تدعوهم إلى الاستهانة به، وإحتقاره واستشعار خيبة أملهم فيه، إذ يرونه مخذولاً مذلولاً مسالماً مستسلماً، بعد أن كانوا يطمعون في أن يكون هو الملك الجبار والقائد المغوار الذي يثأر لهم من أعدائهم الذين يستعبدونهم، ويحقق لهم السطوة والتسلط على كل الشعوب، ليكونوا هم السادة لا العبيد، على مقتضى فكرتهم عن المسيح ابن داود الذي كانوا ينتظرون مجيئه. ومن ثم فأنهم لم يتركوه حتى ليلتقط أنفاسه بعد المحاكمات الظالمة الغاشمة البذيئة التي استمرت طوال الليل أمام حنان وقيافا. ثم استمرت منذ الفجر الباكر حتى نحو الساعة السادسة (وهي التاسعة بتوقيتنا الحاضر) أمام مجلس السنهدريم، ثم أمام بيلاطس، ثم أمام هيرودس، ثم أمام بيلاطس مرة أخرى، وبعد ما تجرعه في أثناء ذلك الوقت كله من صنوف الإهانة والهزء والسخرية والتقييد بالحبال والتعذيب الوحشي تحت ضربات الجلاد الذي لم يترك موضعاً في جسده إلا مزقه وأدماه بأطراف سوطه الذي يشق لحم الجسد كما يشق نصل المحراث أديم الأرض، حتى صدقت فيه

النبوءة التي قالت بلسانه «على ظهري حرث الحرّاث» (المزمور ١٢٨ : ٣)، وحتى لم يعد في كيانه البشرى ما يمكن أن يطيق إحتماله. ويبدو أنهم في لهفتهم على تنفيذ مادبروه له. كانوا قد أعدوا له بالفعل الصليب الذى سيعلقونه عليه، حتى لا تضيع منهم دقيقة واحدة. فما إن سلمه إليهم بيلاطس حتى شرعوا على الفور يحققون مأربهم الإجرامي، فأخذوا مخلصنا «ومضوا به، وخرجوا به وهو حامل صليبه» (يوحنا ١٩ : ١٦و١٧). وكانوا قد ألبسوه ملابسه بعد أن نزعوا عنه الثوب الأرجواني الذى كانوا قد وضعوه على جسده العاري المغطى بالدماء، وهم يؤدون تمثيليتهم البذيئة الماجنة، إستهزاء به وسخرية منه، ولكنهم تركوا إكليل الشوك على رأسه.

وإمعاناً في تعذيب السيد المسيح وإهانته وإذلاله وتجليله بالعار أمام اليهود جميعاً، ألزموه بأن يحمل صليبه من دار الولاية إلى موضع الصلب. وقد سلكوا به أطول طريق ممكن في شوارع أورشليم ليراه وهو على هذا الحال أكبر عدد ممكن من اليهود، «وتبعه جمع عظيم من الشعب» (لوقا ٢٣ : ٢٧). وقد كان يتقدمهم بطبيعة الحال أعداؤه من رؤساء الكهنة والكتبة والفريسيين والصدوقيين وسائر أعضاء مجلس السنهدريم الذين بذلوا أقصى وأقسى جهد ليتوصلوا إلى تلك النتيجة التى أثلجت صدورهم، وشفت غليلهم، وأطفأت نار حقدهم. وقد أبوا إلا أن يتمتعوا حتى النهاية بتلك المشاعر التى كانوا يجدون فيها لذة وحشية وسعادة شيطانية لا تقنع ولا تشبع ولا ترتوى ولا تقف عند حد. وقد شاطرهم فى ذلك عدد كبير من أتباعهم وأشياعهم وخدمهم وعبيدهم، والخاضعين خضوعاً أعمى لنفوذهم، والواقعين من الجهلاء والأغبياء فى حبائل تأثيرهم، بإعتبارهم معلمي الدين وعلماء الشريعة وعظماء الشعب. كما شاطرهم عدد كبير من الغوغاء والدهماء والأوباش والأدنياء الذين لا عقل لهم ولا عقيدة ولا ضمير. فهم يجدون - بطبيعتهم الحيوانية المنحطة وغريزتهم الفطرية الشريرة - متعة فى أن يشاهدوا آلام الآخرين، ولو بلغت حد التعذيب والتنكيل والقتل. بيد أنه ما من شك فى أنه كان ضمن ذلك الموكب الحزين المفجع ممن كانوا قد سبق لهم أن آمنوا بالسيد المسيح، أو ممن فى قلوبهم رحمة. ومن ثم كانوا مشفقين عليه، متوجعين بينهم وبين أنفسهم مما يرونه يعانيه من عذاب وهوان وعار، ولا سيما النسوة اللاتي يقول الإنجيل للقديس لوقا إنهن «كن يلطمن وينحن عليه» (لوقا ٢٣ : ٢٧). بيد أن السيد المسيح وقد آلمه المصير الرهيب الذى كان يعلم أنه ينتظر أولئك النسوة الرقيقات القلوب اللاتي كن يلطمن وينحن عليه، والنهاية التعسة التى كانت تنتظر أبناءهن بسبب شرور الشعب اليهودى، إلتفت إليهن وقال: «يا بنات أورشليم لا تبكين عليّ، بل إبكين على أنفسكن وعلى أبنائكن. لأنه هى ذى أيام تأتى سيقولون فيها ما أسعد العواقر والبطون التى لم تلد والثدى التى لم ترضع. عندئذ يبتدئون يقولون للجبال اسقطي علينا وللآكام

غطينا، لأنهم إن كانوا يفعلون هذا بالعود الرطب، فكم بالأحرى يفعلون باليابس» (لوقا ٢٣ : ٢٨ - ٣١) . أي أنه إذا كان هذا ما حدث للطاهر البار الوديع الحي المحيي، الذي يشبه العود الرطب الممتلىء ثمراً وبركة، فكم بالأحرى سيحدث لليهود، الأشرار الفجار القساة القلوب، الأموات الضمائر، السافكين الدماء، الذين يشبهون عود الحطب اليابس الذي لا ثمر له ولا خير فيه ولا نفع منه ولا يستحق إلا أن يكون وقوداً للنار.

وقد مضى السيد المسيح حاملاً صليبه في طريق الآلام. بيد أن الصليب كان ثقيلاً. وكان هو من أثر كل ما مر به مرهق الجسد لا يقوى على حمله. فكان كل آونة وأخرى يتوقف به، أو يسقط تحته. في حين كان أعداؤه يتعجلون موته على الصليب. وربما كانوا يخافون أن يموت قبل أن يصلبوه. وقد كان صلبه هو الأمر الذي يهدفون إليه ويشتهون ويتحرقون رغبة فيه، لأنهم كانوا يريدون له العار، وكان التعليق علي خشبة الصليب معتبراً أبشع مظاهر العار، إذ كانت شريعتهم تعتبر المعلق عليه ملعوناً من الله (التثنية٢١ : ٢٣) . ومن ثم جاء في الإنجيل للقديس مرقس أنه «كان بين المارة رجل قادم من الحقل يدعى سمعان القيرواني... فسخروه ليحمل صليبه» (مرقس١٥ : ٢١) . وقد أذعن الرجل لهم على الرغم من أن حمل الصليب في ذاته كان عاراً. وقد كان إذعانه لهم ناشئاً عن خوفه منهم، أو ربما كان ناشئاً عن إيمانه بالسيد المسيح ورغبته في تخفيف بعض آلامه، ولو أدى ذلك إلى مشاركته في العار الذي لحق به ظلماً وعدواناً. بيد أنه على أي حال أصبح بعد ذلك من المسيحيين المعروفين مع زوجته وابنين له، إذ جاء في عبارة الإنجيل للقديس مرقس نفسها أنه «هو أبو الإسكندر وروفوس» (مرقس١٥ :٢١) . ولعل روفوس هذا هو الذي جاء ذكره مع أمه بكل توقير في رسالة القديس بولس الرسول إلى أهل رومية. إذ قال «سلموا على روفوس المختار في الرب وعلى أمه أمي» (رومية ١٦ : ١٣) .

وأخيراً بلغوا إلى الموضع المسمى الجمجمة، وبالعبرانية جلجثا. وبالآرامية الجلجثة، كما ورد في الإنجيل للقديس متى (متى ٢٧ : ٣٣) ، وهو تل مرتفع يقع خارج أورشليم بالقرب من أسوارها، ويمكن رؤيته من داخلها، ويمتد بجواره طريق عام يؤدي من أورشليم إلى «جبعة» التي كانت على بعد نحو أربعة أميال شماليها... ويبدو أن هذا الموضع كان مخصصا لقتل المحكوم عليهم بالموت، سواء بطريقة الرجم اليهودية، أو بطريقة الصلب الرومانية، وربما كانت توجد بعض جماجم أولئك القتلى، ولذلك كانوا يسمونه كما ذكرنا بالعبرانية «جلجثا»، وبالآرامية «الجلجثة» أي الجمجمة. ويذهب البعض إلى أن جمجمة آدم مدفونة هناك. ولعل هذا هو السبب الذي حدا ببعض الفنانين أن يرسموا صليب المسيح قائماً على جمجمة رأس آدم.

وكانت العادة قد جرت فى ذلك الحين على أن تجىء بعض نساء أورشليم الرحيمات عند تنفيذ عقوبة الرجم أو الصلب فى المحكوم عليه فيعطينه قبل الشروع فى قتله جرعة من الخمر ممزوجة بالطيب ليخدرنه ويخففن من آلامه. عملاً بقول سليمان الحكيم فى سفر الأمثال «أعطوا مسكراً لهالك، وخمراً لمرّى النفس» (الأمثال ٣١ : ٦). أما أعداء السيد المسيح فقد قلبوا الآية. فجعلوا من تلك الوسيلة التى تنطوى على الرأفة والرحمة، وسيلة للنكاية ومضاعفة الألم والإمعان فى التشفى والقسوة، إذ أنهم كما جاء فى الإنجيل للقديس متى «أعطوه خمراً ممزوجة بمرارة ليشرب. فلما ذاقها أبى أن يشربها» (متى ٢٧ : ٣٤). وبذلك أخذ ما فى الكأس من مرارة. وأما الخمر فرفض أن يشرب منها، لأنه لا يريد مخدراً يخفف من آلامه تخفيفاً مصطنعاً، كما سبق أن قال لتلاميذه فى الليلة السابقة: «إني منذ الآن لن أشرب من نتاج الكرمة هذا حتى اليوم الذى فيه أشربه جديداً معكم فى ملكوت أبى» (متى ٢٦ : ٢٩).

وبعد ذلك طرحوا الصليب على الأرض، وأرقدوا السيد المسيح عليه بعد أن خلعوا ثيابه. ثم راحوا يدقون مسمارين طويلين سميكين بمطرقة ضخمة فى معصمى يديه على طرفى العارضتين الأفقيتين للصليب، حتى نفذ المسماران من معصم اليدين إلى الخشب فأصبحا غائرين وثابتين فيه. وهكذا فعلوا فى مفصلى قدميه فى أسفل العارضة الرأسية للصليب (كولوسى ٢ : ١٤)، إحدى القدمين على الصليب. والأخرى فوقها.

ثم أقاموا الصليب وغرسوه فى حفرة فى الأرض. وقد جاء فى الإنجيل للقديس مرقس أنه «كانت الساعة الثالثة حين صلبوه» (مرقس ١٥ : ٢٥). والساعة الثالثة فى التقويم الذى كان اليهود يستخدمونه تقابل الساعة التاسعة صباحاً فى التوقيت الحديث. ولكن يبدو أن الحكم بالصلب كان فى نحو الساعة التاسعة بالتوقيت الحديث. وأما الصلب بالفعل فكان قبيل السادسة أو نحو السادسة وهى تقابل فى التوقيت الحديث الثانية عشرة ظهراً.

وإمعاناً فى النكاية بالسيد المسيح والتشهير به ومضاعفة العار الذى أرادوه له، ولإظهاره بمظهر المجرم الخطير. «صلبوا معه لصين كل منهما على جانب منه ويسوع فى الوسط» (يوحنا ١٩ : ١٨). وقد جعلوه فى الوسط لكى يوحوا للذين يرونه بأنه أشد الثلاثة إجراماً، وبذلك تمت النبوءة التى تنبأ بها إشعياء النبى عن السيد المسيح قائلاً إنه «سكب للموت نفسه، وأحصى مع أثمة» (إشعياء ٥٣ : ١٢).

١٩ : ١٩ - ٢٢

يسوع الناصرى ملك اليهود:

وإذ كانت العادة قد جرت على أن يكتبوا تهمة المصلوب على لافتة ويعلقوها فوق رأسه،

تشهيراً به وتحذيراً وردعاً لغيره. أراد بيلاطس أن يسخر من اليهود لأنهم أدانوا إنساناً بريئاً بغير تهمة إلا أنه قال عن نفسه إنه ملك. وإن كان قد جاهر بأن مملكته ليست من هذا العالم. فكانت تلك هي تهمته التي قتلوه بسببها، ومن ثم وضع بيلاطس لافتة على الصليب كتب فيها «يسوع الناصري ملك اليهود». فقرأ هذه اللافتة كثيرون من اليهود وغير اليهود لأن الموضع الذي صلبوا فيه مخلصنا كان قريباً من المدينة، ولأنها كانت مكتوبة بالعبرانية واليونانية واللاتينية التي هي لغة الرومان، ليفهمها كل الناس من كل الأجناس. وقد أغاظ ذلك رؤساء الكهنة لأنه يتضمن إقراراً واعترافاً بأن هذا المصلوب على خشبة العار هو ملكهم. فقال رؤساء كهنة اليهود لبيلاطس «لا تكتب أنه ملك اليهود، بل إنه هو قال أنا ملك اليهود». فأجاب بيلاطس قائلاً في ضيق وضجر «ما كتبت قد كتبت».

١٩ : ٢٣ - ٢٤

«اقتسموا ثيابي..وعلى قميصي اقترعوا»:

وعلى الرغم من أن السيد المسيح أصبح الآن موثقاً على الصليب لا بالحبال وإنما بالمسامير التي دقوها دقاً في لحمه وعظامه حتى نفذت إلى الخشب واتخذت فيه وضعاً ثابتاً لا فكاك منه، فإن أعداءه على الرغم من كثرتهم وتجمهرهم حوله وإحاطتهم به في حلقة ضخمة، ظلوا مع ذلك خائفين أن يأتي تلاميذه والمؤمنون به فينزعونه من الصليب، فأقاموا عليه أربعة حراس أشداء من الجنود الرومان المدججين بالسلاح، فضلاً عن الفرقة العسكرية الكاملة التي كانت تضرب نطاقاً حول موضع الصلب، وعلى رأسها ضابط روماني كبير برتبة قائد مائة. وإذ كان الحراس الأربعة يعلمون بخبرتهم أن المصلوب لا يموت إلا بعد وقت طويل. وكانت العادة قد جرت على أن تكون ملابس المصلوبين من نصيب حراسهم، اتخذ أولئك الحراس من اقتسام ثياب السيد المسيح تسلية لهم يقطعون بها الوقت ويمنعون عن أنفسهم الملل. ومن ثم أخذوا ثيابه وجعلوها أربعة أقسام، لكل جندي منها نصيب، وأخذوا القميص أيضاً، وإذ كان بغير خياطة، منسوجاً كله من أعلاه إلى نهايته، قالوا بعضهم لبعض «لا نشقه بل فلنقترع عليه لمن منا يكون». وبذلك تحققت نبوءة المزامير التي تقول بلسان السيد المسيح «لأنه قد أحاطت بي كلاب. جماعة من الأشرار اكتنفتني. ثقبوا يدي ورجلي.. وهم ينظرون ويتفرسون في... اقتسموا ثيابي بينهم، وعلى قميصي اقترعوا» (المزمور ٢١ : ١٦ - ١٨). وقد كان هذا ما فعله الجند.

١٩ : ٢٥ - ٢٧

آلام الصليب وتسليم العذراء ليوحنا:

وقد ذكر الإنجيل للقديس متى بعض تفصيلات ماحدث في هذه الأثناء. فقد كان أعداء

السيد المسيح من رؤساء الكهنة والكتبة والفريسيين والصدوقيين وغيرهم قد سارعوا إلى العمل على أن يذيعوا فى أورشليم كلها تفصيل المحاكمات التى أجروها للسيد المسيح، وماوجهوه إليه فى أثنائها من إتهامات دنيئة، ليظهروه أمام الشعب بمظهر المخالف للشريعة اليهودية والمعتدى على الهيكل والمجدف على الله، ولا سيما قول الشهود إنهم سمعوه يقول إنه قادر على أن يهدم الهيكل، ثم فى ثلاثة أيام يبنيه، وقوله هو إنه ملك اليهود، وإنه ابن الله. وقد نجح أعداء السيد المسيح بالفعل بمالهم من سلطان فى إثارة اليهود عليه والقضاء على إيمان الذين آمنوا منهم به، وهم الشعب المتقلب الطبيعة، المتذبذب العقيدة، الذى سرعان ما ينتقل فى تفكيره وشعوره وديانته نفسها من النقيض إلى النقيض، حسبما يجد فيه مصلحته ومنفعته وإذ كان المكان الذى صلبوا فيه السيد المسيح مجاوراً لطريق عام يكثر فيه الرائحون والغادون من اليهود ،كان المارة يسبونه وهم يهزون رؤوسهم قائلين: يا هادم الهيكل وبانيه فى ثلاثة أيام خلص نفسك. إن كنت أنت ابن الله فانزل عن الصليب، (متى ٢٧: ٣٩و٤٠). ونرى من ذلك إلى أى حد تبلغ أحياناً قسوة البشر وغلظة قلوبهم. فإن الذى يمر فى طريقه بمتألم مهما كان سبب هذا الألم أو المتسبب فيه من شأنه أن يشفق عليه ويتوجع من أجله، سواء أكان يعرفه أم لا يعرفه. بيد أن أولئك المارين فى طريق ذلك المصلوب البرىء البار الممزق الجسد بالسياط، المحطم العظم بالمسامير، وهم يرونه يقاسي أشنع وأبشع ما يمكن أن يقاسيه إنسان من صنوف العذاب الذى هو فوق طاقة البشر، بدلاً من أن يقولوا له كلمة رثاء أو عطف أو تشجيع، أو على الأقل يصمتون ولا يقولون شيئاً، راحوا يكيلون له أبزأ كلمات الشماتة والتشفى، مرددين مفتريات أعدائه عنه، ساخرين منه، هازئين به. لأنه - كما زعم أعداؤه - قال إن فى مقدوره أن يهدم الهيكل وفى ثلاثة أيام يبنيه، وهاهوذا يبدو عاجزاً عن أن يفعل ما هو أهون من ذلك، وهو أن ينقذ نفسه من يد قاتليه، ولأنه قال عن نفسه إنه ابن الله القدير، مبرهناً على ذلك بما كان يصنع من المعجزات، وهاهوذا غير قادر على أن يصنع تلك المعجزة البسيطة للقدرة الإلهية، فينزل عن الصليب. فبرهنوا - فضلاً عن قسوتهم وبذاءتهم وانعدام الرحمة فى قلوبهم - على أنهم وهم اليهود لا يعرفون شيئاً مما ورد فى كتب ديانتهم وشريعتهم اليهودية، مما قاله أنبياؤهم عن حقيقة رسالة المسيح من أنه سيجىء إلى العالم ليكون هو ذبيحة الفصح الحقيقية، حتى يكفر بدمه عن خطاياهم وينقذهم من الهلاك المحكوم به من العدالة الإلهية عليهم. بيد أنهم إن فعلوا ذلك وهم عامة اليهود ودهماؤهم، فقد برهن رؤساء كهنتهم وفقهاؤهم ومعلموهم وعلماؤهم الدينيون على أنهم لا يقلون عنهم جهلاً بدينهم وشريعتهم ونبوءات أنبيائهم عن المسيح، لأن ،رؤساء الكهنة كانوا يهزأون به مع الكتبة والشيوخ قائلين: خلص آخرين ولا يستطيع أن يخلص نفسه. إن كان

هو ملك إسرائيل فلينزل الآن عن الصليب فنؤمن به. لقد اتكل على الله فلينقذه الآن إن كان راضياً عنه، لأنه قال أنا ابن الله» (متى ٢٧: ٤١ - ٤٣). وهكذا فإن أولئك الذين كانوا يدعون لأنفسهم التفقّه في الدين والتعمق فى أسراره وخفاياه فأقاموا أنفسهم معلمين للدين ورؤساء للكهنة الدينيين، راحوا يرددون نفس العبارات التى كان يرددها الدهماء والجهلاء من شعبهم، معترفين بأن السيد المسيح صنع معجزات خلص بها آخرين من المرض أو من الموت، ومع ذلك ها هوذا لا يستطيع أن يصنع معجزة يخلص بها نفسه، قاصدين بذلك أن يقولوا إن كل المعجزات التى صنعها إنما كانت بقوة الشيطان لا بقوة الله، ولا بقوته هو. وقد تحدوه إن كان هو ابن الله كما كان يقول، فلينزل عن الصليب فيؤمنوا عندئذ به. وقد كان قولهم هذا أكبر برهان على جهلهم لديانتهم ونبوءات أنبيائهم. لأن السيد المسيح لو نزل عن الصليب لهدم بذلك الهدف الرئيسى الذى جاء من أجله إلى العالم، والذى تشير إليه نبوءات كل الأنبياء، وهو أن يفدى البشر بموته، مكفراً عن خطاياهم بدمه لخلاصهم. وقد كان مما جاء فى بعض تلك النبوءات أن المسيح «أرسل فداء لشعبه» (المزمور ١١٠: ٩). وأن «أحزاننا حملها وأوجاعنا تحملها.. وهو مجروح لأجل معاصينا. مسحوق لأجل آثامنا.. كلنا كغنم ضللنا.. والرب وضع عليه إثم جميعنا.. جعل نفسه ذبيحة إثم .. سكب للموت نفسه.. وهو حمل خطيئة كثيرين» (إشعياء ٥٣: ٤ – ١٢). وقد كان لابد للتكفير عن خطايا البشر أن يبذل دمه عنهم، إذ تقضى الشريعة بأن «الدم يكفر عن النفس.. لأن نفس كل جسد دمه هو بنفسه» (اللاويين ١٧: ١١و١٤). فبدون تكفير بالدم لا يكون خلاص. وقد جاء فى النبوءات «قولوا لخائفى القلوب تشددوا. لا تخافوا.. هو يأتى ويخلصكم» (إشعياء ٣٥: ٤). فلو لم يظل السيد المسيح على الصليب، باذلاً دمه حتى يموت كما تموت الذبيحة، ماكان ثمة فداء ولا مغفرة ولا خلاص. وقد عيروه بأنه غير قادر على أن يصنع معجزة ينقذ بها نفسه من الموت. بيد أنه كان يدخر لهم معجزة أعظم وأعجب من تلك التى تحدّوه أن يصنعها. وهى أنه بعد أن يموت على الصليب ويظل جثمانه فى القبر ثلاثة أيام سيقوم وقد عاد إلى الحياة هازماً الموت الذى لم يستطع إنسان أن يهزمه قط. ولكنهم كانوا كعادتهم كاذبين مرائين، لأنهم زعموا أنه إذا نزل عن الصليب فسيؤمنون به. ولكنهم كانت قلوبهم من السواد والعناد والشر والفساد حتى إنهم بعد أن رأوا قيامته لم يؤمنوا به، وإنما ظلوا على مغالطتهم وضلالهم وعمى أبصارهم وبصائرهم، ثم إنهم قدموا برهاناً أوضح وأفدح عن جهلهم بكتبهم الدينية ونبوءات أنبائهم، إذ نطقوا وهم يعيرونه بعبارة وردت فى النبوءات أن أعداء السيد المسيح سيقولونها عنه وهو على الصليب، وقد نطقوها كما وردت بحذافيرها كلمة بكلمة تقريباً، إذ قالوا «اتكل على الله فلينقذه الآن إن كان راضياً عنه»، فى حين قالت النبوءات «كل الذين يروننى يستهزئون بى.. قائلين اتكل على

الرب فلينجه، لينقذه لأنه سر به» (المزمور ٢١: ٧و٨) . ولعل مما يدل على مدى ما كان يملأ قلوب رؤساء الكهنة من شر وشراسة وضغينة وحقد ورغبة ووحشية في النكاية بالسيد المسيح وشفاء غليلهم منه، أنهم وقفوا ليثلجوا صدورهم برؤيته مصلوباً مجللاً بالعار، منتهزين هذه الفرصة ليهزأوا به ويسخروا منه، ناسين ومهملين فى سبيل ذلك واجباتهم الدينية التى كانت تحتم عليهم ملازمة الهيكل فى ذلك اليوم بالذات الذى كان أول أيام عيد الفصح، وكانت الشريعة تقضى بأن يقام فيه محفل مقدس يؤدى فيه الكهنة ورؤساؤهم الطقوس التى قررتها الشريعة لذلك على مقتضى ماجاء فى سفر اللاويين (اللاويين ٢٣: ٧ - الخ) .

ولئن لم يكن ثمة عذر لليهود ولا لرؤسائهم الدينيين فيما كانوا يقولونه للسيد المسيح وهو على الصليب كما رأينا، إنه يمكن إلتماس العذر للجنود الرومان الوثنيين الذين كانوا حاضرين، إذ إنجرفوا فى نفس التيار. وقد قيل لهم إن المصلوب قال عن نفسه إنه ملك اليهود، وكانت هذه هى تهمته المكتوبة فى اللافتة المعلقة على رأسه بثلاث لغات يفهمونها ومنها لغتهم اللاتينية أو الرومانية. ومن ثم فإنهم هم أيضاً «كانوا يسخرون منه .... قائلين له: إن كنت أنت ملك اليهود فخلص نفسك» (لوقا ٢٣: ٣٦و٣٧) . لأنهم لم يكونوا يعلمون ما جاء عن السيد المسيح فى الأسفار الدينية لليهود، وفى نبوءات أنبيائهم. ولكنهم مع ذلك أضافوا إلى كأس آلامه قطرة حتى إمتلأت هذه الكأس إلى حافتها. بيد أن قطرة أخرى مريرة أضيفت بعد ذلك إليها، لأن المشتركين فى معاناة نفس الآلام يعطف عادة بعضهم على بعض. ولكن اللصين اللذين كانا مصلوبين معه إذ سمعا تعبيرات كل الحاضرين له، اشتركا هما أيضاً معهم، إذ جاء فى الإنجيل للقديس متى أنه «بذلك أيضاً كان يعيره اللصان اللذان صلبا معه» (متى ٢٧: ٤٤) .

أما السيد المسيح فإنه فى وسط كل تلك الآلام التى كان يعانيها، وتلك الإهانات التى كان يوجهها إليه أولئك اليهود الظالمون القاتلون، رفع عينيه نحو السماء - كما جاء فى الإنجيل للقديس لوقا - وقال: «يا أبتاه اغفر لهم لأنهم لا يدرون ماهم فاعلون» (لوقا ٢٣: ٣٤) ، لأنه كان دائماً يوصى الناس بأن يغفر بعضهم لبعض، وكان هو القدوة والمثل الأعلى للناس فى كل ما أوصاهم به، ومن ثم فإنه - وهو فى أشد محنة يمكن أن يقاسيها إنسان، وإزاء أشد جريمة يمكن أن يرتكبها إنسان ضد إنسان - غفر لأعدائه جريمتهم، فبلغ بذلك الغاية التى ليس بعدها غاية، وارتفع بالسلوك البشرى إلى أسمى مرتبة من الكمال يمكن أن يصل إليها معنى الكمال.

وهنا نرى لمحة من لمحات النور حين يدخل القلب المظلم، فى لحظة من لحظات الإشراق الروحى، حتى بالنسبة لأكثر الناس شراً وأفدحهم خطيئة وإثماً، إذ استمر أحد اللصين اللذين كانا

مصلوبين مع السيد المسيح - كما جاء في الإنجيل للقديس لوقا - «يجدف عليه قائلاً: ألست أنت المسيح؟ إذن خلص نفسك وخلصنا. فأجاب الآخر وانتهره قائلاً: أما تخاف الله، وأنت نفسك تحت هذا القصاص بعينه؟. نحن بعدلٍ جوزينا، لأننا ننال جزاء أعمالنا. أما هذا فلم يفعل سوءاً. ثم قال ليسوع: اذكرني يارب متى جئت في ملكوتك. فقال له يسوع: الحق أقول لك إنك اليوم تكون معي في الفردوس» (لوقا ٢٣: ٣٩ – ٤٣).

وفي مقابل ذلك اللص الذي آمن بالسيد المسيح وهو على الصليب، واعترف بأنه في وسط مظاهر كل ذلك الهوان، مجاهراً بذلك علناً، كان ثمة ظاهرة مؤلمة، مامن شك في أنها زادت آلام السيد المسيح ألماً وأضافت إلى عذابه، وإن كان قد توقعها من قبل وتنبأ بها صراحة منذ ساعات قليلة، إذ اختفى واختبأ كل تلاميذه وأحبائه، متخلين عنه في ساعة رزيئته ومحنته، بعد أن لازموه طوال أيام سلامه وسلامته. وقد سبق لأكثرهم جرأة وشجاعة أن تنكر له وأنكره، وهاهم أولاء الباقون جبنوا حتى عن أن يصاحبوه وهو يسير مثخناً بالجراح في طريق آلامه، أو يقفوا بجانبه ليواسوه بكلمة عطف أو عزاء وهو معلق كالذبيحة على صليبه. فصدقت فيهم النبوءات القائلة: «إخوتك أنفسهم.. قد غادروك هم أيضاً» (إرميا ١٢: ٦). والقائلة بلسان المسيح «عند كل أعدائي صرت عاراً.. ورعباً لمعارفي. الذين رأوني خارجاً هربوا عني. نسيت من القلب مثل الميت» (المزمور ٣٠: ١١و١٢).. «قد دست المعصرة وحدي.. لم يكن معي أحد.. فنظرت ولم يكن معين، وتحيرت إذ لم يكن عاضد» (إشعياء ٦٣: ٣– ٥).. «انتظرت رقة فلم تكن، ومعزين فلم أجد» (المزمور ٦٨: ٢٠).

بيد أن النسوة اللاتي تتلمذن على السيد المسيح وتوطد إيمانهن به، كن أكثر شجاعة من الرجال، إذ لازمنه إلى آخر لحظة. وإن كن لم يجرؤن على الاقتراب من صليبه فوقفن بعيداً، إذ جاء في الإنجيل للقديس مرقس أنه «كانت هناك أيضاً نسوة ينظرن من بعيد، من بينهن مريم المجدلية، ومريم أم يعقوب الصغير ويوسي، وسالومي. وهن اللاتي كن يتبعنه ويخدمنه حين كان في الجليل، فضلاً عن نسوة أخريات كثيرات كن قد صعدن معه إلى أورشليم» (مرقس ١٥: ٤٠و٤١). وبذلك أيضاً تحققت النبوءة القائلة بلسان السيد المسيح «أقاربي وقفوا بعيداً» (المزمور ٣٧: ١١).

أما السيدة العذراء مريم فإنها لم يطاوعها قلبها الذي كان يتمزق عندئذ لوعة على إبنها فلم تستطع أن تظل بعيداً، وإنما اقتربت حتى وقفت تحت صليبه، تصاحبها أختها مريم زوجة كلوبا، ومريم المجدلية. وهناك تعلقن بقدميه الداميتين باكيات متفجعات. كما اقترب أحد تلاميذه وهو يوحنا التلميذ الذي كان السيد المسيح يحبه (يوحنا ١٣: ٢٣)، (١٩: ٢٦)، والذي يبدو أنه اجترأ

دون بقية زملائه على الظهور فى ذلك المشهد الرهيب لأنه كان معروفاً عند رئيس الكهنة، وقد سبق له فى الليلة الماضية أن دخل بغير خوف داره مع السيد المسيح بعد أن قبض عليه، إذ جاء فى الإنجيل للقديس يوحنا أنه «كان هذا التلميذ معروفاً لدى رئيس الكهنة» (يوحنا ١٨ : ١٥). ومن ثم جاء فى هذا الإنجيل أنه «كانت واقفات عند صليب يسوع أمه، وأخت أمه مريم زوجة كلوبا، ومريم المجدلية. فلما رأى يسوع أمه والتلميذ الذى كان يحبه واقفاً، قال لأمه: أيتها السيدة هوذا ابنك. ثم قال للتلميذ: هى ذى أمك. ومنذ تلك الساعة أخذها التلميذ إلى بيته» (يوحنا ١٩ : ٢٥ - ٢٧). وندرك من ذلك أن السيد المسيح كان عندئذ هو العائل الوحيد لأمه السيدة العذراء مريم. ومن ثم فإنه وهو عالم أنه سيرتفع عن الأرض عهد بها إلى رعاية ذلك التلميذ الذى كان يحبه. وفى هذا رد على الذين زعموا أنه كان للعذراء مريم أولاد آخرون هم يعقوب ويوسى وسمعان ويهوذا بحجة أن الإنجيل دعاهم إخوة المسيح يسوع (متى ١٢ : ٤٦و٤٧)، (١٣ : ٥٥)، (مرقس ٣ : ٣١و٣٢)، (٦ : ٣)، (لوقا ٨ : ١٩و٢٠)، (يوحنا ٢ : ١٢)، (٧ : ٣و٥)، (والأعمال ١ : ١٤). وقد تغافلوا عن عادة الشرقيين فى تلقيب الأقارب بأنهم إخوة، ولا سيما أولاد العمومة والخؤولة. ومن ذلك أن إبراهيم لقب لوطاً بأخيه، مع أنه فى الواقع هو ابن أخيه (التكوين ١٢ : ٤)، ولقب لابان ابن اخته يعقوب بأخيه (التكوين ٢٩ : ١٥). وقال الكتاب المقدس عن أولاد لابان أنهم إخوة يعقوب (التكوين ٣١ : ٤٦). والواقع أن الإنجيل للقديس يوحنا ينص على أنه كان للعذراء مريم أخت شقيقة تسمى مريم (يوحنا ١٩ : ٢٥). ويروى التاريخ أيضاً أن هذه الأخت الشقيقة قد أنجبها يواقيم أبو العذراء مريم من حنة أمها بعد العذراء مريم. ولما كانت العذراء مريم قد نذرها أبوها وأمها للرب. فلما رزقهما الرب بتلك الابنة الأخرى، قالا إن الابنة الأولى من نصيب الرب، وأما الثانية فمن نصيبنا، ومن ثم أطلقا على الابنة الصغرى أيضاً اسم مريم، وهى هذه التى تزوجها فيما بعد حلفى وذلك هو اسمه الأرامى، وقد كان له اسم آخر يونانى وهو كلوبا، وقد أنجب منها أولاداً هم يعقوب ويوسى وسمعان ويهوذا (انظر كتاب تاريخ الكنيسة ليوسابيوس الجزء ٣ فقرة ٣٢ : ٣ - ٨) كما أنجب منها أيضاً بنات. لذلك سميت مريم شقيقة العذراء مريم فى الإنجيل «مريم أم يعقوب الصغير ويوسى» (مرقس ١٥ : ٤٠)، (متى ٢٧ : ٥٦) و «مريم أم يعقوب» (مرقس ١٦ : ١)، (لوقا ٢٤ : ١٠) و «مريم أم يوسى» (مرقس ١٥ : ٤٧) و«مريم زوجة كلوبا» (يوحنا ١٩ : ٢٥). ويروى المؤرخ يوسابيوس القيصرى أن كلوبا أو حلفى كان أخاً ليوسف النجار. وعلى ذلك يكون يعقوب ويوسى وسمعان ويهوذا أقرباء المسيح من جهة الأم فإنهم أولاد خالته، ومن جهة يوسف النجار لأنهم أولاد أخيه كلوبا. ويروى القديس أبيفانيوس أسقف سلاميناً فى جزيرة قبرص عن القديس

هيجسيبوس Hegesippus وهو من آباء القرن الثانى عن تقليد يهودى قديم أن كلوبا هو أخ شقيق ليوسف «خطيب العذراء مريم» (كتاب الرد على الهرطقات ٧٨ : ٧) . ولذلك فإن يوسابيوس كثيراً ما يذكر أن يعقوب ويوسى وسمعان ويهوذا أولاد كلوبا، ومريم زوجة كلوبا، هم أقرباء يسوع المسيح. (يوسابيوس فى كتابه «تاريخ الكنيسة». الجزء الثالث: فقرة ١١، فقرة ٣٢: ١ – ٨، الجزء الرابع : فقرة ٢٢ : ٤و٥) وجاء أيضاً فى السنكسار تحت اليوم التاسع من شهر أبيب القبطى أن كلوبا هذا هو أخ شقيق ليوسف البار خطيب مريم العذراء. ١٩ : ٢٨ – ٣٧

موت المسيح وطعنه بالحربة:

وقد ظل السيد المسيح يعانى الآلام المبرحة التى لا يمكن أن توصف منذ الساعة الثالثة إلى الساعة السادسة بالتوقيت اليهودى، أى منذ الساعة التاسعة صباحاً حتى الساعة الثانية عشرة ظهراً بالتوقيت الحديث. وقد جاء فى الإنجيل للقديس متى أنه «منذ الساعة السادسة صارت ظلمة على الأرض كلها إلى الساعة التاسعة» (متى ٢٧ : ٤٥) . وقد كانت هذه معجزة من المعجزات التى صاحبت آلام السيد المسيح، كما سبق أن صاحبت ميلاده معجزات كثيرة، منها النجم الذى ظهر للمجوس فساروا على هداه من بلادهم إلى حيث ولد فى بيت لحم (متى ٢ : ٢ –٩) . فكما أضاءت السماء بذلك النجم فى وقت ميلاده، هكذا أظلمت الأرض فى وقت آلامه، مما يدل على شخصيته الإلهية. وبهذا الظلام الذى غمر الأرض فى وقت الظهيرة فى أثناء آلام السيد المسيح تحققت النبوءة القائلة «يكون فى ذلك اليوم أنى أغيب الشمس فى الظهر وأقتم الأرض فى يوم نور» (عاموس ٨ : ٩) . كما تحققت النبوءة القائلة «غربت شمسها إذ بعد نهار» (إرميا ١٥ : ٩) . وقد ساد الظلام ثلاث ساعات، استولت فيها على كل الحاضرين دهشة ورهبة ورعدة. وقد جاء فى الإنجيل للقديس متى أنه «فى نحو الساعة التاسعة صرخ يسوع بصوت عظيم قائلاً: إيلى. إيلى. لما شبقتنى، أى إلهى إلهى لماذا تخليت عنى» (متى ٢٧ : ٤٦) . وقد كانت هذه العبارة التى قالها السيد المسيح باللغة الآرامية بعد أن انقشع الظلام فى نحو الساعة الثالثة بعد الظهر بالتوقيت الحديث هى الجملة الأولى من المزمور الحادى والعشرين من سفر المزامير. وهو - له المجد - لم يكن يعنى بهذه العبارة أن الله قد تركه، لأنه هو والله الآب جوهر واحد كما سبق أن قرر مراراً. وإنما كان يعنى أن المزمور الذى وردت هذه العبارة فى بدايته ينطبق عليه فى تلك اللحظة وقد كان هذا المزمور نبوءة مفصلة ودقيقة عن الآلام التى يعانيها على الصليب. إذ جاء به «إلهى إلهى لماذا تخليت عنى؟.. كل الذين يروننى يستهزئون بى.. قائلين اتكل على الرب فلينجه. لينقذه لأنه سر به.. أحاطت بى ثيران كثيرة..

فغروا أفواههم كأسد مفترس مزمجر. كالماء انسكبت. انفصلت كل عظامى. صار قلبى كالشمع، قد ذاب فى وسط أمعائى. يبست مثل شقفة قوتى ولصق لسانى بحنكى.. أحاطت بى كلاب. جماعة من الأشرار اكتنفتنى. ثقبوا يدى ورجلى. أحصى كل عظامى وهم ينظرون ويتفرسون فى. يقتسمون ثيابى بينهم وعلى لباسى يقترعون (المزمور ٢١ : ١ – ١٧) . وكان السيد المسيح عندما صرخ بهذه العبارة فى قمة ألمه بصفته الإله المتأنس الذى يتمم عمل الفداء. بيد أن هذا ليس معناه أن لاهوته قد فارق ناسوته، وإنما معناه أن اللاهوت لم يتدخل ليخفف من آلام الناسوت حتى يحتمل السيد المسيح فى جسده تلك الآلام كاملة، ليتم بذلك التكفير الكامل عن خطايا البشر، لأنه من أجل ذلك كان الفداء، الذى دبرته الرحمة الإلهية لخلاص البشر.

وإذ قال السيد المسيح فى ضراعته باللغة الآرامية «إيلى إيلى»، أى «إلهى إلهى» ظن بعض الواقفين أنه يقول «إيليا إيليا» لتقارب اللفظين. وقد كان إيليا من أشهر أنبياء اليهود. ومن ثم «قالوا: إنه ينادى إيليا.. فقال الباقون .. لننظر هل يأتى إيليا ليخلصه؟» (متى ٢٧ : ٤٧ – ٤٩) . وكان الظلام حين خيم ثلاث ساعات كاملة قد أفزعهم وألجم ألسنتهم. ولكنهم حين انقشع ذلك الظلام وسمعوا السيد المسيح يصرخ هكذا متوجعاً متضرعاً استعادوا ما كانوا قد فقدوه من شجاعتهم. وعادوا إلى ما كانوا قد توقفوا عنه من بذاءاتهم، فراحوا يهزأون به من جديد.

ولم يلبث السيد المسيح بعد ست ساعات من المعاناة الرهيبة أن جف ريقه ولصق لسانه بحنكه كما تقول النبوءة (المزمور ٢١ : ١٥) . ومن ثم جاء فى الإنجيل للقديس يوحنا أنه «بعد ذلك رأى يسوع أن كل شىء قد اكتمل، فلكى يتم قول الكتاب، قال : أنا عطشان. وكان ثمة إناء موضوع ممتلىء خلا، فملأوا إسفنجة بالخل ورفعوها على قصبة من الزوفاء وأدنوها من فمه. فلما ذاق يسوع الخل قال: قد تم كل شىء» (يوحنا ١٩ : ٢٨ – ٣٠) . وهكذا تحققت النبوءة التى تقول على لسانه «يجعلون فى طعامى علقماً وفى عطشى يسقوننى خلا» (المزمور ٦٨ : ٢١) . وبذلك تم العمل الذى جاء من أجله إلى العالم، وتحققت كل النبوءات التى قالها الأنبياء عن آلامه، ولذلك قال «قد تم كل شىء».

وعندئذ، وكانت الساعة قد بلغت التاسعة بالتوقيت اليهودى، أى الثالثة بعد الظهر بالتوقيت الحديث، جاء فى الإنجيل للقديس يوحنا أن السيد المسيح «أمال رأسه وأسلم الروح» (يوحنا ١٩ : ٣٠) . وجاء فى الإنجيل للقديس لوقا أنه عندئذ «صرخ يسوع بصوت عظيم قائلاً: يا أبتاه فى يديك أستودع روحى. وإذ قال هذا أسلم الروح» (لوقا ٢٣ : ٤٦) . ويدل الصوت العظيم الذى نادى به السيد المسيح على أنه ـ على الرغم من ضعف الجسد بسبب كل ماقاساه من الآلام

طوال ست ساعات رهيبة ـ كان قوياً باللاهوت المتحد به، كما يدل على ذلك على أن روحه لم تغتصب منه إغتصاباً كما يحدث لسائر البشر عند موتهم، وإنما قد بذلها بمحض إختياره وإرادته، مقدماً إياها ذبيحة عن خطايا البشر، وفقاً لقوله من قبل «يحبني أبي إذ أبذل نفسي كي أستردها ـ ما من أحد ينتزعها مني، وإنما أبذلها أنا وحدي من ذاتي، فلي سلطان أن أبذلها ولي سلطان أن أستردها» (يوحنا ١٠ : ١٧و١٨) . وإذ أسلم الروح أثبت أنه مات فعلاً بالجسد، للتكفير عن البشر وغفران خطاياهم. لأنه بغير الموت لا تكون مغفرة (العبرانيين ٩ : ١٥و٢٢) . ولأنه بمحض إختياره كما جاء في النبوءات «جعل نفسه ذبيحة إثم» (إشعياء ٥٣ : ١٠) . وقد كان هو الذبيحة الحقيقية التي لم تكن ذبيحة الفصح اليهودي إلا رمزاً لها. إذ قدم نفسه ذبيحة في نفس اليوم الذي تقضي فيه الشريعة بتقديم ذبيحة الفصح. وفي نفس الساعة التي حددتها لذلك، إذ جاء في سفر العدد «كلم الرب موسى في برية سيناء في السنة الثانية لخروجه من أرض مصر في الشهر الأول (وهو شهر أبيب)، قائلاً، وليعمل بنو إسرائيل الفصح في وقته، في اليوم الرابع عشر من هذا الشهر. بين العشاءين تعلمونه في وقته. حسب كل فرائضه وكل أحكامه تعملونه.. فعملوا الفصح في الشهر الأول في اليوم الرابع عشر من الشهر بين العشاءين» (العدد ٩ : ١ – ٤) . وقد كان يوم الجمعة الذي صلب فيه السيد المسيح هو اليوم الرابع عشر من شهر أبيب، الذي أصبح معروفاً بعد السبي بشهر نيسان. وكانت الساعة التي أسلم فيها الروح هي الثالثة بعد الظهر (بالتوقيت الحديث)، التي كانت تقع وفقاً لتقاليد اليهود في الفترة التي كانوا يسمونها «بين العشاءين». وقد اقتبل السيد المسيح الموت كما سبق أن اقتبل الآلام من حيث هو إنسان وليس من حيث هو إله. لأن الإله لا يتألم ولا يموت. وليس معنى ذلك أن لاهوته فارق ناسوته، لأن الاتحاد ظل كاملاً في السيد المسيح بين الناسوت واللاهوت. ولا يمكن إدراك هذه الحقيقة إلا بأن ندرك طبيعة السيد المسيح ومن سائر ما جاء في الكتاب المقدس أن الله في البدء خلق الإنسان كاملاً على صورته ومثاله. ولكن الإنسان تمرد على الله، فاستحق بمقتضى العدل الإلهي الهلاك والموت. بيد أنه إذ كان الله العادل عدلاً مطلقاً، رحيماً أيضاً رحمة مطلقة، شاءت رحمته بالإنسان الذي وهو خليقته وصنعة يديه أن ينقذه من حكم الهلاك الذي أصدره عليه. ولكن إنقاذه لا يمكن أن يتم إلا بالتكفير عن خطيئته. ثم لما كان الإنسان بخطيئته قد فقد طهارته وانتقص من كماله هو وذريته، لم يعد أحد من بني الإنسان جديراً بأن يقبله الله فدية تصلح للتكفير عن خطاياه وخطايا الجنس البشري كله، لأن الفادي الجدير بذلك ينبغي أن يكون طاهراً كما كان الإنسان الأول في البدء طاهراً وكاملاً. ولذلك دبرت رحمة الله وسيلة تتحقق بها عدالته، كما تتحقق بها في نفس الوقت رحمته، وهي أن ينزل بذاته لتتحد طبيعته بطبيعة

الإنسان كى «يجدد الإنسان ويرده إلى رتبته الأولى»، وذلك بأن يقدم نفسه فدية للتكفير عن خطيئة الإنسان الأول وكل ذريته. فكان هذا الإنسان الإله هو السيد المسيح الذى جاء إلى العالم متجسداً من روح القدس ومن مريم العذراء، وقدم نفسه فدية ومات على الصليب لتحقيق هذه الغاية الإلهية الرحيمة السامية. ومن ذلك ندرك أن الاتحاد بين الإنسان والإله فى السيد المسيح اتحاد كامل وتام، اتحاد لا يقبل الانفصال بين اللاهوت والناسوت.

ولعل مما يلقى الضوء على طبيعة السيد المسيح، تلك الأمور الغريبة الرهيبة التى وقعت بمجرد أن أسلم الروح، والتى لا تقل غرابة ولا رهبة عن ذلك الظلام الكثيف المخيف الذى خيم ثلاث ساعات كاملة فى وقت آلامه، إذ جاء في الإنجيل للقديس متى أن «حجاب الهيكل قد انشق نصفين من أعلاه إلى أسفله. والأرض تزلزلت والصخور تشققت والقبور تفتحت. وقد قام كثير من أجساد القديسين الراقدين وخرجوا من القبور بعد قيامته ودخلوا المدينة المقدسة وظهروا لكثيرين» (متى ٢٧ : ٥١ – ٥٣). وقد كان حجاب الهيكل هو الستر الفاصل فى الهيكل بين القدس الذى كانت تتم فيه طقوس العبادة اليومية، وبين قدس الأقداس الذى كان فيه تابوت العهد ولوحا الشريعة. وإذ كانوا يعتبرونه مسكن الله لم يكن مسموحاً لأحد بالدخول فيه، إلا لرئيس الكهنة وحده، مرة واحدة فى السنة، عند الاحتفال بيوم الكفارة، كى يرش دم الذبيحة تكفيراً عن خطايا الشعب. وقد كان إنشقاقه فى لحظة موت السيد المسيح يعنى زوال الحجاب الذى كان يفصل بين الله والناس، بعد أن فداهم السيد المسيح بموته مكفراً عن خطاياهم، فلم يعد ثمة حاجة لهذا الطقس الذى كان يقوم به رئيس الكهنة حين يدخل قدس الأقداس ليرش دم الذبيحة في يوم التكفير، إذ لم يكن ذلك إلا مجرد رمز لدم الذبيحة الحقيقية وغفران الخطايا. أما زلزلة الأرض وتشقق الصخور فكان معجزة أعلن الله بها سخطه وغضبه على اليهود الآثمين الظالمين الذين سفكوا دم ذلك البرىء البار. وقد جاء فى النبوءات «أليس من أجل هذا ترتعد الأرض؟ .. ويكون فى ذلك اليوم يقول السيد الرب أنى أغيّب الشمس فى الظهر. وأقتّم الأرض فى يوم نور» (عاموس ٨ : ٨و٩). وذلك لأن عمل الفداء الذى أنجزه السيد المسيح وإن كان ترتيباً إلهياً فإنه لا يعفى اليهود من مسئوليتهم عن الجريمة البشعة التى ارتكبوها بدافع من شرهم ومكرهم وغدرهم وقسوة قلوبهم، ومن ثم لا يعفيهم من سخط الله وغضبه عليهم. وأما قيام الأموات من قبورهم، فتلك معجزة طالما صنع المسيح مثلها فى أثناء حياته على الأرض. فلا عجب أن تحدث عند موته، إعلاناً عن مكانته السمائية، وإثباتاً لقدرته الإلهية، وتأييداً لما سبق أن صنع من معجزات، وتعبيراً عن فرح الأرواح التى كانت محبوسة فى الجحيم، إذ نزل المسيح إليها هناك وبشرها بالإفراج عنها (١ بطرس٣ : ١٩)، (أفسس٤ : ٨–١٠).

وإذ كانت هذه المعجزات خارقة للطبيعة، ولا يمكن إلا أن تكون صادرة عن القدرة الإلهية ذاتها، استولت الرهبة على الحاضرين جميعاً إذ جاء في الإنجيل للقديس متى «أما قائد المائة والذين كانوا معه يحرسون يسوع، فحين رأوا الزلزال وما حدث خافوا خوفاً عظيماً قائلين: حقاً كان هذا هو ابن الله» (متى ٢٧ : ٥٤). وذلك أنهم كانوا من الرومان الوثنيين غير الحاقدين على السيد المسيح، على الرغم من أنهم كانوا مكلفين بقتله. وقد سبق لهم أن سمعوا ضمن الاتهامات التي كان اليهود يوجهونها إليه أنه قال عن نفسه إنه ابن الله. فلما رأوا ذلك الذي حدث عند موته آمنوا بأنه كان صادقاً فيما قال، لأنه لا يمكن أن يحدث مثل هذا عند موت أي إنسان عادي. بل إنه جاء في الإنجيل للقديس لوقا أن «كل الجموع الذين احتشدوا عند هذا المشهد، لما رأوا ما حدث رجعوا وهم يقرعون صدورهم» (لوقا ٢٣ : ٤٨). فعلى الرغم من أنهم كانوا من اليهود، أيقنوا عندئذ أن هذا الذي قتلوه لم يكن إلا المسيح ابن الله الذي تنبأ بمجيئه أنبياؤهم. وقد أفاقوا الآن إلى أنفسهم، وشعروا بالندم العنيف، حتى لقد راحوا يقرعون صدورهم. بيد أننا نعلم مما حدث بعد ذلك أن أولئك الذين ندموا من اليهود لم تكن عداواتهم للسيد المسيح إلا بتأثير أعدائه الألداء من رؤساء الكهنة والكتبة والفريسيين والصدوقيين وغيرهم من أعضاء مجلس السنهدريم. وأما هؤلاء الأعداء الألداء الذين سبق لهم أن رأوا المعجزات الإلهية الكثيرة التي صنعها السيد المسيح في أثناء حياته على الأرض، ومع ذلك لم يؤمنوا به، فإنهم حتى بعد أن رأوا هذه المعجزات التي حدثت عند موته، لم يؤمنوا به كذلك، غيرة منه وحسداً له وحقداً عليه وخوفاً على مناصبهم مما قد يؤدي إليه إيمان الشعب به والتفافه حوله. ومن ثم أغمضوا أعينهم، وأغلقوا آذانهم وأوصدوا قلوبهم وعقولهم وظلوا على عنادهم وغلظة أكبادهم، فصدق فيهم ماسبق أن وصفهم به السيد المسيح، إذ قال إنهم «مبصرون ولا يبصرون، وسامعون ولا يسمعون، ولا هم يفهمون. ففيهم قد تمت نبوءة إشعياء القائلة: بالسمع تسمعون ولا تفهمون، وبالبصر تبصرون ولا ترون، لأن قلب هذا الشعب قد غلظ وآذانهم قد ثقل سمعها، وعيونهم قد أغمضوها لئلا يبصروا بعيونهم أو يسمعوا بآذانهم أو يفهموا بقلوبهم، أو يرجعوا إليّ فأشفيهم» (متى ١٣ : ١٣ – ١٥). ومن ثم فإن أولئك القساة المجرمين الضالين المضللين، بعد أن رأوا مباشرة ما حدث، بدلاً من أن يؤوبوا إلى أنفسهم، ويتوبوا عن شرهم، أوغلوا في قسوتهم وإجرامهم، وتمادوا في ضلالهم وتضليلهم، وأضمروا مزيداً من التنكيل بالسيد المسيح والتمثيل به حتى بعد موته. فتظاهروا - في ريائهم المعهود ونفاقهم الوقح - بمحافظتهم الشديدة على تنفيذ أحكام الشريعة. وقد قضت الشريعة بأنه «إذا كان على إنسان خطيئة حقها الموت فقتل وعلقته

على خشبة فلا تبت جثته على الخشبة، بل تدفنه في ذلك اليوم، لأن المعلق ملعون من الله، فلا تنجس أرضك التي يعطيك الرب إلهك» (التثنية ٢١: ٢٢).

وقد كان أعداء السيد المسيح يخشون أن يكون مازال على قيد الحياة، لأن المصلوب لم يكن يموت في العادة إلا بعد وقت طويل قد يمتد إلى بضعة أيام، حتى لقد كان يحدث أن بعض المحكوم عليهم يعطون أحياناً رشوة للقائمين بحراستهم ليعجلوا بقتلهم كي يتخلصوا مما يعانون من آلام رهيبة، ومن ثم أراد أعداء السيد المسيح أن يتأكدوا من أنهم قد قضوا عليه فعلاً وتخلصوا منه إلى الأبد. فتعللوا بما قضت به شريعتهم، ولا سيما في ذلك اليوم الذي كان عيداً عظيماً لديهم. متظاهرين بأنهم لا يريدون أن ينجسوا قداسته ببقاء المصلوبين معلقين على صلبانهم بعد حلول الظلام، وهم يستعدون للاحتفال بذلك العيد قبل إنقضاء النهار. ومن ثم جاء في الإنجيل للقديس يوحنا: «وإذ كان ذلك هو يوم الاستعداد، ولئلا تبقى الأجساد على الصليب يوم السبت، لأن يوم السبت هذا كان عظيماً، طلب اليهود إلى بيلاطس أن يكسروا سيقانهم ويرفعوهم. فجاء الجند وكسروا ساقي أول اللذين كانا مصلوبين معه. ثم كسروا ساقي الآخر. وأما يسوع فلما جاءوا إليه وجدوه قد مات، فلم يكسروا ساقيه. إلا أن واحداً من الجند طعن جنبه بحربة. فخرج منه على الفور دم وماء» (يوحنا ١٩: ٣١ - ٣٤). ونرى من ذلك أن أعداء السيد المسيح كانوا يهدفون مما دبروه - وهم يتظاهرون كذباً بحرصهم على تنفيذ أحكام شريعتهم - إلى الإجهاز عليه بكسر عظام ساقيه إن كان لا يزال حياً. أو بالتأكيد على أي حال من أنه قد مات. ولكنهم بدلاً من أن ينالوا بذلك من السيد المسيح، أظهروا مجده، إذ أعلنوا عن حقيقة شخصيته. لأنهم حققوا النبوءة التي تقول عنه إنه «يحفظ جميع عظامه، واحد منها لا ينكسر» (المزمور ٣٣: ٢٠)، مما يدل على أنه هو ذبيحة الفصح الحقيقية. التي لم يكن ذبح خروف الفصح في العهد القديم إلا رمزاً لها. وقد كانت الشريعة تنهي عن كسر أي عظم منه بعد ذبحه. إذ جاء في سفر العدد «وكلم الرب موسى قائلاً: كلم بني إسرائيل قائلاً.. فليعمل الفصح للرب. في الشهر الثاني في اليوم الرابع عشر. بين العشاءين يعملونه، على فطير ومرار يأكلونه. لا يبقوا منه إلى الصباح. ولا يكسروا عظماً منه» (العدد ٩: ٩ - ١٢). كما أن أعداء السيد المسيح حققوا بذلك النبوءة التي تقول عنه «فينظرون إليّ أنا الذي طعنوه وينوحون» (زكريا ١٢: ١٠). فضلاً عن أنهم بتدبيرهم الإجرامي الذي أرادوا به أن يقضوا عليه وعلى إيمان الناس به. قد خدموا في الحقيقة رسالته. وقدموا برهاناً يوطد إيمان الناس به، إذ أقاموا الدليل على أنه مات فعلاً على الصليب. وقد حرمهم ذلك من فرية أخرى كانوا بالتأكيد سيفترونها عليه بعد أن قام في اليوم الثالث من قبره حياً. إذ كانوا سيزعمون أنه لم يكن قد مات على الصليب. وإنما كان

قد أغمى عليه فحسب، ثم حين أفاق وهو فى القبر خرج منه. ونلاحظ هنا أنه حين طعنه قائد المائة فى جنبه ليستوثق من موته جرى واندفق من جنبه دم وماء، مما يدل على أنه فيما كان قد مات بالجسد فعلاً كان حياً بلاهوته المتحد بجسده، حقاً لقد فارقت الروح الإنسانية الجسد، ومع ذلك لم يفارق اللاهوت لا الروح التى أسلمها على الصيب، ولا الجسد الذى مازال معلقاً على الصليب. فكانت لهذه الظاهرة الفريدة التى لا تحدث لإنسان عادى دلالتها اللاهوتية، كبرهان دامغ على أن لاهوته لم يفارق ناسوته على الصليب. أما الموت بالنسبة للسيد المسيح، فكان بمفارقة الروح الإنسانية للجسد، وأما اللاهوت فظل متحداً بكل من الروح والجسد. واحتفاء بهذه الظاهرة نخلط الماء بالخمر فى كأس سر الشكر. وإلى ذلك يشير القديس يوحنا فى رسالته الأولى قائلاً «هذا هو يسوع المسيح الذى أتى بالماء والدم، لا بالماء فقط، بل بالماء والدم» (١ . يوحنا ٥ : ٦) .

وقد ختم القديس يوحنا وصفه لهذا المشهد الذى رآه بنفسه بأن قال إن «الذى أبصر ذلك قد شهد وشهادته حق، وهو يعلم أنه قال الحق لتؤمنوا أنتم. وقد كان هذا ليتم ماجاء فى أحد أسفار الكتاب: إن عظماً منه لن يكسر. كما جاء فى سفر آخر: سينظرون إلى الذى طعنوه» . (يوحنا ١٩ : ٣٥ – ٣٧) .

١٩ : ٣٨ – ٤٢

تكفين السيد المسيح ودفنه :

وكان المساء قد اقترب حين أسلم السيد المسيح الروح فى الساعة الثالثة بالتوقيت الحديث من بعد ظهر يوم الجمعة. وقد كان ينبغى دفن جثمانه قبل إنتهاء نهار الجمعة الذى كانوا يسمونه يوم الاستعداد لأنه بإنتهاءه وحلول الظلام يبدأ يوم السبت الذى لا يجوز وفقاً للشريعة القيام بأى عمل فيه على الإطلاق، ولاسيما أن ذلك السبت بالذات كان يوماً عظيماً لدى اليهود لأنه كان بداءة عيد الفصح فى ذلك العام. ومن ثم «فى المساء جاء رجل غنى من الرامة يدعى يوسف» (متى ٢٧ : ٥٧) . «وهو من الأعيان والأعضاء البارزين بالمجلس» الذى هو مجلس السنهدريم (مرقس ١٥ : ٤٣) . «وكان رجلاً صالحاً باراً. ولم يكن راضياً عن رأيهم أو عملهم» (لوقا ٢٣ : ٥٠و٥١) . «وكان تلميذاً ليسوع وإن يكن خفية لخوفه من اليهود» (يوحنا ١٩ : ٣٨) . «وكان هو أيضاً ينتظر ملكوت الله، واجترأ فدخل على بيلاطس البنطى. وطلب جسد يسوع. فتعجب بيلاطس من أنه مات فعلاً وانتهى. فلما أكد له قائد المائة ذلك، وهب الجسد ليوسف. فاشترى يوسف كتاناً وأنزل الجسد ولفه فى الكتان» (مرقس ١٥ : ٤٣ – ٤٦) . وقد جاء فى

الإنجيل للقديس يوحنا أن يوسف الرامي «طلب إلى بيلاطس أن يأخذ جسد يسوع. فأمر له بيلاطس بذلك، فجاء وأخذ جسد يسوع. وجاء أيضاً نيقوديموس. الذي كان قد أتى من قبل إلى يسوع ليلاً، وكان يحمل حنوطاً من المر والصبر، يزن نحو مائة رطل. وأخذا جسد يسوع وكفناه بلفائف من الكتان مع الأطياب على عادة اليهود في التكفين. وكان في الموضع الذي صلبوه فيه بستان، وفي البستان قبر جديد لم يوضع فيه من قبل أحد قط، فوضعوا يسوع فيه بسبب الاستعداد عند اليهود، لأن القبر كان قريباً» (يوحنا ١٩ : ٣٨ – ٤٢). ولم يكن من الممكن دفنه في قبر بعيد، لأن ذلك يتطلب وقتاً، وكان يوشك أن يحل المساء السابق ليوم السبت الذي لا يجوز فيه القيام بأي عمل حتى دفن الموتى. وكان القبر الذي دفناه فيه مملوكاً ليوسف الرامي، وكان قد نحته في الصخرة، (متى ٢٧ : ٦٠). (مرقس ١٥ : ٤٦). وبذلك تحققت النبوءة القائلة عنه أنه «جعل مع الأشرار قبره، ومع غني عند موته» (إشعياء ٥٣ : ٩). وبعد أن قام يوسف مع نيقوديموس بإسجاء الجسد «دحرج حجراً كبيراً على باب القبر» (متى ٢٧ : ٦٠)، (مرقس ١٥ : ٤٦). «وكان اليوم هو الجمعة، وقد بدأ السبت. وتبعته النسوة اللاتي كن قد أتين معه من الجليل فرأين القبر، وشهدن جسده وهو يسجى فيه، ثم رجعن وأعددن عطوراً وأطياباً. ثم استرحن في السبت عملاً بالوصية» (لوقا ٢٣ : ٥٤ – ٥٦). وكانت منهن «مريم المجدلية ومريم أم يوسي، فرأتا المكان الذي أسجي فيه» (مرقس ١٥ : ٤٧).

«وفي الغد، أي بعد الاستعداد، اجتمع رؤساء الكهنة والفريسيون عند بيلاطس قائلين: إننا نتذكر يا سيدنا أن ذلك المضل قال وهو حيٌ: إني بعد ثلاثة أيام أقوم. فأصدر أمرك بحراسة محكمة حتى اليوم الثالث، لئلا يأتي تلاميذه ليلاً ويسرقوه ويقولوا للشعب إنه قام من بين الأموات، فتكون الضلالة الأخيرة شراً علينا من الأولى» (متى ٢٧ : ٦٢ – ٦٤). وهكذا بلغ الجزع والفزع من السيد المسيح لدى أعدائه حد الجنون. فلم يكن طلبهم هذا الذي تقدموا به إلى بيلاطس ناشئاً عن أنهم حقاً يخشون من أن يأتي تلاميذه ويسرقوه، لأنهم كانوا موقنين كل اليقين أن تلاميذه من الضعف والتخاذل والجبن حينذاك بحيث لا يمكن أن يأتوا ويسرقوا جثمانه من القبر بعد أن رأوا كيف تملكهم الرعب حين قبض اليهود عليه فهربوا واختبأوا جميعاً، ولم يجرؤوا حتى على الوقوف بجانبه وهو مذبوح على الصليب. فلم يكن من المعقول أن تهبط عليهم الشجاعة والجرأة فجأة إلى درجة أن يتصدوا لتحدي أولئك الطغاة البغاة المفترين المفترسين الذين كانوا هم رؤساء اليهود وكانت في يدهم كل القوة والسطوة والسلطان، في حين كانوا هم بسطاء وودعاء لا سلاح في يدهم ولا قوة لهم ولا سطوة ولا سلطان. وإنما كان ذلك الطلب الذي تقدم به أعداء السيد المسيح ناشئاً في الحقيقة عن أنهم كانوا يخشون

بالفعل أن يقوم من بين الأموات كما سبق أن قال. لأنهم طالما رأوا من معجزاته المذهلة ومن قدرته الإلهية الهائلة التي يتحكم بها في كل شيء تحكم الإله القادر على كل شيء. ولو أنهم في مغالطتهم حتى لأنفسهم وصفوه أمام بيلاطس بأنه مضل. ومع ذلك اعترفوا بأن قيامته التي وصفوها - وهم يغالطون أنفسهم كذلك - بأنها ضلالة ستكون شراً عليهم من كل ما سبق أن قاله وفعله. لأنه بقيامته التي كانوا يتوقعونها ويفزعون منها ستؤدي إلى إنهيار كل إفتراءاتهم ضده. وبالتالي ستؤدي إلى إيمان الشعب به إيماناً أقوى من إيمانه الأول. وبذلك تزول دولتهم وتزول سطوتهم، فيكون في ذلك القضاء عليهم القضاء الأخير. وقد كان هذا هو الذي يخشونه منذ البدء ويسعون سعي الوحوش الضارية إلى منعه، والحيلولة بكل ما في وسعهم من مكيدة ومؤامرة، ومن حيلة ووسيلة، ومن جريمة دنيئة أثيمة، للحيلولة دون وقوعه. بيد أن بيلاطس وقد فطن إلى نفاقهم وحطة أخلاقهم، أجابهم في كبرياء وازدراء قائلاً «إن عندكم حراسا فاذهبوا واحرسوه كما يبدو لكم. فذهبوا وأحكموا إغلاق القبر، وختموه وأقاموا الحراس عليه» (متى ٢٧ : ٦٥و٦٦). ولكنهم كانوا فيما فعلوا - وقد فقدوا عقولهم - بعيدين كل البعد عما اشتهروا به من مكر ودهاء وذكاء شيطاني. لأنهم أضاعوا بذلك على أنفسهم فرصة الزعم إذا قام، بأنه لم يكن قد مات على الصليب، وإنما كان فاقداً الوعي، فلما استرد وعيه خرج من القبر الذي لا يقوم على حراسته أحد. كما أضاعوا على أنفسهم فرصة الزعم بأن تلاميذه - حتى إن كان قد مات بالفعل - قد جاءوا خفية وسرقوا جثته كي يشيعوا بين الناس أنه قام، لأن القبر، فضلاً عن أنه كان مغلقاً بحجر ضخم تصعب زحزحته، أصبح الآن مختوماً، يقوم على حراسته جنود أشداء مدججون بالسلاح، بحيث لا يجرؤ أحد على إقتحامه، أو حتى على مجرد الاقتراب منه. فكان الذي فعلوه على عكس ماهدفوا إليه تماماً. لأنهم أثبتوا أن قيامة السيد المسيح عندما قام كانت قيامة حقيقية، لم يتركوا هم سبيلاً إلى التشكيك فيها أو المماراة بشأنها.

الفصل العشرون

٢٠ : ١ – ١٨

قيامة السيد المسيح وظهوره للتلاميذ:

وفى فجر يوم الأحد، وهو اليوم الثالث من موت السيد المسيح على الصليب ودفنه في القبر في مساء يوم الجمعة، وقعت المعجزة الإلهية الكبرى التى طالما تنبأ بها الأنبياء، وطالما أنبأ بها هو تلاميذه، إذ كما أسلم روحه بإرادته على الصليب، استردها مرة أخرى بإرادته كذلك وفقاً لقوله «أبذل نفسي كي أستردها. مامن أحد ينتزعها مني، وإنما أبذلها أنا وحدى من ذاتي. فلي سلطان أن أبذلها ولي سلطان أن أستردها» (يوحنا ١٠ : ١٧و١٨). وبسلطانه هذا الذي هو سلطان الله ذاته المتحد به إتحاداً كاملاً في جوهر الألوهية، أعاد إلى جسده الحياة بعد ثلاثة أيام كان الجسد أثناءها راقداً في القبر، فتحقق بذلك قول النبوءة «في اليوم الثالث يقيمنا فنحيا معه» (هوشع ٦ : ٢). كما تحقق بذلك قوله هو لتلاميذه «إن ابن الإنسان سوف يسلم إلى أيدى الناس فيقتلونه وفي اليوم الثالث يقوم» (متى ١٧ : ٢٢و٢٣). وقد ظهر السيد المسيح بعد قيامته لتلاميذه ولكثيرين غيرهم. وقد وصف التلاميذ فيما كتبوه في الإنجيل وقائع قيامته وظهوره، كما شهدوها بأعينهم، بكل دقة وأمانة وصدق، حتى لقد بلغ من دقتهم وأمانتهم وصدقهم أنهم اعترفوا فيما كتبوه بأنهم لم يكونوا إلى ذلك الحين يصدقون أنه سيقوم، وبأن الشك ظل يراود بعضهم حتى بعد أن سمع من الباقين أنه قام وأنهم رأوه. ولئن كان ذلك الاعتراف يتضمن الإقرار بعدم إيمانهم به إيماناً حقيقياً حتى ذلك الحين بعد كل ما سمعوا من تعاليمه ورأوا من معجزاته، مع أنهم كانوا هم أقرب الناس إليه وألصقهم به وأعلمهم بما قال وما فعل، إنهم لبساطة قلوبهم وسلامة طويتهم والتزامهم الحقيقة الكاملة فيما كتبوه، لم يجدوا غضاضة فى ذلك الاعتراف وإن كان فيه مساس بهم، بل لعلهم وجدوا فى ذلك الاعتراف وسيلة إلي الإقرار بخطئهم، والتعبير عن ندمهم، والتكفير عن قصورهم عن إدراك حقيقة شخصية معلمهم، وتقصيرهم في الإيمان بكل ما قاله لهم ـ بعد أن عرفوه حق المعرفة ـ إيماناً لا يصح ولا يليق أن تخامره الريبة أو تتطرق إليه أي بادرة من بوادر الشك. ومن ثم فإننا ننقل فيما يلى نقلاً، ماكتبوه بحذافيره، وبأسلوبه البسيط البريء البعيد كل البعد عن أى تصنع أو إفتعال.

وقد جاء في البشائر التي كتبها تلاميذ السيد المسيح أنه بعد أن انقضى يوم السبت الذي تقضي الشريعة بالامتناع فيه عن أي عمل: «مضت مريم المجدلية ومريم أم يعقوب، وسالومي، واشترين طيباً ليأتين ويضمخنه. ثم عند فجر أول الأسبوع (وهو يوم الأحد) جئن إلى القبر مع طلوع الشمس. وكن يتساءلن فيما بينهن قائلات: من سيدحرج لنا الحجر عن باب القبر؟ بيد أنهن تطلعن فإذا الحجر مدحرج على الرغم من أنه كان ضخماً جداً» (مرقس ١٦: ١ – ٤). وذلك أنه كان «زلزال عظيم قد وقع، إذ نزل ملاك الله من السماء وجاء، ودحرج الحجر عن باب القبر، ثم جلس عليه، وكان منظره كالبرق ولباسه أبيض كالثلج، فمن شدة الخوف منه ارتعد الحراس وصاروا كالأموات» (متى ٢٨: ٢ – ٤). «ولما دخلن القبر رأين في الجانب الأيمن شاباً (كان في الواقع ملاكاً) متسربلاً بحلة بيضاء فتملكهن الخوف. فقال لهن: لا تخفن. فأنتن تطلبن يسوع الناصري المصلوب، ولكنه ليس هنا، فقد قام، وهذا هو المكان الذي كان راقداً فيه. فاذهبن وقلن لتلاميذه ولبطرس إنه سيسبقكم إلى الجليل. فهناك ترونه كما قال لكم. فخرجن مسرعات وهربن من القبر وهن يرتعدن، وقد تملكتهن الدهشة، وكن خائفات، فلم يقلن لأحد شيئاً» (مرقس ١٦: ٦ – ٨). وقد خص السيد المسيح بطرس بالذكر ليشجعه مبيناً له أنه – وإن كان قد أنكره وتنكر له في ساعة محنته – قد قبل توبته، وغفر له خطيئته التي غسلها بدموعه، وأنه – على الرغم مما أبدى من الضعف البشري – لا يزال يعتبره من أكثر تلاميذه غيرة وإخلاصاً، فلا يمنعه الخجل أو الوجل من أن يذهب للقائه بعد قيامته مع بقية زملائه.

وقد جاء في الإنجيل للقديس يوحنا أنه «في يوم الأحد أول الأسبوع جاءت مريم المجدلية إلى القبر باكراً، وكان الظلام لا يزال مخيماً، فرأت أن الحجر قد رفع عن باب القبر، فركضت وجاءت إلى سمعان بطرس، وإلى التلميذ الآخر الذي كان يسوع يحبه (وهو القديس يوحنا الحبيب) وقالت لهما: قد أخذوا سيدنا من القبر ولا أعلم أين وضعوه. فخرج بطرس والتلميذ الآخر ومضيا إلى القبر، وكانا يركضان معاً، ولكن التلميذ الآخر سبق بطرس فوصل قبله إلى القبر وتطلع إلى الداخل فرأى الأكفان موضوعه ولكنه لم يدخل. ثم جاء سمعان بطرس يتبعه ودخل القبر، فرأى الأكفان موضوعة، وأما المنديل الذي كان على رأس يسوع فلم يكن موضوعاً مع الأكفان، وإنما كان مطوياً في مكان على حدة. ثم دخل أيضاً التلميذ الآخر الذي جاء أولاً إلى القبر ورأى فآمن. لأنهم لم يكونوا بعد يدركون معنى قول الكتاب إنه ينبغي أن يقوم من بين الأموات. وبعد ذلك مضى التلميذان عائدين إلى حيث كانا. وأما مريم فكانت واقفة في الخارج

عند القبر تبكى. وفيما هى تبكى تطلعت إلى داخل القبر، فرأت ملاكين فى ثياب بيضاء جالسين حيث كانا جسد يسوع موضوعاً، أحدهما عند رأسه والآخر عند قدميه، فقالا لها: يا امرأة لماذا تبكين؟. قالت لهما: إنهم أخذوا سيدى ولا أعلم أين وضعوه. وإذ قالت هذا التفتت إلى الوراء فرأت يسوع واقفاً ولم تعرف أنه يسوع. فقال لها يسوع: أيتها السيدة لماذا تبكين؟ عمن تبحثين؟ فظنت هى أنه البستانى، فقالت له: يا سيدى إن كنت أنت الذى حملته. فقل لى أين وضعته وأنا آخذه. قال لها يسوع: يا مريم. فإلتفتت وقالت له بالعبرانية: ربونى، أى يا معلم. فقال لها يسوع: لا تمسكى بى هكذا فإنى لم أصعد بعد إلى أبى. ولكن اذهبى إلى إخوتى وقولى لهم إننى أصعد إلى أبى الذى هو أبوكم، وإلهى الذى هو إلهكم» (يوحنا ٢٠: ١ – ١٧).

إن مريم المجدلية فى ذهولها لم تعرفه حين رأته فى أول الأمر، ولم تدرك أنه هو السيد المسيح إلا حين خاطبها بصوته المعروف لها وبالطريقة التى عهدتها منه. وإذ عرفته اندفعت نحوه وتشبثت به تشبثاً شديداً، وكأنها خافت أن يختفى عنها مرة أخرى، فطمأنها مقرراً لها أنه لن يصعد إلى أبيه الآن، أى أنه سيبقى معهم بعض الوقت قبل صعوده، وأوصاها أن تذهب إلى تلاميذه الذين شاء تواضعه ومحبته لهم أن يدعوهم إخوته، لتخبرهم بقيامته من بين الأموات، وبأنه سيصعد إلى أبيه السماوى الذى هو أبوهم وإن كان بمعنى آخر، لأن بنوة السيد المسيح لله الآب هى بنوة خاصة به وحده لا يشاركه فيها أحد من البشر، وأما التلاميذ فإنهم أبناء الله بإعتبارهم خليقته، وبالتبنى بالمعمودية. كما أن أباه السماوى هو إلهه بصفته الناسوتية، وأما بصفته اللاهوتية فهو متحد به إتحاداً كاملاً وفى كينونة واحدة معه، وإلهه هو اللاهوت المتحد به والكائن معه. وأما بالنسبة للتلاميذ فإن الله الآب هو إلههم باعتباره سيدهم وراعيهم وباعتبارهم عباده ورعيته.

ونستنبط مما جاء فى الإنجيل للقديس متى أن مريم المجدلية قبل أن تخبر التلاميذ بما رأت وسمعت، ذهبت مسرعة وأخبرت السيدة العذراء مريم التى كانت أكثر الناس فجيعة فى ابنها ولوعة عليه. فجاءتا معاً ورأتا الملاك الذى كان عند باب القبر فقال لهما «لا تخافا فإنى أعلم أنكما تطلبان يسوع المصلوب. إنه ليس هنا. فقد قام كما كان قد قال، فهلما انظرا الموضع الذى كان الرب راقداً فيه، واذهبا سريعاً وأخبرا تلاميذه بأنه قد قام من بين الأموات. وهاهوذا سيسبقكم إلى الجليل فهناك ترونه. هاأنذا قد قلت لكما. فخرجتا مسرعتين من القبر بخوف وفرح

عظيم، وركضتا لتخبرا تلاميذه. وإذا يسوع قد لاقاهما وقال: السلام لكما، فتقدمتا وتشبثتا بقدميه وهما تسجدان له. فقال لهما يسوع: لا تخافا، اذهبا وقولا لإخوتي أن يذهبوا إلى الجليل وهناك سيرونني» (متى ٢٨: ٥ – ١٠).

كما نستنبط مما جاء في الإنجيل للقديس لوقا أن مريم المجدلية أسرعت فأخبرت باقي النسوة اللاتي كن قد جئن مع السيد المسيح من الجليل، فأتين إلى القبر «ودخلن فلم يجدن جسد الرب يسوع. وفيما كن متحيرات في ذلك، إذا برجلين قد وقفا بهن في ثياب براقة (كانا في الواقع ملاكين). وإذ إنتابهن الخوف ونكسن وجوههن إلى الأرض قالا لهن: لماذا تطلبين الحي بين الأموات؟. إنه ليس هنا، وإنما قد قام. اذكرن ما كلمكن به وهو بعد في الجليل، قائلاً إن ابن الإنسان ينبغي أن يسلم إلى أيدي أناس خطاة ويصلب وفي اليوم الثالث يقوم. فتذكرن كلامه. وعدن من القبر وأخبرن الأحد عشر الباقين جميعاً بهذا كله. وكانت مريم المجدلية ويوانا ومريم وأم يعقوب، ومن كن معهن من النسوة الأخريات هن اللاتي قلن ذلك للرسل» (لوقا ٢٤: ٣ – ١٠). وعلى الرغم من أن مريم المجدلية - كما جاء في الإنجيل للقديس يوحنا - جاءت وأخبرت التلاميذ قائلة: «إني رأيت الرب، وإنه قال لها ذاك القول» (يوحنا ٢٠: ١٨). فإن التلاميذ مع ذلك ظلوا مرتابين «فبدا لهم كلامهن هذا كالهذيان ولم يصدقوهن» (لوقا ٢٤: ١١). «وقد كانوا ينوحون ويبكون» (مرقس ١٦: ١٠).

ويقول القديس بطرس السدمنتي في كتابه «القول الصحيح في آلام السيد المسيح»: «إذا تصفحت الأناجيل تصفحاً شافياً وجدت أن مريم المجدلية جاءت إلى القبر خمس دفعات:

- الأولى مع السيدة مريم (العذراء) عشية (مساء) السبت التي هي ليلة الأحد (متى ٢٨: ١ – ١١)

- والثانية سحراً كما قال يوحنا (يوحنا ٢٠: ١ – ٨).

- و الثالثة مع سمعان ويوحنا (يوحنا ٢٠: ١ – ١١).

- والرابعة مع الجليليات (لوقا ٢٣: ٥٥و٥٦)، (٢٤: ١ – ١١).

- والخامسة مع السيدة (العذراء مريم) وسالومي (مرقس ١٦: ١، ٢).

- أما السيدة (العذراء مريم) فجاءت ثلاث دفعات.

- الأولى مع مريم المجدلية (متى ٢٨ : ١) .

- والثانية مع الجليليات (لوقا ٢٤ : ١ – ١١) .

- والثالثة مع سالومى (مرقس ١٦ : ١ – ٨) .

وقد جاء في الإنجيل للقديس لوقا أنه «كان إثنان من تلاميذه منطلقين في ذلك اليوم إلى قرية تبعد عن أورشليم نحو ستين غلوة، اسمها عمّاوس. وكانا يتحدثان معاً عن هذه الأحداث كلها. وفيما هما يتطارحان الكلام ويتناقشان. اقترب يسوع نفسه منهما. وسار معهما. ولكنهما كان قد أُخفي عن أعينهما لكي لا يعرفاه. فقال لهما: ماهذا الكلام الذى تتطارحانه؟ فوقفا مكتئبين. ثم أجاب أحدهما وكان اسمه كليوباس. وقال له: أأنت المتغرب الوحيد في أورشليم الذى لا يعلم بالأمور التى حدثت هناك فى هذه الأيام؟ فقال لهما: أي أمور؟ قالا له: تلك المختصة بيسوع الناصرى. الذى كان نبياً مقتدراً في الفعل والقول لدي الله وكل الشعب. وكيف أن رؤساء الكهنة وحكامنا قضوا عليه بالموت وصلبوه. وقد كنا نرجو أن يكون هو المزمع أن يخلص إسرائيل. ولكن مع ذلك كله فإن هذا هو اليوم الثالث منذ أن حدث ذلك. غير أن بعض النسوة من جماعتنا قد أدهشننا، إذ ذهبن باكراً إلى القبر، فلم يجدن جسده. وقد جئن قائلات إنهن رأين منظر ملائكة قالوا إنه حيّ. وقد مضى بعض الذين كانوا معنا إلى القبر فوجدوا كما قالت النسوة. أما هو فلم يروه. فقال لهما: أيها الغبيان والبطيئا القلب فى الإيمان بكل ما نطقت به الأنبياء، أما كان ينبغى أن يكابد المسيح هذه الآلام ثم يدخل إلى حيث مجده؟ ثم أخذ يفسر لهما مبتدئاً من موسى ومن جميع الأنبياء الأمور المختصة به فى كل الأسفار المقدسة، حتى إذا اقتربوا من القرية التى كانا يقصدان إليها، بدا كما لو كان متجهاً إلى مكان أبعد، فتشبثا به فى قوة قائلين: امكث معنا، لأنه حان المساء وقد انقضى النهار، فدخل ليمكث معهما. ولما جلس معهما لتناول الطعام أخذ الخبز وباركه وقسمه وناولهما، فانفتحت أعينهما وعرفاه. وعندئذ اختفى عنهما، فقال أحدهما للآخر: أما كان القلب مضطرماً فينا وهو يكلمنا فى الطريق ويوضح لنا الأسفار المقدسة؟. وقاما على الفور ورجعا إلى أورشليم فوجدا الأحد عشر والذين معهم مجتمعين.. فأخبراهم بما حدث فى الطريق وكيف عرفاه عندما قسَّم الخبز» (لوقا ٢٤ : ١٣ – ٣٥) . «فلم يصدقوا هذين أيضاً» (مرقس ١٦ : ١٣) .

ظهور المسيح للتلاميذ مجتمعين :

وفي مساء ذلك اليوم الذي قام فيه مخلصنا من بين الأموات، وهو الأحد أول أيام الأسبوع. وكانت الأبواب مغلقة حيث كان التلاميذ مجتمعين خوفاً من اليهود. جاء مخلصنا ووقف في وسطهم وقال لهم: السلام لكم، (يوحنا ٢٠ : ١٩) . وقد جاء في الإنجيل للقديس لوقا أنهم رأوه «فقزعوا وارتعبوا، وقد ظنوا أنهم يرون روحاً. فقال لهم: ما بالكم مضطربين. ولماذا تثور شكوك في قلوبكم؟ انظروا إلى يديّ وإلى قدميّ. إني أنا هو بنفسي. جسوني وتحققوا، فإنه ليس للروح لحم ولا عظام كما ترون لي. وفيما كان يقول هذا أراهم يديه وقدميه. وإذ كانوا لا يزالون غير مصدقين أنفسهم من فرط الفرح والدهشة قال لهم: أعندكم هنا ما يؤكل؟ فقدموا له بعضاً من السمك المشوي وشهد العسل. فأخذ وأكل أمامهم، وقال لهم: هذا هو الكلام الذي كلمتكم به وأنا بعد معكم. إذ قلت لكم إنه لابد أن يتم كل ماهو مكتوب عني في شريعة موسى ونبوءات الأنبياء والمزامير. حينئذ فتح أذهانهم ليفهموا الأسفار المقدسة وقال لهم: هكذا هو مكتوب. وهكذا كان ينبغي أن يتألم المسيح ثم يقوم من بين الأموات في اليوم الثالث، وينبغي أن يبشر باسمه بالتوبة ومغفرة الخطايا بين كل الأمم إبتداء من أورشليم. وأنتم شهود لذلك، (لوقا ٢٤ : ٣٦ – ٤٨) . ثم قال لهم كما جاء في الإنجيل للقديس يوحنا «السلام لكم. كما أرسلني الآب. كذلك أرسلكم أنا. قال هذا ثم نفخ في وجوههم وقال لهم: اقبلوا روح القدس. من غفرتم لهم خطاياهم تغفر لهم، ومن أمسكتم خطاياهم عليهم تمسك عليهم. وأما توما أحد الاثني عشر، الذي كان يدعى ديديموس أي التوأم فلم يكن معهم هناك حين جاء إليهم يسوع. فقال له التلاميذ الآخرون: إننا قد رأينا الرب. فقال لهم: إن لم أبصر في يديه أثر المسامير، وأضع في موضع المسامير إصبعي، وأضع يديّ في جنبه لا أؤمن، (يوحنا ٢٠ : ٢١ – ٢٥) .

أما أن السيد المسيح له المجد ينفخ في وجوه تلاميذه، ويقول لهم: «اقبلوا روح القدس»، فهذه النفخة هي نفخة روح القدس.. هي إحدى مواهب الروح القدس التي تعطى مع سر الكهنوت لأصحاب الدرجة الكهنوتية العليا، وهم الأساقفة، وبها ينالون سلطان الحل والعقد للخطايا، ويصير لهم حق التصرف في منح الحل والعقد بصفتهم «وكلاء» لله (متى ٢٠ : ٨)، (٢٤ : ٤٥)، (لوقا١٢ : ٤٢)، (١ كورنثوس ٩ :١٧)، (تيطس١ : ٧) و «وكلاء سرائر الله» (١ كورنثوس٤ : ١) . وليس هناك حق بغير مسئولية، إذ الوكيل مسئول أمام الأصيل، أن يتصرف في حدود

إختصاصاته كأمين مخازن سيده، فلا يصرف شيئاً، ولا يتصرف إلا في حدود السلطة الممنوحة له من سيده، ووفقاً لإرادة سيده الذي أقامه وكيلاً عنه،وسوف يحاسبه عن تصرفه في يوم الحساب، إذ يقول له آنذاك «قدم الحساب عن وكالتك» (لوقا ١٦ : ٢).

على أن الخطايا المقصودة في هذا النص القدسي ليست هي الإساءات الخاصة التي يسيء بها إنسان إلى آخر، إذ من الواضح أن مثل هذه الإساءات لا يحتاج الغفران لها إلى موهبة من مواهب الروح القدس كما صنع السيد المسيح له المجد إذ نفخ في وجوه تلاميذه وقال لهم: «اقبلوا روح القدس. من غفرتم لهم خطاياهم تغفر لهم، ومن أمسكتموها عليهم تُمسك عليهم». ولاشك أن هذه النفخة هي منحة من قبل السيد المسيح وامتياز بسلطان إلهي، يملك الممنوح له أن يحل ويعقد، أن يغفر ويمسك منحة الغفران عن غير المستحق له، في حين أن الغفران عن الإساءة الخاصة هي فضيلة يمارسها الإنسان المسيحي عن فعل المحبة، ولا يحتاج من يمارسها إلى منحة أو إلى نفخة أو إلى سلطان، إذ قال الرب يسوع «لأنكم إن غفرتم للناس زلاتهم، فإن أباكم السماوي يغفر لكم أنتم أيضاً زلاتكم. أما إن لم تغفروا للناس زلاتهم فلن يغفر لكم أبوكم زلاتكم». (متى ٦ : ١٤و١٥)، (مرقس ١١ : ٢٥و٢٦)، (متى ١٨ : ٢١و٢٢). وقال أيضاً في هذا النوع من الغفران عن الإساءة «اغفروا يُغفر لكم» (لوقا ٦ : ٣٧) «فإن أخطأ إليك أخوك فوبخه. فإن تاب فاغفر له. وإن أخطأ إليك سبع مرات في اليوم، ثم رجع إليك سبع مرات قائلاً: إنني تائب فاغفر له» (لوقا ١٧ : ٣و٤). وإذن فما منحه السيد المسيح له المجد لرسله الأطهار كان هو سلطان الحل والعقد، الغفران والإمساك للخطايا ضد الله وضد الشريعة الإلهية، وهو السلطان الذي يمارسه الكاهن في سر التوبة. فهو يغفر الخطايا للخاطيء التائب إذا تثبت من صدق توبته بما يعرف بعلامات التوبة الصادقة. وهو يمنع الغفران عن الخاطيء المصر على خطيئته، والذي لم يقدم عن خطاياه توبة صادقة. والكاهن كوكيل لله مسئول عن إستخدام هذا السلطان في حدود إرادة سيده ومعطياته «وكما يقوّمها الكاهن تكون» (اللاويين ٢٧ : ١٢)، (العدد ١٨ : ١٦).

ومما هو جدير بالملاحظة أن السلطان الممنوح للرسل ومن هم في حكمهم من أصحاب الدرجة الرسولية العليا في الكنيسة، هنا - وهو سلطان الحل والعقد للخطايا في سر التوبة - شيء جديد مضاف إلى «سلطان الربط والحل» الذي منحه السيد المسيح لتلاميذه كما ورد في الإنجيل للقديس متى (متى ١٦ : ١٩)، (١٨ : ١٨) إذ يقول له المجد لتلاميذه : «الحق أقول لكم إن كل

ماتربطونه على الأرض يربط في السماوات، وكل ماتحلونه على الأرض يحل في السماوات»، إذ أن سلطان «الحل والربط» يشمل سلطان التقنين والتشريع الممنوح للرسل مجتمعين، وبالتالي لمن هم في حكم الرسل، أي المجامع المقدسة، سواء أكانت المجامع المسكونية أو المجامع الإقليمية أو المحلية التي تتألف من أساقفة الكنيسة مجتمعين.. «الله قائم في مجمع الله، في وسط الآلهة يقضي» (المزمور ٨١: ١).

٢٠ : ٢٦ - ٢٩

ظهوره للتلاميذ وتوما معهم:

ثم بعد ثمانية أيام، أي في يوم الأحد التالي للقيامة المجيدة، كان تلاميذ مخلصنا في القاعة العليا لبيت مرقس الرسول في أورشليم، كما جاء في الإنجيل للقديس يوحنا، «كان التلاميذ مجتمعين في الداخل أيضاً (في بيت مرقس الرسول)، وكان توما معهم، فدخل يسوع والأبواب مُغلَّقة ووقف في وسطهم وقال لهم: السلام لكم. ثم قال لتوما: هات إصبعك إلى هنا وأبصر يديَّ، وهات يدك وضعها في جنبي، ولا تكن غير مؤمن بل مؤمناً. فأجاب توما وقال له: ربي وإلهي. قال له يسوع. لأنك رأيتني يا توما آمنت، طوبى للذين لم يروا وآمنوا» (يوحنا ٢٠: ٢٦ - ٢٩).

في هذه المرة وفي المرة السابقة، دخل السيد المسيح له المجد إلى القاعة العليا التي كان يقيم فيها تلاميذه، وأبوابها مُغلَّقة من الداخل بسبب خوفهم من اليهود، الأمر الذي فزعوا له وارتعبوا، لأنهم ظنوه روحاً، أو شبحاً ، أو خيالاً، ولكنه له المجد أثبت لهم بمالا يدع مجالاً للشك أن الجسد الذي ظهر به لم يكن روحاً ولا شبحاً ولا خيالاً، وإنما كان جسداً حقيقياً ومادياً من طبيعة جسدنا. وهو بذاته الجسد الذي صلبه الرومان واليهود، ودقوا فيه المسامير وطعنوه بالحربة في جنبه الأيمن. وقد أراهم بالفعل يديه وقدميه وجنبه، بل إنه طلب منهم أن يقتربوا منه ويلمسوه ويتحققوا بأنفسهم فيصدقوا في يقين أنه قام من بين الأموات بذات جسده الذي صلب ومات ودفن في القبر، وزاد على ذلك بأن طلب من تلميذه توما - الذي شك في شهادة التلاميذ رفاقه وطلب أن يضع إصبعه في أثر المسامير في يديه وقدميه، وأن يضع يده في جنبه، وبغير ذلك لا يؤمن ولا يصدق - أن يتقدم هو أيضاً ويقترب منه، ويضع إصبعه في يديه وقدميه وجنبه كما أراد.

فإذا كان الجسد الذى دخل به المسيح يسوع إلى القاعة العليا وأبوابها مغلقة من الداخل، جسداً حقيقياً طبيعياً مادياً لا خيالياً، فكيف تتوفر هذه الإمكانية لجسد طبيعى إلا لأنه جسد المسيح، الذى باتحاد اللاهوت به صارت له قدرات وإمكانات لا تتوفر لجسد طبيعى آخر.

وكما أنه دخل القاعة العليا وأبوابها مُغلّقة، كذلك خرج من بطن العذراء عند ميلاده منها وأبواب البكارة مصونة ومغلقة (حزقيال ٤٤ : ٢) . وبالمثل خرج من القبر عند قيامته، والقبر مغلق بالحجر بإحكام، وبأختام.. وهذه جميعها بينات على سلطان لاهوته، المتحد بناسوته.

ومن الغريب أن توما بعد أن لمس بيديه أثر المسامير فى يدى المخلص وقدميه ووضع يده فى جنبه، يصرخ ويقول «ربى وإلهى». فكيف قادت هذه الرؤية والملامسة توما إلى إعتراف صريح بالربوبية والألوهية لم يسبق إليه من قبل.. إنه بينة على أن توما لمس بيده ناراً أحسها وهو يضع إصبعه فى أثر المسامير فى يدى المخلص وقدميه وفى جنبه. فلم يتمالك أن يصيح هـذه الصـيـحـة. ذلك لأنـه لمـس صـدق قـول الـوحى الإلـهى « إن إلهنا نار آكلة» (العبرانيين ١٢ : ٢٩) . (الخروج ٢٤ : ١٧) ، (التثنية ٤ : ٢٤) ، (٩ : ٣) ، (المزمور ٤٩ : ٣) ، (٩٦ : ٣) ، إشعياء ٦٦ : ١٥) .. إن توما لو لم يكن قد لمس بيده ناراً لكان يكفيه أن يقول إنه آمن بحقيقة قيامة السيد المسيح كما حدثه عنها زملاؤه التلاميذ.

٢٠ : ٣٠ ، ٣١

آيات أخرى كثيرة لم تكتب:

ولما كان الإنجيل للقديس يوحنا اللاهوتى قد كتبه بعد أن ذاعت بين الناس الأناجيل للقديسين متى ومرقس ولوقا، فقد تجنب تكرار بعض ما جاء فى تلك الأناجيل. ثم ختم بشارته قائلاً: «وقد صنع يسوع أمام تلاميذه آيات أخرى كثيرة لم تكتب فى هذا الكتاب. وأما هذه فقد كتبت لتؤمنوا بأن يسوع هو المسيح ابن اللـه، ولتكون لكم إن آمنتم الحياة الأبدية باسمه» (يوحنا ٢٠ : ٣٠و٣١) . والواقع أن القديس يوحنا اللاهوتى كتب بشارته وقد ناهز المائة من عمره ليوضح فيها حقيقة الطبيعة الإلهية لمخلصنا له المجد، تصحيحاً للأخطاء التى وقع فيها بعض الهراطقة وبعض الذين تناولوا بالدراسة هذا الموضوع متأثرين بآراء الفلاسفة الوثنيين ولا سيما اليونانيين منهم. فلم يذكر إلا الوقائع التى تبرز حقيقة المسيح اللاهوتية، وتبين من هو فى ذاته قبل أن يتخذ له جسداً يحجب به لاهوته. وذلك رداً على ما أثاره الهراطقة من آراء فلسفية

لا ترقى إلى مستوى البحث فى طبيعة الله، لأن هذا البحث يفوق المدارك البشرية المحدودة والمحددة بالقدرات التى وهبها الله للعقل البشرى ليتوام مع الإمكانيات التى أتاحتها الحياة للإنسان على الكرة الأرضية التى هى ليست إلا ذرة لا تولزى حبة الرمل بالنسبة للكيان الكلى للكون الأعظم الذى لا حدود له بما يتجاوز نطاق ذلك العقل البشرى بملايين الملايين من المرات والقدرات التى لا يمكن أن يصل إليها العقل البشرى مهما بلغ من الحجم والقدرة، أو يستوعبها الخيال البشرى مهما اتسع وارتفع إلى أعلى عليين من السماوات. ومن ثم فقد اكتفى القديس يوحنا فى بشارته ببيان الجوهر الإلهى لمخلصنا وما يدل عليه مافعل من أفعاله أو ماقال من أقواله، مستنداً فى ذلك إلى تفاصيل ما فعله وما قاله مما ذكره الإنجيليون الذين سبقوه، ومن ثم اكتفى الإنجيل للقديس يوحنا بأن قال «وقد صنع يسوع أمام تلاميذه آيات أخرى كثيرة لم تكتب فى هذا الكتاب. وأما هذه فقد كتبت لتؤمنوا بأن يسوع المسيح ابن الله، ولتكون لكم إن آمنتم الحياة الأبدية باسمه»، أى أن القديس يوحنا ما كتب هذا الإنجيل إلا ليبرهن به على لاهوت مخلصنا يسوع المسيح باعتباره ابن الله، وباعتباره الكائن مع الله الآب فى كينونة واحدة وجوهر واحد. وأن هذا هو جوهر الإيمان المسيحى، فكل الذين آمنوا به باعتباره كذلك ينالون الحياة الأبدية باسمه، أو بوصفهم مسيحيين مؤمنين صادقى الإيمان بمسيحيتهم وعميقى الاعتقاد بهذه الحقيقة الإلهية مهما تسامت على العقول البشرية القاصرة، القصيرة المدى، المحدودة المقدرة.

الفصل الحادي والعشرون

٢١ : ١ - ٢٥

حديثه للتلاميذ على بحر طبرية:

وبعد ذلك أظهر مخلصنا نفسه مرة أخرى لتلاميذه على بحر طبرية، الذى هو بحر الجليل، أو بحيرة جنيسارت، إذ كان سمعان بطرس وتوما المدعو ديديموس، ونثنائيل الذى من قانا الجليل، وابنا زبدي (وهما يعقوب ويوحنا)، واثنان آخران من تلاميذه مجتمعين معه. فقال لهم سمعان بطرس: «إننى ذاهب لأصطاد سمكاً». فقالوا له: «ونحن أيضاً نذهب معك». ثم خرجوا وركبوا السفينة، إلا أنهم لم يصيدوا فى تلك الليلة شيئاً حتى إذا طلع الصباح وقف مخلصنا على الشاطىء، ولكن التلاميذ لم يعلموا أنه هو يسوع. فقال لهم يسوع: «يا فتيان ألديكم شيء يؤكل؟» أجابوه: «لا». فقال لهم: «ألقوا الشبكة من الجانب الأيمن للسفينة فتجدوا». فألقوها، وعندئذ لم يستطيعوا أن يجذبوها إلى فوق من كثرة السمك. فقال التلميذ الذى كان يسوع يحبه (وهو يوحنا) لبطرس: «إنه الرب». فلما سمع سمعان بطرس أنه الرب اتزر بثوبه لأنه كان عرياناً. ثم ألقى بنفسه فى البحر. وأما التلاميذ الآخرون فجاءوا بالسفينة التى لم تكن تبعد عن الشاطىء إلا نحو مائتى ذراع، ثم أخذوا يجرون شبكة السمك. فلما جاءوا إلى الأرض تطلعوا فرأوا جمراً، وسمكاً موضوعاً عليه وخبزاً. وقال لهم يسوع: «قدموا من السمك الذى اصطدتم الآن»، فصعد سمعان بطرس وجر الشبكة إلى الأرض وهى مكتظة سمكاً كبيراً، مائة وثلاثاً وخمسين سمكة. ومع كثرة هذا العدد لم تتخرق الشبكة. فقال لهم يسوع: «هلموا تناولوا الطعام». ولم يجسر أحد من تلاميذه على أن يسأله: «من أنت؟» لأنهم عرفوا أنه هو الرب. ثم تقدم يسوع وأخذ الخبز وناولهم، وكذلك السمك. وكانت هذه هى المرة الثالثة التى أظهر يسوع فيها نفسه لتلاميذه مجتمعين بعد قيامته من بين الأموات. وبعد أن تناول الطعام، قال يسوع لسمعان بطرس: «يا سمعان بن يوحنا، أتحبنى أكثر من هؤلاء؟». فقال له: «نعم يارب أنت تعلم أننى أحبك». قال له: «إرع حملانى». ثم قال له ثانية: «ياسمعان بن يوحنا أتحبنى؟» فقال له «نعم يارب أنت تعلم أننى أحبك». قال له: «إرع خرافى». ثم قال له للمرة الثالثة: «ياسمعان بن يوحنا أتحبنى؟»، فحزن بطرس لأنه قال له للمرة الثالثة «أتحبنى؟»، وقال له «يارب أنت تعلم كل شيء: أنت تعلم أننى أحبك». فقال له يسوع: «إرع غنمى». وهكذا جعل السيد المسيح بطرس يعترف بإيمانه به وبحبه إياه ثلاث مرات. كى يصلح الخطأ الذى سبق أن ارتكبه. إذ أنكره وتبرأ من معرفته له ثلاث مرات. ولعله بذلك يذكره بخطيئته وإنكاره وهو الذى سبق أن قال لمعلمه «إن شك فيك

الجميع فلن أشك أنا أبداً» (متى ٢٦ : ٣٣) . وقد طلب إليه مخلصنا ـ ليبرهن له على أنه غفر له خطيئته . ووضع فيه من جديد ثقته ـ أن يرعى حملانه وخرافه وغنمه ، أى تلاميذه وسائر المؤمنين به ، لأنه كان من أكثرهم جرأة وأوفرهم غيرة وحماسة . وقد كان السيد المسيح يعلم أنه سيواصل التبشير به والشهادة له في كل أنحاء الأرض حتى يستشهد في سبيله ـ ومن ثم تنبأ له قائلاً : «الحق الحق أقول لك إنك حين كنت شاباً . كنت تمنطق نفسك بنفسك ، وتذهب إلى حيث تشاء . ولكنك متى شخت ستبسط يديك . وشخص آخر يمنطقك ويحملك إلى حيث لا تشاء» . قال له هذا مشيراً إلى الميتة التي كان مزمعاً أن يمجد الله بها . وفعلاً لقد مات القديس بطرس مصلوباً . بيد أنه طلب أن يصلبوه منكساً ، أى أن يكون رأسه إلى أسفل ورجلاه إلى أعلى . وبعد ذلك قال له يسوع : «اتبعنى» . فالتفت بطرس ورأى التلميذ الذى كان يسوع يحبه يتبعه . وهو ذلك الذى كان قد اتكأ على صدره أثناء العشاء ، والذى قال له : «يارب من هو الذى سيسلمك» . فلما رأى بطرس ذلك قال ليسوع : «يارب وماذا عن هذا؟» قال له يسوع : «لو أننى شئت أن أبقيه إلى أن أجيء فماذا يعنيك؟ اتبعنى أنت» . فذاع بين الإخوة القول بأن ذلك التلميذ لا يموت . غير أن يسوع لم يقل له إنه لا يموت . وإنما قال : «لو أننى شئت أن أبقيه إلى أن أجيء فماذا يعنيك؟» (يوحنا ٢١ : ١٨ ـ ٢٣) .

وقد جاء في الإنجيل للقديس متى قوله : «وأما التلاميذ الأحد عشر فذهبوا إلى الجبل الذى كان يسوع قد عينه لهم في الجليل . فلما رأوه سجدوا له .. فتقدم يسوع وكلمهم قائلاً : إنى قد أعطيت كل سلطان في السماء وعلى الأرض . فاذهبوا إذن وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس ، وعلموهم أن يحفظوا ما أوصيتكم به . وهاأنذا معكم كل الأيام إلى إنقضاء الدهور» (متى ٢٨ : ١٦ ـ ٢٠) .

وبعد أن ظهر السيد المسيح لتلاميذه بعد قيامته مراراً على هذا النحو «ظهر دفعة واحدة لأكثر من خمسمائة أخ» . وقد قال بولس الرسول حين كتب رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس بعد قيامة السيد المسيح بنحو ثلاثين عاماً أن «أكثرهم باق إلى الآن . ولكن بعضهم قد رقدوا» (١ . كورنثوس ١٥ : ٦) .

وقد كانت قيامة السيد المسيح بعد موته سراً من الأسرار الإلهية المتعلقة بطبيعة السيد المسيح التى اتحد فيها الإله بالإنسان إتحاداً تاماً كاملاً . فالسيد المسيح بقيامته بعد موته قد أعطى البشر أول برهان واقعى رأوه بأعينهم على قيامة الأموات في اليوم الأخير ، إذ كانت قيامته كما يقول بولس الرسول «أول قيامة الأموات» (الأعمال ٢٦ : ٢٣) . ثم يقول إن الله قد أقام الرب وسيقيمنا

نحن أيضاً بقوته (١ . كورنثوس ٦ : ١٤) . ويقول «فإن لم تكن قيامة أموات، فلا يكون المسيح قد قام، وإن لم يكن المسيح قد قام فباطلة كرازتنا، ونوجد نحن أيضاً شهود زور لله . لأننا شهدنا من جهة الله أنه أقام المسيح وهو لم يقمه، إن كان الموتى لا يقومون .. ولكن الآن قد قام المسيح من بين الأموات، وصار باكورة الراقدين .. فإنه إذ الموت بإنسان، فبإنسان أيضاً قيامة الأموات. لأنه كما في آدم يموت الجميع. هكذا في المسيح سيحيا الجميع .. إن كان الموتى لا يقومون فلنأكل ونشرب لأننا غداً نموت» (١ . كورنثوس ١٥ : ١٣ - ٣٢) . ثم يشرح بولس الرسول ماهية القيامة ويبوح ببعض أسرارها. فيقول «كيف يقام الأموات وبأي جسم يأتون؟ .. الذي تزرعه لا يحيا إن لم يمت. والذي تزرعه لست تزرع الجسم الذي سيصير، بل حبة مجردة، ربما من حنطة أو سواها من الحبوب، ولكن الله يعطيها جسماً كما يشاء ... هكذا أيضاً قيامة الأموات .. يزرع في فساد، ويقام في غير فساد. يزرع في هوان، ويقام في مجد. يزرع في ضعف ويقام في قوة. يزرع جسماً حيوانياً ويقام جسماً روحانياً. يوجد جسم حيواني. ويوجد جسم روحاني. هكذا مكتوب أيضاً صار آدم الأول نفساً حية، وآدم الأخير (وهو السيد المسيح) روحاً محيياً. لكن ليس الروحاني أولاً، بل الحيواني، وبعد ذلك الروحاني. الإنسان الأول من الأرض ترابي. الإنسان الثاني الرب من السماء. كما هو الترابي، هكذا الترابيون أيضاً. وكما هو السماوي، هكذا السماويون أيضاً. وكما لبسنا صورة الترابي، سنلبس أيضاً صورة السماوي .. إن لحماً ودماً لا يقدران أن يرثا ملكوت الله، ولا يرث الفساد عدم الفساد .. هوذا سر أقوله لكم: لا نرقد كلنا، ولكننا كلنا نتغير، في لحظة، في طرفة عين، عند البوق الأخير. لأنه سيبوق في البوق، فيقام الأموات عديمي فساد، ونحن (الأحياء) نتغير، لأن هذا الفاسد لابد أن يلبس عدم فساد. وهذا المائت يلبس عدم موت» (١ . كورنثوس ١٥ : ٣٥ - ٥٣) .

وفي يوم الخميس. بعد أربعين يوماً من قيامة السيد المسيح، أخذ تلاميذه إلى بيت عنيا على جبل الزيتون بالقرب من أورشليم (لوقا ٢٤ : ٥٠) ، (الأعمال ١ : ١٢) . و «بعد أن أصدر أوامره بالروح القدس إلى الرسل الذين اختارهم، والذين أيضاً بعد أن تألم أراهم نفسه حياً ببراهين كثيرة واضحة، وقد ظل أربعين يوماً يظهر لهم ويكلمهم عن ملكوت الله. وفيما هو يأكل معهم أوصاهم بألا يبرحوا أورشليم قائلاً: انتظروا موعد الآب الذي سبق أن سمعتموه مني. فإن يوحنا عمد بالماء. وأما أنتم فستعمدون بروح القدس، بعد أيام غير كثيرة. فسأله الذين كانوا مجتمعين معه قائلين: يارب أفي هذا الزمن ترد المملكة إلى إسرائيل؟ فقال لهم: ليس لكم أن تعرفوا الأزمنة أو الأوقات التي جعلها الآب في ذات سلطانه. لكنكم ستنالون قوة متى حل الروح القدس عليكم. فتكونون لي شهوداً في أورشليم وفي كل اليهودية والسامرة وإلى أقصى الأرض،

(الأعمال ١: ٢ - ٨) . «ثم رفع يديه وباركهم. وفيما هو يباركهم افترق عنهم وصعد إلى السماء» (لوقا ٢٤: ٥٠و٥١) . «وأخذته سحابة عن أعينهم. وفيما كانوا شاخصين نحو السماء وهو منطلق، إذا برجلين بملابس بيضاء قد ظهرا لهم. وقالا لهم: أيها الرجال الجليليون، مابالكم واقفين تتطلعون إلى السماء؟ إن يسوع هذا الذى ارتفع عنكم إلى السماء سيجىء ثانية هكذا كما رأيتموه وهو منطلق إلى السماء» (الأعمال ١: ٩ - ١١) . وقد «جلس عن يمين الله» (مرقس ١٦: ١٩) . «فسجدوا له، ورجعوا إلى أورشليم بفرح عظيم» (لوقا ٢٤: ٥٢) .

وهكذا جاء السيد المسيح إلى الأرض مجىء إله، إذ حُبل به من روح القدس (متى ١: ٢٠) . وكانت الملائكة عند ميلاده تترنم بتسبيحه (لوقا ٢: ١٤) . وصعد إلى السماء صعود إله، إذ حملته سحابة من نور، وكانت الملائكة عند صعوده تهتف بمجده (الأعمال ١: ٩ -١١) . بيد أنه وإن نزل من السماء ثم صعد إلى السماء، كان دائماً فى السماء. وفقا لقوله «ما من أحد صعد إلى السماء، إلا ذلك الذى نزل من السماء، ابن الإنسان الذى هو فى السماء» (يوحنا ٣: ١٣) . وذلك لأنه وإن كان بناسوته نزل وصعد، فإنه بلاهوته كان دائماً وسيظل إلى الأبد مالىء الأرض والسماء، وملك الأرض والسماء. «ولن يكون لملكه إنقضاء» (لوقا ١: ٣٣) . ولسوف يأتى فى مجيئه الثانى بمجد وجلال، ليدين الأحياء والأموات، وفقاً لقوله «هاأنذا آت سريعاً، ومعى الجزاء الذى أجزى به كل واحد بعمله. أنا الألف والياء، البداءة والنهاية. الأول والآخر. أنا أصل داود ونسله. أنا كوكب الصبح المنير والروح والعروس يقولان: تعال.. من سمع فليقل تعال.. نعم، أنا آت سريعاً. آمين . تعال أيها الرب يسوع» (الرؤيا ٢٢: ١٢ ـ ٢٠) .

والكلمة اتخذ جسداً

سؤال: قال معلمنا يوحنا (يو ١ : ١٤): والكلمة صار جسداً. فكيف تجوز الصيرورة على كلمة الله الموجودة منذ الأزل وإلى الأبد لا تتغير، إذ لا يتحول ولا يصير إلا المخلوق. فما قصد الرسول؟

الجواب:

إن الله لا يتحول ولا يتبدل ولا يتغير، على ما تقول. ولكن الصيرورة هنا يجب أن تحمل على معنى ظاهري لا حقيقي. لأن الكلمة هو الله ظاهراً في الجسد. ولا شك أن هنا تحول ولكن لا في الجوهر بل في المظهر. وعلى ذلك فقوله «صار جسداً» معناه «اتخذ جسداً» والكلمة القبطية تفيد هذا المعنى ⲁϥⲉⲣ ⲟⲩⲥⲁⲣⲝ (١) لأن المقابل الحرفي لها «عمل جسداً» أو «تجسد». وربما كانت الترجمة القبطية كما ترى أدق في الدلالة على المعنى بصورة سليمة تنأى بالقارىء عن اللبس والإبهام.

ولا مراء في أن الكلمة الإلهي لم يتخذ جسداً فقط. ولكنه اتخذ نفساً ناطقة متحدة بهذا الجسد. ولكن الرسول يوحنا أراد أن يتحدث عن مظهر التجسد البارز والذي يتمثل في الجسد. ولعل السبب في ذلك. على ما نعلم، أن الرسول كتب إنجيله يرد به على بدع وتعاليم ضالة روج لها قوم مفسدون ضد التعليم الأرثوذكسي المستقيم، ومنها أن جسد المسيح لم يكن إلا خيالاً وظهوراً فقط. ولما كانت مثل هذه البدعة خبيثة هدامة، تلغي عمل الفداء الذي قام به المخلص في جسده الذي سمر بالصليب، وتفوّت على البشر حكمة الله في التجسد، فقد عبر الرسول عن ظهور الكلمة بعبارة يؤكد فيها حقيقة الجسد الذي اتخذه المسيح واتحد به فصار مع لاهوته طبيعة واحدة.

على أن هذه «الصيرورة الظاهرية» لا تفيد إندماج اللاهوت في الناسوت أو إختلاطه به على مايذهب أوطاخي، بدليل قوله بعد ذلك مباشرة «وحل بيننا ورأينا مجده» وإنما هي عبارة قوية الدلالة على مبلغ الاتحاد التام بين اللاهوت والناسوت بحيث «أصبحا» طبيعة واحدة بغير إمتزاج ولا تداخل ولا إختلاط ودون إنفصال أو افتراق أو انقسام.

ولعل هذه الآية وحدها كافية للبرهنة على خطأ ما يذهب إليه إخوتنا الكاثوليك من القول بالفصل بين الطبيعتين في المسيح. وصحة ما يصر على القول به آباء الكنيسة القبطية الأرثوذكسية: «طبيعة واحدة للكلمة المتجسد».

---

(١) راجع ترجمة الكلية الإكليريكية للبشائر الأربع.

قد تم (١)

العزيز الابن ميخائيل مينا مطر.

٢٤ شارع الشوربجى بكفرة أبو النجا. بطنطا.

سلام ونعمة وبركة من ربنا يسوع المسيح.

رداً على سؤالكم بخصوص ما جاء في النص القبطي لقول إنجيل القديس يوحنا ١٩ : ٣٠ «فلما ذاق يسوع الخل قال: Ⲁϥϫⲱⲕ ⲉⲃⲟⲗ وكنت أنت تتوقع أن يستعمل النص القبطي Ⲁⲓϫⲱⲕ ⲉⲃⲟⲗ ليتمشى مع الترجمة العربية «قد أُكمِلَ» وهو ما دعاك أن تتوقع أن تكون الإشارة بضمير الغائب المفرد إلى الآب السماوي.

أقول أن النص القبطي Ⲁϥϫⲱⲕ ⲉⲃⲟⲗ صحيح وترجمته «قد تمَّ» أي قد تم المكتوب على وتم الفداء. والضمير هنا مستتر، ويعود على «المكتوب» أو على «الفداء».

وكذلك النص اليوناني يوافق القبطي Τετελεσται مستخدماً الضمير الغائب المفرد بما يقابل بالإنجليزية "It is finished" وبالفرنسية Tout est accompli .

ونعمة الرب تشملكم.

موت غير جسدي

سؤال: من الأخ ابراهيم حبيب.

قال السيد المسيح له المجد ـ في الأصحاح الثامن عدد ٥١ من إنجيل معلمنا يوحنا البشير: الحق الحق أقول لكم إن كان أحد يحفظ كلامي، فلن يرى الموت إلى الأبد ـ فماذا كان يقصد السيد المسيح له المجد بهذا الكلام ـ أهو الموت الجسدي أم الموت الروحي.

الجواب:

١ ـ بالطبع لا يقصد الموت الجسدي، لأن رب المجد نفسه قد ذاق الموت، وجميع الآباء الرسل، وسائر القديسين ماتوا.

ثم لأن السيد المسيح عاد فكرر هذه العبارة مرة أخرى بل مرات، وكان يردفها بالإيضاح الكافي: «كل من يرى الابن، ويؤمن به، تكون له حياة أبدية، وأنا أقيمه في اليوم الأخير» (يو ٦: ٤٠) وكلمة القيامة تقتضي الموت أولا وقال أيضاً «أنا هو القيامة والحياة، من يؤمن بي، ولو مات، فهو يحيا. وكل من هو حي مؤمن بي فلن يموت إلى الأبد» (يو ١١: ٢٦) (١).

٢ ـ وعدم رؤية الموت الموعود بها هنا، معناها أولا ـ العتق من شر الخطيئة، والاستمتاع بالولادة الجديدة من الله، والنمو في النعمة، وأثمار الفضيلة والقداسة في الحياة الحاضرة.

يقول الرسول «أما البار فبالإيمان يحيا» (رو ١: ١٧) ويقول السيد المسيح «وأما من يشرب من الماء الذي أعطيه أنا له، فلن يعطش إلى الأبد. بل الماء الذي أعطيه له يكون فيه ينبوع ماء يفيض حياة أبدية» (يو ٤: ١٤) «من يعطش فليقبل إلى ليشرب. من يؤمن بي كما قال الكتاب تجري من بطنه أنهار ماء الحياة» (يو ٧: ٣٧، ٣٨)، ويقول الرسول يوحنا في رسالته «لا تتعجبوا يا إخوتي إن كان العالم يبغضكم، نحن نعلم أننا قد إنتقلنا من الموت إلى الحياة لأننا نحب الأخوة. من لا يحب أخاه، يبق في الموت» (١ . يو ٣: ١٣، ١٤).

وثانياً ـ بمعنى الخلاص من سلطان الجحيم، والنجاة من الهلاك الأبدي: «لأنه هكذا أحب الله العالم حتى بذل إبنه الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به، بل ينال الحياة الأبدية ... من آمن به فلا يدان، ومن لا يؤمن به فقد دين (يو ٣: ١٦ ـ١٨)، «الحق الحق أقول لكم: إن من يسمع كلامي، ويؤمن بالذي أرسلني، فله حياة أبدية، ولا يأتي إلى الدينونة، بل ينتقل من الموت إلى الحياة» (يو ٥: ٢٤) (راجع أيضاً (يو ٣: ٣٦)، (يو ٦: ٢٧، ٤٧، ٥٤)، (١ . يو ٥: ١٢، ١٣).

---

(١) «البشائر الأربع» ترجمة الكلية الإكليريكية.

المسيح الراعي الحقيقي(١)
الذي يبذل نفسه عن الخراف الناطقة

سؤال :

من الابن الدكتور عوض الله يوسف عوض الله رئيس قسم جراحة الأنف والأذن والحنجرة ـ مستشفى بنها التعليمي.

يقول: إلى من يشير الرب يسوع المسيح بقوله جميع الذين أتوا قبلي هم لصوص وسراق، ولكن الخراف لم تسمع لهم. أنا هو باب الخراف فإن دخل بي أحد يخلص، ويدخل ويخرج ويجد مرعى). (يوحنا ١٠: ٨، ٩) ؟.

الجواب :

يبدو أن المسيح له المجد يشير في هذا النطق إلى **جميع الذين أتوا قبله ممن قاوموه زاعمين كذباً أنهم مسحاء أو أنبياء أو فقهاء أو معلمون من دونه**، من أمثال يهوذا الجليلي وثيوداس Thewdas وغيرهما ممن زعموا أنهم مسحاء فلم يكونوا رعاة حقيقيين يهدفون إلى خير البشر أو خلاصهم. وإنما هم لصوص وسراق.

نفهم هذا على ضوء ماسبق أن قرره المسيح له المجد في مواجهة رؤساء كهنة اليهود والكتبة والفريسيين الذين كانوا يعارضونه ويقاومونه ويحرضون الشعب اليهودي على رفض تعاليمه المحيية، وبذلك يفسدون أذهان البسطاء، فيتحولون عن طريق الخلاص الذي نزل المسيح من السماء ليحققه للبشرية بتعليمه وقدوته وبعمل الفداء، بصفته الراعي الصالح الذي جاء ليبذل ذاته عن الخراف، وفي الآن نفسه هو بذاته باب الخراف (إن دخل به أحد يخلص، ويدخل ويخرج ويجد مرعى) (يوحنا ١٠: ٩).

قال له المجد لأولئك الرؤساء من كهنة اليهود وكتبتهم وهم علماء الشريعة، والفريسيين المعتزلة المدعين كذباً أنهم رعاة الشعب وقادتهم ومعلموهم (إنكم أنتم من أب هو إبليس، وشهوات أبيكم تبتغون أن تتمموا، ذلك الذي كان منذ البدء قتالاً للناس، ولم يثبت على الحق قط، لأنه ليس فيه من الحق شيء. متى تكلم بالكذب فإنما يتكلم مما عنده، لأنه كذاب وأبو الكذب. وأما أنا فلأني أقول لكم الحق لا تؤمنون بي) (يوحنا ٨: ٤٤، ٤٥).

---

(١) كتب في ٢٤ من يناير ١٩٩٢م ـ ١٥ من طوبه ١٧٠٨ ش.

أولئك الرعاة هم سراق ولصوص، يهدفون إلى المجد الدنيوى لأنفسهم (ويل لرعاة إسرائيل الذين كانوا يرعون أنفسهم. ألا يرعى الرعاة الغنم؟ إنكم تأكلون الشحم وتلبسون الصوف وتذبحون السمين ولا ترعون الغنم. المريض لم تقووه والمجروح لم تعصبوه والمكسور لم تجبروه والمطرود لم تستردوه، والضال لم تطلبوه، وإنما تسلطتم عليها بقسوة وقهر، فتشتتت بلا راع وصارت مأكلا لجميع وحوش الحقل وتشتتت. ضلت غنمي في كل الجبال وعلى كل تل عالٍ، وعلى كل وجه الأرض، وتشتتت غنمي ولم يكن من يسأل أو يفتش. فلذلك أيها الرعاة اسمعوا كلمة الرب: حيٌّ أنا يقول السيد الرب من حيث أن غنمي صارت غنيمة، وصارت غنمي مأكلا لكل وحش الصحراء ، إذ لم يكن راع، ولاسأل رعاتي عن غنمي، بل رعى الرعاة أنفسهم ولم يرعوا غنمي فلذلك أيها الرعاة اسمعوا كلام الرب. هكذا قال السيد الرب: هأءنذا على الرعاة، وأطلب غنمي من يدهم وأكفُّهم عن رعى الغنم، فلا يرعى الرعاة أنفسهم من بعد، وأنقذ غنمي من أفواههم، فلا تكون لهم مأكلا) (نبوءة حزقيال ٣٤: ٢ – ١٠) (ويل للرعاة الذين يهلكون ويبددون غنم رعيتي، يقول الرب. لذلك هكذا قال الرب إله إسرائيل عن الرعاة الذين يرعون شعبي. إنكم قد شتتم غنمي وطردتموها ولم تفتقدوها. فهأمنذا أعاقبكم على شرِّ أعمالكم يقول الربُّ وأنا أجمع غنمي من جميع الأراضي...... وأردُّها إلى مراتعها فتثمر وتكثر، وأقيم عليها رعاةً يرعونها) (إرميا ٢٣: ١ –٤).

ويقول المسيح له المجد (إن السارق لا يأتى إلا ليسرق ويذبح ويهلك. أما أنا فأتيت لتكون لهم حياة، وليكون لهم أفضل. أنا هو الراعي الصالح، والراعى الصالح يبذل نفسه عن الخراف، وأما الذى هو أجير وليس راعياً، ذلك الذى ليست الخراف له، فيرى الذئب فيهرب ويترك الخراف، فيخطفها الذئب ويبددها،-لأنه أجير فهو لا يبالى بالخراف. أنا هو الراعى الصالح وأعرف الخراف التى هى لى، وخرافى التى هى لى تعرفنى... وسأبذل نفسى عن خرافى) (يوحنا ١٠: ١٠ – ١٥).

على أن رؤساء كهنة اليهود والكتبة علماء الناموس والفريسيين وقيادات اليهود قد أغلق الحقد آذانهم فلم يسمعوا لصوت الراعى الصالح الحقيقى، وأعمى الحسد أعينهم فلم يبصروا مجده، ولو كانوا من رعيته حقاً لسمعوا صوته ورأوا مجده ولم ينكروه أو يتنكروا له، ولم يحاربوه أو يناصبوه العداء، وعندئذ كان يمكنهم أن يدركوا شخصيته ويؤمنوا بأنه المسيح الله ابن الله الذى ينتظرونه كما أنبأ عنه أنبياؤهم الصالحون القديسون الملهمون بالروح القدس.

٢ - فهرس الموضوعات

صفحة

مقدمة ٧
الإهداء ٩
إنجيل ربنا يسوع المسيح للقديس يوحنا ١١
أ - القديس يوحنا الرسول الإنجيلى ١٢
يوحنا الحبيب ١٢
يوحنا البتول ١٥
يوحنا اللاهوتى ١٦
يوحنا الرائى ١٦
نسبة ودعوته الرسولية ١٧
أهم ماذكر عنه فى أثناء تلمذته وبعد القيامة ١٩
كرازته وتبشيره وخدمته باسم المسيح ٢٣
نفى الرسول يوحنا واستشهاده ٢٣
القديس يوحنا يدعو إلى الرياضة الجسدية ٢٥
ب - الإنجيل للقديس يوحنا ٢٥
الفصل الأول ٤٢
الكلمة هو الله ٤٢
مجىء يوحنا المعمدان ٤٨
طبيعة السيد المسيح ٥٧
شهادة يوحنا المعمدان عن السيد المسيح ٦٥
المسيح مصدر النعمة ومنبع الحق ٦٦
المسيح هو ذات الله ٧٠
رسل اليهود يتحققوا من شخصية يوحنا المعمدان ٧٢
شهادة المعمدان أن المسيح هو ابن الله ٧٧
إيمان أندراوس وأخيه بطرس بالسيد المسيح ٨١
إيمان فيلبس ونثنائيل بالسيد المسيح ٨٣
الفصل الثانى ٨٨
معجزة تحويل الماء إلى خمر ٨٨
المسيح يطهر الهيكل من باعة الماشية والصيارفة ٩٤
إيمان كثيرين من اليهود حين رأوا المعجزات ٩٩

الفصل الثالث ١٠٠
حديث نيقوديموس مع السيد المسيح ١٠٠
المعمدان يشهد للسيد المسيح مرة أخرى ١٠٧
الفصل الرابع ١١٢
حديث السيد المسيح مع المرأة السامرية ١١٢
كثيرون من السامريين يؤمنون بالسيد المسيح ١٢٢
معجزة شفاء ابن أحد رجال الحاشية الملكية ١٢٣
الفصل الخامس ١٢٥
شفاء مريض بركة بيت حسدا ١٢٥
تبرير المسيح نفسه بشهادة الآب له ١٢٨
تبرير المسيح نفسه بشهادة أعماله ويوحنا المعمدان والكتب المقدسة ١٣٨
الفصل السادس ١٤٥
إشباع الخمسة آلاف بخمسة خبزات وسمكتين ١٤٥
اليهود يحاولون اختطاف السيد المسيح ليجعلوه ملكاً ١٤٧
السيد المسيح يمشى على ماء البحر ١٤٨
توبيخه الذين تبعوه لأجل الخبز ١٥٠
السيد المسيح يعلن أنه هو خبز الحياة ١٥١
تذمر اليهود لأنه قال «أنا هو الخبز الذى نزل من السماء» ١٥٦
رجوع كثيرين من تلاميذ المسيح لعدم فهمهم طبيعته ١٥٩
الفصل السابع ١٦٣
عدم صعوده إلى أورشليم علانية فى عيد المظال لأن الوقت لم يأت بعد ١٦٣
تعليمه فى الهيكل وإرسال الفريسيين خداماً ليمسكوه ١٦٥
حدث إنشقاق فى الجمع بسببه ١٧٠
رجوع المرسلين ومحاجة نيقوديموس الفريسيين ١٧٢
الفصل الثامن ١٧٦
الفريسيون يقدمون إليه المرأة الزانية ١٧٦
المسيح نور العالم ١٧٨
المسيح يواصل التعليم فى الهيكل ١٨٢
إدعاء اليهود أنهم أحرار وجواب المسيح ١٨٦

يزعمون أنهم أبناء إبراهيم ويعملون عمل الشيطان ١٨٨
إتهامهم المسيح أن به شيطان ١٩٢
تذمر اليهود من كلام المسيح ومحاولة رجمه ١٩٤
الفصل التاسع ١٩٨
شفاء الأعمى منذ ولادته ١٩٨
شهادة الأعمى عن شفاء المسيح له ٢٠٦
استجواب الفريسيين للأعمى ولأبويه ٢٠٧
إيمان الأعمى بألوهية المسيح ٢١٠
الفصل العاشر ٢١٣
المسيح هو راعي الخراف وهي تعرف صوته ٢١٣
المسيح هو الراعي الصالح الذى يبذل نفسه عن الخراف ٢١٤
حدوث إنشقاق بين اليهود بسبب كلام المسيح ٢١٨
سؤالهم له هل هو المسيح؟ وجوابه عليهم ٢١٨
طلب اليهود أن يمسكوه ومحاولة رجمة ٢٢١
الفصل الحادى عشر ٢٢٦
مرض لعازر وموته ٢٢٦
مجيء المسيح إلى بيت عنيا وحديثه مع مرثا ٢٢٩
إقامة لعازر من الموت ٢٣١
نبوءة قيافا وتشاور رؤساء الكهنة على قتل المسيح ٢٣٥
ترصد اليهود ليمسكوه فى عيد الفصح ٢٣٧
الفصل الثانى عشر ٢٣٨
مريم أخت لعازر تدهن بالطيب قدمي المسيح ٢٣٨
دخول المسيح أورشليم راكبا علي جحش ٢٤٠
إنباء المسيح عن موته، وعدم إيمان كثيرين ٢٤٣
ذكر بعض تعاليم السيد المسيح ٢٥٧
الفصل الثالث عشر ٢٥٩
ما حدث فى عيد الفصح ٢٥٩
المسيح يغسل أرجل تلاميذه ٢٦١
خاطبهم أن يتمثلوا به ٢٦٣
السيد المسيح تنبأ بخيانة يهوذا ٢٦٦

خروج يهوذا لتتميم المؤامرة ٢٦٩
وصية السيد المسيح للتلاميذ بالمحبة ٢٧١
تنبأ السيد المسيح بإنكار بطرس ٢٧٢
الفصل الرابع عشر ٢٧٥
تعزية المسيح للتلاميذ عن مفارقته لهم ٢٧٥
المسيح هو الطريق والحق والحياة ٢٧٧
أنا فى الآب والآب فىّ ٢٧٩
الإيمان يصنع أعظم الأعمال ٢٨٤
محبة الله فى حفظ وصاياه ٢٨٧
وعد المسيح بإرسال الروح القدس ٢٨٨
التأكيد على المحبة فهى أساس حفظ الوصايا ٢٩٣
وعد المسيح للتلاميذ بمنحهم السلام السمائى ٢٩٥
معنى «لأن أبى أعظم منى» ٢٩٦
رئيس هذا العالم يأتى ولا يملك شيئاً فىّ ٢٩٧
الفصل الخامس عشر ٣٠٠
أنا الكرمة وأنتم الأغصان ٣٠٠
المحبة هى جوهر الديانة المسيحية ٣٠٣
سبب بغضة العالم للتلاميذ ٣٠٥
الفصل السادس عشر ٣٠٨
إنباء التلاميذ بما يتحملون من ضيقات وآلام ٣٠٨
عمل الروح القدس ٣١٠
إنبائهم بقيامته وصعوده ٣١١
التأكيد على إجابة طلباتهم باسمه ٣١٣
إنبائهم بصلبه وتركهم إياه وحده ٣١٤
الفصل السابع عشر ٣١٦
طلب الابن من الآب أن يمجده ٣١٦
طلب المسيح من أجل الرسل ٣١٧
طلب المسيح من أجل المؤمنين ٣٢٠
يطلب من أجل الجميع أن يكونوا معه فى السماء ٣٢١

الفصل الثامن عشر ٣٢٢
تسليم يهوذا لسيده ٣٢٢
بطرس يقطع أذن عبد رئيس الكهنة ٣٢٤
القبض على السيد المسيح ٣٢٥
إنكار بطرس أمام جارية ٣٢٦
المحاكمة أمام حنان رئيس الكهنة ٣٢٦
إنكار بطرس للمرة الثالثة وصياح الديك ٣٢٧
محاكمات السيد المسيح ٣٢٨
براءة المسيح أمام بيلاطس وهيرودس ٣٣٥
الفصل التاسع عشر ٣٣٨
جلد السيد المسيح ومحاولة إطلاقه ٣٣٨
صلب السيد المسيح ٣٤١
يسوع الناصري ملك اليهود ٣٤٦
«إقتسموا ثيابي ... وعلى قميصي اقترعوا» ٣٤٧
آلام الصليب وتسليم العذراء ليوحنا ٣٤٧
موت المسيح وطعنه بالحربة ٣٥٣
تكفين السيد المسيح ودفنه ٣٥٩
الفصل العشرون ٣٦٢
قيامة المسيح وظهوره للتلاميذ ٣٦٢
ظهور المسيح للتلاميذ مجتمعين ٣٦٧
ظهوره للتلاميذ وتوما معهم ٣٦٩
آيات أخرى كثيرة لم تكتب ٣٧٠
الفصل الحادي والعشرون ٣٧٢
حديثه للتلاميذ على بحر طبرية ٣٧٢
والكلمة إتخذ جسداً ٣٧٦
قد تم ٣٧٧
موت غير جسدي ٣٧٨
المسيح الراعي الحقيقي ٣٧٩
الفهارس النصوص المقتبسة من الكتاب المقدس ٣٨١
فهرس الموضوعات ٣٩٦